مِرآة الحقائق

فى تفسير بعض الآيات والأحاديث والواردات واللطائف

تصنيف العلامة

سيدي إسماعيل حقّي البرسوي

المتوفى ١١٣٧ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدى

الجزء الأول

حقي، إسماعيل حقي.....عبد الله المناستري ، 1912
مرآة الحقائق في تفسير بعض الآيات و الأحاديث
و الواردات و اللطائف2/1
تصنيف: إسماعيل حقي البر سوي
تحقيق:احمد فريد المزيدي
ط1 – القاهرة : دار الآفاق العربية 2009
884ص ، 24 سم
تدمك : 7 – 218 – 344 – 977
1- التصوف الإسلامي 2- القرآن-تفسير
3 الحديث-تفسير
أ- المزيدي ، فريد (محقق)
ب- العنوان
ديوى : 415.1
رقم الإيداع : 2008/13753

الطبعة الأولى
1430هـ – 2009

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

دار الآفـــاق العربيـــة
نشر – توزيع – طباعة
55ش محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر– القاهرة
تليفون : 22617339 تليفاكس : 22610164
EMIL: Daralafk@yahoo . com
Selimafak@live.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أوضح الطريق لسلوك عباده إليه، وفتح باب دعوته لدخول أوليائه عليه، واختصهم لحضرته؛ فمن مجالس ومؤانس وقائم بين يديه، كل ذلك ضربا للأمثال ليفهموا، ولا يصل الفهم ولا العقل إليه، تعرف لهم، فبه عرفوه، ووصف لهم ذاته العلية فبالوصف الذي وصفها لهم به وصفوه، وطهر قلوبهم من الأغيار، فما أنسوا بغيره ولا ألفوه، وخرق أسماع قلوبهم خطابه فأسكرهم بلذيذ ذلك الخطاب، وتجلت لهم صفات جماله فذهلت منهم العقول وطاشت منهم الألباب، وأسطلهم الدَّهش، فحاروا وعجزوا عن رد الجواب، فلولا ثبتهم في ذلك المقام وردهم بعد الصحو والاصطلام، فلاطفهم بلطائف ذلك الكلام لصار بناؤهم إلى الانهدام واندرست تلك الرسوم والأعلام، ولسارع على وجودهم الاضمحلال والانعدام.

وبعد ...

فهذا كتاب مرآة الحقائق لسيدي إسماعيل حقي -قدس الله سره- من أعظم مصنفاته بعد التفسير «روح البيان» حيث جمع فيه كاتبه من واردات الشيخ في القرآن والحديث، والخواطر والأحوال، ما عظم أمره، وجلّ قوله.

فكان الشيخ المصنف تابعًا متحققًا بمدرسة الشيخ الأكبر -قدس الله سره- فانطبع ذلك عليه في كتبه، فخرجت يفيح منها المسك الأذفر، ويبدو عليها خاتم الختم والكبريت الأحمر، فكانت نقية صافية لما قبلها صاحب السر الأطهر.

وهذا الكتاب أصوله من محفوظات -دار الكتب المصرية- ويعتبر من نوادر المخطوطات، كانت أوراقه متناثرة، ومبعثرة، وبها الكثير قرابة الربع من الخط التركي وبعض الفارسي، فضلاً عن تداخل الواردات، من قرآن وحديث، فلم تكن مرتبة، ولا منسقة كما يظهر إليك هكذا، وكذلك دقة الخط وغرابة طريقة كتابته، ووجود بعض الألفاظ التركية والفارسية، التي آثرنا عدم إيرادها ليبدو النص عربيًّا، فضلاً عن عدم وضوحها في الأصل كثيرًا.

فقمتُ بالجمع والترتيب للمخطوط كما أمرني بذلك شيخي –قدس سره– وذلك قبل انتقاله بعامٍ ونصف تقريبًا، حيث ترتيب الواردات والإشارات القرآنية على ترتيب المصحف، وبعدها الأحاديث، ثم الواردات.

فبالجملة تم إعادة صياغة وترتيب الكتاب وغير ذلك من أمورٍ تسهم في إفادة النص ومضمونه، وضبطه وتصحيحه قدر المستطاع.

وكذلك إضافة الفصل الأخير من مخطوط كتاب «تمام الفيض» للمصنف، وهو في ذكر بعض الكلمات الواقعة بين المصنف وشيخه سيدي عثمان الفضلي – قدس سره– شيخ السادة الجلوتية–قدست أسرارهم ونفعنا من بركاتهم– وذلك لتعم الفائدة، ويحصل النفع إن شاء الله تعالى.

ثم قمت بالتعليق على بعض إشارات المصنف على بعض الآيات المفسرة، وكذلك على الأحاديث بعد تخريجها، وكذا التعليق على بعض الواردات وشرحها.

توثيق الكتاب:

-أصل الكتاب مخطوطًا بدار الكتب المصرية (متناثر الأوراق).

- ذكره البغدادي في هدية العارفين (١٨/١).

- الإشارات والتصريحات الكثيرة من المصنف بذكر اسمه وكتبه وشيخه وغير ذلك.

وآخرًا نسأل الله حسن هدايته وتوفيقه، وأن يرزقنا الصدق والإخلاص في عبوديته، ومحبة النبي ﷺ وآله وصحابته وأتباعه الصالحين .. آمين.

كتبه

أبو الحسن والحسين

أحمد فريد المزيدي الشافعي المصطفوي

جوال: ٠١٠١٤٦٣٠٢٧

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة الشيخ المصنف

هو الشيخ العلامة الإمام الكبير إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الجلوتي، المولى أبو الفداء، متصوف مفسر، تركي مستعرب.

ولد في آيدوس Aidos سنة ١٠٦٣ هـ، وسكن القسطنطينية، وانتقل إلى بروسة، وكان من أتباع الطريقة (الجلوتية) فنفي إلى تكفور طاغ، وأوذي وامتحن، وعاد إلى بروسة، فمات فيها سنة ١١٣٧ هـ -قدس الله سره العزيز.

من مصنفاته:

- روح البيان في تفسير القرآن (مطبوع عدة طبعات).
- تمام الفيض (مخطوط يسر الله لنا تحقيقه).
- الرسالة الخليلية في التصوف.
- تسهيل طريق الأصول لتيسير الوصول في التصوف.
- كتاب التوحيد.
- كتاب النجاة.
- شجرة اليقين في التصوف تركي.
- الفروقات.
- مرآة الحقائق (كتابنا هذا).
- روح الكلام في شرح صلوات المشيشي عبد السلام.
- فرح الروح في شرح المحمدية ليازيجي زاده ثلاث مجلدات.
- شرح الآداب.
- نخبة اللطائف.
- نفائس المسائل.
- نقد الحال.
- نوادر الصوم.

obeikandi.com

- واردات حقي من سنة ١١١٤ إلى آخر سنة ١١١٥ هـ.
- شرح بند نامة للعطار.
- شرح شعب الإيمان للقيصري.
- شرح الكبائر.
- شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر.
- الأنوار في شرح منظومة كتاب التوحيد.
- الكنـــز المخفي.
- أسرار الحج.
- التحجي في حروف التهجي.
- تحفة إسماعيلية.
- تحفة خاصكية.
- تحفة خليلية.
- تحفة رجبية.
- تحفة عطائية.
- تسهيل طريق الأصول.
- جامع مهمات الطلاب.
- مزيل الأحزان.
- حاشية على تفسير سورة النبأ للبيضاوي مجلدين.
- الحجة البالغة.
- الحق الصريح والكشف الصحيح.
- ديون شعره تركي.
- الرسالة البرقية.
- الرسالة الجامعة.
- كتاب الخطاب.
- روح المثنوي.
- سلوك الملوك.
- مجموعة الأبرار.
- وسيلة المرام.

وانظر ترجمته:

هدية العارفين للبغدادي (١١٨/١)، إيضاح المكنون (٧٠٢/٢).

obeikandl.com

مرآة الحقائق

في تفسير بعض الآيات والأحاديث
والواردات واللطائف

تصنيف

شيخ الإسلام العلامة المفسر سيدي إسماعيل حقي البرسوي
المتوفى ١١٣٧ هـ

إعداد وتحقيق ودراسة

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

(تفسير بعض الآيات القرآنية)

الناشر

دار الآفاق العربية

القاهرة

obeikandl.com

obeikandl.com

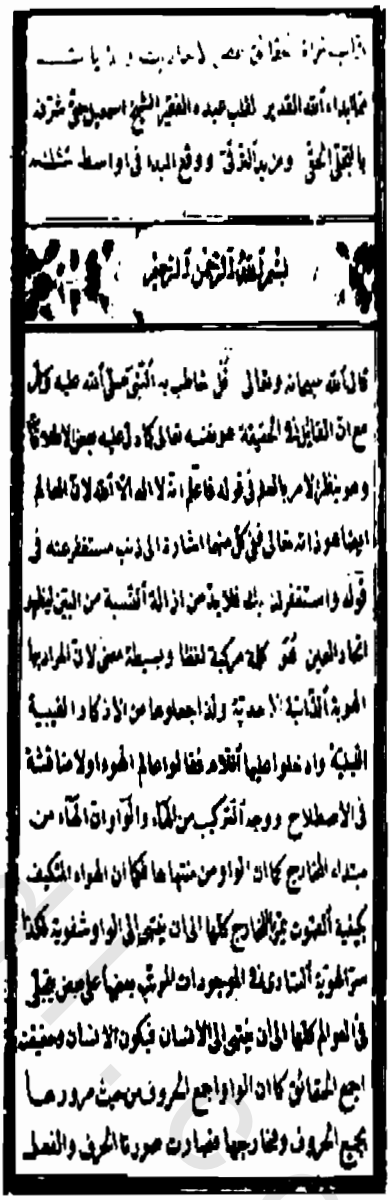

الورقة الأولى من المخطوط

الورقة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب مرآة الحقائق في تأويل بعض الأحاديث والآيات مما أبدى الله القدير لقلب عبده الفقير (الشيخ): إسماعيل حقي شرَّفه بالتجلِّي الحقي، ومزيد الترقِّي، ووقع البدء في أواسط سنة ١١٢٥ هـ.

سورة الفاتحة

قال الله تعالى في فاتحة الكتاب: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ [الفاتحة:١].

اعلم أن الحمد في مقام النعمة؛ بمعنى: الشكر كما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**اللّهم لك الحمد شكرًا، ولك المَنَّة فضلاً**»[1].

فإن قوله: (**شكرًا**)؛ كالتفسير للحمد، وكذا قوله: (**فضلاً**)؛ كالتفسير للمنَّة.

فإن المنَّة قد تكون بمعنى الامتنان، وقد تكون بمعنى الافضال كما في قولهم: المنَّة لله، فإنه بمعنى الحمد لله؛ بل بمعنى الشكر لله، فالفرق بين الحمد والشكر: إن الشكر لا يكون إلا في مقابلة النعمة كما سبق، فيُطلب زيادتها بالشكر، ولا يكون في مقابلة المحنة؛ لأن الشكر في معنى طلب المزيد.

كما قال تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم:٧].

ولا معنى لطلب زيادة المحنة؛ بل هو منهي عنه كما دلَّ عليه قوله: «**لا تتمنوا لقاء العدو**»، وقوله: «**واسألوا الله العافية**»[2]، بخلاف الحمد، فإنه الله تعالى يُحمد على السَّراء والضرَّاء، فيؤل إلى معنى الصبر بمعنى: إن العبد ينبغي أن يصبر على المحنة؛ فإنها من الله تعالى، وفي ظهورها ظهور كمال الله تعالى.

والله تعالى يُحمد على كماله سواء كان في صورة النعمة أو لا، فإن كان الحامد من الأكامل؛ فيجوز أن يكون حمده على المحنة شكرًا؛ لشهوده فيها النعمة؛ بل يكون حمده إظهار الكمال لله تعالى من غير ملاحظة النعمة والمحنة؛ لغيبته عن كل منهما، واستغراقه في الله تعالى.

قال تعالى: ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٩/١٤٤)، والبيهقي في الشعب (٤/٩٦).

(٢) رواه البخاري (٣/١٠٨٢)، وأحمد (٤/٣٥٣)، والدارمي (٢/٢٨٥).

لم يقل: الحمد لرب العالمين الله؛ لكون الربوبية تلو الأُلوهية دون العكس؛ فإن الأُلوهية كالسلطنة، والربوبية كالوزارة، فالسلطان مُظهر الاسم الله؛ لكمال جمعيته، والوزير مُظهر الاسم الرب؛ لكونه في مقام التربية للعالمين؛ كالروح والعقل، فإن القوى والأعضاء إنما تقومان بهما، وبهما كمال ترتبيهما، فكما أن تعيُّن الروح قبل تعيُّن ما دونه؛ فكذا تعيُّن الأُلوهية، ونظير ذلك الشمس مع القمر، فإن الشمس أقدم في الوجود؛ كتقدُّم الأب على الابن[١].

والحاصل: إن الأُلوهية باطن الربوبية، فالأولى مظهر الاسم الباطن، والثانية مظهر الاسم الظاهر، وكذا الحق باطن الخلق، والشمس باطن القمر، والأب باطن الابن، والروح باطن الجسم، فالظاهر مرآة الباطن في كل ذلك؛ وإنما جعلوا الرب الاسم الأعظم أيضًا، وفي مرتبة الجلال من حيث جمعيته؛ لأن الأُلوهية والربوبية لا تختصان بألوهية بعض دون بعض، وبربوبية بعض دون بعض، وباسم دون اسم، وبلطف دون قهر وبالعكس، فللسلطان الجمال والجلال، وللوزير التربية بكل من اللطف والقهر، فجمعية السلطان إنما تظهر في المراتب التي دون السلطنة فاعرف ذلك[٢].

---

(١) قال القطب القونوي: أظهر مراتب الحمد: «مرتبة الأفعال والأسماء» التي متعلقها «مرتبة الفعل»، وهو في مرتبة الصفات وأسمائها يكون مدحًا لا حمدًا، فإن بقيت الصفة فللوجه الجامع الرابط بين مرتبة الصفة والفعل.

والحمد المتعلق بالذات هو حمد الحمد وهو ثناء الصفة بنفسها لمن هي صفة ذاتية له غير مفارقة ولنفسها أيضًا.

وأظهر مراتب الحمدُ مرتبةً الأفعال والأسماء التي متعلّقها مرتبة الفعل، وهو في مرتبة الصفات وأسمائها يكون مدحًا لا حمدًا، فإن بقيت الصفة؛ فللوجْه الجامِع الرابط بين مرتبة الصفة والفعل.

والحمدُ المتعلّق بالذات:هو حمد الحمد، وهو ثناء الصفة بنفسها لمن هي صفة ذاتية له غير مفارقة ولنفسها أيضًا. وانظر: النفحات (ص٩٨) بتحقيقنا.

(٢) والحمد عند هذه الطائفة إظهار صفات الكمال، ولا كمال إلا للحق تعالى سواء لوحظ بعين =

=

الجمع أو الفرق، وكذلك مظهر لها الكمال جمعًا وفرقًا.

قال النبي ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**».

وثنائه تعالى على نفسه هو إظهار كماله بتجليه وظهوره في المظاهر على هذا النمط الكامل والنظام المشاهد، وهو مصدر بمعنى الفاعل أي: الحامدية، أو بمعنى المفعول أي: المحمودية أي: الحاصل بالمصدر أي: الهيئة التي عليها الحامد أوالمحمود عند تعلق الحمد به، أو نفس المصدر أي: النسبة، وعلى التقادير الثلاثة فاللام فيه إما الجنس أو الحقيقة أو الاستغراق.

فالأقسام تسعة حاصلة من ضرب الثلاثة في الثلاثة، فإن كل من لام الجنس والحقيقة والاستغراق يحتمل فيه معاني الحمد الثلاثة، والله علم الذات المجردة عن جميع النسب حتى عن التحريد، أو غير ذلك من المعاني التي.سبقت للفظ الجلالة وهذا المعنى أنسب بالمراد، والمعنى الثاني أولى من المعنى الثالث، والله أعلم وهو يقول الحق ويهدي السبيل.

فالمعنى جنس الحامدية، أو المحمودية، أو الحمد على تقدير أن يكون اللام للجنس، أو الحقيقة المطلقة الشاملة لكلِّ حامدية أو محمودية أوحمد المعبر عنها بلفظ الحمد على تقدير كونها للحقيقة، أو كل فرد من أفراد الحامدية أو المحمودية أو الحمد من أي حامد صدر، وعلى أي محمود وقع على تقدير كونها للاستغراق خالص ملكًا واختصاصًا واستحقًا للذات البحت المعراة عن النِّسب والاعتبارات، وقيل: بعدم الفرق بين لام الجنس والحقيقة، ومن لاحظ الحمد بعين الجمع واستهلاك المظاهر في الظاهر لا يقدر أن يُحمِّله على الاستغراق؛ إذ لا تعدد في الجمع، ومن لاحظه بعين التفرقة فيُحمِّله الاستغراق أيضًا بتأويل أنه خالق جميع المحامد ومالكه، وإلا فلا يقول: أن الحامد هو الله، والمحمود أيضًا هو الله في صورة (حمد زيد عمر) لا في مرتبة الإطلاق ولا في مرتبة التقييد، بل في الصورة المذكورة.

يقول: إن الحامد (زيد) والمحمود (عمر)، فلو قال: كلُّ أفراد الحمد مثلاً لله بلا تأويل يلزم أن يكون حمد زيد لعمرو حمد لله لا حمد زيد، ويكون الحامد حقًا هو تعالى لا زيد، وأن يكون المحمود هو تعالى لا عمر، وهو ينسب القائل بهذا إلى الكفر والزندقة، فلا يمكن له الحمد المذكور إلا بالتأويل بأنه تعالى خالق لكلِّ أفراد الحمد أو مالك أو صاحب، ومن لاحظه بعين جمع الجمع، وهو أن يرى الوحدة في عين الكثرة والكثرة في عين الوحدة، فلا تحجبه الكثرة عن الوحدة كأهل الفرق، ولا الوحدة عن الكثرة كأهل الجمع، فهو يحمل (ال) على الجنس، والحقيقة والاستغراق بلا تأويل، فعنده الحمد كله لله، وليس كله لله بخلاف من كان في الجمع فإن الحمد كله لله لا غير، ومن كان في الفرق فإنه يقول: بالبعض لله، وبالبعض الآخر لما سواه إلا بالمذكور، فحقًا يكون

=

قال تعالى: ﴿الرَّحْمـــنِ﴾ [الفاتحة:٣] في الظاهر، فيعمُّ رحمته الكافر، والأعضاء والآفاق، فإن كل ذلك داخل تحت حيطة الاسم الظاهر.

قال تعالى: ﴿الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] في الباطن، فيعمُّ رحمته المؤمن والقوى والأنفس، كما يعمَّهم الرحمة الرحمانية، فللكافر ظاهر دون باطن؛ لأن لا آخرة له، فإن العاقبة للمتقين، وللمؤمن ظاهر وباطن جميعًا فالظاهر مع الباطن أقوى من الظاهر بلا باطن؛ لأن الظاهر بلا باطن محصور كالدنيا؛ لانتهائها دون الظاهر مع الباطن؛ كالآخرة لعدم نهايتها.

وإنما أدخلنا الآخرة في الباطن؛ لأنها قلب الدنيا؛ والقلب باطن بالنسبة إلى القلب، فكما ينتهي حكم الدنيا، ويظهر الآخرة على صورتها؛ فيكون الدنيا باطنة، والآخرة ظاهر؛ فكذا يظهر القلب في الآخرة على صورة القالب، فيكون القالب باطنًا، والقلب ظاهرًا، وبه يصحُّ رؤية الله تعالى كما يصحُّ ذلك في الدنيا بالبصيرة، فانظر إلى هذا، وكن على بصيرة من الأمر، فإن الأمر ليس كما يزعمه المنكرون من

=

كمن في الجمع في إثبات جميع أفراد الحمد من حيث الخلق لله لا غير، وكمن في جمع الجمع من حيث إثبات الحمد لغيره تعالى أيضًا.

وفي الحقيقة لاكمال إلا كماله، ولا مظهر له إلا هو جمعًا أو فرقًا، فهو الحامد في كلِّ مرتبة من مراتب الإطلاق والتقيِّد، وهو المحمود لكلِّ فضيلة لا حامد سواه ولا يحمد أحد إلا إياه.

واعلم أن هذا الحمد على لسان الحقيقة إشارة إلى حمده الأزلي نفسه بنفسه؛ لأن كل موجود ممكن إشارة إلى ما كان في الأزل في باطن علمه تعالى، وهو شامل للشكر والمدح أيضًا، فهو الشاكر والمداح أيضًا.

وقال صاحب «مرآة الأرواح»: حمد الله تعالى ذاته في الأزل بالوحدانية، وصفاته بالكمالية وشكر الذات على نعمة الوجود، والصفات على نعمة بذل الوجود بالجود، ومدح الذات بنفي جميع الذوات في الوجود، والصفات على بذل الأوصاف لكلِّ ممكن وموجود، وأفنى بها فيها أي: في صفاتها، وهذا الحمد وإن كان مطلقًا باعتبار إضافته إلى حضرة اسم هو أحدية جمع جميع الأسماء الإلهية وهو الله إلا أن حال الحامد يُقيِّده بحضرة خاصة من حضرات الأسماء الإلهية؛ إذ الحمد لا يكون إلا من تلك الحضرة الخاصة.

المعتزلة وغيرهم، والله رقيب شهيد.

ومن العجائب في هذا المقام أن الكافر باطن المؤمن؛ لأن باطن المؤمن مُظهر الجلال[١]، كما أن ظاهره مُظهر الجمال[٢]، فللمؤمن رحمة لظاهره وباطنه في الدنيا والآخرة، فالكافر لا يقنط من رحمة ربه إلا أن الرحمة له في صورة النعيم في الدنيا كما دلَّ عليه قوله: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**»[٣].

وفي صورة الجحيم في الآخرة كما دلَّ عليه قوله: ﴿**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**﴾ [النبأ:٢٣]: أي في العذاب في تلك المدة؛ وهو مذهب أهل الحقائق، وله في القرآن شواهد أُخر لا تُذكر هنا، فظن خير، ولا تسأل عن الخير، والله قادر على أن ينبت جرجيرًا في قعر النار، وإن كان ذلك الجرجير ليس من جنس ما ينبت في قعر الجنة؛ إذ ليس في النار نعيم، فاعرف هذه الدقيقة، وكن مع أهل الحقيقة.

---

(١) إن الجلال حضرة لائقة بالمشاهدة لأنه اسم ظهر الله به مخصوصاً بالثنوية وهو تمكين اسم الجميل فتظهر عليه صفة في حال الناظر والمنظور ليحصل له هيبة وخشوع مع محبة فالجميل للمحبة، فلما رفع المحب إلى مقام أعلى من موطن المحبة الذي هو الظاهر. فازداد الاسم صلة بغير زوال عينه، ولما كانت هذه الصفة لائقة بالمشاهدة وهي الجلال خرج الشاهد في شهوده من مقام إلى مقام لأنه لا يتغير عليه صفة إلا بخروجه من محله في شهود واحد، فالجلال مختصة بالله دون الجميل وغيره لكونها تنشأ عن التعظيم وكل تعظيم ناشئ عن عظمة الله تعالى، وإذا حصل للشاهد شهوداً في خلع واحد يكون هذا الشهود أشد تمكيناً من الشهود الواحد، والتمكين عبارة عن الاستعلاء لكن الاستعلاء على ضربين: استعلاء وصف واستعلاء معنى، فالعارف الكامل له استعلاء الوصف ويتعالى عن استعلاء المعنى إذ استعلاء المعنى هو على بني الجنس بشرط الاستقلال لجهة دون جهة، والعارف لا جنس له ولا حصر فيحل عن هذا المقام المعنوي، ولما كان هذا العارف متصفاً بالاستعلاء اتصافاً فأخرج من مقام الشهود إلى مقام الجلال.

(٢) إن الجمال بعد الأرواح تنـــزل مناسب بحيث ذكر أرواحاً متعددة والتعدد لائق بالجمال لأن الله تعالى لما أوجد الخلق متكثراً متمايزاً أظهر بالجميل لئلاً يقع النفور من البعض عن البعض، وكذلك في عالم الأرواح، فلما أدرك هذا الشاهد رضوان الله عليه أرواحاً متعددة لحظ الجمال الناشئ بينهم لعدم النفور وهذه القابلية في هذا المحل قد كانت شديدة الصقال، والناظر فيها نافذ النظر حتى شهده صورة الموصوف والأوصاف، لأن الجمال صفة خافية وهمية فلا يدركها إلا من اتصف في حال شهوده بهذه الأوصاف.

(٣) رواه مسلم (٤/٢٢٧٢).

فإن مذهبهم ليس بمخالف لمذهب أهل الشريعة، وإن كان أهل الرسوم يسيئون الظن بهم؛ لعدم وقوفهم على الحقائق، ولنا في هذا المقام كلام عريض لا يقتضي المقام استيفاؤه، واعتقادنا على أن أهل النار مخلَّدون فيها، وليس لهم نعيم كنعيم أهل الجنة من أكل، وشرب، ولباس ونكاح، ونحو ذلك، فهم كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦] الآية.

قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

دلَّ نداء على أن اليوم في الأصل كان يومًا بلا ليل، ثم ظهر الليل بحسب الأجرام النيِّرة وغروبها، وكذا هو يوم واحد في الفرع بلا ليل؛ لأن الآخرة لا ليل لها.

وفيه إشارة إلى أن الدنيا والآخرة ملك لله تعالى ليس لغيره في ذلك الملك يد إلا بطريق الخلافة والعارية، فإن الدين المجازاة، وهو جارية في الدَّارين، فهو تعالى مالك يوم الدنيا، ويوم الآخرة، ومالك المجازاة فيهما، فظهر إن قيامة العارفين دائمة؛ لكونهم مع الله تعالى في كل نَفس من الأنفاس، ومحاسبون أنفسهم في كل لحظة من لحظات، فهم مملوكون لله تعالى؛ لأنهم أحرار عمَّا سواه تعالى، وقائمون لربهم بالخدمة في كل حين.

قال ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

أراد بالعبادة المبنية على التوحيد، فإن العبادة بلا توحيد عبادة المشركين، فلا تعود إلى الله، وإنما تعود إلى الآلهة الذين اتَّخذوها معبودين من دون الله، دلَّ على هذا تقديم المعمول الدال على القصر، فإذا كانت العبادة مخصوصة به تعالى؛ كانت الاستعانة أيضًا كذلك، إذ لا يستعين المرء إلا بمعبوده].

قال تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]: أي ثبِّتنا على صراط تخصيص العبادة والاستعانة بك.

قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] في الأزل، فكانوا على شكر النعمة في جانب الأبد.

قال تعالى: ﴿غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]؛ هم الذين

استعانوا بغير الله، ولمَّا كان أثر الغضب أشدَّ من أثر الضلال؛ قدَّمه عليه.

وفيه إشارة إلى أن غاية الأمر بالنسبة إلى المستعين بغير الله هو الحيرة؛ إذ لا يتم ولو قاسى كل الشدائد، وإنما يتم منه إذا لم يكن ذلك الغير غير الحسب لشهوده الحق في كل مظهر من المظاهر.

وإليه الإشارة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر:١٥] (١).

(١) فائدة: قال سيدي أبو المواهب الشاذلي قدس الله سره في قوانين الحكم: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

تحقيق: حقيقة الفقر في ظاهر الطريقة غير ما هو باطن الحقيقة، فالظاهر فقر الزهاد من الأعراض الدنيوية، والباطن فقر الأفراد من الأغراض الأخروية شغلاً بالله عما سواه لمن شهد ذلك ورآه.

تدقيق: تفاخَر الغنيّ مع الفقير.

فقال الغنيّ: أنا وصف الرب الكبير، فما أنت أيها الحقير.

فقال الفقير: لولا وصْفي لما تميَّزَ وصفك، ولولا تواضعي ما رفع قدرك، فأنا وصْفي وسِمَ بذلّ العبودية، وأنت وصفك نازع الربوبية، ومن نازع قصِم، ومَن سَلَّم سَلِمَ.

تحقيق: التبس حال الفقير على غير النبيه، فقال: الفقير غير الفقيه، وما علم أن الراء هي الهاء.

إنَّ الفقـــيرَ هـــو الفقـــيهَ وإنمـــا ... راء الفقـــيرِ تجمعـــت أطـــرافها

تدقيق: الفقير الفقيه من حَطَّ حمل الرحال على أعتاب الرجال، حتى أرضعته طريٌّ لبن الصدور، وأغنتْه عن قديد ميت السطور.

فانتصح يا فقيه القال، واسمع يا فقير الحال، وافن بالله عن الرسوم، واخرج عن كل معلوم.

يا فقيه الجدال، هذا الجدّ آل أدخل حَانَ أخيارنا، نصيّرك من أحْبَارنا، ونسقيك صافي الشراب بعد نقيع السراب.

يا فقيه النقل، يا عقول العقل، سَتَر عنك نور الكشف حجاب أنيّتك العقلية، والذوق غيّر طعمه عندك مرارة العلوم النقليه.

يا فقيه الاسم دون المسمَّى الغلط أوجبه تشابه الأسماء لو عرفت معنى الفقير والفقيه كنت الحاذق النبيه.

الفقيه من فقه عن الله، وفنى به عمن سواه، فلو كنت بهذا الوصف كنت الفقير صدقًا، والفقيه عند الله حقًّا.

تحقيق: فضَّل قوم الغنيّ على الفقر، وعكس آخرون الأمر، والحق أن غنى النفس بالأعراض البشرية لا يخرجها عن افتقار صفاتها الذاتية.

تدقيق: مَن ادَّعى الغنى وقع في العنا، بخلاف من أظهر الفقر؛ فإنه خلص من الأمر.

=

أي: سواء كان إحياء حكم إلى السلطان مثلاً في الظاهر، أو إلى مَن دونه،

=

تحقيق: الفقير من اتَّصف بحقيقة الافتقار عن إرادة منه واختيار، لا عن ضرورة ردته لمركز الاضطرار.

تدقيق: من استكبر بوصف الغني على الفقير استوجب حكم العكس من القدير.

ألم ترَ أن الفقر يُرجَى لَه الغنى وأن الغنى يُخشى عليه من الفقرِ

تحقيق: سمة الفقر سمة الأحباب، وحليته حلية العبد الأواب، من لبس اسمًا له كان ذلك وسمًا له في وجود أهل القبول، ولهم من الله نيل المسئول.

وجوه عليها للقبولِ علامةٌ ولبس على كلِ الوجوهِ قبولُ

تدقيق: من افتخر على الفقراء بماله، أو تباهى عليهم بجماله؛ افتقر وعاد وقد انكسر.

لا تفخرن بما أُوتيت من نعم على سواك وخف من كسر جبارِ

فأنت في الأرض بالفخار مشتبه ما أسرعُ الكسرِ في الدنيا لفخارِ

تحقيق: جواهر معاني الزمان أنفس من أن تضيعها في الهذيان، فيالله العجب ممن عمره انقضى وذهب في جمع الفضة والذهب، وهو بما جمع فقير ليس له نصير.

ومَن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقرٍ فَالذي فَعَل الفقرَ

تدقيق: من أفقر إلى الله استغنى به عن كل شيء، ومن استغنى عنه افتقر إلى كل شيء، ومن افتقر إلى كل شيءٍ، فقد أوحشه كل شيء، ولم يتعوض عن الله بشيء من كل شيء.

لكلِ شيءٍ إذا فارقته عوضٌ وليس لله إنْ فارقتَ من عوضِ

تحقيق: خاصية مغناطيس فقر الذات هي الجاذبة للعطايا والهبات، فمن كان وصف افتقاره أكثر كان نصيبه أجزل وأكبر.

تدقيق: اختصاص الفقراء بالسؤال خصوصية لهم في الحال والمآل، يعرفها من وجد ثمر المطالب، وقُضيت له الحاجات والمآرب.

تحقيق: اتِّصاف الرب سبحانه بوجود الغنى المطلق، هو الذي أوجب لنا الفقر المحقق، وبهذا الاتصاف حصلت الألطاف؛ لأن من رحمة الغني أن يجود على الفقير، ويجبر المسكين الكسير.

تدقيق: ما أتى باب الغني الكريم فقير فخاب، ولا قصد حماه فغلق دونه الأبواب.

على بابِك الأعلى مددتُ يد الرَّجا ومَن جاءَ هذا البابُ لا يختشى الرَّدى

وهذا الضلال الذي هو الحيرة بالاستعانة بغير الله؛ هو الضلال البعيد، والحيرة المذمومة.

وأمَّا الضلال الذي هو التلوُّن بتجليَّات الله تعالى، والتقلُّب في شهوده وشئونه؛ فذلك حيرة ممدوحة كما عليه الكُمَّل نسأل الله الثبات في مقام الإيمان، والحيرة في مقام الإحسان[1]، اللّهم تفضَّل علينا به في كل حين لِين.

---

(١) قال الشيخ الشعراني: الحيرة في الله من كمال المعرفة به، وهي ساريةٌ في العالم النُّوريِّ والنَّاريِّ والترابيِّ؛ لأن العالَم ما ظهر إلا على ما هو عليه من العلم الإلهيِّ، وما هو في العلم الإلهيِّ لا يتبدَّل، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فما فُطِر العالَم إلا على الحيرة، وذلك لأن المرتبة الإلهية تنفي بذاتها التقييد عنها، والقوابل تنفي الإطلاق عنها، ولا تشهد إلا صورتها من التقييد.

فهذا هو سبب شدة الحيرة في الوجود، ولا أحد أشدَّ حيرةً في الله من العلماء به، ولهذا ورد أنه ﷺ كان يقول: «**زِدْنِي اللَّهُمَّ فِيكَ تَحَيُّرًا**»، ومع ذلك فأعلى ما يصل إليه العلماء بالله تعالى من طريق نظرهم مبتدأ البهائم؛ لأنها كغيرها مفطورةٌ على الحيرة في الله ﷻ، والإنسان يريد أن يخرج بما أعطاه الله تعالى من العقل والرؤية وإمعان النظر عن الحيرة التي فُطِر عليها، فلا يصحُّ له ذلك.

وعلى هذا الذي قررناه الإشارة بقوله تعالى في حقِّ قوم: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

فإن التشبيه بالأنعام إنما هو في الحيرة لا في المحار فيه، فليس ذلك نقصًا في الأنعام، والحيرة عَمًى بلا شكٍّ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٢]، أعني جاهلاً بالذات، لا كما هو في الدنيا.

ولذلك كان العارف المحقق عمرو بن عثمان المكي يقول في صفة العارفين: وكما هم اليوم يكونون غدًا، فَعُلِمَ أن من طلب معرفة الذات من طريق الفكر والنظر كان مآله إلى الحيرة، كما أن من طلب الواحد في عينه لم يحصل إلا على الحيرة، فإنه لا يقدر على الانفكاك من الجمع والكثرة في الطالب والمطلوب، وكيف يقدر على ذلك، وهو يحكم على نفسه بأنه طالبٌ، وعلى نفسه بأنه مطلوبٌ، ومقام الواحد يتعالى أن يحلَّ في شيءٍ، أو يحلَّ فيه شيءٌ؛ لأن الحقائق لا تتغير عن ذاتها؛ إذ لو تغيرت لتغير الواحد في نفسه، وتغيير الحق في نفسه وتغيير الحقائق محالٌ.

=

=

واعلم أن حيرة أهل الكشف والشهود أعظم من حيرة أصحاب النظر في الأدلة؛ لاختلاف الصورة عليهم عند الشهود.

فإن أصحاب النظر والفكر ما برحوا بأفكارهم في الأكوان، فلهم أن يحاروا ويعجزوا، وهؤلاء ارتفعوا عن الأكوان، وما بقي لهم شهودٌ إلا فيه، فهو مشهودهم، فكانت حيرتهم باختلاف التجليات أشد من حيرة النُظّار في معارضات الدلالات، وفي الحقيقة ما في الوجود إلا الله.

ولا يعرف الله إلا الله، فمن وصل إلى الحيرة من المقربين فقد وصل، والسلام.

وسمعت شيخنا ﷺ يقول: العلماء بالله على أربعة أصناف:

صنف: ما لهم علمٌ بالله إلا من طريق النظر الفكري، وهم القائلون بالسلوب.

وصنف: ما لهم علمٌ بالله إلا من طريق التجلي، وهم القائلون بالثبوت والحدود التابعة للصورة.

وصنف: يحدث لهم علمٌ بالله بين الشهود والنظر، فلا يبقون مع الصورة في التجلي، ولا يصلون إلى معرفة هذه الذات الظاهرة بهذه الصورة في أعين الناظرين.

وصنف: ليس واحدٌ من هؤلاء الثلاثة، ولا يخرج عن جميعهم، وهو الذي يعلم أن الله تعالى قابلٌ لكل معتقدٍ في العالم، من حيث إنه عين الوجود، وهذا القسم ينقسم إلى صنفين:

صنفٌ يقول: عين الحق هو المتجلي في صور الممكنات.

وصنفٌ يقول: أحكام الممكنات، وهم الصور الظاهرة في عين الوجود الحق، وكلٌّ قال ما هو الأمر عليه، ومن هنا فشت الحيرة في المتحيِّرين، وهي عين الهدي في كل حائرٍ، فمن وقف مع الحيرة حار، ومن وقف مع كون الحيرة هدًى وصل، ومن وصل لا يرجع، لأن من المحال الرجوع بعد كشف الحجاب إلى الحجاب؛ إذ المعلوم لا يجهله العالم بعد تعلق العلم به.

ومرادنا بالوصول الوصول إلى السعادة الدائمة.

وهو معنى قوله: «**فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه وبصرَه**» الحديث.

فَعُلِمَ أن من أعظم غلطات أهل النظر طلبهم الخروج عن الحيرة بالخلوة والرياضة، وذلك لا يكون لهم أبدًا، لأن التجرد عن المواد يُعقل ولا يُشهد، ولا يُسلم لهم عقلٌ من حكمٍ ولا خيالٍ؛ لأن كل ما سوى الله حقيقته الإمكان، والشيء لا يزول عن حكم نفسه، ولا يتعقل إلا ما كان على صورته، تعالى الله عن ذلك.

وكان شيخنا ﷺ يقول:

من الرجال من زالت عنه الحَيرة في الله ﷻ. فقلت له: كيف ذاك؟ **فقال: إذا تجلى الله تعالى للقلب في** غير عالم المواد زالت الحيرة، وعلم من الله على قدر ذلك التجلي من غير تعيينٍ؛ إذ لا يقدر =

سورة البقرة

قال الله سبحانه: ﴿الم﴾ [البقرة:١].

أشار بالألف إلى المبدأ الذي هو الإنسان؛ فإنه خرج من مخرج الشأن الذاتي الغيبي الذي كان تعيُّن الذات الأحدية في تلك المرتبة بالنسبة إلى سائر التعينات؛ كتعيُّن الحروف بالنسبة إلى التركيبات اللفظية، ثم لَمَّا خرج بالحركة المعنوية، والنفس الرحماني من تلك المرتبة؛ مرَّ بمرتبة الأرواح التي هي مرتبة اللام التي تعيَّن مخرجها من الوسط.

فإن الأرواح متوسطة بين عالم العلم وعالم العين، ثم مرَّ بمرتبة الأجسام التي هي مرتبة الميم التي تعيَّن مخرجها من الفم الذي هو آخر المخارج، ولم يتعرَّض لمرتبة المثال، وإن كانت من الحضرات الخمس؛ لكونها ممتزجة بالطرفين؛ فلها وجه إلى مرتبة الأرواح، ووجه إلى مرتبة الأجسام، فإذًا المخارج الكلية ثلاثة: المبدأ الألفي، والوسط اللامي، والآخر الميمي، وما عداها فمخارج جزئية.

وأخبر ذكر هو من بين سائر الأذكار؛ لكون الهاء مادة من المبدأ إلى المنتهى الذي هو مرتبة الواو؛ كالميم فهي آخذة من كل المراتب الجزئية والكلية خاصتها، فكانت بمنـــزلة الإنسان الكامل المار بجميع الأطوار، ففي لفظ هو من الجمعية في الإنسان، فمَن غلب عليه الفناء، وجمع الحقيقة؛ فليذكُر بذكر هو هو، ومَن غلب

=

أحدٌ على تعيين ما قد تجلَّى له إلا كونه تجلى في غير مادةٍ لا غير، ثم إذا رجع من هذا التجلي إلى عالم المواد صحبه تخيل تجلي الحق تعالى.

فما من حضرةٍ يدخلها إلا ويعرف الله تعالى في تجليها؛ لأنه قد ضبط من معرفته أولاً ما ضبط، فيَعلَم أن التجلي قد تحوَّل في أمرٍ آخر، فلا يجهله بعد ذلك أبدًا، ولا ينحجب عنه، فإن الحق تعالى ما تجلى لأحدٍ هذا التجلي، فانحجب عنه بعد ذلك أبدًا.

فإذا نزل العبد إلى عالم خياله وقد عرف الأمور على ما هي عليه مشاهدةً بعد أن عرفها قبل ذلك علمًا وإيمانًا رأى الحق تعالى في صورة الخيال مقيَّدًا فلم ينكره، لكن لا يسعه إلا السكوت، لأنه حينئذٍ يرى أن لا معلوم إلا الله، وإذا كان لا معلوم إلا الله فلا يدري أحدٌ ما يقول! ولا كيف ينسب الأمور! وانظر: الميزان الذرية (ص٧٣) بتحقيقنا.

عليه البقاء، وفرَّق الشريعة؛ فليذكِّر بذكر لا إله إلا الله، فإن الشارع أخبر أنه أفضل الأذكار؛ لغلبة أهل الفرق وكثرتهم[١]، ولا شك أن لسان الشارع؛ إنما هو لسان الشرع الذي يقتضي التعميم لا التخصيص.

والحاصل: كما أن الإنسان آخر الكائنات؛ فكذا لسان الشرع آخر الألسنة، وفوق لسان الشريعة لسان الطريقة، وفوقه لسان المعرفة، وفوقه لسان الحقيقة، ولكل مقام مقال رجال.

فقد جاء عن ابن عباس ﷺ أنه قال: أبهموا ما أبهم الله، وفصلوا ما فصَّل الله.

ولم يكن أحد من أولياء هذه الأمة مأذونًا لإظهار بعض الأسرار، إلا حضرة الشيخ الأكبر، والمسك الأزفر، والكبريت الأحمر، قُدِّس سرُّه الأطهر[٢]، ومن عداه

---

(١) لكل دائرة من دوائر مراتب الفرق إدراك بحسبها، فلها لذة وألم بحسبها، المجردات لهم ذلك بحسبهم، والمفارقات لهم ذلك بحسبهم، والماديات البسيطة لها ذلك بحسبها، والمركبة لها ذلك بحسبها، والملك بحسبه، والجان بحسبه، والبشر بحسبه، والبهيم بحسبه، والجماد بحسبه، والنبات بحسبه؛ لأن مراتب الفرق متمايزة بالتماثل والتقابل والتناسب والتباين، فتلزمها اللذة بالتناسب والضد بالضد.

ونظام جميع مراتب التقابل والتماثل هو المُسمَّى بدائرة الفرق.

(٢) قال الشيخ الكردي الموصلي في كتابه الانتصار للأولياء الأخيار:

كان من الموقعين عن بعض ملوك المغرب، ثم أنه طرقه طارق من عند الله تعالى، فخرج بالبراري على وجهه إلى أن نزل في قبرٍ فمكث فيه مدة، ثم خرج من القبر يتكلَّم بهذه العلوم التي نُقلت عنه، ولم يزل سائحًا في الأرض يقيم في كل بلد بحسب الإذن، ثم يرحل منها ويخلف ما ألَّفه من الكتب فيها، وكان آخر إقامته بالشام، ومات بها سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

وكان ﷺ متقيِّدًا بالكتاب والسُنَّة، ويقول: كل من رمى ميزان الشريعة من يده فقد هلك، وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة.

وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلو مراقيه، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة الغراء وما عليه الجمهور، فيحتمل أن الحسدة دسوا عليه. كذا ذكره الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه: ((اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر)).

وقال الشيخ مجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس: لم يبلغنا عن أحد من القوم أنه بلغ في علم الشريعة والحقيقة ما بلغ الشيخ محيي الدين أبدًا، ولم تزل العلماء مكبِّين على كتابة مؤلفاته بحل الذهب في حياته وبعد مماته، إلى أن أراد الله تعالى ما أراد من انتصاب شخص من اليمن اسمه جمال الدين بن الخيّاط، فكتب مسائل في درجٍ، وأرسلها إلى بلاد الإسلام، وقال: هذه عقائد الشيخ

=

محيي الدين بن العربيّ، وذكر فيها عقائد زائغة، ومسائل خارقة لإجماع المسلمين، فكتب العلماء على ذلك بحسب ظاهر السؤال، وشنّعوا على من يعتقد ذلك من غير تبين وتثبت.

والشيخ عن ذلك بمعزل قال: فلم أدرِ أوجد ابن الخياط تلك المسائل في كتابٍ مدسوسٍ على الشيخ، أو فهمها هو من كلام الشيخ على خلاف مراده!.

قال: والذي أقوله وأتحققه وأدين الله تعالى به أن الشيخ محيي الدين كان شيخ الطريق حالاً وعلمًا، وإمام التحقيق حقيقةً ورسمًا، ومحيي علوم العارفين فعلاً واسمًا.

إذَا تغلغل فكرُ المرءِ فِـي طـرفٍ ... مِنْ مجْدِهِ غرقت فيـه خَـوَاطره

لأنه بحرٌ لا تُكدره الدّلاء، وسحابٌ لا تتقاصر عنه الأنواء، كانت دعواته تخرق السبع الطباق، وتفترق بركاته فتملأ الآفاق، وإني أصفه وهو يقينًا فوق ما وصفته، وناطق بما كنيته، وغالب ظني أني ما أنصفته:

ومَا عَلَيَّ إذا مَـا قلـت معتقـدي ... دعْ الجهـول يظـن العـدلَ عـدوانًا

والله والله والله العظـيم ومـن ... أقامـه حجّـة للـدينِ بُرهانًـا

إن الذي قلت بعـض مـن مَنَاقِبِـه ... مـا زدت إلا لعلمـي زدت نقـصانًا

وأمّا كتبه فهي البحار الزّواخر التي ما وضع الواضعون مثلها، ومن خصائصها أنه ما واظب أحدٌ على مطالعتها إلا وتصدّى لحل مشكلات الدين ومعضلات مسائله، وهذا الشأن لا يوجد في غير كتبه أبدًا.

وأمّا قول بعض المنكرين أنّ كتب الشيخ لا يحل قراءتها ولا أقراؤها فكفر، وقد قدّموا إلَيَّ سؤالاً صورته: ما تقول في الكتب المنسوبة إلى الشيخ محيي الدين بن العربي كالفتوحات والفصوص، هل يحل قراءتها وإقراؤها؟ وهل هي من الكتب المقروءة أم لا؟

فأجبت: نعم. هي من الكتب المسموعة المرويَّة المقروءة، وقد قرأها عليه الحافظ البرزالي وغيره، ورأيت إجازة بخط الشيخ محيي الدين على حواشي الفتوحات المكيّة بمدينة قونية، وكتابه طبقة بعد طبقة من العلماء والمحدّثين، فمطالعة كتب الشيخ قربة لله تعالى، ومن قال غير ذلك فهو جاهل زائغ عن طريق الحق.

ولقد كان الشيخ محيي الدين في زمنه صاحب الولاية العظمى والصديقية الكبرى فيما نعتقده وندين الله به، خلاف ما عليه جماعة ممن مقتهم الله تعالى فحرموا فوائده، ووقعوا في عرضه بهتانًا وزورًا، وحاشا جناب الكريم أن يخالف نبيَّه ﷺ الذي استأمنه على شرعه، ومن أنكر عليه وقع في أخطر الأمور، وقد رأيت إجازة بخط الشيخ كتبها للملك الظاهر بيبرس صاحب حلب، ورأيت في آخرها: «وأجزت له أيضًا أن يروي عني جميع مؤلفاتي، ومن جملتها كذا وكذا» حتى عدَّ نيفًا وأربعمائة مؤلف.

=

=

منها: تفسيره الكبير في خمسٍ وتسعين مجلدًا وصل فيه إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:٦٥]، فاصطفاه الله تعالى لحضرته.

ومنها: تفسيره الصغير في ثمانية أسفار على طريقة المحققين من المفسرين.

ومنها: كتاب الرياض الفردوسية في الأحاديث القدسية.

فهل يحل لأحدٍ أن يقولَ لا يجوز مطالعة كتب الشيخ محيي الدين مطلقًا! ما ذلك إلاَّ كفر وتعصُّب وعناد انتهى.

قال الشيخ عبد الغفار القوصي في كتاب «الوحيد»: حدَّثني الشيخ عبد العزيز المنوفي عن خادم الشيخ محيي الدين قال: كان الشيخ محيي الدين يمشي وإنسان يسبُّه، وهو ساكتٌ لا يرد عليه فقلت: يا سيدي ما تنظر إلى هذا؟ قال: ولمن يقول؟ قلت: يقول لك، فقال: ما يسبني أنا، فقلت: كيف ذلك؟ قال: تصوّرت له صفات ذميمة فهو يذم تلك الصفات، وما أنا موصوف بها، قلت: قد وقع لنبينا المصطفى ﷺ أن من خلقه العظيم كان يقول لأصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني سبّ قريش يسبُّون مذمَّمًا وأنا محمد**».

وكان المشركون قد سموه مذمَّمًا؛ لعتوهم وكفرهم وحاشاه من ذلك ﷺ.

وقد كان الشيخ سراج الدين المخزومي شيخ الإسلام بالشام يقول: إياكم والإنكار على شيء من كلام الشيخ محيي؛ فإن لحوم الأولياء مسمومة، وهلاك أديان مبغضيهم معلومة، وبعضهم تنصَّر ومات على ذلك، ومن أطلق لسانه فيهم بالسلب ابتلاه الله تعالى بموت القلب.

وممن أثنى عليه الشيخ كمال الدين الزملكاني وكان من أجلّ علماء بالشام، وكذلك قطب الدين الحموي، وقيل له لما رجع من الشام إلى بلاده كيف وجدت الشيخ محيي الدين؟ قال: وجدته في العلم والزهد والمعارف بحرًا زاخرًا لا ساحل له.

ومِمَن أثنى عليه الشيخ صلاح الدين الصفدي في تاريخ علماء العصر، وقال: من أراد أن ينظر إلى كلام أهل العلوم اللدنيَّة فلينظر في كتب الشيخ محيي الدين بن العربي.

وسئل الحافظ أبو عبد الله الذهبي عن قول الشيخ محيي الدين في كتابه «الفصوص» ما نصَّه أنه ما صنفه إلا بإذنٍ من الحضرة المحمدية فقال: ما أظن أن مثل الشيخ محيي الدين يكذب أصلاً، مع أن الحافظ الذهبيَ كان من أشد المنكرين على الشيخ محيي الدين، وعلى الطائفة الصوفية هو وابن تيمية، وممن أثنى على الشيخ قطب الدين الشيرازي.

وكان يقول: إن الشيخ محيي الدين كان كاملاً مكتملاً في العلوم الشرعية والحقيقية، ولا يقدح فيه قدح من لم يفهم كلامه ممن لم يؤمن به، كما لم يقدح في كمال الأنبياء نسبتهم إلى الجنون، والسمر على لسان من لم يؤمن بهم، وكان الشيخ مؤيّد الدِّين الجندي يقول: ما سمعنا بأحد من أهل الطَّريق اطَّلع على ما اطَّلع عليه الشيخ محيي الدين.

وكذلك كان يقول: الشيخ شهاب الدين السهروردي، والشيخ كمال الدِّين الكاشي، وقالا فيه: إنه =

=

الكامل المحقق صاحب الكمالات والكرامات، مع أن هؤلاء الأشياخ كانوا من أشدّ الناس إنكارًا على من يخالف كلامه ظاهر الشريعة.

وممن أثنى عليه الإمام فخر الدِّين الرَّازي وقال: كان الشيخ محيي الدِّين وليًّا عظيمًا، وممن أثنى عليه الإمام اليافعي: وصرَّح بولايته العظمى كما نقل ذلك شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه للرَّوض، وكان اليافعي يجيز رواية كتب الشيخ محيي الدِّين.

ويقول: إن حكم إنكار هؤلاء الجهلة على أهل الطَّريق حُكم ناموسة نفخت على جبل تريد إزالته من مكانه بنفختها، قال: ومن عادى أولياء الله تعالى فقد عادى أنبياء الله تعالى، وإن كان لم يبلغ حدّ التكفير الموجب للخلود في النَّار.

وممن أثنى عليه الشيخ محمد المغربي شيخ الجلال الأسيوطي، وترجمه بأنه مربيّ العارفين، كما أن الجنيد مربيّ المريدين.

وقال: إن الشَّيخ محيي الدين روح التنـــزلات والإمداد، وألف الوجود، وعين الشهود، وهابه المشهود الناهج منهاج النبي العربي قدِّس الله سرُّه، وأعلى في الوجود ذكره، وقد صنَّف الشيخ سراج الدِّين المخزومي كتابًا في الرد عن الشيخ محيي الدين، وقال: كيف يسوغ لأحد من أمثالنا الإنكار على ما لا يفهم من كلام الفتوحات أو غيرها، وقد وقف على ما فيها نحو ألف عالم أو أكثر، وتلقوها بالقبول قال:

وقد شرح كتاب الفصوص جماعة من أعلام الشافعية منهم الشيخ بدر الدين بن جماعة، وشاعت كتبه في جميع الأمصار، وقرنت متنًا وشرحًا في غالب البلاد وروياها في القراءة الظاهرة في الجامع الأموي وغيره بالإسناد، وتغالى الناس في شرائها، ونسخها وتبرَّكوا بها وبمؤلِّفها لما كان عليه من الزهد، والعلم، ومحاسن الأخلاق، وكان أئمة عصره من علماء الشام، ومكة، كلهم يعتقدونه ويأخذون عنه، ويعدّون نفوسهم في بحر علمه كل شيء، وهل ينكر على الشيخ محيي الدين إلا جاهل أو معاند؟.

وكان الشيخ عز الدِّين بن عبد السلام يقول: ما وقع إنكار من بعضهم على الشيخ محيى الدين إلا رفقًا بضعفاء الفقهاء الذين ليس لهم نصيب من أحوال الفقراء خوفًا أن يفهموا من كلام الشيخ أمرًا لا يوافق الشرع فيضلوا، ولو أنهم صبحوا الفقراء لعرفوا مصطلحهم وآمنوا من مخالفة الشريعة.

قال شيخ الإسلام المخزومي: وقد كان الشيخ محيي الدين بالشام وجميع علمائها يتردّدون إليه من غير إنكار، وقد أقام بين أظهرهم نحوًا من ثلاثين سنة، يكتبون مؤلّفاته، ويتداولونها، ويعترفون له بجلالة المقدار، وأنه أستاذ المحققين من غير إنكار بينهم.

قال الشيخ مجد الدين الفيروزابادي بعد أن ذكر مناقب الشيخ محيي الدين: ثم إن الشيخ محي الدين كان مسكنه الشام، وقد أخرج هذه العلوم بالشام، ولم ينكر عليه أحد من علمائها، وقد كان قاضي القضاة الشيخ شمس الدين الشافعي يخدم الشيخ خدمة العبيد.

=

=

وأما قاضي القضاة المالكي فهبَّت عليه نظرة من الشيخ فزوجه ابنته وترك القضاء، وتبع طريقة الشيخ، وأطال في ذكر مناقب الشيخ، ثم قال: وبالجملة فما أنكر على الشيخ محيي الدين إلا بعض الفقهاء الفتح الذين لاحظ لهم في مشرب المحققين.

وأما جمهور العلماء والصوفية: فقد أقرّوا بأنه إمام أهل التحقيق والتوحيد، وأنه في العلوم الظاهرة فريد، قال: ولما جاور بمكة شرفها الله تعالى، وكان البلد إذ ذاك مجمع العلماء أو المحدثين، وكان الشيخ هو المشار إليه بينهم في كل علم تكلموا فيه، وكانوا كلهم يتسارعون إلى مجلسه، ويتبركون بالحضور بين يديه، ويقرؤون عليه تصانيفه قال: ومصنفاته بخزائن مكة إلى الآن أصدق شاهد على ما قلناه.

وكان أكثر اشتغاله بمكة بسماع الحديث واسماعه، وصنف فيها الفتوحات المكية، كتبها على ظهر قلب جوابًا لمسائل سأله عنها تلميذه بدر الدين الحبشي، ولما فرغ منها وضعها في سطح الكعبة المعظمة فأقامت فيه سنة، ثم أنزلها فوجدها كما وضعها لم يبتل منها ورقة، ولا لعبت الرياح بها مع كثرة أمطار مكة ورياحها، وما آذن للناس في كتابتها وقرائتها إلا بعد ذلك.

قال: وأما إشاعة بعض المنكرين عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وعن الشيخ سراج الدين البلقيني أنهما أمرا بإحراق كتب الشيخ محيي الدين فكذّب وزوِّر، ولو أنها أحرقت لم يبقَ منها الآن بمصر والشام نسخة، ولما كان أحد نسخها بعد كلام هذين الشيخين وحاشاهما من ذلك، ولو أن ذلك وقع لم يخفَ؛ لأنه من الأمور العظام التي تسير بها الركبان في الآفاق، ويتعرض لذكرها أصحاب التواريخ.

قال الشيخ سراج الدين المخزومي: كان شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، وكذلك الشيخ تقي الدين السبكي ينكران على الشيخ محي الدين في بداية أمرهما، ثم رجعا عن ذلك حين تحققا كلامه وتأويل مراده، وندمًا على تفريطهما في حقه في البداية، وسلّما له الحال فيما أشكل عليهما عند النهاية.

فمن جملة ما ترجمه به الإمام السبكي: كان الشيخ محيي الدين آية من آيات الله تعالى، وأن الفضل في زمانه رمى بمقاليده إليه، وقال: لا أعرف إلا إياه.

ومن جملة ما قاله الشيخ سراج الدين البلقيني فيه حين سُئل عنه: إياكم والإنكار على شيء من كلام الشيخ محيي الدين، فإنه لما خاض في لجج بحر المعرفة، وتحقيق الحقائق عبر في أواخر عمره في النصوص، والفتوحات، والتنـــزلات الموصلية، وفي غيرها بما لا يخفى على من هو في درجته من أهل الإثارة، ثم أنه جاء من بعده قوم عمي عن طريقه فغلّطوه ذلك، بل كفروه بتلك العبارات و لم يكن عندهم معرفة باصطلاحه، ولا سألوا من يسلك بهم إلى إيضاحه، وذلك أن كلام الشيخ تحته رموز، وروابط، وإشارات، وضوابط، وحذف مضافات في علمه، وعلم أمثاله معلومة، وعند غيرهم من الجهَّال مجهولة، ولو أنهم نظروا إلى كلماته بدلائلها وتطبيقاتها، وعرفوا نتائجها

=

أُمروا بالسكوت، أو بالرموز لا غير، وكذا فوق مرتبة الإنسان مرتبة المواليد، ثم مرتبة العناصر، ثم مرتبة الطبيعة الكلية، ثم مرتبة الأرواح، ثم مرتبة الأعيان الثابتة، ثم

=

ومقدماتها لنالوا الثمرات من مراده، ولم يباين اعتقادهم لاعتقاده، ولقد كذب وافترى من نسبه إلى القول بالحلول والاتحاد، ولم أزل أتتبع كلامه في العقائد وغيرها، وأكثر النظر في أسرار كلامه، وروابطه حتى تحققت بمعرفة ما هو عليه من الحق الحقيق، ووافقت الجمَّ الغفير المعتقدين من الخلق، وحمدت الله ﷻ إذ لم أكتب في ديوان الغافلين من الجاحدين لكرامته وأحواله انتهى كلام البلقيني.

قال تلميذه شيخ الإسلام المخزومي: ولما وَردتُ القاهرة عام توفي شيخنا سراج الدين البلقيني، وذلك في عام أربع وثمانمائة ذكرت له ما سمعت من بعض أهل الشام في حق الشيخ محيي الدين، من أنه يقول بالحلول والاتحاد.

فقال الشيخ: معاذ الله وحاشاه من ذلك إنما هو من أعظم الأئمة، وممن سبح في بحار علوم الكتاب والسنة، وله اليد العظيمة عند الله تعالى والقدم الصدق.

قال المخزومي: فقوي بذلك يقيني في الشيخ من تلك الساعة، وعلمت أنه من رؤوس أهل السنة والجماعة.

قال المخزومي: ولقد بلغنا أن الشيخ تقي الدين السبكي تكلم في شرحه للمنهاج في حق الشيخ بكلمة، ثم استغفر الله بعد ذلك وضرب عليها، فمن وجدها في بعض النسخ فليضرب عليها كما هو في نسخة المؤلف.

قال: مع أن السبكي قد صنف كتبًا في الرد على المجسمة والرافضة، وكتب الأجوبة في الرد على ابن تيمية، ولم يصنف قط شيئًا في الرد على الشيخ محيي الدين مع شهرة كلامه في الشام، وقراءة كتبه في الجامع الأموي وغيره.

بل كان يقول: ليس الرد على الصوفية مذهبي لعلو مراقبهم.

وكذلك كان يقول الشيخ تاج الدين: وأطال المخزومي في الثناء على الشيخ محيي الدين، ثم قال: فمن نقل عن الشيخ تقي الدين السبكي، أو عن الشيخ سراج الدين البلقيني أنهما بقيا على إنكارهما على الشيخ محيي الدين إلى أن ماتا.

فهو مخطئ، وقال: ولما بلغ شيخنا السراج البلقيني أن الشيخ بدر الدين السبكي شيخ الإسلام بالشام ردَّ على الشيخ موضعًا من كتاب «الفصوص» أرسل إليه كتابًا من جملته:

يا قاضي القضاة الحذر ثم الحذر من الإنكار على أولياء الله تعالى، وإن كنت ولابد رادًّا فرد كلام من رد على الشيخ وإلا فدع انتهى.

وسئل العماد بن كثير عمن يخطئ الشيخ محيي الدين قال: أخشى أن يكون من يخطئه هو المخطئ، وقد أنكر قومٌ على الشيخ فوقعوا في المهالك، وكذلك سئل الشيخ أن بدر الدين بن جماعة عن الشيخ محيي الدين، فقال: ما لكم ولرجل قد أجمع الناس على جلالته.

مرتبة الشئون الذاتية الغيبية، ولا اسم ولا رسم، ولا نعت ولا وصف فوقها.

وبعبارة أُخرى: فوق مرتبة الإنسان الخاص، وهي مرتبة الولاية، وفوقها مرتبة الإنسان الأخص، وهي مرتبة النبوة، وفوقها مرتبة الإنسان الذي هو أخص الأخص، وهي مرتبة الرسالة، وفيما بعد المرتبة الأولى يظهر الإنسان في صورة الحق بالفعل، فهو إذًا حق خلق.

وأما في المرتبة الأولى فهو وإن كان ظاهرًا في صورة الحق، لكن بالقوة لوجود الحجاب والجهل والغفلة، كشف الله من بصائرنا ذلك الحجاب آمين.

قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ**﴾ [البقرة: ٢].

: أي الإنسان الذي هو القرآن الفعلي، المشتمل على حروف الشئون، وكلمات الأرواح، وآيات المثال، وسور الأجسام، كما قال تعالى:

﴿**وَالطُّورِ*وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ**﴾ [الطور: ١، ٢]، فإنه إشارةٌ إلى الوجود الحق، المسطور آثاره في التعينات كلها.

﴿**لاَ رَيبَ فِيه**﴾: أي في كونه كتابًا مسطورًا، وقرآنًا فعليًّا، وتنزيلاً تكوينيًّا عند أهل الفهم عن الله تعالى دون غيرهم، ولذا وقع الغافلون في الجدل والإنكار، ولم يزل الأمر على هذا إلى آخر الزمان، وسيجيء زمانٌ يقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، مكذبين منكرين، وما ينفعهم القسم الكاذب إذ ذاك، والله الصادق.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا**﴾ [البقرة: ٢٦].

يعني: إن ضرب المثل بالبعوضة حقٌّ موافق للحقيقة، وإنما يعلمه المؤمنون الكاملون الذين وصلوا إلى مرتبة شهود الحقائق.

وأمَّا الكافرون الساترون وجود الحق بوجود الخلق، فيستعظمون ذلك بناءً على جهلهم بالحقائق.

ولذا كان ضرب المثل هداية للمؤمنين إلى معرفة الحقائق في مراتبها، وشهود الحق في مرائيه، وضلالة للكافرين حيث زاغوا عن طريق المعرفة، وانحرفوا عن الاستقامة، وذلك أن البعوضة بعض من أجزاء العالم، وكل أجزاء الآفاقي أجزاء

العالم الأنفسي من غير نقصان، فضرب المثل بالبعوضة، ضرب له ببعض أجزائها.

ولا شك أن الإنسان أشدُّ انتقالاً منه؛ لأنه أعرف بنفسه وبأجزائه، وذلك التمثيل لا ينافي عظمة الله تعالى وجلالته؛ لأن له مراتب كثيرة ومجالات متعددة، فقد يظهر سرُّه في صورة الفيل والعنقاء، وقد يظهر في صورة النمل والبعوضة، وأيضًا يظهر في صورة الشمس، وفي صورة الهباء، والله بكل شيء محيط.

فكما أنه غنيٌّ عن العالمين في مرتبة غيب ذاته وهويته بحيث لا يُضاف إليه التعيُّن، ولا تعيُّن؛ لأن كل منهما من الأمور الإضافية التي لا تناسب إطلاقه الحقيقي الذاتي، فيكون إطلاق مثل ذلك عليه كفرًا في الحقيقة؛ لأنه من قبيل التقييد والتجرُّد الذاتي، عالٍ غنيٌّ عنه فكذا إنه تعالى رب العالمين، فأضاف نفسه إلى العالمين بيانًا لارتباطه بهم من حيث التجلِّي الأحدي الساري في جميع الموجودات.

فكما أن الأم تربِّي الطفل بلبنها الفائض من بطنها؛ فكذا إن الله تعالى يربِّي العالمين من حيث اسمه الباطن جسمًا يساعده الظاهر، فإن التربية تابعة للمربين المربِّي، فيجيء التأثير من الباطن إلى الظاهر، ويظهر أنواع الأغذية بحسب تأثيره وخلاقيته بحيث ينمو كل شيء إلى أن ينتهي إلى غايته في الكمال الجسماني والروحاني كما قال تعالى: ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه: ٥٠] (١).

وهذا الظهور بحسب التجلِّي العام: استدعى ألا يستحيي الله تعالى من ضرب المثل بالبعوضة؛ لأن البعوضة صورة من صور تجليَّاته، وداخلة تحت أسمائه وصفاته، وإن كان اسمها من الأسماء الجزئية الداخلة تحت الأسماء الكلية، فكما أن السلطان سلطان، وهو جالس على سريره؛ فكذا أقل خُدَّامه وهو قائم بين يديه، فإن المضاف إلى السلطان سلطان، ولو حكمًا، فإنه صورة من صور أسمائه.

ألا ترى إلى مراتب رجال السلطنة حيث إن ملك المراتب مراتب للسلطان في

---

(١) قال سيدي علي وفا: فالناطق الآدمي مهيمن على كل ناطق كرني ربَّاني، والناطق الربَّاني الإلهي مهيمن عليه من حيث كل ناطق ربَّاني كوني، وإن كان هو منهم من حيث هو ناطق ربَّاني إلهي، فناطق أئمة الهدي وجه أحسن الخالقين، كما قال بعض مظاهره: ﴿**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه: ٥٠]، فافهم.

في الحقيقة ظهر فيها بصورة أسمائه وخُدَّامه، فإذا كان الله هو المتجلّي نوره في وجه البعوضة في بعض مراتب التنـــزُّلات؛ فالتمثيل إذًا بالأصلي والأدنى سواء؛ لأن كل شيء، ففي قولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾ [٢٦] تحقيرًا للممثِّل الذي هو نور الله تعالى، وسرُّه العظيم الظاهر في الصورة الحقيرة، فالحقارة راجعة إلى ظاهرها بحسب تعيُّنها لا إلى باطنها بحسب المتعيَّن فيها، فاعرف فإنه من لباس المعرفة، ومَن تنبَّه لأمثاله، وهي لا تُحصى، ومَن انكشفت بصيرته؛ رأى الله في كل شيء قبل كل شيء، ومع كل شيء، وبعد كل شيء، عجبًا من المحجوبين كيف غفلوا عن الحقائق وهي حاضرة لديهم؟.

ألا ترى إلى السلطان مثلاً إذا أحضروا ولده الصغير بين يديه كيف يعامله؟ هل يعامله بحسب مقامه من القبض والهيبة؟ أم بحسب مقام الصغير من الانبساط والأُنس؟ ومَن رأى انبساطه معه لا يقول أنه سقط عن رتبة السلطنة؛ حيث لا يليق به هذه المعاملة، فإن رتبة الصغير لا تقتضي إلا إياها، فالسلطان سلطان على حاله، وإن تنـــزَّل إلى مرتبة الصغير في معاملة الانبساط.

وقد أخبر لسان الشرع عن مثل هذا كالفرح، والضحك، والمجيء، والذهاب والتعجُّب، ونحو ذلك، فمَن أوَّله فقد خرج عن طريق السداد وهم العلماء المحجوبون، فإن الله تعالى بحسب قُدس ذاته، وإن كان لا يتَّصف بمثله لكن إذا أضافه إلى نفسه في بعض مراتب تنـــزُّلاته وتجلِّياته وجب أن يُفوِّض الأمر إليه في ذلك، وإبقاؤه على ظاهره من غير تأويل، فإنه قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فله سمع وأبصر بحسب ما يعلمه، ولا يخرجه ذلك عن مرتبة غِناه عن العالمين.

ألا ترى أن جبريل عليه السلام كان قد يظهر في صورة دحية مع بقائه على حقيقته الملكية، فهو ذو لحية، وشعر، وله كلام بشري، ويد، ورجل ونحو ذلك في تلك الصورة، وهو عارضها في صورته الحقيقية، وأمثلة هذا المقام كثيرة؛ لكن لا ينفع العسل للممرور، أذاقنا الله وإياكم حلاوة العلوم، والمعارف، وجعلنا من أهل الحكم، والحقائق، واللطائف.

قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ﴾ [البقرة:٥٤].

إشارة إلى القوى النفسانية والطبيعية العاصية، كما دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ [طه:٩٠]: أي بعبادة عجل الطبيعة الذي اتخذه سامري الهوى، مع أنه لابد من ذبحه.

كما قال: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]؛ وهي أمانات الأمر والنهي، وأهلها القلب والقوى الروحانية، وبوصولها إليها والحركة بالعمل بمقتضياتها؛ ينكسر سورة النفس والطبيعة، وتموت القوى الفاسدة الحاملة لموت القلب، وحياة النفس.

وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧]؛ فهذه البقرة باقية في العالم مادام الجهاد باقيًا ماضيًا إلى يوم القيامة، فمَن أهلَّ النفس أبقاها، ومَن أهلَّ القلب ذبحها، فإنه القوي المتين.

وفيه إشارة إلى أن ما سوى الله تعالى كله فتنة للإنسان؛ ومنه وجوده وما يتبعه سوى سرِّ سرِّه الذي هو مظهر الوجود والإطلاق الغيبي كما ورد: «**سرُّ الإنسان سرِّي، وسرِّي سرُّه**»: أي سرُّه ظاهر سرِّي، وسرِّي باطن سرِّه، فافهم جدًا[1].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧].

وقال تعالى: ﴿لاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

أمر الله تعالى في الآية الأولى من طريق الإشارة بذبح بقرة الطبيعة والنفس؛ لأنهما واحدة في الحقيقة، ومختلفتان ببعض الخصائص؛ حيث إن الطبيعة محلُّ الشهوة الجسمانية، واللَّذَّة النفسانية، والنفس محلُّ الهوى، والميل إلى ما سوى المولى، ونهى في الآية الثانية عن قتل الأنفس، والتوفيق بينهما هو أن المراد بالأنفس في الآية الثانية؛ هو الأرواح، ومعنى قتلها المباشر بأسباب تؤدي إلى مفارقتها عن الأبدان، واضمحلال آثارها عنها بالكلية وهو المراد بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٥]، [العنكبوت: ٥٧]: أي مفارقة لبدنها بانقطاع عن ظاهره، وباطنه، والمراد بالنفس في إشارة الآية الأولى؛ هي القوة المخصوصة الباعثة على الهوى، والانقياد إلى الطاغوت

---

(١) الحديث كشفي، وقال سيدي محمد وفا ﷺ: السر هو ما يخفى في البيان، وحقيقته: معنًى يُعْجِز عن تصور ما هو الفكر البشري، وغايته: وجدانٌ يقوم بالقلب لا يمكن التعبير عنه بوجهٍ من الوجوه.

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣]، فالهوى له مطاع بالنسبة إلى أهل الهوى.

ومعنى ذبحها: إزالة شهوات الطبيعة في مرتبة الشريعة، وقطع بلعوم الهوى في مرتبة الطريقة، فظهر من هذا أن الذي يليق بالذبح والقتل؛ هو قوة الطبيعة والنفس دون الروح، فإنه من نفخ الله تعالى.

ولا شك أنه حيٌّ بذاته أبدًا، وكذا محيي لغيره، وما له حياة ذاتية لا يموت، ولا يفنى، ولا يُعذَّب، فإن العذاب هو الروح الحيواني الذي هو مبدأ الحركة والحس وهو الذائق لألم الموت، وعليه يدور سكراته، وكذا جميع الأوجاع المتعلِّقة بالبدن في الدنيا، وكذا هو العاصي حتى إن الله تعالى نزع الروح المحمَّدي عن آدم عليه السلام حينما عصى، وذلك أن لكل شخص حصَّة من ذلك النور رُشَّت عليه حينما خلقه الله، فمَن أطاع الله والرسول؛ فقد حفظه، ومَن عصاه، وخالف الرسول، فقد أضاعه، وبقي في ظلمة الروح الحيواني، والظلمة لا تجيء منها إلا الظلمة.

والحاصل أن الروح وإن كان حيًّا بحياة ذاتية ليس عندها موت من قِبل الطبيعة والنفس، لكن لا يظهر ذلك إلا بعد إماتة الطبيعة والنفس، فمن أحياه بقتلهما؛ فكأنما أحيى الناس جميعًا، وهي الحواس الظاهرة في بدن الإنسان، ومَن قتله بإحيائهما؛ فكأنما قتل الناس جميعًا.

وذلك أن الأمر الوجود يدور عليه، فإذا كان حيًّا موجودًا كان الوجود كله حيًّا موجودًا، وإذا كان ميتًا مفقودًا؛ كان الوجود كله كذلك.

فإن قلتَ: قولهم إفناء الروح يدل على أنه حي لابد من إماتته.

قلتُ: المراد ما بذله في طريق الحق بكل ما يمكن من الحركات.

وأمَّا قطع التعلُّق به فإنه حجاب نوراني، ونوره أقل، إذ هو كالشمس في إنارة عام الوجود، ولكن الشمس والقمر ينخسفان يوم القيامة، وتكون الجنة مُنوَّرة بنور ذاته الإلهي، لا يغرب أبدًا، وهو نور السرِّ في الدنيا بالنسبة إلى أهل التجلِّي من الكُمَّل، فإنه غير غارب، وهذا المقام يقتضي زيادة البسط لكن اكتفينا بهذا المقدار لِما يقتضيه الوقت والحال، فعليك بقتل نفسك، فإن فيه حياتك، ولك أجر عليه عظيم.

وقال الله عز وجل: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥].

هذه الرحمة الاختصاصية غير الرحمة الوجوبية التي كتبها على نفسه بمقابلة عمل عبده، فإن الرحمة الاختصاصية؛ إنما هي من عين المنَّة والفضل؛ وهو الإحسان الابتدائي الغير الموقوف على شيء من الأشياء، وعلى سبب من الأسباب، وعلى علَّة من العلل، وإن كانت المنح الإلهية، والأعطية الرحمانية كلها من باب المنَّة بالنسبة إلى مَن وصل إلى العين، ودخل من الباب، ولم يقف في البيْن، ولم يكن له نسبة كون، ولا أين؛ فله تعالى رحمة وجوبية يرحم بها عباده بإعطاء الدرجات بمقابلة أعمالهم.

وله تعالى رحمة امتنانية يرحم بها عباده؛ بإعطائهم درجات أخرى لا بمقابلة أعمالهم؛ بل من عين المنَّة والفضل، ويتصل بها رحمة التوريث في الجنة، فإنه تعالى يرحم بها عباده المؤمنين؛ بإعطائهم مقامات الكفار على تقدير إيمانهم وطاعتهم، فلهم جنات ثلث؛ جنة العمل، وجنة الميراث، وجنة الاختصاص[1].

لطيفة: ومن هنا ورد الخطاب الإلهي لهذا الفقير في سحر ليلة السبت الحادي عشر من شهر مولد النبي ﷺ من سنة ثلاثين ومائة وألف، وأنا في الشام حيث قال لي من غير واسطة بيني وبينه من الوجه الخاص بهذه العبارة: «**ولي مراتب أخرى بحسب كرمي**»[2].

يعني: كما أن للعبد مراتب بحسب استعداده، وسؤاله، وعمله؛ وهي المراتب الكونية؛ فكذا لله تعالى مراتب بحسب إفاضته الاستعداد، وجوده، وكرمه؛ وهي المراتب الإلهية.

فجوده: عطاؤه قبل السؤال؛ وهو الفيض الامتناني الرحماني.

---

(١) والرحمة: هي صفة الله التي يتعطف بها على عبيده؛ فيبلغهم خيره ونعمته، فيبدل الألم باللذة، ويصل اللذة بمثلها، وقد نقول: الرحمة: هي ترك الرحيم حقه للمرحوم، وإعطاؤه من الخير ما لا يجب له عليه، وقد نقول: الرحمة: هي إفادة الرحيم للمرحوم خيرًا لا يستحقه عنده حيث هو، وقد نقول: الرحمة: هي إفادة الحق للعبد وجودًا ليس له، والرضوان هنا بحسب هذا التقييد: هو صفة الخير الذاتي الموجود في ذات الله تعالى، مثل الشيء المطبوع الذي لا يمكن أن يكون الشيء إلا على تلك الصفة، وهو الذي يوجب الرحمة بوجه محتوم لا يمكن أن يعقل المحل المشار إليه إلا كذلك.

(٢) حديث كشفي.

كرمه: عطاؤه بعد السؤال عن طيب نفس لا عن حياء إلا عن تخلُّق إلهي، وطلب مقام رباني، وهو الفيض الرحماني.

وهيبته: وعطاؤه، لينعم خاصته: أي لينعم المعطي له، ويعيش طيِّبًا لا لأمر آخر: أي لا يقترن معه طلب جزاء، وتكليف عِوض مَن شكر باللسان، وعمل بالجنان، والاركان، ووجوب شكر المنعِم؛ إنما هو لأجل العبودية المعطى له، لا لتكليف الواهب؛ فهو من العبد عمله لحق الربوبية، لا للجزاء.

والعطاء، هو هبة الأصل، والمنح، هو هبة المنفعة، والمنح، هو التمليك فقط، والعطاء يعمَّه، والإباحة.

ثم قوله تعالى: (**بحسب كرمي**): إشارة إلى أن المنَّة قد تكون بسؤال لسان الاستعداد الكلِّي المفاض من الحق تعالى بحسب الفيض الأقدس، ولسان الاستعداد الجزئي المفاض منه تعالى بحسب الفيض المقدَّس.

فإنه تعالى يقول: «**يا عبدي قد حصل لك مراتب عملك، ودرجات سعيك، وبقيت مراتب جودي، ودرجات كرمي**»[1]؛ التي هي عين المنَّة والفضل، فإن الأُلوهية مما تقتضيه جدًا.

ألا ترى أن السلطان قد يجود على جنوده، ويعطي لهم عطايا لا بمقابلة أعمالهم من الحرب مع الأعداء ونحوه؛ بل من عين المنَّة، فلهم عطيَّتان؛ عطية هي أجرهم بمقابلة أعمالهم، وعطية هي من باب الفضل.

ولا شك أن الخلق الإنساني الامتناني مأخوذ من الخلق الرحماني الامتناني، فالله تعالى أَوْلى بالامتنان من عبده، فليكن العبد على التسليم، والرضا، والله خير وأبقى، وإليه المنتهى، وما ربك بظلاَّم للعبيد؛ بل هو المحسن المتفضل، ذو العرش المجيد.

في سورة البقرة: قال الله سبحانه: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [البقرة:١٤٩].

أَراد بحيث الأماكن المختلفة الصورية شرقًا وغربًا، جنوبًا وشمالاً، فكما إذا

(١) لم أقف عليه.

خرج الإنسان إلى جانب القبلة؛ كانت قبلته تلقاء المسجد الحرام، فكذا إذا خالفه بالإدبار ونحوه، وذلك الاختيار.

وأمَّا في وقت الاضطراب فيتوجه إلى حيث أمكن، فظاهر الاضطرار، وباطن الاختيار يكون أمرًا واحدًا هو التوجه الوحداني من غير تقيُّد بجهة من الجهات، وسرُّ ذلك أن باطن الاختيار أيضًا اضطرار عند مَن له كشف وشهود؛ لأن الاختيار خبر في الحقيقة، وليس المحرِّك إلا الله تعالى.

وإنما شرَّع التوجه إلى القبلة في الظاهر؛ لأن الكعبة عندها الهمم، ففيه القوة على أنه من باب الأدب؛ لأن الإنسان من جهة ظاهره مقيَّد بالقيود، فلا بد له من التحديد، وذلك لا ينافي الاطلاق المعنوي.

وقد جعل الله الكعبة المساجد؛ كمدار العالم، فكما أن نقاط الدائرة تتوجه إلى المركز؛ فكذا المساجد تتوجه إلى أُم المساجد؛ لكن التوجه إلى ميزاب الرحمة أقوى من التوجه إلى سائر الجهات؛ لأنه حاله ﷺ في اواخره.

وفيه إشارة إلى الأسفار المعنوية من جهة الأسماء الإلهية من حيث إنه لا بد في تلك الأسفار من التوجه إلى المسمَّى؛ لأنه مدار الأسماء كلها؛ ولكن لمَّا كان المسمَّى من حيث إطلاقه لا يمكن التوجه إليه؛ جُعل القلب في المعنى بمنـــزلة المسجد الحرام في الظاهر؛ فهو مظهر المسمَّى، ومن تلك الجهة يمكن التوجه إليه؛ فهو بيت لله تعالى في الحقيقة، وإليه توجُّهات الأسماء في الأسفار.

كما قال تعالى: «**يا داود فرِّغ لي بيتًا أسكنه**»[1].

أراد به قلب داود، وتضريعه قطع تعلُّقاته، وتخلِّيه عن الخواطر ونحوها، ولأن القلب متوجه الأسماء كلها جمالية وجلالية؛ كان أهل القلب أقوى من أهل الروح؛ لأن أهل الروح أهل الجمال فقط، فمَن كان دعوته من مقام القلب؛ كان قومه أطوع، ومَن كان دعوته من مقام الروح؛ كان قومه أعدل، ومَن كان دعوته من مقام السرِّ؛ كان قومه أنكر كقوم نوح عليه السلام، ولذا قلَّ الإيمان مع تمادي مدة الدعوة، وفي كل ذلك حكمة إلهية.

---

(١) أورده سيدي محمد وفا في المعاريج (ص١٩٦) بتحقيقنا.

فكما أن الأنبياء – عليهم السلام – على مشارب مختلفة من الجمال، والجلال، والهيبة، والأُنس[١]؛ فكذا أقوامهم على استعدادات متفاوتة من القبول؛ إذ جميع مراتب الدعوة من الأفعال، والصفات، والذات، لم ينله إلا هذه الأمة المرحومة؛ لكمال استعدادها، ولكون النبي ﷺ قلب العالم بُعث في مكة التي هي قلب البلاد؛ لكن أُمر بالهجرة؛ ليبقى التوجه إلى الله تعالى، فإن حرم الله لا يشاركه فيه أحد كائن مَن كان.

فاعرف الغيرة[٢] الإلهية، فتقرر أن توجه القلب إنما هو إلى المسجد الحرام؛ لأنه في صورة مسمَّى الله، وأمَّا النبي ﷺ؛ فهو سرٌّ للمسمَّى، فالحجر الأسود يدُ الله صورة، واليد النبوية يدُ الله معنى، وكذا أيدي الورثة الكبار.

الحاصل أن المساجد كلها قبلة، والكل متوجه إلى صورة الكعبة، وكذا أبدان مَن صلَّى فيها ووجوههم، وإن القلوب كلها قِبلة، والكلُّ متوجه إلى سرِّ الكعبة، وهو النبي ﷺ في الظاهر، ومسمَّى الله الأحدي في الباطن، فمَن مشى على المراتب؛

---

(١) قال الشعراني ﷺ في «القواعد الكشفية» في الكلام على الأنس بالله: إن ذلك لا يصحُّ لأحدٍ من الأولياء؛ لما تقدم من الجهل بكنه الذات.

وقد قال الولي الكامل سيدي علي بن وفا رحمه الله: (لا يصحُّ الأنس بالله تعالى لأحدٍ من المحققين، وما أنس إلا بما منه من التقريبات لا بذاته تعالى).

قلت: وقد أجمع أهل الطريق على ما قاله سيدي علي بن وفا رحمه الله تعالى، وقالو: الأنس لا يصحُّ إلا بالمشاكلة والمناسبة، وليس بين الخلق وربهم مشاكلةٌ ولا مناسبةٌ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا اهـ.

ثم قال: إيَّاك أن تقول أنك أنست بالله تعالى عينًا؛ فإن ذلك لا يصحُّ، وقد سمعت مرة هاتفًا يقول: (إذا كان كل شيءٍ خطر ببال عبدي فأنا بخلافه، فكيف يصح له مناجاتي على الكشف والشهود والأنس بي) اهـ (ص٥٨).

وقد قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به في تعريف الأنس: الأنس هو ظهور علامات تشعر النفس بنيل المراد، وحقيقته: مد يد الأطماع إلى اقتطاف ثمر المواصلة، وغايته: تصرف العبد في ملك الرب؛ اعتمادًا على التحقيق بصحة المحبة التي توجب رفع علل المغايرة اهـ.

(٢) **قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به**: الغيرة هي حرصٌ يُوجب صون المخصوص بالمحبة عن إشراف لواحظ الأسباب المؤدِّية إلى بذله، مع عدم الاستحقاق، واستقباح فحش الشركة فيه، وحقيقتها: حميةٌ تستلزمها المحبة؛ لمنع صفاء ما يكدر صفاء العين مع المحبوب انتهى.

لم ينحرف في القبلة لا ظاهرًا ولا باطنًا، ومَن لم يعرف المراتب؛ بقي أعمى عن السمت؛ فهو لا يدري أي صلاة يُصلِّي، وأي قِبلة يستقبل[١]، والله البصير، وهو العليم الخبير.

وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة:١٤٩].

: أي المأمور به الذي هو تولية الوجه إلى الكعبة[٢] وهو الثابت في علم الله تعالى من مقام الربوبية؛ يعني: إن تولية الوجه إليها من باب التربية الإلهية؛ لأنه رب العالمين، واللائق به إيصالهم إلى كمالهم الذي هو المستعدُّون له، ومنعه عنهم إبطال لاستعدادهم، وفي ذلك بُطلان لهم، فظهر أن صورة الكعبة حق، وإن كانت الصورة من باب الخيال، كما قال بعض العارفين: إنما الكون خيال؛ وهو حق في الحقيقة.

وذلك ان الخيال كظل، وهو وإن كان تابعًا لذي الظل في الوجود؛ لكنه له وجود في الجملة، وإلا لما كان تابعًا له، فوجود التابع وجود اعتباري، ووجود المتبوع وجود حقيقي، فإن شئت جعلت له وجوده بالكافي وجوده باعتبار الشهود والجمع، وإن شئت جعلت له وجود في الجملة باعتبار الحجاب والفرق، والكل من باب الحقائق بالنسبة إلى مقامه، فإذا كانت صورة الكعبة حقًا ثابتًا بحيث وجب التوجه إليها بالوجه الظاهري، فكذا سرُّها، وهو القلب سواء كان قلوب الوسائط، أو قلب

---

(١) وروح الاستقبال فيه من الأرواح الفرقانية.

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فروح الاستقبال روح وصل بروح توجه إلى الروح الأعظم في هذا الوجه المبارك الذي فيه من أرواح الخليل والأرواح المحمدية ولله أرواح المشارق والمغارب، وكل الجهات وأرواحها فهو الروح الأعظم والرب المالك للأرواح والممالك وساعات الإقبال فيها من أرواح الوصال.

والعلم بروح الوقت روح وصل بروح مراقبة وروح فكر في أرواح الموازين بأرواح الفصل في أرواح الأكوان بأرواح من الزيادة والنقصان وفي ذلك من أرواح التذكر والاعتبار في أرواح الليل والنهار.

(٢) الكعبة ظل البيت المعمور كما السلطان ظل الله في الأرض، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، يصلي فيه العبد بربه صلة تصوره على صورته، فافهم.

النبي ﷺ حق ثابت بحيث لزم الإقبال إليه بالوجه الباطني، والحق واحد في البين، وإنما التعدُّد باعتبار الظاهر، والباطن، وهو لا ينافي الاتحاد في الحقيقة؛ لأن العين واحدة.

ولذا قال: هو الأول؛ فجعل الكعبة أول بيت وُضع للناس، وهو الآخر؛ فجعل التوجه إليها آخر التوجهات، وهو الظاهر؛ فجعل الكعبة بحيث يراها الأحباب والأعداء، وهو الباطن؛ فجعل السرَّ الذي استمئنت عليه بحيث لا يراها إلا أولوا الأبصار؛ ولذا قال: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨]: أي لأن الأعمى لا يُبصر في الحقيقة، وهم عُمي القلوب، ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، ولو كان العمى الظاهر حجابًا عن الحق؛ لكان منعه عن مجلس أهل الحق واجبًا، وقد عاتب الله تعالى فيه نبيه حيث قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَن جَاءهُ الأَعْمَى﴾ [عبس:١، ٢].

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٩].

إشارة إلى أن الله تعالى مع عبده في الصورة والمعنى؛ لأن كلاً منهما مضاف إليه تعالى، فعمل الصورة هو التوجه الصوري إلى القبلة الصورية، وعمل المعنى هو التوجه إلى القبلة الحقيقية، ونفي الغفلة عنه تعالى إرشاد إلى مقام المراقبة[1] الذي هو

(١) قال ابن عياد: قال سيدنا الشاذلي ﷺ: أيها السالك بطريق الآخرة بتحصيل ما أمرت به في ظاهرك، فإذا فعلت ذلك فاجلس على بساط المراقبة وخذ بتخليص باطنك حتى لا يبقى فيه شئ مما عنه نهاك وأعطي الجد حقه، وأقلل النظر إلى ظاهرك إن أردت فتح باطنك لأسرار ملكوت ربك فما ورد عليك من خطرات قصدك عن مرادك فاعلم أولاً قرب ربك منك علماً تباشر قلبك بتكرار النظر في جلب منافعك ودفع مضارك وانظر هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض وإن من الأرض نفسك ومن السماء قلبك، فإذا نزل من السماء إلى الأرض شئ من ذا الذي يصرفه عنك غير الله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنـزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، فأعط المعية حقها بلزوم العبودية له في أحكامه ودع عنك منازعة الربوبية في أفعاله من ينازعه يغلب ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨] نعم الحق ما أقول لك ما نفس من أنفاسك إلا والله متوليه مستسلمًا كنت أو منازعًا لأنك تريد الاستسلام في وقت وتأبى إلا النـزاع وتريد النـزاع في وقت آخر وتأبى إلا الاستسلام فدلت هذه على ربوبيته في جميع أفعاله ولا سيما عند من اشتغل بمراعاة قلبه لتحصيل حقائقه، فإذا كان الأمر بهذا الوصف فأعط الأدب حقه فيما يرد عليك بأن لا تشهد لشئ منك أولية إلا بأوليته ولا آخر إلا بآخريته ولا ظاهرًا إلا بظاهريته ولا =

=

باطنًا إلا بباطنيته، فإن تنبهت لمؤل الأول نظرت لما تأول فيما تأوله، فإن صدر عليك خاطر من محبوب يوافق النفس أو مكروه لا يلائمها مما لا يحرمه الشرع فانظر لما يخلقه الله فيك بآثار ما يخطر ببالك، فإن وجدت تنبيهًا على الله فعليك بالتحقيق، فذلك أدب الوقت عليك ولا ترجع إلى غيره، فإن لم تجد السبيل إلى التحقيق به فعرس بين يديه فهو أدب الوقت عليك ومهما رجعت إلى غيره فقد أخطأت سبيلك فإن لم يكن ذلك منك فعليك بالتوكل والرضا والتسليم فإن لم تجد السبيل إليه فعليك بالدعاء في جلب المنافع ودفع المضار بشرط الاستسلام والتفويض وأحذرك من الاختيار فإنه شر عند ذوي البصائر فإذن هي أربعة آداب أدب التحقيق وأدب التعريس وأدب التوكل وأدب الدعاء، فمن تحقق به حفظ منه ومن عرس عنده كفي من غيره ومن توكل عليه كفي من اختيار نفسه باختيار ربه ومن دعاه بشرط الإقبال والمحبة أجابه إن شاء فيما يصلح له أو منعه إن شاء فيما لا يصلح له.

ولكل أدب بساط البساط الأول: بساط التحقيق إذا ورد عليك خاطر من غيره وكشف لك عن صفاته فكن هنالك بسرك وحرام عليك أن تشهد غيره .

البساط الثاني: بساط التعريس إذا ورد عليك خاطر من غيره وكشف عن أفعاله فعرس هناك بسرك وحرام عليك أن تشهد غير صفاته شاهداً أو مشهوداً وفي الأول فناء الشاهد وبقاء المشهود.

البساط الثالث: بساط التوكل إذا ورد عليك خاطر من غيره ليس مما تقدم ذكره من محبوب أو مكروه وكشف لك عن عيوبك جلست على بساط محبته متوكلاً عليه راضيًا بما يبدو لك من آثار فعله من أنوار حجبه.

البساط الرابع بساط الدعاء فإن ورد عليك خاطر من غيره وكشف لك عن فقرك إليه فقد دلك على غناك فاتخذ الفقر بساطاً فاحذر أن تنـــزل عن هذه الدرجة إلى غيرها فتقع في مكر الله من حيث لا تعلم وأقل ما يكون منك إذا تنـــزلت عنها أن ترجع إلى نفسك مدبراً لها ومختاراً وأشرقت أحوالك ولا حال لك أن تحملها على الجد والاجتهاد إما في ظاهرك أو في باطنك طمعاً أن تدفع بذلك عن نفسك وما أسوأ حالك إذا كابدت أن تدفع عنها ما أراد الله أن يدفعه عنك فكيف إذا نازعته فيما لم يرد دفعه عنك وأقل ما في هذا الباب دعاوى الشرك، فإنك قد غلبت وما غلبت فإن كنت غالباً فكن حيث شئت ولن تكون حيث شئت أبدًا فدلّ اجتهادك على عظيم جهلك بأفعال الله وما أقبح عابداً جاهلاً أو عالمًا فاسقًا فما أدري بأي الموضعين أصفك بالجهل أم بالفسق أم بهما جميعاً نعوذ بالله من تعطيل النفس عن المجاهدات ومن خلو القلب عن المشاهدات إذ التعطيل ينفي الشرع والخلو ينفي التوحيد وحاكم الشرع قد جاء بهما جمعًا فأدرج بهما جميعًا عن منازعة ربك تكن موحداً واعمل بأركان الشرع تكن سُنيًا واجمع بينهما بعين التأليف تكن محققًا: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣] ثم إن خطر لك أيضًا في مراقبتك خاطر من مكروه في الشرع أو محبوب فيه مما قد سلف منك فانظر ما تذكر به وتنبه وإن ذكرت

=

=

الله فأدبك بتوحيده على بساط تفريده فإن لم ترد بك رؤية فضله فيما جلا لك من لطائف رحمته وزينك من طاعته بتخصيص محبته على بساط مودته، فإن نزلت عن هذه الدرجة و لم تكن هناك، فأدبك رؤية فضله إذ سترك فيما اقترفت من معصيته و لم يكشف سترك لأحد من خلقه فإن صُرفت عن هذا الباب وذكرت معصيتك و لم تذكر ما تقدم من الآداب الثلاثة فقم بأدب الدعاء في التوبة منها أو من مثلها بطلب المغفرة لها بحسب ما يطلبه الجاني المحاط به هذا في جانب المكروه في الشرع وأما إذا ورد عليك خاطر من طاعته تقدمت وذكرت من أفادك فلا تقرر عينك بها بل بمنشئها، فإذا قرت عينك بغير فقد سقطت عن درجة التحقيق فإن لم تكن في هذه المنـــزلة فكن في التي تليها وهو أن تشهد عظم فضل الله تعالى أن جعلك من أهلها وميزانها أن ترزق خيراً منها بل من علامتها الدالة على صحتها وإن لم تتبوأها وبُوئت فيما دونها فأدبك تدقيق النظر في تلك الطاعة هل هي هي وأنت سالم من المطالبة فيها أم هي بعكس ذلك وأنت مأخوذ بها نعوذ بالله من حسنات تعود سيئات ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧] فإن نزلت عن هذه الدرجة إلى غيرها فأدبك طلب النجاة منها بحسنها وسيئها وليكن هروبك من حسناتك أكثر من هروبك من سيئاتك إن أردت أن تكون من الصالحين .

وقال الشاذلي رضي الله عنه: إذا أردت أن يكون لك نصيب ممـــا لأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة إلى من يدلك على الله بإشارة صادقة أو بأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة وأعرض عن الدنيا بالكلية ولا تكن مما يعرض عنها ليعطى شيئاً على ذلك بل كن في ذلك عبداً لله أمرك أن ترفض عدوه، فإن أتيت بهاتين الخصلتين الإعراض عن الدنيا والزهد في الناس فأقم مع الله بالمراقبة والتزم التوبة بالرعاية والاستغفار بالإنابة والخضوع للأحكام بالإستقامة، وتفسير هذه الأربعة أن تقوم عبداً لله فيما تأتي وتذر فتراقب قلبك ألا يرى في المملكة شيئاً لغيره، فإن أبيت بها نادتك هواتف الحق بأنوار العز إنك قد عميت عن طريق الرشد من أين لك القيام مع الله بالمراقبة وأنت تسمع: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾ [الأحزاب:٥٣] فهنالك يدركك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت به أنه قربة فتلزم بالتوبة والرعاية لقلبك أن لا تشهد ذلك منك بحال فتعود إلى ما خرجت عنه وإن صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضًا من قبل الحق أليست التوبة منه بدء والإنابة تتبعها منه واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك فهنالك تنظر أوصافك، فتستعيذ بالله منها وتأخذ في الاستغفار والإنابة والاستغفار طلب الستر من أوصافك بالرجوع إلى أوصافه، فإن كنت بهذه الصفة أعني الاستغفار والإنابة ناداك من قريب اخضع لأحكامي ودع عنك منازعتي واستقم مع إرادتي برفض إرادتك، وإنما هي ربوبية تولت عبودية فكن عبداً مملوكاً لا تقدر على شئ فمتى رأيت منك قدرة وكلتك إليها وأنا بكل شئ عليم، وإن صح لك هذا الباب ولزمته أشرفت من هناك على أسرار لا تكاد تسمع من أحد من العالمين.

مقام الإحسان والشهود، وفيه وعد للمؤمنين المكاشفين بأن لهم من الله الأجر الأخروي في التوجه الصوري؛ لأنه من عمل البدن؛ فله الجنة ونعيمها، وبأن لهم منه تعالى النور في التوجه المعنوي؛ لأنه من عملٍ الروحِ والسر؛ فله الجنة في الجنة ونعيمها؛ وهو كشف الحجاب عن وجهه فعلاً وصفة وذاتًا، وإراءته لهم الحقائق، والملكوت على ما هي عليها.

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من الواصلين إلى العين دون القائمينَ عند الأثر، والواقفين عند الباب.

وفيه: إن الغافل عن المرتبتين، والتوجه اللائق بكل منهما محجوب عن الحق تعالى صورة، ومعنى جميعًا؛ وهو تارك الصلاة الشرعية، والغافل عن المرتبة الحقيقية محجوب عنه تعالى معنى؛ فهو إنسان في صورة الحيوان؛ لأنه له نعيم جسماني بحسب روحه الحيواني، وليس النعيم الروحاني بحسب روحه الإضافي.

والروح الحيواني بالنسبة إلى الروح الإنساني[1] كالظل بالنسبة إلى ذي الظل،

---

(١) قال سيدنا القونوي: قاعدة كلية تتضمن التعريف بكيفية تدبير الأرواح الأجساد وصورة الارتباط بين كل منها مع الآخر:

اعلم أن الارتباط الذي بين الروح الحيواني، وبين المزاج الطبيعيِّ الإنساني ثابت بالمناسبة، كما أن الارتباط بين النفس الناطقة وبين الروح الحيواني إنما صح وثبت أيضًا بالمناسبة، ولو لا ذلك ما تأتي للنفس تدبير المزاج البدني لما بينهما من المباينة من جهة بساطة النفس، وتركيب البدن، وفرط كثرة أجزائه، واختلاف حقائق ما تألّف منه.

فالبخار الذي في تجويف القلب، وإن كان جسمًا فإنه ألطف أجزاء بدن الإنسان وأقربها نسبة إلى الأجسام البسيطة؛ وهو كالمرأة للروح الحيواني.

والروح الحيواني: من حيث اشتماله بالذات على القوى الكثيرة المختلفة المنبثّة في أقطار البدن، والمتصرفة بأفانين الأفعال والآثار المتباينة تناسب المزاج البدني المتحصِّل من العناصر، وما يتبعه من الخواص المعدنية والنباتية والحيوانية، ومن حيث أنه قوة بسيطة متعلقة غير محسوسة مجعولة في ذلك البخار القلبي الذي قلنا أنه كالمرآة له تناسب النفس الناطقة؛ وإنه أيضًا كالمرآة لها: أي للنفس.

ونسبة النفس الجزئية الإنسانية إلى النفس الكلية، نسبة الروح الحيوانية إليها من جهة الافتقار إلى المادة، والتقيُّد بها وملابسة الكثرة، ومن جهات غير هذه المذكورة كخواص إمكانات الوسائط من الأفلاك والنفوس والعقول والشئون المعبر عنها بالأسماء.

ونسبة النفس الكلية إلى القلم الأعلى المسمَّى بالعقل الأول، والروح الكلي؛ نسبة النفس الجزئية إلى النفس الكلية، ونسبة الروح الكلي المشار إليه إلى جناب الحق سبحانه نسبة النفس الكلية إليه؛ بل أقل =

=

وأضعف هذا وإن كان هذا الروح الكلي الذي هو القلم أشرف الممكنات، وأقربها نسبة إلى الحق، وأنه حامل الصفات الربانية، والظاهر بها علمًا وعملاً وحالاً.

فالسير، والسلوك، والتوجه بالرياضة، والمجاهدة، والعلم، والعمل؛ المحققين المتأصِّلين بأصول الشرائع والتعريفات الربَّانية يثمر بعناية الله ومشيئته انصباغ القوى المزاجية بوصف الروح الحيواني في الجمع بين خاصية البساطة والتجريد، وبين التصرُّفات المختلفة بالقوى المتعددة في فنون الأفعال، والتصريفات الظاهرة في بدن الإنسان بالقوى والآلات.

والروح الحيواني كماله الأول انصباغه بأوصاف النفس الناطقة، والنفس الناطقة الجزئية كمالها الأول تحقُّقها بوصف خازن الفلك الأول المسمَّى في الشرائع بـ «اسماعيل»؛ وعند أهل النظر بالفعال، وكمالها المتوسط ظهورها، وتحققها بوصف النفس الكلية، واكتساب أحكامها على وجهٍ يوجب لها التعدي منها إلى المرتبة العقلية والروح الكلي.

ثم الاتصال بجناب الحق والاستهلاك فيه بغلبة حكم الحقية على الخلقية، وزوال الخواص الإمكانية والتقييدية بأحكام الوجوب، وبقهر حكم الحق الواحد القهار كل حكم، ووصف كان يُضاف إلى سواه، وهذا القهر يرد على كل ما امتاز من مُطْلق الغيب الكليِّ الربانيِّ، وتلتبس بواسطة الأحوال الإيجادية بأحكام الإمكان والتقييدات الكونية المتحصِّلة من الشروط الوسائط.

فيستهلك الجزء في كله، ويعود الفرع إلى أصله، مستصحبًا خوص ما مرَّ عليه واستقر فيه مدة، ووصل إليه؛ كماء الورد كان أصله ماء فسرى في مراتب التركيب والمواد، واكتسب بسرايته ما صحبه بعد مفارقة التركيب من طعمٍ، ورائحة، وخواص آخر، ولا يقدح شيء منها في وحدته وبساطته.

وإذا عرفت هذا، فاعلم أنه يتحصَّل بين كيفيات المزاج الإنساني وبين ما يكون قلب الإنسان وذهنه مغمورًا به من المقاصد والتوجهات وغيرهما كانت ما كانت، وبين ما ارتسم أيضًا في نفسه من العلوم، والعقائد، والأوصاف، والأخلاق في كل وقت؛ هيئة اجتماعية. تلك الهيئة مع ما ذكرناه أولاً في القاعدة بالنسبة إلى جناب الحق من جهة عدم الوسائط، وبالنسبة إلى سلسلة الحكمة والترتيب، وما أودع سبحانه من القوى، والخواص، والأوامر، والأسرار في السماوات العُلا وما فيها من الكواكب والأملاك، وما يتكيَّف به من الأوصاف والتشكُّلات؛ كالمرآة يتعين فيها من تجلِّي الحق، وشأنه الذاتي، وأمره الترتيبي الحكمي العلوي، وما يتبعه جميع التصورات والتصرفات الإنسانية وما ينضاف إلى الحق من الأسماء والصفات والشئون والآثار.

فمنها: أي من الأمور المتعينة المشار إليها: ما هي دائمة الحكم ثابتة الأثر.

ومنها: ما يقبل الزوال؛ لكن ببطء.

ومنها: سريعة الزوال والتبدُّل من حالٍ إلى حالٍ.

ومنها: ما نسبته إلى الحق أقوى وأخلص.

ومنها: ما نسبته إلى الكون أو الإنسان جمعًا وفرادىً من حيث ظاهر المدارك غالبا أحق وأنسب.

=

=

ومنها: ما يفيد معرفة الاشتراك بين الحق وما سواه من إنسان وغيره.

ومنها: ما يقضي بالاشتراك بين الحقِّ والإنسان فقط.

ولســـت أعني بالإنسان هنا نوع الإنسان؛ بل يُعنى به الإنسان الحقيقي الذي هو بالفعل إنسانٌ كاملٌ الذي من جملة مناصبه مقام النيابة عن الحقِّ، وكونه واسطة بين الحق وما سواه في وصول ما يصل من الحق إلى الخلق في عصره، هكذا كل كامل في كل عصرٍ.

وهذا المشهد لما أريته عرفت منه سرَّ التجدُّد بالأمثال، وبالأضداد، والمتخالفات، وأعني بالتجدد تجدُّد وجود الكون، والخواطر، والتصورات ونتائجها في كل زمان، وظهور الخلق الجديد الذي الناس منه في لبسٍ كما أخبر تعالى. وقوله الحق: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]

ورأيـــت تعين الوجود المطلق بصورِ الأحوال؛ وهي ذات وجهين، فكلها إلهية من وجهٍ، وكونية من وجه، وصادق على الجهتين باعتبار آخر.

ورأيت تعين الأسماء، والصفات الإلهية والكونية بحسب تلك الأحوال.

ورأيت كيف ينتج بعض الأفعال، والعقائد، والأحوال الإنسانية سخْط الحق ورِضَاه، وأحكامه وتعدد أثره الوحداني مع عدم تغير أمر في ذلك الجناب الأقدس؛ بل رأيت بعض الأفعال والتصورات العلمية والاعـــتقادية مـــن الإنسان، إذا اقترن بحالٍ مخصوص من أحواله؛ استجلب بحكم علم الله السابق فيه، وتقديره اللاحق؛ تعينًا جديدًا من مطلق غيبِ الحق يظهر بحسب تلك الهيئة الاجتماعية المتحصلة كما قلـــنا مـــن التصورات العلمية الروحانية، أو الاعتقادية الذهنية الظنية، والكيفياتِ المزاجية، والنقوش والتعشُّقات النفسية، والأوصاف والأخلاق الشريفة والدنيئة.

فإن كان أثر ذلك الأمر الظاهر التعين شيئًا موافقًا لما سبق به التعريف الإلهيّ بلسان الشريعة، وما تدرك العقول، والفطر السليمة وجه الملائمة والحسن فيه؛ أضيف إلى الحق؛ بمعنى أن ذلك أثر رضاه ورحمته، وإن كان الأمر بالعكس أضيفَ إلى الحق بمعنى أنه أثر غضبه وقهره، سلمنا الله منهما.

وإن كـــان الغالب على مزاج تلك الهيئة المتحصلة من اجتماع ما ذكرنا؛ حكم حال الإنسان؛ أعني: الحـــال الجزئي الحاكم عليه؛ إذ ذاك كان ذلك السخط أو الرضاء أو الحكم الإلهي المتعين في الإنسان بحسب حاله الحاضرة؛ قابلاً لزوال بسرعة، وكان قصير المدة.

وإن كـــان الغالـــب على الشخص، والجالب ما ذكرنا حكم العقائد، والعلوم الراسخة، والأوصاف والأخلاق الذاتية الجبلية، والمكتسبة الثابتة؛ ثبت الأثر والحكم أو تماديًا المدد الطويلة شرًّا كان أو خيرًا.

وكذلـــك إن كـــان الغالـــب فـــيما ذكرنا من الإنسان حكم صورة مزاجه، وقواه البدنية الطبيعية، والأوصاف والأحوال اللازمة للبدن وقواه؛ انقضى الحكم بمفارقة هذه النشأة العنصرية.

وإن كانـــت الغلبة للأمور الباطنية النفسانية، وما بعدت نسبته من عالم الشهادة؛ بقيَ الأثر، والحكم مصاحبين إلى حين ما يشاء الله.

وإن كان الغالب فيما ذكرنا الأمور الذهنية الخيالية الظنية؛ تمادى الحكم في النشأة البرزخية أيضًا حتى

=

=

يشاهد ما قُدِّر له أن يشاهده ممَّا كان يتصوَّره على خلاف ما كان عليه، وإليه الإشارة بقول الله تبارك تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وحتى تظهر غلبة أحكام الروح، وعلمه، وحكم صحبة الحق بالمعية الذاتية، وسره على حكم المزاج، وتخيلات صاحبه التخيلات الغير المطابقة لما عليه المتصور.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠].

ثم اعلم أن كل نشأة ينتقل الإنسان إليها بعد الموت، فإنها متولدة عن هذه النشأة العنصرية، وإن في ضمن هذه النشأة ما يدوم ويبقى، وإن تتنوع ظهوره، واختلفت كيفياته، وتراكيبه؛ وفيه ما يفنى بالموت، وفيه ما يصحب الروح في البرزخ من الفاسدة والتصورات الرديئة، والمقاصد القبيحة المستحضرة، والباقي من لوازم ما ذكرنا من صور الأفعال، والأقوال الإنسانية بموجب القصد والاستحضار المذكورين.

وأما النشأة الحشرية فإنها باطن هذا الظاهر فيبطن هناك ما ظهر الآن، ويظهر ما بطن على وجهٍ جامع بين جميع أحكام ما بطن الآن، وظهر وما نتج من هذا البطون والظهور، والجمع والتركيب.

ثم عند الصراط يفارق السعداء ما يبقى فيهم من خواص هذا المزاج، والدار مما هو عنصريٌّ غير طبيعيٍّ، وتبقى معهم أرواح قوى هذه النشأة وجواهرها الأصلية المتركِّبة بالتركيب الأبدي الطبيعي الغير العنصري، وصورة الجمع والتأليف الغيبي الأزلي.

وأهل الشقاء ينفصل عنهم ما قد كان يبقى فيهم من أرواح القوى الإنسانية والصفات الروحانية، وتتوفَّر في نشأتهم صور الأحوال المزاجية الانحرافية والصفات الرديئة والكيفيات المردئة الحاصلة في تصوُّراتهم وأذهانهم، والتي ترتبت عليها أفعالهم في الدار الدنيا وأقوالهم.

وينضم إلى صورهم ما تحلَّل من أجزائهم البدنية في هذه النشأة، فإن كل ما تحلَّل من أبدانهم يعاد إليهم، ويجمع لديهم بصورة ما فارقهم عقلاً، وعلمًا، وحالاً، وعملاً، وما يقتضيه ذلك الجمع والتركيب الذي يغلب عليه حكم الصورة على الروحانية.

وأهل الجنة بالعكس، فإن أكثر قواهم المزاجية، والصفات الطبيعية، وما تحلَّل من أبدانهم ينقلب بوجه غريب شبيه بالاستحالة صورًا روحانية مع بقاء حقيقة الجسم في باطن صورة السعداء، فالباطن هنا مُطلَقٌ، والظاهر مقيَّدٌ، والأمر هناك بالعكس؛ حكم الإطلاق في ظاهر النشأة الجنانية، وحكم التقييد في باطنها؛ وغالب الحكم والأثر فيما ظهر هناك لما بطن هنا وبالعكس.

والنشآت المشار إليها هنا أربعة:

أولها: هذه «النشأة العنصرية»: وهي كالبذرة لباقي النشآت؛ ولها الإدماج والجمع الأكبر.

وبعدها: «نشأة البرزخ»: وإنها منتشئة من بعض صور أحوال الخلق، وبعض أعمالهم، وظنونهم، وتصوراتهم، وأخلاقهم، وصفاتهم، فيجتمع مما ذكرنا أمور تحصل لها هيئة مخصوصة؛ كالأمر في المزاج =

فحق النعيم إنما هو لذي الظل، الا فذوقوا من هذا المذاق حتى لا تجدوا الحسرة يوم التلاقي، والله الخلاّق والرزّاق.

وقال الله سبحانه: ﴿فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩].

اعلم أنَ الزَّلل؛ إمَّا زلل في الشريعة، وإمَّا زلل في الطريقة.

=

المتحصِّـــل من اجتماع الأجزاء التي منها تُركّب ذلك المزاج كان ما كان، فتقتضي تلك الهيئة ظهور النفس في الصورة المتحصلة من تلك الهيئة، وذلك الاجتماع، وصفة الصورة بحسب نسبة الصفة الغالبة على الإنسان حين مفارقة هذه النشأة.

فيظهر بعضهم في البرزخ؛ بل وبرهة من زمان الحشر في صورة أسد وذيخ وطير؛ كما ورد في الشرِّ، وشهد بصحته الكشف والتعريف الإلهي، وليس بالمسخ والتناسخ المستنكر، فإن القائلين بذلك زاعمون أنه في الدنيا، وهذا إنما هو في البرازخ بعد الموت، فافهم.

ومن غلبت عليه الأحكام الروحانية وإفراط إعراضه عن هذه الدار وهذه النشأة؛ كالشهداء المقبلين في سبيل الله للجهاد بطيب قلب، وصحة إيمان؛ تظهر نفوسهم في صور طيور روحانية؛ كما أخبر ﷺ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَعَلَّقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ تَحْتَ الْعَرْشِ».

وورد في المعنى في الحديث الصحيح:

إن في غزوة أُحُد قال بعض الصحابة لبعضهم معاتبًا له: «أتقعد عن جنةٍ عرضُها السَّمَاوات والأرض، والله إني لأجد ريحها دون أُحُد».

وهذا من بكرة نور الإيمان، وفرط استفراغ الهمَّة حال التوجُّه مع الإعراض التام عن هذه النشأة وهذه الدار، واستشهد صاحب هذا القول يومه ذلك ﷺ.

والمتوسطون من الأولياء المفرطين في الانقطاع عن الخلق والمجاهدات البدنية أيضًا كذلك، وأما الكُمَّل فإنهم لا ينحرفون إلى طرفٍ من الوسائط، بل يوفون كل مرتبة حقها؛ فمنهم تامُّون في عالم الطبيعة، وتامُّون في الحضرات الروحية؛ كربِّهم سبحانه الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه، فلا تغلب عليهم الطبيعة ولا الروحانية.

ومن سواهم؛ إمَّا: «مغلوب الروحانية، مستهلك الطبيعة».

وإما: «مغلوب الطبيعة المستهلك قواه الروحانية في عرصة طبيعته»؛ كما هو حال جمهور الناس.

و«الكُمَّـــل المقرَّبون في حاق الوسط»؛ برازخ بين الطبائع والأرواح؛ بل بين المرتبة الإلهية والكونية، فافهم. وأما الباقيان من النشآت: فأحدهما: «النشأة الحشرية».

وثانيهما: «النشأة الاستقرارية في إحدى الدارين».

وانظر: النفحات الإلهية (ص٩٣) بتحقيقنا.

وكذا البينات: أي الشواهد والحِجج.

فزلل الشريعة: وجود المنكرات والمعاصي، فإن وقع ذلك من بعد ما جاء الأوامر والنواهي؛ فإن الله ينتقم منه بالعذاب الجسماني الصوري، إمَّا في الدنيا، وإمَّا في الآخرة، وإمَّا في كلتيهما؛ لأن ما وقع في الدنيا فإنما هو في مقدمات ما سيقع في الآخرة، ومبادئها لا نتائجه وحقائقه.

وزلل الطريقة: وجود الكسل، والفتور، وعدم الرياضات والمجاهدات، فإن وقع ذلك من بعد ما جاء الإشارات، والدَّلالات؛ فإن الله ينتقم منه بالعذاب الروحاني هو الحسرة والحرقة الباطنة التي تفوق الاحتراق بالنار الصورية؛ لأن الروح لطيف، والجسم كثيف، فقد لا يتحمَّل اللطيف ما يتحمَّله الكثيف.

ولذا اشتدَّ الموت الطبيعي على الأنبياء والأولياء على تقدير بقائهم بالبشرية في تلك الحال، فلا بد من الامتثال للأمر الإلهي على ألسنة أُولي الأمر من العلماء، والمشايخ؛ حذرًا عن الوقوع في ورطة الانتقام على أن القيام بالشرائع يُورِّث المعارف؛ لأن مَن عمل بما علم؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم، فمَن تركه؛ عُوقِب بالحرمان عن المعارف الإلهية التي هي الجنة المعنوية.

وإن القيام بالطرائق يُورِّث الحقائق؛ لأن المجاهدات تُورِّث المشاهدات، فمَن لا شريعة له؛ لا معرفة له، ومَن لا طريقة له؛ لا حقيقة له، فلكل مَنـــزل طريق، ولكل طريق سالك، فمَن مشى على طريقه؛ وصل إلى مراده بإعانة الله تعالى وتوفيقه، فظهر أن الآية خطاب إلى كِلا الفريقين عبارة وإشارة، وقد يحصل إلهام من الله في أمر من الأمور بدل فعله، أو تركه، ويحصل له شواهد أيضًا.

فذلك الإلهام يجب أن يعمل به؛ لأنه إلهام ربَّاني وإلقاء رحماني، وإن لم يحصل له شواهد؛ فذلك مما يترك، ولا يعمل به؛ لأنه خاطرة نفسانية، ووسوسة شيطانية، وعلى هذا أجرى أهل الله تعالى في كل عصر، ومصر يعني: عملوا بما أُمروا به؛ إذ ليس للشيطان عليهم سبيل، ولا للنفس الأمَّارة عليهم استيلاء سواء كان المأمور به الهجرة من دار إلى دار، أو غير ذلك من الأمور الشاقَّة على غيرهم.

فإن غيرهم يلعبون بنفوسهم وطبائعهم، فلهم الاستئناس بالأمور البشرية

الحسِّية، ولهم التعلُّق بالأشياء الفانية الصورية ، وذلك الاستئناس والتعلُّق يمنعهم عن التجرُّد والتبتُّل؛ فهو الذي يُقال له: الحجاب.

ولعلماء الرسوم حظٌّ وافر من ذلك، فإنهم إذا تقلَّدوا مدرسة في بلدة، أو نالوا غيرها من الحظوظ العاجلة ورأوا أنهم مُفحَمون في عيون الناس، ولهم أحباب وطلبة يتردَّدون إليهم صباحًا ومساءً؛ فهم أعلق بتلك البلدة من علاقة العلقة ببدن الإنسان أو الحيوان، فلا طريق لهم إلى الحق إلا عند الموت، وذلك من جهة الجبر لا من طريق الاختيار، عصمنا الله وإياكم من التعلُّقات الموجبة للانتقام، وشرَّفنا بالقيام بالحق في كل مقام.

وورد أيضًا قوله: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [البقرة:١٤٩].

يعنى: توجه بقلبك، وقالبك إلى جهة القبلة؛ وهي الشام، فقمة رضاء الله تعالى، ثم دفع الإذن الصريح من جهة الشيخ أيضًا، ولله الحمد على نعمه الجليلة ظاهرًا وباطنًا، فالنعمة الظاهرة وقوع الاتفاق بين أرواح الكُمَّل للإذن بالهجرة، والنعمة الباطنة صدور الإذن من الله تعالى بخصوصه.

ووقع ذلك في أواسط السنة التاسعة والعشرين بعد المائة وألف، فوقوعه في الأواسط يدلُّ على أن خير الأمور أوسطها، وأن لا خير إلا في الوسط، والتسع إشارة إلى الإذن جاء من فوق الأفلاك التسعة، ورمز إلى قوله تعالى: ﴿**طه*مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ [طه:١، ٢].

والعشرون: إشارة إلى العشرة المتوسطة، فإنه تعالى، وكذا حضرة الشيخ في عالم المعنى قال لي: عشر في الدنيا، وفي الشام عيش وسط فإنه خير لك، وأمَّا المائة والألف فتلويح إلى حصول الإمداد من الأسماء خصوصًا وعمومًا، فخصوصها: المائة فإن التسعة والتسعين مع الأحدية مائة، وعمومها: الألف، وليس فوقها إلا المكرر.

وفيه إشارة إلى أن في هذه السنة المباركة إذنًا من الله تعالى، ودعوةً، وفتحًا من جانب جنابه ونصره، فالوقت طيب، والروح صافٍ، والعلم باقٍ، والفيض جار، والله معي، وهو حاضري وشاهدي.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قدَّم القبض لأنه أكثر[١]، كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وهو قد يكون قبض المال كما في ظواهر العامة، وقد يكون قبض الحال كما في بواطن الخاصة، وقبض المال للحماية الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقبض الحال لتشديد المحنة، وتميز المكور من غيره، وتحقيق الشكر إذا ظهر المزيد، وتهيئة الاستعداد البسط، وقسْ على هذا البسط[١].

ومنه يُعلم أن كمال الإنسان تدريجي، لا يحصل في الأوقات القليلة، دلَّ عليه أنه تعالى حمَّر طينة آدم، وكمَّلها أربعين سنة، كل يومٍ من السنة ألف سنة على ما

---

(١) القبض: اعلم أن الزمان في مقام القبض لا يصلح إلا للحال، أو لا تعلق له بالماضي، والمستقبل، والنفس إنما تتعلق بالماضي تأسفاً، وبالمستقبل خوفاً وحذراً.

قال قدس سره: «القبض في الحقيقة تجلي الحق لكل معتقد في صورة اعتقاد» فصار الحق كأنه محصور، ومقبوض عليه بالاعتقادات، وهي العلامة التي بين الله تعالى، وبين عباده العامة، ولا بد له في كونه إلهاً يتصف بهذه الصفة، والعالم متباين الاستعداد، ولا بد من الاستناد إليه، فلا يزال يعبد كل جزء إلهه من حيث استعداده فلا بد أن يتجلى له كل شيء بحسب اقتصار استعداده، ويقع منه القبول، فما من شيء إلا وهو يسبح بحمده.

وقيل: «وارد يرد على القلب من الغيب توجيه إشارة إلى عتاب وزجر، وتأديب، حين يقع السالك في الهفوات الموجبة للتقاعد والفترة».

وقيل: «أخذ وارد الوقت بغشيان أثر الكون على القلب، وانطباع صوره فيه».

(١) البسط: هو عندنا من يسع الأشياء، ولا يسعه شيء إن واسع المغفرة ما ستر عدمية ماهيات الأشياء، وهو الوجود العام المسمى بالرحمة العامة المطلقة، التي وسعت كل شيء، فمن تحقق بها كان رحمة للعالمين، أصالة كالحقيقة السيادة، ووراثة، كمن يكون قلبه على القلب السيادي فيسع الأشياء، ولا يسعه شيء يختص بدقيقة منها، والقلب على الجملة إذا انتهى بسر «وسعني قلب عبدي المؤمن»، حاز مقام البسط، وقيل: هو الرجاء في الوقت الحاضر يقابل كون القبض حال الخوف في الوقت الحاضر، وقيل: «هو وارد في جهة إشارة إلى قبول ورحمة وأنس إما بمنة الحق، أو بأدب وعمل موجب»، والعارف مبسوط في قبضه، مقبوض في بسطه.

وصاحب الحال إذا كان مقبوضاً لا ينبسط، وإذا كان مبسوطاً لا ينقبض، فشأن العارف أن يكون كالمعروف، يجمع بين الضدين.

رحمةً للعالمين، وصلَّى عليه بصلاةٍ لم يهتدِ بسرها العارفون، وإن بلغوا غاية القصور في المعرفة.

ومنه يعلم أن بعض الأسرار مخصوص بأهله، لا يتجاوز إلى غيره، فهو على حالة مجهولة، ينتقل من الدنيا، وفي ذلك حكمة خفية، وغيرة من الله تعالى؛ لأنه قد تجلَّى بكل مستعد بما يناسب حاله، فلا يجعل طعمة العنقاء للعصفور، وذلك راجعٌ إلى أحوال الشأنِ الأزلي الذاتي، فمن وجد خلوًّا فليحمد الله، ومن وجد خلاف ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه، وليصبر وليقف في مقامه المعلوم، كالملائكة وكجبريل، فإنه لا يجاوز السدرة قدر أنملة، فاعرف.

وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦].

رأيت في المنام: كأن العلماء اختلفوا في أن الفعل أَوْلى أم الترك، ثم لقيت في الطريق بعض مَن يَعدُّ نفسه من الأولياء، فقلت له: الفعل أَوْلى أم الترك؟ فقال: الفعل؛ فأعرضت عنه؛ لأن هذا الجواب مخالفٌ للواقع.

ألا ترى أن الله تعالى قدَّم الكفر بالطاغوت؛ وهو من باب الترك الذي يُقال التخلية بالمهملة؛ فكان الترك أقدم وأَوْلى من الفعل، ومن ثم قال بعض الكبار: ما لم يكن كافرًا؛ لم يكن مؤمنًا، وما لم يكن مؤمنًا؛ لم يكن كافرًا، فعليك بالأول، وإياك والثاني انتهى كلامه.

ومن ثَّم أيضًا قُدِّم التسبيح على التحميد في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه:١٣٠]، فإن التسبيح الذي هو التنـــزيه من باب التخلية بالمعجمة، والنفي والتحميد من باب التخلية بالمهملة والإثبات.

ولا شك أن النفي مُقدَّم على الإثبات في كلمة التوحيد.

وكذا قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢]، فإنه اكتفى بالإنذار في أول الأمر؛ لكونه أقدم، ثم قال: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:١١٩]، فقدَّم البشارة لشرفها لوجود الإيمان بالفعل، والتنـــزيل أيضًا، فمنكم كافر، ومنكم مؤمن، فقدَّم الكافر؛ لكثرة أهل الطاغوت، فهذه الآيات متقاربة في المعنى.

لكونه أقدم، ثم قال: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:١١٩]، فقدَّم البشارة لشرفها لوجود الإيمان بالفعل، والتنـــزيل أيضًا، فمنكم كافر، ومنكم مؤمن، فقدَّم الكافر؛ لكثرة أهل الطاغوت، فهذه الآيات متقاربة في المعنى.

وهذا المعنى الذي ذكرناه، عناه مَن قال: وجنة الفردوس للكافر، فخصَّ بالذكر جنة الفردوس التي هي أعلى الجنَّات، ومقام المقرَّبين؛ لأنه لا ينالها إلا أهل الكفر بالطاغوت؛ وهم أقل القليل؛ لأنهم الذين أُشير إليهم بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١].

وبقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل:٨]، وبقول مَن قال: خُطوتان، وقد وصلت؛ حيث أراد بالخُطوة الأولى: الإعراض الكلي عمَّا سوى الله تعالى الذي هو من باب الترك، بالثانية: الإقبال على الله تعالى الذي هو من باب الفعل.

فهاتان الخُطوتان نوران بينهما نار هي نار العشق، فإنه لا يتم الإعراض والإقبال إلا بهذه النار، فمَن لم يذق من العشق والمحبة شيئًا؛ فهو لم يذق شيئًا من الحلوى، ولم يدر ما هي، فإن مَن لم يذق؛ لم يعرف، فبعض أهل الرسوم تتبَّعوا كتب أهل الأذواق[1]، وضبطوا المقامات بقدر وسعة عقلوهم، كما رأينا بعضهم في الشام وفي غيرها، فشرعوا في التكلُّم من اصطلاحاتهم، ووقعوا في الدعوى العريضة، وهم كما هم على حالهم الأولى لم يذوقوا شيئًا من الحالات أصلاً.

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به: الذوق هو إدراكٌ في القلب، يميز به بين أشخاص أصناف المعاني، هذا إذا صح من علة داء الشرك الخفي، وحقيقته: وجدان حلاوةٍ من التمنِّي في رياض تروض الرضا، وغايته: الاستغناء في تصور معاني الحقائق عن نصب الأدلة والبراهين السمعية والعقلية اهـــ.

وقال البغدادي في شرح الصلاة: هو نور عرفاني يقذفه الحق بتجلِّيه في قلوب أوليائه يفرِّقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب وغيره.

وقد عرَّفه الشيخ الأكبر بأنه: أول مبادئ التجلِّي المؤدي إلى الشرب؛ لأنه إذا كان نفسين فهو الشرب، والوجدان ما يحس به بالباطن كالجوع مثلاً.

واصطلاحًا: ما يجدهُ العارف في قلبه من التجلِّيات الإلهية، فكما أنَّ مَنْ أحسَّ بالجوع باطنًا لا يتردد فيه، ولا يكون لأحدٍ معه، دخل في هذا الإحساس الباطني الخاص، كذلك مَنْ وجد الحق تعالى يكون بهذه الكيفية.

فكانوا علومهم بمنـــزلة الجهل؛ لأنه لا يفيد العلم بلا عمل، والعمل إذا صحَّ على وجه السُّنة، وانضم إليه السلوك؛ أدَّى إلى العلم بالله الذي ذاقه أهل تلك الاصطلامات، وإنما قلنا بانضمام السلوك؛ لأنه لا يصحُّ الكفر بالطاغوت إلا بتسليك المسلك، وبعزِّ مَن ناله بلا واسطة من الوسائط؛ وهم المجذوبون على أن المجذوبين محتاجون إلى السلوك أيضًا، نعم إذا كان المجذوب أُويسيًا؛ فرب العالمين مربيه ومعلمه إلى أن يحصل له التمكين والرسوخ في الطريقة، فعليك بالاعتقاد، ثم بالعمل، كما ذكرنا حتى تنال إلى ما آل إليه الخوص، ومن الله الرشيد التوفيق والاختصاص.

وقال تعالى: ﴿كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

اعلم أن التذكُّر: إنما هو لأولي الألباب، والتفكُّر لذَوي العقول، فإن العقل محجوب، محاط بالأفكار، فلا يحصل المطلوب له إلا بعد التفكُّر، وإحضار الدلائل الكثيرة.

وأمَّا اللُّبُّ: فلكونه خالصًا عن شوائب الأوهام، والخيالات، مجرَّدًا عن القشور، والتعلُّقات؛ كان المطلوب حاصلاً له بأدنى التذكُّر، والإشارات؛ وهو صفة الراسخين في العلم المذبذبين فيه.

والحاصل: إن العقول الصافية القدسية يَكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، فكيف إذا مسَّه شرر من ذلك؟ وفيه إشارة إلى قربهم بقبول الدعوة من غيرهم؛ كحال الصديق ﷺ، وغيره هذا، وقد ختمنا الكلام في هذه المجموعة بهذه الآية الكريمة لما أن الله تعالى ألقاها على هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقّي شرَّفه الله تعالى بمزيد الترقّي صباح يوم الثلاثاء الحادي والعشرون من شهر المولد النبوي من سنة ثلاثين بعد المائة والألف، إشارة إلى الختم بها، فكان الأمر على السمع، والطاعة، والحمد لله على الإتمام، ولرسوله أفضل التحية والإكرام، وآله وصحبه ذَوي الاحترام.

هذه المجموعة تمَّت في ست سنين، لما أن الأسفار رمَتني من أرض إلى أرض، والأقدار ألقتني إلى طول بعد عرض، فحالت العوائق بيني وبينها، فالله يفعل ما يشاء لا أن كلمات الله نفدت حاشا، والله عليم بذات الصدور.

تتمة:

وجود الإنسان الكامل بظاهره وباطنه؛ كشجرة السرِّ وبأصلها وفرعها، وظاهرها باقٍ لا يتغيَّر بالموت، فإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، والصدِّيقين، والشهداء، وذلك كفرع «السرو» فإنه لا يتغيَّر بعصوف الرياح؛ بل يبقى على حاله في الربيع والخريف؛ ولذا باقي الفصول، وكذا أصلها ثابت لا ينقعر؛ كسائر الأشجار الضعيفة[1].

ومثله في المتانة والتمكين؛ اعتقاد الإنسان الكامل، ويقينه، فإن اليقين هو الاستقرار؛ ولذا يُقال: علم اليقين إذا استقر العلم في القلب، وعين اليقين إذا استقر المعيُّن في الفؤاد، وحق اليقين إذا استقر الحق في الروح والسر، وليس حال غيره مثله في ذلك.

ألا ترى إلى علماء الرسوم، فإنهم لا يقفون عند حدٍّ، وإن كانوا أعلم أهل زمانهم؛ تكون علومهم مُشوَّبة بالشكوك، وإدراكاتهم مخلوطة بالأوهام، فيناقضون أنفسهم في معلوماتهم، وينتقلون من طور إلى طور، ولو كانوا على علم صحيح لِما تغير حالهم، وإن عاشوا ألف سنة.

وكذا حال أهل الكشف، فإن الكشف ما لم يكن صريحًا؛ لم يأمن صاحبه عن الغوائل، وكم رأينا في عصرنا من أهل الدعاوى حاروا في أمورهم، ورجعوا إلى القدح في الله تعالى حتى خرقوا المصاحف، وتركوا الفرائض ظنًّا أن الله تعالى ما

---

(١) فالإنسان الكامل موجودُ الوجودِ الحق في إحاطته، هو شخص حقيقة الدائرة الرحمانية الرحيمية، الظاهر ظله في مرآة كل استعداد زمانيٍ بحسبها، فيكون صاحب ذلك الزمان.

وقال ﷺ في الباب السادس والأربعين وثلاثمائة: إن الإنسان الكل الكامل الكلي لم يزل مع الله، فلا يزال مع الله، فهو باقٍ ببقاء الله، وما عدا الإنسان الكامل، فهو باقٍ بإبقاء الله تعالى.

وهنا مسألة أخرى أذكرها لتعريف الفرق بين الأزلين وهي: إن الموصوفين بالأزل نفيًا، أو إثباتًا لا بتقدم أحدهما على الآخر؛ لأن الأزل لا يصح فيه التقدُّم والتأخُّر، ولكن الفرق بينهما أن أزلية الأعيان هي دوام وجودها بدوام الحق مع افتتاح الوجود عن العدم بكونها من غيرها، وأزلية المبدع نعت سلبي ينفي الأوليَّة بمعنى افتتاح الوجود عن العين؛ لأنه عين الوجود، فافهم.

صدق فيما أخبرهم به، ولو كان كشفهم عن عين اليقين، وحق اليقين[1] لما انقلب الحال، وإنما كوشفوا في عالم الخيار، أو أخبرهم الوسواس؛ فظنُّوا ما ظنُّوا.

والله تعالى يقول الحق، ويهدي السبيل، ومَن أصدق من الله قيلاً، فمَن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومَن وجد خلافه؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه، جعلنا الله وإياكم من الراسخين في العلم، والمتمكنين في الكشف، وعصمنا من الغوائل النفس، والشيطان، والتغيُّر في العلم والعرفان، إنه هو الهادي إلى منـــزل اليقين، والسائق على منهل التمكين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لطيفة: قيل لي ليلة الجمة السابع عشر من شهر مولد النبي من سنة ١١٣٠ من الهجرة: الإنسان أصل المبنى: أي الأصل الذي هو المبنى، فإن الأصل هو الذي يُبنى عليه الفرع، كالمبنى الذي يُبنى عليه البناء، وكاللفظ يُبنى عليه المعنى، ونحو ذلك، أو المعنى أن الإنسان هو أصل البناء، فالمبنى مصدر بمعنى البناء، وذلك أن أول الأرواح؛ هو العقل، والروح المحمَّدي، كما أن أول الأجسام؛ العرش، وما يليه إلى أن ينتهي الأمر إلى المولّدات، وإلى عالم الإنسان.

ففي الكلام معنيان:

الأول: إن أُس الكائنات؛ هو العقل الذي ظهر في صورة الروح أولاً، ثم في صورة النفس، ثم في صورة الجسم، ثم في صورة تعيُّنه المخصوص، ودار في العوالم

(١) قال الشيخ القاشاني في «لطائف الأعلام»: اليقين هو السكون والاطمئنان لما غاب، بناءً على ما حصل به الإيمان، وارتفع الريب عنه، فإذا حصل السكون والاطمئنان بما غاب بناءً على قوة الدليل بحيث يستغني بالدليل عن الجلاء فذلك علم اليقين، وإذا حصل السكون بالاستغناء عن الدليل لاستجلاء العين بشهود الفعل الوحداني الساري في كل شيء فذلك هو عين اليقين، والإشارة بالمظهر الكوني في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧]، والرؤية لا تكون إلا في المظهر، فإذا استقرَّ فجر التجليات أولا ثم طلع شمس التجلي الذاتي ثانيًا فذلك هو حق اليقين.

وقال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به: اليقين هو تميز العلم الذي لا يحتمل النقيض، وحقيقته: تصورٌ يُنـــزل المسموع منـــزلة المشهود، وغايته: استغناء النفس عن كل مسموع بما حصل به في داخل الذهن؛ لأن عين الجمع لا يعتبر الخارج؛ لاستغنائه عنه، فلا يفتقر إلى المطابقة، الأول علمه، والثاني عينه، والثالث حقه اهـــ.

دورًا كليًا وجزئيًا؛ ليحرز كمال كل موطن من المواطن، ويتجلّى بجمال كل عالم من العوالم.

والثاني: إن الغرض الأصلي من الخلق: أي ما يدور عليه الحكمة والمصلحة؛ هو الإنسان؛ لأن به يحصل الجلاء والاستجلاء التام لظهوره بحقائق اسم الله الأعظم، فكان نتيجة الظهورات، وثمرة شجرة الكائنات؛ والمراد من إخبار هذا المعنى مع ظهوره؛ تذكير النعمة الإلهية في ذلك، والحمل على الشكر، والترغيب فيما يحصل به الكمال الإنساني من الوسائل، والأسباب، والتنفير عن البطالة، والفتور، والاحتجاب، أيقظنا الله تعالى وإياكم يا أولي الأبصار، وجعلنا من الأنوار، وأهل الأسرار.

لطيفة: وقيل لي ليلة الجمعة السابع عشر من شهر مولد النبي من سنة ١١٣٠ من الهجرة: بالبرِّ يستعبد المعاني، البرُّ هو التوسُّع في فعل الخير؛ لكن أطلق على الاعتقاد، وأكمل فرضًا كان أو نفلاً، وعلى الإحسان إلى الوالدين، ونحو ذلك.

وأُريد به هاهنا نوافل العبادات أينما كانت، فإن بالنوافل يحصل القرب الإلهي: «**ومَن تقرَّب إليه تعالى شبرًا؛ تقرَّب الله إليه ذراعًا**»[1]، كما ورد في الحديث القدسي.

وذلك القرب[1] عبارة عن الفيض الكثير، وإليه الإشارة بالمعاني في هذا المقام؛

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٧٤١)، ومسلم (٤/٢٠٦٧).

(١) قال الشيخ القاشاني في القرب: هو القيام بالطاعة، والقرب: هو دنو العبد من الله تعالى بكل ما يعطيه من السعادة، لأقرب الحق العبد، فإنه من حيث دلالة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، عليه قرب عام سواء كان سعيداً، أو شقياً، فكل عبد، في كل وقت، تحت حكومة الأسماء الإلهية قرب، من حيث تجلي اسم إلهي وبعد من حيثية اسم آخر، فالقريب من المضل فلا بعيد من الهادي، والعكس، فكل اسم يعطي قربا، فالسعادة ترجع إلى هذا القرب المصطلح عليه، وقد يكون للحق قرب خاص من العبد زائد على قربه العام.

كما قال تعالى لموسى وأخيه عليهما السلام: ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، فإن هذه المعية، معية العناية بالحفظ والكلاءة، لا المعية العامة، فقرب العبد من الحق بكل ما يعطي من =

فمعناه: إن الإنسان إذا توسَّع في نوافل العبادات؛ استعبد المعاني، والحكم، وقيد الرقائق، واللطائف، وحكم على عالم الملكوت حسبما يساعد حاله في نوافله.

كما أنه بالبر والإحسان يستعيد الحر: أي يصير الحر بسبب الإحسان؛ كأنه عبد المحسن، والمحسن في الحقيقة؛ هو الله تعالى، فالكل من المحسن، والمحسن إليه من عبيد الله تعالى، جعلنا الله وإياكم من المشغولين بالنوافل، والفرائض، وجعلنا من المقبولين عنده، والفائزين بأسرار ذاته، وصفاته، وأفعاله، والمنوَّرين بأنوار جماله.

اعلم أن كلاً من الغيبة، والخطاب، والتكلُّم في هو وأنت وأنا، نسبة من نسب الكلام والكل بمعنى واحد، وإنما التفاوت بحسب المقام الذي يقتضي التخصيص، فقولهم: أنا الحق، وهو الحق، وأنت الحق على نسق واحد في المعنى[1].

= السعادة يتبع له قرباً خاصاً من الحضرات بالحقية، كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يسعى أتيته هرولة».

والقرب على قسمين: علمي، و عملي.

فالعلمي: أعلاه العالم بتوحيد الألوهية، وهو على نوعين نظرى، وشهودي. والعملي: على نحوين:

قرب بأداء الواجبات: وهو القرب الفرضي كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «ما تقرب المقربون بأحب إليّ من أداء ما فرضته عليهم».

وقرب نفلي: كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت له سمعاً وبصراً». ومداد العمل المقرب:

إما من الباطن إلى الظاهر، فأعمه وأتمه الإيمان.

وإما من الظاهر إلى الباطن، فأعمه وأتمه الإسلام.

وإما من القلب الجامع بين الظاهر والباطن، فأعلمه وأتمه الإحسان.

فمقتضى القرب النفلي: تجلى الحق للعبد متلبسا القابلية المحدودة.

ومقتضى القرب الفرضي: تجلي الحق له، وظهور العبد بحسب الحق، غير محدود، ولا متناه.

فالتمييز بين قوسي الحقانية والعبدانية في القرب المفرط إن كان خفياً يعبر بـــ «قاب قوسين».

وإن كان أخفى يعبر عنه بـــ «أو أدنى».

ومن هنا قال قدس سره: وقد يطلق على حقيقة: «قاب قوسين»، فالتجلي بحكم هذا القرب، إن كان في مادة وصورة، تتبعها القرب في النسبة المكانية، في مجلس الشهود، وإن كان في مجلس الشهود، وإن كان في غير مادة، كان قرب المنـــزلة والمكانة، كقرب الوزير من الملك .. فافهم.

(١) والحاصل أن أهل طريق الله المحققين قد أجمعوا على تعظيم نواميس الشريعة المحمَّدية وردع مَن =

=

خالفها من الفرق الضَّالة العنادية، وكلما قدمنا من عباراتهم فهو يسيرٌ من كثير، وغالب من يقع في الشطح من المحققين؛ لكونه أسكره شهود مقام الجمع، وهو عبارةٌ عن شهود حق من غير خلق، فهو سكرٌ وصاحبه سكران، لا يعتد بكلامه؛ لأنه مغلوبٌ مقهورٌ تحت سلطان حاله، فإن الصاحي يعذره ولا يقبل منه، فإنه ربما غلبه شهود الحق، فصار يقول: ما في الكون إلا الله وما في الجبة إلا الله. .

ويقول: أنا الحق ولا يرى كثرة ولا تعددًا، ولا يدرك أن ثمَّ خلقًا؛ لنفوذ بصر بصيرته من شهود الخلقيَّة إلى شهود الحقيَّة، ولشدة فرط ظهور هذا المشهد لعينه القلبية ظن اتحادًا ووصلا، فنفى وجوده ووجود الخليقة.

فهذا إذا صحى من سكره رجع مقهقرًا لمقام العبودية، وأقرَّ واعترف بوجود الخلقيَّة وإذا سُئل عن مقالته أنكرها، فإن نفى الخلقيَّة وعدم إثباتها كفر لمخالفة المنكر لنص الكتاب.

فهذا حال المحق، وأمَّا حال المبطل الذي يتشبَّه بمن هذا حاله، وما ذاق منه قطرة وما نظر من نظراته نظرة؛ فهو كلابس ثوبي زور، وقاتله ورادعه ومؤدِّبه مأجور، مع حق أن الأول ولو كان محقًّا فكذلك، فكيف مَن يدَّعي مُلك ما ليس له بمالك، نسأل الله تعالى العافية من ذلك، فإن الشرع الشريف ليس له إلا الظاهر، والله يتولى السرائر والغالب على هؤلاء الزنادقة أنهم يدَّعون أنهم لا يشهدون إلا الله ولا يثبتون كثرة أصلاً.

ويقولون: إن الوجود واحد وما ثمَّ إلا واحد، ونحن لا نرى إلا الله مع أنهم يشاهدون الكثرة في أنفسهم والعجز والافتقار، والله تعالى منـــزَّه عن ذلكن ويزعمون أن وجودهم المقدَّر المفروض المحدود ووجود هذه الأشياء من حيث هي أشياء مقدَّرة مفروضة هي وجود الحق تعالى، وتقدَّس جناب الحق تعالى عن صفات الخلق فهذا كفرٌ صريح.

وأمَّا قول أهل الحق القائلين بوحدة الوجود على الوجه الأحق، فإذا قالوا: ما في الوجود إلا الله مثلاً فمرادهم من حيث القيومية فإن به تعالى قيام كل شيء وهو القائم على كل نفسٍ بما كسبت ومن حيث تجلّيه وإمداده وتولّيه، لا أن هذه الصور الحادثة الفانية المقيَّدة المحدودة وجوده، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وتختلف أذواق أهل هذه المشاهد، فمنهم مَن يكون ذوقه صديقيًّا، فيقول: مَا رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله.

فأولاً رأى قيوميَّة الحق وتجلّيه على الشيء، ثم رأى الشيء ولم ينفه ولو نفاه؛ لكان سُكرًا، فكان مشهده كاملاً حيث جمع بين شهود الحق والخلق في آنٍ، لكنه غلب عليه شهود الحق، فرآه أولاً ثم رأى الخلق.

ومنهم: مَن يكون مشهده فاروقيًّا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه: أي متجلّيًا بقيوميته عليه، وهذا المشهد دون الأول من حيث الذوق.

=

=

ومنهم: مَن يكون مشهده مشهدًا عثمانيًا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله معه.

ومنهم: مَن يكون مشهده مشهدًا عَلويًّا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده.

وثَمَّ فوق هذه الأذواق أذواق كثيرة لا حدَّ لها ولا نهاية، قد ذاقها الأصحاب والأحباب، ساروا على منهج السنَّة والكتاب.

ولقد سألت شيخنا الهمام سيدي الشيخ عبد الغني حفظ الله وجوده للأنام عن مقام المعرفة الخاصة، هل يكون بدون جدٍّ واجتهاد.

فقال: لا، فقلت: ولا بد فيه من الذوق والوجدان، والقال لا يكفي دون الحال.

فقال: نعم، فقلت: وكيف السبيل إلى طريق الذوق والوجدان.

فقال: (بملازمة الطاعات ونوافل الخيرات والاشتغال بالله والإقبال عليه، كما نصَّت عليه الأشياخ.

فبهذا يحصل الذوق لطالبه أو ما هذا معناه، وسألته عن أهل مقام الجمع.

فقال: أولئك قومٌ سُكارى، فالسكران لا يعول على قوله فإنه يقول: أرى كذا وكذا والصاحي ينكر قوله؛ لعلمه أن ما يدَّعيه غير صحيح في نفس الأمر، وإنما تخيَّل لفرط سكره، إن الأمر كما أخبر وليس كذلك؛ بل الأمر كما هو عند الصاحي فإن السكر حال مدهش يُذهب بعقل صاحبه فلا يعتد بكلامه) بما معناه.

فقول السكران: ما في الوجود إلا الله حق من وجه؛ لأن الوجود الحادث قائمٌ به تعالى، فالوجود على الحقيقة له؛ إذ قيام الكل به، لكنه لما أنكر وجود الخلقيَّة بالكليَّة.

قلنا: بسكره، ورددنا قوله: فإنها ثابتة حسًّا وشرعًا وعقلاً، وقد يقول الصاحي مثل قول السكران، لكنه يعني من وجه دون وجه، فمن حيث أن الكل هالك بالنظر لنفسه فإن الشيء لا يعطى لنفسه وجودًا، فإنه معدومٌ بالنظر لها أيضًا، وأمَّا بالنظر؛ لمفيض الوجود عليه فهو ثابتٌ به باقٍ بإبقائه.

فقول سيدي محي الدِّين قَدَّس الله سرَّه: (فلولاك ما كنَّا): أي من حيث أن وجودنا بك، ولولاي لم تكن: أي آثار أسمائك الحسنى، فإن الأسماء تطلب الآثار، فإن المانع يطلب من يمنعه، والمعطى كذلك ولا ظهور للآثار إلا بظهور المؤثرات.

ولهذا لم يكن ظهور الكون إلا عن الأسماء وطلبها، كما ذكره الشيخ في «إنشاء الدوائر»، وفي «عنقاء مغرب».

وأمَّا بالنظر إلى الذات العليَّة المتعزز درك كنهها بالكليَّة؛ فهي مُطلقة غنيَّة حتى عن الإطلاق والكل في قيد وفي وثاق، فلا تعلّق لها بشيء إلا من حيث الإمداد، ولا يتعلق بها شيء إلا من حيث الاستمداد، والأسماء الحسنى هي الوسائط التي لولاها كنَّا من البسائط.

ثم قال: «فكنت: أي كنـــزًا مخفيًّا» ولم تزل على ما كنت عليه إلى الأبد في الأزل وكنَّا بك أعيان ثابتة في العلم ثم أبرزت صورة ما في علمك لا الذي في علمك، فإنه قديمٌ لا تحلّه الحوادث، وهذا =

وقد قال تعالى من الشجرة أنا الله، والإنسان أفضل منها، فإذا قال أهل التجلّي: أنا الحق؛ فهو في مقابلة أنا الباطل.

ولا شك أن الوجود كله حق، ولا بطلان إلا بالإضافة؛ كبطلان مظاهر اسم المضلِّ بالنسبة على حقيَّة مظاهر اسم الهادي دلَّ على ما قلنا قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الحجر:٨٥].

فالكل؛ هو الحق المخلوق به، وهذا الحق لا يفنى ولا يزول أبدًا؛ لأنه تجلى إلهي أحدي سار في جميع الكائنات كما دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨]: أي كل شيء من الأشياء

=

معنى قول الشيخ الأعيان الثابتة: أي في العلم ما شمت رائحة الوجود: أي في العين.

ثم قال: والحقيقة لا تدري إلا بمنحة منك وكشف عنها، فهناك يكون الإدراك بك وإذا كان بك فلا إدراك، أو يكون أراد بالحقيقة الحقيقة الإلهية.

وهي كما قال ﷺ: فالأنبياء والمرسلون لايدركون كنه الذات العلية؛ بل عمَّ بالنظر إلى الكنه في حيرة جليَّة، وأمَّا التجليات الواقعة في الدنيا والآخرة فلا تخرج عن رتبة التقييد والتجليات المطلقة، فلا حظَّ للعبد فيها إلا أن رتبة التقييد وإدراك التجلّي المطلق لا يتخلص للعبد على ما حققه الشعراني ﷺ في «ميزان الذرية» إلا عند فنائه لا في حال بقائه مع الحق، وحينئذٍ فما رأى إطلاق الحق إلا الحق فافهم.

قال: وإيَّاك والغلط، فإنه لا حلول ولا اتحاد ولا يلحق عبد رتبة الحق أبدًا ولو صار الحق سمعه وبصره وجميع قواه، فإن الحق تعالى قد أثبت عين العبد معه بالضمير في قوله في الحديث القدسي: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، إلى آخر النسق، فإن قيل أن كلام الحق تعالى قديم.

وقد قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وهذا يُشعر بأنَّا معه في الأزل، كما يقول بذلك الفلاسفة.

قلنا: التحقيق أن العالم قديم في العلم الإلهي، حادث في الظهور.

فشهود الحق في رتبة التقييد، يخص الحق تعالى به أفراد العبيد، ولشهود الحق علامة فمن شهدها في نفسه كان في قوله صادقًا، وإلا كان مبطلاً لدعاويه الكاذبة موافقًا.

قال سيدي محيي الدين ﷺ في باب «**الوصايا**»: «اعلم أن علامة مَن يدَّعي أنه يشاهد الحق تعالى إذا عكس مرآة قلبه إلى الكون؛ يعرف ما في ضمائر جميع الخلق ويصدق الناس على ذلك الكشف».

الموجودة في العين هالك من حيث تعيُّنه الخاص إلا الوجه الذي يلي الحق؛ وهو أحد وجهي الحقيقة الكونية التي هو الإطلاق على ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل، وعلى هذا يدور سرُّ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥].

وكل من العرش والشرع مقلوب الآخر، فكما أن الرحمة العامة مستوية على العرش المجيد العظيم؛ فكذا الأمر التكليفي الشامل مستوية على الشرع الشريف، ومحلُّه في الحقيقة هو الإنسان الذي هو الكرسي؛ لأن كلاً من الأمر والنهي إنما ظهر في العرش إجمالاً، ثم في الكرسي تفصيلاً، والروح[1].

فلك الرحمة والقلب، فلك الحياة، فكل منهما استوى على عرشه، فكان الإنسان صورة العالم من كل وجه، ومَن نازع في الذي ذكرناه؛ فعليه كلامه؛ لأن الإنكار من سوء الفهم؛ وهو حال العقل القاصر، والقلب السقيم، رحمنا الله وإياكم برحمته مطلقًا، وجعل إيماننا وتصديقنا يقينًا حقًا.

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَى﴾ [الأنعام:٣٠].

هذه المقولة إمَّا روحانية؛ فتكون بلسان الروح كما في البرزخ بعد الممات، فإن الأرواح تتكلَّم في عالم البرزخ باللسان المناسب لها كما في عالم الخيال في الدنيا

---

(١) قال سيدي علي وفا: والاستواء هو التجلّي التام، ومنـــزلة الناطقة من هذا الجوهر الروح منـــزلة قواه من الجوهر الجسم، فإذا نفخ الروح الحيوان في الجسم، ونفخ الحق الناطق في الروح الحيوان، استوى الرحمن على العرش، وتعلّق كل منفوخ بمحله كما تقدم، لا يتصل بذلك المنفوخ فيه أمر إلا اتصل بالمنفوخ، فلا يحس الجسم محسوسًا إلا أدركه الروح الحيوان تعقُّلاً وتخيلاً وتوهمًا، وأدركه الروح الناطق عقلاً وخيالاً، واتصل بالرحمن كشفًا وتمييزًا، وهذا عروج إلى الرحمن على المدرجة التي نزل من عنده عليها، فلا يظهر محسوس إلا عن تجلّي الرحمن في الناطق، وبالناطق في العرش، وظهور ذلك المتجلى به في القوى.

فما من جسمٍ إلا وللروح به تعلق بحسبه، وللناطق بالروح تعلق مناسب لذلك، وللرحمن في الناطق ظهور مناسب لذلك، وما كان كل محسوسٍ إلا بأن ظهر الرحمن به في الناطق، فظهر به الناطق في العرش، فظهر به العرش في القوى الجسماني، فظهر في الحس الذي هو مرآته، هذا حكم هذا النظام في هذا المقام.

معنوية؛ فتكون تصويرًا لِما يدلُّ عليه مقامهم من الإقرار والتصديق.

وإمَّا حسِّية على تقدير التمثيل في صورة الذَّر، فإن الشيء إذا تمثَّل في صورة أخذ حكم تلك الصورة؛ كجبريل عليه السلام كان يتمثَّل على صورة دحيه، فإنه وإن لم يخرج عن حقيقته الملكية حينئذ إلا أنه كان يأخذ حكم البشر في التكلُّم ونحوه.

فالمتروحن يتكلَّم بلسان باد، ضلَّ فيه من الصورة، وقول الملائكة: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾ [البقرة: ٣٠] الآية[1]، محمول على واحد من المعاني المذكورة الثلاثة، وأيًّا ما كان فقولهم ثابت محقق لا ريب فيه، فيكون عدوًا لهم في الدين عن مقتضاه من غلبة الحجب الكونية، وخروج الطبع عن الاعتدال، وذلك الانحراف أيقن مقتضيًا بمفهومهم الذاتية، وما كلمهم الله فإنه الخلاف.

لما سألوا عنه بلسان الاستعداد، ثم إن السؤال الإلهي كان مبدوء بالهمزة حيث

---

(١) قال سيدي علي وفا: ﴿**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ [البقرة: ٣٠]، فإن شئت ذلك فلك الأمر كله، ﴿**وَنَحْنُ**﴾ عبادك ﴿**نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ [البقرة: ٣٠]، مع جعلك فيها ذلك، فكيف وأنت لا تجعل فيها خليفة، إما منك فيما تفعله من خلف حجاب سببيته، وإما منا ونحن عبادك الذين فطرتهم على طاعتك، وليس بخليفة إلا من قام بحكم مستخلفه. فكلامهم هذا تفويضٌ وتبرؤٌ من الاعتراض الذي أشعر به إخبارهم، قبل إظهار المخبر به، كما يفعل بمن توطَّن على حصول ما لا يختاره، فمن فهم من هذا الخطاب اعتراضًا أو تعجُّبًا أو نحو هذا، فليرجع عنه لما ذكرنا، فهو أولى بحفظ حرمة المكرمين، ويمكن أن يكونوا تعرضوا بذلك؛ لأن يُجعلوا جنود هذا الخليفة المنوَّه بذكره، ويؤذن لهم في النـــزول معه عن مصافهم السمائية إلى محل خلافته، تعظيمًا لمن عظمه ربهم، فكأنهم قالوا: ما ثَمَّ من يكون جندًا له موجودًا إلا الجن الشياطين، وهم مفسدون سُفَّاكٌ للدماء، ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ [البقرة: ٣٠]. فتجعل أولئك جنده، أو تجعلنا نحن جنده، ﴿**قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠]، فخلق له جنودًا مضافة للفريقين.

وعلى كل تقديرٍ فهم لم يصفوا خليفة ربهم بالإفساد وسفك الدماء، وإنما وصفوا به من يتأتى ذلك منه، وفي الخلافة كف إفساده، وقطع الخصومة الحاصلة بسبب فعله، وكيف يذموا من وقعوا له بأمر الله لهم ﴿**سَاجِدِينَ**﴾، وأنبأهم بأسمائهم التي بها صار لكلٍّ منهم مقام معلوم.

قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] (١) لأنه المبدئ الأول، والجواب الخلقي كان مبدوء بالباء حيث: ﴿قَالُواْ بَلَى﴾ [الأنعام:٣٠]: لأن الباء هو التعيُّن الأول، والنقطة تحتها؛ إشارة إليه للتمييز بين مفيض الجود، والمستفيض؛ ولذا قال مَن قال: «أنا النقطة التي تحت الباء»(٢).

---

(١) فأخذ الله الصور من ظهر آدم، وآدم فيهم وأشهدهم على أنفسهم بحضرة الملأ الأعلى والصور التي لهم في كل محل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢].

فالإنسان عالم بجميع الأمور الخفيَّة فيه من حيث رَوْحه المدبِّر، وهو لا يعلم أنه يعلم، قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

فهو الناسي والساهي، والأحوال والمقامات والمنازل تذكره، وهو رجلٌ يدري ولا يدري أنَّه يدري.

ومن هذا المقام قال ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن».

وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

(٢) هو سيدنا الشبلي قدس الله سره، كأنه يقول: بي قام كل شيء. فوجوده تعالى بذاته، وصفاته كلها قائمة بذاته كوجود العالم كله علوه وسفله به، وقائم بقيوميته، وتدلُّ أيضًا على بهائه وبلائه لأنبيائه وأحبائه، وفيها وجوه متعددة من الاستعانة والإلصاق، والملابسة والتبعيض، والظرفية والسببية كلها تعطي البقاء.

ولذا قال الشيخ قُدِّس سرُّه: فيها دعوى من حيث بقاء الرسم، ولا تعطي الفناء مثل اللام فإذا قلت: «كتبت بالقلم»، فقد أثبت نفسك كاتبًا واستعنت على الكتابة بالقلم، فالأشياء كلها ظهرت باستعانة الباء، وهو السبب الذي عنه وجدت ومنه ظهرت وفيه بطنت، وإليه إشارة الشبلي قُدِّس سرُّه لـمَّا قيل له: أنت الشبلي فقال: أنا النُّقطة التي تحت الباء، وتعطي الإلصاق أيضًا كما في «مررتُ بالمسجد»، فكما قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧]، فألصق الذهاب بالنور كإلصاق المرور بالمسجد، والنور هو الباء والباء نور السماوات والأرض وهو الحق الذي قامت به، وتعطي الظرفية كما في «صليت بالمسجد». وكنا صادرون من فوقها، وكنا موجودين فيها قبل وجود أعياننا، وأمَّا إعطائها التبعيض؛ فلأن الذات وإن كانت واحدة لها وجهان الغيب والشهادة، والظهور والبطون، والأول والآخر وغير ذلك، وكل من هذين الوجهين يصح أن يُقال: أنَّه بعض الذات، فإن كشف الذات من حيث الشهادة لا من حيث الغيب، والعلم بها من حيث الغيب لا من حيث الشهادة، فلا يُعَايَنْ من الذات إلا الوجه الواحد الذي يدلُّ عليه الذي ظهر عليه، ويُغيب عنه الوجه الآخر، فلا يشهد شاهد إلا بعض الذات بهذا الاعتبار، وتكون الباء زائدة كما في ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء:٧٩].

وهو إشارةٌ إلى وجود العبد بما تقتضيه حقيقة العبودية.

ونقل الشيخ ﷺ عن الشيخ أبي مدين قُدِّس سرُّه أنه قال: «ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الباء عليه مكتوبة»، فالباء المصاحبة للموجودات من حضرة الحق في مقام كل شيء، فظهر في كل موجود =

[سورة آل عمران]

قال الله سبحانه: ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ [آل عمران:٤٣].

قوله ﷻ: ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ [الآية:٤٣]؛ إشارة إلى أن النفس المطمئنة، الصدِّيقة، الراضية، المرضية، الفانية، الباقية؛ ولذا مَن رأى في المنام مريم ابنة عمران؛ دلَّ على أن نفسه تلبَّست بلباس الصدِّيقية التي هو بمنـــزلة الشعار بعد التلبُّس بلباس الصلاح الذي هو بمنـــزلة الدِّثار.

فالأول: لباس الحقيقة.

والثاني: لباس الشريعة.

وكل مَن له اللباس الأول؛ فله اللباس الثاني؛ لأن كل حقيقة ردَّها الشريعة؛ فهي ردٌّ بدون العكس: أي ليس كل مَن له اللباس الثاني متلبِّسًا بالأول بالفعل؛ لوجود الحجاب، وإمَّا بالقوة ففي كل ذرة ما في الكل؛ لأن الأسماء الإلهية يشتمل بعضها بعضًا، وإن لم يكن حكمه ظاهرًا بالفعل.

قوله ﷻ: ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ [الآية:٤٣].

أراد بالقنوت: دوام الطاعة تطبيقًا للاسم المسمَّى؛ لأن مريم بمعنى العابدة، والأسماء والكنى تنـــزل من صوب السماء، فلها تأثيرات في المسمَّى؛ ولذا نهى عن الأسماء التي يُتطيَّر بها، وتدلُّ على المعاني الخسيسة؛ كالحقير، والمضطجع، والكليب، والمفتون، ونحو ذلك.

=

وهذا سرُّ ابتداء القرآن بالباء بل ابتداء كل سورة بالبسملة، فافهم.

فالباء ملكوتيَّة، والنقطة جبروتيَّة، والحركة شهاديَّة، وأمَّا الألف المضمرة في بسم الله فهي إشارة إلى الحقيقة القائمة بالكل، واحتجب رحمه منها بالنقطة التي تحت الباء ثم وجدنا الألف المحذوفة في: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١] قد ظهرت، ولو لم تظهر ما علم المثل حقيقته ولا رأى صورته وسؤدته؛ وذلك لأنه تعالى أمر بتنـــزيه المجلى بتجلِّي المثل فقيل له: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] الذي هو مُغذِّيك من المواد الإلهية، فهو ربك ولا طاقة لها على ذلك إلا بالباء.

ولا بد من امتثال الأمر، فلا بُد له من ظهور الألف التي هو الفاعل القديم فيتيقَّظ عن سِنة الغفلة، وافهم فإني أدرجت لك إن كنت لبيب المعارف فيه.

ثم إن دوام الطاعة: إشارة إلى مرتبة الشريعة؛ وهي ما يتعلَّق بالظواهر، وما يُعالج بالأبدان، والحواس الظاهرة، وهي ذرائع الكمالات الباطنة.

فكل ما هو وسيلة إلى الكمال في نفسه؛ كعلم الظاهر، والعمل به؛ فإنه وسيلة إلى العلم اللَدني على ما دلَّ عليه قوله: «**مَن عمل بما علم؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم**»[1].

فمَن لا عمل له بالشريعة على الدوام: أي إلى آخر العمر فهو الذي يُقال له: الملحد، فإن دعا إلى إلحاده؛ فهو مقتول بسيف الشريعة والحقيقة جميعًا؛ لأن الله تعالى ما جعل التجليَّات الوجودية إلا للتجليَّات الشهودية[2].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/١٥).

(٢) ولَمَّا كانت الشرائع مقدمات علميات وعمليات، وعلمها يفيد معرفة وظائفها، والعمل بوظائفها يزيل الحظوظ النفسانية، ويميت الشهوات البدنية، ويقطع الروابط العادية، ويجرد الإنسانية، ويكشف الحضرة الرحمانية: وهي حضرة الحق، وحضرة الحق: هي الحضرة الجامعة لحقائق الأكوان، وهي بد كل شيء ووجوده، وهي الماهية التي توجد فيها كل ماهية من حيث التقوم والتتميم، قال: فيها نتيجة الشرائع.

وتقول: علم الشريعة: مقدمة العمل بوظائفها، والعمل بوظائفها: مقدمة لرضوان الله يقيم العبد في حضرته، فعلم الشريعة، والعمل بها؛ يقيم العبد في حضرته، فحضرته هي نتيجة الشرائع، وحضرته فيها كل شيء، فهي الحقيقة الجامعة.

ونقول: الشريعة: تحمل لرضوان الله، ورضوانه؛ صفته، والصفة لا تفارق الموصوف، والموصوف: هو الله، فالشريعة تحمل إلى الله؛ فالله هو نتيجة الشرائع بالوجه الذي ذكرنا.

ونقول: الأعمال الشرعية إذا عُمل بها على التمام؛ تفيد التخلق بالأسماء الحسنى، والمتخلق بالأسماء إذا تجوهر بها؛ تكون الأسماء ذاته وروحه، والأسماء صفات الله، وصفاته غير زائدة على ذاته، فالمتخلق بالأسماء ليس بزائد على ذات الله، فالظفر بالحق والاتصال به هو نتيجة الشرائع.

ونقول: أول وظيفة من وظائف الشريعة: هي كلمة لا اله إلا الله، وتتضمن أن لا فاعل إلا الله، فكل موجود في الكون الله أوجده من حيث هو فاعله، والفاعل لا يفارق مفعوله، وهو معه بالإيجاد والإبقاء، ولا وجود للشيء إلا به، فهو الأصل الضروري في وجود كل شيء، ولكل شيء حقيقة، وهو وجوده الذي هو به ما هو ووجود كل شيء، الذي هو به ما هو هو به، ومنه وعنه وإليه، هو حقيقة كل شيء وماهيته ووجوده؛ فالله: هو الحقيقة الجامعة، كما تقدم من قول سيدنا ﷺ.

=

فمَن طلب الثمر بلا شجر، ولا ورق، والسمن والزُبْد بلا حلب، ولا لبنٍ؛ فقد ضرب حديدًا باردًا، وخرج عن حدِّ الحكمة، وصار أكفر من الحمار.

وأورد الاسم الرب؛ لأن الطاعة مما يوجبه الربوبية، فإن الذي يربِّي عبد لا بد وأن يكون مشكورًا، كما قال ﷺ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[1].

وقدَّم مرتبة الشريعة التي هي مرتبة الطاعة؛ لأنها مِفتاح باب الحقيقة، فلن يدخل هذا الباب أحد إلا بهذا المِفتاح، وعليه جميع الأنبياء والأولياء مَن طلبه بغيره؛ بقي خارج الباب، و لم يكن على طائل أصلاً.

قال ﷻ: ﴿وَاسْجُدِي﴾ [الآية:٤٣].

إشارة إلى مرتبة الحقيقة؛ فإن السجدة عبارة عن الفناء في الله؛ فكأنه تعالى يقول: يا مريم اعملي عمل الشريعة؛ وهي الطاعة بالبدن، **واعملي عمل الحقيقة**[2]

=

فإذا كان هو حقيقة كل شيء، فالأشياء كلها هي به على ما هي عليه، فهو الحقيقة الموجودة في كل حقيقة، وهو الذات المستحقة بذاتها لكل ذات، فهو مع كل شيء بوجوده؛ فلا غيبة ولا حجاب، والغيبة والحجاب: هو الجهل بهذا الاتصال والاستحقاق الذي ذكرناه، والغفلة عن ملاحظته وشهوده في كل شيء؛ بل شهوده ولا شيء معه.

وعلم الشريعة؛ يزيل الجهل المذكور، ووظائفها؛ ترفع الغفلة، وتنبه على الحضور مع الحاضر في كل حضور، فالحق هو نتيجة الشرائع، وعلوم الشريعة بهذا الوجه: هي علوم التحقيق، فاعلم ذلك.

فإذًا حقيقة لا اله إلا الله: ألا موجود إلا هو، وما خلا الله باطل، والوهم يشعر بغيره، والوظائف الشرعية تذكر بالله، وذكره يزيل الوهم، ويمحو خبر الغيرية، ويقيم العبد في الحضرة الحاضرة في حضوره، فالحق نتيجة الشرائع كما قال، وهذا الكلام في نتيجة الشرائع، والحقيقة الجامعة، وعلوم التحقيق قد تخلص، فافهمه.

(١) رواه البخاري (٤/١٨٣٠)، ومسلم (٤/٢١٧١).

(٢) قال السيد مصطفى البكري في السيوف الحداد: اعلم أن الشريعة هي الباب واللباب، التي تهدي إلى صواب الصواب، وأول واجباتها معرفة رب الأرباب على طبق السُّنة والكتاب، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: معرفة عوام، وخواص، وخواص الخواص.

فالأولى: معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه تعالى، وكذلك في حق رسله، وهذه واجبة على كل مكلفٍ؛ لئلا يشتبَّه عليه الحال فيقع في الخيال، وليسلم من ورطة التقليد في التوحيد.

=

=

قال صاحب الجوهرة: إذ كل من قلَّد في التوحيد إيمانه لم يخل عن ترديد، وكل من طلب الثانية ولم يحكم الأولى كان جاهلاً بالله؛ فإنها أولى وأولى، ويجب على صاحب هذه المعرفة أن يطلب العلم الواجب في حقّه؛ ليكون ممن يعبد الله على بصيرةٍ، وإلا كان ما يهدم أكثر مما يبني.

ففي الحديث: «ركعتان من عالمٍ أفضل من سبعين ركعة من غير عالم».

والعالم العامل هو الورع المشار إليه بحديث: «ركعتان من رجلٍ وَرِعٍ أفضل من ألف ركعة من مخلط». رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس.

وإلا فمعَ الجهل أين الورع.

والثانية: معرفة آثار الأسماء والصفات، وظهور أنوار تلك الآثار في القلب؛ ليخلص صاحبه من الآفات، وطريقها تسير الأوقات بالعبادات، وتزكية النفس وترك المخالفات، والجلوس على بساط الفقر والانكسار، وشغل القلب بمراقبة العزيز الغفار، والاقتداء بأستاذ شهدت بصحة عقيدته وكماله العارفون، وأقرَّت بحسن منازلاته ومواجيده الواصلون، ليسلك به مقام التعلق، ويرقيه إلى التحقق، ويوصله إلى التخلق، وهناك يدرك الأسرار بطريق المنازلة والذوق، ويأكل لا من تحت الأرجل بل من فوق، وطريق التصوف عند السادة الصوفية، كله تخلق بالأخلاق المصطفوية، فمن زاد تخلقه زاد تصوفه، والتخلق يحتاج إلى السلوك، وهو يفتقر إلى المرشد العارف.

قال الشعراني ﷺ في الميزان: أما سلوكك بغير شيخٍ فلا يسلم غالبًا من الرياء والجدال والمزاحمة على الدنيا، ولو بالقلب من غير لفظٍ، فلا يوصلك إلى ذلك، ولو شهد لك جميع أقرانك بالقطبية فلا عبرة بها.

وقد أشار إلى ذلك الشيخ محيي الدين في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات فقال:

«من سلك الطريق بغير شيخٍ ولا ورعٍ عمَّا حرَّم الله فلا وصول له إلى معرفة الله تعالى، المعرفة المطلوبة عند القوم ولو عبد الله تعالى عُمر نوح عليه السلام».

ثم إذا وصل العبد إلى معرفة الله تعالى فليس وراء الله مرمى ولا مرقى بعد ذلك، وهناك يطلع كشفًا ويقينًا على حضرات الأسماء الإلهية، ويرى اتصال جميع أقوال العلماء بحضرة الأسماء، ويرتفع الخلاف عنده في جميع مذاهب المجتهدين؛ لشهود اتصال جميع أقوالهم بحضرة الأسماء والصفات، لا يخرج عن حضرتها قول واحد من أقوالهم.

وهذه المعرفة نتيجة التخلي عن الأخلاق الذميمة، والتحلي بالأوصاف الكريمة، فأثمرت التحلي بالأسرار العظيمة، وفي الحديث: «الأخلاقُ مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أراد الله تعالى بعبدٍ خيرًا منحه منها خُلقًا». وقال ﷺ: «إنما بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق».

قال صاحب عوارف المعارف: «فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت

=

=

إلى تحسين الأخلاق، فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهَّاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها».

والثالثة: معرفة كنوز أسرار الذَّات العَلِيَّة، وهذه المعرفة خاصة بأكابر المحققين من الأولياء الرَّاسخين.

وطريق هذه المعرفة لا يكون إلا عن محض المِنَّة، وكرامة صاحبها استقامته على نهج الكتاب والسُّنة.

قال أبو يزيد البسطامي قدَّس الله سرَّه: لو نظرتم إلى رجلٍ أُعطي من الكرامات حتى تربَّع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة، ولما قصد زيارة ذلك الرجل المشهور بالزهد ودخل المسجد، رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف ولم يسلِّم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدَّعيه، فاتِّباع القدم المحمدي نعمة وأي نعمة، والزيغ عنه نقمة لا يماثلها نقمة، فإن شؤم هلاك الدين لا يعادله شؤم، نعوذ من ذلك بالله الحي القيوم.

وإذا نظرت بعين التحقيق في هؤلاء الزَّنادقة المنابذين لأهل الطريق لم ترَ عندهم غير شقشقة اللسان الخالية عن الدليل والبرهان، وإذا بحثت مع أحدهم أسفر وجهه عن أخلاق البغال بكلام أبرد من برد العجوز؛ لتمثله في وصف النعال.

ثم قال أيضًا: وقد رأيت في بعض الرسائل حديثًا مرفوعًا وهو: «الشريعة مقالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة حالي»(١).

وعلى تقدير صحته فالشريعة: البيان، وهو بالمقال وما ينطق عن الهوى وبالأفعال، وهو أبلغ فاتبعون يحببكم الله، والحال ما ينتجه البيان فعاد الأمر إليه.

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في كتاب «التراجم» في باب ترجمة الشريعة والحقيقة: لطيفة:

يخيل لمن لا يعرف أن الشريعة تخالف الحقيقة، هيهات بل الشريعة عين الحقيقة، وأن الشريعة جسمٌ وروحٌ، فجسمها الأحكام وروحها الحقيقة، فما ثم إلا شرع لطيفة، الشريعة: وضعٌ موضوعٌ وضعه الحق في عباده، فمنه مسموع وغير مسموع، فلهذا من الأنبياء متبوع وغير متبوع، ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [الأنفال: ٢١]، كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

وقال في فتوحاته في باب الشريعة: الشريعة من جملة الحقائق، فهي حقيقة لكن تُسمَّى شريعة، وهي حقٌّ كلها، والحاكم بها حاكمٌ بحقٍّ مثاب عند الله؛ لأنه حكم بما كلف أن يحكم به، وإن كان المحكوم له على باطلٍ، والمحكوم عليه على حقٍّ، فهل هو عند الله كما هو في الحكم، أو كما هو في نفس الأمر؟ فمنا من يرى أنه عند الله كما هو في نفس الأمر، ومنا

=

=

من يرى أنه عبد الله كما هو في الحكم.

ثم قال بعد كلامٍ طويلٍ: فعين الشريعة عين الحقيقة، والشريعة حقٌّ كلها، ولكل حقٍّ حقيقة، فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما ينـــزل في الشهود منـــزلة شهود عينها في باطن الأمر، فيكون في ذلك الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد، حتى إذا كشف الغطاء لم يختل الأمر على الباطن.

ثم قال: فما ثَمَّ حقيقة تخالف الشريعة؛ لأن الشريعة من جملة الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه، والشرع ينفي ويثبت، فتقول: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهذا قول الحقيقة بعينه، فالشريعة هي الحقيقة.

وأطال في ذلك. وقال فيها أيضًا: ومن جملة آداب الحق ما نزلت به الشرائع.

وقال: لما كان الأمر العظيم يجهل قدره ولا يعلم، ويعز الوصول إليه، تنـــزلت الشرائع بآداب التوصل؛ ليقبلها أولوا الألباب؛ لأن الشريعة لُب العقل والحقيقة لُب الشريعة، فهي كالدهن في اللب الذي يحفظ القشر، فاللب يحفظ الدهن والقشر يحفظ اللب، كذلك العقل يحفظ الشريعة والشريعة تحفظ الحقيقة، فمن ادَّعى شرعًا بغير عقلٍ لم تصح دعواه، فإن الله تعالى ما كلف إلا من استحكم علقه، ما كلف مجنونًا ولا صبيًّا ولا من خرفٍ، ومن ادَّعى حقيقة من غير شريعة فدعواه لا تصح.

ولهذا قال الجنيد: (علمنا هذا يعني علم الحقائق الذي نجا به أهل الله مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة: أي أنه لا يحصل إلا لمن عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الشريعة، وقال: إن الله أدبني فأحسن أدبي، وما هو إلا شرع له، فمن تشرَّع تأدَّب، ومن تأدَّب وصل).

وقال سيدي عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى في نشر المحاسن:

اعلم أن الشريعة الشريفة المنيفة مشتملة على قسمين: علم وعمل، ثم العلم من حيث الجملة على قسمين: ظاهر وباطن.

والظاهر على قسمين: شرعي وغير شرعي.

والشرعي على قسمين: فرض ومندوب.

والفرض على قسمين: فرض عين وفرض كفاية.

وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم صفات القلب، وعلم أصل، وعلم فرع.

وقد مثلت لهذه الأقسام وغيرها من أقسام العلوم، وبيَّنت المحمود منها والمذموم، وأوضحت ذلك في خاتمة كتاب شرح التوحيد.

والقسم الثاني من التقسيم الأول وهو العمل على قسمين: عزائم ورخص. إذا علم هذا فاعلم أن الحقيقة ذات المعاني الرقيقة والعلوم الدقيقة مشتملة أيضًا على قسمين: علم وعمل.

والأول منها على قسمين: وهبي وكسبي.

=

وهي التوجه بالقلب، وداومي على ذلك، فإن أفضل الأعمال أدومها، ويعبِّر عن ذلك التوجه الدائم بالذكر الكثير الذي عليه الكُمَّل.

وقوله ﷻ: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [الآية:٤٣].

كما أنك سجدت مع الساجدين، فإن كلاً من الركوع، والسجود صورة، ومعنى دائم قد قام به في كل عصر كثيرون في عصر هذه الأمة أكثر؛ لأن الأولياء اليوم عدد الأنبياء؛ بل أزيد لكمال استعداد الأمة.

وأشار بالركوع إلى نوع من أنواع الفناء، فإن السجدة إشارة إلى فناء الإنسان، والملك، والجن، والركوع إشارة على انقيادهم، وانقياد كل ذي روح

=

فالوهبي: علم المكاشفة، والكسبي على قسمين: فرض وغيره.

والفرض على قسمين: فرض عين وفرض كفاية.

وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم قلب وعلم أصل وعلم فرع، كما تقدَّم في العلم الشرعي.

فهذا العلم الكسبي الذي هو أحد قسمي علم الحقيقة هو علم الشريعة، والقسم الثاني من القسمين الأولين وهو العمل هو القسم الأول من قسمي علم الشريعة الذي هو للعزائم، وهو مشتملٌ على سلوك طريق الحقيقة، والطريقة المشتملة على منازل السالكين تُسمَّى مقامات اليقين، فالحقيقة موافقة للشريعة في جميع علمها وعملها وأصولها وفروعها فرضها ومندوبها، ليس بينهما مخالفة أصلاً.

نعم هنا شيئان من العلم والعمل أحدهما: علم صفات القلب، فأهل الحقيقة لهم به اعتناء واهتمام جدًّا، وسلوك طريقتهم موقوف على معرفته وتبديل صفاته الذميمة، وأكثر أهل الشريعة مهملون ومتهاونون فيه مع كونه فرض عين في الشريعة والحقيقة بلا خلاف.

وأما القسم الثاني من قسمي علم الشريعة وهو الرخص، فأهل الحقيقة من حيثُ العلم والاعتقاد لا يشكون بأن ذلك حق والعمل به جائز، لطفًا من الله تعالى بعباده، ورحمةً بهم في التخفيف، ورفع الحرج عنهم.

وأما من حيث عملهم فلهم في العمل طريق في شواهق الحق على شوامخ جبال عزائم الشريعة الغراء، يسلكون فيها إلى الله تعالى بتوفيقه وعنايته، وجميل لطفه وصيانته وعرة العقاب صعبة الذهاب، منهم من يقيم فيها سبعين سنة، ومنهم من يقطعها بتوفيق الله في سنة، وبعضهم في شهر، وبعضهم في جمعة، وبعضهم في يوم، وبعضهم في ساعة، على حسب معونة الله الكريم وتقدير حكمة العزيز العليم. وانظر: السيوف الحداد (ص٦٠) بتحقيقنا.

أيضًا، فإنهم عند العلماء بالله عقلاء، علماء، أحياء.

وأثبت السجود والركوع على معيَّة الساجدين والراكعين؛ لأن للإنسان جمعية الأسماء، فهو يوافق كل مسبِّح في تسبيحه بخلاف قوله: ﴿الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، فإن الجبال والطير ونحوهما ما وافقت داود عليه السلام إلا في تسبيحه المخصوص بيَّن كون مريم مع الساجدين والراكعين، وكون الجبال ونحوها مع داود.

وحاصله أن الإنسان يشارك جميع الأشياء في أسمائها المخصوصة؛ لجمعية نشأته بخلاف جميع الأشياء، فإن كلاً منها إنما يشارك الإنسان في اسم مخصوص بحسب ما يقتضيه مرتبته، فللإنسان ما للكل، وليس لكل واحد من الكل ما للإنسان: أي بالفعل، وإن كان له ذلك بالقوة.

ومعنى القوة أن الله تعالى أودع في كل نوع من الأشياء سرَّ اسمٍ من الأسماء كلية أو جزئية؛ لكن أودع في ذلك الاسم أيضًا أسرار سائر الأسماء؛ لأن المسمَّى إذا كان واحدًا؛ فجميع الأسماء يدور معه سواء كان حكمها ظاهرًا بالفعل؛ كالإنسان الكامل، أو لم يكن كما لغيره من الأشياء، فكل ظهور وبطون إنما هو لله تعالى.

ومعدن كل فعل إنما هو القوة، ولولا القوة لَما خرج إلى الفعل شيء من الأشياء، وبهذه القوة لا يُفضل بعض الأشياء على بعض، فليس للسلطان على أدنى رعية من رعاياه فضل بخلاف الفعل.

ألا ترى أن الصلحاء لا يدركون درجة الشهداء، وهم لا يصلون إلى مرتبة الصدِّيقين، وهم لا يبلغون منـــزلة الأنبياء، ثم المرسلون فوق الأنبياء، وفوقهم أولو العزم، وفوقهم نبينا ﷺ.

وقد يظهر القوة إلى الفعل من غير الإنسان أيضًا؛ كتكلُّم الجماد وتسبيحه على ما سمعه المكاشفون، ومنه يظهر ان كلاً من الإنسان المكاشف، والأشياء المسبِّحة يستأنس أحدهما بذكر الآخر دون الإنسان المحجوب؛ فإنه غافل عن تسبيح الأشياء، وربما يحمله على المعنى المجازي الذي هو الدلالة، فمقامه مع الله؛ كمقامه مع الأشياء حيث إن الله أقرب إلى العبد من حبل الوريد.

ويشهد من قريب وبعيد؛ لكن العبد المحجوب لا يشهده، وكذا لا يكاشفه

تسبيح الأشياء، وإن كان مع الأشياء في الظاهر، فالأشياء تشاهد المحجوب، وتسمع تسبيحه، وتستأنس به، وهو غافل عن الأشياء وتسابيحها؛ ولذا كان أضلَّ من الأنعام؛ لأنها وجميع الأشياء على صراط مستقيم في سلوكها بخلافه؛ فإنه على تقدير الاهتداء إلى الشريعة، ضالٍ عن الحقيقة، ومما قرر يعرف سرَّ قوله ﷺ:

«**كل مولود يُولدُ على الفطرة، ثم أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»[1] يعني: إنه قبل كونه يهوديًا، أو نصرانيًا، أو مجوسيًا، أو نحو ذلك؛ كان على الفطرة بالفعل؛ وهي الجبلة التي جبله الله عليها في أول إيجاده بحيث لو تركه على تلك الفطرة من غير اعتراض العوارض؛ كان من شأنه التحلّي بالإيمان، وسائر الكمالات الإنسانية[2].

وأمَّا بعد كونه يهوديًا أو نحوه؛ فقد أفسد تلك الفطرة بالفعل، وبقي الإيمان ونحوه في القوة، وبتلك القوة صحَّ تكليفه بالإيمان، وسائر الأحكام، إذ لولا ذلك؛ لكان التكليف عبثًا، ومنه يعرف سرَّ قوله تعالى: ﴿**لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ**﴾ [التحريم:٦].

فإنه لولا العصيان من شأنهم بالقوة؛ لما أخبره الله عنهم بعدم العصيان ومدحهم به؛ إذ لا يمدح المرء بالممتنع، كما إذا قيل: فلان لا يأكل الحجر، والميت لا يعصي الله، ومعنى إمكان العصيان في حقهم: إنه لولا الامتناع بالغير؛ وهي العصمة؛ لصدر عنهم العصيان كما من عصاة البشر؛ لكن لا يصدر عنهم ذلك؛ لحصول العصمة، ولكونهم طُبعوا من النور، وهي لا يقتضي الظلمة.

---

(١) رواه البخاري (١/٤٦٥)، ومسلم (٤/٢٠٤٨).

(٢) قال الشيخ ابن سبعين: ولا بد من الرجل المطلوب بالفطرة الثانية، فإذا عزمت على لقاء الرجال فاذكر الله ربهم في نفسك، ثم لا تسأل على غيره، فأول شيء تراه رجاله، ثم ملائكته، ثم جواهر الفضائل بالقصد الثاني، واطلب مدركات النوم في اليقظة، والعلم دون النظر، والقدرة بغير عضوها، وأول الوقت يقوم به إلى الله فما يكون فقط، ولكل وقت صلوات، وفي عقبهما ما عينه الشارع ﷺ فقط، إلا إنه يبالغ في التكرار والترتيب إلا إن جاء ما يرد عن ذلك ما هو ألزم.

فمَن قال بعصيان هاروت وماروت فقد عصى الله؛ بل كفر بالله؛ لتكذيبه النص، ويقرب منه القول بعصيان الأنبياء؛ لأنهم معصومون، وما صدر عنهم، فعلى التأويل، وترك الأَولى الذي يقال له الزلة، فاعرف.

قال الله تعالى في سورة الزمر: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر:٣٥].

اعلم أن من الأعمال ما هو أقبح؛ وهو الشرك، وما هو قبيح؛ وما عداه من المعاصي صغائر أو كبائر، ومنها ما هو أحسن؛ وهو التوحيد، وما هو حسن؛ وهو الطاعات فرائض أو نوافل.

فإذا كفر الله بسبب التصديق الأسوأ والأقبح فبالحرى أن يُكفِّر السوء والقبيح، فإن الإيمان يجُبُّ ما قبله مطلقًا ما عدا الحقوق المتعلِّقة بالغير، وكذا أعطاهم الأجر بالأحسن، فجدير أن يعطيهم إياه بالحسن؛ لأنه كما أن القبيح تابع للأقبح؛ فكذا الحسن تابع للأحسن لكنه صرَّح بالأسوأ في جانب التفكير؛ إشارة إلى أنه لا اعتداد بالسوء في جنب تفكير الأسوأ حتى يحتاج أيضًا إلى التكفير، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وقول شريح القاضي: يا رب ليس في صحيفتي شركٌ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه.

وصرَّح بالأحسن في جانب الجزاء؛ إشارة إلى أن كل واحد من الأحسن، والحسن معتدٌّ به على حدة، وأنه يجازي الحسن بما يجازي به الأحسن؛ فيكون الحسن في حكم الأحسن فضلاً من الله تعالى وكرمًا، وتصريح العمل في الأول؛ لاستقباحه، والمعنى إشارة إلى أنه مضى ما مضى.

فلا ينبغي أن يعود تصريحه في الثاني، لاستحسانه، وصيغة الاستمرار، والمضارع، إشارة إلى أن لهم عملاً أحسن بعد عمل أحسن على الاستمرار؛ لوقوفهم على حسنه الزائد حيث إنه يزيد في الدرجات، كما أن العلم الزائد يزيد في القرب المعنوي.

وفيه إشارة إلى أن العلم والعمل ينبغي أن يكونا على قدمٍ واحدة بحيث إن

العلم حيث يبلغ يجب أن يبلغه العلم، كما قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]؛ يعني: حيث وصل إليه العلم؛ وصل العمل؛ وهو صفة الكُمَّل؛ لأنهم يطيرون على جناحين، فمَن استهان بالعمل، وقصَّر فيه؛ فلا اعتداد بعلمه، ولو تجاوز العوالم كلها[1].

---

(١) واعلموا جعلنا الله وإيَّاكم من أهل الكشف في الوجود، وجمع لنا بين الطرفين المعقول والمشهود أن العالم كان مَنْ كان على ثلاث مراتب عالم علمه زائد عليه إما موهوب، وإما مكتسب، ولهذه المسألة حكم في الإلهيات، ولها حكم في الكون في بيانه إشاعة بشاعة، وفي محاققته كشف ما لا ينبغي كشفه.

ولكن سأبرز نبذًا من تلك الأسرار إلى إخواني لأُنس الغائلة مع تحقيق الفائدة بين التصريح والإلغاز والإخفاف والإغلاق والله المستعان.

فاعلم أن العالم الذي علمه عين ذاته في الإلهيات ظاهرٌ، فإن علمه تعالى عين ذاته تعالى، وأما في الكون حين شهود وحدة العالم والمعلوم، والعلم يشهد ذلك فافهم.

وأمَّا العلم الموهوب، والمكتسب بالنسبة إلى الكون فظاهر الدرك هين الخطب.

قال الله تعالى في عبدٍ من عباده: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:٦٥]. وهو علم الإقرار.

وأما العلم الكسبي كالعلوم التي هي نتائج الأفكار، والأعمال المشروعة التي تُورث العلم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وأما هذان العلمان في الإلهيات فصعبا التصور؛ لأنه تعالى منـــزَّه عن ذلك، ولكن قال الله تعالى عن نفسه حتى نعلم، فأنـــزل نفسه في هذه الأخبار منـــزلة مَنْ يستفيد بذلك علمًا وهو سبحانه وتعالى العالم بما كان وما يكون.

وقولنا: إن العلم تابع المعلوم وبحسبه، فأعطي المعلوم من نفسه للعالم به العلم على ما هو عليه، فكل عطاءٍ بلا عوضٍ فهو هبةٌ، فافهم، فإن المقام ليس مقام المحاققة، فتأدب.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طـــه:١١٤].

اعلم ثانيًا أن المعلوم كان ما كان حقًّا كان أو خلقًا ما لا يعلم بغيره أصلاً وليس له دليلٌ قاطعٌ عليه سوى نفسه، والبصر له الشهود، والعقل له القبول، وهذا هو التحقيق الأتم، والذوق الصحيح الأشمل الأعم، وغير هذا الذوق تمويه وتمريج.

فمن تطلَّب معرفة الأشياء كما هي بالدلائل الخارجية الغريبة التي ليست عين المطلوب، فمن المحال أن يحصل ذلك، بل استسمن الورم، ونفخ النار بلا ضرم ولا تظفر يداه إلا بالخيبة، فلهذا نصَّ أهلُ الحق رضي الله عنهم، وأهل العقول السليمة على أن الشيء لا يُدرك بما يغايره في الحقيقة، ولا يؤثر =

=

شيء فيما يضاده وينافيه من الوجه المعتاد والمنافي، بل يدرك بغلبة حكم ما به الاتحاد والاشتراك على ما به الامتياز، فافهم.

وبيانه أن إدراك الأشياء كانت ما كانت بكنهها، ولو كان منعذرًا من حيث الفكر والنظر، ولكن لإدراكها وجه آخر يُسمَّى الوجه الخاص، وهو ارتفاع حكم النسب الجزئية والصفات التقليديَّة من العالم العارف حال تحققه بمقام: «كنت سمعه وبصره»، فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه فلا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، وفي المرتبة التي فوقها المجاوزة لها المختصَّة بقرب الفرائض، وقد ثبت عند أرباب الكشف أن الأمر كان ما كان ما يدرك منه إلا وجه ما به الاشتراك لا ما به الامتياز، فإذا أراد عالمٌ علم شيء فتوصَّل إليه بوجه المضاهات، وعلم ذلك الشيء بنفسه في نفسه؛ لأن الإنسان الكامل مضاهٍ للحق والخلق، فإنه يتنـــزَّل إلى أسفل سافلين من مقام أحسن التقويم؛ لأنه على الصورة الإلهية، وله الأوليَّة والآخريَّة وذلك لتمكنه في مقام الجمع الأحدي الذي صحَّت له المحاذاة والمحاكات والمطابقات.

وصورته أن الإنسان برزخ بين الحضرات الإلهية والكونية ونسخة جامعة لهما، ولما اشتملتا عليه حرفًا حرفًا، فليس شيء من الأشياء إلا وهو مرتسم في مرتبته التي هي عبارة عن جمعيه، والمتعين مما اشتملت عليه نسخة من وجوده، وحَوَتْها مرتبته في كل وقتٍ وحالٍ، ونشأةٍ، وموطن إنما هو ما يستدعيه حكم المناسبة التي بينه، وبين ذلك الحال، والوقت، والنشأة، والموطن، وأهله كما هو سُنَّة الحق من حيث نسبة تعلقه بالعالم، وتعلُّق العالم به، فمهما لم يتخلَّص الإنسان من ربقة قيود الصفات الجزئيَّة الحاكمة عليه على الوجه المذكور، فلا يدرك بها إلا ما يقابلها من أمثالها، وما تحت حيطتها لا غير، فإذا تجرَّد من أحكام القيود، وتخلَّص من زيوف الميول والمجازيات الانحرافية الأطرافية الجزئيَّة، وانتهى إلى مقام الاعتدالي إلى الجمعي الوسطي الذي هو نقطة المسامية الكليَّة، ومركز الدائرة الكبرى الجامعة لمراتب الاعتدالات كلها المعنويَّة والروحانيَّة والمثاليَّة والحسيَّة المشار إليها، واتَّصف بالحال الذي حررناه، قام للحضرتين في مقام محاذاته المعنويَّة البرزخيَّة، فواجهها بذاته كحال النقطة مع كل جزءٍ من أجزاء المحيط، وقابل كل حقيقة من الحقائق الإلهية والكونية بما فيه منها من كونه نسخة من جملتها، ومع كل شيء له نسبة ثابتة لا جرم فيها ما يقتضي الانجذاب من نقطة الوسط الذي هو أحسن تقويم إلى كل طرفٍ، والإجابة لكل داعٍ، فأدرك بكل فرد من أفراد نسخة وجوده ما يقابلها من الحقائق في الحضرتين، فحصل له العلم المحقق بحقائق الأشياء وأصولها ومبادئها؛ لإدراكه لها في مقام تجريدها، ثم أدركها من حيث جملتها وجمعيتها بجملته وجمعيته، فلم يختلف عليه أمرٌ، ولم ينتقض عليه حالٌ ولا حكمٌ، ولولا القيود الكمالية لاستمرَّ حكم هذا الشهود، وظهرت آثاره على المشاهد على الاستمرار والدوام، ولكن الجمعية التامة الكمالية تمنع من ذلك؛ لأنها تقتضي الاستيعاب المستلزم للظهور بكل وصفٍ، والتلبُّس بكل حالٍ وحكمٍ، فالثبات على هذه الحالة الخاصة المذكورة وإن جَلَّ

=

=

فالمرور عنه أجلّ لأنه يقدح فيما ذكرناه منْ الحيطة الكماليَّة والاستيعاب الذي ظهر به الحق تعالى من حيث هذه الصورة العامة الوجوديَّة التَّامة التي هي الميزان الأتم، والمظهر الأكمل الأشمل الأعم، فافهم.

فما ليس كذلك من العلوم والعلماء والمعلومات فليس بالعلم الحقيقي الذي نحن نُصدر بيانه إلا بنسبة ضعيفة بعيدة، ولا يُعدُّ صاحبها عند أكابر المحقّين عالمًا، فإن صاحب العلم الحقيقي هو الذي يدرك حقائق الأشياء كما هي، ومن سواه إنما يُسمَّى بمعنى أنه عارفٌ باصطلاح بعض الناس واعتقاداتهم، أو صور المفهومات من أذواقهم أو ظنونهم، ومشخصات صور أذهانهم، ونتائج تخيلاتهم ونحو ذلك من أعراض العلم ولوازمه وأحكامه في القوابل، بل باعتبار كمال إطلاق هذا العلم الحقيقي، وتوجهه، وسعة دائرة مرتبته، وانسلاخه من قيود الأحكام؛ لغلبة صفة أُحديَّة الجمع بعظم إدراكه، ومعرفته، وعلمه، وإحاطته بالأشياء التي عَلِمَها من هذا الوجه، بهذا الطريق حكم الحق تعالى في علمه لأحميَّة الأصل، والمرتبة، ووحدة المآخذ.

فافهم أنه تعالى أشار إليه بقوله: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولكن يبقى هناك فروق أخرى بين العلمين، فمثل هذا الذوق يُسمَّى علمًا حقًّا، ونورًا صدقًا، فإنه كاشف سرٌّ، ورافع كل شكٍّ وريب، فافهم هذا الباب فإنه لبُّ المعارف الإلهية.

ثم لتعلم قلة حذوي الاستدلال، ونهاية وصول العقل، والوهم، والخيال، وبيانه أن الله تعالى لما خلق النفس الناطقة، وخلق فيها قوة معنويَّة نسبة معقولة وهي عينُ ما اتَّصفت بها في الخارج كالأسماء الإلهية في الإلهيات، فكانت من القوى قوة تُسمَّى مفكرة، إذا استعملها الوهم، وميَّز الحق تعالى لهذه النفس الناطقة الحضرات الثلاثة، وولاها عليها وهي حضرة المحسوسات، وحضرة المعاني الصِّرفة المجرَّدة عن المواد، وإن لم تظهر بعضها في المواد، وحضرة الخيال، وهي حضرة متوسطة بين طرفي الحس والمعنى، وهي خزانة الجباية التي تجيبها، وجعل فيها: أي في حضرة الخيال قوة مصوِّرة تحت حكم العقل والوهم، فيتصرَّف فيها العقل بأمر والوهم بأمرٍ آخر، ويقوى في هذه النشأة سلطان الوهم على سلطان العقل كما هو محسوس لأكثر الناس؛ وذلك لأنه لم يجعل في قوة أن تدرك من المجرَّدات كالصفات التنـــزيهيَّة إلا العقل، ومع هذا لم يكن في قوة العقل إذا خاض في الإدراك أن يدركها إلا بتصور ذلك الأمر المجرَّد، وهذا التصوُّر من حكم الوهم ولا بدَّ، وذلك لأن التصور ليس غير الصورة التي لا يحكم بها إلا الوهم، فصار فيما هو به عالم بالنظر والفكر، أسير الوهم مُقيَّدًا بلا شكٍّ، فله الحكم والسلطنة على العقل من حيث التصور، فافهم.

ووجه آخر في ضعف العقل وقصوره، وقلة جَدْوَاه في الإدراك، وهو أن القوة الفكريَّة لو كانت صفة من صفات الروح وخاصة من خواصه، أدركت صفة مثلها، ومن حيث أن القوى الروحانيَّة عند المحققين رضي الله عنهم لا تغاير الروح فصحَّ أن نسلم للناظر أنه عرف حقيقة ما، ولكن من الوجه الذي يرتبط بتلك الصفة التي هي منتهى نظره ومعرفته.

وقد اعترف أستاذ أهل النظر ومقتداهم عند عثوره على هذا السرِّ[1] إمَّا بالذوق وإمَّا خَلف حجاب القوة الفكريَّة بصحة الفطريَّة، أنه ليس في قوة البشر الوقوف على حقائق الأشياء وعوارضها

=

والحاصل أن النبي ﷺ سار ليلة المعراج بالعلم والقدم جميعًا، فمَن أراد السير الروحاني، والمعراج المعنوي؛ فلا بد له من القدم أيضًا، فمَن لا قدم له؛ لا سير له إلا في مرتبة الخيال، لا اعتداد به عند أهل السير القلبي؛ لأنه يصل إليه المكور وغيره بخلاف السير القلبي، فإن الوحي، والإلهام الصحيح إنما ينـــزل على القلب لا على

=

الذاتيَّة ذكره في القانون في بحث المزاج، بل ولا الذاتيات؛ لأن معرفتها فرع لمعرفة الذات، فمن لم يعرف الذات كيف يعرف النسب المخصوصة لتلك الذات المخصوصة، فلا شفاء في الفكر أصلاً، فلهذا قيل: العقل عقال، والانسلاخ عنه مطالب الرجال.

ولكن إدراك العقل على قسمين غير ذاتي وهو الذي ذكرته آنفًا، فإنه يُدرك بالآلة التي هي المفكرة، وبالآلة التي هي الحسن، فالخيال يقلد فيما يعطيه، والفكر ينظر في الخيال فيحدُّ الأمور مفردات، فيجب أن ينشئ منها صورة يحفظها العقل، فينسب بعض المفردات إلى بعض، فقد يخطئ في نسبة الأمر على ما هو عليه، وقد يصيب فيحكم على ذلك الحد فيخطئ ويصيب، وهذا طريق الفكر الذي هو حرامٌ على المرتدين خاصة، فافهم.

ليسوا من أهل الفكر والنظر، وإنما الفكر لإناث الرجال وهم الفلاسفة، وأهل الأرصاد، فإن قيل: هذا الحكم الذي: ليت تحكم على أحكام العقل أيضًا من أحكام النظر والفكر؛ لأنه ليس من مدركات الحس ولا من البديهيَّات فلم يبقَ إلا النظر، فكيف تُثبت به مدَّعاك.

قلنا: ليس كما تقول؛ بل هو من الإعلام الإلهي والإلهام الربَّاني، فتتلقاه النفس الناطقة من ربها كشفًا وذوقًا من الوجه الخاص، فإذا صورت المسألة بعد الكشف يكون هذا مصداقه.

فإن قيل: إن الله تعالى أمر بالتفكُّر، ومدح التفكُّر، قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١] في مقام المدح.

وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧].

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان:٤٥]، وأمثالها من الآيات كثيرة التي تدل على ثناء الاستدلال، واستعمال الفكر.

قلنا: ما ذهبنا إلى أن الفكر ليس له نتيجة، بل وما خلقه الله سُدى، ولكن أهل الله لما علموا أن الفكر يخطئ ويصيب، وأنه غاية علم الرسوم، وأهل الاعتبار من الصالحين، وأنه يعطي المناسبات بين الأشياء تركوه لأهله، واتقوا منه أن يكون حالاً لهم؛ ليلحقوا بالذين فطروا على العلم بالله، والموحي إليهم ابتداءً من الله وعنايةً بهم كالملائكة والأنبياء، والأولياء عليهم السلام هكذا ذكره ﷺ في الباب الرابع والأربعين ومائة، والخامس والأربعين ومائة.

بل قال ﷺ في مواقع النجوم: «إن العلم الكسبي يحصل للنبي والولي من غير فكرٍ واكتساب، بل يعطي الدليل والمدلول ابتداءً من غير نظرٍ وفكرٍ» فافهم. وانظر: مجمع البحرين (ص٦٠) بتحقيقنا.

الخيال، فمَن لا قلب له؛ لا وحي، ولا إلهام له على وجه يُعتدَّ به.

ونعم ما قال بعض الأكابر: إن المعارف الإلهية إنما تحصل من طريق العمل الصالح، والسلوك، والتقوى، وكثير من المغرورين الذين لا صحبة لهم مع أهل التسليك وقعوا في الدعوى، وكذَّبهم أفعالهم الفاسدة، وأعمالهم الكاسدة، فالله الله، و«**اتقوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله**[1]» وهي الفراسة الحقيقة الكاشفة عن السرائر لا الفراسة الطبيعية الكاشفة عن الظواهر.

وقد قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾ [الطارق:٩].

وهذا اليوم: يوم الميعاد بالنظر القاصر، ويوم المعاش بالنظر الكامل.

إن قيمة العارفين دائمة فما ينكشف يوم المعاد لأهل الظواهر؛ فقد كشف الله يوم المعاش لأهل البواطن فسيَّرهم سير على الدوام، وإن لم يقف عليه العوام، والله عليم بذات الصدور، وكذا مَن ارتضى من رسول، ووارث الرسول، وذلك بالتعريف الإلهي دلَّ عليه قوله: «**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**»[2]: أي مَن اتصف بالغيرية، وأمَّا مَن تخلَّص عن شوائب الغيرية؛ فالله لا يُخفى سرَّه عنه.

في الجامع الصغير: كان ﷺ إذا شهد جنازة؛ رؤيت عليه كآبة، وأكثر حديث الكآبة الحزن، وقلب كئيب حزين؛ والمراد: باكيًا.

وحديث النفس: طول التفكُّر، ومن أماراته: إطراق الرأس غالبًا.

فإن قلت: إنه ﷺ كان دائم الأحزان، طويل الفكر، فما معنى رؤية الكآبة عليه وقت شهود الجنازة؟ قلت: لا شك أنه كان متهلِّل الوجه عند خروجه إلى أصحابه، فكان لا يُرى عليه أثر الحزن إلا عند موجب قوي، كشهود الجنازة على أنه فرق بين

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢١/٨)، وأبو نعيم في الحلية (٩٤/٤)، (٦ /١١٨)، وأبو سعد الماليني الهروي في الأربعين كما في مجموع الأربعين للنبهاني (ص٣٠٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٨/١٠)، وحسنه، وكذلك ذكره الحافظ ابن عراق في تنـــزيه الشريعة (٢ /٣٠٥)، وسكت عليه الحافظ في الفتح (٤٠٥/١٢)، والحديث من شواهده ومتابعاته تبين أنه لا يقل عن درجة الحسن لغيره.

(٢) ذكره الجرجاني في التعريفات (٢٩٥/١).

حزن وحزن، فحزنه عند شهود الجنازة كان أقوى من حزنه في غيره.

فإن قلت: على ما يحزن ويبكي وهو من أهل الملكوت؟ فلايزال يشهد الأرواح، قلت: قد صحَّ عند أهل الله ان الحزن من المقامات العالية، فهو أقوى في قلوب الأنبياء مما في قلوب الأولياء.

كما أن في قلوب الأولياء أشدُّ مما في قلوبهم من دونهم من الصلحاء، ولكل موطن من مواطن الدَّارين حكم مختصٌّ به.

ألا ترى أن جبريل عليه السلام بكى على فراقه ﷺ حين انتقاله إلى الآخرة مع أنه لا يزال يطوف حوله في عالم البرزخ، وان الإنسان الكامل، وإن كان ممَن يحب لقاء الله؛ لكن قد يكون بحيث يكره الموت بحسب الطبع البشري لا بحسب الحقيقة، فإن الموت تحفة المؤمن، وإن ريحه له كريح قميص يوسف ليعقوب- عليهما السلام-.

والله تعالى يكره كراهته عبده له، وإن كان لا بد له من ذلك، كما ورد في الحديث، والمحقق لا ينظر إلى صورة الموت؛ بل يكاشف حين شهد الميت، ولا يتحقق إلا بتجلّي الأسماء الجلالية؛ كالقهَّار، والقدير، والمريد، والمميت، ونحو ذلك، ولا ريب ان المحققين قائمون في مقام الهيبة، والعظمة، والجلال؛ لقوة شهودهم، وإطلاعهم على الحقائق، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف:١٨].

فإن مجرَّد مطالعة أصحاب الكهف من غير كشف الحقائق والسرائر؛ لا يقتضي الامتلاء بالرعب.

ألا ترى أن العوام أثبت عند رؤية الأهوال من الخواص؛ لأنهم مستغرقون في الحسِّ، ليس لهم إطلاع على المعنى، ومن ثم كان ﷺ يقوم للجنازة، ويأمر بالقيام عند شهودها، فإنه قيام لرب العالمين؛ لظهور سطوته وبطشه من تجلّي الاسم القهَّار، والمميت فلا يقوم مَن يقوم إلا للمميت دون الميت، ففي القيام له تهويل للموت، وتعظيم لرب العالمين؛ فإنه فيه سر القيامة الكبرى.

ألا ترى إلى قوله: «**مَن مات؛ فقد قامت قيامته**»[١].

ولا شك أن قيام الساعة إنما هو لإقامة العدل، وهو يقتضي القصاص، والمقابلة، وإعطاء كل ذي حق حقه، فهو ما ينقبض عنه النفس، ويتنفَّر الطبع، ويُعظَّم عند القلب.

وقد رُوي: إن الأنبياء عليهم السلام يجثون على ركبهم في المحشر عند ظهور تجلِّي القهر والغضب، فقد حصل من إشارة ما قررنا أنه إذا وجب القيام للميت بالموت الصوري؛ كان ذلك أوجب لأهل الفناء المعنوى، فإنهم أهل الجلال، والهيبة الظاهرة والباطنة بخلاف غيرهم ممَن بقى مع نفوسهم إلا أن يقال: إن المكاشف إذا اطَّلع على الجلال الظاهر في النفوس الجلالية المحجوبة؛ كان من شأنه أن يقوم له، وينحني، فإنه إنما يقوم وينحني في الحقيقة للجلال الباطن في نفسه، كما صدر من بعض أهل الفناء؛ لكن المحققين على المنع من الانحناء؛ لأنه انحناء لنفسه، فلا يقوم به الكُمَّل، ويجرُّون في ذلك مع أهل الشرائع، والأحكام، وفيه السلامة والسلام.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ*وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

اعلم أن الإيمان؛ إمَّا إيمان بالقوة، وإمَّا إيمان بالفعل، وكذا الكفر[٢].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٦٨/٦)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣/٥).

(٢) **فائدة**: قال السمرقندي في الصحائف: الإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع مختلف فيه.

فقال المحققون: هو تصديق الرسول بكل ما علم بالضرورة مجيئه به، وإنما قيد بالضرورة لأن منكر الإجتهاديات لا يكفر إجماعاً، ويقرب منه ما نقل عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمة الله: أن الإيمان هو: المعرفة والإقرار.

وقالت المعتزلة: الإيمان هو: الطاعات.

ونقل عن السلف: أنه التصديق بالجنان، والإقرار باللسان والعمل والأركان، فمن أضل بالتصديق وإن شهد وعمل فهو منافق ومن أضل بالشهادة فهو كافر، ومن أخل بالعمل فهو فاسق وهذا قريب =

=

مما نقل عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ، وبه قال الشافعي رحمه الله أنه معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان.

وأما الإسلام فهو بمعنى الاستسلام لغة، وفي الشرع: الخضوع وقبول قول الرسول، فإن وجد معه اعتقاد، وتصديق بالقلب فهو الإيمان فالإيمان أخص من الاسلام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: من الآية١٤] بين أنه ليس في قلوبهم تصديق الرسول، ولكنهم قبلوا قوله، وأظهروا الخضوع مخافة.

وأما الكفر: فهو في اللغة، الستر، وإنما سمي الكافر كافرا لأنه يستر الحق وفي الشرع: إنكار ما علم بالضرورة مجيئ الرسول به.

ولا يكون بين الإيمان، والكفر واسطة إذا فسر الإيمان بالتصديق إما إذا فسر بمجموع الطاعات فتتحقق الواسطة، لأن من صدق الرسول في كل ما علم بالضرورة مجيئه به، ويترك شيئا من العبادات لا يكون مؤمنا حينئذ ولا كافراً.

وسمى المعتزلة القسم منـــزلة بين المنـــزلتين.

وقالت الخوارج: من ترك شيئًا من العبادات فهو كافر فعلي هذا لا يكون بين الإيمان والكفر واسطة أيضاً.

والدليل على أن الطاعات جزء من حقيقة الإيمان لأنه لو كان كذلك لكان تقييد الإيمان بالطاعة تكريرًا، وبالمعصية نقضاً لكنه باطل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: من الآية٣٠] وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: من الآية٨٢].

ولما صح جعل القلب محلاً للإيمان إذ الطاعات ليست جميعها من أفعال القلوب لكنه باطل، لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان﴾ [المجادلة: من الآية٢٢]، ولأن من صدق بالله وبرسوله ومات قبل أن يشتغل بطاعة مات مؤمنًا إجماعاً، واحتج الخصم بوجوه:

فالأول فعل الواجبات هو الدين لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

وذلك يرجع إلى كل ما تقدم، فكان كل ما تقدم هو الدين والدين هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: من الآية١٩]، والإسلام هو الإيمان إذ لو كان غيره لما كان الإيمان مقبولاً: لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

=

=

فلزم أن يكون فعل الواجبات هو الإيمان.

والجواب: أن بيان اتحاد الإسلام والإيمان معارض بقوله تعالى:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ [الحجرات: من الآية١٤] ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: من الآية١٤] الآية، ولئن سلمنا ولكن دليلكم إنما دل على أن الطاعات يصدق عليها الإيمان.

ولا يلزم من ذلك كونها حقيقة الإيمان لجواز أن يكون صدق الإيمان عليها لكونها متضمنة للتصديق، والاعتقاد.

الثاني: لو كان الإيمان عبارة عن التصديق لكان قاطع الطريق مؤمناً لكونه مصدقاً لكنه ليس بمؤمن لأنه مخزي؛ لأن الله تعالى يدخلة النار لقوله تعالى في حقهم: ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: من الآية٣] وكل من يدخله النار فقد أخزاه لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: من الآية١٩٢] والمؤمن لا يخزى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا معه﴾ [التحريم: من الآية٨]، وفيه نظر؛ لأن هذا إنما يصح أن لو كان الواو عاطفة، أما إذا كانت ابتدائية، فلا، ولئن سلمنا لكن المراد: الصحابة، بدليل قوله تعالى: ﴿مَعَهُ﴾ [التحريم: من الآية٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: من الآية١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس.

والجواب: لا نسلم إن كان الإيمان هاهنا: الصلاة لم لا يجوز أن يكون المراد التصديق بوجوب تلك الصلاة.

الرابع – لو كان الإيمان عبارة عن التصديق لما كان قابلاً للزيادة والنقصان، إذا التصديق معنى واحد لا يقبل ذلك لكنه باطل.

واستدلوا على نفي التالي بآيات سنذكرها مع الأجوبة إن شاء الله تعالى

اختلفوا في أن الإيمان هل يزيد وينقص أم لا.

فقال بعض من ذهب إلى أن الإيمان هو التصديق: لا، لأن مسمى التصديق شيء واحد لا يتطرق إليه الزيادة، والنقصان.

وقال آخرون: لا يقبل النقصان، ولكن يقبل الزيادة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [الأنفال: من الآية٢]، وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: من الآية٤]. وقوله:

=

=

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ [المدثر: من الآية٣١] ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: من الآية٢٢]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [التوبة: من الآية١٢٤].

وقال من زعم أن الطاعات داخلة في حقيقة الإيمان: أنه يقبلهما.

واستدل بالآيات المذكورة، وقال الإمام: هذا البحث لفظي، لأن المراد بالإيمان إن كان هو التصديق فلا يقبلهما، وإن كان الطاعات فيقبلهما ثم ذهب إلى التوفيق فقال: الطاعات مكملة للتصديق، وكل ما دل على أن الإيمان لا يقبل الزيادة، والنقصان كان مصروفاً إلى أصل الإيمان، وما دل على كونه قابلاً لهما فهو مصروف إلى الإيمان الكامل هذا ما ذكروه.

والحق: أن الإيمان قابل لهما سواء كان بمعني الطاعات، وهو ظاهر و بمعني التصديق، لأن التصديق بالقلب هو: الإعتقاد الجازم وهو قابل للشدة والضعف، إذ يبتدئ من أجلي البديهيات نازلاً إلى أخفي النظريات.

وصاحب الكبيرة مؤمن مطيع بإيمانه عاص بفسقه وعند المعتزلة: ليس بمؤمن ولا كافر وعند جمهور الخوارج كافر لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: من الآية٤٤].

وفيه نظر؛ لأن ذلك يدل على أن من لم يحكم بما أنزل الله و لم يصدقه فهو كافر ولا نزاع فيه وإنما الكلام فيمن يرتكب معصيه.

وعند الأزارقة مشترك، لأنه يعمل عملاً لله،وعملاً لغيره فصار مشركاً لمخالفته لقوله تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: من الآية١١٠] وعند الزيدية كافر بالنعمة، وعند الحسن البصري منافق لقوله عليه السلام « آية المنافق ثلاث: إذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب ».

واختلفوا في الكبائر فروى ابن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ أنها تسعة: الشرك بالله وقتل النفس عمداً، وعقوق الوالدين المسلمين والسحر، وأكل مال اليتيم، والقتال في الحرم والزنا والفرار من الغزاة عند قتالهم وقذف المحصنة.

وزاد علي كرم الله وجهه السرقة وشرب الخمر وزاد أبو هريرة أكل الربا وقيل الكبيرة ما توعد الشارع عليه بخصوصه، وعيد أصحاب الكبائر من أهل الإيمان منقطع أي يخرجهم الله تعالى من النار إلى الجنة خلافاً للمعتزلة.

لنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]

=

=

واحتج الخصم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٤].

والجواب: أن هذا لا يوجب دوام العذاب، وبقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ [النساء: من الآية٩٣].

والجواب: أن قوله تعالى« فجزاؤه » يوجب كونه مستحقاً لدوام العقاب والإستحقاق لا يوجب الوقوع). وذهب أبو هاشم، وأتباعه: إلى أن الطارئ يزيل المتقدم بطريق الموازنة أي تقابل أجزاء الثواب بأجزاء العقاب فيسقط المتساويان منهما ويبقي الزائد.

وقال أبو علي، وأتباعه: إنه بطريق الإحباط أي يبقى الطارئ بحالة ويسقط من السابق بقدرة.

وأجمعوا على أن وعيد الكافر المعاند دائم، وأما الكافر الذي بالغ في الاجتهاد، و لم يصل إلى الحق فزعم الجاحظ، والعنبري أنه ينقطع لأنه معذور لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: من الآية٧٨] وأنكر الباقون، وادعوا فيه الإجماع.

والذين زعموا أن الطاعات داخلة في الإيمان فمنهم من جوز الاستثناء مطلقاً وهو قول عبد الله بن مسعود، وقوم من الصحابة، والتابعين، والشافعي رضي الله عنهم، ومنهم من جوز في الاستقبال دون الحال وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج والكرامية.

والذين ذهبوا إلى أن الإيمان هو التصديق، فمنهم من جوز الاستثناء وهو قول أبي سهل الصعلوكي وابن فورك، ومنهم من أنكره وهو قول أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله وقوم من المتكلمين.

حجة المجوز من وجوه:

فالأول – هذا للتبرك لا للشك كقولة تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: من الآية٢٧] وهذا للتبرك لامتناع الشك على الله تعالى.

الثاني – إنه للشك لكن لا في الحال بل في العاقبة؛ لأن الإيمان المفيد هو الباقي عند الموت وكل شاك في ذلك.

الثالث – لما كان الإيمان عندهم مجموع الإعتقاد والقول والعمل والشك في العمل الذي هو أحد أجزائه يوجب الشك فيه فصح الشك في حصول الإيمان.

وقال المانع: أنا مؤمن حقًّا لأن الشك في الحال والاستقبال يوجب على ضعف الاعتقاد في الحال ولا نزاع إن كان للتبرك.

=

فالإيمان بالقوة: هو ما كان في علم الله، حيث كانت الأشياء أعيانًا ثابتة فيه، ويُقال له: الإيمان الإمكاني أيضًا، وإن لم يكن في العلم إلا واجب، أو مستحيل على ما يعلمه العلماء بالله.

والإيمان بالفعل: هو ما كان في العين الخارجي؛ إمَّا في مرتبة الأرواح كما في عهد الميثاقي حيث قالوا: بلى، وإن لم يكن هناك إيمان وكفر في الحقيقة؛ لكن لمَّا كان في صورة السؤال والجواب، وفي صورة الذر؛ عُدَّ إيمانًا بالفعل، وامَّا في مرتبة الأجسام كما وقع عين التبليغ والدعوة حيث قالوا: آمنا.

فالخلق متفقون في الإيمان في مرتبة الأرواح، ومختلفون في مرتبة الأجسام، فمنهم مؤمن، ومنهم كافر، ثم الإيمان في مرتبة الأجسام إمَّا أن يتعقَّبه الكفر والارتداد أو لا، فإن تعقَّبه؛ فالإيمان الميثاقي عارض لا يُعتدَّ به؛ لأنه من وراء الحجاب، وصاحبه شقى شقاوة أزلية، وإلا فهو أصلي مُعتد به؛ لأنه إيمان عياني لا يطرأ عليه ما يضاده، وصاحبه سعيد سعادة أزلية، وإن عُرض له الكفر في البيْن.

فقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [الآية:١٠٦].

إشارة إلى الكفر المستمر في مرتبة الأجسام بعد الإيمان الميثاقي في مرتبة

=

قال أهل السنة: كل من اعتقد أركان الدين تقليداً فإن اعتقد مع ذلك جواز ورود شبهة عليها وقال: لا آمن ورود شبهة تفسدها فهو كافر ومن لم يعتقد جواز ذلك فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال: إنه مؤمن، وإن كان عاصيا بترك النظر، والاستدلال المؤدي إلى معرفة أدلة قواعد الدين، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد والأوزاعي والثوري وكثير من المتكلمين، ومنهم من قال: إنه لا يستحق اسم المؤمن إلا بعد عرفان أدلة قواعد الدين سواء أحسن العبادة عن الأدلة أولا، وهو مذهب الأشعري وقوم من المتكلمين.

ومن لم تبلغه دعوة الإسلام فإن اعتقد وحدانية الله تعالى، وعدله فحكمه حكم المسلمين وهو معذور في جهله بأحكام الشرع وإن اعتقد الشرك والتعطيل فهو كافر، فإن لم تبلغه دعوة نبي آخر لم يكن مكلفاً ولا يكون له ثواب ولا عقاب وإن بلغته و لم يؤمن بها كان مستحقًّا للوعيد على التأبيد وإن لم يعتقد شيئاً لا توحيداً ولا كفراً فليس بمؤمن ولا كافر. وانظر: الصحائف (ص١٨٦) بتحقيقنا، دار الكتب العلمية، بيروت.

الأرواح، وإلى الكفر الحاصل بعد الإيمان في تلك المرتبة؛ يعني: إنكم آمنتم يوم الميثاق؛ ثم كفرتم في الدنيا إلى وقت الخروج منها، أو آمنتم في ذلك اليوم، وكذا بعد بلوغ الدعوة في الدنيا، ثم كفرتم، واستمرَّ ذلك منكم إلى وقت الخروج منها.

والكفر أحبط الإيمان، كما أن الإيمان جَبَّ ما قبله؛ لكن لَمَّا يعقبه الكفر؛ لم ينفعه ذلك، فكان الكفر مستمر غير محبوب ومقطوع بالإيمان أصلاً، فظهر إن الإيمان الذاتي لا يتغيَّر بالعارض، وكذا الكفر الأصلي؛ فالإيمان هو الإيمان في علم الله، وفي بطن الأمم، وكذا الكفر.

وأمَّا الإيمان والكفر في لوح المحو والإثبات، وفي عين الخارجي، فلا يُعتدَّ بهما، فإن السابقة واللاحقة على حد سواء، ولَمَّا كان الإيمان الذاتي لا يغيِّره الكفر العارض؛ لم يقل في جانب الذين ابيضَّت وجوههم: أكفرتم بعد إيمانكم ثم آمنتم على تقدير توسُّط الكفر؛ لأن الإيمان يُجبُّ ما قبله، وليس على المؤمن توبيخ عليه أبدًا، فوجوههم المعنوية بيضاء في علم الله، ووجوههم الصورية بيضاء في العين الخارجي سواء كان عالم الأرواح، أو عالم الأجسام؛ فهم في رحمة الله أزلاً وأبدًا.

ووجوه أضَّدادهم المعنوية سوداء في العالمين جميعًا علمًا وعينًا؛ فهم في غضب الله أزلاً وأبدًا على ما يقتضيه المقابلة؛ لكن لم يجز في الآية الأولى على سُنن الآية الثانية؛ إشارة إلى سرٍّ دقيق يعرفه مَن يعرف سرَّ قوله تعالى: «**سبقت رحمتي غضبي**»[1]، فالعذاب الذي هو جزاء الكفر مقرر متحقق، وأهله خالدون في النار، لابثون فيها أحقابًا.

وقال في موضع آخر: في أحد الزهراوين: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [آل عمران:١٠٦].

ابيضاض الوجوه، واسؤادها محمولان على الحقيقة عند أهل الحقيقة؛ لأن الآخرة عالم الصفة؛ فلا يظهر فيها إلا ما هو الغالب على الإنسان في هذه النشأة الدنيوية، وخُصَّت الوجوه بذلك؛ لأنها مرآة الحقيقة الإنسانية، فيظهر سعادته وشقاوته فيها.

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٧٤٥)، ومسلم (٤/٢١٠٨).

فمن آثار السعادة: الابيضاض، وفيه بهجة السرور وانشراحه.

ومن آثار الشقاوة: الاسوداد، وفيه انكسار الحزن، وانقباض الخوف.

وهذا الابيضاض حاصل في الدنيا أيضًا؛ لكن لا يشاهده إلا أهل البصيرة؛ لأن مَن تجلّى الله لقلبه؛ كان أحسن وجهًا، وكذا الاسوداد؛ لأن مَن احتجب الله عنه؛ كان أقبح وجهًا؛ وذلك لأن معنى التجلي: إنما هو ظهور الحق تعالى من حيث اسمه النور.

ومعنى الاحتجاب: استتاره من تلك الحيثية، فكلّما ظهر نور الحق في قلب العبد؛ كان ليله نهارًا، وسرى نوره من قلبه إلى قالبه، كما قال تعالى: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ [الزمر:٦٩].

وكلّما اختفى ذلك النور؛ كان نهاره ليلاً، وسرى ظلمته من باطنه إلى ظاهره كما قال تعالى: ﴿**ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا**﴾ [النحل:٥٨].

لأن الاسوداد أثر الكآبة التي هي صفة الباطن، فتظهر في صورة الظلمة؛ لأن النور والسرور من الجنان، والجنان والظلمة والغم من النيران والطبائع، فالكل إمَّا يظهر بحسب صفته الغالبة، وليس ذلك من الخارج؛ ولذلك أُسند الابيضاض إلى الوجوه لا التبييض إلى الله تعالى.

فإن معنى بتبيض الله أيضًا: إظهار آثار ابيضاض الوجوه من حيث ما هي متصفة به في نفسها، لا إظهار أمر خارج عن نفسها، وكذا التسويد، ونكّر الوجوه؛ إشارة إلى كثرتها في نفسها، وإن كانت الوجوه البيض أقل بالنسبة إلى الوجوه السود؛ فهم أكثر بحسب شرفهم وفضلهم، وإن كانت السود أكثر من ذواتهم، كما قيل: الواحد على الحق هو السواد الأعظم، وإن بعث النار تسعمائة وتسعة وتسعون من ألف، وذلك مما يقتضيه الحكمة الإلهية.

ولذا كان القطب في كل عصر واحدًا؛ وهو الإنسان الكامل ومعه تحت لوائه مائة وأربعة وعشرون ألفًا من الأولياء؛ بل أزيد وأما الأعداء فلا يُحصى عددهم.

ثم إن ظهور السعادة إنما كان من خلق الملائكة، كما أن ظهور الشقاوة إنما كان من خلق الشياطين، والجمع بينهما من خلق البشر، وكان العالم في أول خلقته

خاليًا من آثار السعادة والشقاوة، وهكذا في انتهاء أمره فيُرجع النهاية إلى البداية بعد انقراض البشر، ثم يظهر أمر أخر في النشأة الآخرة يعرفه أهله، والعلم عند الله تعالى.

ومعنا كلام آخر في غاية الغموض وهو:

إن الوجوه البيض إشارة إلى الأبرار، والوجوه السود المقربين، كما ورد:

«**الفقر سواد الوجه في الدَّارين**»(١).

فهو سواد السيادة لا سواد الفضاحة، فالآية من قبيل الترقي ثم الابتداء بقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ**﴾ [آل عمران:١٠٦] أي: من قبيل تقديم الأفضل.

فإذا كان الأبرار في رحمة الله وجنته؛ فالمقربون الذين ستروا وجوداتهم المجازية بالوجود الحقيقي في قربة الله، ووصلته؛ التي هي أعذب من الجنة الحسية؛ لأنها جنة في جنته، ولا شك أن الطبقة العليا خير من الطبقة السفلى، $فكن مسودًا بنورًا سود؛ وهو أصل الأنوار، ولا أصل له أصلاً.

وقال الله سبحانه: ﴿**كُنتُمْ**﴾ [آل عمران:١١٠]؛ يا أمة محمد في علم الله تعالى: ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران:١١٠] (٢).

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/٤٦٤)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/١١٣).

(٢) فيه إشاة إلى نور الانفراد: فهو الذي يكشف أنه ﷺ خير متبوع حيث قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فمتبوعها خير متبوع.

وهو كما قال ﷺ: «**شَرَفُ أمَّتي بي؛ فِي يتشرَّفُون، وهُمْ خيرُ أمَّةٌ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ**»؛ فهو أشرف الخلائق الإنسانية بدليل الكتاب والسنَّة، ومجمع الحقائق الإيمانية التي لا تلبُس فيها. وأمته أشرف الأمم.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «صار حتَّى بيت المقدس، فنـــزل، وربط فرسه إلَى صخرة، فصلَّى مع الملائكة، فلما قُضيت الصلاة قالوا: يا جبريل، من هَذَا الذي معك؟ قال: هَذَا مُحَمَّدٌ رسول الله، خاتم النبيين. قالوا: أوَقد أُرسل إليه؟! قال: نعم. قالوا: أحياه الله تعالى من أخٍ وخليفةٍ، فنعم الأخ! ونعم الخليفة! ثم لقوا أرواح الأنبياء عليهم السلام، فأثنوا على ربِّهم، وذكر كلام واحدٍ منهم، وهم إبراهيم عليه السلام، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمان عليهم السلام، ثم ذكر كلام النبي ﷺ، فقال: وإن مُحَمَّدًا ﷺ أثنى على ربِّه ﷻ، فقال: كلكم أثنى على ربِّه، وأنا أثنى عليَّ ربِّي، الحمد لله الذي أرسلني رحمةً للعالمين كافَّةً، وللناس بشيرًا ونذيرًا، وأنزل عليَّ الفرقان فيه تبيانٌ لكل شيءٍ، وجعل أمَّتي خير أمةً، فجعل أمَّتي أمَّةً وسطًا، وجعل أمَّتي هم الأولون، وهم الآخرون، =

لم يقل: أُخرجت للأمم مع مطابقته لما قبله؛ لأن الأمة هم المتبعون لنبيٍّ من الأنبياء، ومن بني آدم مَن ليس كذلك، فكان إخراج الأمم لبعض الناس غالبًا، وإخراج هذه الأمة لجميع الناس، سواء كانوا متبعين لنبيٍّ من الأنبياء، أو لا، فالمتبعون للأنبياء من الناس هم أهل الأُنس بالضم، وخير المتبعين هم أهل الوحشة والنسيان؛ ولهذه الأمة يد عليهم كلهم، لِما في استعداداتهم من الكمالات التي ليست هي في غيرهم؛ ولذا كانوا خيرًا منهم؛ إذ الأشياء متساوية في ذواتها؛ ولذا لم يلزم الإيمان بالملائكة من حيث ذواتهم؛ بل من حيث رسالتهم ووساطتهم.

فالخيرية: إنما هي بالشرف في الفعل، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾ [البقرة:٣١]؛ لأن الأسماء في الحقيقة هي الحقائق المتعيِّنة في هذا العالم، وبتعليمها كان آدم عليه السلام أفضل من الملائكة.

ومن تلك الحقائق: القيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قال تعالى ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]،

والمعروف: هو الله تعالى.

=

وشرح لي صدري، ووضع عنِّي وِزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحًا وخاتمًا. فقال إبراهيم: بِهَذَا فضلكم مُحَمَّدٌ، وإنه واسطة عقد النبيين ورفيعهم».

وقال بعضهم: قد يحصل للورثة من هذه الأمة من العلوم التي اقتبسوها من مشكاة نبوته عليه الصلاة والسلام بالمتابعة له والاقتداء ما لم يحصل للأنبياء الماضين عليهم السلام بسبب عدم كونهم من هذه الأمة والورثة من هذه الأمة ما نالوها من جهة أنفسهم وإنما نالوها من نبوة نبيهم ولا يلزم من ذلك تفضيلهم على الأنبياء الماضين؛ لأن حصول العلم من الغير السابق إليه لا تلزم الفضيلة به وإنما الفضيلة لمتبوعهم في حصوله وهو سيدنا محمد ﷺ لأن الحاصل له عليه السلام من نبوته الكاملة.

قال الشيخ سيدي عبد الغني النابلسي في «شرح الفصوص» في الكلام على الفص اليوسفي:

ومن هنا: أي من هذا المذكور وهو أن الورثة من هذه الأمة قد يحصل لهم من العلوم ما لم يحصل للأنبياء الماضين، قول - المصنف- يعني الشيخ الأكبر قدس سره، خضنا بحرًا وقفت الأنبياء بساحله.

كما أن المنكر: هو ما سوى الله تعالى.

والأمر به إرشاد إليه من جهة توحيد الأفعال، والصفات، والذات، ولم يتفق الإرشاد من جهة هذه التوحيدات الثلاثة لغير هذه الأمة المرحومة، لما أن الإرشاد إليها موقوف على التحقق بحقائقها، وقد تحقق بغير توحيد الذات ما عدا أمة إبراهيم عليه السلام

وأمَّا أمة إبراهيم عليه السلام: فإنهم وإن تحققوا بتوحيد الذات، وقبلوا إرشاد إبراهيم؛ لكن كان ذلك من وراء الحجاب، وبالإجمال بل بالقوة، وإلا كانوا خير الأمم وخاتمتهم، فبقى هذا الكمال بالفعل لهذه الأمة؛ ولذا كانوا خير الأمم وخاتمتهم، إذ لم يبقَ شيء يحتاج الناس إلى دعوته ظاهرًا وباطنًا، قوةً وفعلاً، إجمالاً وتفصيلاً، إلا وهم دعوهم إليه بما لا مزيد عليه، فكان مراتب يقينهم أعلى من مراتب غيرهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

مع أن جميع الأمم منهم مَن آمن؛ لكن إيمانهم ليس كإيمان هذه الأمة، فإن إيمان هذه الأمة كشفي عياني، ليس فوقه كشف وعيان يغتبط به ويشرئب إليه، فكما أنه (ليس في عالم الإمكان أبدع مما كان) [1]، فكذا ليس في الأمم أعجب من هذه الأمة وأجمع وأكمل.

وقال تعالى: ﴿بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١١٥].

: أي بسبب إشراكهم بالله آلهة لم ينـــزل بإشراكها حجة؛ والمراد إنه ليس هناك حُجة، ولا تنـــزيلها، فإن القضية السالبة قد تصدَّق بأن يكون الموضوع فيها موجودًا متصفًا بانتقاء المعمول عنه، وقد تصدَّق بانتقاء الموضوع عن أصله فلا يتَّصف بالمحمول راسالات ما لا يكون له موضوع لا يكون له محمول.

فظهر أن الشرك الحقيقي؛ وهو ما كان عن اعتقاد ليس له برهان سماوي إذ لا

---

(١) هذة المقولة مشهورة عن حجة الإسلام الإمام الغزالي رضي الله عنه ونفع به، وهي محل إشكال عند البعض، وعليها شروح وترجيحات ما بين مؤيد ومعارض، والحق أن الحجة –قدس سره– قد وافق الحق في تلك المقولة.

وجود له في الحقيقة؛ ولذا لا يغفره الله، ولا يستره بخلاف الشرك الصوري؛ وهو ما لم يكن عن اعتقاد؛ بل كان إكراهًا وإجبارًا، فإن له سلطان، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦].

فإذا كان الشرك الإجباري مغفورًا؛ كان العصيان الاضطراري مغفورًا أيضًا؛ كأكل الميتة حال المخمصة، وشرب الخمر حال الغصة ونحو ذلك؛ فإن له برهانًا سماويًا أيضًا، كما عرف في القرآن. وبالجملة: إن ما أُضيف إلى الله تعالى؛ فهو إيمان ولو في صورة الشرك، وما أُضيف إلى العبد فهو شرك ولو في صورة الإيمان، نعم قد يكون إضافة المعصية إلى النفس توحيدًا لما يقتضيه طريق الأدب، وإن كان كل الأفعال صادرة بخلق الله تعالى وتأثيره.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩].

باء السببية وما بعدها: تشير إلى أن رحمة الله تعالى ذاتية أصلية، ليست بجعل جاعل أو بسبب من الأسباب.

أمَّا الأول: فلأنه لو كانت بالجعل، يقتضي تقدُّم الجاعل عليه تعالى، والله تعالى هو الأول والآخر.

وأمَّا الثاني: فلأن كونها بالسبب، يقتضي العلل في الصفات الإلهية، وإلى أن رحمة العبد عَرضية فرعية، لكن هذا يتصور على وجهين:

الأول: أن يكون العبد محبولاً عليها في الفطرة الأولى.

والثاني: أن يتصور ذلك بحسب الأمور الخارجة عن ذات الراحم.

فرحمة النبوة من الرحمة الأولى الجبلية؛ لأنها وإن كانت عارضة لذاته لاحقة لها من قبل الله تعالى؛ لكنها لَمَّا كانت الذات محبولة عليها في الفطرة الأولى؛ جُعلت كأنها ذاتية ليس من الخارج أصلاً، وهو المناسب لشأن النبوة.

وإمَّا رحمة غير النبوة: فقد تكون ذاتية، وقد تكون بالممارسة، ورياضة النفوس وتعليمها، والمباشرة بأسباب الرحمة، فظهر أن كون النبي ﷺ ليِّن الجانب لأمته؛ وإنما هو من آثار الرحمة الذاتية التي أودعها الله تعالى فيه لا من آثار الرحمة الفرعية التي

تحصل بالممارسة والإدمان، فإنها على تقدير قوتها في النفس ليست بمنـــزلة الرحمة الأولى، ولذا مُدح العرب بالسخاء؛ لأنه جبلي لهم غالبًا[1].

(١) الرحمة: إجراء الموافق لظاهر الشيء وباطنه، إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق فقسمه قسمين: شقيًّا وسعيدًا، فالشقيُّ في نقمته، والسعيد في رحمته.

والرحمة رتبٌ، فإن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فتفاوت العباد في رحمته، فلكل مرحوم حظه من الرحمة، تقع منه بوفقٍ إلى حدٍّ وقدرٍ من ذلك العدد، ولما كان ﷺ المنتهي فيما يوافقه إلى أعظم الغايات في ذاته وفي آله وفي أهل بيته وفيمن تصل إليه شفاعته من خلق ربه حتى قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥]، التي هي عند أهل البيت أرجى آيةٍ في كتاب الله، كان مناله من الرحمة المنال الأعظم، الذي لم يبق ما خوَّله الله من الوفق محل خلاف، كما قال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ*إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨،١١٩]، وهو الذي رحمه ربُّه بالرحمة العامَّة التامَّة فلم يبق عنده خلافٌ، فكان كل أمره وفقًا حتى قالت له عائشة رضي الله عنها: «يا رسول الله، إنَّ ربَّك يُسارع إلى هواك»، وكذلك الأمر في آله كما قال ﷺ في عليٍّ عليه السلام: «اللَّهُمَّ أدر الحقَّ معه حيث دار؛ ليكون كائن الخلق والأمر وفقًا له»، فهو ﷺ المرحوم الرحمة التي انتهت إلى الغاية التي ليس وراءها مرمى ولا منتهى، بما له من كل شيءٍ أحمده، وبما هو المرحوم الكامل الرحمة كانت الموصل إلى الله، كما كان المرحوم في الطامة الأولى عاصمًا من نقمة الله في مضمون قوله تعالى: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ [هود:٤٣]، كأنه يقول عليه السلام لابنه: لا يعصمك إلا العبد المرحوم الذي هو نوح عليه السلام، وكان ذلك من أول بوادي الرحمة لما ظهر بها من العصمة، فكان بداية الرحمة عصمةً، وكان كمالها توصيلاً، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب:٧] فكان ميثاقهم التوصل إلى الله، وكان من ميثاقة نوح العصمة من انتقام الله، ولكل نبيٍّ فيما بينهما رحمةٌ تخصُّه، واقيةٌ من سوء، أو مرقيةٌ إلى خير، وهذا التوجيه يدانيها؛ لأن الطوفان أول طامَّة ظهرت في الدنيا، وسائر الطوامِّ في هذه الأمة، كما ذكر أن: «الطوامُّ سبعةٌ»، والرحمة الكاملة المحمدية عاصمةٌ من جميعها، قال ﷺ: «المعاقل ثلاثةٌ: فمعقلهم من الملاحم دمشق، ومعقلهم من الدّجال البيت المقدس، ومعقلهم من يأجوج ومأجوج طور سيناء»، كذلك رحمته المحمدية عاصمةٌ في يوم الجزاء إلى ما وراء أمر الدنيا والآخرة، من هذا التوسل المحمديِّ الذي نهايته التوصل إلى الله، والعصمة مما سواه الذي هو النهاية، والحمد لله ربِّ العالمين.

وقال الرصاع: ومعنى نبي الرحمة: أي النبي الذي بعثه الله سبحانه رحمةً للعالمين، ورءوفًا بالخلق أجمعين، فبعثه الله رحمة، وشريعته رحمة، وأفعاله رحمة، وأخلاقه رحمة، وبشارته رحمة، ونذارته رحمة، وجميع ما قاله أو فعله أو تحرَّك به رحمة، وحياته رحمة ومماته رحمة.

=

=

قال عليه السلام: «حياتي رحمة لكم ومماتي رحمة لكم».

فشمائله كلها رحمة لعباد الله، ومنُّهُ من الله على خلق الله، وهدايةٌ إلى خلق الله.

قال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداه».

وقد قيل: الأنبياء كلهم عطيَّة لأممهم، ونبيَّنا ﷺ هديَّة؛ لأن الهديَّة للمحبين، والعطيَّة للمحتاجين.

وقد زيَّن الله سبحانه نبيَّه بالرحمة، فمن نال من رحمته شيئًا؛ فقد فاز في الدارين، ونجا من كل مكروهٍ، وحصل له قرة العين.

ومن رحمته ﷺ أن أمته جُبلت على محبته، وجُبل هو على محبَّتها ورحمتها؛ لأن الله سُبحانه جعله نفسَ الرحمة.

قالت عائشة رضي الله عنها: «قمت ذات ليلة أطلب النبي ﷺ، وقد خرج من البيت، فوجدته في البقيع يقول قائمًا: يا ربِّ أمتي، وراكعًا: يا ربِّ أمتي، وساجدًا : يا ربِّ أمتي، فقلت يا رسول الله: وأين القرآن فهل نسيته لأجل هذه الأمة؟ فلما سلَّم قال: يا عائشة أتعجبين من هذا؟ أنا أقول ما دُمت في الحياة: أُمتي، فإذا دخلت القبر قلت: يا رب أمتي فإذا نفخ في الصور أقول: يا ربِّ أمتي».

فاذكروا يا أمة محمد ﷺ رحمة نبيِّكم بكم ورأفته عليكم، وذكره لكم قبل وجودكم، وشهادته بأخوتكم لإيمانكم، وسترون من رحمة الله في الدار الآخرة إن متُّم على ملَّته ما لا يخطر لكم ببال، ولا يحيطُ به إلا الكبير المتعال.

ومن رحمته لأمته مؤانسته لمنكسري القلوب من الفقراء، ومواساتهم والجلوس معهم، وإدخال السرور عليهم، كان أهل الصفة رجالاً فقراء ضعفاء غرباء، آووا إلى رسول الله ﷺ فآواهم ﷺ؛ لرحمته وشفقته، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع ولا تجارة، كانوا يحتطبون بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلُّم القرآن، ويصطفون عند باب المسجد، وكان ﷺ يواسيهم، ويحثُّ الناس على مواساتهم، ويأمرهم برحمتهم، ويجلس معهم جبرًا لقلوبهم وشفقة عليهم، ويأكل معهم، وكان ﷺ إذا صافحهم لا ينـــزع يده من أيديهم.

ومن رحمته بهم أنه كان يفرِّقهم على أهل السِّعة في المال، فكان رحمة للفقراء، ورحمة للأغنياء في إدخال الثواب عليهم، فيبعث مع واحد ثلاثة ، ومع واحد واحدًا بما يراه من المصلحة في حق أصحابه، وما يظهر الله له من الخيرات في اجتهاده.

وكان سعد بن عبادة يبعث معه ثمانين رجلاً على قدر ما يجد فيه ﷺ من أحوالهم، وما يراه من حمل

=

=

الصدقة في أموالهم.

ومن رحمته بعباد الله وحسن خلقه مساواة نفسه معهم في حالهم، و لم يفت الفقراء بشيء من أمر الدنيا فيختص به عنهم، بل كان رأس الزاهدين فيها امتثالاً لرب العالمين، ورحمة لأمته أجمعين.

يُروى أن جماعة من أهل الصفة أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «يا رسول الله أحرق بطوننا التمر.

فسمع بذلك رسول الله ﷺ فصعد المنبر. ثم قال: ما بال أقوام يقولون: أحرق بطوننا التمر، أمَا علمتم أن هذا التمر طعام أهل المدينة؟ وقد واسيناكم بما عندنا، والذي نفسُ محمد بيده منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله ﷺ دخانٌ للخبز، وليس لهم إلا الأسودان: التمر والماء».

ومن رحمته ﷺ لأمته طلب الألفة بينهم والمؤاخاة لهم قائلاً: «لا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا».

ومن آداب مَن عَلِمَ أنه ﷺ نبيُّ الرَّحمة أن يكون متخلِّقًا برحمته وشفقته، ويعلم أن الرحمة إنما نُزعت من قلوب الأشقياء، وإنما أسكنها الله في قلوب الأتقياء.

ويُروى أن أعرابيًّا أتى النبي ﷺ وكان ﷺ يُقبِّل أحد أولاده.

فقال الأعرابي: «يا محمد إنَّ عندي عشرة من أولادي فما قبَّلتهم قط، فقال النبي ﷺ: وأي شيء أملك لك، وقد نزع الله الرحمة من قلبك؟».

فاعلم أيُّها المحب المتخلِّق بطريقته إن أردت النجاة فكن متخلِّقًا بالرحمة لأُمته، فارحم صغيرهم، ووقِّر كبيرهم، وعلِّم جاهلهم، ورُدَّ ضالهم، وأعطِ مَن حرمك منهم، وصِل مُقاطعهم، واغفر لمن أساء منهم، وسامح ظالمهم، واستر عورتهم، ونفِّس كربتهم، وواسِ فقيرهم، وتواضع لهم، وخالطهم فيما تُطيِّب به قلوبهم، واقبل كلامهم، واظهر لهم أنك لم تمتَزْ بشيءٍ عنهم، وحقِّر لهم ما عندك في أعينهم، وأخبرهم بأنَّكم الكلُّ عبيدٌ، والله يفعل في ملكه ما يريد، هذا يغنيه، وهذا يفقره، هذا يحييه، وهذا يميته، وهذا يعزُّه وهذا يذله، هذا يبكيه، وهذا يضحكه، هذا يولِّيه، وهذا يعزله، هذا يعطيه وهذا يمنعه، هذا يشقيه، وهذا يسعده. وإذا امتَرتَ عنهم بشيء من هذه الزهرة الفانية فلتظهر لهم تقلُّلها، وأنها عن قريب تفنى زهرتها، وأنك لم تحصل منها على طائل بل على ظلٍ زائل، وأن الفرح إنما هو بفضل الله وبرحمته، عليه يتوكل المتوكلون. قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ولتكن متشبِّهًا بأخلاق الصحابة الكرام في تخلُّقهم مع رعيتهم ورحمتهم بهم، وشفقتهم عليهم، ومحبَّتهم فيهم لله تعالى؛ ابتغاءً لثوابه وخوفًا من عذابه.

=

=

كان سراج الجنة الذي أجمع على فضله جماعة أهل السُّنة، الناطق بالصواب أبو حفص عمر بن الخطاب ﷺ من شدة رحمته برعيَّته، لحقته امرأة ذات يوم شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين هلك زوجي وترك صبية صغارًا، والله ما يملكون كراعًا، ولا لهم زرعٌ ولا ضرعٌ، وخشيت عليهم الضَّياع، وأنا ابنةُ خُفاف الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع رسول الله ﷺ فرحمها، ووقف معها ولم يمضِ، وقال: مرحبًا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير كان مربوطًا له فحمل عليه غرارتين ملأهما طعامًا، وجعل معهما نفقة وثيابًا، ثم ناولها بخطامه فقال: اقتاديه فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال رجلٌ: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، فقال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصَرا حصنًا زمانًا، فافتتحناه ثم أصبحنا نستضيء سُهمانهما فيه ﷺ وأرضاه.

ورأى طلحة ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ دخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر، فلمَّا أصبح طلحة دخل ذلك البيت، فوجد فيه عجوزًا عمياء مقعدة، فقال لها: ما قال لك هذا الرجل الذي يأتيك؟ فقالت له أنه يتعاهدني في كل ليلة، يأتيني بما يُصلحني ويُخرج عنِّي الأذى.

فتأمَّلوا رحمكم الله رحمة أصحاب رسول الله ﷺ بخَلق الله تعالى، كيف كانت؟ وغرائب أحوالهم وكرمهم في أقطار الأرض، كيف ذاعت وشاعت؟.

وكان هذا السيِّد ﷺ، وأعاد علينا من بركاته يصوم الدهر، فإذا أفطر أفطر على كسورٍ يابسة وزيت، فنحر يومًا جَزُورًا فأطعمها الناس، فأتى أهله شفقةً عليه ورحمةً له، فأخذوا شيئًا من طيب لحمها وطبخوه له؛ ليفطر عليه ويتقوَّى به، فقدَّم له ذلك عند فطره فقال: ما هذا؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا من لحم الجزور الذي نحرت اليوم، فقال: بخٍ بخٍ بئس الوالي عمر بن الخطاب! إن أكلت أطيبها، وأعطيتُ الناس كَراديسها، ارفعوا هذه الجفنة وأعطوها للفقراء، وأتوني بخبزٍ وزيتٍ، فجعل الكسرة بيده وأثرد الخبز وأكل.

هذه صفة الرَّاحمين، وطريقة الخائفين، وأولياء الله المقرَّبين رضي الله عنهم أجمعين.

يُحكى أنَّ الشيخ ولي الله أبا الحسن الشاذلي نفع الله به قَدِمَ على تونس، فدخل من باب المنارة في زمن غلائها، وشدة مسغبتها، والناس يقتتلون على شراء الخبز، والفقراء مطرحون على الأرض من شدة الجوع.

قال: فأخذتني رحمة على عباد الله، فكانت عندي دريهمات، فاشتريت بها الخبز الذي عند الخباز وحزته للفقراء، فنظر الخباز في الدراهم قال: هذه ليست جيدة، وأنتم المغاربة تتعاملون بالكيمياء، قال: فرهنته بُرنسًا في الثمن، فإذا شيخ أحسن ما يكون سمةً وهيئةً قد اجتاز عليَّ، وقال لي: يا أبا الحسن هات الدراهم فأعطيتها إيَّاه، ثم ردَّها، فقال لي: هذه طيبةٌ جيدةٌ، قال: فرفعتها للخبَّاز فأخذها، وأخذت بُرنُسي، ثم طلبت الله أن أعرف ذلك الرجل. فلما كان ذات يوم أتيت المسجد

وقوله: ﴿من الله﴾ يُشير إلى أن ذلك من باب الفضل والامتنان لا من باب العدل في مقابلة العمل المستلزَم لذلك؛.

ولذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٨٥].

فقد أشار بالفضل والرحمة إلى أن وجود النبي ﷺ فضل من الله، ورحمة للخلق، فعليهم أن يفرحوا بذلك، فإن من كان من قبيل الفضل والرحمة؛ لا بد وأن يسري فضله ورحمته في الخلق، ومن جملة ذلك كونه ليِّن الجانب.

قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ [آل عمران:١٥٩].

الفظُّ في الأصل: ماء الكَرش، وذلك مكروه شربه لا يُتناوَل إلا في أشدِّ ضرورة، فاُستعير للكَريه الخلق.

وقوله ﷻ: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

عمم الخلق الكريه، ثم أشار إلى منشأه وهو غلظة القلب وجفوته وقسوته، فإن مَن كان قاسي القلب؛ لا يأتي منه خُلق حسن، ولا فعل جميل إلا نادرًا لايُعتدَّ به.

قوله ﷻ: ﴿لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

: أي تفرَّقوا من مجلسك.

وفيه إشارة إلى أمرين:

الأول: إن فرض المحال جائز، وذلك أن كونه ﷺ مُتَّصفًا بالخلق الكريه ممتنع؛ لأنه معصوم، ومعنى: العصمة الامتناع بالغير، فلو خلاه ونفسه؛ لصدر عنه ما صدر عن غيره.

ولذا قال: «**اللّهم لا تكلّني إلى نفسي طُرفة عين، ولا أقل من ذلك**»[1].

=

أُصلي فإذا الرجل، فقلت له سألتك بالله من أنت؟ فقال: أنا أبو العباس الخضر، كنت بالصين أو بالصعيد، فقيل لي: أدرك عليًّا، وقل له: أتتكرم علينا يا عليٌّ، ونحن خَلقنا الكرم والرَّحمة وأنا أرحم الراحمين، وأعلم بمصالح عبادي أجمعين؟.

(١) رواه أبو داود (٣٢٤/٤)، والنسائي (١٦٧/٦).

ومن ذلك قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣]: أي من شأنها ذلك لولا العصمة.

كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٢٤].

والأمر الثاني: إن الله تعالى خلق الخلق برحمته ولرحمته، وجعل الصورة النبوية مظهرًا لذلك، والرحمة من الأمور الجالبة لا من الأحوال السالبة، فإذا ظهر كونه تعالى غفورًا رحيمًا، وكونه ﷺ رءوفا رحيمًا؛ فاعرف هذا السرَّ، فإن الله تعالى لا يردُّ عبده، وهو معه وعنده.

في آل عمران: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [١٦٣]: (هُمْ): أي متبعوا رضوان الله تعالى بالطاعة، وقسمهم من أهل المعاصي درجات بحذف المضاف: أي ذوو درجات عند الله: أي في عمله وحكمه، كما يُقال: هذه المسألة عند أبي حنيفة كذا، وعند الشافعي كذا؛ بمعنى: إنهم متفاوتون في علم الله تعالى في مراتب الثواب والعقاب.

فالمطيعون لهم درجات بحسب أعمالهم قلة وكثرة، وكذا العاصون لهم دركات بحسب أعمالهم قلة وكثرة أيضًا، فالعمال بجميع الأعمال الصالحة أرفع درجة، كما أن العامل بجميع المعاصي أسفل دركة؛ ولذا قال بعض العارفين: لا تقنع بعفو الله؛ بل أرغب في إحسانه بأن يزيدك هنا عملاً ومراقبة؛ فيزيدك عنده جاهًا وحرمة، والله بصير بما يعملون عالم بإيمانهم ودرجاتهم؛ فيجازيهم بحسبها خيرًا أو شرًا؛ وإنما فُسِّر البصير بالعلم؛ لأنه لا معنى لكونه تعالى سميعًا بصيرًا سوى العلم بالمتبوعات والمبصرات، ولمَّا كان تعلُّق علمه بأعمال الغير مما لا ريب فيه عمل على المجازاة [....][1].

فعلى العاقل أن يجتهد في أن يكون من أهل الدرجات لا من أهل الدركات، والله تعالى جعل في كل جنة مائة درجة بعدد الأسماء الحسنى، والاسم الأعظم؛ هو

(١) يوجد بتر بالأصل قدر كلمتين.

الناظر لدرجة الوسيلة خاصة، وله في كل جنة حكم كما له حكم كل اسم إلهي؛ ولذا جعل شجرة طوبى في المقام المحمَّدي إذ كما أنه تشعب كل كمال في الدنيا من الحضرة النبوية؛ فكذا ينشعب كل مراد في الآخرة من تلك الشجرة؛ إذ في كل مقام من الجنة غصن مظلل عليه يتكون منه ما يريد صاحب المقام من الُحلل، والحُلى، والبراق، والطيور، والحور، والغِلمان، وجميع الآلاء.

فطوبى لعبد كان نَسبه متصلاً بنَسب النبي ﷺ من حيث الديانة والتقوى؛ ولذا دعا ﷺ بالمغفرة لكل مَن كان صِهرًا له، وكان هو صهرًا له فافهم الإشارة، ولا تُضيِّع القرابة، فأنت النسيب لذلك الجناب العالي، ولك منه عِرق متصل، وأنت لا تدري، فإن كنت تريد شعبة من شعب شجرة طوبى؛ فاحفظ شعبة نوره في الدنيا بمحافظة الأعضاء والقوى.

وقد ثبت أن أبواب الجنة ثمانية على أعضاء التكليف، فلكل عضو باب، والأعضاء الثمانية؛ العين، والأذن، واللسان، واليد، والبطن، والفرج، والرجل، والقلب، فقد يقوم الإنسان في زمن واحد بأعمال هذه الأعضاء كلها؛ فيدخل من أبواب الجنة الثمانية في زمان واحد على ما يليق بموطن الآخرة، فإن الآخرة من عالم اللطافة؛ كالبرزخ، وكباطن الإنسان الكامل.

ومن الأزمنة المباركة شهر الله رجب.

فالراء رحمة الله العامة.

والجيم جمال الله؛ وهي النعمة الخاصة.

والباء برُّ الله تعالى ظاهرًا وباطنًا؛ وإنما كان الجيم إشارة إلى ما ذكرنا لِما أطبق عليه المكاشفون من أن الله تعالى تجلَّى لنبيه ﷺ بنور تجلِّي الأفعال بعد صلاة المغرب من ليلة الجمعة الأولى منه، فصلِّي شكرًا لتلك النعمة الجليلة اثنتى عشرة ركعة؛ لِما أن تقرُّبه إلى الله تعالى كان بالسجدة دائمًا لِما في الصلاة من ذوق المكاشفة والمشاهدة.

فالصلاة حظ القلب فلا يرغب فيها إلا أهل القلوب والأذواق[١].

---

(١) قال سيدي محمد وفا في المعاريج: فللنفس في منازلها الطورية صلاة تختص بكل منـــزل منها سفلي وعلوي، ملكي وملكوتي، جسماني وروحاني، ظلماني ونوراني، فللجسم صلاة في طوره الجسماني، وللنفس صلاة في طورها النفساني، وللصدر صلاة في طوره الجبروتي، وللقلب صلاة في طوره الملكوتي، وللروح صلاة في طورها الروحاني، وللسر صلاة في طوره النوراني، وللفؤاد صلاة في طوره الرضواني، فصلاة الجسم تشتمل على أوصاف من القيام، منتصبًا متوجهًا نحو الكعبة حيثما كان، في بقعة من بقاع الأرض رافعًا يديه في تكبيرة الإحرام، محركًا لسانه بدراسة القرآن، راكعًا رافعًا ساجدًا جالسًا آتيًا بصفات الصلاة الشرعية، ظاهرًا كما صلّى رسول الله ﷺ في ظاهر الأمر الصلاة المشروعة التي أمر بالإتيان بها ظاهرًا، فقال ﷺ: «**صلُّوا كَمَا رأيتموني أُصلّي**[١]»، فتلك صلاة الأجساد المكتفى بها في ظاهر الشرع، وأما صلاة النفوس فهي أن تضم لما وصفناه من أفعال الجسم، قراءة ما تيسر من القرآن بعد الإتيان بالفاتحة؛ إذ لا تصح الصلاة إلا بها على رأي أكثر الأئمة الراشدين، كالإمام الشافعي، والإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، وعامة علماء الدين رضي الله عنهم أجمعين، وينطق بالتكبير قبل القراءة وبعدها في كل أفعال الصلاة من الركوع والرفع منه، والسجود والرفع منه، والقيام، وإن تكرَّر منه ذلك، والتسبيح، والتحميد، والتمجيد، والدعاء، والتحيات بكمالها، والتشهُّد، والصلاة على رسول الله ﷺ فيه، وضم الصلاة على آله؛ للصلاة عليه في التشهُّد الأخير، والنطق بالسلام على أهل اليمين عند الخروج من الصلاة، والسلام على ملائكة اليسار مع المحافظة على إخراج الحروف في تلاوة القرآن؛ إذ ذاك شرطٌ في صحة الصلاة المشروعة، فإذا أتى بجميع ما ذكرناه فقد أدى صلاة النفس مع صلاة الجسم، وأما صلاة الصدر فهي التهيؤ للتسوية والتعديل للانشراح لقبول الواردات، والخروج عن وصفيّ الضيق والحرج، فيضم لما وصفناه من صلاتي الجسم والنفس الانشراح والانبساط، والاستسلام لحقيقة الإسلام، وتلقّي أنواره، وقبول وارداته، فيقوم بنشاط في التوجُّه والبسط لصلاته، فيرتل القرآن ترتيلاً، ويتفهَّم ما يتفوَّه به من التنـــزيل، وما ينطق به من التكبير[١] والذِّكر والتسبيح والتحميد، فهو بأفعاله في صلاته سالك منهاجه بنورٍ من ربِّه، فلا يضل في طريقه، ولا ينسى القيام بواجب حقه، فثمرة صلاته الانشراح بعد الحرج، والضيق والانبساط بعد الحصر في الفج العميق.

وأما صلاة القلب فهو أن يضم لما وصفناه من الصلوات الثلاث:

حضور النية عند الدخول في الصلاة، ولزوم الأدب، والخضوع، والخشوع، والخوف، والخشية، والتذلل، والتواضع، والتصاغر، والتضاؤل، ولزوم الحضور في جميع الصلاة، وألا يلتفت فيها يمينًا ولا شمالاً، وأن يعلم من يناجي في صلاته، فبضيف لما وصفناه في قراءته تدبُّر القرآن، فيتدبره بعد =

=

ترتيله، فإذا مرَّت به آية فيها تخويف تواضع وتذلل وتصاغر وأناب واستغفر ونوى التوبة عن ذنبه، واعتذر لربه، وأقلع عنه، وأذل نفسه واستحقرها، وقمع أوصاف الكبرياء، والعجب والدعوى، والتعزز والخيلاء، وفرغ محله من السوى، وامتثل ما ورد على لسان الأنبياء عليهم السلام، كقوله على لسان داود النبي عليه السلام:

«**يا داود فرِّغ لي بيتًا أسكنه**» وأن الحق تبارك وتعالى أراد بذلك: فرَّغ قلبك من سواي وملاحظة غيري.

وقول النبي ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**».

والقلوب أوعية فأتقاها أوعاها للخير، فإذا صلّى القلب هذه الصلاة تنـــزلت عليه لطائف الأنوار، وتنـــزلت عليه السكينة، ولبسه الوقار، وكتب فيه سطر الإيمان، واستوى وتعدل لقبول واردات الإحسان، واستغرقته الأنوار الإيمانية، وأشرقت عليه إضاءات الروحانية، وسرى في الملكيات، وعرج في درج الملكوتيات، وأفاق بعد صعقه لسماع كلام رب الأرضين والسموات، فتشرق أنواره على المصلين دونه، فيكسون حلل أنوار جلال وهيبة وكمال، فهم المنعوتون في كتاب الله العزيز بالشهداء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾ [الحديد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [الحديد: ١٢].

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾ [النساء: ٦٩].

فالصالحون هم المسلمون، والشهداء هم المؤمنون، والصديقون هم المحسنون، فهذه صلاة القلوب.

وأما صلاة الروح فهو أن تضم لما وصفناه من صلوات الحقائق الثلاث.

وهم: القلب، والصدر، والنفس، خارجًا عن صلاة الجسم؛ فإن صلاة الجسم مشهودة للأبصار بخلاف الحقائق الثلاث، فصلاة الروح انضمام الفرح والسرور بقدوم أوقات أداء الفرائض؛ إذ هي أوقات التجليات والتنـــزلات، وإعلان الداعي بالبشرى، والتهيؤ للحضور للمخاطبات والمكالمات والمناجاة، والتفكُّر بعد التدبُّر في أسرار الآيات المنـــزلات، والتسوية والتعديل لنفحة الرحمانيات، والخروج من حصر التعلقات بنيل الجزاء والثواب، وحلول الدرجات، وتلقِّي الإفاضات الرحموتيات بلطائف العلوم الكشفيات، والفهوم الغيبيات، والتنعُّم في رياض الجنات، فيلبس حللاً رضوانيات، ويرقى معاريجًا قدسيات، ويتوَّج تيجانًا ربانيات، ويحل بمقعد الصدق، ويشرف بمكالمة الحق، ويشهد جمال حضرة الربوبية، ويتمحَّض بصفة العبودية، فكلما تلا في صلاته آية وتفكَّر فيها وتفهَّم معانيها عرج روحه النوراني إلى أفقٍ أعلى، ومقامٍ أسنى، ومشهدٍ أضوأ، ومقعد صدق

=

=

أزكى وأبهى، فيرى في معراجه ذلك أنه بلغ سدرة المنتهى، وألا مقام أعلى من ذلك الأفق الأعلى، فعند انتهائه في نظره وبلوغه في استيفاء رزقه في مرامي فكره تنفهق عليه أنوار الآية التي تلي الآية التي قرأها، وتفكر فيها وتبحَّرها، فيرى ما لم يكن رأى، ويشهد ما لم يكن لَه بمرأى، فيرجع ببصر بصيرته خاسئًا حاسرًا، فعند رجوع بصره كرة ثانية يكشف لَه عن سر معراج الآية الثالثة، فيشهد من انفهاق الأنوار الرحموتية، والأسرار الرهبوتية، ما لم يكن في وسع الصفة البشرية حمل جزئه فضلاً عن كله، فيفجأ نظره انفهاق الأنوار، ولطائف الأسرار، فيستغفر الله ﷻ مما كان وقف عند ظنه، وبلغ حده فهمه ووهمه، ووقر في باطنه أنه الغاية القصوى في ذلك المقام، والنهاية في دار السلام، ومحل الأمان والإكرام، فإذا استغرق المصلي في حقيقة هذه الصلاة الروحانية، والحقيقة الرضوانية، واستوفى ما قدر لَه، وقسم من الرزق الروحاني في المقام الرضواني والطور النوراني كملت صلاته الروحية، وفاضت عليه أنوار المقامات الصديقية، وهو مقام الإحسان، فعند ذلك ينتهي في معراجه الروحاني، ومنتهى مقامه الرضواني.

وأما صلاة السر فهي أن تضم لما وصفناه من صلوات العوالم الطورية، واللطائف الظهارية والبطانية دوام المراقبة والحضور للمشاهدة والمخاطبة، فلا تلحقه غفلة، ولا تمسه لفتة، ولا يتعلّق بعلاقة روحانية، ولا ملكوتية، ولا جبروتية، ولا نفسانية، ولا جسمانية، فيكون دائمًا على صلاته، ذاكرًا لله ﷻ في خلواته وجلواته، قائمًا بمأموراته ومنهياته، مستغرقًا في فكر الآية ونعمائه، حامدًا لله تعالى بجميع محامده ومبتغياته، طالبًا منه نوال عطائه وإفضاله، وتنـــزلات إفاضات رحموتياته، طالبًا للفتح المبين في فهم أسرار آياته، مشاهدًا تصاريف القدرة الربَّانية في براياه ومخلوقاته، مستغرقًا في فهم أسرار ملكوتياته وروحانياته، كاشفًا، ينـــزل الأعمال على لطائف جوارح العباد، وعجائب صنعته في مبتدعاته، ملاحظًا تصريف المشيئة الربَّانية في اللطائف السمائية، والحقائق النورانية، وتنـــزل الأملاك العلوية النورية بإرسال الغيث بالقطر النازل، وافتراق قطراته، وحكمة الحق تبارك وتعالى في إحياء الأرض الميتة بوروده في وقت الحاجة، وكفه عند الاستغناء عنه، وإرسال الرياح بين يديه مبشرات بتنـــزل الغيث، وسوق الماء في البحار والأنهار إلى الأرض الجرز، وما تخرجه من النبات والأقوات، والفواكه المختلفة الطعوم والألوان، وما تشتمل عليه من النفع والضر للحيوان والإنسان، وما يكون منها غذاء لأهل الجنان ولأهل النيران، وما لا يدخل تحت حصر حيطة علم إنسان، ولا ملك ولا جان، ولا يطيق حمل معرفته الثقلان، فسبحان الملك العظيم الشأن، فإذا صلى السر هذه الصلاة الطورية، وقام بها في السرية والجهرية نال مقام العرفان، وشهد محل الرضوان، وكان للأنبياء والرُّسل من خواص الأتباع المحبين الإخوان، تلو العلماء المصطفين من عباد الله المتقين.

=

وقد كان السلف على مداومة صلاة الغائب في الوقت المذكور اقتداء بالنبي ﷺ، فمَن كان من أهل التجلّي؛ فلا كلام فيه، ومَن كان من أهل الاستتار؛ فتقليده بأهل التجلّي من الأمور الواجبة عند القوم، أو بالتقليد الصحيح يتجلّى أنوار التحقيق، ومن الله الإرشاد والتوفيق.

وقد قالوا: التوبة سبب الرضا؛ لأن الله تعالى يحب التوّابين، ويرضى عنهم، والمراقبة سبب العصمة؛ لأن الحاضر مع الله تعالى لا يُعصى، والخوف سبب الأمن إذ لا يأمن إلا الخائف؛ ولذا يُقال يوم القيامة: لا تخافوا، والرجوع إليه تعالى سبب الصلح إذ الاختيار باقٍ بعد، والاعتذار سبب العفو على ما عليه الكرماء، والندامة سبب القبول، فإذا حصل القبول أذن للدخول، وإذا أذن للدخول؛ فُتح باب القربة والوصول، وإذا حصل الوصول؛ حصل الرؤية على الوجه المأمول؛ لأن الله تعالى لا

=

فهذه لطيفة من أبعاض صلاة الأسرار، فمن صلّى سره هذه الصلاة المرضية، وقام بحقيقة هذه الأوصاف السنية، وبلغ بفهمه الثاقب، ودركه الصائب، ونوره الساطع، وحسامه القاطع إلى أفق هذا المقام العلي، وسنا برقه البهي، فوقف على باب الرحمة طالبًا إفاضات الفضل الإلهي، والرحمة الربَّانية، سائلاً ربه العفو والغفران، والإعانة على الخروج عن التعلُّق بحبال الجزاء والثواب، والالتفات لنعيم الجنان ودار الرضوان، فإذا تأدَّت هذه الصلاة بكمالها من أقوالها وأفعالها وأحوالها انثالت عليه إضاءات الأنوار الرحمانية البطانية للطور السابع، بعد ختم صلوات العوالم الست، فيبدأ العالم السابع بإتيان صلاته وتمحضه بالخروج عن مقاماته وغاياته، فيرقى في معاريجه الإخفائية، والأفئدة الاصطفائية الاختصاصية، برئًا من حوله وقوته، مجردًا من أثواب إنيته، ممحوًّا رسمه واسمه بين العالمين، حاضرًا بحقيقة الافتقار لأرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، متابعًا للقدم النبوي المحمدي، موافقًا مرافقًا للطيف الأحمدي، عار من كسوة الأغيار، لابسًا حلل الأنوار، غريقًا في بحر الوحدانية، مستهلكًا في زمان الفردانية، معدومًا للأكوان، مشهودًا للرحمن، مسوًّى معدلاً لقبول فيض التنـــزلات الربَّانية، والانفهاقات الرحمانية، ثابتًا تحت أحكام الأقدار، فقيرًا من جميع الأغيار، حاضرًا بالله مع الله، شاهدًا لله بالله، سامعًا كلام الله بالله، تاليًا للقرآن بالله، عالمًا بالله، كاشفًا بالله، ذاكرًا لله بالله، مصطلمًا في نور الله، آخذًا بكله كلا من الله، فلا يرى سوى الله، ولا يفوه إلا بالله، ولا يشهد في الكون إلا الله، ولا يرى ضرًّا ونفعًا إلا من الله، ولا قبضًا وبسطًا إلا من الله، ولا ظهورًا وبطونًا إلا لله، ففي صحوه يشهد الله وهو بمقام العبودية، واضعًا قدمه على أثر القدم المحمدي، والنعت الأحمدي، سامعًا كلام الربوبية بحقيقة العبدانية، فَأَرَتْهُ كلامها الرباني، وتنـــزلها الرحماني بالأفق الأعلى.

يحجب ذاته عن أهل الجنة، وهم في الدنيا؛ أهل القلوب.

فعليك بطريقتهم وسيرتهم في كل ما يأتون وما يذرون، ومَن لم يكن له أدب؛ لا يصحُّ الاقتداء به، فيُحترم إن كان من أهل الجذبة والحال، فإذا كان تارك الأدب لا يصلح للاقتداء؛ فما ظنك بتارك الأحكام، وقد قال تعالى: ﴿**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**﴾ [البقرة:١٨٩]، وهي الشرائع الظاهرة أولاً، ثم الرياضات والمجاهدات، فعندها ينفتح بيوت المعارف والحقائق على ما هو العادة الإلهية، ومن الأسباب إحياء الليالي؛ إذ فيه شهود مولى الموالي، والوصول إلى أعلى الأعالي، رزقنا الله وإياكم.

وقال الله سبحانه: ﴿**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ [آل عمران:١٧٨].

الآثم: اسم للفاعل المبطئة من الثواب، وله حسن موقع مع الإملاء الذي هو الإمداد والإمهال والتأخير.

واعلم أن الله تعالى جعل لكل إنسان أجلاً معلومًا؛ ليبلغ كماله الذي قُدِّر له، فإن كان من السعداء؛ فكماله في الدين، والسير، والسلوك؛ يحصل في مدة أربعين سنة غالبًا، وإن كان له عمر آخر طويل بحسب الإرث المحمَّدي ونحوه.

وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**طُوبى لمَن طال عمره، وحسن عمله**»(١).

يعني أن طول العمر؛ إنما هو لكسب حسن العمل، وهو للوصول إلى العلم الوهبي كما ورد: «**مَن عمل بما علم؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم**»(٢): أي بما علم من الشرع لا بكل ما عمل أيًّا كان.

فإن الفلاسفة، والحكماء المتقدِّمين، وأمثالهم أنفوا عن الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام، والعمل بشرائعهم اعتمادًا على عقولهم، وعلومهم، ورياضاتهم، فحرموا عن علم المواهب والإرث، إذ لم يتجاوزوا عن حدِّ ذوق؛ كأفلاطون، وأين هو من أذواق أهل المقامات الخارجين عن طور الكون، والحدوث الروحاني، الداخلين في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٧٠)، والديلمي في الفردوس (٢/٤٤٥).

(٢) تقدم تخريجه.

مرتبة الوجوب والقدم الربَّاني من حيث السير؟[١].

(١) قال الشيخ ابن سبعين قدس سره، وهو من أعجب ما قال: حكمة سابعة: ويقال: الفقر هو التجرد عن المواد والاتصال بالذوات المجردة المرسوم عليها في موضوعات الشرائع والمعبر عنها في اصطلاحهم: بالملائكة وعالم الأمر، ثم التجرد عنها والاتصال بالحكيم العليم الذي أمر، الحكيم العليم المبدع الأول الذي أمر الحكيم العليم الثاني، ثم التجرد عن الجملة والاتصال بالحكمة والكلمة، ثم التجرد عنها والاتصال بالحضرة السَّنية التي يظهر فيها الحكيم العليم الأول المذكور أنه من عباد الله، والله أعز من ذلك وهو عزيز؛ لأنه اعتز على العلماء به قبل هذه التي ليست من جنس ما يعلمه الفيلسوف ولا يفهمه بعض الصوفية. وهو علم التحقيق الغريب الذي لم يخبر قط جميع من دون الدواوين كلها عنه، ولا هو من قبيل السهو والعويص ولا في قوة البطيء مع الحريص. فاسمع ما أقوله لك ولا تلتفت إلى ما تخبط فيه شيعة أرسطو، وكونهم يقولون: الحق عز وجل هو المحرك للجرم الأقصى بذاته.

والمتأخر منهم يقول: بل هو الذي فطر الأمر وهو الذي أمر بتحريكها، وهو ثالث رتبة فوق محرك الأطلس.

ومنهم من قال: هو ثاني رتبة، فانظر ذلك في آخر كتاب «المشكاة» للغزال.

وفي كلام ابن سينا والفارابي. وتَحَيَّرَ ابن رشد في ذلك ثم اختار قول الحكيم، وقال به وزال عن الغير. وتخبط في ذلك ابن طفيل وانفصل عنه بِهَذَيَان لا فائدة فيه للحكيم النبيه. وكذلك مذهب أهل الرواق وشيعة فيثاغورس ومن قال بالمثل المعلقة والحياة السارية في الموجودات، والذي قال بالانتقال وبالأشياء المؤلفة من الفاني والباقي.

وكذلك جميع ما تسمع من بعض الصوفية الذين يقولون: مقام الإسلام والإيمان والإحسان والحق والمطلع والأفعال والصفات والذات.

والذي يقول: الأسماء والتخلق والأسماء التي تتصف ويتصف بها والاسم الفعال والأسماء المتحابة والاسم الذي يتصف، فذلك كله منه ما يصح بوجه ما، ومنه ما لا يصح.

وكذلك قائل: «والحق وراء ذلك كله» فإنه أراد المعلوم المضاف.

وبالجملة: ما عرفوا الله حق معرفته ولا علموه على ما ينبغي له، فعليك بالرجال.

واعلم أن العلم الإلهي منه ما يتعلم، ومنه ما يورث، ومنه ما يُتلقى من صدور الرجال، ومنه ما يوجد حالاً وذوقًا، ومنه ما يظفر به في الجميع.

فقل: أعوذ بالمقصود المعلوم عند معلمي حيث معلمي: من توقف أرسطو وتشتيت مسائله الإلهية خاصة، فإن غيرها من سائر العلوم أحكمها ولم يغلط فيها إلا في القليل، ومن شكوك المشائين، =

=

وحيرة أبي نصر، وتمويه ابن سينا في بعض الأمور، واضطراب الغزالي وضعفه، وتردد ابن الصائغ، وتنويع ابن رشد، وتلويحات السهروردى مؤلف: «حكمة الإشراق» والتلقيحات بمذهب أفلاطون، وتشويش ابن خطيب الرّي، وتخليط الأقدمين، ورموز جعفر المحتملة معرج التصوف مع الحكمة من حيث أتباعه، ومن شطحات بعض الرجال في «الرسالة» الذين نطقوا من أحوالهم الأول و لم تحذقهم العلوم ولا الصنائع العلمية ولا حققوا المبادئ وجاوزوا المقدار بأقوالهم وأحوالهم بوجه ما يسلمه بعض الناس وينكره الأكثر ومن تصريف ابن مسرة الجبلي في الحروف والإطلاقات في النطق اللاحق للأشياء وإضافته الآيات وفهم أقسام بعض السور والإقدام على الأحكام واقتران بعض القرآن ببعض، ومن تهذيب بعض الأسماء والصفات والكون والوجود والموجود والشفع والوتر والتوحيد على مذهب ابن قَسِيّ صاحب «خلع النعلين» ومن الأجناس الجامعة المتقدمة والتآليف والمذاهب والذهاب والاعتبار المقدر المصرف في جملة الأسماء ومدلولها وفي الصفات الدائرة التي تدور من مدلولها على صيغها، وبالعكس على مذهب ابن برجان، ومن الوصول المنسوب والوقوف عنده بحسب متعلق الأسماء والصفات والمقامات والأرواح والتلوين والتمكين والمحبة والوجود والواحد والوحدة والإضافة المحذوفة والمجردة والشائعة وغير الشائعة بحسب «المواقف» المنسوبة إلى النفرى المعلم الناقل عن المولد على زعمه وغيره.

فجميع ذلك كله لا خلاص فيه متمم ولا إخلاص مكمل، وهو مما يدخله الغلط من الصنائع عند طائفة، ومن الأحوال عند آخرين، ومن الاصطلاح عند قوم، ومن الفهم عند آخرين، ومن الرياسة ومن اللذة ومن سوء الفهم عند الأكثر.

وهؤلاء منهم من تلذذ بالأنوار والأحوال، وغفل عن الأصل، وفرح بنفسه و لم يكمل، ومنهم من علم المقصود و لم يتحرك إليه بالسلوك وغلبته الطبيعة والأمور الطبيعية والرياسة وحفظ الصيت عليه، ومنهم من بهره حال الاتصال فغلط.

ومنهم: من شك في الأصل ودفع تارة وجذب أخرى.

ومنهم: من كان أوله ضد آخره وبالعكس.

ومنهم: من وصف المقصود و لم يتصف به.

ومنهم: من ضر بكلامه ونفع وتنوع أمره وانتقل.

ومنهم: من ينفع من جهة ما ويضر من جهات. ولولا ما قصدت في هذا التقييد من الاختصار كنت أرسم لك مقاصدهم من حيث مواضعها والمسألة والجواب ونبين لك شأنهم كله وكيف الأمر فيهم على الإطلاق بالبرهان.

=

فقوله: «**علم ما لم يعلم**»: إشارة إلى هذا العلم الذي هو نتيجة التقوى المأخوذة من الشرع، لا نتيجة الأمور الموضوعة من طريق العقل.

ومن هنا ذمَّ الوضع مطلقًا؛ لأنه عقيم، ومدح الشريعة؛ لأنها ولود، والولود وإن كانت سوداء؛ فحسنة مع أن الشريعة بيضاء صورة، ومعنى.

كما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**تركتكم على المحجة البيضاء**»[1].

والعقيم إذا كانت حسنة بيضاء؛ فقبيحة سوداء؛ ولذا أمرنا بإكثار النكاح؛ لتكثير الذُّريَّة، وبثِّ النسل؛ ليظهر كمال الدين، وحقيقة التوحيد، وإمداد السواد الأعظم؛ وهم هذه الأمة المرحومة القاصرة أعمارها في الظاهر ، الكاملة أنوارها في الباطن، فإنهم جاءوا وقت الأصيل، وظل هذا الوقت ممدود فأعرف ذلك.

وإن كان من الأشقياء؛ فإنما يُستكمل له أمره في مدة سبعين سنة غالبًا؛ لأن قعر جهنم إنما يبلغه في هذه المدة، كما عُرف في قصة الهدَّة، وكما أن القصب ينمو أُبنوبًا فأُبنوبًا فكذا الإنسان في باب الخير والشر.

فإن قلت: فقد يكون بحيث لا يبلغ الإنسان إلى المدة التي ذكرت؟.

قلت: إن الله تعالى إنما ذكر الإملاء في حق الذين وصفهم بالخبث الزائد، فلكل من أهل السعادة والشقاوة مراتب مراتب، فطيب وأطيب، وخبيث وأخبث.

وقوله: (**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**) إشارة إلى أن الإهانة إنما جاءت في الحقيقة من قِبل الأسباب الخارجية؛ كطول العمر، والغنى، والجاه، ونحو ذلك.

وقد ثبت أن النبي ﷺ خشى على أمته من المال، وسعة الدنيا، وجعل حب الجاه آخر ما يخرج من رؤوس الصدِّيقين، فأمثال ذلك قد تحصل للعبد؛ لكن من

=

وبالجملة: عليك بالحق وفريقه وأهله وطريقه، فإن الرجال إذا تنوعوا دار الأمر بينهم وفيهم وعليهم. لا زوال للحق ولا شك فيه، ولا يأخذه النقص ولا يختلف ولا يتغير، وهو الذي به هو الشيء وما هو، وهو الشاهد المتفق من جميع جهاته، وهو هو كما تقدم، وكل حائر فمن أجله كانت حيرته وفيه وبه. فافهم. فإنه هو المطلوب وبه يطلب، ومنه الطالب وله ومنه وعنه الكل. وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذي قصدناه فنرجع له بحول الله تعالى.

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥٠٦/٤)، وابن القيم في شرح المختصر للمنذري (٨٧/١).

طريق المكر والاستدراك، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ﴾ [الشورى:٢٧] الآية، وقوله الحق والعمل به واجب، والحذر من المكر لازم، وتفويض الأمر إليه فرض، وطلب الكمال الحقيقي قدم صدق.

في أواخر سورة آل عمران: قال الله سبحانه وتعالى حكاية عن بعض أدعية الأخيار: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

اعلم أن المعيَّة في الأصل بمعنى المعية الزمانية، ومن الظاهر أن توفيهم إنما هو على سبيل التعاقب لا على سبيل المعية، فحملها العلماء على المعية، والمقارنة بأحوالهم الشريفة، وصفاتهم اللطيفة، فإن هذا التوفّي كالتوفّي معهم، وبصحبتهم حكمًا في هذا المقام معنى أدق مما ذُكر؛ وهو إن جميع الأبرار كانوا في الصف الأول في عالم الأرواح لم يكن لأحدهم تقدم على الآخر؛ فكأنهم الحلقة المفرغة، ثم لمّا خرجوا إلى العين اقتضى الحكمة الإلهية التدريج في الظهور الخارجي، فكان الزمان قد جرى على أشباحهم، وصورهم الجسدانية لا على حقائقهم، وصورهم الروحانية؛ لأنه لم يكن في عالم الأرواح ليل ولا نهار[1].

---

(١) قال سيدي محمد وفا في العروش: واعلم أن الزمان الأول المنفصل بالوقت، المتّصل بالدهر زمان آدم عليه السلام، وآدم منار الحيطة الطبيعية، ومحمول موضوعها، وبما قام لتدبير هذه الكرة، وتأسيس أحكامها وأقواتها وأوقاتها وأكنانها ووقايتها، ثم تربَّع زمانه في نفسه[1]، فكان ما بين آدم إلى شيث تدبير المساحة والفلاحة، نزل بأحكامها الروح الأمين في حجاب الباء المكين، فحلّ إشكالها، وفتح أغلاقها وأقفالها، وسهَّل نوالها ومنالها، وأودع في حالها مآلها، ثم الزمان الثاني ما بين شيث إلى إدريس بعث الله الروح القدس من حجاب الستر السرادقي العرشي، فأحكم صنعة اللبوس والبناء، وحجب العيون عن نظر العورة بحجاب القدرة، وخلع خلع الجمال، والزِيَن على الأشخاص والأعيان، والدمن.

ثم ما بين إدريس إلى نوح، كان ارتفاع الهمم بالنظر إلى الأفق السماوي، وإعمال الفكرة في حكم التأثير الهوائي والمائي والناري، وما أودع الله في الكواكب والبروج من أحكام وتأثيرات وحركات وتقديرات، فتوجَّهت الهمة الطلبية على النُّجب السببيَّة إلى أن خرقت آفاقها، وفتحت أغلاقها، واستخرجت أسرارها وأعلاقها.

فبالأول: استنتاج أرواح النبات، واستخراج ما فيها من أسرار الأقوات بما قال الله عزَّ اسمه:

=

=

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ* أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣،٦٤].

وبالزمن الثاني: استنتاج أرواح الستور، وحجب نظر العيون، وتأسيس أحكام الهندسة، ومواد البناء من المُفخَّرة والمُكلَّسة.

وبما قال عزَّ اسمه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [لأعراف:٢٦].

وبالزمن الثالث: كان استنتاج أرواح الأوقات، وأحكام الحركات والسكنات والانفعالات، ومعارف مجاري الكواكب، والرصد، والخط، والكتب، والعدد.

وبما قال عزَّ اسمه: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

وبالزمن الربع: ما بين نوحٍ إلى إبراهيم، وقد تمَّت الإشارة من علوم الفلاحة، والهندسة والأرصاد والنجارة، فلمَّا تمت الحكمة الدنيا في الأرض والسماء، وبلغ الزمان، وانتهى إعلامه، وتمَّت أعوامه وأيامه، وانتصبت أدلته وأعلامه؛ ظهر في نوح عليه السلام بدؤه وختامه، وبما كان نوح آدم الوقت، حذر النقمة والمقت، فتغالبت الحيوانية، وحكمت القوى الترابية، وأبت الأنفس إلا الإدبار، وقويت عصابة الكفَّار، وكان ذلك بحكم الحجاب الواقع، والسبب المانع لعدم تنـــزيل الخليفة الذي هو مالك عالم الخيال وربُّ الأشباح والأشكال، ولكل زمانٍ دولة ورجال؛ ولأنه ليس بزمان نزوله ولا وقت تجلّيه وحصوله، وذلك من أصل التخليق في الرحم، وتنـــزُّل أصول الأرواح بالكلم.

ولذلك قال: ﴿وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح:٢٧] ومعنى قولنا التخليق في الرحم: إذا كمل استعداد المضغة؛ يكون التنـــزيل، والنفخ الروحاني بحكم صاحب الزمان من أي أفقٍ كان، وهذا من أسرار الحُكم للوقت.

فعلم ﷺ أن النفخ الكائن بالكلم في الزمان المنصرم؛ لا يصلح لاستعداد الزمن الثاني ولا هو محلٌ للتقوِّي الروحاني، فانقضت حكمة التَّمام، حلَّ ذلك العَقد والنظام، ولا بد من نقل الأصول من الحَبِّ والنوى، ونقل الآباء والأبناء.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود:٤٠].

وبما كانت النشأة الآدمية من ماءٍ وطين، وكانت الحياة القائمة بالروح الحيواني هي بطانة الماء، والروح بطانة النار، والماء الذي هو ظاهر الحياة ماسكٌ بزمام الرحمة، فلك النار الذي هو بطانة الروح، فلمَّا استجيب الدعوة بسرِّ الحكمة؛ أعرضت الحياة التي هي باطن الرحمة، فانحلَّ الزمام الماسك، ففعلت القوة النارية في الماء الذي تجرَّد عن قوَّته، وخلا من مواسك حكمته فسجَّره، وفوَّره، وقطَّره، وفجَّره.

=

فقد توفَّاهم الله تعالى من حيث جسدانيتهم في أزمنة مختلفة، وما توفَّاهم من حيث روحانيتهم إلا في زمان واحد؛ لأن الزمان لا يجري على الأرواح الغير المتحيزة، فكما أنهم كانوا قبل وجود الزمان من حيث أرواحهم؛ كحلقة مفرغة لا يُدرى أين طرفاها؟ فكذا كانوا بعد وجود الزمان من حيث تعلُّق أرواحهم بأبدانهم على هيئة واحدة في الحقيقة، فكانوا كأنهم توفُّوا على وجه المعية، ثم إن قولهم: وآتنا ما وعدتنا على رسلك.

وأراد بمقتضى الوعد يعني: إذا كان لسان الربوبية قد أعطاهم الوعد، فلسان العبودية قد أعطى السؤال، وإلا فالله تعالى لا يخلف الميعاد، ولا حاجة للسؤال عند حضور الكريم؛ ولكن من أفراد يعطون جميع المراتب حقها.

سورة النساء

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١] (١).

=

ومن هنا يُفهم قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود:٤٠]؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح:٢٥].

وبما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦]؛ ولأنه دعاهم بالسُّنة الأولى إلى الحكمة الثانية، ولن يعدُ امرؤٌ قدره، ولا يخالف موضوع سرِّه.

وأمَّا الذين آمنوا مع نوح؛ كان لهم مدد من نبوَّته، وخاصية من حقيقته على حكم الندور، ولما يكون به التأصيل إذا انختم الدور، ثم يدور وإلا فقد هلكت أنعامهم، وأنفسهم وأطفالهم، وغير ذلك مما لا يجري عليه القلم، وقد أُمر نوح أن يحمل معه كل زوجين اثنين، فما خصوصية هذا الإنعام من تلك الأنعام؟ وتمييز كل زوجين من نوعها وجنسها؛ وإنما هي حكمة ربَّانية وسريرة سريانيَّة.

(١) قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[النساء:١]؛ وهى حواء.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١].

وما أنشأ الله تعالى من كل شيء زوجين؛ إلا لِيُعرِّفَ الله العالم بفضل نشأة الإنسان الكامل؛ ليعلم أن فضله ليس بالجعل الكامل ليعلم أن فضله ليس بالجعل.

فإن الذي هو الإنسان الكامل ظهر به ازدواج من لا يقبل لذاته الازدواج ما هو بالجعل، فضمن الوجود الإنسان الكامل الظاهر بالصورة، فصار الصورة بالصورة روحين فخلق آدم علي صورته فظهر في الوجود صورتان متماثلتان كصورة الناظر في المرآة ما هي عينه ولا هي غيره ولكن حقيقة الجسم

=

اعلم أن الله تعالى خلق آدم من الطين؛ كإنشاء الفاخوري كوزًا أو نحوه منه، وخلق حواء من آدم: أي من ضلع من أضلاعه اليسرى؛ وهي القُصيري أسفل الأضلاع؛ كإنشاء النجَّار شيئًا من الخشب بنحته وإصلاحه، ولَمَّا كانت حواء مخلوقة من ضلع منحية إنحاء الحاء المفردة في الرسم؛ جُعلت الحاء في اسمها؛ لتدل على الوحدة الواحدية، كما أن آدم خُلق من الأرض البسيطة بساطة الألف؛ جُعلت الألف في اسمه؛ لتدل على الوحدة الأحدية.

فآدم هي النفس الواحدة التي خُلق منها فروعه، كما أن الألف هو المبتدأ الأول الذي تُفصَّل منه سائر الحروف بتغيير الصورة؛ لأن كل حرف من حروف التهجِّي رجع إلى صورة الألف؛ بل إلى صورة النقطة في الحقيقة؛ لأن الألف مركب من نقاط ثلث، أو خمس، أو سبع عدد المعاني الثلاثة التي هي التعيُّن الأول الذاتي، والتعيُّن الثاني الصفاتي، والتعيُّن الثالث الأفعالي، أو عدد الحضرات الخمس، أو عدد الصفات السبع، فإذا غيرت صورة الألف المركبة من تلك النقاط؛ صارت: (**أ ب ج د**) إلى آخر الحروف، فالاختلاف في الصورة لم يقدح في الاتحاد في المعنى؛ ولذا قالوا: أصل العام أمر واحد.

فحواء صورة آدم في المعنى، وإن كانت مغايرة له في الخارج ببعض الكيفيات لأمر تقتضيه الحكمة الإلهية، إذ لا ظهور للحقائق المختلفة مادامت الصور متفقة، ولأمر ما خلق الله آدم أولاً، ثم خلق حواء منه ثانيًا؛ ليظهر الحقيقة الفاعلية والقابلية في أصل واحد، ومن ثم ضلَّ من المفسرين مَن جعل جزاء مخلوقة من بقية تراب آدم؛ لأنهما إذًا وإن كانا يرجعان إلى أصل واحد؛ وهو الطين، لكن حينئذ لا يظهر سر حنو أحدهما إلى الآخر؛ لأن خلقتهما من الطين من القرابة البعيدة لا من القرابة القريبة، كما في صورة الخلق من الضلع؛ لأن انحناء الضلع دلَّ على الحق، وكون

=

الصقيل أعطى ذلك، فافهم.

فإنه لب المعارف، فلمَّا أراد سبحانه إيجاد التناسل والتوالد والنكاح الصوري في دار الدنيا للاستئناس؛ فاستخرج من ضلع آدم عليه السلام من أقصره حواء عليهما السلام، فقصرت بذلك عن درجة الرجل.

تلك الضلع ضلعًا من أضلاع آدم؛ دلَّ على جزئية حواء لآدم؛ ولذا مال إليها ميلاً كليًا ميل الكل إلى جزئه.

ومنه حُبب إلى رسول الله ﷺ النساء، وظهرت المحبة في آدم دون حواء؛ لأن آدم موطن حواء، والمرء لا يتحد بموطنه اتحاد الكل بجزئه، فاقتضت صفة الحياء المأخوذة من الحي؛ وهو آدم إخفاء المحبة من جانب حواء.

ولمَّا ذكرنا من سرِّ الأحدية والواحدية؛ أنزل الله تعالى حروف التهجِّي على آدم، فكما أن الألف كانت أول الحروف اللفظية، ثم منها تركَّب سائر الحروف على اختلاف هيئاتها. فكذا آدم كان أول حرف معنوي بدأ الله تعالى به سائر الحروف المعنوية؛ فاشتمل على نقطة، وحرف، وكلمة، وآية، وسورة.

فكان في مرتبة الشئون الغيبية نقطة، وفي مرتبة الأعيان الثانية حرفًا، وفي مرتبة الروحانية كلمة، وفي مرتبة المثالية آية، وفي مرتبة الحس والجسم سورة، وكان أوله البسملة والفاتحة المبدوءة بالله، وآخره الناس، ففيه سر الأُلوهية والربوبية مع كونه في صورة الناس، إذ لا اعتبار بالصورة؛ بل بالحقائق، فعليك بالوصول إلى أصلك البسيط ففيه سر اسم المحيط، وعليك بصلة أمك الواحدية أكثر من صلة أبيك الأحدية؛ لأنها الواسطة.

وقال الله سبحانه: ﴿وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء:٤]: أي أتوا أيها الأزواج مهور النساء اللآئي أردتم نكاحهن، كما قال تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم﴾ [النساء:٢٤]؛ حال كون الصدقات عطية من جانب هذا.

أحد الوجوه في الآية: فإن قلت: لا شك أن المهور واجبة على الأزواج فكيف عبر عن إيتائها بالنحلة، وجعلها من قبيل العطية؟ قلت: إن النحلة أخص من الهبة؛ لأنها عطية على سبيل التبرُّع من طيب نفس بلا توقع عِوض؛ فأشار بالنحلة إلى أن الإيتاء ينبغي أن يكون عن كمال الرضا، وطيب الخاطر؛ وذلك لا ينافي أن يكون المهور واجبة في نفسها؛ فهي فرض نافلة فأفهم جدًا.

وفيه إشارة إلى أن السنن في حكم الفرائض، فمَن اقتصر على الفرائض، وترك السنن والنوافل؛ فهو لم يأتِ بشيء تقتضيه الحكمة، وذلك أن الفرائض في مقابلة

شكر وجود الواجب، والنوافل في مقابلة شكر وجود الممكن؛ لأن الممكن مرآة الواجب، وللإنسان سرُّ الحقيقة الفاعلية التي تُبنى عن الوجوب، وسرُّ الحقيقة القابلية التي تُفصح عن الإمكان.

فلمَّا كانت نشأته جامعة لهذين السرين؛ اقتضت الحكمة الإلهية أداء الفرائض لأمر الواجب، وأداء الحق الوجود الواجبي، وكذا أداء النوافل امتثالاً لأمر الممكن اقتضاءً لحق الوجود الإمكاني؛ فكانت الفرائض فرائض صورة ومعنى، والنوافل نوافل صورة وفرائض معنى، وللصورة هنا حكم المعنى عند أهل التحقيق يعني: إن للنوافل حكم الفرائض؛ ولذا كانوا يسارعون في نوافل الخيرات، فمَن لم يعرف سرُّ الوجوب في صورة الجواز؛ مال عن هيئته الروحانية، وانحرف عمَّا يقتضيه نشأته الإنسانية.

ثم إن النساء إشارة على النفوس، كما أن الأزواج إشارة إلى الأرواح، والأرواح مزدوجة بالنفوس تحصيلاً لولد القلب الذي هو خليفة الله في أرض الوجود، ولا بد كذلك الأزواج من المهر؛ وهو إعطاؤها حق التزكية، وإلا كان قربانها لها زنا وفحشاً؛ لأنه بغير أمر الشرع لبقاء الرياء والمجازية، وبغير أمر الحقيقة لبقاء الميل إلى الأجانب والأغيار.

ولهذا السرُّ قال ﷺ: «**وُلدت من نكاح لا من سفاح**»[1]: أي من نكاح صحيح في تشريفه وتحقيقه؛ ولذا كان كل تولُّد منه من الأقوال، والأفعال، والأحوال، نتائج حقيقية ينبغي التلقي بقبولها، والعمل بها في جميع المراتب، وهكذا حكم الكُمَّل.

وأمَّا مَن له نكاح شرعي دون حقيقي؛ فحاله الموافقة للشرع، ولا ينبغي الاقتداء في كل ما صدر عنه إلا بحسب الصورة الشرعية؛ لأنه صادر عن نفس وشهادة، لا عن قلب وغيب، ومنه يعلم أن التزكية واجبة لكل مكلَّف، كما أن المهر واجب لكل ناكح، فكما أن النكاح بلا مهر زنا، فكذا مقاربة النفوس بلا تزكية فحشًا حقًا؛ فعليك بالتزكية، وإياك والبقاء بتعينات النفس؛ فإنها تعينات

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧٦/١١)، وابن سعد في الطبقات (٦١/١).

فاسدة يجب إصلاحها؛ بل إزالتها، فإنه إذا زالت تعيناتها الفاسدة؛ بدَّلها الله تعالى بالتعينات الصالحة؛ وهي التعينات التي يتجلَّى فيها بحقائق أسمائه وصفاته؛ فتكون حقه، والحق لا يصدر عنه إلا الحق، كما أن الباطل لا يصدر عنه إلا الباطن، ومن هنا ظهر الحقيقة والمجاز، والوجوب والجواز، والحق والباطل، والله المفضل العادل.

قال في سورة النساء: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم﴾ [النساء:٢٤].

وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ [الأحزاب:٥٠].

فالمال المفروض في حقِّ الأزواج؛ هو المهر، وكان الإيجاب من الله تعالى، والبذل من الناس، وسُمِّي المبذول مالاً لأن الإنسان يميل إلى المال بالطبع، ويدَّخره لوقت الحاجة، فإنه فقير بالذات، محتاج إلى قضاء الحاجات، وما هو بالطبع لا ينفعك عنه؛ ولذا مال إليه الخواص أيضًا؛ بمعنى أنهم جعلوه من قبيل الوسائل، والخُدَّام، لا من قبيل المقاصد والمخادم كما دلَّ عليه العوام؛ ولذا ادَّخروه[1].

وأمَّا الخواص فقد بذلوه، وأنفقوه لِما أن الله تعالى جعلهم مستخلفين فيه، ففي

---

(١) قال العلواني: فأرواح الصدقات من أرواح الإيمان. وهي أرواح من الإحسان وأرواح من الشكر وأرواح من قصر الأمل وأرواح من مراقبة الرب وأرواح من الرحمة، فإن الذي يرى روح المسكين في روح المسكنة فيحن له ويواسيه فهو راحم برحمة الله التي عمته وكتبها عليه لكونه على بساط منه.

فويل لروح الغافل عن أرواح التقرب بأرواح الرحمة في أرواح المعروف مع أرواح الحاجات. وأرواح المسكنة وأرواح الفقر إذا كان فيها روح من الطاعة ولو بروح الإيمان المدلول عليه بروح لا إله إلا الله، وبروح الصلاة وبروح الصدقة.

والصدقة روح فيها روح برهان على روح إيمان المتصدق بالمفروض.

وعلى روح يقين المتصدق بالأرواح النقلية والأرواح بالنية روح بيان في روح إحسان ينبغي للمحسن أن يكون في إحسانه روح نية بأن يكون ذلك الروح المحسن به واصلا إلى أرواح والديه الذين ارتحلوا من هذه الدار وصاروا إلى روح البرزخ فهم على أرواح الانتظار إلى أرواح الأحياء، فإنهم على أرواح من الأرواح الصالحة.

والأذن واقعة بإفاضة الجودات على أهل الحاجات من الأحياء والأموات، والله لا يضيع أجر المحسنين. والأرواح كلها لله ولا تقرب إلا على روح من الله. وانظر: الأرواح (ص٥٨) بتحقيقنا.

بذله، وإنفاقه انقطاع عن العلاقة العائقة عن الحق تعالى، ولمَّا كان الاعتدال مما يُغتبط به عند أهل الله تعالى أشار إليه ﷺ بقوله: «**أجوع يومًا وأشبع يومًا**»[١].

فالجوع يومين تفريط، والشبع يومين إفراط، والميزان الاعتدال؛ وهو مساواة الكتفين؛ ولذا كان أكثر أهل الله يفطرون كل ليلة لكن على الاعتدال، ولا يعملون بالوصال إلا أن يقتضيه الحال.

ثم إن البذل وإن كان له متعلّقات كثيرة شرعية فرضًا ونفلاً؛ لكن لمَّا كان النكاح أفضل النوافل عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله، وكذا عند أهل الله؛ كان بذل المال له أحبَّ وأَوْلى، وإنما احتاج النكاح إلى البذل؛ لبيان الحرمة، وصيانة المرأة عن الابتذال؛ لأنها مطلوبة، والمطلوب مطلقًا احترام لا يتحقق إلا بالبذل غالبًا، فكان أشرف من المال حتى بُذل له.

ولمَّا كانت المرأة إشارة إلى سرِّه المكنون، وكان حصوله مما يتوقَّف على بذل الوجود، وما يتعلَّق به الذي يميل إليه الإنسان، ويبخل في بذله؛ فرض الله على طالب الحق أن يطلب ذلك السرَّ المصون ببذل الوجود الذي كان يميل إليه، وهو له علاقة قوية، وحجاب كثيف؛ ولذا قال مَن قال من الأكابر: كل مَن خاف على هيكله؛ لم يرَ الله جهارًا علنًا[٢].

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٧/٣١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٨/١٣٣).

(٢) **فائدة جليلة**: قال العلواني: فصل في روح وصل في أرواح النكاح فإن روح الإرشاد يدخل في كل روح دل لذلك الأرواح الفرقانية ففي روح الإباحة ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣]

والأرواح على أقسام فأرواح الصالحين الكمل على أرواح النكاح ولهم من ذلك الذرية الطيبة وهي مطلوب أرواح النبوة لما تحرك في أرواحهم من أرواح الذرات المخزونة بروح الأمر إلى أرواح الأجل فإذا جاءت أرواح الآجال جرت أرواح الأسباب وتواصل الأرواح بأرواح المحبة والمودة حتى يكون وروح العقد فيجري أمر النكاح.

وفي الأرواح المحمدية «**لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل**» ليقع روح الفصل بين النكاح وبين السفاح فالسفاح ما كان بلا ولي ولا شاهدي عدل فالشهادة إنما شرعت للوثوق والروح الفاسق لا وثوق بروح شهادته فلهذا الروح قال: الروح المحمدي «**لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل**» وفي روح الشاهد حفظ روح النسب فالشاهد على روح النكاح شاهد ينسب من ولد على فراش الرجل =

=

من روح تلك المرأة ويكون روح الشهادة على روح النكاح حفظ حقوق الزوجة وحفظ حقوق الولد وحفظ المواريث بين الزوجين وما ولد لهما.

وكل ذلك يحتاج إلى شاهد تثق به روح الأرواح ولا يكون ذلك إلا بروح العدل والعدل روح من أرواح الحق في بلاده بين أرواح عباده فلا قسم لأرواح الوجود إلا بأرواح العدول فحده أن لا يكون قد ارتكب كبيرة عمدا مع وجود العلم بالحرمة وأن لا يصر على صغيرة ولا يكون هذا الروح إلا في روح آمن بالله وكان بروح الإيمان له خوف من الله فلو قدم غريب إلى روح بلد ومعه حرمة وقال إنها زوجته صدقناه وقلت حكم الزوجية بعد ذلك إذا قالت الزوجة مثل ذلك ولا يجوز روح التجسس عليهما بل يتركان فإن ظهر ما هو خلاف الواقع فله حكمه وقد وقع مثل ذلك لروح الإمام عمر فإنه رأى رجلا في طريق يتكلم مع امرأة فقال مالك تكلم هذا المرأة في طريق الناس وضربه بالدرة على روح الظن أنها أجنبية فقال الرجل هي زوجتي يا أمير المؤمنين. فرمى الإمام إليه الدرة وقال اضربني على روح ما ضربتك أو تعفو فقال: عفوت يا أمير المؤمنين.

ولا يكون روح الفصل بين البهائم وبين الأرواح البشرية إلا بعقد النكاح بالولي وشاهدي العدل وبالمهر الذي هو الصداق حتى لو أسقطته البالغة العاقلة قبل العقد بأن قالت للولي اعقد علي لفلان بدون شيء فعقد صح العقد.

فإن دخل بها لزمه مهر المثل فإن أسقطته بعد ذلك كان أبرأ من حق مقدر لها شرعا فمهر المثل يدخل في ملك المستحقة له فهو كالإرث فإنه مقدار شرعا وكل حق ترتب بوجه الشخص على شخص علم ذلك الروح من البشر أم جهل كان ذلك الروح من الأمر من جملة حقوقه فيكون له المطالبة في روح الآخرة بحقه أو يكون من العفو وهيهات في تلك الدار مع وجود الحاجات ومقاسات الشدائد روح من الأمثلة في روح ما ذكرناه.

وذلك مثلان يذكر شخص بين يديك وهو غائب فتقع في عرضه في عرض زوجته في عرض ولده في عرض جده في عرض جيرانه دخلت كرما بستانا طاحونا بغير عرض دار إذا كان بغير إذن ولا علم من المالك ترتب عليك في ذلك حق بعد حق بعد حق فيكون أنت قد أفقرت نفسك وضيعت راحتك وصرت رهين أرباب فملك الحقوق حتى يكون الأخذ من حسناتك إلى روح فراغها ثم يكون الطرح عليك من أرباب المظالم حتى لا يبقى لك روح من الطاعة وتلقى في النار مع أرواح الفجار ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠].

هل عندكم من زيادة ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٣١] أي ذلك الموعود غير بعيد فهو قريب ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ٦-٧] بروح الإلزام لأرواح الاحترام.

فمن كان له روح احترام لمحارم الله تعالى كان له روح إكرام منه على ممر أرواح الدهور والجُمع والأيام والسنين والشهور فما هي إلا روح صبر ساعة وراحة أرواح الأمد فما روح التقوى إلا روح الصبر على أرواح مسمى المأمورات وروح الصبر عن ارتكاب ظلمات المنهيات وروح الأمر

=

=

سهل على من سهله الله عليه ومن كان له روح تجريد بروح من أرواح الخيال وصور سراب المحال لا يكون عليه كلفة في أرواح المأمورات ولا في ترك أرواح المنهيات المحال لا لسلامة روحه بروح التجريد من أرواح العقابات وأرواح النفوس المقيمة على سواحل الطبع البشري.

والأصل الطبيعي العنصري فلم يكن في وجوده فلم تصله سر من أسرار التحويل فهو على روح الجهل واقف وعلى سراب القطيعة عاكف وارد من الأسرار بروح من الاعتبار إذا وردت على الروح الإنساني روح الحياة بروح الولي الحميد وهو الرحمة المنشورة وأصل روحه تبرز من روح القلب وتنتشر في روح العالم على روح الإطلاق في سائر الأرواح وأرواحها العنصرية.

وما كان من كل روح ما كان فتكون كل أرواح الوجود تكوينا على روح التجديد بروح الحياة التي هي الرحمة المنشورة في أرواح العالم من روح قلب سر صاحب السر وهو الإنسان الكامل بروح لولي الولي الحميد فروح الولي الحميد لا ينشر الرحمة في أرواح الوجود إلا من روح قلب الإنسان الكامل صاحب سر الحياة.

وهذه هي عين الحضرة المطلوبة لأكابر ولا يعرضها إلا من شهدها وكل ما لم يكن مشهودا فهو في روح الجحود خصوصا إذا لم يقم عليه دليل كالجليل فروح هذا المشهد في الروح الإنساني روح قابض بأرواح التعمير لأرواح الوجود بأرواح الحياة التجديدية وفي الأرواح المحمدية أنه «**ما قرن إلا ويرسل على رأسه من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**» وما هو إلا هذا التجديد بروح الحياة.

والمجدد هو الإنسان الكامل الذي أفاض الله من قلبه أرواح الحياة فانتشرت في أرواح الوجود من روح سره الممد من روح الولي الحميد فيكون التجديد في أرواح الوجود من هذا الكامل والإنسان الواصل فما يكون من السحاب والزروع والفروع ودوران الأفلاك إلا بروح الحياة الفائضة المنشورة في أرواح الوجود من روح المجدد المرسل على كل قرن قد درست أرواح حياته وبقي على أرواح من الإنارة من ذلك روح الجهل وأرواح الطغيان.

ومن هذا الروح المنصوب تمد أرواح الدين وأرواح الدنيا فيدوم روح الإسلام بمواصلات أرواح التجديد بالروح الجديد إلا أن روح التجديد الفائض من روح المجدد يكون على أرواح من الزيادة وأرواح من النقص وأرواح من الفترة كما كان يفتر الوحي عن الروح المحمدي.

وكذلك أرواح الولاية لها أرواح من الفترة ومن علامات تلك الفترة وقوع الخلل في أرواح الوجود عند روح الفترة فأول روح يقع من أرواح الخصب وأرواح الحياة إنما يقع في روح الإنسان الكامل ثم منه تنتشر الرحمة في أرواح الوجود وأول روح يقع من أرواح القحط إنما يقع في روح الإنسان الكامل ثم ينتشر في أرواح الوجود وذلك الولي عارف بأرواح هذه التصاريف لا يفوته دقيقة ولا رقيقة من أرواح الرضوان ولا من أرواح السخط ولا من أرواح الفتح ولا من أرواح الغلق فكل روح مسرة في الوجود فضلته فسائر ما يكون في أرواح الوجود على أرواح التفصيل وعلى أرواح الإجمال من كل روح موافق ومن كل روح مخالفة من أرواح فضلاته التي أمده بها

=

=

الولي الحميد فالسر عند هذا الروح الكامل على روح العارية.

وإنما هو روح الحق على روح الصدق ولكن بذلك جرت الأسرار ووقع الإكرام لهذه الأرواح الطاهرة بأرواح هذه الحياة الفائضة في أرواح الوجود على روح الإكرام والولاية لا على أرواح القدرة بروح الأصالة ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ١٥٠]، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فما ذكرناه إنما ذكرناه إنما هو روح من التعمير لأرواح الوجود بأرواح الحال الفائضة من أرواح الجمال على روح الإكرام فلا يكن منك روح من الغلط فإن أرواح الحق واسعة.

وطبقات أرواحه شاسعة ولسعة أرواح الحق شرعت أرواح النكاح لسعة أرواح التصريف في أرواح - أرواح مختلفة على أرواح مؤتلفة فروح النكاح يشرع فيه روح النظر فهي إلى الوجه وإلى روح الكفير.

وطار طائر الحب فوقع على روح القلب من روح تلك الروح المرئية.

وفصل بروح الوجه وروح القبول وبروح[٢] أرواح الوصول كان ذلك كروح الأساس للحبر المدراس العارف بقواعد التورية وما فيها من أرواح الآيات وأرواح الأنات إنما كانت من الأحرف مركبات فظهرت منها أرواح المعاني بالنظر في أرواح تلك المباني.

وكذلك الناظر في أرواح الوجه والكفين من روح امرأة على روح أن يتخذها زوجة وذلك بروح محمدي على روح من الندب لا على روح الوجوب ولا على روح الإباحة ولا على روح حرمة.

وذلك مثل روح النظر في روح المتاع لروح المشتري حتى يقع روح الشراء على روح الرضا وكل ما كان على روح الرضا كانت عاقبته العيشة الراضية، وما كان على روح الكراهة في البداية كان على روح الكراهة، فلا يصح البيع بدون أن ترى ويصح النكاح بدون أن ترى إلا أنه يكون على روح من الكراهة فلا يقع بعد ذلك أو روح من الموافقة لمخالفة الحكمة.

والأرواح المحمدية التي فصلت عندها أرواح الطبائع وكل أرض يليق بها من أرواح النبات ما يليق وليس السر في روح الأرواح الذاتية إلا لأن تتناهى أرواح النظر في أرواح المحاسن، وأرواح الجمال الظاهر في روح هذا العالم الظاهر فإذا تمت أرواح الأذواق من أرواح طعوم حلاوات كمالات أرواح المحاسن على سائر أرواح تفانينها ظهرت أرواح الذات بأرواح من الإطلاق في أرواح من التجلي لا يبقي معها صورة كمال ولا روح من أرواح الجمال.

فكذلك يكون في أرواح الآخرة للأرواح الإنسانية أرواح من السكر[٢] وأرواح من الغيبة ثم يكون لهم صحو وسكر وشرب وكمال في درجات أرواح شهودهم لإتيانها في روح ظاهر ذلك العالم الذي هو روح باطن هذا العالم فعلى مقدار ما تسلك وتذوق وتشهد في روح السر بغير روح من النهاية.

فكذلك في أرواح الآخرة يكون الأمر على روح الظاهر على غير حد ولا روح من أرواح النهاية =

=

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك من روح الإجلال لأرواح الكمل بأرواح المواهب على حسب روح أرواح إجلالهم إياه في أرواح عوالم المكاسب فقدموا ما في أيديكم لما بين يديكم ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠] فأرواح النكاح أرواح تقديم لما بين يدي أرواح الآخرة فإن من ذلك روح الولد الصالح والأخ الصالح والأخت الصالحة.

وفي ذلك من أرواح التعارف وأرواح القرابة وأرواح الأمومة وأرواح الأبوة وأرواح العمومة وأرواح الأخوال وأرواح الخالات، وأرواح الجدات وكم في ذلك من أرواح المواصلات بأرواح الرحمة بأرواح الدعوات بأرواح الصدقات بأرواح التربية بأرواح الحزن بأرواح البكاء على أرواح الأولاد وليس في ذلك من النقص.

وفي الأرواح المحمدية «**إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» فالحزن والبكاء المضحك والسرور من كمال الروح الإنساني وبذلك تميز على الروح الحيواني وله خواص تميز بها عن أرواح الملائكة وهي أرواح النكاح المتميز بأرواح عن أرواح نكاح الحيوانات على أرواح من الستر.

وذلك روح من الكمال في الروح الإنساني، وما كان مختصا بروح؟ فمن العلم على روح من الذوق كان أكثر عرفانًا بأرواح الحقائق فكمال الرحمة في الأرواح البشرية بأرواح النكاح فالفخر في الآخرة لأرواح الذرية الطيبة ولو بأرواح الإفراط، فالأرواح الطيبة يشفع بعضها لبعض ويرحم بعضها ويكرم البعض منهم من أجل روح البعض فسر التوالد روح مفصل في أرواح الرحمة ولا يفتر عن أرواح التفصيل في أرواح المواصلات في الأنفس الطيبة وغيرها والكل على ساحل الفقر في ساحة الكرم عند الملك الأكبر فما أرواح الذل في أرواح العز وما أرواح الفقر في أرواح الغنى وما أرواح العجز في أرواح القدرة فما وعزته شرع التوالد إلا لأرواح الرحمة بأرواح العطف وأرواح اللطف.

فيا أيها الروح الغافل تقرب إلى هذا السيد ولو بصلاة ركعتين في روح من ليل أو في روح من النهار فإنه سيدك وإليه مردك فلا تغتر ولو باليسير فإنه الغني يرضى منك ولو بالسير فيقول عبدي ذكرني على أرواح ضعفه عبدي ذكرني على أرواح شغله عبدي ذكرني على أرواح فقره عبدي ذكرني على أرواح حاجاته وعزتي وجلالي إنه العزيز عندي وإن أهنته وإن أذقته من مرارات الفقر ومن مرارات عسر الدنيا فله عندي ما يحب ويرضى فهو عبدي وأنا سيده.

فيأيها العبد لو سمعت صريح الخطاب لتفطرت منك أرواح الألباب لو رأيت المولود وقد قال له الملك الودود: اذهب وخد بيد أبيك وادخل به الجنة لاشتهيت الولد فذلك من رحمة الله بأرواح الوالدين وعزته وجلاله إنه بعباده رءوف رحيم لا يزال يسيرهم على أرواح الجود وعلى أرواح الكرم وعلى أرواح الفضل وعلى أرواح العفو ويا ليت شعري ما الروح الضعيف في أرواح العقوبات.

فيا رحمن أنت صاحب الرحمة الواسعة لا تكل البعض إلى البعض فيشقوا وكن أنت لهم ليبقوا.

=

ولمَّا كان النبي ﷺ درجة زائدة على أمته؛ أحلَّ الله تعالى له المرأة التي وهبت نفسها له: أي ملَّكته بضعها بلا مهر، فكان ذلك خاصًا له من دون المؤمنين من

=

فروح النكاح روح ستر وأرواح أجر وروح تعارف على أرواح البر والتقوى وروح السلامة في أرواح المتابعة فمن رغب عن السنة فهو الناقص بلا منة والتارك عجزًا أو لعذر ليس براغب عن أرواح السنة، ومما يكون من أرواح المعونة خفة أرواح الموعدة.

فلا يتزوج الروح الإنساني بروح شيطاني وهو الروح الكثير المؤنة وقد كانت أرواح جهاز فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين بعد مريم معلومة لأرواح الناس فلم يكن هناك مزركشا ولا مصاغا ولا فرشا وطية ولا شيء من أحوال المترفين.

وفي روح يوم حابسي فطلبت منه فاطمة جارية للخدمة فلم يسمح لها بذلك رسول الله ثم جاءها من الليل فقال لها ولعلي ألا أعلمكما ما هو خير لكما من خادم فعلمهما أن يسبحا ثلاثا وثلاثين ويحمدا ثلاثا وثلاثين ويكبرا ثلاثا وثلاثين ثم يكون الختام لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

فقد كان روح نظره الكريم إلى أرواح الآخرة لا إلى أرواح الدنيا فإن النازل فيها على حد الترحل عنها لا على حد الإقامة روح إشارة فيها كفاية عن أرواح العبارة في روح قوله ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣] لا تقربوا غير النساء فإن ذلك عليكم محرما كحرمة أن تقربوا النساء بغير حق ولا عقد بشرطه.

وفي الأرواح المحمدية «**يا معشر الشبان تزوجوا فمن لم يستطع فعليه بالصوم**» ٠ كل ذلك حرص من روحه الكريمة على هذه الأمة المرحومة حتى لا تكون على روح من أرواح النقص فتكون كاملة الاعتبار في الأسماع والأبصار بأرواح المشاهدة وأرواح الأخبار ووليمة العرس سنة وتجوز قبل الدخول وبعد الدخول على خلاف ما اعتاد الناس، ولا تفوت بمال فإن وقتها العمر كالعقيقة ففي أي وقت يمكن فعلها والذي يظهر أنها روح من الشكر على روح نعمة التأهل.

فإن التأهل من أرواح النعم الكبار ولذلك شرع أن يكون شكر هذه النعمة وليمة ولو بشاة وإن خير الولائم وليمة العرس التي يدعى إليها الفقراء ولذلك قال أرواح من أهل العلم يستحب أن يطعم الفقراء أولا ثم يشرع في بقايا الناس على أرواح طبقاتهم، وإذا كان النكاح نعمة فلا يكون لها مقابلة إلا بروح الشكر فكيف يصح أن يشكر النعم بالمحارم فلا ينبغي أن تفرش البيوت والحرير إلا أن يكون من فرش المرأة ولا يحل نصب صور الحيوان على أرواح الجدران ومن ترك شيئا لله عوضه خيرا منه وشر الطعام طعام الولائم الذين تأكل منه الأغنياء دون الفقراء فزن واحفظ على نفسك كما تحفظ لها، فإنك ملاق ما أنت له صانع.

أمته الحقيقية والحكمية[١] .

(١) قال ابن طولون: واختص ﷺ بإباحة النكاح له من غير إيجاب مهر عليه لا في الابتداء ولا في الانتهاء. عند أبي حنيفة وجمهور الشافعية، وحكى الحناطي منهم وجهًا غريبًا: وجوب المهر، واستدلوا للأول بقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٠]؛ إذ الهبة تغني عن البدل، ولأن المقصود منه ﷺ التوصل إلى ثواب الله تعالى، فوسع عليه الأمر حتى لا يتعذر عليه ذلك.

واختلف العلماء هل كانت عنده امرأة موهوبة أم لا؟ ومبنى ذلك على القراءة في قوله تعالى: (إن وهبت نفسها للنبي) هل هي بكسر إن أو بفتحها؟ فقراء الجمهور: وامرأة مؤمنة: (بالنصب) إن وهبت (بكسر الهمزة): أي أحللناها لك إن وهبت نفسها إن أرادت استنكاحها، فهما شرطان: الثاني منهما في معنى الحال، وهو شرط في إحلال هبتها نفسها، وفي الهبة إرادة استنكاح النبي كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها، وأنها تريد أن تستنكحها؛ لأن إرادته هي قبول الهبة وما به تتم، وهذان الشرطان نظير الشرطين في قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]، وإذا اجتمع الشرطان فالثاني شرط في الأول متأخر في اللفظ متقدم في الوقوع ما لم تدل قرينة على الترتيب نحو إن تزوجتك إن طلقتك فعبدي حر.

والقراءة الثانية: بفتح الهمزة قرأ بها أُبي والحسن والشعبي وغيرهم وتقديرها: لأنْ وهبت نفسها، وهو فعل ماضٍ في أمر قد وقع، وقراءة الكسر: استقبال في كل امرأة كانت تهب نفسها دون واحدة بعينها، وقرأ زيد بن علي: (إذ وهبت) وإذ ظرف لما مضى فهو في امرأة بعينها، وقرأ أبو حيوة: (وامرأة مؤمنة) بالرفع على الابتداء، والخبر محذوف: أي أحللناها لك، وقرأ الجمهور: (خالصة) بالنصب، وهو مصدر مؤكد بمعنى خلوصًا منصوب على أنه مفعول مطلق، وقرئ: (خالصة لك) بالرفع.

قال أبو حيان: الظاهر أن قوله: (خالصة لك) من صفة الواهبة نفسها لك، فقراءة النصب على ما قاله الزجاج: أي أحللناها خالصة لك، والرفع: خبر مبتدأ محذوف: أي خالصة لك: أي هبة النساء أنفسهن مختص بك، لا يجوز أن تهب المرأة نفسها لغيرك، فأجمعوا على أن ذلك غير جائز لغيره إذا علمت هذا فمن قرأ بالكسر وجعله شرطًا مستقبلاً قال: لم يكن عنده امرأة موهوبة، وبه قال مجاهد، ومن قرأها بالفتح وجعله خبرًا عن ماضٍ قال: كانت عنده امرأة وهبت له نفسها، وقد اختلف في تعيينها، فقيل هي أم شريك بنت جابر بن ضباب، وهو قول عروة بن الزبير ومقاتل والضحاك وعلي بن الحسين وغيرهم، أخرج النسائي حديثها عن هشام بن عروة عن أبيه عن أم شريك أنها كانت فيمن وهبت نفسها للنبي ﷺ، وقد اختلف في اسمها ونسبها، فقيل اسمها غزية وقيل غزيلة بضم الغين المعجمة وزاي فيها، وأما نسبها فقيل فيها قرشية عامرية، وقيل أنصارية، وقيل الواهبة: ميمونة بنت الحارث، قاله ابن عباس. وقال الشعبي: هي زينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين، وقيل: هي فاطمة بنت شريح، وقيل: خولة بنت حكيم، ففي الصحيحين عن عائشة قالت: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة: أما =

وأعنى بالحكمية: الأمم المتقدِّمة، والقرون الماضية، حتى يُروى أن الله تعالى جعل مهر حواء - عليها السلام - عشر صلوات على نبينا ﷺ.

فإن قلت: فما فضل الله تعالى وإنعامه على عباده في ذلك إذا كان الكل مطلوبًا بالمال مع أنه ذو الوجود والمنَّة؟ .

قلت: لا شك ان المرأة المنكوحة تُبتغى بالمال، وأمَّا الملك فقد يكون بغير المال، كما إذا كانت الجارية موروثة أو موهوبة، فالله تعالى يهب لمَن يشاء ما يشاء من العلوم الفاضلة، والحقائق الزائدة التي من حور مقصورات في الخيام، فللعبد ما يملكه، ويبتغيه بالمال.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم:٣٩].

وهو في مرتبة الشريعة، والطريقة الحاصلة بالنفس، والقالب وسعيهما، وله أيضًا ما ينال إليه بدونه.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩].

فإن النور إشارة إلى ما ذكرنا، والله يختص برحمته مَن يشاء.

وقال الله سبحانه: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:٢٦]؛ فيه إشارة إلى الهداية الخاصة الذي اختص بها المقربون؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أُريد به الأفراد الكاملون، وسنن الخواص خاصة اختصاصية من قبل الله تعالى، فكانت الهداية إليها هدايةً خاصةً.

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]: أي اقتدِ بأقوالهم الحسنة، وأفعالهم المرضية، وأحوالهم الشريفة، فإن الأنبياء كانوا صادقين في أقوالهم؛

=

تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل فلما نزلت ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥١] قلت: يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

وهذا يدل على أن قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾: أي تؤخر من تشاء من الواهبات فلا تقبل هبتها ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب:٥١]: أي بقبول هبتها، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وانظر: مرشد المختار (ص١٧٥) بتحقيقنا.

ولذا لم يكذِّبهم أحد إلا هلك، وعلى هديٍّ في أفعالهم؛ ولذا مَن اقتدى بهم في ذلك؛ اهتدى إلى الدرجات العالية، وارتقى إلى المراقي الصاعدة، وعلى حقيقة في أفعالهم الباطنة.

ولذا مَن اتبعهم على بصيرة في رياضاتهم ومجاهداتهم؛ تشرَّف بأنواع المكاشفات والمشاهدات والمعاينات التي هي نتائج التجلِّي الأفعالي، والصفاتي، والذاتي، ومنه التجلِّيات كلها حاصلة لجميع الأنبياء، والمرسلين، ومَن تبعهم من الكُمَّل.

وأمَّا أمم الأنبياء فمتفاوتون في الدرجات، وهذه الأمة المرحومة أعلى طبقة منهم أجمعين؛ لأن منهم مَن وصل إلى التجلِّي الذاتي بالفعل والتفضيل بخلاف خواص سائر الأمم، فإن الواصل منهم إلى تلك المرتبة الجليلة إنما وصل من مقام الإجمال والقوة، فأين هم من هذه الأمة؟.

ولذلك لا يقتضي نقصانًا لأنبيائهم، فإن الدعوة حاصلة في جميع المراتب؛ لكن لَمَّا كانت الاستعدادات متفاوتة وناقصة؛ لم يحصل من الدعوة إلا بعض آثارها، فذلك يرجع إلى نقصان في استعدادهم لا إلى نقصان غيرهم.

إذ ليس للداعين نقصان في ذلك أصلاً؛ إذ الدعوة إنما هي بعد الوصول إلى الله تعالى في جميع المراتب، نعم فرق نبي ونبي، وكذا نبي ورسول، وكذا بين رسول وبين واحد من أولي العزم، وكذا بين نبينا وبين سائر الأنبياء عليهم السلام، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ [البقرة:٢٥٣].

ثم إن هدى الأولين إنما يتبع من حيث إنه هدى مأمور به في هذه الشريعة المحمَّدية، قد يكون الخطاب في الآية لَمن جاء بعد الصدر الأول من هذه الأمة إلى يوم القيامة، وذلك من طريق الإشارة والوارد، فيكون أكامل هذه الأمة الجاثية عصرًا بعد عصر مهتدين إلى سنن الصدر الأول، وهو أتم من الهداية إلى سنن الأولين؛ لأن الأولين كما عرفت لم يبلغ درجتهم درجة هذه الأمة.

والحاصل: إن هذه الأمة مهدية إلى سنن الأولين، ومع هذا أعطاهم الله تعالى سننًا أخرى من حيث اتباعهم نبيهم الأفضل بما أحرزوا جميع السنن المرضية فعلاً

وتفصُّلاً، ففاقوا على أهل سائر السنن، فلهم الدرجة العليا، والفضيلة الكبرى.

وحسبك دليلاً أن نبينا ﷺ جاوز مقامات الأنبياء ليلة المعراج، وخصَّه الله بمقام الوسيلة الذي لا مقام فوقه، ولا شك أن التابع يستجلب فضيلة زائدة بالانتماء إلى متبوع أفضل فرقاء اكامل هذه الأمة يوم القيامة الأنبياء والمرسلون في جنات الفردوس يسأل الله تعالى من فضله أن يفضل وينعم ويفيض.

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

المراد: السيئات الصغائر؛ لأنها وردت في مقابلة الكبائر، جعل الاجتناب عن الكبائر شرطًا وسببًا لتكفير الصغائر، فمن ضرورة وجود الشرط وجود المشروط، كما أنه من ضرورة عدمه عدمه، وإليه ذهب بعض العلماء حيث قصروا التكفير على الاجتناب، وهو مخالف لقوله تعالى: **﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾** [هود: ١١٤]؛ لأنه يدل على أن الطاعة أيضًا تكفر الصغائر.

فمعنى الآية الأولى: إن تجتنبوا كبائر الاثم؛ تكونوا خالصين عن الاثم، لأنا نكفر الصغائر بالطاعة، وإلا فيبقى عليكم الكبائر؛ لأنها كبرت فلم تكفر بالطاعة؛ بل احتاج تكفيرها إلى التوبة، أو إلى الفضل الإلهي كما هو مذهب أهل السنة، ودلَّ على المعنى الأول الذي ذهب إليه بعض العلماء ما ورد في بعض الأحاديث من أن: «**الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[1].

يعني: إن الطاعة هي المكفِّرة بشرط اجتناب الكبائر، فلو ارتكب الكبائر؛ أكلت كبائر نوافل طاعاته، فلم يبقَ له يوم القيامة إلا الفرائض، ثم الكبائر والصغائر من الأمور الإضافية فتختلفان باختلاف الأشخاص الفاعلين، وبحسب أحوالهم، وكذا بحسب الأوقات والأماكن.

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٣٠٣/١)، وابن حجر في فتح الباري (٣٥٧/٨) بنحوه.

وإليه يشير قول أبي سعيد الخراز ﷺ[1]: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[1]

---

(١) اسمه أحمد بن عيسى وهو من أهل بغداد، من أئمة القوم وجلة مشايخهم.

قيل: إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء.

أخذ عن إبراهيم بن بشار الخراساني ومحمد بن منصور الطوسي، روى عنه علي بن محمد الواعظ المصري وأبو محمد الجريري وعلي بن حفص الرازي ومحمد بن علي الكتاني وآخرون.

وقد صحب سريًّا السقطي وذا النون المصري، قال أبو القاسم عثمان بن مردان النهاوندي: أول ما لقيت أبا سعيد الخراز سنة اثنتين وسبعين فصحبته أربعة عشر سنة.

قال السلمي: هو إمام القوم في كل فنٍ من علومهم له في مبادىء أمره عجائب وكرامات، وهو أحسن القوم كلامًا خلا الجنيد فإنه الإمام.

قال القشيري: صحب ذا النون والسري والنباجي وبشرًا الحافيز

قال ومن كلامه: كل باطن يخالفه ظاهرٌ فهو باطلٌ.

وقال ابن الطرسوسي: أبو سعيد الخراز قمر الصوفية.

وعنه قال: أوائل الأمر التوبة، ثم ينتقل إلى مقام الخوف، ثم إلى مقام الرجاء، ثم منه إلى مقام الصالحين، ثم إلى مقام المريدين، ثم إلى مقام المطيعين، ثم منه إلى المحبين، ثم ينتقل إلى مقام المشتاقين، ثم منه إلى مقام الأولياء، ثم منه إلى مقام المقربين.

قال السلمي: أنكر أهل مصر على أبي سعيد وكفّروه بألفاظه، فإنه قال في كتاب السر: فإذا قيل لأحدهم: ما تقول؟ قال: الله، وإذا تكلم قال: الله، وإذا نظر قال: الله فلو تكلمت جوارحه، قالت: الله، وأعضاؤه مملوءة من الله. فأنكروا عليه هذه الألفاظ وأخرجوه من مصر. قال ثم رُدَّ بعدُ عزيزًا.

ويروى عن الجنيد قال: لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا، فقيل لإبراهيم ابن شبيان: ما كان حاله؟ قال: أقام سنين ما فاته الحق بين الخرزتين.

وعن المرتعش قال: الخلق عيال على أبي سعيد الخراز، إذا تكلم في الحقائق.

ومن كلامه:

قال الكتاني: سمعت أبا سعيد يقول: من ظنَّ أنه يصل بغير بذل المجهود فهو متمنٍ، ومن ظنّ أنه يصل ببذل المجهود فهو مُتعَنِّي.

وقال أبو سعيد الخراز: إن الله تعالى عجّل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره، والوصول إلى قربه، وعجّل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم، وأجزل نصيبهم من كل كائن فعيش أبدانهم عيش الجنانيين، وعيش أرواحهم عيش الربانيين، لهم لسانان لسان في الباطن، يعرفهم صنع الصانع في المصنوع، ولسان في الظاهر، يعلمهم علم المخلوقين، فلسان الظاهر يكلم أجسامهم، ولسان =

=

الباطن يناجي أرواحهم.

وسئل أبو سعيد عن الأنس ما هو؟ فقال: استبشار القلوب بقرب الله تعالى، وسرورها به، وهدوؤها في سكونها إليه وأمنها معه من حيث الروعات، وإعفاؤه لها من كل ما دونه أن يشير إليه حتى يكون هو المشير لأنها ناعمة به، ولا تحمل جفاء غيره.

وكان أبو سعيد الخراز نائمًا فانتبه وقال: اكتبوا ما وقع لي في هذا النوم، إن الله تعالى جعل العلم دليلاً عليه ليعرف، وجعل الحكمة رحمة منه عليهم، ليؤلف، فالعلم دليل إلى الله، والمعرفة دالة على الله، فبالعلم تنال المعلومات، وبالمعرفة تنال المعروفات، والعلم بالتعلم، والمعرفة بالتعرف، فالمعرفة تقع بتعريف الحق، والعلم يدرك بتعريف الخلق، ثم تجري الفوائد بعد ذلك.

وقال أيضًا: مثل النفس مثل ماء واقف طاهر صاف، فإن حركته تظهر ما تحته من الحمأة، وكذلك النفس تظهر عند المحن، والفاقة والمخافة، ومن لم يعرف ما في نفسه كيف يعرف ربه؟.

وتوفي رحمه الله تعالى سنة ست وثمانين ومائتين، وقيل: بل توفي سنة سبع وسبعين ومائتين.

انظر في ترجمته: الحلية (٢٤٦/١٠)، وسير أعلام النبلاء (٤٢١/١٣)، وطبقات الصوفية (ص٢٢٨)، وصفوة الصفوة (٢٤٥/٤)، وشذرات الذهب (١٩٢/٢)، والطبقات الكبرى للشعراني (١١٧/١)، والمنتظم (١٠٥/٥)، والبداية والنهاية (٥٨/١١)، وتاريخ بغداد (٢٧٦/٤).

(١) ذكره القاري في المصنوع (١١١)، وفي الموضوعات الكبرى (ص١٨٦)، والشوكاني في الفوائد المجموعة (٧٣٣)، وفي كتابنا أحاديث مشهورة لكنها لا تصح، وعزوه لأبي سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وأورده السندروسي في الكشف الإلهي (٣٥١)، وعزاه للزهري.

قلت: وحُكي أيضًا عن ذي النون المصري، وقد عزاه الزركشي للجنيد، (٣٠٩/١)، وانظر: كشف الخفاء (٤٢٨/١).

فائدة: قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني: واختلفوا في الصغائر في حقِّ الأنبياء والكُمَّل والذي عيه الأكثر أن ذلك غير جائزٍ عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة.

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوبٍ من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها، وأشفقوا = = منها، وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على وجه الندور، وعلى وجه الخطأ والنسيان، أو تأويلٍ دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسناتٌ، وفي حقهم سيئاتٌ بالنسبة إلى مناصبهم وعلوِّ أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة.

=

فكم من رجلٍ يُعد صغيرته كبيرة؛ لعلو رتبته، وكم من رجل على خلافه، يعني: يُعد كبيرته صغيرة؛ لقصور رتبته ودناءة حاله، فيُعفى عنه ما لا يُعفى عن الأول، وقس عليه الأوقات الشريفة، فيُقتل مَن أفطر في نهار رمضان عمدًا جهرًا؛ لهتكه حرمة الوقت العزيز، والأماكن اللطيفة فيكتب الخاطرة في الحرم المكي، وإن كانت معفوة في خارج الحرم.

ومن ثَمَّ قالوا: تارك الأدب عند الحضرة، والماشي على البساط؛ أسوأ حالاً من تاركه عند الباب، وفي الخارج، وأكبر الكبائر الشرك: أي الكفر مطلقًا، فلا يُغفر؛ لأنه لا وجود له في الحقيقة، فكيف يُغفر: أي يُستر فكل مَن أشرك فإنما أشرك عن وهم وخيال، فإنها بخلاف سائر الذنوب.

ومن أكبر الكبائر أيضًا حصائد الألسنة؛ لأنها هي التي تُكب الناس على مناخرهم في النار.

ومن أكبرها أيضًا الشهوة الطبيعية؛ لأنها تلحق الإنسان بالبهائم؛ ولذا ذمَّ الله تعالى قومًا بقوله: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ [محمد:١٢].

ومن أكبرها أيضًا الهوى النفساني؛ لأنه ما عبد شيء أبغض من الهوى؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:٤٣].

ومن أكبرها أيضًا الكبر؛ لأنه أعظم الصفات الشيطانية.

ومن أكبرها أيضًا حب الدنيا؛ لأنه رأس كل خطيئة.

ومن أكبرها أيضًا الميل إلى ما سوى الله تعالى، وقد أمر الله تعالى بترك ما سواه كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١].

فمَن حصل له في الأنفس الاجتناب عن هذه الكبائر؛ حصل له الاجتناب أيضًا

=

قال: وهذا هو الحق، ولقد أحسن الجنيد حيث قال: «**حسنات الأبرار سيئات المقربين**» فهم صلوات الله وسلامه عليهم وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوبٍ منهم فلم يُخلّ ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحهم، وزكّاهم، واختارهم، واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه. وانظر: تفسير القرطبي (١/٣٠٩).

في الآفاق عن فروعها الكثيرة، وقد كثرت حتى بلغت إلى سبعمائة، على قول ابن عباس -رضي الله عنهما- وإن كان مراده منه التكثير لا تحديد، فكما أن الطاعات كثيرة متشعبة؛ فكذا الخطرات، فعليك بالاجتناب عن الزلّات؛ ليكون جوهر النفس صافيًا عن الكدورات.

وقال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِم﴾ [النساء:٣٤].

اعلم أن الرجال هم الذين قَويت هممهم؛ فاجتهدوا في الله حتى وصلوا إلى الله، سواء كانوا ذُكورًا من حيث الصورة، أو إناثًا؛ ولذا ذكروا النساء العارفات مع الرجال العارفين، وعبَّروا عن الأبدال الأربعين بالنفوس لا بالرجال، لما أن بعضهم من النساء، وأن النساء هم الذين ضعفت هممهم فتقاعدوا حتى لم يصلوا إلى الله سواء كانوا ذكورًا أيضًا من حيث الصورة أو إناثًا.

ولذا جعلوا للكرامات الكونية حيض الرجال؛ فجعلوها من حيث تقيدها بتلك المرتبة في حكم النساء؛ ولذا أسندوا إليها ما أُسند إلى النساء من الحيض؛ فظهر أن المراد بالرجال هم الكاملون أيًّا كانوا من النفوس البشرية الفاضلة، وان المراد بالنساء هم الناقصون أيًّا كانوا من النفوس البشرية المفضولة، فإن الأولين جمعوا بين الصورة والمعنى؛ فكانوا إنسانًا حقيقيًا أحياءً ظاهرًا وباطنًا، وإن الآخرين لم يتجاوزوا عن الصورة؛ فكانوا إنسانًا حيوانيًا أحياءً صورةً وأمواتًا معنى، فكما أن الحيوان جزء من عالم الصورة، وأن الميت صورة الإنسان لا حقيقته، فكذا الناقصون، وكمال الإنسان إنما هو بالخلافة؛ لأنها هي الميراث من آدم عليه السلام[1].

---

(١) قال ابن ناصر في مجمع البحرين: قال تعالى ﷻ: **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾** [النساء:٣٥] قيام الكل علي الجزء، وللقيُّوم درجة التقدم والشرف.

أمَّا السرُّ الذي خلق منها زوجها إلا من خارج، حتى لا يخرج الأمر منه أصلاً، ويكون الأمر منه إليه؛ كالأصل وغيره منه عليه حتى لا يستأنس بالغير، وهكذا الأمر في الأصل أنه ما أظهر عينا للغير حتى لا يكون للغير عين، فافهم.

هذا سرُّ الحديث المشهور في الغيرة الإلهية أنه قال ﷺ: **«إنَّ سعدًا لغيُورٌ، وأنا أغير منه، والله أغير مني»** فالغيرة صفته كما قال، فافهم.

=

وإنما تقوم الخلافة بعلم الأسماء أولاً كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾[١]

=

قال تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء:١] فلمَّا كان آدم نفسًا واحدةً وحواء خلقت منها فبثَّ منهما، وأوجد، ونشر بنكاح صوري رجالاً كثيرًا ونساءً.

قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

إنما أخَّر النساء؛ لتأخرها في الخلق وفي الرتبة، يقال: نسأت الشيء إذا أخرته، ذكره في الصحاح؛ وذلك لأنها في مرتبة الانفعال، ولها التأخُّر عن رتبة الفاعل، وهكذا الأمر في العالم وإيجاده؛ خلق في نفس واحدة، وهي نفس القلم الأعلى والروح الأعظم الأسنى وهو أول خلقٌ إبداعي نفس النفسِ الكل؛ وهي أول خلق انبعاثي كانبعاث حواء من آدم عليهما السلام في عالم الأجرام؛ ليكون محلاً للولادة المعنوية المحسوسة المشهودة لأهلها، وكانت مما ألقي إليها من الإلقاء الأقدس الروحاني الطبيعة والهباء جميعًا، فكانت أول أم ولدت توأمين، كما كانت حواء عليها السلام، فأول ما ألقت هو الطبيعة أخ وأخت لأبٍ واحدٍ وأمٍ واحدة، فأنكح الطبيعة الهباء، كما كانت في أولاد آدم وحواء فولدت بينهما صورة الجسم الكل، وهو أول جسم ظهر في الوجود؛ فكان أبوه الطبيعة والهباء أمه، وهي الهباء جوهرة مثبتة في جميع الصورة أثاثها، وما من صورةٍ إلا هي فيها، وإنما قلنا الذكور والإناث، وأردنا الصورة الفاعلة والمنفعلة؛ لأن الأمر لا يخلو من هاتين القوتين؛ فأول الأباء لعلوية معلوم: أي القلم الأعلى؛ وأول الأمهات السفليَّة شبيه المعدوم الممكن، فهذا أبٌ ساري الأبوة، وهذه أمٌ سارية الأمومة، والنكاح والازدواج سارٍ في كل شيء والأولاد والنتيجة دائمة أبدًا دنيا وآخرة.

فالمولدات أمورٌ مختلفة لا تنحصر أشخاصها الطبيعة والعنصرية أبدًا؛ لأن الله تعالى قد وصفها على أمزجة مختلفة لمعانٍ مقصودة لا تحصل إلا بها، وإنَّا وإنْ كنَّا عن أصلٍ واحدٍ، ولكن جعلنا مختلفين؛ لحكمة لا تخفى على الواقفين.

قال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨]؛ ولذلك خلقهم، فمنَّا الطيب والخبيث الواسع والضيق.

(١) يعني: الأسماء التي هي مبادئ لإيجاد العالم، ومؤثرات في حقائق الأكوان، ومن جملتها الأسماء الإلهيَّة التي توجَّهت على إيجاد الملائكة وهي لا تعرفها، ثم أقام المسمِّين بهذه الأسماء، وهم مظاهر التجلِّيات الإلهيَّة التي هي الأسماء كالمواد الصوريَّة للأرواح.

فقال: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٣١]، يعني: الصور التي تجلَّى فيها الحق إن كنتم صادقين في قولكم:

﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة:٣١]، كأنه قال لهم: وهل سبَّحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجلِّيات التي أتجلاَّها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ونقدِّس ذواتنا عن الجهل بك، فهل =

[البقرة:٣١]، ثم بالوصول إلى حقائق المسميات، ثم بالترقّي إلى حقيقة الحقائق التي هي المسمَّى الحقيقي بأن يكون ظاهرًا بأسمائه الحسنى، ومتجلّيًا بصفاته العليا، ومتحققًا بحقائقه المثلى، فإن الخليفة لا بد وأن يكون على صورة المستخلف؛ كالوزير مع السلطان، وإليه الإشارة بقولة مَن قال: من أكبر أكابر الرجال سبحان مَن أظهر الأشياء وهو عينها يعني: أظهر آدم وهو عين صورة الحق في الظهور بالحقائق.

ولذا قال ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»(١): أي على صورته الحقيقية إذ لا صورة لله تعالى إلا من حيث تنـــزُّلاته واسترسالاته، وكذا أظهر الوزير وهو عين السلطان في رتبته وحكمه وظهوره، وذُلَّ هنا قدم مَن قال: كيف يكون الحق عين الأشياء، وهو من حيث وجوب وجوده، والأشياء من حيث إنها حقائق وماهيات ممكنة؟.

وقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة:٢١٣]. فالشمس شمس وإن لم يرها الضرير، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه الممرود.

والحاصل: إن الكمال الحقيقي إنما هو بالوصول إلى مقام الخلافة والنبوة، وليس ذلك إلا للرجال من النساء دون النساء، فكمالهن كمال إضافي: أي بالنسبة إلى سائر النساء؛ ولذا لم يقل أحد من أرباب الحقائق: بخلافة النساء ونبوتهن؛ لأن الله تعالى لَمّا جعل الرجال قوّامين على النساء ببعض الوجوه في مرتبة الشريعة؛ اقتضت الحكمة الإلهية أن يكونوا قوّامين أيضًا عليهم في مرتبة الحقيقة، وذلك لا ينافي كمالهن الإضافي.

وقد أشار إلى ذلك معنى الآية، فإن ما به التفضيل اثنان: الأول: موهبي؛ وهو

=

قدَّستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التحلّيات وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبِّحوني بها؟.
فقامت عليهم الحجة في ادَّعائهم الإلهيَّة، فقالت بعد العلم: ﴿**لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ [البقرة:٣٢]، واعترفت بالكمال الذي غاب عنها هذا.
وقد قال تعالى لها: إنه خليفة، فكيف بها لو لم يقل لها ذلك، فلم يكن ذلك إلا لبطونه على الملائكة.

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٩٩)، ومسلم (٤/٢٠١٧).

الكمال اللائقة بالرجال، والثاني: كسبي؛ وهو الإنفاق من المال، إذ لا شك أنالمتفق عليه يكون من عيال المتفق وجزئياته، والجزء: إنما يقوم بالكل، فالكل قائم عليه قيام آدم على الضلع اليسرى، ثم على حواء؛ لأن حواء كانت ضلعًا من أضلاع آدم، ولمَّا سوَّاها الله تعالى حواء تسوية النجار الخشب لم يكن هناك إلا تبدُّل الصورة، فكان آدم قائمًا عليها على كل حال.

ألا ترى أن الروح بمنـــزلة الزوج، والنفس منـــزلة الزوجة، والقوى الخارجة والداخلة بمنـــزلة الأولاد، والقائم عليها هو الروح دائمًا، إذ لو فارق الجسد؛ لتعطلت وبطلت جميعًا، فهو المنفق عليها، والمقيض، وأيضًا إنها بمنـــزلة الأموال الميل الروح إليه في أوائل حاله، ثم إن ينفقها أيضًا: أي كما ينفق عليها، فيغني عن الكل، ويبقى حقائقها مندرجة في مرتبة الروح، فكما أن الروح هو قيُّوم الوجود الأنفسي؛ فكذا الرجل الكامل هو قيُّوم الوجود الآفاقي، والكل كأنه من أجزائه، ولكمال الرتبة في الرجل؛ كانت مريم عليها السلام مع كونها صديقة تصوم يومين، وتفطر يومًا واحدًا بخلاف داود عليه السلام فإنه كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا.

وبهذا ظهر إن مرتبة الخلافة إنما هي للرجال، وكذا النبوة العرفية، فإن باب النبوة التحقيقية مفتوح للرجال، والنساء جميعًا، وكذا بقوله ﷺ: «**خذوا ثلثي دينكم من عائشة**»[1].

حيث لم يقل: كمال دينكم؛ لأن كمال الدين إنما هو للرجال، وأمَّا النساء فناقصات العقل والدين، وكانت مرتبتهن الثلاث من الدين لكن لمَّا كانت عائشة رضي الله عنها من سائر النساء بمنـــزلة الذكر من الأنثى؛ كان لها مثل حظ الانثيين.

فإن قلت: إن النبي ﷺ شهد بكمال أربع من النساء: مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة رضي الله عنهن، وأيضًا إن قوله: ﴿**وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ**﴾ [الأحزاب:٧٢] يقتضي أن تدخل النساء في حمل الأمانة الكبرى، قلت: المراد بالكمال المذكور هو: الكمال الإضافي، فهن لا كمال فوق كمالهن بالنسبة إلى سائر النساء.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٢٦٥).

ولذا كانت كل واحدة منهن من متعلّقات النبي الأكمل الذي هو نبينا ﷺ؛ لأن فاطمة رضي الله عنها بضعة منه، وخديجة رضي الله عنها زوجته في الدنيا والآخرة، ومريم وآسية رضي الله عنهما زوجتاه في الآخرة على ما شهدت به الأخبار،؛ ولهذا قال ﷺ: «**أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة**»[1]؛ فكانت فاطمة من أمهات المؤمنين إلى يوم القيامة فاعرف الإشارة.

وأمَّا المراد بالإنسان فهو: آدم عليه السلام أصالة؛ لأنه هو الذي حمل الأمانة الكبرى أولاً، وأخذ الفيض من الله تعالى بلا واسطة، وقد سبق إن حواء كانت ضلع من أضلاعه؛ فكان حملها تابعًا لحمله.

والحاصل أن آدم هو الحمَّال معنى، وأمَّا حواء فهي الحاملة صورة؛ ولذا لم تزل النساء حوامل الرجال؛ فهن المحمول فيهن في الحقيقة لا الحوامل، فتفطن لذلك فظهر أن الإنسان المطلق هم الرجال، وأمَّا النساء فمن لواحقه وتوابعه وأجزائه؛ كالملائكة والجن وغيرهم.

ثم إن هذا بيان المراتب كل من الفريقين، وإياك وسوء الفهم، فكل أهل كمال من أهل الجمال مطلقًا، كما أن كل أهل نقصان من أهل الجلال مطلقًا.

ثم اعلم أن النساء أمهات، والأزواج آباء، فقد يكون الولد خيرًا منها نظيره في الأفاق هو النبي ﷺ؛ لأنه خير من آدم وحواء ومن سائرهما جميعًا؛ لتحققه بالجمعية الكبرى، وظهوره بالمرتبة العليا، ولا حاجة إلى بيانه في هذا المحل، فالتقدُّم والتأخُّر لا يمشيان في هذا الباب.

وإنما يجري الظهور بالخلافة العظمى، ونظيره في الأنفس هو القلب؛ فإنه خير من الروح في نهاية سلوكه، وإن كان الروح خيرًا منه في البداية؛ فالقلب هو خليفة الله في أرض الوجود الأنفسي، أو بكماله الحقيقي صار مَن صار خليفة في أرض الوجود الآفاقي أيضًا؛ بمعنى أنه كان مدادًا لبقاء العوالم بصورتها ومعناها بخلاف الملوك والسلاطين؛ فإن قطبيتهم إنما هي لصورة العالم إلا أن يكونوا من الخلفاء؛

---

(١) لم أقف عليه.

كالخلفاء الاثنى عشر الذين أخرجهم المهدي المنتظر ﷺ، فالخلفاء ذو الظل، والملوك الظل.

ولذا قال ﷺ: «**السلطان ظل الله**»[١]: أي ظل الحقيقة الإلهية؛ كالصورة المرئية في المرء، ولا شك أنالظل تابع لذي الظل، ومن ثم لم يفلح من السلاطين أحد إلا مَن بايع الخليفة فهم المبايعون فاعرف[٢].

ثم قد يكون النساء من الأقوياء؛ ولكن قوتهن لا تقتضي الخلافة؛ وإنما يقتضيها الضعف، أمَّا الأول: فلأن درجة الأنوثة، وإن كانت نصف الحقيقة في الظاهر؛ لكن قوة الأنوثة قوة مرتبة الجلال.

ولمَّا كان الجلال أغلب وأقهر قال تعالى: ﴿**وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلآئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾ [التحريم:٤]؛ حيث قابل مظاهرة عائشة وحفصة بمظاهرة هؤلاء؛ ولكن هي في الحقيقة مظاهرة الجلال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وقال الشيخ الأكبر في هذا المعنى ﷺ في الباب الرابع والستين وثلاثمائة في معرفة منـــزل السرَّين: لِمَ سمِّي هذا المنـــزل منـــزل السرَّين؟ وهو سرٌّ عجيب أن الشيء الواحد تثنيةُ نفسه لا غيره في المحسوس والمعقول، فأمَّا في المعقول فآدم ثنَّاه ما فتح من ضلعه القصير من صورة حواء، فكان واحد في عينه فثنَّاه نفسه وصار زوجًا، وليست سوى نفسه التي بها قيل فيه: إنه واحدٌ.

وأمَّا في المعقول فالألوهية ليست غير ذاته، ومعقول الألوهية خلاف معقول كونه ذاتًا، فثنَّت الألوهية ذات الحق تعالى وليست سوى عينها فكانت في الحس من آدم ومَنْ ثنَّاه مِنْ ذاته رجالاً ونساءًا على صورة الزوجين.

كذلك بثَّ من ذات الحق وكونه إلهاً للعالم على صورة هذين المعقولين صور كثيرة، أسماء مؤثرة وأسماء متأثرة ذكورًا وإناثًا، فالعالم لِتوالُدِ أجزائه على صور مؤثِّر ومؤثَّر فيه فاعل ومنفعل، كما جرى في المحسوس فإن الله تعالى ما خلق من آدم وحواء عليهما السلام أرضًا وسماءًا، بل ما خلق منهما الأمثال في الصورة والحكم؛ لأن الأصل واحدٌ وما ثنَّاه سوى نفسه ولا ظهرت كثْرَةً إلا من عينه الواحدة، فكان له كل شيء من العالم يدل على أنه واحد؛ فإن الوجود بثَّ منه صورًا كثيرةً، وهي نسب أحكام الأعيان واستعدادات الممكنات في عين الوجود الواحد، والنِّسب هي صورة الحقائق الأسمائيَّة الفاعليَّة التي كثُرت من نكاحاتها المعنوية في الحقائق الكونية، وكثُرت منها صور النِّسب الواقعة بلفظ النَّسب بفتحتين، وهو مشتق من النِّسبة، فافهم.

بالجمال، كما لا يخفى على أولي الألباب.

فإن الهُويَّة، والروح، والقوى الروحانية الجمالية لا شدة فيها؛ وإنما الشدة في الصفات النفسانية، ولا شك أن آدم بمنـــزلة الذات، وحواء بمنـــزلة الصفات؛ فهو منها بمنـــزلة النور من النار، وأين النور من النار في الشدة؟ فالنساء مظاهر الصفات الجمالية في الصورة، ومظاهر الصفات الجلالية في المعنى؛ ولذا كن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام.

وأمَّا الثاني: فإن المراد بالضعف هو الضعف الروحاني الذي به ينكسر سورة الصفات الإنسانية، ويستعذبه الإنسان للخلافة كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨].

وقد سبق أن المراد بالإنسان هو آدم أصالة، وحواء تبعية.

فإن قلت: فقد اندرجت حواء في الضعف، فهي ضعيفة.

قلت: قد يكون بعض القوى قوية، كما أُشير إليه آنفًا؛ فحواء من هذا القبيل.

والحاصل أن العلويين علويون صورة، وسفليون معنى، وإن السفليين سفليون صورة، وعلويون معنى؛ كالتراب فإنه أعلى الحقائق؛ ولذا أُخذ آدم منه؛ فكان أعلى فيه صورة الكل، وإن حواء أُخذت من الأعلى؛ لكن لَمَّا كنت من الضلع القصير قصرت درجتها عن درجة آدم في الحقيقة، وحكمت عليه في الظاهر؛ لأن الضلع قوة متينة، وكان انحناء آدم وحنوه أشد من انحناء حواء حنوها في الصورة، وبالعكس في المعنى، والله أعلم بالحقائق والعلوم، ومنه جلاء كل معقول ومعلوم.

في سورة النساء: قال جلَّ جلاله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

المراد بالجلود هي الأبدان عبَّر عنها بها من حيث إن الآثار إنما تشاهد على ظواهر الجلود والبشرة، ولم يقل: لتذوق العذاب على أن يعود الضمير إلى الجلود؛ لأن الذائق في الحقيقة هي النفس الحيوانية بواسطة الجلود.

نعم إن النفس الحيوانية، والجلود في حكم واحد من حيث سريانها في الجلود والأبدان؛ سريان الجمر في الفحم، وماء الورد في ورق الورد؛ لأن مرادنا بالنفس الحيواني غير النفس الناطقة المعبَّر عنها بلسان الشرع الروح الأمري، والإضافي،

والإنساني، والسلطاني والمفارق؛ لأنها غير سارية في الأبدان؛ بل لها تعلُّق بها تعلُّق التدبير والتصرف إذا انقطع ذلك التعلق، وفارق البدن؛ انقطع تعلق النفس الحيوانية أيضًا، وبانقطاعه يقع الموت على الجسد؛ ولهذا لو قُطِّع إربًا إربًا؛ لم يحس الألم.

وإن كان الروح الإنساني لا يخلو عن أذى من حيث أذى جسده وعناصره إذا عرفت هذا عرفان المدرك للعذاب هو الروح الحيواني مع البدن لا الروح الإنساني، إذ مبدأ الحس والحركة؛ إنما هو الروح الأول، فيضاف العذاب، والألم، والثواب، واللذة إليه لا إلى الروح الثاني، حتى أن الروح الثاني من عصاة المؤمنين يبقى عند باب جهنم.

فإذا تمت مدة العذاب، وخرج المعذَّب من النار؛ تعلَّق به، واستصحبه في الجنان أبد الآباد، وإنما لم يكن هو معذَّبًا؛ لأنه مضاف إلى الله تعالى، وله تشريف عظيم من هذه الجهة بخلاف الروح الحيواني؛ لأنه من مضافات الماهية الإمكانية في الحقيقة، ومن شأن هذه الماهية الظلمة، كما أن جهنم أيضًا مظلمة، فلا يليق بالمظلم إلا المظلم.

نعم إن الروح الإنساني لَمَّا كان هبوطه إلى البدن؛ لتكميل النشأة، وتعينه فيه تعينًا إطلاقيًا لم يزل من نعيم روحاني، أو عذاب روحاني من الجملة، كما يقتضيه حكم الاتصال بالبدن؛ لأن البدن مضاف إلى الروح الحيواني، وهو مضاف إلى الروح الإنساني، فمضاف المضاف مضاف.

هكذا فهم أهل الله في هذا المقام، وإن كان لا يساعدهم أرباب الظواهر في ذلك؛ لأن المعذَّب عندهم هو الروح الإنساني؛ إذ لا يعتبرون الروح الحيواني اعتبارًا حقيقيًا، ثم أن الكلية المفهومة من قوله: **كلها أبدية لا انقطاع لها**؛ لكن في هذا المقام كلام لا يفهمه إلا مَن فهم معنى أحقابًا في سورة النبأ.

فإياك وسوء الظن بالأكابر؛ فإن علومهم حقيقية مستفادة من علم الله تعالى بلا واسطة، فهم الآخذون عن الله تعالى أخذًا بلا سهو، ولا غلط، إذ لا يحتمل مقام الحضور والمشاهدة ذلك فقول مَن قال: إن جهنم تبقى خالية عن أهلها؛ ليس على ظاهره إذ لا تبقى جهنم خالية عن أهلها أبدًا لا عند أهل الظاهر، ولا عند أهل الحقائق، فنحو فرعون وهامان، ونمرود، مخلَّدون.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [النساء:٥٩].

أي: إيمانًا شهوديًا عيانيًا بعد ما آمنوا به تعالى إيمانًا رسميًا بيانيًا، قال ﷻ: **﴿أَطِيعُواْ اللّهَ﴾** من حيث أُلوهيته لا من حيث ذاته البحت، فإن ذاته البحت لا تقتضي الإطاعة واللا إطاعة، ومنه يعلم سر الأُلوهية ارتباط بين الإله والمألوه لو زال؛ لزالت الإضافات كلها، وإلى هذا أشار مَن قلَّ، فلولاه

ولولانا لما كان الذي كانَ

ومَن قال أيضًا: إن الربوبية سر لو ظهر؛ لبطلت الربوبية.

قال ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ أي: من حيث رسالته، فإن ذاته أيضًا لا تقتضي شيئًا من الإطاعة، وعدم الإطاعة، فكما أن الارتباط بين الرب والعبد إنما هو بالأُلوهية التي هي كالسلطنة الظاهرة؛ فكذا الارتباط بين الرسول والأمة إنما هو بالرسالة التي هي كالوزارة الباهرة، ولذا يلي مقام الخلافة مقام المستخلف؛ لأن أحكام الربوبية إنما تجري بعد ظهور حكم السلطنة الحقيقية التي هي الأُلوهية[1].

---

(١) قال ابن ناصر الكيلاني: أشار إلى امتثال قوله تعالى: **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾** [النساء:٥٩] وهم الأقطاب والخلفاء والولاة منَّا ولهم الأمر فيما هو مباحٌ لهم ولنا، فإذا أمرونا بالمباح وأطعناهم في ذلك أجرنا في ذلك أجر مَنْ أطاع الله فيما أوجبه عليه، وذلك لأنه إذا أمر الإمام المفترض الطاعة بأمر مباح وجبت إطاعته، وارتفع حكم الإباحة، فافهم لتعلم ما منـــزلة الخلافة والإمامة وما أثمرت هذه المرتبة.

فكأنه قال ﷺ: السمع والطاعة للمتحقق بأحدية الجمع، والمتنـــزِّل إلى مرتبة الفرق بالرسالة، والمتلبِّس بخلعة الخلافة والنيابة آمرًا وناهيًا من نبي الله، وأطعته بالانقياد له مع تحقيقي بمرتبة الجمع لتحقيقي بجمع الجمع، فافهم.

وإنما أظهر ﷺ اللام في الرسول؛ ليفصل بين الحق والخلق بإعادة حروف الجر ولم يجمع بين الله والرسول فيه إشارة إلى بُعد الحقائق الخفيَّة والخلقيَّة.

ورد في الخبر الصحيح أنه ﷺ قال لخطيب: «**بئس الخطيب أنت**» لما سمعه قد جمع بين الله تعالى ورسوله في ضمير واحد لا يوحي من الله تعالى ومن يعصمها، وفي قول الرسول ﷺ كفاية لمن أنار الله بصيرته. أما ترى عدم إظهار اللام في قوله ﷺ: وأولي الأمر منَّا بلا إعادة لقرب المناسبة والدلالة على أنهم منه ﷺ. قال الله تعالى: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾** [التوبة:١٢٨].

فمن شدة الملابسة حذف اللام في "ثاني، ولبعد المناسبة أثبت في الأول؛ ليكون أدل على الفصل فافهم.

ولذا قال (رب العالمين) بعدما قال: (الحمد لله) وأعاد الإطاعة فصلاً لَمن ليس له مثل؛ وهو الحق عمَّن له مثل؛ وهو الحق، وإن كان الخليفة مثل المستخلف في الظهور؛ ولكن أين الحدوث والإمكان من القدم؟

والوجوب أيضًا: إشارة إلى أن طاعة الرسول إطاعة مستقلة؛ لأن للخليفة الأمر والنهي من عند نفسه؛ لفنائه في المستخلف، وبقائه به دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾ [النجم:٣]: أي لأنه ليس فيه الهوى أصلاً؛ بل فيه الحق والهدى قطعًا؛ فالحق لا يقول إلا الحق، ولَمَّا إن الله تعالى أقام الرسول مقام نفسه؛ أقام الرسول أيضًا خلفاء أمته مقام نفسه، كما قال: «**عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي**»[(١)].

وكما قال: «**رضيت لأمتي ما رضي ابن آدم عبد الله بن مسعود** ﷺ»[(٢)].

وفوق هذا ما قال: «**ما رآه المؤمنون حسنًا؛ فهو عند الله حسن**»[(٣)].

فتدبَّر قوله ﷻ: ﴿**وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء:٥٩]؛ وهو العلماء السادة، والمشايخ القادة؛ لأنهم أمراء الأمة قرنًا بعد قرن، فمَن نصَّبه الرسول؛ فهو أمير الرسول، ومَن نصَّبه الأمة بعده؛ فهو أمير المؤمنين، فللمؤمنين حكم التنصب كما للرسول؛ لأنهم مظاهر الأسماء العامة، فلهم السلطنة العظمى من حيث جمعيتهم؛ ولذا كان نصب السلطان يبدأ الرعية، وإن كان الحاكم عليهم هو السلطان، وهذا من الغيقر الإلهية.

ومن هذا الباب: إن الرسول ينال مقام الوسيلة بدعاء الأمة، وإن كان كمالات الأمة كلها بشفاعة الرسول، وعطف أولي الأمر على الرسول من غير إعادة لفظ الإطاعة؛ إشارة إلى أن إطاعة الرسول، وإطاعة أولي الأمر إطاعة واحدة إذ ليس لهم التشريع أبدًا؛ وإنما لهم الإجماع على الحق، والتصرُّف في المباحات التي لا يحكم الشرع فيها بالثواب والعقاب، فإذا أحكموا بالعمل بمباح من المباحات؛ كان ذلك

---

(١) رواه الترمذي (٥/٤٤).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/٣٥٩).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٩/١١٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥/٤٥٢).

واجبًا؛ لأن الشارع أنزلهم منـــزلة تشبيه في الجملة.

ومن هذا يعلم أن الإلزام إن كان عامًا؛ فالعمل عام، وإلا فهو خاص؛ كالنوافل التي عينها **السلطان محمد الفاتح من السلاطين العثمانية**[1]، ومَن يليه من أولاده؛ لأنْ يصلِّيها الأئمة في جوامعهم، فإنه يجب على الأئمة أن يصلوها بالجماعة في الليالي المعينة، وعلى مَن يقتدي بهم أيضًا في تلك الجوامع، ومَن خرج بعد ما دخل الجامع على عزم الاقتداء مطلقًا، فقد راد وقلَّ مَن فهم هذا المقام من أهل الكشوف فضلاً عن أهل الرسوم.

فإن الإلزام إيجاب على مَن يلتزم، وكذا شروع الملتزم إيجاب على نفسه إلا أنه فرَّق بين الشروع في نفس الفعل، وبين الشروع في شيء من مبادئه، وذلك بالنسة إلى العوام، قال الخواص: أهل العهد والحفاظ مجرد التعلُّق بشيء من المبادئ؛ كالنية، ودخول، والحضور فيما بين أهل العهد وغير ذلك فاعرف.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [النساء:٥٩].

: أي إلى كتابه.

وقوله ﷻ: ﴿وَالرَّسُولِ﴾ [الآية:٥٩].

: أي إلى سنته، وذلك بواسطة الأمراء فإنهم الواقفون على المنصوص عليه منهما.

كما قال تعالى: **﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾** [النحل:٤٣].

فإن وجدوا المنصوص عليه منهما؛ أرشدوكم إليه، وإلا قاسوا بالمنصوص عليه، فإن ذلك أيضًا هو الحكم عند الله، وعند الرسول.

فالمنصوص عليه من الكتاب والسنة: إمَّا: حقيقي صريح، وإمَّا: حُكمي ليس بصريح.

فما كان غير مصرَّح؛ فهو في حكم المصرَّح إذا اشتركا في العلة، فظهر أن الصريح مقدم على غير الصريح؛ ولذا لم يُخبر أن يقول: المسئول عن المسألة هذا

(١) انظر: فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح لعلي الصلابي، وفتح القسطنطينية لمحمد مصطفى، ومحمد صفوت، ومحمد الفاتح الرشيدي، ولعبد السلام فهمي.

رأيي إذا كان النص حاضرًا.

وإن كان ضعيفًا أو ممكنًا إحضاره بالتفتيش، والسؤال من أهل الذِّكر؛ فإن الرأي مضاف إلى العقل والنص إلى الشارع، وليس للعقل الاستبداد بالرأي، وإلا لمَّا جاء الشرع بمخالفة العقول، وموافقة الحكم، ودخل في هذا الخطاب من حيث الإشارة القوى الروحانية؛ فله إطاعة السر من حيث الحقائق، وإطاعة الروح من حيث المعارف، وإطاعة القلب من حيث الواردات، فلو وقع الاشتباه والالتباس في بعض الأحوال؛ فله نظير البتة في أحوال الكُمَّل فيقاس عليه.

ولذا ورد: «**استفت قلبك**»[1]، فإنه كما أن علم الفتوى لا يعرفه كل واحد من الناس؛ بل لا بد فيه من المراجعة إلى الخواص، فكذا علم الحال لا يعرفه كل واحدة من القوى؛ بل لا بد فيه من المراجعة إلى القلب السليم من آفات الجهل، وسائر الزوائل، والتعلُّق بالموافقات الطبيعية، فإن مثل هذا القلب يدرك حقيقة الحال، فيراجع إلى أهله في المهمات الباطنة، ومن هنا يظهر أن ليس للعارف إلا إظهار ما في نفس الأمر لا إحداث شيء لا يقتضيه المقام.

فإن الله تعالى قد أكمل الدين اليوم بظاهره وباطنه، فمَن لا يرجع في أمره إلى الكتاب والسنة؛ فأمره ردٌّ وإن كان مشحونًا بالحقائق، فإذا عرفت هذا عرفت إن القرآن والحديث لم يتركا شيئًا إلا وقد نصَّا عليه، أو أشارا إليه، فأين تذهبون أيها الضالون المكذِّبون؟ فاحذروا أن تكون بطونكم مملؤة من الزَّقُّوم، وصديد أهل الجحيم بدل النعيم وشراب النسيم، قال تعالى: ﴿**إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾: أي رُدُّوه إلى ما ذكر، إن كنتم تؤمنون بالله أمركم بطاعته، واليوم الآخرة الذي حكم برجوعكم إليهم، فهذا هو حكم المبدأ، والمعاد، ومَن لم يلتزم؛ بقي حائرًا يوم التناد.

وذلك الردُّ خير لكم من عدم الردِّ؛ بل لا خير في عدم الردِّ أصلاً، وأحسن تأويلاً من تأويلكم، فإن تأويلكم بلا ردٍّ، وتأويل عقلي فاسد، وتأويلكم بالردِّ تأويل شرعي صحيح، فخذوا بما أمر الله، وانتهوا عمَّا نهى الله.

---

(١) رواه أحمد (٤/٢٢٨)، والدارمي (٢/٣٢٠).

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] فطريق العقل موصول إلى الهلاك، وطريق الشرع موصول إلى النجاة، جعلنا الله وإياكم من أهل النجاة ظاهرًا وباطنًا، ومن أهل العافية أولاً وآخرًا[1].

---

(١) قال سيدي مصطفى البكري: وقال الشيخ ﷺ في شرح اليوسفية عند قول المؤلف: فالزم الباب، ولا تخل بشيءٍ من آداب الشرع أصلاً، فإن أخللت بشيءٍ من الآداب أنت أو غيرك كانت العقوبة إليك سريعة، فالزمْ حلقة الباب، وزنْ حركاتك بميزان الشرع.

يقول لك في وصيته بلزوم الباب وحلقته ما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦]، وهو من حلقة الباب، وذلك هو الإيمان، والباب الإسلام، وبالباب وحلقته تكون السعادة للعبد، وإنما قيد الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

فإنه يقول في حق قوم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [العنكبوت:٥٢] فسمَّاهم مؤمنين، كما قال: ﴿يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [البقرة:٢٥٦] فسمَّاهم كافرين، كما سمى الكافر بالله كافرًا، فلما وقع الاشتراك في الاسم لذلك قيد بيانًا لغاية الإطلاق.

واعلم أن الآداب جماع الخير، والشرع ما شرع الله، ففي الشرع جماع الخير، فإن الطريق إليه لا يُعرف إلا منه، فإنه ليس لمخلوقٍ أن يحكم فيما يقرب إلى الله إلا بروائح مكارم الأخلاق، فإن الصورة الإلهية تعطي ذلك، ولهذا يجني ثمرتها المؤمن صاحب الجنة والمخلد في النار لا بدَّ من ذلك، ولما كان الأمر كما قلنا لذلك أمرك بالآداب الشرعية؛ لتكون بها في الدار المسمَّاة جنة.

وأما صورة الوزن بين الحكم المشروع وبين أفعال المكلفين، فالعلم بذلك موقوفٌ على العلم بالشرع، والشرع على قسمين:

ثابتٌ يناقضه شرع ثابت، وهو ما وقع فيه الاختلاف بين المجتهدين.

وشرعٌ جامعٌ وهو ما أجمعوا عليه، فالإنسان يحتاط أبدًا، ولا يزال أبدًا يميل إلى ما وقع فيه الإجماع، كالقصر في الصلاة للمسافر، والفطر للمسافر في رمضان، ودخول مكة لمن لا هدي معه بعجزه دون حج، وترك نكاح الربيبة التي ليست في الحجر، وترك شرب النبيذ وأمثال ذلك، وهذا هو طريق العزائم، فأمرك ألا تجنح إلى تأويلٍ مع قدرتك على مثل هذا: أي لا يكون في عملٍ مشروعٍ ينقضه عليه شرع آخر والشارع واحد، وأكثر من هذه النصيحة من هذا الرجل في مثل هذا الأمر لا يكون، والله أعلم.

قال ﷺ في رسالة القربة: «فالله الله. لا تنبذوا حكمًا ولا تعدوا حدًّا من الحدود المعلومة عند علماء الرسوم، وإن اختلفوا في ذلك وحرَّم الواحد عين ما حلله الآخر فلا تقلد هذا الرسمي في شيءٍ من =

=

ذلك ولا تخالفه، واعمل بما توجه عليك في وقتك مما فيه سلامتك، واشتغل بنفسك شغلاً كليًّا، واهرب إلى محل إجماعهم، فإن لم تجد إجماعًا فكن مع أكثرهم، فإن لم تجد كثرة فكن مع أصحاب الحديث في تلك المسألة المطلوبة، وقلَّ أن يحتاج أهل الطريق إلى مثل هذا؛ لأنهم زهدوا في الدنيا فقلَّ الحكم عليهم».

أخبرني شيخنا الشيخ محمد الخليلي حفظه الله تعالى قال: كنت أعمل على مراعاة المذاهب، وأتبع محل الإجماع منها فأعمل به، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله، هل العمل بالمتفق عليه من شريعتك أولى أو المختلف فيه؟ قال: فانتهرني وقال: «لا تسأل».

ففهمت منه أنه لم يرضَ بهذا السؤال، ثم أُلهمت فقلت له: قد فهمت مرادك يا رسول الله، المتفق عليه من شريعتك، والمختلف فيه من شريعتك، والكل من عند الله، قال: هكذا قل...

وما ضلوا به وأضلوا هؤلاء اللئام قولهم: إن الشريعة جعلها الله ستارة على الحقيقة لأجل العوام، وليس المراد من الصلاة إلا الوصلة، والصيام يُراد به الإمساك عن رؤية السوى، والحج: القصد إلى الله، وعرفات يُراد به جبل المعرفة، واستدلوا على ذلك بعبارات العارفين، وهم إنما أرادوا ذكر المعنى الباطني، فإن كل شيءٍ له ظاهر وباطن، فالمتمسك بالظاهر من النصوص فرقة ضالة يُقال لها: «الظاهرية»، والمتمسك بباطنها فرقة أخرى ضالة يُقال لها: «الباطنية».

والجامع بين الظاهر والباطن هم أهل السُّنة والجماعة، الذين فرقتهم لكل خيرٍ جامعة، وكُمَّل هذه الطائفة هم الصوفية الأبرار والسادة الأخيار، فإذا سمعوا قوله ﷺ:

«إنَّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلبٌ ولا صورةٌ».

أخرجوا من بيوتهم الكلاب والصور عملاً بظاهر الحديث، وفهموا من إشارته أن المراد بالبيت القلب، وبالكلب الحقد، وبالصورة تصور الغير، فبادروا لطهارة القلب منهما، عملاً بإشارة النص، والإشارة لا تعارض ظاهر العبارة، وليس مرادهم بهذه الخزعبلات إلا مجرد الاحتيال على إسقاط التكاليف الشرعية، وإبطال شعائر الملة المرعية.

قال الإمام العارف السهروردي في «عوارف المعارف»: «ومن أولئك: أي المنتمين للصوفية وليس منهم قوم يغرقون في بحار التوحيد، ويسقطون ولا يثبتون، لنفوسهم حركةً وفعلاً، ويزعمون أنهم مجبورون على الأشياء، وألا فعل لهم مع الله تعالى، ويسترسلون في المعاصي، وكلما تدعو النفس إليه، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة، والاغترار بالله، والخروج عن الملة، وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام.

وقد سُئل سهل عن رجلٍ يقول: أنا كالباب لا أتحرك إلا إذا حُرِّكت، قال: هذا لا يقوله إلا أحد رجلين: إما صديق، أو زنديق؛ لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع

=

=

أحكام الأصول، ورعاية حدود العبودية، والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله، وإسقاطًا للأئمة عن نفسه، وانخلاعًا عن الدين ورسمه، فأما من كان معتقدًا للحلال والحرام والحدود والأحكام، معترفًا بالمعصية إذا صدرت منه، معتقدًا وجوب التوبة منها، فهو سليمٌ صحيحٌ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة، ويستروح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد في البلاد، متوصلاً إلى تناول اللذائذ والشهوات، غير متمسكٍ بشيخٍ يؤدبه ويهذبه ويبصره بعيب ما هو فيه».

واعلم يا أخي سلك الله بي وبك سبيل التحقيق الموصل إلى أقوم منهج، وأعدل طريق، أن القول بأن ظواهر الأحكام المشروعة للأنام خاصة بالعوام، منابذة للدين وخروج عن الشرع المتين، ويلزم عليه أن طريق الخواص ليس فيه شيء من أعمال البر الظاهرة، وإنما هو على دعواهم أعمال باطنة باهرة.

وهذا القول يناقضه حال أكمل الأنام، وقيامه حتى تورَّمت قدماه من طول القيام، ومكابدة الأصحاب، ومجاهدة الأحباب بما ليس في وسعنا الإتيان ببعض ذلك، وإقرارهم بالقصور والعجز عن الوفاء بحقوق السيد المالك، وما سمع منهم ولا نقل عنهم ما يقول به هؤلاء الأنذال، مع أنهم في الحضيض الأسفل عن منازل أولئك الأبدال.

وهذا القول ألجأهم إلى تمييز الشريعة عن الحقيقة، ودعوى انفصالهما ليجيبوا إذا سُئلوا عن مخالفاتهم، التي هي بالذم حقيقة أن هذه الأمور من خلف ستور الحقيقة، مع أن كُمَّل العارفين لم يفرقوا بينهما إلا بقصد التعريف، فكلما صلح تعريفًا للحقيقة صلح أن يكون للشريعة والطريقة، فإن الحقيقة شريعة والطريقة كذلك، وقد رأيت في بعض الرسائل حديثًا مرفوعًا وهو: «**الشريعة مقالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة حالي**».

وعلى تقدير صحته فالشريعة: البيان، وهو بالمقال وما ينطق عن الهوى وبالأفعال، وهو أبلغ فاتبعون يحببكم الله، والحال ما ينتجه البيان فعاد الأمر إليه.

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في كتاب «التراجم» في باب ترجمة الشريعة والحقيقة: لطيفة: يخيل لمن لا يعرف أن الشريعة تخالف الحقيقة، هيهات بل الشريعة عين الحقيقة، وأن الشريعة جسمٌ وروحٌ، فجسمها الأحكام وروحها الحقيقة، فما ثم إلا شرع لطيفة، الشريعة: وضعٌ موضوعٌ وضعه الحق في عباده، فمنه مسموع وغير مسموع، فلهذا من الأنبياء متبوع وغير متبوع، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [الأنفال:٢١]، كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

وقال في فتوحاته في باب الشريعة: الشريعة من جملة الحقائق، فهي حقيقة لكن تُسمَّى شريعة، وهي حقٌّ كلها، والحاكم بها حاكمٌ بحقٍّ مثاب عند الله؛ لأنه حكم بما كلف أن يحكم به، وإن كان المحكوم له على باطلٍ، والمحكوم عليه على حقٍّ، فهل هو عند الله كما هو في الحكم، أو كما هو

=

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤].

=

في نفس الأمر؟ فمنا من يرى أنه عند الله كما هو في نفس الأمر، ومنا من يرى أنه عند الله كما هو في الحكم.

ثم قال بعد كلام طويل: فعين الشريعة عين الحقيقة، والشريعة حقٌّ كلها، ولكل حقٍّ حقيقة، فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما ينـــزل في الشهود منـــزلة شهود عينها في باطن الأمر، فيكون في ذلك الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد، حتى إذا كشف الغطاء لم يختل الأمر على الباطن.

ثم قال: فما ثمَّ حقيقة تخالف الشريعة؛ لأن الشريعة من جملة الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه، والشرع ينفي ويثبت، فتقول: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهذا قول الحقيقة بعينه، فالشريعة هي الحقيقة.

وأطال في ذلك. وقال فيها أيضًا: ومن جملة آداب الحق ما نزلت به الشرائع.

وقال: لما كان الأمر العظيم يجهل قدره ولا يعلم، ويعز الوصول إليه، تنـــزلت الشرائع بآداب التوصل؛ ليقبلها أولوا الألباب؛ لأن الشريعة لُب العقل والحقيقة لُب الشريعة، فهي كالدهن في اللب الذي يحفظ القشر، فاللب يحفظ الدهن والقشر يحفظ اللب، كذلك العقل يحفظ الشريعة والشريعة تحفظ الحقيقة، فمن ادَّعى شرعًا بغير عقلٍ لم تصح دعواه، فإن الله تعالى ما كلف إلا من استحكم علقه، ما كلف مجنونًا ولا صبيًّا ولا من خرفٍ، ومن ادَّعى حقيقة من غير شريعة فدعواه لا تصح.

ولهذا قال الجنيد: «علمنا هذا يعني علم الحقائق الذي نجا به أهل الله مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة»: أي أنه لا يحصل إلا لمن عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الشريعة، وقال: «إن الله أدبني فأحسن أدبي، وما هو إلا شرع له، فمن تشرَّع تأدَّب، ومن تأدَّب وصل».

وقال سيدي عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى في نشر المحاسن:

اعلم أن الشريعة الشريفة المنيفة مشتملة على قسمين: علم وعمل، ثم العلم من حيث الجملة على قسمين: ظاهر وباطن.

والظاهر على قسمين: شرعي وغير شرعي.

والشرعي على قسمين: فرض ومندوب.

والفرض على قسمين: فرض عين وفرض كفاية.

وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم صفات القلب، وعلم أصل، وعلم فرع.. وانظر: السيوف الحداد (ص٥٠) بتحقيقنا.

لم يكتفِ بقوله: (فاستغفروا الله) بل ضم إليه قوله: (واستغفر لهم الرسول)[1]؛ لأن الظالم لنفسه كما أنه هاتك لحرمة الله في شريعته؛ فكذا هو هاتك لحرمة رسول الله في حقيقته إذ ليس موجود من الموجودات إلا وفيه شعاع من أشعة ذاته ﷺ، والظلم بظلمته يهين ذلك الشعاع، ويصير سببًا لاستتاره، وانمحاقه؛ فيصل أثر ذلك الظلم المظلم إلى الحبيب المنوَّر بنور العظمة، والجلال، والجمال، والكمال؛ فيكون الظالم مسيئًا في حق الله تعالى، وفي حق الرسول.

فإذا تاب إلى الله تعالى؛ لزم عليه أن يتوسل إلى القبول بشفاعة الرسول؛ لأنه الواسطة بين الله تعالى وبين عباده، وهذا التوسل باقٍ الآن، وإلى قيام الساعة لا يختصُّ به زمان حياه ﷺ، وإن كان يظنه بعض القاصرين؛ لأن حيٌّ الآن بحياة لائقة بمقامه العالي؛ ولذا ندب إلى زيارة روضته، وعلى تقدير الفوت بحسب الموانع، وفقدان الشرائط والأسباب؛ لزم المراجعة إلى وارث مَن ورثته للتوبة والإنابة.

فإن الذين يبايعون الرسول؛ فإنما يبايعون الله، وإن الذين يبايعون وارث الرسول؛ فإنما يبايعون الرسول بوساطة ذلك الوارث، والله تعالى بوساطة الرسول، فالمبايع في الحقيقة هو الله تعالى على أيدي الوسائط.

ويدلُّ على ما ذكرنا: من أنه لا بد من استغفار الرسول إلى قيام الساعة، ولا يختصُّ به زمان دون زمان ما قال ﷺ:

«حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم، قالوا: هذا خيرنا في حياتك، فما خيرنا في مماتك؟ قال: تُعرض عليّ أعمالكم كل عشية الإثنين والخميس، فما كان من

---

(١) قلت: فكان في تسميته نبي التوبة من المعاني والأسرار، والإشارة إلى مقامه عند مولاه في هذه الدار وفي تلك الدار، ما شهدت به الآثار وصحيح الأخبار.

ووجهٌ آخر: وذلك أن الأمم السالفة كانت إذا أذنبت لا يزول ذنبها إلا بأمور شاقة على النفوس، وشرع فيه كُلفةٌ من الملك القدُّوس، فسهَّل الله منَّةً منه سبحانه على هذه الأمة زوال ذنوبها بأمر خفيف على اللسان، وسهل استعماله في جميع الأزمان، فكان ذلك رحمة من الله بعباده، رحم الخلائق بها ببعثته إليهم حبيب الرحمن.

ووجهٌ آخر: إن الله سبحانه سمَّاه نبي التوبة إشارةً إلى أنه بعثه الله تعالى لأمة مرحومة، غفر لها مولاها برحمة نبيِّها قبل استغفارها لله، فاستجاب لها وأعطاها، وفضَّلها على سائر الأمم وأكرم مثواها.

خير؛ حمدت الله تعالى، وما كان من شر؛ استغفرت الله»[١][٢].

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١٣٨/٢)، وابن سعد في الطبقات (١٩٤/٢) بنحوه.

(٢) قلت: فهو نبي الرحمة: ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فكانت حياته رحمة، ومماته رحمة. كما قال ﷺ :« حياتي خير لكم ومماتي خير لكم». وكما قال ﷺ: «إذا أراد الله سبحانه رحمة بأمة قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطًا وسلفًا». ورحمته ﷺ عامة للجن، والإنس، ولجميع الخلق: مؤمنهم، ومنافقهم، وكافرهم؛ رحمة للمؤمنين بالهداية، ورحمة للمنافقين بالأمان من القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب.

وقد علم الله سبحانه قوة شفقته على الخلائق، ومحبَّته في هداية عبيده، وجلب الإحسان إليهم، وأنه أنفعهم إلى خلق الله، وأرأفهم بعباد الله، وأوصلهم نفعًا إلى فقراء الله، وأشدُّهم نصحًا، وجدًا في إيصال الخيرات، وتفريج الكُربات، وتسهيل المصعبات، وفتح أقفال المضيقات.

فعلم العالِم بما في الصدور: إن قلبه، وجسده ﷺ، وجميع دمه، ولحمه، قد جرت الرحمة فيه، وتركَّبت بنيته منها، وبُني أساسه الكريم عليها؛ فلذلك جعله نفس الرحمة: أي أن الرحمة تمكَّنت من قلبه، وجرت في لحمه وعظمه.

فذاته رحمة، وحركاته رحمة، وسكناته رحمة، واجتماعه رحمة، وافتراقه رحمة؛ لأن ما من حركة، أو سكون يصدر منه عليه السلام إلا وهو بالله ولله ومن الله؛ لأنه قدوة، وأُسوة للعالمين، ورحمة تعود على الخلائق أجمعين.

وقد نوَّر الله سبحانه به السموات والأرضين، فشفقته، ورحمته ﷺ، وسياسته مع خلق الله لا يحيط بها نقل، ولا يحصرها عقل.

وتأمَّلوا رحمكم الله، وزاد في حبِّي، وحبِّكم لهذا النبي الشريف، وضاعف حبنا فيه الخبير اللطيف، وتذكَّروا قضية الأعرابي الذي جاءه يطلب شيئًا.

ثم قال له: أحسنت إليك؟

قال: لا ولا أجملت!

فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فأشار إليهم؛ لشفقته ورحمته: أن كُفُّوا، ثم قام، ودخل منـــزله، وأرسل إليه، وزاده شيئًا، ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال : نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

فقال له النبي ﷺ: «يا أعرابي! إنك قلت ما قلت، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت، فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك.

فقال: نعم.

فلمَّا كان الغُدو أو العشي جاء، فقال النبي ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك هو؟. قال: نعم، جزاك اللهم خير وعشيرة نعمة. فقال ﷺ: مثلي ومثل هذا؛ كمثل رجل =

وإنما خصَّ عشية الإثنين؛ لأن أبواب الجنة تفتح فيها بحرمة مولد النبي ﷺ تلك الليلة، كما تُفتح في شهر رمضان؛ فكانت ليلة الرحمة المطلقة، والمغفرة العامة، وخصَّ عشية الخميس أيضًا؛ لأن الأعمال الأسبوعية تُعرض على الله تعالى يوم الخميس، فأحب ﷺ أن يستغفر لأمته قبل العرض على الله تعالى حتى لا يبقى لهم سيئة معروضة عليه موجبة للخجل؛ ولذا كان لا يزال يصوم الإثنين والخميس؛ فيبقى سنة لأهل العزيمة من أمته لا يزالون يصومونهما إلى قيام الساعة في السفر والحضر.

وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن ألا يمر عليه ثلاث ساعات؛ إلا ويجدد فيها التوبة لله تعالى، فإن لم يرجع إلى الله فيها فليجتهد أن لا يمضي ست ساعات إلا وهو راجع فيها؛ وذلك أن أيام الأسبوع وإن كانت سبعة؛ لكن لمَّا كان يوم الخميس يوم العرض؛ فقد بقي لنا ستة أيام هي: أيام الأعمال؛ وهو رمز لطيف لا ينتبه له إلا مَن كشف الله الحجاب عن بصيرته، نسأل الله سبحانه أن لا يُبقي لنا ذنبًا إلا وغفره، ولا تلوينًا إلا وبدَّله التمكين بحرمة مَن جعله وسيلة لجنابه، وشفيعًا عند بابه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ﴾ [النساء:٦٩].

: أي في أوامره ونواهيه.

وقوله: **﴿وَالرَّسُولَ﴾** [الآية:٦٩].

=

له ناقة شرَدت عليه، فأتَّبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفورًا، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم. فتوجه إليها، وأخذ لها من تمام الأرض، ثم أتى بين أيديها، فردَّها حتى جاءت واستناخت، وشدَّ عليها رحْلها وركبها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه، دخل النار».

فتأمَّلوا رحمكم الله هذا الحديث العظيم، وما اشتمل عليه من كمال حسن عشرته، وسياسته مع خلق الله، وشفقته عليهم، ورحمته بهم، ومعاشرته معهم، وكمال الحرص والجد على نفعهم، وتمام ملاطفته للجاهلين لحمله لأذاهم، وتحمله عنهم، فكان ذلك كله ناشئًا عن تمام رحمته وكمال شفقته ﷺ ولا غرابة في أحواله وصفاته لأنه شكور لربه، والشكور لله يكون في غاية الرفعة والكمال في جميع الأفعال، وسائر الخصال.

: أي في سننه ومستحباته، وقوله: ﴿فَأُوْلَـئِكَ﴾ [الآية:٦٩] المطيعون.

وقوله: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [الآية:٦٩].

بحسب استعداهم ومراتبهم، فإنعام بعضهم إنعام إطلاقي، وإنعام بعضهم إنعام إضافي، والكل شاكرون لأنعم الله، مترقّبون للمزيدات دنيا وآخرة.

وقوله: ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [الآية:٦٩].

قدَّمهم؛ لأنهم أعلى مَن أنعم عليهم؛ لأنهم منعمون من وجه عام، ومن خاص، وغيرهم منعمون من وجه خاص فقط.

وقوله ﷻ: ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [الآية:٦٩].

هم الذين خلصت نفوسهم عن الصفات النفسانية؛ بل عن شائبة الغيرية، وهم مُخبرون عن الله تعالى أيضًا؛ لأن الله تعالى أراهم ملكوت السموات والأرض؛ لكن نبوءهم نبوءة تحقيقية لا تشريعية كما للأنبياء؛ فإن النبوة التشريعية منقطعة، وما بقيت إلا المبشِّرات؛ ولذا كانوا دون الأنبياء في الذكر والرتبة فاعرف.

وقوله ﷻ: ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الآية:٦٩].

هم الذين جاهدوا في سبيل الله بالجهاد الأصغر؛ ولذا كانوا دون الصديقين الذين هم أهل الجهاد الأكبر؛ لأن إصلاح الأعمال دون إصلاح الأحوال؛ إذ الظواهر أبواب البواطن، وللصدور رجال في الدور.

وقوله ﷻ: ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ [الآية:٦٩].

هم أهل الاستقامة في الدين بحيث خلصت أعمالهم عن الخلل؛ فسدوا طرق خلل العمل بالصلاح، وهذا الصلاح عام في الحقيقة؛ لكن صلاح النبيين أقوى من صلاح الصديقين كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة:١٣٠].

وقوله تعالى حكاية عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

: أي بالأنبياء الذين صلحت أحوالهم أكمل الصلاح؛ وصلاح الصديقين أقوى من صلاح الشهداء؛ لأنهم ما بقيت لهم بقية من النفس بخلاف الشهداء؛ إلا أن

الشهداء لمَّا بذلوا مهجهم، وأفنوا ظواهرهم؛ التحقوا بالفانين في الله مطلقًا؛ ولذا حفظ الله تعالى أجسادهم عن البلى، والتفسُّخ؛ كأجساد الصديقين، وإن كان بين أجسادهم لطافة ونضارة فرق بحسب سريان بركات النفوس إليها، وصلاح الشهداء أقوى من صلاح مطلق الصالحين؛ لكونهم مباشرين للجهاد الأصغر الذي هو خصوص مرتبة من مراتب الأعمال الفاضلة.

ومعنى المعية المفهومة من الآية: إنهم أهل الحضور والقرب، وإن كانت درجاتهم متفاوتة في العلم والعمل.

فهم: أي المطيعون من هذه الأمة:

إمَّا صديقون: فهم مع إخوانهم الصديقين في درجاتهم.

وإمَّا شهداء: فهم مع إخوانهم الشهداء في طبقاتهم.

وإمَّا صالحون: فهم مع إخوانهم الصالحين في منازلهم، إلا أنه يغيب بعضهم عن بعض، وإن تفاوت درجاتهم، كما لا يغيب خواص السلطان بعضهم عن بعض، وإن اختلفت مقاماتهم، وتقاربت أو تباعدت دورهم وبيوتهم؛ فإن بعضهم ينـــزلون منازل بعض بالزيارة متى أرادوا، فإذا كان لا حجاب بين الأصدقاء في هذا الموطن الكشيف؛ فما ظنك بهم، وهم في الموطن اللطيف.

ولذا قال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

: أي جوارًا جعلنا الله وإياكم من أهل حسن الجوار بحرمة نبيه المختار.

وفي قوله ﷺ: «مَن أحب قومًا؛ فهو منهم»[1].

اشارة إلى ما ذكرنا فإن المراد أنه منهم في الدنيا والآخرة.

امَّا في الدنيا: فبالطاعة والأدب الشرعي.

وإمَّا في الآخرة: فبالمعاناة والقرب المشهدي، فإن المحبة رابطة قوية بين المحب والمحبوب، وتلك الرابطة تقتضي الموافقة على كل حال.

فالإنسان لا يلحق الأبرار إلا بأعمالهم، ولا يرتبط بالمقربين إلا بأحوالهم:

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٨٣)، ومسلم (٤/٢٠٣٤) بنحوه.

أي بعد المحبة التي هي أساس الالتحاق، فمَن ظن كفاية المحبة المطلقة بدون موافقة الأعمال؛ فقد ألحق اليهود بموسى، والنصارى بعيسى، والروافض بالمرتضى، فحاشا عن أن يلتحق الملوَّث بالمطهَّر فلا فائدة للأطماع الفارغة، ولو شاء الله لجمع الناس على الهدى؛ ولكن قال: ذلك الفضل من الله يتفضل به على من يشاء وكفى بالله عليمًا بمن يستحق الفضل بحسب استعداده.

كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾ [الأنعام:١٢٤].

وفيه إشارة إلى أن الكسب إنما هو من الأدب، وإلا فكل كمال إنما هو اختصاص إلهي ناظر إلى الشئونات الذاتية الأزلية التي لا مدخل فيها للجعل، فرُبَّ صالحٍ يلحقه الله بمَن فوقه من الأصلح؛ فيكون أصلح، ورُبَّ صادق يرقيه الله إلى الأعلى؛ فيكون أصدق، وإذا كان أصدق؛ كملت مقاماته.

وإن كان السير في الله لا نهاية له أبد الآباد؛ هو الذي قرب من درجة النبوة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨]: أي أنا على بصيرة في أمر الدعوة، وكذا مَن اتبعني قولاً وفعلاً وحالاً.

أمَّا القول: فهو صدق القول.

وأمَّا الفعل: فهو صدق الفعل.

وأمَّا الحال: فهو صدق الحال.

فمَن لم يصدق في هذه المراتب؛ لم يكن من أهل الدعوة إلى الله؛ لأن الكاذب لا يدخل على الله، ولا يُدلُّ على الله؛ ولذا قالوا: عين اليقين، فمَن ادَّعى العين؛ فلا عين له فقد ارتكب المَيْن، فكيف يجوز أن يقول الرجل أبصرت ولا بصر له؟ أو علمت ولا بصيرة له؟

فأهل الرسوم إرشادهم إنما هو من الأحكام، وأهل الحقائق دعوتهم إنما هي إلى مرسل الأحكام، فكما أن الأحكام لإصلاح الظواهر، فكذا الحقائق لإصلاح البواطن، والظواهر ظروف البواطن فليست البواطن بعيدة من الظواهر؛ لكن العيون الظاهرة لا تبصرها، فيجب أن يكون المرء؛ كالهدهد، فإنه يرى الماء تحت الأرض،

ولا تكون الأرض حائلة له؛ بل هي كالمرآة لما يراه فيها.

فكما أن الأرواح مع الأجساد ورؤيتها رويتها، فكذا الصور مشاهد المعاني وشهودها شهودها، فظهر أن الباصرة إنما هي لرؤية الآثار، والبصيرة لإدراك الحقائق من تلك الآثار؛ ولذا جعل الله لكل رجل قلبًا ليتقلَّب به في درك الأسرار؛ فيترقى إلى عالم الأرواح، ثم إلى عالم المعاني، ثم إلى غيب الذات؛ وهي سدرة المنتهى التي هي آخر السدر؛ لأن لكل عمل وسير سدرة مخصوصة.

والرب تعالى هو المنتهى كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]: أي إلى ربك المخصوص المعروف الموصوف المرسوم فافهم جدًا، أو لا تكن كالسمك يسكن في الماء، ويجري فيه، ويسأل أين؟ فهذا هو الماء قد أفاض الله عليك، وبالاستفاضة أشار إليك.

وقال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ﴾ [النساء: ١٠٠]: أي من بيت بشريته وطبيعته، وفيه إشارة إلى أن السالك الخارج الأجر الآتي، وإن لم يخرج من بلد وجوده المجازي بالكلية، فإن الخروج من بلد الوجود بالكلية، والدخول في بلد الوجود الحقيقي إنما يحصل في الدنيا لواحد بعد واحد.

والله تعالى يمنُّ على عباده السالكين؛ فيوصلهم إلى مقاصدهم، إمَّا في الدنيا، وإمَّا في البرزخ، وإمَّا في الحشر؛ وهو المراد بقولة مَن قال: مَن لم يصل إلى مراده؛ فمراده يجئ إليه، وهذا الإيتاء في قول مَن قال: إن كل كمال لم يحصل في الدنيا؛ فهو لا يحصل في الآخرة.

وذلك فإن عدم الحصول إنما هو لغير السالك، وأمَّا السالك فتدارك بفضل الله سبحانه، كما قلنا آنفًا، وإلى حال غير السالك دلَّ قوله تعالى: «**ومن كان في هذا أعمى فهو في الآخرة**»[1].

وإلى حال السالك أشار قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وهذا المبحث قد حققناه في كتابنا المسمَّى: «**بتمام الفيض**» بما لا مزيد عليه، والله الموفِّق.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (١٨٦/٤)، وذكره المناوي في فيض القدير (٦٨/٣).

قوله تعالى: ﴿مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ﴾ [الآية:١٠٠] في الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِ﴾ [الآية:١٠٠] في الظاهر.

ودخل فيه وارث الرسول؛ لأن مسكنه المدينة الثانية، وهو نفسه وحسنه من حسنات الرسول؛ فهو الرسول المرسل بالرسالة التحقيقية لا النبي المبعوث بالنبوة التشريعية، فإنه منقطع أبدًا، ولم يبقَ إلا المبشرات، وإنما قال: إلى الله؛ لأن نهاية المعجزة، إنما هي مقام الأُلوهية، وهي منتهى العلم أيضًا.

كما قال تعالى: ﴿فَاعلم أنهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّه﴾ [محمد:١٩]، وعند هذا المقام يخلص السالك من الحجب الجسمانية الظلمانية، والحجب الروحانية النورانية؛ لأن الأُلوهية ليست مأخوذة من حيث كونها صفة من صفات الله تعالى؛ بل من حيث هويتها أيضًا.

ولا شك أن الهويَّة[1] غاية الغايات لا غاية وراءها، ولا مرمى غير الحق تعالى عن الهُويَّة بالأُلوهية؛ إذ مقام البقاء بالله يقتضي الارتباط بالحق، فالحق إله واحد، والعبد مألوه أبدًا على اصطلاح القوم دلَّ على هذا أن النبي ﷺ لمَّا دخل على الله

(١) والهوية بضم الهاء: يُراد بها عند الحكماء: الحقيقة الجزئية؛ لأن ما به الشيء هو هو، إن كان جزئيًّا تسمَّى بذلك. وإن كان كليًّا يُسمَّى بالماهية، وإن لم يعتبر فيه كلية ولا جزئية كان حقيقة، فهي أعم منها. وهذا المعنى وإن كان صحيحًا في نفسه عند السادة حيث أن الوجود الحق عندهم جزئي لا كلي: أي هو شيء واحد ظهر بكثرة إلا إنهم: أي السادة اصطلحوا على الهوية بأنها الوجود الحق الذي لم يؤخذ بشرط شيء، ولا بشرط لا شيء، فإن الوجود كما قدمنا إما أن يؤخذ لا بشرط شيء، وهو الذات البحت.

وإما أن يؤخذ بشرط شيء ولو كثرة، وهو مقام الجمع المعبر عنه بالواحدية، وإما أن يؤخذ لا بشرط شيء ولا بشرط لا شيء، وهو هذه الهوية السارية بكل شيء، أي شيء كان، وهي الوجود الحق المذكور، والمراد بالسريان الظهور في المظاهر: أي ظهور هذه الهوية في كل شيء، كما يشاهده العارفون فإنهم صرَّحوا به، لا يكون الكامل كاملاً حتى يرى هوية الحق سارية في كل شيء، بل وهويته كذلك؛ إذ هي هي، ولا يظن الحلول بقسميه، بل ولا يتوهم أن لا إثنينية أصلاً، بل شيء واحد تعين بتعينات حسية وغيرها رجعت إلى عدم محض. وانظر: كشف الأسرار لصلاة سيد الأبرار للعطار (ص١٢٥) بتحقيقنا.

تعالى ليلة المعراج قال: «**لا إله إلا الله أنا العبد**»[١]، مع أن ذلك المقام الخطير يقتضي الفناء بالكلية فافهم جدًا.

وقال تعالى: ورسوله، فعبَّر عنه بالرسول؛ لأن ارتباط الأمة بالنبي إنما هو من حيث رسالته، وإلا فهو القائل: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب ولا نبي مرسل**»[٢]: أي لا يدخل فيه غيره، فكل تابع منقطع عنه هناك[٣].

والحاصل أن لكل عبد وجهًا إلى الله تعالى بخصوصه، فهو من هذه الخصوصية لا ارتباط له بغيره أصلاً؛ ولذا يقال: أخبرني ربي، ومن هذا الباب أنه ﷺ لم يُعين الخليفة بعده لَمَّا علم ان من أصحابه وأمته مَن يأخذ عن الله بلا واسطة، ففوض الأمر إلى أهله من كل الوجوه، وهو أكمل الناس وأعلمهم.

قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ [الآية:١٠٠]: أي الموت الطبيعي قبل الفناء الكلي المعنوي: بأن يخرج من أرض بلد الوجود بالكلية؛ كما خرج من أرض بيته البشري الطبيعي.

قوله ﷻ: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الآية:١٠٠]: أي عُدت هجرته هجرة كاملة أذلاً هنالك، فإنه عبد في سلوكه، وخُذ منه لا أجير؛ لكن الله سبحانه من حيث فضله الواسع يعامل معه معاملة الأجير في الظاهر؛ فيعطيه وجوده الباقي بدل وجود العبد الفاني؛ فهو ثمرة علمه، وما وعده الله في مقابلة فنائه عن نفسه، فإذا هو عند الفناء ساقط على الله؛ ولذا قال: على الله.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/٤)، والعجلوني في كشف الخفا (٢٢٦/٢).

(٣) قال سيدي عبد الكريم الجيلي: فالأنبياء والأولياء والملائكة وسائر المقربين من سائر الموجودات ليس عندهم من المعرفة الذاتية ومحمَّدٌ ﷺ الذي هو قلب الوجود هو الذي عنده الوسع الذاتي للمعرفة الذاتية، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «لي وقتٌ مع ربِّي لا يسعني فيه مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ» اهـ.

وذكر الشيخ في هذا المؤلَف العظيم اتصاف سيدنا ﷺ بجميع الأسماء الحسنى، وجعل يذكر الأدلة على ذلك الكمالات (ص ١١٥، ١١٦)، وانظر: محاسن الأخبار في فضل الصلاة على النبي المختار للأبشيهي (ص٣٦٥) بتحقيقنا.

وفي الحديث: «**لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى؛ لهبط على الله**»[(١)]، فاعرف الإشارة.

وقوله ﷻ: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ**﴾ [النساء:١٠٠] بوجوده الحقيقي الباقي.

وقوله ﷻ: ﴿**غَفُورًا**﴾ [الآية:١٠٠]؛ ساترًا لوجود عبده المجازي الفاني، وقوله ﷻ: ﴿**رَّحِيمًا**﴾ [الآية:١٠٠] بما يفيض عليه من أنواع فيوض أسمائه وصفاته غير وجوب الوجود، فإن الماهية الإمكانية لا تقتضيه، ولا يجتمع الوجوب والإمكان في صورة واحدة؛ فهو تعالى هو والأشياء أشياء، وليست إلا عكوس الأسماء والصفات.

فمن حيث إن الظل صورة ذي الظل قال مَن قال: أنا الحق، وبينه وبين الحق بون بعيد، فالمتجلّى هو الحق بصور أسمائه وصفاته، والعبد عبد أبدًا ليست له شائبة الربوبية أصلاً، ومَن فهم هذا المقام وتحقق به؛ نجا من ظلمات أهل الإلحاد، والله ولي الإرشاد.

ومنه: نور التئام في المبدأ والمعاد، ولو قال: هو الحق، وأخرج نفسه عن البين؛ لكان أليق بمقام المعرفة والشهود الكامل، ثم إنه ولي الفقر والستر على أن هناك مغفورًا ومستورًا؛ وهو الوجود الإمكاني الاعتباري الظلّي، فهو وجود في الجملة؛ ولذا تعلّق به الستر بخلاف الشرك، فإنه لا وجود له إلا في الوهم.

ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء:٤٨]؛ إذ الموهوم لا يتعلّق به الستر؛ لكونه لا وجود له أصلاً، ومن هنا قال تعالى: ﴿**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [محمد:١٩].

فلو ارتفع الوهم؛ انتفى النفي والإثبات، وبقى الله الواحد بالذات، وحسبك للإرشاد، وقوله تعالى: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم:٦٥] يعني: ليس له سميٌّ وشريك في الاسم لما ليس له شريك في الذات، ووجوب الوجود فظهر أن الشريك باطل صورة ومعنى، والحق حق واحد صورة أولاً وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، قل الله ثم ذرهم فمن لم يقل: الله؛ بل أضاف إليه ما سواه، فهو في خوض يلعب.

---

(١) رواه الترمذي (٥/٤٠٣)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/٥٦٢).

ومَن معه أيضًا في خوض يلعبون، والله الهادي.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فقد أضاف الأسماء إلى الجلالة، فكما أنه ليس له شريك في الأُلوهية، فكذا ليس له شريك في الأسماء المضافة إلى الأُلوهية، فله ألف اسم وواحد؛ كلها أسماء حسنة إلهية، وله أيضًا ألف اسم وواحد؛ كلها أسماء حسنة كونية؛ لكن الأسماء الحسنة الكونية إنما تضاف إلى المظهر الكوني تأدُّبًا معه تعالى، وإعطاء لكل حقه.

وهذا المظهر الكوني واحد أيضًا، وإن كان له أسماء وصفات كثيرة؛ لأن الواحد لا يقابله إلا الواحد، وفيه قد تحيَّرت العقول، وزلت أقدام أهل النقول ولكن الله تعالى له أفعال وصفات[1].

---

(١) قال ﷺ في الباب الثامن والثلاثين وثلاثمائة من «**الفتوحات**»: أعلم الخلق بالله ﷻ من هذا المقام قال: «**لا أحصي ثناءً عليك**» الحديث؛ لأن الثناء بالأسماء وأسماؤه الحسنى لا تُحصى، فالثناء عليه لا يُحصى، والألسنة تكلُّ فيها وتعي.

وأمَّا الثناء من حيث التسبيح تنحصر، وتحصى، ولا تكلُّ به الألسنة ولا تعي؛ لأنه نفي عن كل وصف لا إثبات فيه.

(**وصفة**) وهي من النِسب التي لا يجوز أن ينسب إليه تعالى في أول الأمر، بل تُنسب إليه بعد نسبة ذلك إلينا.

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] أطلق و لم يقيّد بصفة دون صفة، والعزَّة المنع من الوصول إليه شيء من الثناء عليه.

قال الإمام الغزالي رحمه الله في بعض تصانيفه إشارة إلى هذا المقام.

والمعنى: إن الناس ينـــزِّهونه عن نقائض الصفات، وأنا أنـــزِّهه عن كمالها.

أما ترى أن بعض العلماء تنبَّهوا لهذا المعنى، وإن لم يلم مرضى علماء الرسوم ولكن هو حق من وجهٍ، وذلك أنهم لَمَّا رأوا أن المشاركة بين الحق والخلق ما يصح حتى في إطلاق الألفاظ عليه.

فإذا قيل لهم: إنه موجودٌ، قالوا: ليس بمعدومٍ، وإذا قيل: إنه عالِمٌ، قالوا: ليس بجاهلٍ.

وهكذا جمع الصفات الثبوتيَّة، فإن الحادث موصوفٌ به ولا مشاركة، فافهم.

قال ﷺ في حضرة الحضرات من «**الفتوحات**» فإن الأصل التعرِّي والتنـــزيه والتبرِّي عن الصفات مطلقًا ولاسيَّما في الله.

إذا كان أبو يزيد ﷺ يقول: لا صفة لي فالحق أولى أن يطلق عن التقييد بالصفات لغنائه عن العالم؛ لأن =

فأفعاله مستندة إلى صفاته، وصفاته مستندة إلى أسمائه، وأسماؤه مستندة إلى ذاته، فليس إلا ذات واحدة متجلِّية في صفة كلية قد تجلَّت هي أيضًا في فعل كلي ظهرت منه الآثار والشواهد ظهورًا وحدانيًا في صورة كثيرة.

ألا ترى أن الكلام صفة المتكلم في ذاته، فإذا ظهر؛ كان قولاً من حيث إنه مقول، وكتابًا من حيث إنه مكتوب، وعلى هذا فقس، فلكل ظهور ثلاث مراتب؛ ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يس:٨٢]؛ فالكون الحادث أثره المستند إلى الفعل القولي؛ فإنه اللقاء في الحقيقة فافهم جدًا.

=

الصفات إنما تطلب الأكوان، فلو كان في الحق ما يطلب العالم لم يصح كونه غنيًّا عمَّا هو طالبٌ، فافهم.

وذكر ﷺ في الباب الثامن والثلاثين وثلاثمائة من «**الفتوحات**»: فانظر حكمة الله تعالى في كونه لم يحصل له صفة في كتبه، بل نـــزَّه نفسه عن الوصف.

فقال: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ [الأعراف:١٨٠] فجعلها اسمًا، ولم يجعلها نعوتًا وصفاتًا ولكن هي لنا نعوتٌ وصفاتٌ يثني علينا بها.

قال تعالى: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[التوبة:١٢٨] وأذن لنا بالتخلُّق في الأسماء الحسنى وهو عين ما قلنا، ثم أثنينا به عليه؛ لأنه حميدٌ وله عواقب الثناء، فأثنى الله على نفسه بها.

وقال: «**إن الكبرياء ردائي**» وهي صفة عبده وهو رداؤه، فإنه مِن مَنـــزَل ثناء الحق على نفسه بغناه عن خلقه بخلقه، فافهم.

إن هذا عين ما سيقوله ﷺ في المتن بعد سطرين وهو قوله: فما وصفناه بوصف إلا كنَّا نحن ذلك الوصف، وهكذا الأمر لما كان استناد المستند إلى المستند لذاته، اقتضى أن يكون على صورته فيما يُنسب إليه من الأسماء، وهو التخلُّق بأخلاق الله تعالى وإحصاء الأسماء الحسنى، وفيما لا يُنسب إليه كالصفات؛ لأنه تعالى جمع له التقييد والإطلاق، كما جمع لنفسه بين التنـــزيه والتشبيه، فقال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:١٢].

ومن هذا المقام قال أبو يزيد قُدِّس سرُّه لما قيل له كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيَّد بالصفة وأنا لا صفة لي، فوصف نفسه بعدم التقيُّد بالصفات، فإذا كانت الصفة قيدًا لا يقبله العبد المقيَّد، فكيف تُطلق على المطلق الحقيقي، وهو ﷺ أشار بهذا إلى التجرُّد الحقيقي، فافهم. وانظر: مجمع البحرين شرح الفصين (ص٣٠٤) بتحقيقنا.

وذلك القول مستند إلى صفة الإرادة المضافة إلى الهُويَّة المضاف إليها الأمر، وإنما قال: أمره؛ لأن الخلق يلي الأمر، كما أن القدر يلي القضاء، ومن هنا إن النتيجة في القياس ثالث ثلاثة، فهذا أمر الوجود أبدًا؛ بل وكل فكر رسُم في القلب؛ فهو من شيئين؛ لأن له وجودًا في الذهن، وعليك بالتأمُّل في الزوجين، وما تبنَّى عليهما من الآثار في الكونين.

وقال الله سبحانه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧].

: أي يستحق أن يجزى به، ويرى جزاءه.

وأمَّا المؤمن: فالله تعالى يعفو عن كثير من ذنوبه، ويكفِّر ما بقي بما يرد عليه في الدنيا من الشدائد والمحن على ما ورد في الحديث.

ولا يُبقي عليه إلا وزر الكبائر، فإن تاب عنها؛ فقد سقطت في الدنيا أيضًا، وإلا فيستحق أن يُجازى عنها في الآخرة، فقد يدرك العناية والشفاعة؛ فينجو منها أيضًا، وقد يكون معذَّبًا بمقدار؛ وهو ما دون الخلود.

وأمَّا الكافر: فلا بد أن يُجازى على كفره، وعلى سائر أعماله السيئة في الآخرة، وأمَّا في الدنيا فقد يُخفِّف الله تعالى عنه أيضًا بما صدر عنه من صور الأعمال الحسنة، فإنه تعالى رحمن الدنيا؛ فيصل رحمته إلى المؤمن والكافر في الدنيا من غير نكير؛ ولذا جاز أن يدعي له بما يصلح حاله في الدنيا كالغنى ونحوه.

وأمَّا الصبي: فهو كالبالغ إن بلغ حدُّه التمييز، وصدر عنه بعض الأذى، فإن الله تعالى يؤاخذه بعض الشدائد بمقتضى الاسم العدل، وإن لم يبلغ ذلك الحد فما ابتلى به من الشدائد ابتلاء لأبويه ونحوهما، فله كالبالغ قرين من الملك، وقرين من الجن، فالملك يُحرِّكه على ما يسر أبويه من الأمور الملائمة، فيقول كل منهما خيرًا، ويحمد الله؛ فيحصل به رغم الشيطان ومساوءته.

وأمَّا قرينه الجنِّي فقد يحركه على ما يسوء أبويه، ويغضبهما من الأمور الغير الملائمة فيقول كل منهما شرًا، وينسى الله تعالى؛ فيحصل به مساءة الملك، فقد يظهر فضل الله تعالى، وقد يظهر مُدله بحسب كونه رب العالمين، فحال الصبي قبل البلوغ

في المجازاة؛ كحال الحيوانات في القصاص يوم القيامة، وكل ذلك من باب العدل، ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة؛ لشؤم المعاصي، وسريان بعض آثارها في الغير بحكم الجوار ولكن الله تعالى يمنُّ على عباده فلا يؤاخذهم في الدنيا إلا بأقل قليل من شرورهم، ويعفو عن كثير، وما كان يعفوه في الدنيا فلا يعود إليه بالأخذ في الآخرة.

وأمَّا مَن أسلم وجهه لله: بأن جعل نفسه خالصة له تعالى اعتقادًا وعملاً، وهو منتهى ما تبلغه القوة البشرية، فليس له حساب، ولا ميزان، ولا غيرهما مما أُعد للعصاة؛ بل له السلامة، والنجاة، وتضعيف الحسنات؛ فللمطيع وعد، وللعاصي وعيد.

فأمَّا الوعد:

فالله تعالى لا يُخلف الميعاد؛ لكمال وجوده، وسعة غِناه، وعظيم قدرته.

وأمَّا الوعيد:

فهو من باب التخويف والتهديد، وليس كل ما يُهدَّد به العبد العاصي يفعل به، فقد يعفو عنه السيد؛ لكن ينبغي أن لا يغترَّ العبد بكرم الله تعالى؛ فإنه بكرمه وجوده خلقه، ثم بحكمته أمره ونهاه.

فالإحسان لا يُقابل بالعصيان، والإكرام لا يُجازى بالإهانة، فعل العبد العبادة، ثم العبودية، ثم العبودة بحسب إلاهية، وألوهية، وألوهته، فإذا وصل إلى غاية هذه المراتب؛ سقطت عنه كلفة التكليف، فكان حاله في التعبُّد في الدنيا؛ كحال أهل الجنة في الآخرة: أي كان حاله لذَّة صِرفة، وحلاوة محضة، ومَن سرت اللذَّة في باطنه؛ لم يتألم من العبادة في ظاهره، فيبقى إلى اخر عمره وله حياة طيبة من إحياء حقوق الله، وحقوق عبيده، ومن ذلك حقوق أعضائه وقواه.

إذ كل ذلك محلُّ التكليف، وموضع أحد الميثاق، ومواطن المراعات، والمحافظة، ومَن حافظ على أنفاسه؛ فقد حافظ على جميع عمره، والله معه، ومنه يصدر كمالاته، وإليه يصعد كلماته، هذا إذا اعتبر الحضور معه، وأمَّا إذا اعتبر الغيبوبة عنه، وبقى الحق وحده، فالحق يُذكر على لسانه، ويُتعبد على جوارحه، وليس هذه المرتبة إلا للمحققين الواجدين وجدانًا لا فقدان معه.

قال الله سبحانه: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ الآية: [النساء:١٢٧].

بظاهرها تدلُّ على أن الله تعالى هو المفتي، وأن الرسول ﷺ خليفته في ذلك، وكذا الورثة خلفاء الرسول؛ ولذا كان الأصحاب ﷺ يفتون، وكذا التابعون حتى الصوفية المحققون؛ كجنيد البغدادي قُدِّس سرُّه فإنه مع كونه سيد الطائفة[1] كان

---

(١) هو سيّد الطائفتين، أصله من نهاوند، ومنشؤه بالعراق، وكان فقيهًا يفتي على مذهب الإمام أبي ثور صاحب الإمام الشافعي، وراوى مذهبه القديم، صحب خاله السقطي والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القفار، وكان من كبار أئمة القوم وساداتهم، وكلامه مقبولٌ على جميع الألسنة، مات يوم السبت سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد، ودُفن بها وقبره ظاهر يُزار.

كان يقول: الغفلة عن الله أشد من دخول النار.

وكان يقول: إذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق؛ فإن العلم يوحشه، والرفق يؤنسه.

وكان يقول: من أشار إلى الله وسكن إلى غيره ابتلاه الله بالمحن، وحجب قلبه عن ذكره، وأجراه على لسانه، فإن انتبه وانقطع إلى الله كشف عنه المحن، وإن دام على السكون إلى غيره نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه، وألبسه لباس الطمع فيهم، فيزداد مطالبه منهم مع فقدانه الرحمة من قلوبهم، فتصير حياته عجزًا وموته كمالاً وآخرته أسفًا، ونحن نعوذ بالله من الركون إلى غيره.

وكان يقول: يقول الله تعالى: «لو أن ابن آدم قصدني في أوَّل المصائب لرأى مني العجائب، ولو انقطع إليَّ في أول النوائب لشاهد مني الغرائب، ولكنه انصرف إلى إشكاله فرد في إشغاله».

وكان يقول: مكابدة العزلة أشد من مداراة الخلطة.

وكان يقول: من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليلزم الناس، فإن هذا زمان وحشة، فالعاقل من اختار الوحدة.

وجاءه مرة شخصٌ بخمسمائة دينار فوضعها بين يديه، وقال له: فرِّقها على جماعتك، فقال: ألك مال غير هذا؟ قال: نعم، قال: أتطلب زيادة على ما عندك؟ قال: نعم، فقال له الجنيد: خذها فإنك أحوج إليها منَّا، ولم يقبلها.

وكان يقول: إذا رأيت الصوفيّ يعبأ بظاهره فاعلم أن باطنه خراب.

وسُئل عن الإنسان يكون هاديًا فإذا سمع السماع اضطرب، فقال: إن الله تعالى لما خاطب الذرية في الميثاق الأوّل بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] استغرقت عذوبة الكلام الأرواح، فإذا سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك.

=

=

وكان يقول: تنـــزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن: عند السماع؛ فإنهم لا يسمعون إلاّ عن حقٍّ، ولا يقولون إلا عن وجد، وعند أكل الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند مجازاة العلم فإنهم لا يذكرون إلا أحوال الأولياء.

وكان يقول: دخلت يومًا على السري فوجدت عنده رجلاً مغشيًا عليه، فقلت له: ما له؟ فقال: سمع آية من كتاب الله، فقلت: تقرأ عليه الآية مرة أخرى، فقرأت، فأفاق الرجل فقال السري: من أين علمت هذا؟ قلت له: إن قميص يوسف ذهب بسببه عينا يعقوب، ثم عاد بصره به، فاستحسن ذلك مني.

وكان يقول: ما رأيت أحد أعظم الدنيا فقرَّت عينه فيها أبدًا، إنما تقر عين من حقرها وأعرض عنها.

وكان يقول: من فتح على نفسه نية حسنة فتح الله عليه سبعين بابًا من التوفيق، ومن فتح على نفسه نية سيئة فتح الله عليه سبعين بابًا من الخذلان من حيث لا يشعر.

وكان يقول: ما احتشم صاحب من صاحبه أن يسأله حاجة إلا لنقص في أحدهما.

وكان يقول: إن للعلم ثمنًا فلا تعطوه حتى تأخذوا ثمنه، قيل له: وما ثمنه؟ قال: وضعه عند من يحسن حمله ولا يضيعه، وقيل له: ما بال أصحابك يأكلون كثيرًا؟! فقال: لأنهم يجوعون كثيرًا، قيل له: فما لهم لا تمهم قوة شهوة؟! فقال: لأنهم لم يذوقوا طعم الزِّنا، ويأكلون الحلال، قيل له: فما بالهم إذا سمعوا القرآن لا يطربون؟! قال: وأي شيءٍ في القرآن يطرب في الدنيا، القرآن حقٌّ نزل من عند حق، لا يليق بصفات الخلق عند كل حرفٍ منه واجب، لا يخرجهم منه إلا الوفاء لله ﷻ به، فإذا سمعن في الآخرة أطربهم، قيل له: فما بالهم يسمعون القصائد والأشعار والأنغام والغناء فيطربون؟! فقال: لأنها مما عملت أيديهم، ولأنه كلام المحبين، قيل له: فما بالهم محرومون من أموال الناس؟ فقال: لأنه تعالى لا يرى لهم ما في أيدي الناس؛ لئلا يميلوا إلى الخلق فيقطعوا، فأفرد القصد منهم إليه اعتنائه بهم.

وسُئل: من العارف؟ فأجاب: من نطق عن سرك وأنت ساكتٌ.

وكان يقول: ما أخذنا التصوف عن القالِ والقيل لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات.

وكان يقول: إن أمكنك ألاّ تكون آلة بيتك إلاّ من الخزف فافعل، فكذلك كانت آلة بيته.

وكان يقول: الطرق كلها مسدودةٌ على الخلق إلاّ على مَن اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتَّبع سنته، ولزم طريقته، فإن طرق الخير كلها مفتوحةٌ عليه.

وكان يقول: لو أقبل صادقٌ على الله ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة، كان ما فاته أكثر مما ناله.

=

يفتي في بغداد على مذهب أبي ثور.

سواء قلت انه كان يستر حاله عن الناس، أو لغير ذلك، فإن الاعتبار بظاهر الحال.

ثم لمَّا كان الفتوى، والقضاء، والتدريس، ونحو ذلك من الولايات من المناصب العرفية المتنافسة بين أهل الدنيا؛ امتنع الخواص عن التقلُّد بها مع أنها من الأسماء الإلهية في الحقيقة، فإن الله هو المفتي، والقاضي، ومعلم الناس، وكل ذلك في القرآن، والاعتبار بمذهب التوفيق عند أهل الله بعد مساعدة ظاهر النص، إلا أن يكون هناك إيهام يُوجب الشين، فلا يُطلق عليه تعالى، وليس منه مثل قولنا: السبحان، والسلطان، ولفظ أفندي، ونحو ذلك، فإن أكثر علماء الظاهر، وكذا أرباب الحقائق أطلقوها على الله تعالى لِما فيها من التعظيم.

ثم إن الفتوى ونحوه مما دخل تحت الاسم الظاهر، ولمظاهر الاسم الباطن تحقق بحقائق هذا الاسم حتى قيل في قوله: «**آخر ما يخرج من رؤوس الصدِّيقين حبُّ الجاه**»[1].

فإن الخروج هنا بمعنى الظهور؛ يعني: يظهر لهم في آخر الأمر حبذَا التحقق بحقائق الاسم الظاهر[2] ليكمل لهم الأمر في باب الأسماء الإلهية لكن لهذا التحقق

=

وكان يقول: أكثر الناس علمًا بالآفات أكثرهم آفات.

وقال رجلٌ له: مَنْ أصحب؟ قال: من تقدر أن تُطلعه على ما يعلمه الله منك.

وقيل مرة أخرى: مَنْ أصحب؟ قال: من يَقدر أن ينسى ما له، ويقضي ما عليه.

وكان يقول: من عرف الله لا يُسرُّ إلاَّ به.

وكان يقول: من نظر إلى وليٍّ من أولياء الله تعالى فقبله وأكرمه، أكرمه الله على رؤوس الأشهاد ﷻ وأرضاه. وانظر: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين.

(١) ذكره السيوطي في شرح سنن ابن ماجه (٢٢/١) بنحوه.

(٢) قال الحجة الغزالي: الظاهر الباطن: هذان الوصفان من المضافات، فإن الظاهر يكون ظاهرًا لشيءٍ وباطنًا لشيءٍ، ولا يكون من وجهٍ واحدٍ ظاهرًا وباطنًا، بل يكون ظاهرًا من وجهٍ بالإضافة إلى =

=

إدراك، وباطنًا من وجهٍ آخر، فإن الظهور والبطون إنما يكون بالإضافة إلى الإدراكات، والله سبحانه وتعالى باطن إن طلب من إدراك الحواس، وخزانة الخيال ظاهر إن طلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال، فإن قلت أما كونه باطنًا بالإضافة إلى إدراك الحواس فظاهر، وأما كونه ظاهرًا للعقل فغامض؛ إذ الظاهر ما لا يتمارى فيه، ولا يختلف الناس في إدراكه، وهذا مما قد وقع فيه الريب الكثير للخلق، فكيف يكون ظاهرًا فاعلم أنه إنما خفي مع ظهوره؛ لشدة ظهوره، فظهوره سبب بطونه ونوره هو حجاب نوره، وكل ما جاوز حده انعكس على ضده.

ولعلك تتعجب من هذا الكلام وتستبعده ولا تفهمه إلا بمثال فأقول: لو نظرت إلى كلمة واحدة كتبها كاتب لاستدللت بها على كون الكاتب عالمًا قادرًا سميعًا بصيرًا، واستفدت منه اليقين بوجود هذه الصفات، بل لو رأيت كلمة مكتوبة لحصل لك يقين، قاطع بوجود كاتب لها عالم قادر سميع بصير حي ولم يدل عليه إلا صورة كلمة واحدة، وكما تشهد هذه الكلمة شهادة قاطعة بصفات الكاتب، فما من ذرةٍ في السموات والأرض من فلكٍ وكوكبٍ وشمسٍ وقمرٍ وحيوانٍ ونباتٍ وصفةٍ وموصوفٍ، إلا وهي شاهدة على نفسها بالحاجة إلى مدبرٍ دبرها وقدرها وخصصها بخصوص صفاتها، بل لا ينظر الإنسان إلى عضوٍ من أعضاء نفسه، وجزء من أجزائه ظاهرًا وباطنًا، بل إلى صفةٍ من صفاته، وحالةٍ من حالاته التي تجري عليه قهرًا بغير اختياره، إلا ويراها ناطقة بالشهادة لخالقها وقاهرها ومدبرها، وكذلك كل ما يدركه بجميع حواسه في ذاته وخارجًا من ذاته.

ولو كانت الأشياء مختلفة في الشهادة يشهد بعضها، ولا يشهد بعضها لكان اليقين حاصلاً للجميع، ولكن لما كثرت الشهادات حتى اتفقت خفيت وغمضت لشدة الظهور، ومثاله أن أظهر الأشياء ما يدرك بالحواس، وأظهرها ما يدرك بحاسة البصر، وأظهر ما يدرك بحاسة البصر نور الشمس المشرق على الأجسام الذي به يظهر كل شيءٍ، فما به يظهر كل شيءٍ كيف لا يكون ظاهرًا.

وقد أشكل ذلك على خلقٍ كثيرٍ حتى قالوا: الأشياء الملونة ليس فيها إلا ألوانها فقط من سواد وحمرة، فإما أن يكون فيها مع اللون ضوء ونور مقارن للون فلا، وهؤلاء إنما نبهوا على قيام النور بالمتلونات بالتفرقة التي يدركونها بين الظل وموضع النور وبين الليل والنهار، فإن الشمس لما تصور غيبتها بالليل، واحتجابها بالأجسام المظلمة بالنهار انقطع أثرها عن المتلونات، فأدركت التفرقة بين المتأثر المستضيء بها وبين المظلم المحجوب عنها، فعرف وجود النور بعدم النور إذا أضيف حالة العدم إلى حالة الوجود، فأدركت التفرقة مع بقاء الألوان في الحالتين، ولو أطبق نور الشمس كل

=

وجهان: **الأول**: أن يكون لهم قبول عند الناس حتى يحصل لهم ما أرادوا من المصالح من غير تقلُّد بشيء من الأمور العرفية؛ كالشيخ محي الدين العربي قُدِّس سرُّه؛ حيث كان له قبول عند سلطان حَلَب في وقته، حتى شفع في يوم واحد في الأمور الكثيرة المتجاوزة عن المائة، وجملة الشفاعات كانت مقبولة عند السلطان، فكان في الكل على مراد الشيخ، وكان مراد الشيخ من ذلك إسعاف الحاجات، وجلب المنفعة لبعض، ودفع المضرَّة عن بعض لا أمرًا آخر يتعلَّق بنفسه، فإنه ونحوه مطهر عن مثل ذلك الدَّنس.

والوجه الثاني: أن يكون لهم تقلُّد بمثل ما ذُكر.

فهذا هو الذي يفرُّ منه الخواص في هذا الزمان الأول، وإلا أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، وكان أمر الله مفعولاً.

فالشيخ لا يكون مفتيًا أبدًا لِما في الفتوى من الغوائل التي تنافي مقام المشيخة

=

الأجسام الظاهرة لشخصٍ، ولم تغب الشمس حتى يدرك التفرقة لتعذر عليه معرفة كون النور شيئًا موجودًا زائدًا على الألوان مع أنه أظهر الأشياء، بل هو الذي به يظهر جميع الأشياء.

ولو تصور لله تعالى وتقدس عدم أو غيبة عن بعض الأمور لانهدت السموات والأرض، وكل ما انقطع نوره عنه، ولأدركت التفرقة بين الحالتين، وعلم وجوده قطعًا، ولكن لما كانت الأشياء كلها متفقة في الشهادة والأحوال كلها مطردة على نسقٍ واحدٍ كان ذلك سببًا لخفائه، فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره، وخفي عليهم بشدة ظهوره، فهو الظاهر الذي لا أظهر منه، وهو الباطن الذي لا أبطن منه.

تنبيه: لا تتعجبن من هذا في صفات الله تعالى وتقدس، فإن المعنى الذي به الإنسان إنسان ظاهر باطن، فإنه ظاهر إن استدلَّ عليه بأفعاله المرتبة المحكمة باطن إن طلب من إدراك الحس، فإن الحس إنما يتعلق بظاهر بشرته، وليس الإنسان إنسانًا بالبشرة المرئية منه، بل لو تبدلت تلك البشرة بل سائر أجزائه، فهو هو والأجزاء متبدلة، ولعل أجزاء كل إنسان بعد كبره غير الأجزاء التي كانت فيه عند صغره، فإنها تحللت بطول الزمان وتبدلت بأمثالها بطريق الاغتذاء وهويته لم تتبدل، فتلك الهوية باطنة عن الحواس ظاهرة للعقل بطريق الاستدلال عليها بآثارها وأفعالها. انظر: المقصد الأسنى للغزالي (١/١٣٧).

دون العكس؛ يعني: يكون المفتي شيخًا، وذلك بالتجرُّد والسلوك، فالشيخ إذا كان مفتيًا؛ استبدل ما هو خير بالذي هو أدنى، وخرج من العباء، ودخل في القباء، وذلك مما يُورِث التنـــزُّل لغير الكُمَّل، وأهل التمكين، والمفتي إذا كان شيخًا؛ استبدل ما هو أدنى بالذي هو خير، وخرج من القباء، ودخل في العباء، وذلك مما يُورِّث الترقِّي لطلبه الحق؛ ولذلك كان ابن أدهم قُدِّس سرُّه من أهل التجرُّد والترك، هذا ولا تكن لغير الله حتى يكون الله لك.

قال الله سبحانه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النساء:١٣٤].

يعني: مَن كان يريد بإرادة المنبعثة عن نفسه الظلمانية الشهوانية ثواب الدنيا ومتاعها وأعراضها؛ فعند الله ثواب الدنيا: أي لا عجز عنده، فيعطيه له؛ لكن ليس له في الآخرة من نصيب: أي ثواب الآخرة؛ لأن الدنيا والآخرة لا يجتمعان بالذات، ولا بالأصالة، وكذا ليس له من الله ذاته أيضًا خلاق؛ لأنه مَن بَعُد عن الآخرة.

فبعده عن الله تعالى بطريق الأَوْلى، ومَن كان يريد بإرادته المنبعثة عن قلبه النوراني الرحماني ثواب الآخرة ونعيمها ودرجاتها؛ فعند الله ثواب الآخرة أيضًا؛ لأنه كما خلق الدنيا لأهل الدنيا من غير تحجير، فكذا خلق الآخرة لأهل الآخرة من غير منع وإمساك، فيعطي كلاً منهم ما يريده لكنهم محجوبون بدنياهم وآخرهم عن الله تعالى.

ومَن كان يريد ثواب الدنيا والآخرة جميعًا لكن يريد ثواب الدنيا بالعرض وقدرًا؛ لبلغَه، وثواب الآخرة بالذات وبغير حساب، بأن يجمع بين إرادتي النفس والقلب، وحكمي الروح والجسد، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة جميعًا، فيعطي ذلك المريد ما شاء نفسه بنفسه، وما شاء قلبه بقلبه، وليس له من الله نفسه من خلاق أيضًا.

ومَن يريد الله من الله بإرادته سره الساري في جميع أعضائه وقواه؛ يجد الله، ويجد الدنيا والآخرة أيضًا؛ لأن وجدانهما تابعٌ لوجدان الله تعالى، فمَن وجد الله؛ وجد الكل بخلاف، فإنه قد لا يجد الله، ومن لم يجد الله فوجدان الكل له فقدان،

كما أن من وجد الله، ففقدان الكل له وجدان، فمَن أراد؛ فليرد الله تعالى، ثم ليكن فانيًا عن الإرادة كلها.

كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨]؛ فيكون المريد إذًا هو الله تعالى، فطوبى لَمن كان مرادًا محبوبًا لم يتحرك إلا بتحريك مراده ومحبوبه، وهو الذي يُوحِّد الله بالله لا بالحضور معه؛ يعني: الله يُوحِّد ذاته لا العبد بحضوره معه، فليفهم وليتذكَّر، فإن اللسان يخترق من مثل نداء، والقلم ينبئ عن بيانه وتحريره، إذ ليس ذلك في وسعه.

واعلم أن العين اليسرى، إشارة إلى الدنيا، والعين اليمنى إشارة إلى الآخرة؛ يعني: كل منهما ناظرة إلى ما خُلقت هي له، فإذا عميت الاحتجاب عن الخلق بالحق؛ فتح الله العين التي هي لنفسه؛ وهي البصيرة؛ ولذا جعل العين متعددة، والبصيرة واحدة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب:٤].

فالذي يفتح عينه إلى الله تعالى لا ينظر إلى ما سوى الله تعالى؛ لأن غيرة المحجوب ترتفع عن ذلك، وتأبى عنه، ومن عدم النظر لا يلزم المكابرة مع الربوبية، إذ لكل جسد ما عمل، ولكل روح ما عمل، فكل من الدنيا والآخرة مطلوبة للكُمَّل أيضًا؛ لكن بلسان المرتبة لا بلسان الحقيقة.

فإن لسان الحقيقة مقصور على طلب الله تعالى، ومَن مشى على المراتب؛ لم يعثر، فلينظر الإنسان إلى طعامه: أي شيء هو طعام الدنيا، أم طعام الآخرة، أم طعام لا يجده واحدًا إلا عند البيتوتة عن الله.

كما قال ﷺ: «**أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»[1][2].

---

(١) رواه أبو داود (٣٠٩/٢)، والترمذي (١٤٨/٣).

(٢) قال العطار: وسمى بعضهم هذا المقام، أعني ترك الطعام والشراب مدة تزيد على مدة الصيام من غير فاصل مفطر مع اشتغال من هذه الحالة حالته بالله تعالى بأن يرجع إلى شهود الحق تعالى، ولا يلتفت إلى الأغيار أصلاً، وتكون التجليات القدسية واردة على قلبه بحيث لا يلتفت إلى ما سواها بمقام.

قوله: (بمقام) متعلق بقوله: (قبل) وسمى بعضهم البيات، وهو ﷺ لحق بهذا المقام لهذا الحديث، وما سنذكر بعده وما سواه من الكمَّل يحصل لهم ظل ذلك، كما ورد عن سيدنا عيسى وموسى =

ومنه: يظهر أن الفقر المعنوي يستتبع الفقر الصوري غالبًا؛ لعدم الاعتبار بالدنيا؛ ولذا كان من عيش الكُمَّل الكفاف؛ فإنه رزق آل محمد وعيشه، وقليل مَن يفهمه فافهم، واعلم أنك مع الله تعالى من جميع أسمائه قوةً وفعلاً.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

فيه إشارة إلى أن مَن تشبَّه بالكافرين في صفة من الصفات القبيحة؛ فهو منافق، ومَن تشبَّه بالمنافقين في خُلق من الأخلاق السيئة، أو في فعل من الأفعال الرذيلة؛ فهو عاصٍ، والعصا لمَن عصى، وهو المراد بالعقوبة، ثم هذا التشبُّه قد يؤدي به إلى حقيقة الكفر والنفاق؛ لأن المعاصي وسائل الكفر الشرعي.

كما أن الطاعات وزرائع الإيمان الحقيقي، وكل هذا التشبُّه والإنجذاب إنما هو من الطبيعة المشتركة في شهواتها، ومن النفس المتفقة في هواها، فإذا صلحت الطبيعة بالشريعة، والنفس بالطريقة؛ خرجت عن ذلِّ الإشراك مع الأذلاء، ودخلت في عزِّ الإشراك مع الأعزَّاء، فذلك الذلُّ هو الذلُّ المطلق، كما أن هذا العزَّ هو العزُّ المطلق.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

إثبات لمودَّة المثل، فإن المثل ينصر المثل؛ لمودَّته له، كما أن الضد يخذِّل الضد؛ لبغضه له، ولمَّا كان على المؤمن المخلص أن يكون على ضدية المثل لا على مودة المثل؛ وجب عليه محاربة أعدائه؛ ليزيلهم عن وجه الأرض حتى لا يقع الاختلال في العالم بضديتهم، فإذا أزالهم عن وجه الأرض؛ بقى مع الأحباب الذي يجب عليه أن يحبهم بمودَّة المثل.

ومعنى المثل: هو المثل البشري، ومن هنا ظهر سر قوله سبحانه وتعالى:

=

عليهما صلوات الله وسلامه أنهما صاما أربعين يومًا مع الوصال، غير أن موسى عليه السلام لتغير فيه أخذ قطعة من حشيش ومضغها، فأمر بمواصلة عشرة بعد الثلاثين يومًا التي واصل فيها.

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، المفسرون على أنه صامها وصالاً. وانظر: كشف الأسرار شرح صلاة الشيخ الأكبر (ص٢١٤) بتحقيقنا.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾ [الآية: ١٤٠].

لأن الأعداء مع أمثالهم، وحيثما كانوا؛ فدارهم جميعًا جهنم التي لها البعد غاية البعد من حيث عمقها، كما أن أهلها لهم الضلال البعيد في الدنيا، فما له البعد البعيد للبُعداء، وما له القرب القريب للقُرباء؛ وذلك لأن المؤمنين أيضًا مع أمثالهم، وحيثما كانوا؛ فدارهم جميعًا الجنة الملتف بعض أغصان أشجارها بالبعض، فانظر ما أعجب هذه الحقيقة.

ولمَّا كان الإنسان مظهر الاسم الجامع لكونه في الدرجة الأخيرة من المخلوقات؛ أضاف الله الجامعية إلى الأُلوهية، فالسعداء مجموعون يوم القيامة حسبما جمعهم الهدى في هذه الدار؛ فهم الجامعون المجموعون، وكذا الأشقياء مجموعون في ذلك اليوم حسبما جمعهم الضلال في هذه الدار؛ فهم الجامعون المجموعون.

أمَّا كون كل فريق من الفريقين مجموعين فظاهر، وأمَّا كونهم جامعين، فالسعداء جمعوا بين الأسماء الجمالية بالفعل، وبقيت الأسماء الجلالية بالفعل، وبقيت الأسماء الجمالية في نفوسهم بالقوة، فكل منهم جامعون بين الأسماء كلها، وإن اختلفت تلك الأسماء فعلاً، وقوةً، وظهورًا وبطونًا.

ومن هذا ظهر سرُّ قولهم: الولد سرُّ أبيه؛ لأن معناه فيه ما فيه: أي من الأسماء، فهابيل من أولاد سرّ أبيه من حيث ظهور الجمال، وبطون الجلال، وقابيل سر أبيه أيضًا لكن من حيث ظهور الجلال وبطون، الجمال، فإنه ظهر فيه ما بطن في أبيه، كما أن هابيل ظهر فيه ما ظهر في أبيه، وبطن فيه أيضًا ما بطن في أبيه من سرِّ الجلال، فمَن وُلد هو سيرة أبيه، ومَن وَلد هو صورة أبيه، ثم هذا الأمر يدور مع الآباء والأولاد إلى يوم القيامة.

فقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس: ٣١].

يدور على أربعة أوجه عبارة وإشارة: فالحي المخرج من الميت؛ كإبراهيم عليه السلام من آزر، ومحمد ﷺ من عبد الله.

والميت المخرَج من الحي: كقابيل من آدم عليه السلام، وكنعان من نوح؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦] إذ لا أهلية بين المؤمن والكافر، والحي والميت.

والحي المخرَج من الحي: كهابيل من آدم، وكأولاد المؤمنين إلى يوم القيامة.

والميت المخرَج من الميت: كأولاد الكفار إلى قيام الساعة.

فهذه الأقسام كلها كانت مجموعة في صُلب آدم، إجمالاً حتى أظهرها الله في الدهور، والأعصار تفصيلاً، فكان آدم مبتدأ الموت والحياة، وكانت حياته غالبة على موته؛ ولذا فُوِّض ذبح كبش الموت يوم القيامة إلى يحيى عليه السلام، وخلق الله الموت في ذلك الكبش، وفي الثور أيضًا حين يُذبح عند باب الجنة، كما أنه خلق الحياة في الحوت الذي يُذبح عنده أيضًا، فكما أن الذي يُصلى النار لا يحيا ولا يموت إلى أن يمضى الأحقاب، ثم هو ميت صورة، وحيٌّ معنى.

فكذا الذي يدخل الجنة يحيا أبدًا لما دلَّ عليه جريان الأنهار فيها، وإنما قلنا: إن الذي يصلى النار هو حي معنى بعد مضي الأحقاب لما ثبت في بعض الأحاديث: «إنه ينبت الجرجير في قعر جهنم»: أي بعد ذلك المضي، فقَيد النبات بالقعر دون الوجه؛ إشارة إلى ما ذكرنا، وهو سرٌّ عجيب يعزُّ الإلهام بمثله، وفي مقابلته جريان الأنهار، ونبات الأشجار في سطح الجنة؛ فهي دار الحيوان ظاهرًا وباطنًا، والنار دار الحيوان باطنًا وظاهرًا.

وبما قررنا لك تفطَّنت لسرِّ ذكر الحياة والموت في سورة الملك؛ فإنها سورة قطب الأقطاب في كل عصر، ومن عنده يظهر آثار الموت والحياة؛ فهو المحي المميت لا صورة فقط؛ بل ومعنى أيضًا، فالذي صدَّقه واعتقده؛ كان معه تحت لواء جماله، والذي كذَّبه وأنكره؛ كان معه تحت لواء جلاله؛ لأنه كما أن لكل نبي من الأنبياء يُحشر مع قومه المصدِّقين والمكذِّبين جميعًا صدَّقوه أو كذَّبوه، وذلك لأن علماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل.

ومن هنا يُعلم أن الولي يكون نبيًّا: أي في حكمه، كما أن النبي يكون وليًّا: أي لا يكون نبيًّا إلا بعد ولايته، فإن نهاية الولاية أول درجات النبوة، وفي هذا المقام زلَّت أقدام كثير من السُّلاك؛ لعدم فهمهم عن الله، وعدم وقوفهم عند الشرائع والحقائق، والموفق.

ثم إن الله تعالى لم يقل في الآية: إن ربك جامع..إلخ[1] لأن الجمع في الحشر، وإن كان من مقام الربوبية لا اتصاله بالبرزخ المتصل بالدنيا؛ وهو رب العالمين في الدنيا؛ فله اللطف لأهلها جميعًا؛ لكن الجمع في النار من مقام الألوهية والقهر، كما أن الجمع في الجنة من مقام الولاية واللطف فاعرف.

فإن مَن كان خصمه في الدَّارين الله؛ فلا نصرة له، ومَن كان وليه في الدَّارين المولى؛ فلا خذلان له، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ**﴾ [محمد:١١].

فالله تعالى في حق المؤمنين هو المولى، وفي حق أضدادهم هو المنتقم هذا وههنا نفاق أكبر حقيقي، وكذا كفر حقيقي.

أمَّا الأول: فمن تلوينات الأسماء الإلهية، إذ لكل اسم وجه غير وجه الآخر، وذوق غير ذوق الآخر، فلا يذوقه إلا الكُمَّل، ولا يتحلَّى به إلا الأعزَّة الندر.

وأمَّا الثاني: وهو الكفر الحقيقي، فيستفاد من قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ**﴾ [البقرة:٢٥٦]، فإنه مادام لم يكن المؤمن كافرًا؛ لم يكن مؤمنًا، فعليك بالكفر أولاً، ثم بالإيمان، وإياك والإيمان، ثم الكفر.

ومعنى جمع أهل النفاق، والكفر الحقيقيين في جهنم جمعهم في معنى الاستهلاك في الوجود الحق، والفناء عن التعينات مطلقًا.

فإن الله تعالى إنما خلق جهنم؛ ليذوق الفناء في الآخرة مَن لم يذقه في الدنيا؛ ولذا قال تعالى: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾ [النبأ:٣٠]: أي فذوقوا العذاب للفناء إلى انتهاء الفناء، وفي مقابلته البلايا والمحن المتعلقة بأهل الودِّ والولاء في الدنيا، فأول الحال عذاب، ثم عذب.

في آواخر سورة النساء: قال تعالى: ﴿**لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلّهِ**﴾ [النساء:١٧٢].

فيه إشارة إلى بطلان قول مَن قال: إن المسيح عليه السلام روح مجسَّم، كروح القدس المجسَّم في بعض الأحيان في صورة وحيه؛ وذلك لأن الله تعالى أثبت له العبودية، وقد قالوا: إن العبد هو اسم الروح، والجسد جميعًا، وبه أثبتوا المعراج الجسماني لنبينا ﷺ؛ لأنه تعالى قال: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**﴾ [الإسراء:١]،

---

(١) والآيه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً**﴾ [النساء: ١٤٠].

ولو قال: بمحمد مقام بعبده؛ لأفاد أيضًا لفظ العبد؛ لأن المحمَّدية إنما تكون من حيث الجسمانية.

ولذا لم يُذكر ﷺ بهذا الاسم قبل الظهور بالعين الخارجي؛ لكن لَمَّا كان في العبودية شرف عظيم؛ آثر لفظ العبد على لفظ محمد، ويعرف ذلك من قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1]: أي أنا سيد أفراد الإنسان مطلقًا؛ ولكن لا افتخر بالسيادة؛ بل بالعبودية؛ لأن بالعبودية يمتاز الأُلوهية، ففي كل سيادة شائبة الوهية، فاعرف هذا المقام، وكن فانيًا عن نفسك؛ فإن فيه السلم لا تَملْ إلى السيادات، والكرامات فإن فيه الملام.

قال ﷻ: ﴿**وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [النساء:١٧٢].

وجعله المعتزلة من أسلوب الترقّي فقالوا: بأفضلية الملائكة على البشر؛ فإنهم إذا كانوا أفضل ممَن هو من أفاضل الأنبياء؛ كانوا أفضل ممَن هو دونه، وأصابوا في ذلك؛ لكن لا مطلقًا، فإن صنفًا من الملائكة هم أفضل من البشر لا كلهم؛ وهم الملائكة العالون المهيمون.

فإن قلت: لا شك أن الملائكة العالية المهيمة: أرواح مجرذَدة عن الأجسام مطلقًا: أي أجسام لطيفة كانت كغيرهم من ملائكة السموات، أو أجسام كثفية كالبشر فإنهم مطبوعون من العناصر الكثفية.

وقد سبق منك: إن العبدية اسم للروح والجسد جميعًا، قلت: إن إثبات العبدية للمهيمة على تقديراتهم لا يستنكفون عن أن يكونوا عبيدًا لله؛ إنما هو بطريق المشاكلة على أنهم وإن لم يكن لهم عبادة تكليفية كسائر أهل الملكوت؛ لكن لهم عبادة ذاتية؛ وهي توجهاتهم الأحدية إلى الحضرة الأحدية، واستغراقهم في بحر الشهود والحضور؛ولذا وصفوا بالقرب منه، فإنه لا يقرب من الله تعالى أحد إلا بالكشف والحضور على أنهم أقرب مخلوق إلى عالم الاختراع ليس بينهم وبين أول التجليَّات الإلهية واسطة أصلاً.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٨/٥)، وأحمد (٢٩٥/١).

ومنهم: العقل الأول إلا أن العقل امتاز من بينهم بالسير في عالم الأسماء، والتنـــزُّل إلى مقامات الصفات، فكان هو أفضل منهم أيضًا في جمعية النشأة[١]

(١) قال الصدر القونوي: والنشآت أربعة:
أولها: هذه «النشأة العنصرية»: وهي كالبذرة لباقي النشآت؛ ولها الإدماج والجمع الأكبر.
وبعدها: «نشأة البرزخ»: وإنما منتشئة من بعض صور أحوال الخلق، وبعض أعمالهم، وظنونهم، وتصوراتهم، وأخلاقهم، وصفاتهم، فيجتمع مما ذكرنا أمور تحصل لها هيئة مخصوصة؛ كالأمر في المزاج المتحصِّل من اجتماع الأجزاء التي منها تُركَّب ذلك المزاج كان ما كان، فتقتضي تلك الهيئة ظهور النفس في الصورة المتحصلة من تلك الهيئة، وذلك الاجتماع، وصفة الصورة بحسب نسبة الصفة الغالبة على الإنسان حين مفارقة هذه النشأة.
فيظهر بعضهم في البرزخ؛ بل وبرهة من زمان الحشر في صورة أسد وذيخ وطير؛ كما ورد في الشرِّ، وشهد بصحته الكشف والتعريف الإلهي، وليس بالمسخ والتناسخ المستنكر، فإن القائلين بذلك زاعمون أنه في الدنيا، وهذا إنما هو في البرازخ بعد الموت، فافهم.
ومن غلبت عليه الأحكام الروحانية وإفراط إعراضه عن هذه الدار وهذه النشأة؛ كالشهداء المقبلين في سبيل الله للجهاد بطيب قلب، وصحة إيمان؛ تظهر نفوسهم في صور طيور روحانية؛ كما أخبر ﷺ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَعَلَّقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ تَحْتَ الْعَرْشِ».
وورد في المعنى في الحديث الصحيح:
ان في غزوة أُحُد قال بعض الصحابة لبعضهم معاتبًا له: «أتقعد عن جنةٍ عرضُها السَّمَاوات والأرض، والله إني لأجد ريحها دون أُحُد».
وهذا من بكرة نور الإيمان، وفرط استفراغ الهِمَّة حال التوجُّه مع الإعراض التام عن هذه النشأة وهذه الدار، واستشهد صاحب هذا القول يومه ذلك ﷺ.
والمتوسطون من الأولياء المفرطين في الانقطاع عن الخلق والمجاهدات البدنية أيضًا كذلك، وأما الكُمَّل فإنهم لا ينحرفون إلى طرفٍ من الوسائط، بل يوفون كل مرتبة حقها؛ فمنهم تامُّون في عالم الطبيعة، وتامُّون في الحضرات الروحية؛ كربِّهم سبحانه الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه، فلا تغلب عليهم الطبيعة ولا الروحانية.
ومن سواهم؛ إمَّا: «مغلوب الروحانية، مستهلك الطبيعة».
وإما: «مغلوب الطبيعة المستهلك قواه الروحانية في عرصة طبيعته»؛ كما هو حال جمهور الناس.
و«الكُمَّل المقرَّبون في حقِّ الوسط»، برازخ بين الطبائع والأرواح؛ بل بين المرتبة الإلهية =

=

والكونية، فافهم.

وأما الباقيان من النشآت:

فأحدهما: «النشأة الحشرية».

وثانيهما: «النشأة الاستقرارية في إحدى الدارين» وقد سبق التنبيه عليهما، والله الميسر.

جاء وارد بكتابه في جملته أمر مضمونه: اعمل لي، قلت: اعمل له تصديقًا بوعده، ووعيده، وترجيًا لفضله المرغب فيه، قالت نفسي: هذا لا يصلح لمقامي، قلت: اعمل له بموجب أمره امتثالاً وانقيادًا، قالت: هذا أيضًا لا يصلح؛ لأني حالتئذ أكون عبدًا لأمره لا عبده، قلت: اعمل له لا نظرًا إلى الأمر؛ بل نظرًا إليه من كونه آمرًا، قالت: إن الوارد يأبى هذا أيضًا؛ فإني أكون عبدًا له من كونه آمرًا؛ لا عبدًا حقيقة، قلت: اعمل له؛ شكرًا على ما أنعم به عليّ، قالت: مقامي يَأبَاه، قلت: اعمل له؛ ابتغاءَ وجهه الكريم، قالت: وفوقك مع حظك منه، وابتغاء عملك على علة أمرٍ ينافيه كمال المقام، قلت: فاعمل به سبحانه له، قالت: نِعْمَ الآلة، وبِئْسَ المستعمل، قلت: أعمل ولا اقصد بعملي أمرًا ما، ولا استحضر حال مباشرتي العمل والشروع فيه نية متعلقة بمطلب معيَّن يكون سببًا لانبعاثي نحو العمل، قالت: لا؛ هذا شبيه العبث، قلت: فكيف العمل؟ قال الوارد برسالة النفس: اجتهد ألا تجعل لهمتك وهمك متعلقًا غير الحق؛ لكن تعلقًا جُمْليًا كليًا غير محصور فيما علمت منه أو سمعت عنه، بل على نحو ما يعلم نفسه في أكمل مراتب علمه بنفسه وأعلاها، ثم ترى أنه العامل بك لا أنت.

هذا بعد أن يستصلحك فيكسبك وصفه الإطلاقي كما أخبر إمام الكُمَّل ﷺ بقوله: «إِنَّ اللهَ قَالَ عَلَى لسان نبيِّه». وفي رواية: «عَلَى لِسَانِ عَبْده سمع الله لمن حمده».

وإكساب ذلكَ الوَصف هو أن يصدق في حقكَ حكم التمحُّض المَنبَّه عليه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] و: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وحكَم التشكيك المنبه عليه بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

فمتى صحَّ لك ذلك وراثة محمدية كان قولنا: يعمل بك وأنت وغيرهما من الضمائر إشارة إلى الشأن الذي قيَّد فعله سبحانه المطلق الذي لا وصف له قبل هذا التقييد الشأني، ولا اسم، ولا حكم، ولا رسم، وإنما عرض له بحكم هذا التقييد ظهورٌ بوصف، واسم، وحكم، ورسم، وتبع هذا التقييد الشأني المنبه عليه تقييدات أُخَر كانت مدرجةً ولازمةً للتقييد المنبَّه عليه؛ كقيْد الأزمنة والأمكنة والمواطن والمراتب التابعة لمرتبة الشأن المذكور والنشآت، فإنه؛ أعني هذا الشأن منبع كل ما ذكر ومحتده.

فإذا تحققت بهذا الوصف الإطلاقي من حيث هذا الشأن الجمعي الأُحُديِّ صدرت منك الأفعال، وصدروها من جناب ربك دون غرضٍ ولا استكمال بها، لما ثبت في بعضِ أذواق أمهات

=

والذوق، وإن كانوا أفضل منه مكانةً وخلقةً؛ فإن الملائكة خُلقوا من النور، والبشر من العناصر.

ولذا كان ﷺ يقول: «**واجعلني نورًا**»(١)، فمن أفضليتهم بالرتبة العليا، والخلقة الفضلى لا يلزم أفضليتهم على البشر من كل الوجوه؛ بل هم جزء الإنسان الكامل؛ لأن الله تعالى خلقهم على جناح واحد؛ وهو جناح الجمال؛ وخُلق الإنسان على الجناحين؛ وهما جناح الجمال والجلال على ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص:١٥].

فكما أنه فرَّق بين مَلك ومَلك؛ كملائكة الأرض، وملائكة السماوات، والملائكة المعبَّر عنهم بالمهيمة؛ فكذا فرَّق بين بشر وبشر، فمن البشر مَن هو أفضل من كل البشر، ومن كل الملائكة ولو من بعض الوجوه، فإن الفاضل من وجه قد يكون مفضولاً من وجه آخر فاعرف.

والحاصل أن المهيمة وإن كان لهم فضل ظاهر من حيث نورانيتهم الغالبة،

=

المقامات الكبرى أنه سبحانه كمل فأوجد؛ لم يوجد ليكمل، فإيجاده نتيجة كماله، ليس كماله نتيجة إيجاده، فإن كنت مُحْذيًّا على صورة حضرته فكذلك فلتكن، فيصدر الفعل المحمود المسمى خيرًا منك؛ لكونه خيرًا؛ لا لغرض يصحبه تَوَخِّي حصوله بذلك الفعل.

ومعنى قولي «لكونه خيرًا» ليس بمعنى أن العلم بِخَيْرِيَّتِهِ أوجب صدوره منك؛ بل تصير بحيث لا يمكن أن يصدر منك إلا من هذا شأنه.

وترى فعلك مع هذا الوصف الإطلاقي مطابقًا لأحكام المراتب الشرعية والعقلية، لكن غير منحصر فيها بالنسبة إلى إفهام المحجوبين؛ كما هي الأفعال المنسوبة إلى ربك لا يمكن معرفة أسرار جميعها ولا تنحصر في ميزان معين ولا يستوعب أحد ما يتضمَّنه من الحِكَم، ولا توجب الحكمة عليه فعل أمر ما، وإن لم يخل فعله من الحكم البالغة؛ بل يفعله هو عين الحكمة، ولبّ المصلحة، وثمرة الكمال الذي هو أصل أيضًا لكمال آخرَ مستجن في كماله الذاتي الأول الظاهر بواسطة الأسماء وأحكامها.

والعبد على خُلُق سيده، وإن جهل أمره ومقصده، فذلك أيضًا عنوان صحة حاله الدال على كمال مضاهاته.

وكفاه ذلك شرفًا وبهاءً ورئاسة تعلو على كل رئاسة وتحكم على كلّ كمالٍ مقيَّدٍ وحال، والله أعلم.

(١) رواه مسلم (٥٢٨/١)، وأحمد (٢٨٤/١).

وقربتهم الباهرة إلا أن العقل الأول المخلوق في الصورة المحمَّدية له ما لهم مع ما له من فضل باطن زائد على ما لهم.

أمَّا **الأول**: فلأن المهيمة وإن كانوا أنوارًا عالية؛ لكن العقل الأول أيضًا من الأنوار، لأن قوله: و(**اجعلني نورًا**)؛ يشير إلى أن أصله من الأنوار إلا أنه لمَّا عارضه العين الخارجي، والتسبيح الصوري؛ دعا بأن يجعله الله نورًا، ويردَّه إلى أصله الأول.

ولا شك أنه مستجاب فيه فهو روح في صورة جسد، وعقل في ذي نفس، ومن هذا قال: «**ينام عينا قلبي**»[١]؛ فإنه يشير بذلك إلى أن الغفلة البشرية لا تطرأ على قلبه؛ بل هو من الاعتدال بحيث إنه قلب الأقالب؛ فكان بهذه الحيثية نورًا عاليًا مبصرًا في الصلاة من جميع جهاته التي تُعطي التقييد لكمال إطلاقه، وأيضًا قربتهم وإن كانت قربة زائدة من حيث إنه لا واسط بينهم وبين الله.

فالعقل الأول له جهتان: جهة الواسطة التي تعطيها الأسماء الجزئية، والجهة التي بلا واسطة؛ وهي التي تعطيها الأسماء الكلية الذاتية.

ولذا قال ﷺ:

«**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب ولا نبي مرسل**»[٢].

فإنه أشار إلى عدم الواسطة، وتلك الجهة أعلى فيه مما في المهيمة، كما دلَّ عليه السلب؛ وهو انه لا يسعه فيه ملك متقرِّب: أي فحاله في ذلك الوقت أوسع من حال مَن عداه أيًّا كان[٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قال سيدي عبد الكريم الجيلي: فالأنبياء والأولياء والملائكة وسائر المقربين من سائر الموجودات ليس عندهم من المعرفة الذاتية ومحمَّدٌ ﷺ الذي هو قلب الوجود هو الذي عنده الوسع الذاتي للمعرفة الذاتية، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «لي وقتٌ مع ربِّي لا يسعني فيه مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ» انتهى.

=

وأمَّا **الثاني**: وهو إثبات الفضل الزائد له من وجه آخر أنه: أي العقل الأول المصوِّر له مقام الرؤية من جميع حضرات الأسماء دون غيره، فالمهيمة وإن كان لهم شهود تام؛ لكن شهودهم بحسب أسمائهم المخصوصة، ولهم في ذلك مقام معلوم لا يتعدونه، فأين الرؤية الخاصة من الرؤية العامة المحيطة؟ هذا والله الشكور لعبده الشكور.

***

=

وذكر الشيخ في هذا المؤلَف العظيم اتصاف سيدنا ﷺ بجميع الأسماء الحسنى، وجعل يذكر الأدلة على تلـــك الكمالات (ص ١١٥، ١١٦)، وانظر: محاسن الأخبار في فضل الصلاة على النبي المختار للأبشيهي (ص٣٦٥) بتحقيقنا.

obeikandl.com

سورة المائدة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [المائدة:٦].

أيها السالكون مسلك الإيمان الشهودي بعد الإيمان الغيبي، قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ [المائدة:٦] إذا أردتم القيام إلى المعراج الحقيقي، والتوجُّه العلوي، والوصل الكلي، وفي ذلك دلالة على أنه لا بد من تحقق هذه الإرادة، فإن سير الإنسان دوري لا مستطيل، فمَن نزل إلى أسفل سافلين؛ وجب عليه أن يصعد إلى أعلى علّيين الذي تحرك منه إلى هذا العالم فكان ذلك كالوطن الأصلي، ولا ريب ان الغريب يميل إلى وطنه.

وأمَّا قوله ﷺ: «**فطوبى للغرباء**»[1]؛ فالغرباء فيه: هم الغرباء الحقيقيون، وهم الذي وصلوا إلى مقاماتهم العلوية الأصلية، فكانوا بالنسبة إلىمعارفهم أهل الأوطان، وبالنسبة إلى غيرهم، وهم كثيرون أهل الغربة إذ لا يعرفهم أحد إلا الله، أو مَن عرفه اله أو ألحقه به في مقامه وهم قليلون، فهم بالنسبة إلى أكثر الخلق غرباء؛ لقلة معارفهم؛ بل لا معارف للكُمَّل الندر في أعصارهم، فهم المعلومون المجهولون فافهم جيدًا.

قوله ﷻ: ﴿فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦].

: أي وجوه حقيقتكم، وهويتكم عن أدناس التعلُّقات الروحانية، وأزيلوا عنها الحُجب النورانية اللطيفة بدائها بالأمر بإزالة هذه الحُجب؛ لأنها أول ما احتجب به الحقائق، والهويات في سيرها إلى عالم الخلق، وعند هذه الحُجب خلق كثير محجوبون محبوسون لا طريق لهم إلى خرقها إلا العناية الأزلية.

وفي الغُسل: إشارة إلى محو الهيئات النورانية التلوينية مطلقًا؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]: أي لا يسر سر الهُويَّة الذاتية إلا المطهَّرون عن أدناس التعلُّقات مطلقًا.

قوله ﷻ: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦].

---

(١) رواه مسلم (١/١٣٠)، والترمذي (٥/١٨).

: أي أيديكم الكاسبة لفوائد الدَّارين، فإن الدنيا والآخرة حِرما على أهل الله، وحدَّد الأيدي دون الوجوه؛ لِما إن الدنيا والآخرة محدودتان مقصورتان؛ لكونهما من عالم الخلق بخلاف عالم الحقيقة؛ فإنه لا نهاية له.

فالظاهر وعالم الملك محصور، والباطن وعالم الملكوت غير محصور، وحدَّدها إلى المرافق؛ لأن ما وراءها يُعدُّ من البدن، فتطهيره داخل في تطهير الحقيقة الكلية.

قوله ﷻ: ﴿وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦]، لم يقل: رؤوسكم عطفًا على المغسولين الأولين؛ لأن الرأس إشارة إلى العقل والخيال؛ وهما ممسوحان لا مغسولان، إذ لو غُسلا وأزيل حكمهما بالكلية؛ بطل مرتبة الإنسانية.

فالإنسان مَلك بالعقل، وبَشَر بالخيال؛ إذ لا خيال للمَلك؛ لكونه خارجًا عن الطبع العنصري داخلاً تحت الطبيعة الكلية، وفيه إشارة إلى أن الرأس نازل منزلة المرتبة العرشية، وليس العرش عن عالم الكون والفساد مطلقًا، وكذا مظهره في عالم الأنفس، وكل وارد يُردُّ على القلب، فإنما يُردُّ أولاً من مرتبة الخيال، فإن بقي في تلك المرتبة؛ فهو الشعور: أي الإدراك من وراء الحجاب، وإن تنزَّل إلى القلب؛ فهو علم الأنبياء والأولياء.

ولذا قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤].

وقوله ﷻ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾ [المائدة:٦].

دلَّ التحديد على أن الأرجل مغسولة لا ممسوحة، وغسلها إشارة إلى إزالة اكتسابها الطبيعة، وأعمالها النفسانية؛ لأن الأرجل متصلة بالبطن حقيقة بخلاف الأيدي، وسرُّ التحديد كما سبق؛ لأن ما وراء الكعبين يُعدُّ من البدن: أي عُرفًا، وإن كانت الأيدي لغة تعتبر من الإبط، والأرجل من الورك؛ فهذه الأعضاء الأربعة إذا غُسلت غُسلاً حقيقيًا؛ فقد غُسلت الأعضاء والقوى جميعًا، وأُزيلت التعلُّقات بالكلية؛ لأن الحجاب إمَّا روحاني، وإمَّا جسماني.

فالأول: أشير بغسل الوجوه، ومسح الرؤس.

و الثاني: بغسل الأيدي والأرجل.

فإذا كُشف الغطاء عن وجه الحقيقة من هذين الحجابين؛ لم يبقَ فيما ورائهما إلا حجاب يسير نوراني، كحجاب السحاب الأبيض على الشمس، وهذا هو القدر الذي يتكلَّم فيه، وأمَّا التفصيل فلا يُؤذن لأحد في ذلك إلا لأهله؛ وهم الصدِّيقون الحافظون للأسرار المراعون للأطوار.

قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٢١].

أي: إذا وجب عليهم دخول تلك الأرض، فكيف يجوز دخول مصر فرعون وهو الأظهر، والمصر البلد العظيم من مصر الشيء يمصره أي: قطعه سمي به لانقطاعه عن الفضاء بالعمارة، وقد تسمى القرية «مصر» كما تسمى المصر قرية، وهو ينصرف ولا ينصرف فصرف هاهنا، لأن المراد غير معين، وقيل: أُريد به مصر فرعون، وإنما صرف لسكون وسطه، أو لتأويله بالبلد دون المدينة، فلم يوجد فيه غير العلمية قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة:٦٢] تعليل للأمر بالهبوط أي: فإن لكم فيه ما سألتموه من بُقُول الأرض.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦].

أراد أرض القدرة بقرينة أن الله تعالى غذَّاهم في التيه بالمنِّ والسَّلوى، وذلك من عين المنَّة، ومحض القدرة لا بسبب من الأسباب المتعلِّقة بعالم الحكمة.

فالتية أرض القدرة، ومِصر أرض الحكمة، والمدة فيما بينهما من حيث القطع والوصول أربعون سنة، فإن الداخل في عالم القدرة؛ وهو أهل الفناء، وإن خرج إلى عالم الحكمة، وهو عالم البقاء، فإن بقاءه لا يكمل له إلا في أربعين سنة، أو في قريب

فالتية أرض القدرة، ومِصر أرض الحكمة، والمدة فيما بينهما من حيث القطع والوصول أربعون سنة، فإن الداخل في عالم القدرة؛ وهو أهل الفناء، وإن خرج إلى عالم الحكمة، وهو عالم البقاء، فإن بقاءه لا يكمل له إلا في أربعين سنة، أو في قريب منها على حسب ما يقتضيه استعداد كل فانٍ وباقٍ، فإن الأكمل استعدادًا قد يقوم له الأمر في أقل من مدة الأربعين سنة فصاعدًا على ما شاهدته في شيخي الإمام الأكمل السيد عثمان الفضلي قُدِّس سرُّه.

فظهر أنه كما أن الدخول في مصر الصورة المتعلّقة بالأسباب لا يحصل إلا مدة أربعين؛ ليأكل منها أنعامهم وأنفسهم الحيوانية؛ فكذا الدخول في مصر الوجود بعد الفناء؛ لا يكمل إلا في تلك المدة؛ ليأكل منها أنعامهم، وأنفسهم الإنسانية، فأنعامهم أنفسهم المزكّاة، وطبائعهم المصفّاة تأكل مما يأكل الناس من الأغذية الصورية، وتكون لهم نورًا في عروقهم، وأنفسهم، وأرواحهم المطهَّرة عن دنس التعلُّقات الفانية تأكل مما لا يأكله الناس من الأغذية المعنوية، فهذا التمتُّع من كلا الوجهين لا يحصل لهم إلا بعد الارتداد إلى عالم البقاء، فإن عالم الفناء قد لا يقتضي الغذاء إذا كان الانجذاب قويًا، والشكر غالبًا.

قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

اعلم أنه كما أن في الآفاق شرائع ومناهج بالنسبة إلى أهل الآفاق بها يتديَّنون، وعليها يَجرون، فكذا في الأنفس شرائع ومناهج بالإضافة إلى أهل الأنفس؛ لأن المشارب مختلفة، ومن عين الرحمة[1] تنوعت التجليَّات، واختلفت المشارب.

---

(١) عين الرحمة هو رسول الله سيدنا محمد ﷺ، الرحمة: عطف، وميل نفساني غايتها التفضُّل والإنعام. وجعل ﷺ **عين الرحمة**: أي نفسها إشارة إلى أنها مُزجت بذاته، واستحال انفصالها عنه، حتى كأنه هي، وكأنها هو: أي ركب منها، وطبع عليها، وخُلق منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] يجوز نصب (رحمة) على الحال على أنها بمعنى اسم فاعل، أو على حذف مضاف: أي ما رحمة، أو مفعولاً من أجله، والعالمون قيل: الجن والإنس وعليه الجمهور، وقيل: الملائكة، وعليه غير واحدٍ من المحققين، ويدل عليه أيضًا: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وعلى كلٍّ فهو رحمةٌ للمؤمنين بالهداية والأمان، وللكافرين بتأخير العذاب، ولسائر الحيوانات؛ لأن =

=

بوجهه يستسقى الغمام، وبدعائه ينـــزل مطر السماء فينبت النبات، ويكون لها سقيًا ورعيًا.

وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر؛ لأن كل نبيٍّ إذا كُذِّب أهلك الله من كذَّبه، وسيِّدنا محمد ﷺ أخر من كذَّبه إلى الموت أو إلى القيامة، وأما من صدَّقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة، فعُلم أن ذاته رحمة للمؤمنين والكافرين، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**﴾ [الأنفال:٣٣].

وروى الدارمي والبيهقي حديث: «**إنما أنا رحمةٌ مُهداة**».

وقال بعضهم: زَيَّنه الله بزينة الرحمة، فكان وجوده رحمة، وجميع شمائله رحمة على الخلق.

وقال أبو العباس المرسي ﷺ: الأنبياء كلهم خُلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ هو عين الرحمة.

لا يُقال: كيف هو رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأنفس والأموال؟

لأنَّا نقول: إنما ذلك لمن أدبر واستكبر، ولم ينفع فيه وعظ ولا إرشاد، ومن أوصافه تعالى: الرحمن الرحيم والجبار والمنتقم.

وفي الشفاء: حُكي أنه ﷺ قال لجبريل: «هل أصابك من هذه الرحمة شيءٌ؟ فقال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عليَّ بقوله: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾ [الحاقة: ٤٠]».

ولما شُج وجهه ﷺ، وكُسرت رباعيته يوم أُحد، قيل له: «**لو دعوت عليهم، فقال: إني لم أُبعث لعانًا، وإنما بُعثت داعيًا ورحمةً، اللَّهُمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»: أي اغفر لهم هذا الشيء الخاص، الراجع لذاتي لا مطلقًا، وإلا أسلموا كلهم. ذكره ابن حبان.

وإنما دعا عليهم يوم الخندق بأن يملئ الله بطونهم وبيوتهم نارًا؛ لأنهم شغلوه عن الصلاة الوسطى، فكان الدعاء عليهم لله تعالى لا لحظ نفسه انتهى.

وبالجملة: نعمتان ما خلا موجود عنهما، ولا بُدَّ لكل مكونٍ منهما نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، والكل منه ﷺ.

أما الأول: فلأنه ﷺ السبب في إيجاد الجميع.

قال في المواهب: روى الحاكم في صحيحه: «**إن آدم عليه السلام رأى اسم محمد ﷺ مكتوبًا على العرش**». وإن الله ﷻ قال لآدم: «**لولا محمد ما خلقتك**».

وفي حديث سلمان عن ابن عساكر قال: «هبط جبريل على النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول لك: إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيبًا، وما خلقت خلقًا أكرم عليَّ منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك، ومنـــزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا ».

وصحَّ عن ابن عباس وله حكم المرفوع: «ولولا محمَّد ما خلقت آدم، ولولا محمَّد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب، فكتبت عليه: لا إله إلا الله، محمَّدٌ رسول الله، فسكن». وهذا من باب الحكمة، والمصلحة الراجعة إلى العباد؛ لإظهار عظمة سيِّدنا محمد ﷺ، وإشهار كرامته عند الله تعالى بجعل وجوده سببًا في وجود الموجودات.

وأما الثاني: فلأن كل نعمة وصلت إلينا، أو تصل وإن كانت في الحقيقة من الله تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ [النحل:٥٣]، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الواسطة في ذلك الذي

=

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الآية:٤٨]: أي على مشرب واحد لا يُعطي إلا فيضًا أُحاديًا؛ لكن الله تعالى لم يشأ ذلك؛ بل كان من الواجب في الحكمة اختلاف المشارب، وتباين التجليَّات، وتفاوت الفيوض، وتكثير الواردات؛ لأنه تعالى واسع لا ضيق في تجليَّاته، ولا حصر في فيوضه، بل يجري

=

تظهر على يده تلك النعمة، وبيده مفتاح خزائنها، سيدنا محمد ﷺ، كما قال ﷺ: «**إنما أنا قاسمٌ والله يعطي**».

وكما قال ابن مشيش قال الشارح: (ولا شيء إلا وهو به منوط).

هذا وما ذكرناه من أن معنى (**عين الرحمة**): نفسها، مبالغة في اتصافه بها، هو أحد احتمالين: ثانيهما: إن المراد بالعين عين الماء: أي مقرّه الذي يجتمع فيه، ثم يتفرق من ذلك المقر سواقي للسقي والانتفاع، فسُمِّي ﷺ عين الرحمة: أي مقرًّا لها؛ لأن الله أبطن فيه ما شاء أن يقسمه لخلقه، وجعله مقرًّا لانصباب كل ما قسمه لخلقه في سابق علمه، كما يأتي في شرح قوله بمركز الفهوم، فهو استعارة تصريحية قربتها الإضافة إلى الرحمة.

تنبيه: قال في الرماح بعد تقرير نحو ما أصلناه من عموم رحمته ﷺ ما نصّه، وهو المُراد بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]؛ لأن أصله ﷺ رحمة، ولا يلزم من شمول الرحمة عدم وقوع العذاب والوعيد في الغضب؛ لأن ذلك من مقتضيات الكمالات الإلهية، فإن الكريم وإن أُعطي كرمه لولا بطشه وغضبه وعذابه ما خيف جانبه، ولو أمن منه هذا الحال احتقر جانبه، وليست هذه صفة الكريم ولا ينبغي له هذا، فتبيَّن لك أن صفة الكريم الغضب والبطش والتعذيب؛ ليكون جانبه معظمًا مُهابًا، كما كان مرجوًّا لرحمته وعفوه انتهى.

تنبيه آخر: من رحمته ﷺ ترغيبه لأمته في التراحم في الحديث: «**الراحمون يرحمهم الرحمن؛ ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء**».

«**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**».

«**مَن لا يَرحم لا يُرحم**».

«**مَن لا يَرحم من في الأرض لا يرحمه من في السماء**».

«**مَن لا يَرحم الناس لا يرحمه الله**».

«**ما نُزعت الرحمة إلا من شقيٍّ**».

«**لا يدخل الجنة إلا رحيمٌ، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: ليس رحمة أحدكم نفسه وأهل بيته حتى يرحم الناس**».

تجليَّاته المتنوعة أبد الآباد في كل موطن ومقام دنياويًا، وأخراويًا، وبرزخيًا، أو حشريًا، أو جنانيًا، أو كثيبيًا.

وإليه يشير قولهم: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق: أي كل خلق من المخلوق يتنفَّس بنفس مخصوص من الأنفاس الرحمانية لا يشاركه فيه غيره، وذلك من باب الغيرة الإلهية حتى لا يطَّلع أحد على أحد في طريقه؛ لأنه ليس هناك إلا السير الأَحدي حقيقيًا كان أو نوعيًا، فافهم هذا السرَّ جدًا.

فالشرعة هي: شرعة الأعمال التي يردها السالك؛ لتهديه إلى عين الأجر الأخروي، المنهاج هو: منهاج السير الأحدي الذي يرده السائر؛ ليوصَّله إلى عين النور وهو نور السماوات والأرض، وضياء الأجسام والأرواح.

فاختلاف المناهج الشرعية؛ يستلزم اختلاف المناهج السيرية؛ لأن الظاهر عنوان الباطن، والمجاز قنطرة الحقيقة؛ لكن لأكامل الناس أحوال غريبة في شرائعهم ومناهجهم يخفونها عن الناس؛ لأن اختلاف المذاهب ليس من حيث الحقائق؛ بل من حيث الصور، فلهم سير أحدي من حيث الصور والحقائق جميعًا لا يوقعهم في الاختلاف؛ اختلاف الناس.

وإن كانوا يتأدَّبون بالأدب التي نُدب إليها ظواهر الشرائع، كمَن كان متقلدًا بمذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى؛ فإنه يجرى على مذهبه في الصورة من غير إخلال بشيء من اجتهاده وفروعه؛ لكنه ليس بمتقيِّد بواحد من المذاهب في الحقيقة؛ بل يجري سنن واحد في السير على المنهاج النبوي، فله حكم الأدلية، وحكم الصدر الأول.

فإن مرتبة الصحابة رضي الله عنهم باقية إلى يوم القيامة[1]:

(١) إن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كلُّهم أنوارٌ ليس فيهم ظلمةٌ؛ لتوهُّج ضياء شمس النبوة عليهم، وكمال محاسنهم، ثم ان الشمس إذا غربت تظهر الظلمة عقيب غروبها ولا تظهر إلا الكواكب الكبار، فكلما تغرب عن الأفق تكثر الظلمة، فتظهر سائر الكواكب إلى أن يظهر فجر الوعيد، وأيضًا الصحابة كانوا أهل حقٍّ، وسُنَّة، وطاعة، وعدل، ومعروف، ثم ظهر بعدهم عكس ذلك من الباطل والبدَع، والمعاصي، والظلم، والمنكر، فبثَّ الله تعالى في سائر البلدان رجالاً قلَّدهم سيوفًا ماضيات تقطع أعناق المنكرين عليهم.

أي لَمن كان من الخواص لا لَمن كان من العوام، فإن العام إخوان النبي ﷺ، كما أن الخواص أصحابه، ولما كانت مراتب الكشوف متباينة؛ وقع بعض الناس في بعض من أهل البداية والتوسُّط فيما يخالف مرتبة كشوفهم.

وأمَّا أهل النهاية فلمَّا كانت مشاربهم من نهايات المشارب، وكشوف من غايات الكشوف؛ سلّموا الأمور إلى أربابها، وسكتوا عن الطعن، والعراض لما علموا من أن الوصول إلى الحقيقة لا يعطيى ذلك، وأن الواصل الحقيق بكل أفراده؛ كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفها؛ فلذا كان كلماتهم مناسبة؛ بل ربما كانت متوافقة لِما إنها من عين الجمع الأحدي، وليس وراءه غاية؛ ولذا سلَّم بعضهم عن لسان بعض؛ لأن الإنسان لا يطعن في نفسه، فاعرف هذه الإشارة المفصحة عن المراتب وتباينها.

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

يشير إلى أعين العزَّة؛ لأن الذِّلَة لأهل العزّة عزة، كما أن التكبُّر لأهل الكبرياء تُواضع.

وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

أي: وللمؤمنين الذين أعزَّهم الله بعِزَّة نفسه، وبعِزَّة رسوله؛ فإنهم حزب الله الغالبون وإنهم الجند المنصورون، فلهم الفعل الذي هو عين العِزَّة ولأعدائهم الانفعال الذي هو عين الذِّلة.

فالمؤمنون في درجة الذكورة، وإن كانوا إناثًا، والمنافقون والكافرون في درجة الأُنوثة وإن كانوا ذكورًا، فعليك بالتشبُّه بالذكور حتى تكون مذكَّرًا حقيقيًا.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ [المائدة:٦١].

أي: دخل المنافقون بالنفاق الشرعي مجالسكم؛ ومعنى النفاق الشرعي: إظهار الإيمان، وإبطان الكفر.

قال تعالى: ﴿قَالُوا﴾ [المائدة:٦١]؛ بالقول اللساني بالاعتقاد الجناني.

قال ﷻ: ﴿آمَنَّا﴾ [المائدة:٦١]؛ كإيمانكم المشتمل على الصدق، والإخلاص، واليقين؛ وفيه إظهار الدعوى، وإخلاء القلب عن المعنى.

ولذا قال تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾ [المائدة:٦١]؛ الذي هو إنكار الحق؛ كنبوة رسول الله ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة:٦١].

يعني: كان آخر حالهم كأوله على حد سواء؛ لأن قلوبهم كالحجارة، وأشدُّ قسوة، فلم ينجع فيها العظة، ولم يحصل من الصحبة إلا النفرة لعدم المجانسة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:٦١].

يعني: إنكم تفترون بظواهرهم مما قالوا: آمنا فتظنون أنهم مخلصون في إيمانهم؛ لأنكم إنما تحكمون بظاهر الحال، ولا تعلمون باطنه؛ بل الله يعلم ما يكتمون، ويسرِّون من الكفر؛ فهم مؤمنون عند الناس، وكفار عند الله، وقولهم: آمنا لا اعتداد به في الحقيقة.

هذا وللآية معنى آخر من طريق الإشارة وهو: إن المراد بمجيئهم: دخولهم في عالم العين الخارجي، ووصولهم إلى حدِّ التكليف الشرعي، فهم بسبب أنهم طُبِّعوا على الكفر يقولون: آمنا: أي بالإيمان العارضي؛ لكن لا يُعتدُّ به في نفس الأمر؛ لأنهم قد دخلوا في هذا العالم بالكفر الذاتي الأصلي الذي هو في علم الله بحيث لا يتغير أصلاً؛ ولذا خرجوا من هذا العالم بالموت الطبيعي مع ذلك الكفر؛ لأن السعادة العارضة لا تُؤثِّر في الشقاوة الذاتية بالتغيير، والعبرة بالخواتم، فإذا كانت الخاتمة على الكفر؛ وهي مرآة الفاتحة؛ كانت الفاتحة على ذلك، وإن كانت مكتومة مستورة علينا.

والله أعلم بهذا الأمر المكتوم؛ يعني: يعلم أن سابقتهم الكفر، ولو بالقوة؛ إذ لا إيمان ولا كفر لا في عالم الأرواح، ولا في عالم العلم، وإنما ظهر ذلك في عالم العين الخارجي بأسباب مخصوصة.

فإذا كانت السابقة هي الكفر؛ فليكن الخاتمة أيضًا كذلك؛ لأنه لا يجوز التغيُّر في لوح القضاء والقدر، فظهر إن من الناس مَن هو مؤمن عند الله، وعند الناس، ومنهم مَن هو مؤمن عند الناس لا عند الله، ومنهم مَن هو مؤمن عند الله لا عند الناس، وكذا حال الكفر فاعتبره.

ثم في الآية معنى آخر حقيقي يذوقه المحققون وهو: إن المراد بالنفاق؛ هو النفاق الأكبر الحقيقي، وهو أن يكون للمحقق وجه في كل مظهر من المظاهر، وفي كل مذهب من المذاهب؛ لجمعية نشأته من حيث إنه إنسان أكمل، فهو يقول في الظاهر:

آمنا؛ لكنه يريد به الإيمان الرسمي الحجابي، فيظنُّ الناس إن إيمانه كإيمانهم مع وجود الفروق بينهما، فإن أحدهما إيمان عن عين، والثاني إيمان من وراء حجاب، وقد دخل في عالم العين بالكفر الحقيقي؛ الذي هو الكفر بالطاغوت، وستر الوجود المجازي بالوجود الحقيقي؛ وهو الذي يُقال له: التخلُّص عن شوائب الغيرية، كما هو صفة المخلَص بالفتح.

وقد خرج بهذا الكفر أيضًا، والناس لا يدرون ما إيمانه، وما كفره، والله أعلم بالأمر المكتوم فيه، فعليك بالكفر قبل الإيمان؛ ليصادف الإيمان محلاً خاليًا، وإياك والإيمان قبل الكفر؛ فإنه لا يثبت بحال، فإذا كنت أنت من أهل الكفر، والإيمان الأول؛ كنت منافقًا بالنفاق الأكبر، فلك وجه في كل شأنٍ، ولا يعلم حالك إلا الرحمن.

ومن هذا المقام كان الطائفة الشهيرة بالملاميتة يحضرون مجالس اللهو ونحوه؛ ليطالعوا سرَّ الغيب، وصور القضاء، والقدر في عالم العين الخارجي، ويطَّلعوا على أن العلم ليس إلا على هذا العين، والناس إذا رأوهم في تلك المجالس؛ يظنون بهم ظنَّ السوء، ويقولون: إنهم من أهل الملاهي، وأين هم من ذلك؟

فإنهم غائبون بأرواحهم، حاضرون بأشباحهم، معلومون بصورهم، مجهولون بحقائقهم؛ لأنهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فكيف يدركهم العقول، ويدخل فيهم الشعور؟ ولذا ورد: «**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**»[1].

ومن جملة تلك القباب حضورهم في مجالس أهل الغيبة، فإن الله تعالى جعل ذلك من أسباب سرِّهم.

وفي ذلك تلوين التمكين حيث إن الله أراهم على كل صورة في الدنيا من حيث تلوُّن تجليَّاته، وعُرف من ذلك إن أهل السرِّ والبطون أقوى في الحال والمقام من أهل الكشف والظهور، إذ لا يجوز للعبد أن يظهر في صورة الرب لِما فيه من اختلال المراتب، ولم يذقه إلا الندر، فإن الناس لهم حرص عظيم على ظهور خوارق العادات

(١) ذكره الجرجاني في التعريفات (١/٢٩٥).

من قول مَن قال: عقد الخلائق في الإله عقائد، وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوا؛ يستلزم أن يكون اعتقاد المحقق كاعتقاد المقلِّد، وإيمانه كإيمانه، وعمله كعمله.

فالعلم يدخل في كل باب من أبواب المساجد والكنائس، والعمل لا يدخل إلا في باب الأول، فإنه ليس للعبد الإطلاق في العمل، وإلا ما جاء الشرع فلا بد من الوقوف عند الشرعي العملي.

وأمَّا الاعتقاد ففرق بين اعتقاد واعتقاد، فالمقلِّد يعتقد أن الصنم إله، ويخطئ في نسبة الأُلوهية إليه، والمحقق يعتقد أن الصنم ليس بإله من حيث النسبة التي هي لله تعالى، وإلا كان الإله متعدِّدًا؛ بل يعتقد أن الصنم مُظهر الاسم المضلِّ يضلُّ الله به الخلق، ولا جرم أن كل الأشياء أصنام و غيرها موجودات، ولا بد لكل وجود من مُوجد متجلٍّ فيه ببعض الأسماء المناسبة بحاله.

وذلك الاسم منسوب إلى مَن له الأُلوهية الحقيقية، فلو عرف عابد الصنم هذا المعنى؛ ما عبده غافلاً عن عبادة الله تعالى؛ بل كان يرفض تلك النسبة، ويطرحها عنه مستغرقًا في شهود الحق تعالى، وقصر العبادة عليه، فإذًا الاعتقاد في الأشياء اعتقاد في الأسماء، والاعتقاد في الأسماء اعتقاد في المسمَّى، والاعتقاد في المسمَّى هو الرجوع إلى التوحيد، ولا يحصل إلا عن علم كامل، فعليك بطريق هذا العلم، وكن واصلاً إليه بلا إلحاد في الاعتقاد والعمل حتى تكون محققًا في هذا الشأن.

والمحقق لا يحمل أمثال هذه الكلمات على الإلحاد؛ بل يعرف النكات فيها، والحقائق المشتمل هي عليها، فيراعي الظواهر والبواطن في مراتبهما، ومن حُرم عين التحقيق؛ فليبتغ الوسيلة كما قال تعالى: ﴿اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

فانظر كيف قدَّم التقوى على ابتغاء الوسيلة؛ لأنه أصل أصيل في كل شأن؛ والمراد بالوسيلة وهو صاحب التسليك، وهو الذي يقدر على حل مشكلات السالك في كل طور من الأطوار، وقد يكون الوسيلة العِشق – بالكسر – وهو إفراط المحبة، فإنه رابطة قوية بين المحبِّ والمحبوب إلى حين الوصول، ثم عند الوصول يزول ذلك

ويفنى، ولا يبقى إلا المحبة الحقيقية المعتدلة فاعرف[1].

(١) قال الصدر القونوي قدس الله سره: اعلم أن المحبوب إنما أحب المحب لكونه سببًا لاستجلاء كماله فيه، ومحلاً لنفوذ سلطنة جماله وبسط أحكامه، فالمحبوب مرآة المحب يستجلي فيها محاسنَ نفسه المستجنة في وحدته قبل تعين المجلي؛ لأن القُرب المفرط والتوحُّد كانا يحجبانه عن ذلك، فإذا استجلى نفسه في أمرٍ آخر بحصول ضربٌ من البُعدِ والامتياز قريبٌ من الاعتدال، ورأى محاسن نفسه في المجلي؛ أحبَّها حُبًّا لا يتأتَّى له ذلك بدون المجلي، والامتياز المشار إليهما لما ذكرنا من حجابيه القرب والوحدة.

وأيضًا؛ فنسخة الحقيقة الإنسانية تشتمل على ما تستحق أن يحب كل الحب؛ وعلى ما ليس كذلك؛ بل يقتضي النفرة بالنسبة لما يُضاده من الحقائق ويقابله، فإذا تعيَّن مجلي يتميز به وفيه من الإنسان ما يستوجب المحبة صفةً كان أو فعلاً أو حالات أو أمرًا مشتملاً على جميع ما ذكرت أو بعضه؛ وارتفع حجاب القرب المفرط وغيره من البين؛ ظهر سلطان الحب طالبًا رفعَ أحكام الكثرة والمغايرة بتغليب حكم ما به الاتحاد على حكم ما به الامتياز، فأحب نفسه فيما يغايره من وجهٍ وباعتبارٍ مقتضٍ للتمييز المذكور بالصفة الذاتية التي فيه الطالبة كمال الجلاء والاستجلاء، فإن هذه الصفة هي المستدعية إيجاد العالم.

والمقصود من الإيجاد ليس غير ما ذكرنا، وكل ما ذُكر في ذلك من موجبات الإيجاد فرعٌ وتبعٌ لكمال الجلاء والاستجلاء، فافهم.

فحُكم هذه الصفة؛ أعني كمال الجلاء والاستجلاء مشتركٌ، وسار في كل محبٍّ؛ فيوجب له أن يحب ما ذكرنا، وإن اختلفت الوجُوهُ والاعتباراتُ، وكذلك حكم حجابية القرب المفرط، والإدماج الذي يتضمنه؛ هو أمرٌ مشتركٌ بين المحب والمحبوب من كون كل واحدٍ منهما من وجهٍ محبًّا، ومحبوبًا من آخر؛ كما ذكرنا غير أن بينهما فيما ذكرنا فروقًا متعددة، منها: إن «المحبوب»: مرآةٌ ذات المحب من حيث ما يقتضي أن يحب؛ فهو يستجلي فيها نفسه، ويستجلي أيضًا بعض محاسنها بالتبعية.

و«المحب»: مرآةُ كمالِ جمالِ المحبوب، ومحل نفوذ أحكام سلطنته كما مرّ.

وبهذا الحكم سار في كل محبٍّ ومحبوبٍ دون استثناء؛ وإن شان الحق سبحانه مع خلقه بهذه المثابة، فنحن من حيث حقائقنا التي هي عبارة عن صور معلوميتنا الثابتة في علم الحق أزلاً، مراءٌ لوجوده المطلق الذاتي، وحضرته مرآة لأحوالنا المتكثرة وتعدداتنا، فنحن لا ندرك إلا بعضنا بعضًا؛ لكن في الحق؛ فنحب منا به ما نستجليه فيه، وليس غير الصفات والأحوال؛ وهو يحب فينا نفسه من حيث أن رؤيته لنفسه في مرآة مغايرة له من وجهٍ مخالفٍ لرؤيته نفسه في نفسه لنفسه؛ بل لا رؤيةَ هناك ولا تعدُّد؛ لأن المرآة المغايرة من حيث أنها محل التجلي المتقيّد بما تبدي فيما ينطبع فيها حكمًا لم =

وقد بقي في مرتبة العشق كثيرون؛ لأنه مقام قاب قوسين قبل الوصول إلى أو أدنى، فإذا حصل الوصول إلى أو أدنى، وتحقق الرجوع منه إلى قاب قوسين؛ فهو صاحب قاب قوسين أو أدنى جميعًا[1] وله الحقيقة الجامعة، والمشهد الأعلى، والمنظر

=

يكن متعينًا حال رؤية الشيء نفسه لنفسه.

وهذا سرٌّ، مَن اطّلع عليه عرف سر الذوات، والصفات والأحوال، والمرايا والمحال، وإن العالم بحقائقه وصوره مرآةٌ للحق من وجه، والحقَّ من وجه آخر مرآةٌ للعالم، وقد نبَّهتُ على الوجهين، فتذكّر.

ثم اعلم أن أكثر الأولياء، وكثيرًا من الكُمَّل أدركوا الوجه الواحد من الوجهين المذكورين، ورأوه الغاية، ووقفوا عنده ولم يتعدُّوه.

وطائفة منهم وقفوا عند الوجه الآخر؛ وكلا الأمرين أَبَديُّ الحكم واقع في كل زمانٍ دون توقيت ومناوبة.

وذكر لي شيخنا وإمامنا ﷺ بأخبار من الحق له، ونصٌّ صريحٌ أنه لا أعلى من هذا الذوق، ولا أكمل منه في نفس الأمر؛ فمن منحه فقد أدرك من الحق مالا يمكن أن يدرك وينال أحد أتم منه، فاعملْ الهمّة، وابذلْ المجهود، فعلى مثل ليلى يقتل المرء نفسه.

وقد حصل لنا ذلك بحمد الله ومنه عنايةٌ وموهبةٌ، فاجتهد يا أخي في أن يحبك الحق لا غير، فإنه إذا أحب الحق شيئًا ناله وأناله، وأما غيره فقد يحب ولا ينال، وإن نال أمرًا مما يحب فلا يقدر أن يُنِل غيره ما لديه؛ لأنه قد لا ينقل ولا ينقال؛ بخلاف الحق سبحانه فإنه على كل شيءٍ قدير، فافهم، والله أعلم.

(١) النبي ﷺ صاحب قاب قوسين أو أدنى: أي صاحب قرب الله منه ليلة الإسراء، كقرب قاب قوسين بل أدنى من ذلك.

والقاب: ما بين المقبض: أي المحل الذي يُقبض القوس منه، وقوسين بكسر السين وتخفيف الياء: أي محل عقد الوتر بالقوس، وذلك أول الوتر، فلكل قوس قابان، وحينئذٍ ففي الكلام قلب، والأصل كقابي قوس: أي كقرب أحد القابين من الآخر، والتشبيه بذلك جريًا على عادة العرب إذا أراد، والمبالغة في قرب شيء من آخر.

وقيل: الكلام على ظاهره، والمراد بالقاب: الجنس الصادق بالقابين: أي مقدار ما بين قابي القوس من المسافة.

=

الأجلى، فإنه الذي يجد لذَّة النظر إلى الوجه الكريم، والله تعالى لا يُوصف بالعشق؛ لاعتدال صفاته، وقد يُوصف بأشدِّية الحب التي هي في معنى العشق؛ لكنها تُحمل على التأكيد الذي ما له نهاية المحبة.

ثم الناس عاشق، وعارف، ومحقق؛ فالعاشق: قد يكون أدنى حالاً من العارف؛ لأن العشق لا يُعطي بذاته كمال المعرفة التي هي المقصودة بالذات، والمحقق فوق العارف؛ لأن العارف قد يكون غير واصل إلى ما وصل إليه المحقق، فالمحقق أقوى في المعرفة من العارف الغير الواصل؛ لأن المعرفة الحقيقية هي التي تحصل بعد التجلِّي العيني إذ لا خيال فيها، وإنما ترد من التجليَّات العينية بخلاف التجلِّي العلمي، فإن أهله قد يخطئ وقد يصيب.

ولذا لا يجوز له أن يُنصِّب نفسه في مقام الإرشاد، إذ الغائب لا يقدر أن يرشد الغائب إلى الحاضر، وقد كثر أربابه في كل عصر من الأعصار، وباب الدعوى مفتوح، والداخل فيه مجروح.

لطيفة: وقد ظهر لي في بعض المشاهد أن الإمام أبا حنيفة من العارفين[1]

=

فكانت عادة العرب إذا أراد أحدهم عقد المودة بينه وبين صاحبه يمد قوسه، ويوصله بقوس صاحبه، بأن يلصق مقبضه بمقبض الآخر، فيلتصق قابا كل قوس بقاب الآخر، ويكون ذلك عندهم دليل النفع والمحبة، و لم يحصل هذا القرب لأحد إلا لنبينا ﷺ.

(١) وُلد سنة ثمانين من الهجرة، وتُوفي ببغداد سنة خمسين ومائة وهو ابن سبعين سنة، كان ﷺ حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، كثير الكرم، حسن المواساة لأخوانه.

وكان يُعرف بالريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج من داره.

وكان يقول: ما صليت قط إلاّ ودعوت لشيخي حمَّادًا، وكل مَن تعلمت منه علمًا أو علمته.

وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه، وكان لا ينام الليل، وسمّوه الوتد لكثرة صلاته، وصلّى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة.

وكان عامة الليل يقرأ القرآن كله في ركعة واحدة، وكان يُسمع بكاؤه حتى يرحمه جيرانه، وختم القرآن في الموضع الذي مات فيه سبعة آلاف مرة، وكان نومه دائمًا في الصيف ساعة بين الظهر والعصر، وفي الشتاء ساعة أول الليل، وأخذ العلم عن شيخه حماد، وهو عن إبراهيم النخعي، وهو عن علقمة، وهو عن ابن مسعود، وهو عن رسول الله ﷺ، ولذلك قالوا: الفقه زرعه عبد الله بن

=

وأن الإمام الشافعي[1] من الواصلين، وقد ذكرنا الفرق في غير هذا المحل، وقد توجَّه

=

مسعود، وسقاه علقمة، وخصده إبراهيم النخعي وحماد، وطحنه أبو حنيفة، وعجنه أبو يوسف، وخبزه محمد، والناس يأكلون من خبزه، وقد ظهر علمه بتصانيفه، قيل: إنه صنف في العلوم الدينية تسعمائة وتسعة وتسعين كتابًا.

قال الإمام الشافعي ﷺ: من أراد الفقه فليلزم أصحاب أبي حنيفة؛ فإن المعاني قد تيسَّرت لهم، وثبت أن ثابتًا والده أدرك الإمام علي بن أبي طالب فدعا له ولذريته بالبركة، وصحَّ أن أبا حنيفة سمع الحديث من سبعة من الصحابة، وذكر في المنظومة المسماة بجواهر العقائد ثمانية من الصحابة ممن روى عنهم الإمام أبو حنيفة، وأدرك بالسن نحو عشرين صحابيًّا كما بسط في أوائل الضياء، وسُئل: أيما أفضل علقمة أو الأسود؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نفاضل بينهم!.

وكان يقول: سمعت عطاء يقول: ما من ملكٍ مقرَّبٍ ولا نبيٍّ مرسلٍ إلا ولله عليهم الحُجَّة، فإن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له.

وكان له جار يهودي، وكانت قصبة خلائه تنضح على بيته، فمكث عشرين سنة ولم يعلم اليهودي قط بذلك، فبلغ اليهودي ذلك فبكى ثم جاء إليه وأسلم على يديه، وأُكره على تولّي القضاء، وضُرِبَ على رأسه ضربًا شديدًا أيام مروان فلم يلِ، ولما أُطلق قال: كان عندي همٌّ وغمٌّ من تولي القضاء أشد عليَّ من الضرب.

وكان الإمام أحمد إذا ذكر ذلك بكى وترحَّم عليهم.

ثم أكرهه أبو جعفر المنصور بعد ذلك، وأشخصه من الكوفة إلى بغداد، فأبى وقال: لا أكون قاضيًا، فحبسه وتُوفي في السجن ﷺ.

انظر في ترجمته: الطبقات الكبرى للشعراني (٤٥/١)، وكتب تراجم فقهاء المذهب.

(١) يلتقي نسبه مع النبي ﷺ في عبد مناف، وُلد ﷺ سنة خمسين ومائة من الهجرة، وعاش أربعًا وخمسين سنة، وتُوفي سنة أربعة ومائتين، تفقَّه في مكة على مسلم بن خالد الزنجي، ثم قدم المدينة ولزم الإمام مالك، وقرأ عليه الموطأ حفظًا فأعجبه قراءته، وقال له: اتقِ الله فإنه سيكون لك شأنٌ.

قال الربيع بن سليمان: رأيت على باب الإمام الشافعي سبعمائة راحلة تطلب سماع كتبه.

وكان يقول: وددت أن الخلق تعلموا مني هذا العلم ولا يُنسب إلَيَّ منه حرفٌ.

وكان يقول: وددت أني إذا ناظرت أحدًا أن يظهر الله تعالى الحق على يديه.

وكان يقول: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وكان يقول: من أراد الآخرة فعليه الإخلاص في العلم.

وكان يقول: من طلب العلم بعز النفس لم يصلح، ومن طلبه بذلّ النفس وخدمة العلم أفلح.

=

بعض أهل الكمال ممن هو على طريقتنا الَجلوتية — بالجيم - فرأى أن الإمام أبا حنيفة دخل في بحر، فلمَّا توسَّطه؛ رُدَّ إلى الساحل؛ يعني دخل في بحر الحقيقة، إذ ما يُحكى عنه من مشاق العبادات، وحقائق التقوى، وشدائد الأحوال؛ يُعطي الغوص في ذلك البحر، كما ذهب إليه الإمام الغزالي في الإحياء.

وأمَّا أنه لم يصدر عنه كلامٌ يتعلَّق بالحقائق، كما صدر عن الشافعي؛ فذلك وهمٌ من الغزالي، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في شرحنا على نخبة الفكر في أصول الحديث.

وأمَّا ردَّه إلى الساحل؛ فردٌّ من الفناء إلى البقاء لإرشاد الناس في مرتبة

=

وكان يقول: تفقَّه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقّه.

وكان يقول: جمال العلماء كرم النفس وتميئته للورع والحلم.

وكان يقول: ليس العلم ما حُفظ إنما العلم ما نفع.

وكان يقول: الناس في غفلةٍ عن هذه السورة: ﴿**وَالْعَصْرِ*إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ [العصر:١،٢]،

وكان قد جزَّأ الليل ثلاثة أجزاء، يتفكر في العلم في الثلث الأول، والثاني يصلي، والثالث ينام.

وفي روايةٍ: وما كان ينام إلا يسيرًا، وكان يختم في كل يوم ختمةٍ.

وكان يقول: ما كَذِبْتُ قط، وما فزعت من الفقر قط، وما تركت غسل الجمعة قط.

وكان يقول: من أحب أن يختم الله تعالى بخيرٍ فليحسن الظن بالناس.

وكان يقول: ليس بأخيك من احتجت لمداراته.

وكان يقول: من علامة الصادق في اخوته لأخيه: أن يقبل علله، ويسد خلله، ويغفر ذلـــله.

وكان يقول: ليس سرور يعدل صحبة الإخوان، ولا هم يعدل فراقهم.

وكان يقول: التكبُّر من أخلاق اللئام.

وكان ﷺ كثير الأسقام، وكان ﷺ ذا هيبةٍ، وكان أصحابه لا يجترءوا أن يشربوا الماء وهو ينظر إليهم.

وكان يقول: أحب لكل مسلمٍ أن يكثر الصلاة على رسول الله ﷺ.

قال الربيع: دخلت على الشافعي ليلة مات، فقلت له: كيف أصبحت؟ فقال: من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ولكأس المنيَّة شاربًا، ولسوء أعمالي ملاقيًا، وعلى الكريم واردًا، ثم بكى ﷺ.

انظر في ترجمته: الكواكب الدرية للمناوي (١/٤٨٠)، وتذكرة الحفاظ (١/٣٢٩)، ومناقب الشافعي للرازي، وللبيهقي، وكتب تراجم فقهاء المذهب.

الاجتهاد، فقد انتفع بعلمه وفقهه مَن عاصره ، ومَن بعده، وكان الناس عياله في ذلك، كما صرَّح به الإمام الشافعي.

ولا شك أن مرتبة الإرشاد أرفع من درجة الوقوف في مقام الفناء مع الله تعالى، وذلك أن تلك المرتبة مرتبة التبليغ؛ وهي مرتبة الأنبياء والورثة، ومن ثم رُجِّح المحدِّثون على الفقهاء؛ لأن الفقيه إنما يستدلُّ بحديث المحدِّث، فالمحدِّث أهل التبليغ، والسلسة، بخلاف أكثر الفقهاء، فظهر أن كون الإمام أبي حنيفة من العارفين؛ إنما كان بعد الوصول لما ذكرنا من تلك المعرفة بعد الوصول أقوى مما كان قبله.

ولا ينبغي أن يُظنُّ بالمجتهدين الظنَّ السوء، وقد جاء على المذاهب الأربعة الأولياء المحققون، ومن البعيد أن يكون المتبوع أنقص حالاً من التابع، فرئيس الأولياء الحنفية؛ هو أبو حنيفة، وهكذا وإن كان هنا مقال آخر؛ وهو أن التقلد بمذهب من المذاهب أمر صوري، ناظر إلى ظاهر الشريعة، وللمحققين في باطن الحال أمر آخر؛ وهو طريق الإطلاق، والمشي من وجه مخصوص جامع إلى الله تعالى، فذلك لا ينافي التمذهب بمذهب معين في الظاهر.

وقد غفل عن هذا أكثر مَن يُعدُّ من العارفين؛ فظنوا أن الأئمة الأربعة لم يصلوا إلى مقام الحقيقة وأن أهل الحقيقة لا يتقلَّدون بمذهب من المذاهب، فذلك الظن من قصور المعرفة، ونقصان الحال.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

هذه الآية عبارة عن: إيقاد الكافرين نار الحرب بأيديهم، وإيقاد المنافقين بألسنتهم؛ فيطفئها الله بإزالة الأذى الحسِّي عن ظواهر المؤمنين.

وفيه إشارة إلى الحرب المعنوي الذي يُوقده المؤمنون في بواطنهم؛ وهو الاضطراب والتزلزل في مواقع القهر والجلال، فإن الوقوف معه؛ كالحرب مع الله؛ لعدم الاطمئنان والتمكين؛ فيطفئ الله هذه النار بإزالة الأذى المعنوي عن قلوب المؤمنين بإظهار اللطف والجمال، فإنه تعالى يقبل التوبة؛ بل يقبل على عبده؛ ليتوب، ويرجع إليه، فإنه أرحم به من كل رحيم.

وفي: (كلما): إشارة إلى أنه بين الخوف والرجاء، ولا يزال على تلك الحالة إلى أن يحصل له كمال الرضاء في مقام التمكين؛ فإنه نهاية مقامات الصفات، كما أن التوكُّل نهاية مقامات الأفعال، والفناء نهاية مقامات الذات.

فمَن صحَّ توكُّله ورضاءه، وفناءه، وفي المقامات الثلاثة؛ انطفأت نيرانه، وبردة حرارته، وكان مع الله على كمال رضى واطمئنان، وصفوة بال في كل حال من الأحوال في كل هذا من الصعوبة مال لا يُخفى.

وفي قوله: (نار) إشارة إلى هوى النفس، فإن النار ناران: نار النفس؛ وهي الهوى، ونار الطبيعة؛ وهي الشهوة، وفي كل منهما حرارة للقلب، والنفس، والطبيعة أية حرارة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل السلام لا من أهل الحرب، إنه بعباده رءوف رحيم.

قال الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥].

يعني: واظبوا على خدمة الحق تعالى بأنفسكم، ولمَّا كان لفظ (عليكم) يُقارب في الرسم لفظ عملكم؛ رُسم لي، كذلك في بعض الأسحار، فرأيت عليكم مقروءًا به، وبلفظ علمكم؛ يعني: عليكم علمكم أيضًا بالعمل بموجبه، فمَن لم يعمل بموجب علمه؛ لم يفلح أبدًا، وكذا مَن كفر بما أنزل الله عليه؛ لم يفلح أبدًا.

والمراد: (بما أنزل الله) ما يرد قلوب المكاشفين سواء كان من الآيات القرآنية أو غيرها، فإن المنـــزَّل هو الكلام الإلهي في أيَّة لغة ورد.

والمقصد منه أنه لا بد من الاجتناب عن الشكوك، والظنون، والأوهام، والخيالات، فإن الله لا يقول إلا الحق، والموعود يكون البتَّة سواء طال زمانه أو قصر، فلا بد من الصبر، وقد يُنـــزِّل بعض الأمور؛ ولكن لا يكون من قبيل المُحكمات؛ بل من طريق المتشابهات، فيحتاج إلى التأويل، ولا يعلم تأويه إلا الراسخون في العلم، وهذا من مذالق الأقدام، كم من قدمٍ زلَّت فيه، ومَن مشى على المراتب؛ أمن من العثار، والله الحفيظ لعباده، والوصل إلى المنـــزَّل لا بهداية، وإرشاده والعبد بيده في الصباح والمساء، فعليه بالترجِّي لعلَّ وعسى.

وقال الله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧].

لم يقل: ما بلغتهم أنا إلا ما أمرتني به أنت؛ ليحصل الفرق بين قومه، وبين هذه الأمة المرحومة، فإن الله تعالى إنما خاطب قوم عيسى عليه السلام بواسطة عيسى عليه السلام بخلاف هذه الأمة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ حيث لم يقل: قل لهم: يا أيها الناس ونحو ذلك.

فشرَّفهم في بعض المواضع برفع الواسطة صورة، وإن كان ذلك مقولاً على اللسان النبوي في الحقيقة؛ فصار كقوله: (يا أيها النبي، يا أيها الرسول) وفي ذلك رفع لمنـــزلتهم، وتنويه بشأنهم، وتلويح لكمال استعدادهم، ورمز إلى أن أكامل الإنسان قد يأخذون من الله بلا واسطة خلافًا للفلاسفة فإنهم ذهبوا إلى وجوب الواسطة؛ لأن ترتيب الكائنات، وسلسلة الممكنات يقتضي ذلك بصورتها، وهو باطل.

كما أشار إليه قوله ﷺ: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب، ولا نبي مرسل**»[(١)].

وما ورد: «**إن آمن الرسول** إلخ»[(٢)]، وبعض الآيات نزلت ليلة المعراج بلا وساطة الملك، فإذا ثبت هذا المقام للمتبوع؛ فقد ثبت لبعض التابع أيضًا إذ لا قائل بالتخصيص.

ومنه قوله تعالى للشيخ محيي الدين العربي قُدِّس سرُّه: أكبر مشهدي، فسُمِّي الشيخ الأكبر، وسرى ذلك إلى بعض أولاده المعنوية، فسَمَّى الولد الأكبر، ثم إن المأمور به إمَّا قول، وإمَّا فعل، وكلاهما داخل في التفسير وهو قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللّه﴾ [المائدة:١١٧].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٤/١٦٥٢)، ومسلم (١/١١٥).

فإن العبادة الشرعية التكليفية مَنوطة بكلمة التوحيد، والعبادة من الأفعال، كما أن الكلمة من الأقوال، وعليه قوله تعالى في أوائل سورة البقرة: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) وذلك أن القوم كانوا عبدة الأصنام؛ فنهاهم الله تعالى عن عبادتها لِما فيها من الشرك، وأمرهم بعبادته لِما فيها من التوحيد.

إذ لا يخفى أن من عبد الله تعالى وحده مخلصًا له الدين، فهو إنما يُبنى ذلك على كلمة التوحيد، وإلا لم يعبده؛ فكأنه تعالى يقول: وحِّدوا الله تعالى، واعبدوه وحده؛ فإنه واحدًا بالذات، فهو المستحق للعبادة، وذلك نظير قول بعضهم:

إن الكفار مخاطبون بالفروع: أي بعد الاتصاف بالأصول، فيعاقب على ترك كل من ذلك، فإن الشيء إذا ثبت؛ ثبت بلوازمه.

ثم إن العبادة: إمَّا تكليفية؛ وهي المأمور بها على ألسنة الرسل، وإمَّا ذاتية؛ وهي العبادة الفطرية، فالثقلان مأمورون بالعبادة التكليفية؛ امتحانًا لهم من الله تعالى لِما فيهم من الدواعي التي تنازعها، فهم المخصَّوصون بإرسال الرسول.

وأمَّا الملائكة وسائر الكائنات من ذي روح وغيره فعبادتهم فطرية ذاتية إذ لا يقتضي ذواتهم التكليف؛ لارتفاع الموانع عن العبادة دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]: أي يسبِّح لله، وينـــزِّهه عن التقيُّد بالوجودات الحادثة، فإن الآن على ما كان عليه قبل، وبحمده تعالى على نعمة الوجود، فله التقرُّب إلى الله بكل ما يمكن إلا القربان؛ فإنه مخصوص بالإنسان.

ولذا وجب العقيقة في بعض المذاهب، وقوله: ربي وربكم، إنما لم يكتفِ بالثاني نفيًا للمعبودية عن نفسه، كما زعمها بعض قومه، وإليه الإشارة في هذه الشريعة بقولنا: وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، فجميع الأنبياء - عليهم السلام - عباد الله المرسلون إلا أن بعضهم أقرب إليه كما زعموا؛ وذلك لأن الإله لا يكون مرسَل - بفتح السين - فاعرف.

***

سورة الأنعام

قال الله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام:٦٢].

اعلم أن الحكم خطاب الله تعالى في عباده بالأمر والنهي، والثواب والعقاب، ودلَّ تقديم الجار والمجرور على تخصيصه به تعالى؛ والمراد بالضمير هو الهويَّة، ولا شك أن الهويَّة الساري سرُّها في العوالم كلها هُويَّة واحدة لا تعدُّد فيها إلا باعتبار تعدُّد الماهيات، والحقائق.

وهذا التعدُّد الاعتباري لا ينافي الوحدة الحقيقية، كما أن نور الشمس نور واحد في الحقيقة، وإن تعدَّد مطارحه، وتفرَّق أطواؤه، وله أمثلة كثيرة لا تُحصى، ولتوحُّد الهُويَّة؛ توحَّد الحكم في العالم روحًا وجسدًا.

أمَّا روحًا: فلأن الله تعالى لمَّا تجلَّى بالنور المحمَّدي، وأظهره من بطون الغيب؛ نصَّبه ملك الملكوت على الأرواح، وكذا دعاهم إلى المبايعة، وكلمة التوحيد، كما يدعو السلطان إلى مبايعته، وتوحيد الكلمة في حقه، فإنه إنما يُضلُّ مَن ضلَّ من التفرُّق.

وقد قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣].

فكانوا أمةً واحدةً في الأرواح بلا تفرُّق؛ إذ لم يكن هناك دواعي الهوى، ونوازع التفرُّق، وكذا كانوا أمةً واحدةً في أوائل خلافة آدم عليه السلام، ثم لم يزل الأنبياء على الاتفاق في الأصول؛ ولذا كان الكُمَّل على آثارهم ظاهراً وباطنًا؛ لأن المنبع واحد لا يختلف، فظاهره العدل؛ وهو الميزان القسط، وباطنه الفضل؛ وهو الفيض الكلِّي.

فكان اتفاقهم بحيث لم يختلف كلمتهم لا في باب العدل، ولا في باب الفضل؛ بل اتفقت الألفاظ أيضًا؛ لرجوعهم إلى أصل واحد بخلاف حال غيرهم ممَن هو دونهم؛ لاختلافهم في الأسماء، وكون أسمائهم من الأسماء الجزئية؛ فكان التجلِّي الكُمَّل من حيث أسماؤهم الكلية فوق التجلِّي لغيرهم من أهل الأسماء الجزئية؛ ولذا

اتفقت كلماتهم، واختلفت كلمات غيرهم[١].

والحاصل أن المنهل وإن كان واحدًا عذبًا لكن الواردين على مشارب مختلفة، فلم يتغيَّر العلم إلا من المشارب، كما لم يتغيَّر الماء إلا من اختلاف الطريق روحًا.

وأمَّا جسدًا فلأن آدم كان خليفة الله في عصره، و لم يزاحمه أحد في ذلك؛ فهو خليفة الله من حيث المنصب، وخليفة نبينا ﷺ من حيث الفيض؛ لأنه مستفيض من باطن روحانيته كسائر الأنبياء.

وأمَّا التعدُّد في بعض الأوقات كما يُحكى أن نبيًا غير واحد كانوا يدعون إلى الله في عصر واحد؛ بل في بلدة واحدة، فذلك يرجع إلى حقيقة، ودعوة واحدة، فالتعدُّد في ذواتهم لم يكن منافيًا لتوحد كلماتهم، واتفاق دعواتهم، فهم كنبيٍّ واحد، وكلُّهم كانوا ورثة الخلافة المحمَّدية لِما ذكرنا من وحدة الأصل[٢].

---

(١) قال سيدي علي وفا قدس سره في المسامع: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]، مع ما أورده وجودهم الطبيعي بلا فرقان، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ إذ ظهر بنواطقهم حقًّا مبينًا فرقانيًّا، ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فافترقوا وزال حكم وحدتهم.

﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]؛ إذ في ذلك تعبدهم لمن تنـزه عندهم عما به قيّدهم؛ إذ غايرهم، وبمغايرته عقدهم، وانعقد فيما نـزهوا به عنه منه معتقدهم.

﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩]، فحققهم به بجمعيتهم على ما به فرقهم، فهم أرباب الجمع والفرقان بحقهم المبين، ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩].

(٢) فائدة: قال الشيخ ابن ناصر الكيلاني في شرح الفصين: (**وإن اختلفت الملل والنِّحل لاختلاف الأمم**) قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨] فما زلنا من الخلاف؛ لأنهم: أي أهل التحقيق قد خالفوا المختلفين، ولذلك خلقهم، فما تعدَّى كل خلقٍ ما خلق له، فالكل طائع في عين الخلاف.

كما ورد الحديث الصحيح، والنص الصريح: «**كلٌّ ميسَّر لما خلق له**» فافهم.

فقال ﷺ: وإن اختلفت وبانت كثيرة ولكن لا تناقض الكثرة الموهومة الأحدية الحقيقية، كما أن كثرة الأعيان الثابتة، والمظاهر الخارجية لم تمنع وحدة الوجود والحال كالحال.

وأمَّا الاعوجاجات الوهميَّة لا تناقض الاستقامة؛ لأن الكل في أحدية صراط الله أخذٌ بناصية كلِ دابة وهو على صراطٍ مستقيم، فأين المفر؟ وهكذا الأمر؛ لأن استقامة القوس في اعْوِجَاجِه، فافهم، فإذا كان الأمر هكذا.

=

فهذا السرُّ الوحداني راجع إلى وحدة وجوب الوجود، فكما أن واجب الوجود واحد؛ فكذا المظهر مظهر واحد في الحقيقة، وإن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد في الصورة، ثم يتفرَّع ذلك إلى فروع متعددة، بذلك صحَّ الحكم بأن الواحد يصدر عنه المتعدِّد، كحال المركز في الدائرة مع النقاط الكثيرة فيها، ثم إن ذلك المظهر إن اُعتبر فيه الوصف الزائد؛ فهو نبي وإلا فسلطان.

فالسلطان أيضاً يجب أن يكون واحدًا بحيث إذا بويع الخليفتان؛ يجب أن يُقتل الآخر، فجميع الملوك الإسلامية يرجع حكمها إلى حكم الملك الأعظم منهم، ولا

=

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤] فتفرَّقوا بعلمٍ وبينة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦١].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤] ونحن معه بكونه آخذًا بنواصينا وأنه على صراطٍ مستقيم، فافهم.

وهنا مسألة دوريَّة ذكرها الشيخ ﷺ في «**الفتوحات**»:

وهي أن الشرائع اختلفت لاختلاف النسب الإلهية.

واختلاف النسب لاختلاف الأحوال.

واختلاف الأحوال لاختلاف الأزمان.

واختلاف الزمان لاختلاف الحركات الفلكيَّة.

واختلاف الحركات الفلكية لاختلاف التوجهات.

واختلاف التوجهات لاختلاف المقاصد.

واختلاف المقاصد لاختلاف التجلّيات.

واختلاف التجلّيات لاختلاف الشرائع.

واختلاف الشرائع لاختلاف النسب الإلهية، فدار الدور، وانتهى كلامه ﷺ.

ثم نرجع ونقول: إن اختلاف الأمم باختلاف الاستعدادات والقابليات المختلفة كالماء فإنها حقيقةٌ واحدة تختلف في الطعم باختلاف البقاع، فمنها عذبٌ فراتٌ ومنها ملحٌ أُجاجٌ وهو ماءٌ واحدٌ في جميع الأحوال لا يتغيَّر عن حقيقته وإن اختلفت الطعوم، كذلك أحديَّة الطريق أنها حقيقةٌ واحدةٌ تختلف أحكامها باختلاف القوابل، يَعرفُ ما قلنا مَنْ عَرِفَ وحدة الوجود مع كثرة المشهودة بالذوق، فافهم.

وانظر: مجمع البحرين (ص١٣٣) بتحقيقنا.

اعتداد بملوك الكفار؛ لأن أموالهم وأراضيهم في الأهل الإسلام في الحقيقة، فهم المتغلِّبة لا الملوك على أن بعضهم نواب الحق؛ لعدالتهم نحو أنوشروان فافهم جيدًا، اللّهم عافنا من الظلمة ما أهل إليه قطعًا.

ولذا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٦٢].

اعلم أن الاسم الله المعروف لا يُطلق إلا على الله خاصة كما قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

بخلاف المنكر فإنه قد وقع إطلاقه على غيره كما قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨].

فالمنكر إله حق؛ وهو الله المعروف، وإله باطل؛ وهو ما يعبدونه من دون الله؛ ولذا ورد: «**لا إله إلا الله**»[1]: أي لا إله حقًا إلا الله.

فإن قلت: فإذا كان المعرَّف لا يُطلق إلا على المولى الحق؛ فما معنى الإبدال بالمولى الحق.

قلت: لإرادة التصريح بالحقية؛ ليؤذن بأن مولاهم الذي يعبدونه من دون الله؛ هو المولى الباطل.

والباطل لا يكون مولى، ولا يستحق لأن يُعبد؛ ولذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١]؛ يعني أن ما يعتقدونه مولى وناصرًا في الحقيقة؛ لكنه مولى وناصر للمؤمنين؛ لأنهم نسبوا الأُلوهية إلى مَن هي له، فنسبتهم نسبة غير صحيحة؛ بل فاسدة باطلة؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:٤٨]: أي لأن الغفر والستر إنما يتعلّق بالموجود، ولا وجود للشرك إلا في الوهم، فكيف يغفره الله؟ ثم قال: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾ [النور: ٣٩]: أي لأن الوجدان لا يتعلّق إلا بالموجود، والله تعالى موجود أزلاً وأبدًا، فمَن فرَّ منه؛ فلا يجد شيئًا حيث فرَّ إليه إلا الله.

ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ﴾ [الأنعام:٦٢]، مع أنهم مردودون إلى

---

(١) رواه البخاري (١/١٦٤)، ومسلم (١/٣٧).

الله على كل حال، وهو تعالى معهم أين ما كانوا؛ لكنهم لا يعرفون ذلك، فيظنون انهم مع غيره، وهو الأسباب والوسائط حتى إذا زال ما في البين، وبدا للعين العين؛ تحققوا انهم مع الله، فهذا إنما ينفع، وهم في الدنيا، فإنهم في الاخرة مكاشفون للحقائق؛ لكن لا ينفع لهم ذلك.

ولذا قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٤]: أي حين ما شهدوا الحق وكاشفوا عنه.

والحاصل: أن التعبير بالردِّ في هذه الآية، وبالرجوع في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥]؛ إنما هو باعتبار الحجاب، والوقوف عند الوسائط لا باعتبار الكشف والوصول، فإن المكاشف يعرف إنه مع الله على كل حال، فكيف يُردُّ المردود، وهو من تحصيل الحاصل؟ ومن ثم قيل: قيامة العارفين دائمة.

وحملوا قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] على اليومين جميعًا؛ لأن الدين هو المجازاة، والله تعالى لم يزل يُجازي عباده في الدَّارين، نعم إنه قدير، والعبد من اسم إلى اسم، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم:٨٥].

فإن المتقين، وإن كانوا محشورين إلى الله في الدنيا؛ لكن حشرهم ذلك قد يكون بحسب الأسماء الجلالية؛ كالقهَّار، والقدير، والمريد ونحو ذلك؛ لأن موطن الدنيا ممتزج بالنور، والظلمة، ومختلط باللطف، والقهر.

وأمَّا في الآخرة فيحشرون إلى الرحمن، وهو اسم لا يقتضي الجلال والقهر؛ بل الجلال واللطف، فهم وإن كانوا مع الله في جميع الأحوال؛ لكن فرق عظيم بين كونهم مع الاسم الرحمن، وبين كونهم مع غيره من الأسماء الجلالة، وبه يظهر صحَّة السفر من الله إلى الله فاعرف.

***

سورة الأعراف

قال الله سبحانه حكاية عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧].

: أي من طرق الأبديات، والأزليات المتعلّقة بالمعاد والمبدأ، فالآخرة داخلة في الأبديات، والدنيا في الأزليات؛ لأن الأولى أبدية نسبية ليست بأبد الآباد، والثانية أزلية إضافية أيضًا ليست بأزل الازال.

قال ﷻ: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧]: أي الأعمال الصالحة والأعمال الطالحة.

لأن الأولى: مظهر الإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم:٨].

والثانية: مظهر الشمائل.

ولذا لم يكن للفجّار، والكفار نورٌ إذ لا يمين لهم آخذة بالطريقة اليمنى للعرش؛ بل لهم شمال آخذة بالطريقة اليسرى له، ويسار العرش أكوان ظلمانية، كما أن يمينه آثار نورانية، فكل فريق يهتدي في الدَّارين لطريق السالك فيه، إمَّا بإرشاد الله تعالى، أو بإضلال إبليس[1].

---

(١) قال ابن ناصر في شرح الفص الآدمي: و(**إبليس**) وكان اسمه حارث فأبلسه الله تعالى وطرده من رحمته، وطرد رحمته منه، فَسُمِّيَ إبليسًا: أي طريدًا.

(**جزءٌ من العالم لم يحصل له هذه الجمعية**)؛ لأنه مظهر اسم المضل، وآدم عليه السلام مظهر لاسم الله الجامع لجميع الأسماء الظاهرة في المظاهر المسمّاة بالعالم، والاسم المضل من جملة تلك الأسماء، واللبس على إبليس حقيقة الأمر لجهله بنفسه، فظنّه أنه الشرف من حيث النشأة العنصرية، ثم ظن أن أشرف الاستقصات النار؛ فرتّب بالفكر الفاسد على هذا الوهم الكاسد الأقيسة الباطلة والمقدمات العاطلة في نفسه وتوهَّم منها النتيجة، وامتنع عن السجود حين أمره الله تعالى وما اكتفى بمجرد الامتناع وكان أستر له بل فضح نفسه عند العلماء بإظهار استدلاله، وجمع بين الجهل وسوء الأدب لخفته وطيشه.

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

وهذه أول معارضة ظهرت من إبليس في صنعة الجدال، فإنه جادل ربه وما أحسن في جداله؛ لأنه ما =

قوله ﷻ: ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الآية:١٧].

: أي على نعمة الوجود وما يتفرع عليها، والأكثر بحسب الكمية، فإن أهل النار تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف؛ وهم الكفار من الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف:١٧٩] لكن ترك الشكر قد يكون بترك الإيمان؛ وهو حال الكفار، وقد يكون بترك الطاعة؛ وهو حال الفجَّار، وقد يكون بترك العزيمة؛ وهو حال ضعفاء الأبرار.
فـإن المقرَّبين شاكرون الله تعالى على أبلغ وجه حتى أن بعضهم وقع له الحدث يوم موته سبعين مرة؛ فجدَّ الوضوء في كل عسرة حتى مات وهو على الطهارة، فاعتبر لعلَّك تفلح وتفـوز، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:٤٠].

اعلم أن الآيات إمَّا تنـزيلية؛ وهي القرآن، والذين كذَّبوا بها هم كفار

=

أعطي حقه إن الحق تعالى أراد بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صّ:٧٥]: أي يد تنـزيه وتشبيه، وإن شئت قلت يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم مُلكًا وفلكًا.
قال تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] فهو بمجموع العالم أجزاءه وله شرف الكلية على الأجزاء، وعلى الأجزاء أن يطيعوه ولا يعصوا له أمرًا، فأمر بهذه الحكم البالغة له سجدة إلا طاعة، والانقياد له إظهارًا لشرفه على الخلق المخلق؛ سيَّما الملائكة عليهم السلام؛ لأنه كل الوجود، فما فهم اللعين هذه المقدمات المطوية والأسرار الوجودية، وحمَّل الخطاب على غير محله حسدًا من عنده؛ فجادل وعارض وتطاول، وذلك أنه لما فهم من لحن المخاطبة والقول إثبات الشرف لآدم، وما علم أيُّ شرف يوجب أن يطاع، وينقاد بهذه السجدة، فادَّعى بطريق المعارضة لنفسه الشرف، واستدلَّ بأنه خُلق من نار، وظنَّ أنه أعلى الاستقصات من حيث المكان، ولم يعلم أن الطين أشرف الاستقصات؛ فإن له الثبات والقرار، وللنار الطيش والتهتُّك والاستكبار، وما أعتبر أن التبن في الماء فوق التبر في المكان، فغفل عن المكانة أو استكبر وعاند واستكثر من الحسد، فعوتب. استكبرت وعاندت أم كنت من العالين في الاحتجاج، ولك حجة في قولك ودعواك، فهذا لسان تبكيت وتعريض، وكان الأمر كما قلنا ظهر من آدم التمكين والثبات والتوجُّه في الأمور والأناة، والتدبُّر وإصابة الفكر والنظر في العواقب، وظهر منه قلة الأدب والجهل والتهتُّك والطيش والخفة، فإنه من مارج وهو نار مختلط بالهواء فله الخفة وعدم القرار والاستكبار.

بالشرائع والأحكام.

وإمَّا تكوينية: وهي الآفاق، والأنفس جميعًا، والذين كذَّبوا بها هم كفار الحقائق والحكم؛ كالمنكرين في كل عصر من الأعصار، فإنهم لاحتجابهم عن شهود الحق من شواهد التوحيد، ومشاهد التكوين؛ وقعوا في أهل الله، وكلماتهم المتعلِّقة بحقائق الآيات مطلقًا، فمَن جادلهم في ذلك؛ فقد جادل الحق في آياته، ودخل في المكذِّبين بها.

وقال ﷻ: ﴿وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾ [الأعراف:٤٠]: أي عن تلك الآيات: أي بالإباء وعدم القبول، والتصديق لأهلها، فإن أدنى الأمر في ذلك التحلِّي بحلية التصديق، وإلا خيف عليه من سوء الخاتمة.

وأهل سوء الخاتمة لا يدخل الجنة، ولا يفيض الله عليهم من مائها؛ ولذا قال تعالى: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف:٤٠]: أي بركات الفيض، فإن الوحي إنما ينـــزل من صوب السماء، وإن كان سرُّه يبدو من القلب في الحقيقة؛ إذ هو اللوح الحقيقي، فلا شيء للقلب من الخارج في الحقيقة، وإنما ينـــزل ما ينـــزل من جانب السماء الجهة التشريف، فإن المقامات مختلفة في العُلو، والسفل، والكلِّي مراء لتجلِّي الصور بحسب موطنها وتعيُّنها.

قال تعالى: ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:٤٠]: أي جنة القلب، قدَّم الفتح على الدخول؛ لأنه طريقه، وقد قال تعالى: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]؛ فالقلب الخالي عن الفيض؛ لا يكون جنة؛ ولذا رُجِّحت الجنان الأرضية على غيرها؛ لاشتمالها على الأنهار الجارية.

ولا شك أن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي، فما لا ماء فيه من البلاد؛ فهو كالميت، فكذا ما لا فيض فيه من القلوب[1].

---

(١)قال الإمام الجنيد: «العارف لون الماء لون إنائه» قبل الاتصاف بحسب الأواني من لا صفة له، وكذلك فيما نحن بصدد بيانه؛ لأن الأصل وحدة العين، فقبل الصفات المتضادة، وهي في الظاهر عين الظاهر، وفي الباطن عين الباطن، وفي الأوَّل والآخر كذلك.

فقبل الأضداد، وهي الحرارة والبرودة، والحلاوة والمرارة، وهو ما واحد، وهذا من مدركات العقل لا كلام فيه.

=

قال ﷻ: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، علَّق ذلك بأضيق شيء، ودخوله تعليقًا بالمحال.

ولا شك أن المعلَّق مُحال، فالفتح والدخول مُحال، وفي ذلك وعيد شديد لأهل الإنكار والإصرار، والواقعين في الأخيار والأبرار بتكذيب كراماتهم العلمية، وآياتهم العرفانية.

وفيه إشارة إلى أنهم كالجمل في الضخامة حيث إنهم يربُّون أجسامهم بالشهوات، وقلوبهم بالإنكار، وأرواحهم بالجمل والحجاب، فكما أن الجهل وهو في تلك الضخامة لا يمكن أن يدخل في سَمِّ الخياط، وهو في تلك الدقة والضيف؛ فكذا كفار الحقائق لا يمكن أن يدخلوا في باب الملكوت؛ لضيقه، ولا أن يسلكوا على صراط المعنى؛ لدقته؛ بل أرواحهم المظلمة تبقى بعد الموت الطبيعي في جو الهواء؛ كأرواح غيرهم من الفجرة؛ بل الفجور المعنوي المتعلِّق بالقلب أشدُّ من الفجور الصوري بالقالب، وكم من ساقطٍ من أهل الفجور الأول في غاية الأمر، وقائم من

=

فأراد ﷺ بهذا التمثيل تقريب العقول الضعيفةالقول للإمام الجنيد، فالإناء مثلٌ مضروبٌ منه لعقله، والماء مثلٌ مضروب لمعروفه وهو الله.

وقد اختلف الناس في تأويل هذا الخبر من علماء الرسوم، ثم قال: المعرفة من كسب النفس، فالحق قائم بها فالمعرفة نفسية ربانية جنانية.

وقال: بالباء عرفه العارفون، وبزوالها صحَّ الدوام لهم في المعرفة: أي به عرفوه، ولما غابوا عن معرفتهم بمعروفهم صحَّ لهم دوامها، ولو غفلوا عنه بها ثبت لهم نقيضها.

ثم قال: وقال: المعرفة والسرور لا يجتمعان في أحدٍ في الدنيا أبدًا، والمعرفة والحزن لا يجتمعان في الآخرة في أحدٍ أبدًا ما دام الرجل في هذه الدار، فهو على قدم خطر ولو بلغ ما بلغ؛ لأنها دار المكر والتبديل، وقد ذم الفرح فيها لعدم تحقيق أسبابه من جميع الوجوه فإذا انتقلت إلى دار التمييز والتخليص وترآى الفريقان، وانصبغ من انصبغ في الفضل والرحمة، حينئذٍ يحق الفرح وقد أُوتي العبد هنا الرحمة والفضل، ويمنعه من الفرح بهما شغل القلب بأداء الحقوق هنا، وهناك.

أهل الفجور الثاني في نهاية الحال، وقد رأينا في زماننا كلاً منهم.

فقد اشتهر بعض الناس بالتقوى، والعمل بالشرع، وقد صدر عنهم ما صدر عن أبي جهل ونحوه؛ لكون قلوبهم قلوب الذباب، ورأيناهم بعد الموت في البرزخ، والورطة، وكمال الحجاب، واشتهر بعض الناس بخلاف ذلك، ثم صاروا إلى مقام الرضا؛ لكون قلوبهم خالية عن القصد بالسوء والأذى.

فالطائفة الأولى: لعنهم في الدنيا والآخرة؛ لكونهم ممَن أذى الله ورسوله، وورثة رسوله.

والثانية: رحمهم الله في الدَّارين؛ لكونهم ممَن أحب الله ورسوله، وورثة رسوله. كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، وقد وصل بعض الناس إلى الله تعالى من طريق المحبة، فإن الوصول طرقًا مختلفة.

قوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف:٩٦].

: أي في مقابلة الإيمان؛ لأن الفيض إنما ينـــزل من العُلو، والقلب عُلوي كما مرَّ؛ فكان المناسب للعُلوي المتصف بالإيمان العُلوي البركات السماوية العُلوية، فكما أن الأرض إنما تنمو بالماء السماوي؛ فكذا القلب إنما ينمو بالفيض العُلوي، واستند الفتح على نون العظمة؛ لأن الأسباب مهيَّئة لا مؤثِّرة؛ فالفاتح هو الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]: أي في مقابلة التقوى؛ لأن التقوى من شأنه أن يوجد في الأرض كما سبق.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣].

: أي قال الله تعالى لموسى عليه السلام حين طلب الرؤية: لن تراني يا موسى وأنت موسى؛ وإنما تراني إذا كنت محمدًا، و لم تكون محمدًا أبدًا؛ لوجوب اختلاف التعينات بالحكمة؛ فهو: أي محمد ﷺ يراني ببصره وببصيرته؛ لأنه لا حجاب له من كون لا جسمًا ولا روحًا؛ لأن اللطيف لطفه، وجُعل نورا محضًا، كما قال: «**واجعلني نورًا**»[1]، وأنت يا موسى تراني ببصيرتك في الدنيا، وأنا رؤيتك ببصرك، فلا تحصل

(١) تقدم تخريجه.

لك إلا في الآخرة، كما لسائر المؤمنين[١].

(١) قال الشيخ الشعراني: اعلم يا أخي رحمك الله أن رؤية الحق سبحانه وتعالى لا يعرف حقيقتها إلا من عرف حقيقة رؤية رسول الله ﷺ، أو غيره من الأموات، وأنه مثالٌ ينتجه الله تعالى من تلك الذات المرئية في عالم الخيال، فيرتسم في النفس بصورة المرئي، فليس مراد الرائي الصادق برؤية رسول الله ﷺ في المنام رؤية حقيقة شخصه ﷺ الموقع في قبره الشريف بالمدينة؛ فإن ذاته الشريفة منـــزَّهةٌ عن كُلفة المجيء والرواح من البرزخ إلى مكان الرائي، وربما رآه ﷺ ألف واحدٍ في ليلةٍ واحدةٍ في ألف موضعٍ، وهو في كل موضعٍ على حالةٍ لا تشبه الأخرى، ومثل ذلك محالٌ في العقل، وإن كانت القدرة الإلهية أوسع من ذلك، وهذا هو معنى حديث:

«**مَنْ رانِي فِي المنامِ فَقَدْ رآنِي حقًّا؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّل بِي**».

فليس معناه أنه رأى روح النبي ﷺ ومظهر ذاته، وإنما معناه أنه رأى مثال روحه المقدَّسة، التي هي محلُّ النبوة.

فإن روح رسول الله ﷺ الباقية بعد موته منـــزهةٌ عن الصورة والشكل؛ فافهم.

بخلاف المثال؛ فإنه لا يكون إلا مشتملاً على الشكل واللون والصورة، وهذا لا بدَّ منه في طريق التعريف، وإلا لم يكن يُعرف.

وكذلك القول في رؤية ذات الله ﷻ، فإنها منـــزَّهة عن الشكل والصورة، ولكن لا يتعقل عبدٌ معرفتها إلا بواسطة تخيل مثالٍ محسوسٍ في الصورة الجميلة التي تصلح أن يُمثَّل بها ذلك الجمال الحقيقي المعنوي، الذي لا صورة فيه ولا لون ولا شكل، ثم يطلق على ذلك المثال أنه حقٌّ وصدقٌ؛ لكونه واسطةً في التعريف.

ويقول النائم: (رأيت ربِّي في المنام)، وليس مراده أنه رأى ذات ربه حقيقةً، وإنما رأى مثال ذاته المتخيلة في وهمه.

فإن قيل: إن رسول الله ﷺ له مِثلٌ، والله تعالى لا مِثل له.

قلنا: هذا كلام من هو جاهلٌ بالفرق بين الْمِثْل والمثال.

فإن المثل هو المساوي في جميع الصفات، والمثال لا يشترط فيه المساواة.

وتأمَّل العقل؛ فإنه معنًى لا يماثله غيره، وكثيرًا ما يمثل بالشمس وليس بينهما من المناسبة إلا شيءٌ واحدٌ.

وهو أن المحسوسات تنكشف بنور الشمس كما تنكشف المعقولات بالعقل.

وقد ضرب الله ﷻ المثل لنوره بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ الآية.

=

=

وأيُّ مماثلةٍ بين نوره ونور الزجاج والمشكاة والشجرة والزيت.

وكذلك ضرب الله تعالى المثل للحياة الدنيا بالماء النازل من السماء.

وضرب رسول الله ﷺ المثل للإسلام بالقبة.

وضرب المثل للعمل باللبن، وضرب المثل للقرآن بالحبل.

فأيُّ مناسبةٍ بين هذه الأمور وبين الأشياء المضروب لها الأمثال، ولكن لما كان الحبل مثلا يُتمسَّك به للنجاة والقرآن يُتمسَّك به للنجاة صحَّ التمثيل به.

وقسْ عليه، وكل ذلك من باب المثال لا من باب المثل.

فكما صحَّ ضرب الأمثلة لما ذكر صحَّ ضرب الأمثلة لكل عارفٍ لذات الله التي لا مِثل لها لمناسبةٍ معقولةٍ من صفات الله تعالى.

واعلم أننا لو أردنا أن نعرف مسترشدًا سألنا: كيف يخلق الله الأشياء؟ وكيف يعلمها؟ وكيف يريدها؟ وكيف يتكلم؟ وكيف يقوم الكلام بنفسه؟.

لا نقدر نعرفه معنى ذلك إلا بما عنده من صفات نفسه، ولولا أنه عرف نظير هذه الصفات من نفسه لما فهم مثال ذلك في حق الله ﷻ.

قلت: إن المثال جائزٌ، والمثل باطلٌ؛ وذلك لأن المثال هو ما يوضِّح الشيء، والمثل ما يشابه الشيء من جميع الوجوه، وليس شيءٌ في الوجود يُماثل الحق تعالى.

فالمثال هو المرئي في الدنيا والآخرة، كما سيأتي بسطه في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى؛ لأنه لا يصحُّ لعبدٍ أن يرى الذات المقدسة؛ لأنها تنفي بذاتها أن يكون في حضرتها سواها.

وهذا المثال هو المراد بقوله ﷺ: «**رأيتُ ربِّي في أحسنِ صورةٍ**».

وفي روايةٍ: «**في صورةِ شابٍّ**».

وهو المراد أيضًا بقوله ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ عَلَى صورتِه**».

وفي روايةٍ صححها ابن النجار وأيَّدها الكشف: «**على صورةِ الرحمن**».

فإنه لا يصحُّ أن يكون المراد بذلك صورة الذات؛ لأن الذات المقدَّسة لا صورة لها إلا من حيث التجلي بالمثال، كما يشهد لذلك خبر مسلم في التجلي يوم القيامة.

وكما تجلى جبريل لرسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي.

ومعلومٌ أن تَمَثُّل جبريل في دحية ليس معناه أن ذات جبريل انقلبت صورة دحية، وإنما ظهرت تلك الصورة لرسول الله ﷺ مثالاً مؤدِّيًا عن جبريل ما أوحى به إليه.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

=

=

[مريم:١٠]، فإذا لم يستحيل ذلك في حق الملك وأن جبريل كان باقٍ على حقيقته وصفته في حال ظهوره في صورة دحية فلا يستحيل ذلك في حق الله تعالى في يقظةٍ ولا منامٍ؛ لاتفاق جميع المحققين أن المرئي مثال الذات لا عين الذات، كما تقدَّم وكما سيأتي.

ومن فهم الفرق بين المثل والمثال لم يقف في مثل ذلك، وقد أشار رسول الله ﷺ بأن الله تعالى مثالاً يقع التجلي فيه حتى يُعرف بقوله: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ على صورته**».

وذلك أنه تعالى لما كان موصوفًا بالوجود قائمًا بنفسه حيًّا عالمًا مريدًا قادرًا سميعًا بصيرًا متكلمًا كذلك ولو لم يكن الإنسان موصوفًا بهذه الصفات ما صحَّ له معرفة هذه الصفات في جانب الحق تبارك وتعالى، ولا تعقُّلها.

ولهذا ورد في بعض الكتب الإلهية: «**مَنْ عَرَفَ نفسَهُ فَقَدْ عَرَفَ ربَّهُ**».

ذلك لأن كل ما لم يجد الإنسان له مثالاً في نفسه يعسر عليه التصديق والإقرار به، ومن شكَّ فيما قررناه فليتعقَّل لنا شيئًا لم يخلقه الله تعالى؛ فإنه لا يقدر قطُّ على ذلك، وهذا يصلح دليلاً لمن منع رؤية ذات الله تعالى لولا ما ورد.

ثم اعلم أن الفرق بين الحق تعالى والإنسان أن الحق تعالى يتقلَّب في الأحوال، والإنسان تتقلَّب عليه الأحوال؛ إذ يستحيل أن يكون للحال على الحق تعالى حكمٌ.

قال تعالى: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن:٢٩].

فوقعت المشاركة في الأحوال كما وقعت في الأسماء، فافهم هذا الفرق؛ فإنه من أوضح الفروق وأجلاها، فَعُلِمَ أنه ليس المراد بالصورة المخلوق عليها آدَم أنها ذات سبع فقط؛ لأن الحيوان كذلك له ذاتٌ، وهو حيٌّ عالمٌ مريدٌ قادرٌ متكلمٌ سميعٌ بصيرٌ، ولو كان المراد ذلك لكان يبطل وجه الخصوصية للإنسان، فإن هذه الصفة إنما جاءت له على جهة التشريف له.

فإن قيل: فما هذا التغيير الواقع للإنسان في نفسه وصورة الحق تعالى لا تقبل التغيير؟

قلنا: الله تعالى يقول: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١].

ورسول الله ﷺ يقول: «**فَرِغَ ربُّك مِنْ ثلاث**».

وفي حديث التجلي الأُخروي يتجلى لهم الربُّ في أدنى صورةٍ، ثم يتحوَّل عند إنكارهم إلى الصورة التي عرفوه فيها بالعلامة.

فهو تعالى هو الذي أضاف إلى نفسه هذا المقام، وهو عريٌّ عن مقام التغيير بذاته والتبديل، ولكن التجلي في المظاهر الإلهية على قدر العقائد التي تحدث للمخلوقات مع الأنات، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا وكذلك هو ارتفع الاعتراض الوهميُّ، تعالى الله عن ذلك.

=

=

وقد قررنا غير ما مرة أنه ينبغي للإنسان أن يعلم ميزانه من الحضرة الإلهية، فإن الجود الإلهي قد أدخله في الميزان، فيوازن العبد بصورته حضرة موجده ذاتًا وصفةً وفعلاً، ثم لا يلزم من الوزن الاشتراك في حقيقة الموزونين.

فإن الذي يوزن به الذهب أو المسك هو صبخة حديد، فليس يشبه في ذاته ولا صفته ولا عدده، فلا يوزن بالصورة الإنسانية إلا ما تطلبه الصورة الإنسانية بجميع ما تحتوي عليه بالأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاده، وأظهرت آثارها فيه.

وكما لم تكن صَبخة الحديد تُوازن الذهب في حدٍّ ولا في حقيقةٍ ولا صورةٍ ولا عينٍ كذلك العبد وإن خلقه الله تعالى على صورته فلا يجتمع معه في حدٍّ ولا حقيقةٍ؛ إذ لا حدَّ لذاته تعالى، والإنسان محدودٌ بحدٍّ ذاتيٍّ، لا رسميٍّ، ولا لفظيٍّ.

فالإنسان أكمل المخلوقات وأجمعها من حيث نشأته ومرتبته.

فإذا وقفت يا أخي على هذا الميزان زال عنك ما تتوهمه في الصورة من المشاركة للحق في الحقيقة؛ فإن الله تعالى هو الخالق، وأنت العبد المخلوق، وكيف للصنعة أن تعلم صانعها! إنما تطلب الصنعة من الصانع صورة علمه بها لا صورة ذاته، وأنت صنعة خالقك، فصورتك مطابقةٌ لصورة علمه بك، هكذا كل مخلوقٍ ولو لم يكن الأمر كذلك وكان يجمعكما حدٌّ واحدٌ وحقيقةٌ واحدةٌ كما يجمع زيدًا وعَمْرًا لكنت أنت إلهًا، والأمر كذلك على خلاف ذلك.

فاعلم بأيِّ ميزانٍ تزن نفسك، فإنك صبخة حديدٍ يوزن بها ما لا ثمن له، وإن اجتمعت مع الموزون في المقدار فما اجتمعت معه في القدر ولا في الذات.

تعالى الله عن ذلك، وإنما قال فيما تقدَّم: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه»، ولم يقل: (فقد عرف ذات ربه)؛ لأن الذات لها الغنى على الإطلاق، وأنَّى للمقيَّد معرفة المطلق الذي هو الله، بخلاف الاسم الرب؟! فإنه يطلب المربوب بلا شكٍّ، ففيه رائحة التقييد.

ولذلك أمر الله تعالى العبد أن يعلم: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام:١٩]؛ لأن الإله يطلب المألوه، بخلاف اسم الذات الخصيص، فإنه غنيٌّ عن الإضافة.

وهنا أمرٌ ينبغي التفطُّن له، وهو أن معرفتنا بالربِّ لا تكون إلا فرعًا عن معرفتنا بالنفس؛ إذ هي الدليل.

وإن كان وجود الربِّ هو الأصل ففي مرتبةٍ يتقدَّم فيكون له الاسم الأول، وفي مرتبةٍ يتأخر، فيكون له الاسم الآخر، فيحكم له بالأصل من نسبةٍ خاصَّةٍ، ويحكم له بالفرع من نسبةٍ أخرى، كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢] هذا يعطيه النظر العقلي.

=

=

وأما الذي تعطيه المعرفة الذوقية فهو تعالى ظاهرٌ من حيث ما هو باطنٌ، وباطنٌ من حيث ما هو ظاهرٌ، وأوَّل من عيَّن ما هو آخرٌ، وآخر من عيَّن ما هو أولٌ، وإزار من نفس ما هو رداءٌ، ورداءٌ من نفس ما هو إزارٌ، ولا يتَّصف بنسبتين مختلفتين أبدًا كما يقرره ويعقله العقل، من حيث ما هو ذو فكرٍ.

فافهم تعلم أنه لا يكلف الإنسان بمعرفة أخصِّ وصف لله تعالى؛ لأنه ليس لذلك الوصف الأخص في المبتدعات والمخلوقات مثالٌ، وكل ما لا مثال له فلا علم للإنسان به ولا اسم له عنده ولا علامة.

ومن هنا قال من قال: (لا يعرف الله إلا الله)، أعني أخصَّ وصفه وكُنْهَ معرفته، كما سيأتي بسط ذلك في الميزان إن شاء الله تعالى.

وعلم أيضًا أن مشاركتنا للحق في مطلق الصفات لا تشبيه فيه؛ لأن شرط التشبيه إثبات المشاركة في الوصف الأخصِّ، وهذا لا يصحُّ.

كما أن من قال: (إن السواد عرضٌ موجودٌ، وهو لونٌ، والبياض عرضٌ موجودٌ وهو لونٌ) لا يكون مشبِّهًا السواد بالبياض، فتأمَّل ذلك؛ فإنه نفيسٌ.

ورؤية الحق تبارك بعين البصر في هذا الدار ممنوعةٌ لغير سيِّدنا محمدٍ ﷺ، وما بقي لغيره إلا الشهود بالقلب دون الرؤية بالعين، ومن لازم ذلك الحجاب.

وإن تفاوت فيه الناس، ويسمَّى حجاب العظمة ، الذي لا يرفع عن وجه الذات أبد الآبدين ودهر الداهرين.

كما أشار إليه: «**وليسَ بين العبادِ وبين أن يَرَوا ربَّهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهِهِ في جنَّةِ عَدْنٍ**».

فجميع التجليات الواقعة للعباد في الدنيا والآخرة لا تخرج أبدًا عن رتبة التقييد؛ إذ التجلي الذاتي في غير مظهرٍ ممنوعٌ بين أهل الحقائق، كما سيأتي بسطه في الميزان.

وأنشدوا:

لَـمْ يَـبْدُ مِـنْ شمسِ الوجودِ ونورِها ... عَلَـى عَـالمِ الأرواح شيءٌ سِوَى القرصِ

ولَـيسَ تَـنالُ الـذَّاتُ فِي غيرِ مظهرٍ ... ولَـو هَلَـكَ الإنسَـانُ مِنْ شدَّةِ الحرصِ

وإيضاح ذلك: هو أن رؤية الباري جلَّ وعلا من أكبر النعيم، والحجاب عنه من أكبر الجحيم، ولا يصحُّ لنا نعيمٌ قطُّ ولا عذابٌ في غير مظهرٍ؛ لأن غير المظهر كحالة الفناء لا لذة فيه ولا ألم، فإذا وقع التجلي في المظاهر وقعت اللذات والآلام، وسرت في العالم، فلا حكم للنعيم والعذاب (في) البسيط في الوجود أبدًا، وإنما يوجد في المركب.

ومن هنا كان أبو يزيد البسطامي رحمه الله يقول: أهل أحدية الذات لا نعيم عندهم، ولا عذاب.

=

=

وكان يقول: ضحكت زمانًا، وبكيت زمانًا، وأنا اليوم لا أضحك، ولا أبكي.

ثم اعلم أن التجلي الإلهي لا يكون إلا للاسم (الرب) وللاسم (الإله)، فلا يكون للاسم (الله) ولا للاسم (الأحد) أبدًا.

ولذلك قال السامري: (هذا إلهكم وإله موسى)، ولم يقل: (هذا الله الذي يدعو إليه موسى)، فإن كل مشارٍ إليه ذو جهةٍ، والله والأحد لا جهة لهما، وهما عينان لا يطلبان أحدًا، فمن تعبَّد وتذلل للاسم (الأحد) فقد تعبَّد نفسه في غير[معبود]، وطمع في غير مطمعٍ، وعلم في غير معلمٍ؛ لأن الأحدية لا تقبله، ولا يصحُّ له معرفتها؛ لمنافاتها وجود العابد، بخلاف الربِّ؛ فإنه أوجد العبد، فهو يتعبَّد له ويتذلَّل.

وكذلك الإله يطلب مألوهًا، كما سيأتي إيضاحه في فصل ارتباط العالم بالحق من بعض الوجوه.

ثم لا يخفى أن التجلي في المظاهر الإلهية لا يكون أبدًا إلا بصورة استعداد العبد، وغير ذلك لا يكون، كما أشار إليه قوله ﷺ: «**المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ**»، الذي هو[الحق] (**مرآة المؤمن**) الذي هو[الخلق]، فافهم.

فإذن العبد ما رأى في المرآة [الإلهية] إلا صورة نفسه، وما رأى الحق ولا يمكن أن يراه مع علمه أنه ما رأى صورته إلا فيه، كالمرآة في الشاهد إذا رأيت المنطبع فيها لا تراها إلا مع علمك أنك ما رأيت الصور أو صورتك إلا فيها، فأبرز الله تعالى ذلك مثلاً نصَّبه لتجليه المظهري؛ ليعلم المتجَلَى له من الخلق أنه ما رآه.

وأنشدوا:

جميلٌ ولا يُهوى جَليُّ ولا يُرى ... وتشهدُهُ الألبابُ من حيثُ لا تدري

وما ثَمَّ محبوبٌ سواه وإنما ... وإنَّما سلمى وليلى والربائب للسترِ

وما ثَمَّ مثالٌ أقرب ولا أشبه بالرؤية من هذا الذي ذكرناه.

واجهدْ في نفسك عندما ترى الصورة في المرآة أن ترى جرم المرآة، لا تراه أبدًا ألبتة.

ولكن إن قلت: إن المنطبع في المرآة صورتك صدقت؛ لأنها نشأت من مقابلتك، وإن قلت: إنها غير صورتك صدقت؛ لأن صورتك لم تنتقل، فافهم هذا؛ فإنه من أعظم ما قدرنا عليه في العلم.

ومن ذاقه فقد ذاق الغاية التي ليس فوقها غايةٌ في حقِّ المخلوق بالنظر للمرئي لا للرائي، فإن الناس متفاوتون في كثافة الحجب وصقالة المرائي، فلا تطمع يا أخي ولا تتعب نفسك في أن ترقى إلى أعلى من هذا المرقى، فما هو ثَمَّ أصلا، وما بعده إلا العدم المحض، فهو تعالى [مرآتك] في رؤيتك نفسك، وأنت [مرآته] في رؤيته أسمائه، ثم لا يخفى أن من المحال أن يكون لعبدٍ [الرب] كله.

=

=

كما أن من المحال أن يكون لعبدٍ القرآن كله، فلكل مخلوقٍ [ربٌّ]؛ فافهم.

وذلك هو الجزء والمدبر فيه لا غير، ولو اجتهدت أن تأخذ لنفسك من المرآة فوق ما يخصُّ صورتك لم تقدر؛ وذلك لأن الله تعالى واسعٌ عليمٌ، وتأمَّل المرآة إذا كانت كرةً وقُوبلت بالعالم العلوي والسفلي وسعته، وارتسم كله فيها، فلذلك قررنا غير ما مرة أن الحق تعالى قد تعرَّف إلى كل مخلوقٍ بوجهٍ لا يشاركه فيه غيره، فما أحاط به أحدٌ من كل وجهٍ، ولا جهله أحدٌ من كل وجهٍ.

حتى المعطل فإنه لا بدَّ أن يستند في وهمه إلى موجدٍ يلجأ إليه في الشدائد.

وغاية تعطيله أنه نفى صفةً أثبتها غيره لا غير؛ لقصور مطمح بصره وضعفه، فلم يحط بصفات الحق كلها، فما ثَمَّ لنا من يعتقد تعطيلاً على الإطلاق أبدًا.

فوجوه المعارف على عدد الخلق، والسلام.

وجميع من تكلَّم في العقائد إنما تكلَّم في عقيدة نفسه الناشئة من التحليات، لا يتعداها أبدًا، ولا يصحُّ له أن يوصل حقيقتها إلى غيره.

فعُلِمَ مما قررناه أن الحق تعالى لم يزل مجهولاً من حيث الوجوه التي لم يقع للخلق التحلي فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين، ومن يراه منَّا في الآخرة لا يرى عين ذاته الحقيقي.

وإنما هو كشفٌ صحيحٌ خياليٌّ مثاليٌّ، صرحت به الأخبار الصحيحة، وإلا فجلَّت ذات الله أن يُحاط بها.

وكان شيخنا الشيخ عليٌّ الخوَّاص ﷺ **يقول كثيرًا**: ما عرف الحق تعالى أحدٌ من حيث ما يعرف الحق تعالى نفسه أبدًا؛ لأن الأرواح المدبرة إنما ظهرت بصورة مزاج القوابل، فلا تتعدى في التدبير ما تقتضيه الهياكل، ولا يمكن أن يظهر الحق تعالى فيها إلا بصورة ما تقبله، وما هي على صورة الحق في الحقيقة، وإنما المدبر على صورة المدبر؛ إذ لا يظهر فيه منه إلا على قدر قبوله لا غير، «خلق الله آدم على صورته».

فلا يعلم من الحق ولا يرى منه إلا ما هو عليه الخلق، فمن اعتمد على العالم من هذا الوجه فقد اعتمد على أمرٍ محققٍ لا يتغير دنيا ولا أخرى، فليس الحق إلا ما هو عليه الخلق من العلم به، وهو تعالى في نفسه على ما علم، وله في نفسه ما لا يصحُّ أن يُعلم أصلاً، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [آل عمران:٩٧].

فالقدر الذي حصل تدبيره فيك هو [ربك الذي عبدته]، ولا تعرف إلا هو، وهو العلامة التي يعرف الحق تعالى بها في الآخرة، وهي في الدنيا في العموم على الغيب، وفي الآخرة على الكشف، فالعامة في الدنيا يعلمونها من أنفسهم، ولا يعلمون أنها المعلومة لهم.

=

=

ويقول فيها أحدهم: (ما عوَّدني الله إلا كذا وكذا)، وهذا العلم الذي نبَّهتك عليه من العلم بالله ما أظهرته باختياري، ولكن حكم الجبر حكم به عليَّ، فتحفَّظ به، ولا تغفل عنه؛ فإنه يعلِّمك الأدب مع الله تعالى.

وإذا فهمت هذا علمت أن الحق تعالى إنما هو معك بحسب ما أنت عليه وما أنت معه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

ولم يقل قط: (وأنتم معه)؛ إذ لا يصحُّ أن يكون أحدٌ مع الله، فالله مع كل أحدٍ بما هو عليه ذلك الواحد، ولا يصحُّ التجريد عن التدبير أبدًا؛ لأنه لو صحَّ لبطلت الربوبية، وهي لا تبطل؛ فالتجريد محالٌ، فلا تعقل إلهك إلا مدبِّرًا فيك، ولا تعرفه إلا من نفسك، فنفسك عرفت، والسلام.

وقد قال أبو بكر الشبليُّ ﷺ: إني لا أشتهي رؤية الله تعالى. فقيل له: لِمَ؟ فقال: أُنزِّهه عن رؤية مثلي.

فقال له بعض العارفين ﷺ: نفس شهودك أنك أنت الناظر أقبح من عدم تنـــزيهك، ويا ليت شعري! أيُّ نظرٍ لك من ذاتك حتى تنظر به، وهل ينظره تعالى إلا هو!.

وذكر الشيخ الشعراني بعض الهواتف الربانية:

(جهلني عبادي فلم يعرفوني، وكيف يدَّعون معرفتي وأنا لا جسم ولا معنى؟! ولو عرفوني في الدنيا ما أنكروني حين أتجلى لهم في القيامة، فهم لعلامتهم عابدون لا لي، ولعين ما أنكروه مقرُّون، فمن قال منهم أنه عبدني فقد كذب) انتهى.

ولا يخفى أن ذلك في حق الضعفاء من المؤمنين، أما العارفون فلا ينكرون الحق تعالى في تجلٍّ من تجلياته؛ لاطلاعهم في دار الدنيا على المرآة الكبرى الجامعة لسائر الصور، المتفرع منها كل معرفةٍ في العالم، فهم يوم القيامة واقفون لا يتكلَّمون، ولا يستعينون منه كما استعاذ غيرهم، حتى تنقضي جميع التجليات.

وقد علموا من الله تعالى أنه لا يريد منهم أن يعرِّفوه لأحدٍ من المنكرين في ذلك اليوم العظيم؛ ليحنوا كلهم ثمرة اعتقادهم في دار الدنيا.

وأما قوله ﷺ: «**إنَّكم سَتَرَون ربَّكم كما تَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ**».

وفي روايةٍ: «**كَمَا تَرَونَ الشمسَ فِي الظهيرةِ لَيْسَ دُوْنَهَا سحَابٌ**».

اعلم أن النور الذي يتجلى الحق تعالى فيه في الآخرة إنما هو نورٌ لا شعاع له، فلا يتعدى ضوؤه نفسه، ويدركه البصر في غاية التجلي والوضوح.

فمعنى قوله: «**كما ترون القمر ليلة البدر**»: يعني إذا كُشِفَ ليلة بدره؛ لأن عند ذلك يدرك البصر المثال المشبَّه بالقمر إدراكًا محققًا.

=

=

ويؤيده قوله ﷺ لما قيل له: كيف رأيت ربَّك يا رسول الله؟ قال:

«**نورٌ أنَّى أراه**»، فما رأى ذلك النور، وهو نورٌ شعشعانيٌّ، والأشعة تذهب بالأبصار، وتمنع من إدراك من تنشقُّ عنه عند تلك الأشعة.

واعلم يا أخي أنه لم يبلغنا أن أحدًا رأى ربَّ العزة بعين رأسه في الدنيا غير رسول الله ﷺ وأما رؤيته تعالى في المنام فوقعت لكثيرٍ من الأمة ولرسول الله ﷺ.

فروى الطبراني وصححه عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رأيتُ ربِّي ﷻ اللَّيلة في صورةٍ شابٍّ له وفرةٌ، وفي رجليه نعلان من ذهبٍ، وعلى وجهه فراشٌ من ذهبٍ، وعلى رأسه تاجٌ يلتمع البصر**» انتهى.

وقد استنكر بعض العلماء هذا الحديث، وما كان ينبغي له الاستنكار، وذلك لأن للحق تعالى تجليًا في خزانة الخيال في صورةٍ طبيعية، بصفاتٍ طبيعيةٍ، فيرى النائم في نومه تجسد المعاني في صور المحسوسات، هذه حقيقة الخيال، فيجسد ما ليس من شأنه أن يكون جسدًا، لا تعطي حضرته إلا ذلك، فحضرة الخيال هي أوسع الحضرات؛ لأن فيها يظهر وجود المحال، فإن الله تعالى لا يقبل الصور، وقد ظهر بالصورة في هذه الحضرة، كما قبلها في تجلّيه يوم القيامة في صور المعتقدات، فقد قَبِلَ محال الوجود الوجود في هذه الحضرة، وفي هذه الحضرة أيضًا يرى الإنسان الجسم الواحد في مكانين في آنٍ واحد، كما رأى رسول الله ﷺ موسى عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء في السماء في حال كونه في الأرض، وقال: «**رأيت موسى**».

وما قال: (رأيت روح موسى)، ولا (جسد موسى)، ونظير ذلك رؤية الإنسان في منامه جسمه في مدينة أخرى، وعلى حالة أخرى، يخالف حاله الذي هو عليه في بيته، وهو عينه لا غيره لمن عرف الوجود على ما هو عليه، ونظير ذلك أيضًا مشاهدة المقتول في المعركة في سبيل الله، وهو في حال رؤيتك عند ربِّه حيٌّ يُرزق ويأكل.

وقد رأيت في واقعة وقعت لي طيرًا أبيض طويل العنق، أقبل، فابتلع الوجود العلوي والسفلي، وابتلعني من جملة العالم، فصرت أراه من خارجه، وأنا في جوفه، وما بقي له قرارٌ ينـــزل إليه ليستقرَّ، ولا سقفٌ يصعد إليه، ثم جاءت بعوضةٌ، فابتلعت ذلك الطائر بما حواه، ثم غابت عن العين.

وهذا نظير رؤية آدم في حديث القبضتين، حين قيل له:

«**يا آدمُ، اخترْ أيَّهما شئت، فقال: اخترتُ يمينَ ربِّي، وكلتا يديه يمينٌ مباركةٌ، فلما بسط الحق تعالى يده فإذا فيها آدم وذريته**» الحديث.

فآدم في هذه القصة في القبضة، وهو عينه خارجٌ عنها، فانسخ يا أخي حكم عقلك، حتى تجمع بين الضدين، وتصدق رسولك ﷺ فيما أخبرك به مما أحاله عقلك؛ لأنك لا تتعقل شيئًا قطّ من ذلك، وميزان العقل موجودٌ معك، ولولا أن حضرة الخيال تقبل المحال ما قدر العقلاء على فرض المحال؛ لأن العاقل لولا صوَّره في نفسه ما قدر على فرضه، وإنما صحَّ لنا رؤية الحق تعالى في المنام مع

ولذا قال: «**وأنا أول المؤمنين**»[١]: أي بوقوع الرؤية في الآخرة لا في الدنيا، وبالبصيرة لا بالبصر.

فإن البصر قيد؛ والقيد لا يزول، لقوة العناصر والأركان، وأنا محمد ﷺ، فبصره ليس بقيد له؛ ولذا كان يرى من جميع الجهات، وهو في الصلاة؛ للمجازاة

=

الضدين، وتصدق رسولك ﷺ فيما أخبرك به مما أحاله عقلك؛ لأنك لا تتعقل شيئًا قطُّ من ذلك، وميزان العقل موجودٌ معك، ولولا أن حضرة الخيال تقبل المحال ما قدر العقلاء على فرض المحال؛ لأن العاقل لولا صوَّره في نفسه ما قدر على فرضه، وإنما صحَّ لنا رؤية الحق تعالى في المنام مع حديث: «**إنَّكم لَنْ تروا ربَّكم حَتَّى تموتوا**».

لأن النوم أخو الموت، فلما كان الموت يطلق على النوم بضربٍ من التشبيه قلنا بصحة رؤية الحق تعالى فيه، وكذلك لما تجلى الحق تعالى للجبل خرَّ موسى صعقًا، وصار الجبل دكًّا، فما أطاق موسى الكلام حتى صُعق، وتحلل التركيب منه.

وكان الدكُّ للجبل بمنـــزلة الموت له، حتى أطاق سماع الخطاب؛ إذ السماع[٢] لمن لا مثل له كالرؤية لمن لا مثل له سواء. فهذا هو السبب المجوِّز لرؤية الحق تعالى في الحياة الدنيا في المنام.

وكان أبو يزيد ﷺ **يقول**: الحقيقة تأبى أن يكلم الحق تعالى غير نفسه، أو يسمعه غير نفسه؛ فإنه تعالى إذا أراد أن يكلِّم عبدًا لا بدَّ أن يحبَّه، وإذا أحبَّه كان سمعه وجميع قواه، فما سمعه تعالى حقيقةً إلا هو. ومن المحال أن يطيق حادثٌ سماع كلام القديم أو يتعقَّله، ولم يكن الحق تعالى لسانه عند النحوي، ولذلك كان ﷺ مع كماله يغيب عن نفسه وإحساسه عند الوحي.

واعلم أن حقيقة النوم أنه برزخٌ بين الموت والحياة، فالنائم لا حيٌّ ولا ميتٌ، فله وجهٌ للموت ووجهٌ للحياة، فهو أخو الموت من وجهٍ واحد، لا من الوجهين.

قال الله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا** ﴾ [النبأ:٩]: يعني راحةً لكم، ولتألفوا حالكم في البرزخ بعد الموت، فإن حالكم فيه كالنوم في الصورة.

قال شيخنا ﷺ: ومحل النوم ما تحت الكواكب، ومقعر فلك القمر خاصَّةً، فالملك لا رؤيا له؛ لأن نشأته غير عنصرية، هذا حكم الدنيا، وأما في الآخرة فمكان الرؤيا ما تحت مقعر فلك الكواكب الثابتة، ولذلك كان أهل النار ينامون في بعض الأوقات، نسأل الله العافية.

(١) رواه البخاري (٤/١٧٠٠)، والحاكم في المستدرك (٢/٦٣٠).

الإلهية، والله تعالى وجه كل لا قفا فيه، فكذا محمد؛ لأنه مظهره التام، ومجلاه الكامل؛ وهو القمر ليلة البدر إن عُكس إليه نور الشمس الذات؛ فامتلأ به.

وأمَّا النجوم؛ فقد أخذت أنوارها من القمر بقدر استعداداتها وصفائها في جرمها، ودلَّ على هذا الكمال قوله ﷺ يوم القيامة: «**أُمتي أُمتي**»[1]؛ لأنه لا حجاب له أصلاً، وأمَّا غيره فيقولون: نفسي نفسي.

ولَّما كان كمال المتبوع ساريًا في التابع؛ كان أكامل الأمة أيضًا كذلك؛ لأنهم أيضًا أهل التجلِّي الذاتي، ولا يلزم منه فضلهم على الأنبياء؛ لأن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الأولياء والحال لا تُوصف، ولسان الشرع لا يدور إلا بهذه القدر، ولا يجري إلا على مقتضى استعداد أهل العصر.

فظهر أن الله تعالى مشهود أبدًا؛ لكن من مرآة رداء الكبرياء الذي هو وجود العبد، وبعد شهوه، فالمشاهدون على تفاوت الدرجات في ذلك حسب تفاوت درجات البصر في الظاهر، فشهود بعضهم أقوى من شهود البعض؛ لكونه بالبصر وبالبصيرة جميعًا، كما لحضرة النبوة.

ولَّما كان كل من الحجاب والكشف يُورِّث الحيرة؛ كان المحجوب في حيرة؛ هي حيرة ممدوحة؛ لكونها حيرة تلوين بعد الكشف والتمكين، فبين الحيرتين تفاوت عظيم، كما بين التلوينين.

ومنه يُعلم سرُّ قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨].

حيث عبَّر عن شهوده ﷺ بالرؤية؛ فإنه أهل الرؤية سواء نظر إلى الأحباب، أو إلى الأعداء، وأمَّا هم؛ فهم أهل النظر الحسِّي لا من أهل الإبصار الحقيقي، ولو كانوا من أهل الإبصار الحقيقي؛ لِما جعلهم الله في حكم العمي؛ فهم رأوا محمدًا بصورته لا بمعناهو ويقرأ في الحيرة المذمومة حيث استبعدوا النبوة في البشر والحق في صورة

---

(١) تقدم تخريجه.

بني آدم، وقد قال: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»[1]: أي بذاته وأسمائه وصفاته.

والمراد منه: آدم الحقيقي الذي هو محمد ﷺ، فإن الغاية القُصوى من الكون من إيجاد أبو البشر داخل في محمد لا بالعكس، فإن الله لَمَّا كان النور المحمَّدي من نوره؛ جعل نور أبي البشر في نوره، فما ظهر إلا بنور محمد كما أن محمدًا ما ظهر إلا بصورة أبي البشر، فكان روح آدم تابعًا لروحه، وجسمه متبوعًا لجسمه، ولَمَّا كان الشرف الحقيقي، والكمال الإنساني للروح في الحقيقة؛ ما نقص متابعة محمد لجم آدم من كماله شيئًا.

ومنه: قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم**»: أي إلى ظواهركم؛ «**وإنما ينظر إلى قلوبكم ونياتكم**»[2]: أي إلى بواطنكم، فانظر واشهد لعلَّ الله يعطيك رؤيته بالمنَّة لا بالجهل.

قال الله سبحانه في أواخر سورة الأعراف: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾ [الأعراف:١٧٦].

معنى هذه الشرطية أن إخلاده إلى الأرض كان سببًا لعدم مشيئة الله رفعه، فلو لم يكن الإخلاد الاختياري؛ لشاءه، فلو شاءه مع الإخلاد؛ لكان ذلك من قبيل الجبر، والله تعالى لا يجبر أحد على ما لا يقتضيه استعداده؛ ولكنه يُجبر على حكم قابليته، ومن ذلك الاسم الجبَّار.

وعلى هذا نحو قوله: ﴿**وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة:٢٦٤]: أي لأنه لو هداهم مع اختيارهم الكفر؛ لكان جبَّارًا بما لا يقتضيه عالم العلم، والحكمة، فإن قلت: قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّه**﴾ [الإنسان:٣٠]؛ يدلُّ إن مشيئتهم تابعة لمشيئته تعالى؛ فيكون جبرًا، قلت: هذا راجع إلى ما هم عليه في عالم العلم، فإن الله تعالى إنما شاء في العين الخارجي ما شاء لكون ذلك مما يقتضيه حال المعلوم في العلم؛ فهو عليم حكيم؛ يعني: إن حكمته تابعة لعلمه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (١٩٨٧/٤)، وابن ماجه (١٣٨٨/٢).

وحاصله: إنهم ما يشاءون في العين إلا أن يشاء الله في العلم، وما شاء الله في العلم إلا ما شاءه المعلوم، فارتفع الجبر، وجاء إلزام الحُجة؛ لأن الله تعالى خلاَّق جوَّاد فما يعطي إلا ما شاء له ألسنة الحقائق والماهيات؛ فهو مجيب لسؤال كل سائل، فليس للسائل إنكار سؤاله، وإن المعطي له ليس عين السؤال.

ألا ترى أن مَن أمر غيره بأن يخرج له من كيسه دينارًا فلسًا؛ فليس له أن يعارضه في ذلك بأن يقول له: قد أمرتك بإخراج الدينار لا بإخراج الفلس، فإن للمأمور إن ما وجدت في الكيس إلا الفلس؛ فهو عين ما طلبت في الحقيقة في صورة طلب الدينار؛ إذ الإخراج والإعطاء إنما هو من الموجود لا من المفقود.

ولله الحُجة البالغة، فأين تذهبون؟ والكل على صراط مستقيم لا يخطئه، ولا ينحرف عنه؛ لأن الله أخذ بناصيته، فطوبى لَمن سلك على طريق الهدى، وويلٌ لَمن سلك على طريق الهوى؛ ولذا ذمَّ الله مَن اتَّبع هواه في هذا الموضع، وفي غيره إذا لم يقبل الهدى، وكان أمره فرطًا، فأنَّى يفلح الإنسان إذا لم يقبل الإرشاد، وكيف يقبل الإرشاد، وقد طُبِّع على الضلال، ولم يطبع عليه إلا بأمر غير مجعول، فليلم نفسه، أو ليسكت غريقًا في بحر الحيرة.

فهذا عالم القضاء والقدر، ولا يبحث عنه فوق ذلك، وسرُّه ظاهر؛ وهو الأحوال الواقعة في العالم خيرًا وشرًا، والكل مُيسر لما خلق له، إمَّا ابتداء، وإمَّا انتهاء، فإنه الاعتداد بالسعادة العارضة، ولا بالشقاوة العارضة.

ودعوة الأنبياء من جملة القضاء، فلا تُترك؛ لعدم إيمان المدعو، وبهذا وقعوا في الحيرة، وأشار بالرفع إلى أن مَن قبل الآيات؛ فكأنما رُفع إلى السماء، ومَن ردَّها؛ فكأنما وُضع في سجِّين، فكلٌّ رُفع ووُضع، فهو إنما يكون في الدنيا معنى، وفي الآخرة صورة، فترى أهل الملكوت السماوية في علِّيين، وأهل الشهوات الأرضية في سجِّين.

فمَن كان من أهل الأرض؛ فليجتهد في الارتفاع إلى السماء؛ فإن السماء محلُ التنـــزُّه والإطلاق، كما أن الأرض محلُّ الانقباض والانحباس؛ فإنها سجن، كما ورد:

«**إن الدنيا سجن المؤمن**»[1]، نسأل الله تعالى أن يخلّصنا من هذا السجن بالسير في الملكوت، ثم يرفع منـــزلتنا إلى عالم الجبروت واللاهوت.

قال الله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ**﴾ [الأعراف: ٩٦].

: أي بالله الذي على العرش رحمانيته، وبملائكته الذين أُسكنوا في ملكوت سماواته، وبالرسل الذين أجسامهم في الأرض، وعقولهم، وقلوبهم، وأرواحهم في علّيين، وبالكتب التي أُنزلت في خزائن العرش من المحلّ المكين الأمين؛ وهو: أي الإيمان أصل السعادات، ويُحرَّم دخول الجنات العالية إلا به، ومحلُّ القلب العُلوي الذي كان تعيُّنه في عالم الأرواح؛ وهو فوق العرش عند أهل الحقائق خلافًا للحكماء؛ فإنهم ذهبوا إلى أن فوق العرش لا خلاء، ولا ملأ إلا أن يُقال: إنهم أرادوا بذلك سلب التحيُّز وهو كذلك، فإن الأرواح ليست بمتحيزّة؛ لتجرُّد جواهرها بخلاف الأجسام؛ ولذا جعل العرش محيطًا بالعالم، ومدارًا له فهو الخير كله.

قوله ﷻ: ﴿**واتَّقَوْاْ**﴾ [الأعراف:٩٦]: أي عن الكفر والمعاصي التي لا وجود لها إلا في الأرض السفلية؛ لأن الملائكة في السماء لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

وأمَّا الذين في الأرض، فإنهم وإن كانوا مكلَّفين ببعض التكاليف لكنهم في ذلك تابعون للإنس من حيث مشاركتهم في المكان، فهم في عدم العصيان؛ كالملائكة السماوية.

وأمَّا ما روي عن ابن عباس: من أن طائفة من الملائكة لم يسجدوا لآدم، فأرسل الله إليهم نارًا؛ فأحرقهم، فإنما أراد بالملائكة الجن؛ لأن كلاً منهم مستورون عن أعين الناس؛ لكونهم داخلين تحت الاسم اللطيف، وأيضًا إن الملك مَن أُرسل في أمر من الأمور، وأُمر بشيء من الأوامر؛ كالجن، فكل ملك روح وجن، وكذا كل جنّي روح وملك، وأمَّا كل روح فليس بملك، وهو الذي ليس له جسم أصلاً؛ كالأرواح المهيمة، فهو لا يقتضي الإرسال والأمر؛ لكونه مشغولاً بربه، ومستغفرة في بحر شهوة لا شعور له بالعالم، وبما يتعلّق به من المصالح.

---

(١) رواه مسلم (٤/٢٢٧٢)، والترمذي (٤/٥٦٢).

سورة الأنفال

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣].

المراد بالتعذيب الأول هو: التعذيب الدنيوي؛ لأن وجود النبي ﷺ أمان للمذنبين، وعبارة الخطاب له ﷺ، وإشارة لاصطفاء أمته؛ فيكون كقوله: «**لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك**»(١)؛ فإن المراد به: لولاك ولولا ما هو شعبة من شعب أنوارك لِما خلقت العالم من العرش، والكرسي وغيرهما(٢).

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/٢١٤).

(٢) قال الشيخ جعفر الكتاني: وفي «شفاء الصدور» لابن سبع قال الله تعالى: «يا محمد وعزتي وجلالي لولاك ما خلقت أرضي ولا سمائي ولا رفعت هذه الخضراء ولا بسطت هذه الغبراء».

وفي خبر قدسي ذكره فيما تقدم «شارح المشارق» وعلي القاري في «شرح الشفا» والقاشاني في «لطائفه» والجيلي في «كمالاته» كما ذكره غيرهم وهو «أن الله تعالى قال لسيدنا محمد ﷺ: لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك» قال بعضهم: والمراد من الأفلاك فيه جميع العالم إطلاقًا للبعض وإرادة الكل، وهذا الخبر وإن طعن فيه بعضهم ونفى عنه الثبوت فالأحاديث قبله تشهد له وتؤيده معناه وبها كلها تعلم صحة قول البوصيري في بردة المديح:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقول ابن الفارض:

لولاك يا أحمد المحمود ما طلعت ... شمس ولم تخرج الدنيا من العدم

وقوله أيضاً في تائيته الكبرى على لسان الحضرة النبوية:

ولا تحسبن الأمر عني خارجاً ... فما ساد إلا داخل في عبوديتي

فلولاي لم يوجد وجود ولم يكن ... شهود ولم تعقد عهود بذمتي

فلا حي إلا عن حياتي حياته ... وطوعي مرادي كل نفس مريدة

ولا قائل إلا بلفظي محدث ... ولا ناظر إلا بناظر مقلتي

ولا منصت إلا بسمعي سامع ... ولا باطش إلا بأزلي وشدة

ولا ناطق غيري ولا ناظر ولا ... سميع سواي من جميع الخليقة

=

=

وفي عـــالم التركيـــب في كـــل صورة ظهـــرت بمعـــنى عـــنه بالحســـن زيـــنتي

وفي كـــل معـــنى لم تبـــنه فظاهـــري تصـــــورت لا في هيـــــئة هيكلـــــية

إلى آخر ما قال ﷺ.

قال القاشاني في شرحها: وإنما لم يوجد وجود إلا به لأنه صورة الروح الأعظم وهو رابطة الإيجاد، انتهى.

وقول القطب سيدي علي بن وفا في داليته المشهورة:

روح الوجـــود حـــياة مـــن هو واجد لـــولاه مـــا تم الوجـــود لمـــن وجـــد

وقول الآخر:

لـــولاك مـــا خلقـــت شمـــس ولا قمر ولا نجـــــوم ولا لـــــوح ولا قـــــلم

والآخر

لـــولاه مـــا كـــان لا ملـــك ولا ملك .....

إلى غيرها مما يطول ذكره من كلام المادحين وتعلم أيضاً أن هذا المعنى وارد في السنة في عدة أحاديث، وإن قال بعضهم معترضا على قول القائل:

لـــولاه مـــا كـــان لا ملـــك ولا ملك .....

مثل هذا يحتاج إلى دليل و لم يرد في الكتاب ولا في السنة ما يدل عليه انتهى.

فإنه قصور عظيم وإن توقف فيه أيضاً جماعة من الشارحين كالشيخ أبي عبد الله محمد الأليورى الأندلسي في «شرحه لبردة المديح» قائلاً ما نصه: وبيت الناظم - يعني السابق — يعطى أن الدنيا خلقت من أجل نبـــينا صلوات الله عليه وسلامه وقد أكثر الناس في هذا المعنى وأطالوا وأطنبوا وصرحوا بأن الله ﷻ إنما أخرج الدنيا وأبرزها من العدم إلى الوجود من أجل هذا النبـــي وبسببه كرامة له وعناية به وتعظيماً لأمره وتفخيما لمنصبه الرفيع وقدره، إلا أني لم أقف على صحة ما أرتهن فيه الناظم ولا رأيت فيه توقيفا استند إليه ولا نقلاً أعتمد عليه إلا ما وقفت عليه في كتاب «انتقال النور» وغيره من الكتب التي لا أصل لها في الصحة، ثم قال: ولو صح أن الدنيا خلقت من أجل هذا النبـــي الشريف، لم يكن فيه مقال لقائل إذ ليس في ذلك ما تحيله العقول ولا ما يرده حديث منقول فلا يستعظم في ذلك الجناب العلي النبوي ذلك كله لاسيما، وليس في الشرع ما يعارضه ولا عثر في السنة على ما يقدح في صحته وينازعه ولا هو مستحيل في العقل انتهى منه بلفظه.

=

=

وقال: غيره من بعض شراحها إن هذا المعنى غير صحيح والأخبار به مطعون فيها وقد علمت أنها بانضمامها يتقوى ولا يقصر معناها هذا عن درجة الحسن إن لم تقل أنه يبلغ درجة الصحة ومما يشهد له زيادة على ما سبق حديث جابر عند عبد الرزاق في مصنفه وعمر عند أبي مروان الطيبي في فوائده وقد تقدم وأيضاً فإن العلماء العاملين والصوفية المخلصين وأولياء الله المفلحين كلهم أو جلهم شرقاً وغرباً قد تلقوا معناها بالقبول والتسليم وتداولوه في مصنفاتهم وأشعارهم وكتاباتهم جازمين به من غير تردد ولا بحث والمعنى، إذا تلقى بالقبول حكم بصحته وإن لم يكن له إسناد ولا دليل ظاهر لأنهم يحملون على أنهم وقفوا له على شواهد تثبته وإن لم تصل إلينا ولم نعلمها.

وقد ذكر الشيخ الأكبر في أول الفتوحات من خطبة خطبها بين يديه ﷺ في حضرة الجلال ومعه جميع الإرسال، إن أول اسم كتبه القلم في اللوح المحفوظ أني أريد أن أخلق من أجلك يا محمد العالم الذي هو ملكك.

وفي حاشية العارف بالله القطب أبي زيد عبد الرحمن الفاسي على «دلائل الخيرات» لدى قوله فيه: والسبب في كل موجود ما نصه: قال في شرح الشفا على قوله لولاه ما خلقتك والخطاب لآدم ما نصه: هذا أدل دليل على ما هو المعهود الصحيح أنه ﷺ سبب الوجود وأنه لولاه لم تكن الأكوان والعجب ممن يتكلم في مثل هذا وأخذه في الكلام فيه ويبحث عن الأدلة في ذلك ومن أين يؤخذ وهل وجد في الحديث ما يدل عليه وكان يتوقف عليه قول البوصيري في قصيدته البردة:

لولاه لا تخرج الدنيا من العدم .....

ويقول من أين أخذه وفي هذا الحديث أقوى دليل عليه والحمد لله، انتهى.

قلت أي قال العارف: وبيت البوصيري وإن توقف فيه بعض شراحه وقد سبقه إلى مثله ابن الفارض في قصيدة له تشاكل صدر البردة في ما هو من نفس المحبة:

لولاك يا أحمد المحمود ما طلعت شمس ولم تخرج الدنيا من العدم

هذا وقد وردت أحاديث تقتضي بصحة ما أشار إليه كقوله ﷺ «أول ما خلق الله نوري ومن نوري خلق كل شيء» وكقوله: «أنا يعسوب الأرواح» يعني أصلها ورئيسها الكبير ومنه يعسوب النحل لأميرها وكقوله: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين أو الروح والجسد» يعني قبل أن يكون وأحدا منهما وعلى ذلك نبه ابن الفارض بلسان الترجمانية عنه ﷺ بقوله:

وأني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوة

وأفصح بذلك سيدي عبد السلام بن مشيش بقوله في صلاته: ولا شيء إلا هو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط، وقد تقدم لنا التنبيه على أن هذا ومثله قد تحققه الصوفي من

=

=

حيث كشفه وحظ غيره منه إنما هو التصديق لما ورد من الخبر في ذلك وقد تقدم ما فيه كفاية وغنية، والله أعلم انتهى منه بلفظه.

وفي الوصية الصغرى للعارف بالله الشهير الغوث الكبير سيدي عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري ما نصه: ويجب عليكم أن تعتقدوا في حق رسول الله ﷺ أنه لا يفضل عليه شيء لا رسول ولا ملك، ولا ولي ولا عالم، ولا الجن ولا الإنس، ولا غير ذلك بل هو أفضل مما خلق الله تعالى وكيف يفضل عليه شيء ولولاه ﷺ ما أوجد الله تعالى شيئا من جميع المخلوقات انتهى منه بلفظه.

وعند الصوفية الحق المخلوق به قال القاشاني في لطائفه: يعنون به الإنسان الكامل قال: بالمعنى أنه المخلوق بسببه المشار إلى ذلك بقوله: «لولاك ما خلقت الأفلاك».

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:١٣] فما يسخر الشيء إلا لأجله، فإنه هو العلة الغائية من وجوده ولهذا جاء في الزبور وغيره من الكتب الإلهية، يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلي، فقالوا كل ما سوى الإنسان خلق للإنسان، انتهى المراد منه بلفظه[٢].

وقال أيضاً في الكلام على عين العالم ما نصه: وقال الشيخ في كتاب فصوص الحكم وإنما كان الإنسان هو عين الحق، لأنه تعالى نظر به إلى العالم فرحمهم، يعني بإفاضة الوجود عليهم من أجله إذ لولا الإنسان الكامل، لما وجد العالم المشار إلى ذلك بقوله: لولاك لما خلقت الأفلاك.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:١٣] انتهى المراد منه بلفظه أيضاً.

وقال الشيخ العارف أبو العباس أحمد التجاني: في «شرحه لجوهرة الكمال» لدى قوله فيها (**عين الرحمة الربانية**) ما نصه: لولا هو ﷺ ما خلق شيء من الأكوان ولا رحم منها لا بالوجود ولا بإفاضة الرحمة والجود ولا يقال إن هذا تعجيز للحق سبحانه وتعالى، بأنه لا يقدر أن يخلق شيئا إلا به ﷺ فليس هذا الوهم هو المراد في هذا الكلام، كما يظنه بعض من لا علم عنده، بل تحقيق ما قلناه: إن الله سبحانه وتعالى لو سبق في علمه ونفوذ مشيئته أن لا يخلق محمداً ﷺ لسبق في علمه ونفوذه ومشيئته، أن لا يخلق شيئا من المخلوقات، فمن هذه الحيثية إن وجود كل موجود من الأكوان يتوقف على سبقية وجوده ﷺ لذلك الوجود فإنه ﷺ كلية مراد الحق وغايته من الوجود فإنه ما خلق الكون إلا من أجله ﷺ ولا أفاض الرحمة على الوجود إلا بالتبعية له ﷺ فوجود الأكوان كلها مناط بوجوده ﷺ وجوداً وإفاضة انتهى المراد منه بلفظه.

قال بعضهم: وهذا يعني خلق الله العالم من أجله ليس لغيره من نبـــي ولا ملك:

ومـــا عجـــب إكـــرام ألـــف لواحد لعـــين تفـــدى ألـــف عـــين وتكـــرم

=

ومَن ذَهل عن هذه الدقيقة؛ وهم الفقهاء المحجوبون؛ منع صحة تلك المقالة، وزعم أن فيها تحقيرًا لسائر الأنبياء - عليهم السلام -.

وأمَّا قول المرتضى كرَّم الله وجهه: كان في الأرض أمانان، فرُفع أحدهما، وبقى الآخر، فأمَّا الذي رُفع؛ فهو رسول الله ﷺ، وأمَّا الذي بقى؛ فالاستغفار.

وقرأ بعده هذه الآية.

فالمراد به: الأمان الكامل، فإنه لا شك مرفوع عن هذه الأمة، وبقى ما دونه من بعض الأمان؛ وهو ما حصل بوجود الورثة في كل عصر حتى أنه قد يحصل لبعضهم التألُّم من وجود بعض المصرِّين، فيقال له: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم.

وقد يرتفع الأمان حسبما اقتضته المشيئة الإلهية، كما ارتفع من أهل بغداد حين استولى عليهم هولاكو الكافر الجنكيزي حتى استأصَّلهم مع وجود كثير من الورثة فيهم على أنهم استشهدوا أيضًا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، فلهم في ذلك رفع الدرجات، وتكميل مراتب المحبية، والمحبوبية، ولَمن فعل بهم ذلك من الدركات، وتنـــزيلهم في أسفلها؛ لأنه اشتدَّ غضب الله على مَن قتل نبيًا، أو قتله نبي.

وأولئك الأصفياء من حيث ورثتهم في حكم الأنبياء؛ ولذا يغضب الله لهم كما يغضب الأسد لشبله، فقد يكون الرحمة في صورة الغضب، وقد يكون الأمر بالعكس، نسأل الله لطفه وكرمه.

والمراد بالتعذيب الثاني هو: التعذيب الأخروي الذي دخل فيه التعذيب الروحاني، وذلك ان الاستغفار طلب ستر النفس بالأنوار الروحانية حتى لا يلحقها عذاب من الظلمات الطبيعية، فكل عذاب جسماني أو روحاني؛ فإنما يلحق المعذَّب به من جهة نفسه المظلمة المنكدرة، فإذا استنارت النفس بالأنوار القلبية الروحانية؛ خَلُصت من العذاب مطلقًا.

=

قال وهذا من باب الحكمة والمصلحة الراجعة إلى الخلق بإظهار عظمة هذا النبـــي الكريم وإشهار كرامته عند المولى العظيم، فجعل وجوده سببا في وجود الموجودات ونيل جميع الكرامات انتهى وانظر: جلاء القلوب (بتحقيقنا).

فظهر أن العذاب من النار، وكما أن النعيم من الجنة، فنار عاجلة وآجلة، وكذا النعيم.

وإلى ما قلنا أشار قوله: ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].

فإن حال الحضور ليس كحال الغيبة، فإذا فنى العبد عن نفسه، وبقى بالله تعالى؛ استراح كحال أبي يزيد البسطامي قُدِّس سرُّه؛ ولذا كان لا يقطعه السيف، وهو مع الله تعالى في حال غيبته عن الحسِّ.

فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ﴾ [الأنفال:٣٣] إلخ.

كيف جُعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سببًا لارتفاع العذاب، وباعثًا على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الآفاقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن كان دونه؛ فكذا القلب بمنـــزلة الوجود المحمَّدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله تعالى، والتبتُّل إليه.

فـــإذا بالإنسان الكامل وبظاهره؛ يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، وبقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.

فإن الله تعالى معه مع استمالة الجمالية؛ لكونه خارجًا عن دائرة الغضب، كما أشار إليه غير المغضوب عليهم، ولم يبقَ الجلال إلا في باطنه بالقوة، وقد يظهر ذلك الجـــلال في أولاده بصـــورته وحقيقته، نسأل الله تعالى الأمان من العذاب، والجلال مطلقًا في حق النفس، وفي حق صورها من الأولاد.

***

سورة التوبة

قال الله سبحانه: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة:٣٠].

دعاء عليهم بالقتل؛ لكن أشار بالمفاعلة إلى أنهم كالمحاربين مع الله تعالى من حيث جسارتهم على عصيانه، كما صرَّح بذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة:٣٣].

فإن محاربة المخلوق بلا وجه شرعي؛ كمحاربة الخالق، أو أن الخالق لمَّا ظهر في صورة المخلوق بأسمائه وصفاته؛ كانت المحاربة محاربة معه لا مع الخلق، فالأول باعتبار الفرق، والثاني باعتبار الجمع.

وإليه الإشارة بقوله: «**يا ابن آدم استطعمتك؛ فلم تطعمني**»(١).

وبقوله: «**حتى يعلم**»(٢): أي حتى يعلم مَن لا يعلم، أو يعلم مَن يعلم في صورة العين بعد ما علم في صورة، وكلا العلمين بالنسبة إليه تعالى علم واحد، وحال المعلوم مشهود له إلا إن تعلُّقه بالمعلوم الخارجي؛ إنما كان في العين، فأشار حرف الغاية إلى التفاوت بين العلمين بحسب العلم والعين، فاعلم ذلك.

ثم إن القتل أُستعمل في العُرف بمعنى اللعن؛ فمعنى قوله ﷻ: قاتلهم الله: لعنهم الله، وذلك أن اللعن بمعنى الإبعاد عن الرحمة والقتل، وإن كان معناه إزالة الحياة بمباشرة القاتل إلا إن فيه معنى اللعن أيضًا.

فإن المقتول من حيث كونه مقتولاً؛ يبعد عن الرحمة، فإن الرحمة تمنع التعرُّض بشيء من الأذى فكيف القتل؟.

فإن قلت: لا شك أنه فرَّق بين الإخبار باللعين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧]، وبيَّن الدعاء عليهم به في هذه الآية ونحوها، فإن الدعاء من شأن العاجز عن الانتقام، والله تعالى عزيز ذو انتقام، فيغلب ولا يُغلب، فلا يبقى حاجة إلى الدعاء.

---

(١) رواه مسلم (٤/١٩٩٠)، وابن حبان في صحيحه (٣/٢٢٤).

(٢) رواه البخاري (١/٤٩)، ومسلم (٣/١٥٤٤).

فما سرُّ ذلك؟ قلت: إن ذلك راجع إلى التشريع، وتعليم العباد.

وقد كان رسول الله ﷺ يلعن ذكوان، وعصية، وبني رعل إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فكان من شأنه أن يقول: «**اللّهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

إلا أن يكون ذلك بإذن من الله تعالى في مادة مخصوصة، وفي نسمة معلومة، كما لعن العقرب حين لدغته وهو في الصلاة، وقد كان بعض الأولياء لا يلعن الشيطان اكتفاء بلعنه الله إياه، والأَوْلى الاقتداء بالله في حال الفرق دون الجمع؛ لأن لعنة الله في حكم لعنته، فلا حاجة إلى لعنة أخرى؛ هذا هو لعن الشيطان، ومَن في حكمه من الكفار، فإنهم مبعدون عن رحمة الله تعالى، ومقرَّبون إلى الغضب، كما دلَّ عليه قوله: ﴿غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، وقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٦٠].

وأمَّا لعن المؤمن فيرخَّص فيه إذا فرَّط في المعصية لأنه إذًا يكون في حكم الكافر، وقد ألحق الله بعض المفرطين من المؤمنين بالكفار، فأغلظ عليهم بنحو ما أغلظ على الكفار؛ حتى حكم بخلودهم في النار ونحوه.

ومن ثم لَعنوا «يزيد» لغلوِّه وإفساده في الأرض، ولو لعنوا الحجَّاج الغشوم، وتمرلتك الأوزبكي؛ لجاز لهم ذلك أيضًا، فإن كلاً منهما خرَّب البلاد، وقتل الأخيار، وأباح ما حرَّم الله، فلعنة الله على الظالمين.

وفي هذا المقام جواب آخر دقيق يرجع إلى الحقيقة وهو أن دعاء الله عليهم، وإن كان لا يصحُّ في مرتبة العماء الإلهي لكنه يصحُّ في مرتبة العماء الكوني[2]؛ لأنه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال سيدي علي وفا في المسامع: جاء في الحديث: «كان ربنا في عماءٍ، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، وكان عرشه على الماء».

هذا العماء هو صورة كون الإنسان التي بالتعلق العقلي تعين فيها الرب الرحمن، وغاب في ذلك التعين بالتنـــزيه الفرقاني عن أعين عقول الفرقان، وتلك الصورة الآدمية هي عرشه الكائن على ماء النطفة المنوية، وهذا العماء في شخصيته المفارقة الخيالية ما فوقه هواء وما تحته هواء: أي ليس تحته =

تعالى في هذه المرتبة يتَّصف بصفات المخلوق؛ كالتعجُّب، والفرح، والضحك، والتبشبش، والمجيء والذهاب، ونحو ذلك على ما جاء في الآيات والأخبار.

فالواجب في ذلك ترك التفحُّص عن كيفيته، وإبقاؤه على أصله على ما يعلمه الله، ويريده من ذلك بلا تشبيه، ولا تقييد؛ لكن مشرب أهل الرسوم مالح فلا يذوق العذب، وضيق فلا يسعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢]: أي المنكرون، فظهر إن إنساء الأجل ليس بالمدة الصورية المعلومة عند الناس؛ وهي الحياة الدنيوية الطويلة، فإنها وإن كانت طويلة مادامت الأرواح العالية فيهم، فإذا لم يحضروا؛ جاء الخذلان، ومن هنا وجب على السلطان أن يبايع خليفة من خلفاء الله، فإنه على تقدير انتقاله من الدنيا، فهو مع السلطان مادام في الحياة؛ لأن عطاء الله غير محدود، وإن الذي يحصل به المدد؛ وهو الروح سواء كان مع جسده أولاً.

كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥].

أمرًا، والناس عنه غافلون، فيعدُّون الأحياء الحقيقية أمواتًا، ويجعلون انتقالهم؛ كانتقال الأحياء الصورية.

وقد ورد: «**المؤمنون لا يموتون؛ بل ينقلبون من دار إلى دار**»[1]؛ فإن المراد منهم: المؤمنون بالإيمان الحقيقي العياني الكامل لإطلاقه، ولا شك أن المطلق مصروف إلى الكامل.

كما في قوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

فإن المراد هي: العاقبة الكاملة الحميدة التي هي الجنة، فالكفار وإن كان عُقباهم النار؛ لكنهم لا عُقبى لهم في الحقيقة؛ لكونها عُقبى ذميمة.

=

شيءٌ، ولا فوقه شيءٌ، فلا فوقه ولا تحته، وفي شخصيته الإحساسية هو كما ترى، فـ (ما) بالمعنى الأول نافية، ونافية أيضًا إذا كان (هوى) بمعنى: سقط، وبالثاني موصولة، وهواء بمعنى: فراغ، أو جوهر هباء، وكلٌّ صحيحٌ في حكم عالمه ودائرة حاكمه.

(١) لم أقف عليه.

ثم هذا الربط سواء كان بالتأييد الملكوتي مع وجود السبب في الظاهر، كما في الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢]، أو مع عدمه كما في قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف:١٤]، فإنه كربط قلوب سحرة فرعون حين ترعَّدهم فرعون بالصلب، والقتل؛ كل ذلك من العناية والتوفيق الخاص الذي يعتني بشأنه، وفي ذلك إشارة إلى ضعف الإنسان في نفسه أيًّا كان؛ ولذا قال الأنبياء عليهم السلام: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٤] مع اعتمادهم على الله تعالى ووعده، وانه لا يُخلف الميعاد.

وقل: مَن سلم عن التزلزل من غير ربط القلب؛ فإن موارد القضاء، ومواقع القدر يصعب الورود والوقوع فيها بحساب الغافلين؛ لكن مدَّها كلمح بالبصر عند العارفين، فلا اعتبار بها عندهم، ولَمَّا كان كل من بسط الرزق، وتأخير الأجل مرغوبًا عند الناس، فإنه لا حياة مع الفقر، وإن كانت طويلة، ولا أثر للغنى مع قصر العمر، وإن كان خزائن قارون.

وأشار النبي ﷺ إلى أن مَن أراد رزقًا واسعًا، وحياة طويلة؛ كان عليه أن يصل الرحمن: أي يصل إليه بدوام الذكر والطاعات حتى يرد عليه ما قصده من ذلك، فإن مَن كان الله بظاهره وباطنه؛ كان له بجميع فيوضه ورحماته.

قال الله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال:١١].

هذه الآية في حق أهل بدر، وقال في حق أصحاب الكهف:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤].

أورد الأولى باللام؛ لأنها بعد بيان السبب الذي هو إنزال الماء من السماء وقت الضرورة القوية، وكانوا ضعفاء من جهة البدن والقلب؛ لقلة العدد، والعدد، وكثرة المشي، والعمل بخلاف أصحاب الكهف؛ فإنهم كانوا أقوياء من جهة البدن، والقلب؛ فاحتاج كل من هاتين الطائفتين إلى التقوية، والتأييد الملكوتي؛ فكان سبب النصرة في الحقيقة الضعف والذلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، وقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وقال ﷺ: «**إنكم تنصرون بضعفائكم**»[1]، فكما أن وجود الضعف نفسه جعل من أسباب التقوية والتأييد؛ فكذا وجود الضعيف في المعركة، ومحلُّ الخوف إمَّا بجسده أو بتوجّهه وهمته؛ ولذا مازالت العساكر منصورة مادامت من غير إعانة الهيئة؛ ولذا حلَّ للمبتلي أن يحادث الآخر في صورة الشكوى؛ لأن المحادثة مما يهون الأمر عليه؛ فهي من قبيل الإعانة الإلهية، وإنما قلنا في صورة الشكوى؛ لأن لسان العارف لسان الحكاية لا لسان الشكاية، فهذا لا ينافي الصبر، كما قال أيوب عليه السلام: ﴿ **أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [الأنبياء:٨٣].

وذلك أن المذموم هو الشكاية إلى الخلق لا إلى الحق، فلو ترك الشكاية على الحق؛ كان ذلك مكابرة مع ربوبيته، ولا طاعة للعبد أن يقاوم الله تعالى في بلائه، فعرض حاله على الله من كمال عبوديته، إذ لا يتمُّ العبودية إلا بإظهار العجز والافتقار؛ ولذا شُرِّع الدعاء، وأمَّا الشكاية إلى الخلق؛ بمعنى المحادثة والحكاية؛ فذلك أيضًا من قبيل العرض على الحق؛ لأنه صادر عن المكاشف لا عن المحجوب.

***

(١) رواه البخاري (١٠٦١/٣)، وأبو داود (٣٢/٣).

سورة يونس

قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ﴾ [يونس:٩٩].

إشارة بالاسم الرَّب إلى أن ما بعده من قبيل القرينة، امَّا بالنسبة إليه ﷺ فبالعلم، وامَّا بالنسبة إلى قومه، فبإبقاء بعضهم على حاله من الجهل والمعصية، وعبارة الخطاب له ﷺ وإشارته لكل مَن هو بصدد التبليغ من الورثة.

قوله ﷻ: ﴿لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ﴾ [يونس:٩٩].

أراد بمَن في الأرض: الأنس والجن، كما دلَّ عليه كلمة مَن، فإنهم هم المكلَّفون: منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون.

وأمَّا مَن في السماء، وما في الأرض من الملائكة، وما عدا الإنس والجن؛ فهم مؤمنون مسبِّحون، باقون على فطرته الأصلية، لا يحتاجون إلى الدعوة والتبليغ.

قوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]: أي مجتمعين في الإيمان؛ كاجتماع الملائكة في سَجدة آدم، واجتماع بعض القبائل والطوائف على الإيمان، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر:٢].

فإن بعض الناس إذا دخلوا في دين الله مجتمعين بمشيئة الله تعالى؛ فكلهم من شأنهم الدخول فيه كذلك؛ لكن الله لم يشأ ذلك لحكمة تقتضيه؛ وهي كون الموطن موطن الجمال والجلال، وظهور آثار الأسماء الإلهية مطلقًا، فلو آمن كلهم؛ لبقي بعض الأسماء بحيث لا حكم له في العين، وذلك ينافي جمعية نشأة الإنسان.

فإن قلت: فقد آمنوا في عالم الأرواح، فلِمَ لم يظهر أثر ذلك الإيمان في العين، وعالم الأجسام. قلت: لا شك أن ذلك العالم لا يقتضي الإيمان، والكفر في الحقيقة، وإنما إيمانهم فيه إشارة إلى الفطرة الأصلية؛ هي القابلية الذاتية، وهي لا توجب الاتفاق على الإيمان في عالم العين، لِما قال ﷺ: «**ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1]: أي يصيران سببًا لظهور ما في القابلية من الكفر أيضًا، وهذا أَوْلى بما قال بعضهم: إنهم آمنوا من وراء حجاب.

---

(١) تقدم تخريجه.

فإن الأرواح كانت صفوفًا أربعة:

الأول: صف الأنبياء.

والثاني: صف الأولياء.

والثالث: صف المؤمنين.

والرابع: صف الكفار.

على أن كُمَّل الأولياء من الصف الأول أيضًا على ما دلَّ عليه كلمات بعض الأكامل، فلا يتجه ما ذكره من التربيع.

قوله تعالى: ﴿**أَفَأَنتَ**﴾ [يونس:٩٩] يا محمد، ويا مَن هو وارثه في مقامه من الدعوة والإرشاد: ﴿**تُكْرِهُ النَّاسَ**﴾ [يونس:٩٩]: أي تجبروا الناس الناسين أنفسهم؛ فنسوا الله والإيمان به؛ لأن نسيان النفس سبب لنسيان الله، كما أن ذكرها سبب لذكره، دلَّ عليه قوله: «**مَن عرف نفسه؛ فقد عرف ربه**»[1]؛ فمعرفة النفس أصل، ومعرفة الرب فرع؛ لذلك كما أن المحبة عكس ذلك كما دلَّ عليه قوله تعالى: «**فأحببت أن أعرف**»[2].

قوله ﷻ: ﴿**حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس:٩٩]: أي بالإيمان الشرعي؛ فإن الإيمان إنما يكون عن تبليغ؛ كالطاعة؛ إنما تكون عن أمر، وفي حكم الإيمان الشرعي التوحيد الذاتي، فإن بعض الناس ممَن جاء في الفترة، أو كان في أقطار الأرض القاصية، أو في شواهق الجبال لم يدرِ ما الكتاب، ولا الإيمان إلا أنه عاش على الفطرة من غير أن يُخلَّ بشيء من الأصول، فهو غير مخلَّد في النار أيضًا.

وفي الآية إشارة إلى أن سرَّ القضاء والقدر لا يعرفه الإنسان بكنهه؛ بل يعجز عن دركه؛ فهو بحسب نشأته الجامعة، ورحمته الشاملة الواسعة، وإن كانت له همة عالية في إيمان الناس كلِّهم بحيث لو أمكن؛ لأجبرهم عليه لكن الله يأبى إلا أن يجعلهم مختلفين بالإيمان والكفر لِما ذُكر، والله الموفِّق والمرشد والهادي.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٠٨).

(٢) لم أقف عليه.

سورة هود

قال الله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِم عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦].

دلّت هذه الآية: على أن القضاء المبرَم لا يُردُّ؛ وهو القضاء الغير المعلّق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ [البقرة:٢١٧]؛ فإن مفهومه أنهم لا يستطيعون أن يُردُّوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوا في ذلك، مَتُن كل صعبٍ وذلول، لِما إن الله كتب في حقهم السعادة فلا يتغيَّر بحال من الأحوال.

وأمَّا القضاء المعلّق فبخلاف ذلك، وتحقيقه أن كلاً من السعادة والشقاوة؛ إمَّا أصلية أو عارضة.

فالأصلية لا يُعارضها عارض، وإن عارضها، فالمآل إلى السعادة والشقاوة؛ لأن الأبد مرآة الأزل، فلا تزال صورة الأزل منعكسة في مرآة الأبد.

فالمؤمن الأصلي لا يضرَّه الكفر العارضي فإنه مكتوب في علم الله أنه مؤمن، وكذا في بطن الأم؛ فإن بطن الأم ناظرة إلى علم الله، فهما لوحان متوافقان، وكونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ: إنه كافر لا يضرَّه؛ لأنه لوح المحو والإثبات.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]، وعالم الحسِّ، والخارج ناظر إلى هذا اللوح؛ فهما لوحان متطابقان أيضًا.

فهذه أربعة ألواح: لوح العلم، ولوح البطن، ولوح زائد البطن، ولوح المحو، ولوح العين الخارجي، فالأولان من باب واحد في عدم التغيُّر.

وكذا الكافر الأصلي: فإنه لا ينفعه الإيمان العارضي، فإنه مكتوب في اللوحين: بأنه كافر، وإن كان مؤمنًا في اللوحين الآخرين، فالمؤمن الأصلي مؤمن عند الله في حال كفره، وكافر عند الناس في تلك الحال، ثم يزوال تلك الحال عنه؛ فيكون مؤمنًا عند الناس أيضًا.

وكذا الكافر الأصلي: فإنه كافر عند الله في حال إيمانه، ومؤمن عند الناس في تلك الحال، ثم بعد زوال تلك الحال عنه، ويُسمَّى كافرًا عند الناس أيضًا، فالقضاء المبرم لا يتغيَّر أصلاً بخلاف القضاء المعلّق؛ فإن عُلّق عمر أحد مثلاً بعمل من الأعمال بمعنى أنه إن عمله كان عمره ثمانين، وإلا كان ستين، فإن قضى في حقه أنه يعمله؛

فهو يجري على ذلك القضاء، ويكون عمره ثمانين، وإن كان ذلك غير مقضي في حقه؛ فإنه لا يعمله، ويكون عمره ستين.

فالمعلّق يرجع إلى المبرم في الحقيقة، وقول مَن قال بالفارسية: أوليا راهشت قدرت ازاله تير حسبة بازكر داندزرآه، راجع إلى المعلّق الصوري، والمبرم الحقيقي، فإن السهم الذي قضى انه يرجع بتصرُّف بعض الأولياء فلاشك في وقوع ذلك.

وأمَّا الذي قضى خلافه فلا يقع أبدًا، وإن اجتمع عليه ألف همة، وتصرُّف، ومنه إيمان أبي طالب، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ [القصص: ٥٦] ؛ يعني: وإن علمت فيهمَ همة، وتوجه قَلبي، وتصرُّفَ نفسي[1].

فالأسباب موجودة في الخارج، معدومة في نفس الأمر، ومن ذلك كل كمال، وكل نقصان في الدنيا، فالمحجوب يتوهَّم أن حصوله أو عدمه؛ إنما هو لأجل المباشرة بالأسباب أوعدمها، والمكاشف يعلم ان الأسباب ليست بمؤثِّرة، وإن كان طريق الأدب يقتضي التلبُّس بها، فقد قتل قبل مَن لا لعلة، وردَّه مَن ردَّ ولا لعلة فاعرف هذه الجملة؛ فإنها تنفعك في الصورة والمعنى، وعليك بالأدب، فكلٌ ميسّر لِما خُلق له.

---

(١) قال سيدي ابن سبعين قدس سره: وجميع من قال: وجدت الاستغناء عن الله أو رأيت في الوجود غير الله قل له: هذا من جهة العادة فقط، أو من كونك لا تعلم إلا المحسوسات، أو من كونك توهمت أحوال المؤمن والكافر، وكونك تقول الضرورة لا يختلف فيها أحد. وأي منفعة للعلم إذا كان الله في غاية الوضوح! وهذا كله محض الأوهام والحرمان. وبعقد هذا كله بصناعة التحليل والتركيب في الشيء الواحد يظهر لك مدلول قولي. لاشيء أغرب عندي من رجل يقول الله بلسانه ثم يحرره بقلبه، ثم يطبقه على توجهه، ثم يجده في جملته ثم في خارج ذهنه ثم في الجميع من حيث ذلك الإجماع، ثم من حيث ينـــزع إليه، ويفتقر ثم يشعر ويشتغل، ومع هذا تبدده مع ذلك خطرات نفسانية ووساوس شيطانية. ومع هذا لا يعلم عنها وبغفلته عن تفقد محاربتها يكون منها أهلاً وسهلاً بثبوب الهمة على مضافها. وسلام الله ورحمته على ذواتها! بأي دليل أو بأي حجة أو بأي عذر يصح الخروج عن قصد الله الصحيح! وما أحسن روحًا يقرأ عقب التفكير في المؤمن إذا نـــزع الوهم بينه وبين قصده بلسان حاله: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص:٥٦] : أي من رضى عنه كانت الترهات تستطاب قبل ظهور الأخرى والأولى، بل كانت الحكمة العلوية تعطى قبل الإلهية، بل كانت السعادة تستعظم قبل معرفة التوحيد المعتبر الذي لا تلتفت السعادة معه والموحد في حاله، فإن ذلك يجر إليه الشرك لكونه يقسم بساطته وإن لم يركبها، فإذا زال عن ذلك لا أنه زال بمعنى مفهوم كان، وإنما ذلك مما يشعر به في مدلول حد ورسم ووصف أو في قوة ذلك بلا شئ إلا محض الوجود.

في سورة إبراهيم

قال الله سبحانه: ﴿هَـٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٥٢].

أي: هذا القرآن العظيم[١] تبليغ دعوة الله تعالى على لسان الرسول ﷺ إلى الناس الناسين أنفسهم الحاضرين، والذين يأتون من بعدهم إلى ساعة القيام، وهذه الدعوة كانت مندرجة بالإجمال في الميثاق حين قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢].

فإن الربوبية تابعة للألوهية، وهي لكونها مرتبة جامعة تشمل على عبودية الناس بأنواع العبادات؛ لكن التعيين بحسب اختلاف الأمم والأزمان مُفوَّض إلى الله تعالى، فجاءت الرسل في الأعصار المختلفة مبلِّغين عن الله تعالى دعوتهم إلى جنابه بالتوحيد، وما يليه من شعب الإيمان، وإنما احتاجوا إلى هذا التبليغ؛ لاحتجابهم بالغواشي البشرية، والحجب الكونية عن التفكُّر والتذكُّر؛ لعدم كفاية العقول والإدراكات في ذلك.

وقد ثبت عند أهل الله تعالى: إن لله تعالى مواثيق مختلفة كليات وجزئيات.

أمَّا الكليات: فقبل يوم الميثاق في عالم الأرواح.

---

(١) إن المراد بالقرآن، الدعوة والذكر، والقرآن كله هو الذكر الأعلى، وهو أجلُّ معجزات النبي ﷺ فإنه صفة «ذات» الله ﷻ، وما عداه من المعجزات صفة «فعل» الله، وهو من المعجزات الباقية، وغيره من المعجزات الذاهبة بذهاب وقتها، وهو معجزة كانت وبقيت، ومن فضائله أنه هو الذي يُطْلَب بعد الموت وفي المواضع الضيقة وفي وقت الخاتمة، ومن جملة جلالته أنه في الحيوان العاقل وغير العاقل، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤].

وأمَّا من أثبت نطق الموجودات فأمره أعظم في حق الذكر، وأمَّا من أنكر ذلك فقد أُلْزِم ذكر لسان الحال، ومن فضيلته ثبوته بعد الأعمال في الجنة، وإن كان غيره من المقامات يثبت مثل ثبوته، ومن فضيلته كونه في كل مقام بالقوة؛ لأنه يمشي ويتصل حيث تتصل النية لأنها هي القصد، ومفهومه الخبر الصادق، والعزم الثابت، والتصديق الخالص، ونحن قد ذكرنا أنه ينقسم إلى ظاهر وباطن، والكلام هو المعنى القائم بالنفس، وهو الدائر في الخلد بحسب مذهب ما، وكل كلام هو لله أو من أجله أو يذكر به أو بوظائفه فهو ذكر.

وأمَّا الجزئيات فبعده في عالم المثل والأجسام.

والكليات منحصرة في ستة، ولا غاية للجزئيات، وكما أن الرسول مبلِّغ عن الله تعالى هذا القرآن بظاهره وباطنه، وكذا ورثته بعده إلى يوم القيامة: ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء:١٦٥] ورثتهم.

وما من أحد من علماء الرسوم مَن أعلم أهل زمانه إلا وسلَّط الله عليه أحدًا من علماء الحقيقة من أعراف أهل عصره؛ لإلزام الحُجة، فأنف مَن أنف، وبقى على حجاب العلم، وتبع مَن تبع، فكان العلم له نورًا وهدى، فخرج بسببه من الظلمات البشرية إلى الأنوار الروحانية كما قال تعالى: ﴿**لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [الأحزاب:٣٤] (١).

---

(١) قال سيدي علي وفا: العلم مبدأ التمييز، والإرادة مبدأ تخصيص معلومٍ ببعض المعلومات الممكنة لَه دون بعض، والكلام مبدأ نسبة بعض المرادات إلى بعضٍ، بحيث يصير أحدهما دالاً على الآخر، فكل ما في التمييز ماهيات مجردة، وكل ما في التخصيص ماهيات محددة هي أعيان، وكل ما في الكلام ماهيات دلالية هي أسماء.

فإذا تصورت مثلاً: (زيد قائم) فذلك علم من حيث التمييز، وإذا خصصت (زيدًا) بالقيام حتى كان قائمًا، فذلك إرادة من حيث التخصيص، فإذا حكمت بأن زيدًا قائم حتى ميزه العلم كذلك، فذلك كلام، وحينئذ (زيد قائم) في العلم من حيث التمييز، و(زيد قائم) في الكلام من حيث الحكم، لا يختلفان إلاَّ بالتعلُّق العلمي والكلامي، وهو بالأول مُسمًّى للثاني، وبالثاني الاسم للأول.

فحقيقة الاسم والمُسمَّى واحدة، والتعلُّق الذي يكون به الاسم عين التعلُّق الذي هو به مُسمًّى، فهنا يختلف النظر باعتبار وجهته في أن الاسم عين المُسمَّى أو غيره، فمن نظر إلى التغاير النسبي بتغاير التعلقين قضى بتغايرهما، وصحَّ لَه ذلك، ومن نظر بحقيقتهما الواحدة قضى بوحدتهما، وصحَّ لَه ذلك، والثاني أقوى مأخذًا، والأشعري لما رأى زيدًا في الكلام النفساني اسم حُكمي، يتعين ماهية علمية تكون به مُسمًّى في التمييز، حَكَم بأن الاسم عين المُسمَّى، ولما كانت عنده الصفات والتعيُّنات ليست غير من قامت به؛ لأن المغايرة عنده استقلال كل من شيئين عن الآخر بنفسه ووجوده، حكم بأن الاسم عين المُسمَّى لا غيره، يعني في العلم، ولما رأى العلم متعلقًا بالمعلوم الخارجي نفسه مع ذلك؛ إذ المعدوم عنده ليس بشيءٍ، والمعلوم شيء، فهو الموجود حكم بأن الاسم عين المُسمَّى الخارجي، ولكن من حيث هو حكمٌ علمي على ما تقدَّم لا أن لَه ماهية غائبة، زائدة على ماهيته الخارجية، منفصلة عنها، يُسمَّى بها معلومًا، فتأمَّل.

فكما أن الرسول مبعوثٌ لهذا الإخراج؛ فكذا الوارث، ولا فرق بين الدعوتين إلا بالنبوة والولاية، فشأن النبوة: إلقاء الوحي على لسان الملك المخصوص من الوجه العام.

وشأن الولاية: إلقاء الفيض على لسان ملك من الملائكة أيًّا كان من رسلهم، وذلك من ذلك الوجه العام أيضًا، ونعني بالوجه العام؛ ما يكون بطريق الواسطة لما يقتضيه ترتيب الكائنات من القلم الأعلى، والعقل الأول إلى آخر المولّدات، ويقابله الوجه الخاص؛ وهو ما كان بلا واسطة سواء كان الموحى إليه، والملهم نبيًا أو وليًّا.

فظهر أن للعبد طريقين إلى ربه؛ طريقًا بواسطة سلسلة الكائنات، وطريقًا بلا واسطة بينهما؛ وهو التجلّي الإلهي المفاض على الكل على حد سواء، فإنه لا اختلاف فيه، وإنما التفاوت في الظهور بحسب القابلية في المحال، والمجال، ولولا ذلك لما ظهر الفرق بين نبي وولي، وعُلوي وسفلي، فهو من تدبير العزيز الحكيم بحسب الأسماء المختلفة الجمالية، والجلالية الناظرة إلى التعينات، وما تحتويه من القابليات فاعرف، ولينذروا به خصَّ الإنذار لما أنه أول الأمر في باب الدعوة؛ لعدم قابلية المخاطبين للبشير كما دلَّ عليه التصريح بالناس، فإنه أكثر ما يُطلق على أهل مكة المشركين.

فإن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرار.

قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي.

والمخوَّف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأمَّا الجسماني بإحراق النار الصورية، وأمَّا الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تجلّي الجلال، ومن آثاره؛ البعد والقطيعة.

فكما أن أهل الجمال مقرَّبون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل الجلال مبعدون؛ ليُحجبون عنه كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أينما كانوا، وأمَّا هم فمنهم قرباء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة بحسب كشفهم، واحتجابهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضًا.

والفرق بينهم، وبين الإنس: ان الإنس مُبشَّرون، كما أنهم منذرون.

وأمَّا الجن: فمنذرون فقط، دلَّ عليه قوله تعالى حكاية: ﴿**وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأحقاف:٣١] حيث خصَّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

فإن قلت: إذا كانوا من أهل التبليغ؛ فللمؤمن منهم ثواب وأجر، كما للمؤمن الإنس، فأين يستوي أجره، ولا دار للثواب إلا الجنة؟.

قلت: هذا أمر سكت عنه بعض أهل الله؛ لعدم الكشف له فيه، وستره بعضهم، وإن وقع له الكشف فيه متابعة لَمن سلف من أهل الستر، وقد حققناه في محلٍّ أخر حسبما ساعدنا الإلهام في ذلك، وعيّنا أجورهم ومحالها، وسترنا في هذه المحلِّ متابعة للسلف في الجملة، والله العليم الخبير المحيط، ليعلموا إنما هو إله واحد خصَّ التوحيد بالذكر؛ لعلو شأنه بالنسبة إلى سائر الأحكام؛ لأنه الأصل الأصيل، والأُس المتين، وما عداه فمتفرِّع عليه ومبني.

ولم يقل: إن الله إله واحد؛ بل أتى بضمير الهويَّة؛ إشارة إلى مقام التنـــزيه، والتقديس الذي يقتضيه غيب الهُويَّة، ولأمر ما ورد: «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[1]؛ حيث بدأ بالتسبيح الذي يلي علم الغيب، وعاد إليه أيضًا ببيان الكبرياء الذي هو عين التسبيح.

ولا شك أنه أول الأمر كالإنذار؛ ولذا كان أكثر الأنبياء، وأعين قومهم إلى الله تعالى من هذا المقام إلى أن جاء إبراهيم عليه السلام.

فكسا الذات الإلهية كِسوة الصفات الثبوتية؛ ولذا كان أول مَن يُكسى يوم القيامة، وإلى أن جاء نبينا ﷺ إنه جاء بشريعة جامعة للتنـــزيه والتشبيه جميعًا كما

(١) رواه البخاري (٦/٢٤٥٩)، ومسلم (٤/٢٠٧٢).

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٧].

وتتم مكارم الأخلاق بمقتضى كونه خاتم الأنبياء[1] ودعا أمته إلى توحيد

---

(١) ومعنى خاتم النبيين: أي ختامه وتمامه، وآخره المتمِّم له.

فكذا نبينا، ومولانا محمد ﷺ هو آخر النبيين ، كمَّل الله تعالى به النبوءات، وتمَّم ببعثته الرسالات.

وأغلق الله جلَّ جلاله باب السموات؛ أن ينـــزل منها وحي إلى الأرض بعد موته.

فكان كما قال ﷺ : «أنا أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث». وقال ﷺ: «لا نبي بعدي».

ومن أسمائه: العاقب، والحاشر، وأنه يُحشر الناس على قدمه، وكونه ﷺ خاتم النبيين أمر مقطوع به لا يرتاب في ذلك أحد، ولا يتشكَّك فيه إلا ملحد.

ومن المعلوم أن عيسى عليه السلام: ينـــزل إلى الأرض في آخر الزمان؛ فهو حقٌّ إلا أنه يكون من أمة سيدنا محمد ﷺ.

وقد قال ﷺ: «وإمامكم منكم؛ لأنه لا نبي بعدي». أي لأنه لا يبعث الله نبيًّا بعد رسول الله ﷺ؛ بل بعثته عليها تقوم الساعة. وإنما ينـــزل عيسى عليه السلام إلى الأرض؛ لإقامة شريعة نبينا محمدﷺ، وهو حينئذ واحد من أمته. وإنما قال تعالى: خاتم النبيين، ولم يقل: خاتم المرسلين؛ لأن الرسول أخصُّ من النبي، وإن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً لأن أنبياء الله تعالى مئة ألف نبي، وأربعة وعشرون ألف نبي.

والرسل منهم ثلاث مئة، وثلاثة عشر، أو أربعة عشر.

فإذا كان ﷺ خاتم النبيين؛ كان ﷺ خاتم المرسلين قطعًا.

لأن معنى قوله: خاتم النبيين: أي لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده؛ فلا رسول بعده.

بخلاف ما لو قيل: خاتم المرسلين، فإنه لا يلزم من نفي الرسول نفي النبي.

قال بعض العارفين في قوله تعالى: خاتم النبيين: إشارة إلى أن ختام الشيء الحسن تمامه، وأن هذه الدائرة العظيمة، والشجرة الكريمة: شجرة الأنبياء، ودائرة الأصفياء؛ إنما ختامها، وتمامها سيد العارفين، وتاج أنبياء الله، وأولياء الله المتقين، ورافع لواء الحمد بين الحامدين، ومَن نوَّر به مولاه السموات والأرضين، ورحم بوجوده العالمين.

فكان ختامًا مسكًا لتمام دائرة النبيين، وفيه إظهار منـــزلته الكريمة، ورتبته الجسيمة.

وإنما جعل مولانا سبحانه الأنبياء الكرام مقدمة بين يدي ظهور بدر التمام، فذكرت أخباره، وفخاره، =

=

وصفته، وآثاره، وشُوِّقت المحبين إلى لقائه، وأخذ الميثاق على أنبيائه في التصديق بوجوده، وبعثته، وفضَّله على مَن في أرضه، وسمائه، وفي كونه خاتم النبيين من العناية الربَّانية لدى الحضرة القدسية عند الملك الحق ما يعلمه كل مدرك مع سلامة الذوق.

وفيه أيضًا الكرامة من الله تعالى بأمته لأجله، ورفع قدره؛ بأن بعثه سبحانه آخر الزمان، فسرد عليه، وعلى أمته أخبار الأمم السالفة مع قومها، وبيان حالهم مع حالها، وتسليته ﷺ بأخبارها، وستر عيوب هذه الأمة على أن يسمع ذنبها، وأن يرى ذلك غيرها، وفيه التسلية لرسول الله ﷺ الذي جعله الله تعالى نفس الرحمة لِما علم منه سبحانه من كمال حرصه على إيمان الخلائق، وأنه لم يصل إليه سابق ولا لاحق.

فسمَّى الله تعالى أمره في كتابه، وقصَّ عليه القصص السابقة لسالف الأنبياء والرسل قبله، وسرد ذلك عليه قصة قصة، تفضُّلاً عليه من الله أكرم الأكرمين.

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]: أي ولقد علمت يا محمد يا رحيم القلب ما علمت من أخبار الأنبياء قبلك، فلا تهلك نفسك حسرةً على إيمانهم، فإنهم كذلك جرت عادتهم مع أنبيائهم فصبروا وظفروا، وأنت رأس الصابرين، وإمام المتقين، فدُمْ على صبرك، فإني أنصرك عليهم، كما نصرت مَن قبلك من الأنبياء، فكيف لا وأنت إمام الهدى، والحبيب لمَن اهتدى

فكان من كون هذا النبي العظيم الذي جعله الله خاتم النبيين من كمال المبرَّة، والإكرام ما ظهر للسامعين، وما خفي عن الخلق من ذلك مما أكرمه الله تعالى به من الكرامات ما يعجز عن التعبير عنه علم الأولين والآخرين.

ولقد ضرب ﷺ مثالاً في كون الله تعالى تمَّم به الأنبياء، وختم ببعثته رسله الأصفياء.

فقال ﷺ: «مثلُ ما بعثني الله به من الهدى والنور؛ كمثل رجلٍ بنى دارًا، وأحسن بناءها، فبناها بلبنة من ذهب، والأخرى من فضة، وقد كملت الدار، فنظر الناس فيها فقالوا: ما أحسن هذه الدار، وما أجملها، لولا أن فيها موضع لبنة لو بُنيت فيها لم يُرَ مثلها، وبها يحسن جمالها، ويضيء شعاعها، ويتمُّ كمالها».

فكانت هذة اللبنة العظيمة الشأن التي بها تمَّ حسن الأعالي، والأركان هي لبنة المصطفى صاحب البرهان ﷺ في كل وقت وأوان.

فإن الله سبحانه كمَّل به، وختم حسن هذا العالم العظيم الذي خلق فيه ما خلق من كمال مصنوعاته،

=

=

وعجائب مخلوقاته، وشيَّده ببعثة الرسل، وإنباء الأنبياء الدَّالين على عبادته.

فما زال سبحانه يزيده جمالاً إلى جماله، وكمالاً إلى كماله حتى أتمَّه بخيرةِ خلقه، وسرِّ كونه، وإنسان عينه، وبعثه في أشرف بعثة، وخير أمة، فضَّلها الله سبحانه على سائر الأمم، وهداه إلى الطريق الأقوم ﷺ وشرَّف وكرَّم.

ومن آداب مَن علِم أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين، وأن الله تعالى كمَّل ببعثته محاسن المقربين: إن يكون خاتمًا لمحبته فيه باتِّباع محاسن أعماله، وكثرة ذكره، ومتمِّمًا لحسنها وقبولها بالصلاة عليه ﷺ وعلى آله. فإذا كنت في طاعة فتمِّم حسنها، وبناءها بالثناء على حبيب القلوب.

وإن كنت في عبادة فأقم قواعدها بالصلاة على مَن بعثه علاَّم الغيوب.

وإن كنت داعيًا صلِّيت على خاتم النبيين، وختمت الدعاء بالصلاة على ختام العالمين، فإن دعاءك موقوف بين السماء والأرض حتى تصلِّي على خير المرسلين.

وإن كنت في مجلس طاعة، فطيِّب مجلسك بذكر الطيب الطاهر، واستنشق طيب محاسنه، وعرف نسيمه العاطر، وآخي قلبك بسماع نوره الزاهر.

ولذا كانت عائشة رضي الله عنها تقول: إذا أردتم مجلسكم أن يطيب؛ فاذكروا محاسن عمر بن الخطاب.

وإذا كان هذا لعمر ﷺ فكيف لا يتمسَّك مجلسنا بذكر ختام الرسل، وحبيب الملك الوهَّاب، وإذا كان المجلس يطيب بذكر الفاروق، فكيف لا يطيب بذكر الصادق المصدوق؟

ولكن عائشة رضي الله عنها إنما ذكرت عمر بن الخطاب وخصَّته بذلك؛ لعلمها أن ما من مؤمن، ولا مؤمنة، ولا مسلم، ولا مسلمة تمرُّ عليه ساعة، أو مجلس إلا ويطيب مجلسه، وتزهر محاسنه بطيب ذكر المصطفى، وبسيرة أهل الصدق والوفا.

ولعل في كلامها اقتضابًا؛ لأن في طريق آخر: زيِّنوا مجالسكم بكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ، وبذكر عمر بن الخطاب ﷺ.

وهكذا كانت الصحابة رضي الله عنهم، وأحوالهم مع حبيبهم في ذكرهم له، وكثرة اللهج به، فإذا سُئلوا عن أفضل الناس، وأطيب الناس، ومَن تطيب بذكره الصدور، وتُفرَّج به صعاب الأمور، فلا يخطر ببالهم إلا زين العابدين، وإمام المتقين.

بعث عمر بن الخطاب ﷺ بعثًا، وفيهم أربعة آلاف فارس، فحاصروا قلعة، وكانت فيها امرأة حسنة قد طلعت على أعلى السور، ونظرت إلى العسكر، فرأت شابًا من شباب العرب، وكان فارسًا ضاربًا بالسيف، طعَّانًا بالرمح شديد البأس ﷺ.

=

=

فلمَّا أبصرته المرأة قالت: أوَّاه !!

قالت لها جاريتها: ما لك؟

قالت: إن الحصن هذا قد فُتح.

قالت لها: وكيف ذلك؟

قالت لها: سترين ساعة أخرى.

فأرسلت الجارية إلى الشاب الذي استحسنته.

وقالت له: هل إلى أحد إليك من سبيل، فتكون معي ولي؟

قال لها الشاب: نعم، شرطُ ذلك أن تُسلِّمي الحصن البرَّاني لنا، والحصن الدَّخلاني إليه، وعني بذلك التسليم لقضاء الله تعالى، والتفويض لأمره.

فأجابته على لسان الرسول: ما أدري ما قلت.

قال: تُسلِّمين قلبك لله، وتقرِّين بوحدانيته.

فأرسلت إليه، وقالت: قد فتحت لكم الباب، فلمَّا دخل عرض على الجارية صاحبة الحصن الإسلام.

قالت: يا شاب اعلم أني امرأة كبيرة ملكة من ملوك الأرض، لي همة عالية، هل في عسكركم مَن هو أكبر منك في قومك حتى أسلم علي يديه؟

فقال لها: نعم، عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقصدته، فلمَّا عرض عليها الإسلام، قالت له: هل أحد أكبر منك.

قال: نعم، أبي عمر بن الخطاب.

قالت: احملني إليه حتى أسلم على يديه.

فجاءت مع العسكر، ومعها أموال جمة، فدخلت على عمر.

وقالت له: هل ها هنا مَن هو أكبر منك؟

قال لها عمر بن الخطاب: بل هنا مَن هو أكبر من أهل الأرض كلها، وهو أكبر من ملئ الأرض من عمر، ومَن هو أعلى من عمر، هنا محمد رسول الله، وهذا قبره.

قالت: لا أسلم إلا على يديه.

فأتت قبر المصطفى ﷺ، وجلست عنده.

فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك محمد رسول الله، ثم بكت.

فقالت رضي الله عنها: خرجت يا رسول الله من ديار الكفر، وأنا أخشى إذا أسلمت أن أقع في المعاصي، وقد أسلمت، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله فاسأل ربك يا محمد

=

الأفعال، والصفات، والذات، وأجيب في كل ذلك؛ فجاء من أمته رجال أكامل لا يُقرأ بالألسنة كمالاتهم، ولا يُحرَّر بالأقلام مقاماتهم ﷺ، وألحقنا وإياكم بأولئك الآباء الكرام، والأجداد العظام.

وفي قوله: (هو) مع عدم مرور ذكره تعالى في هذه الآية؛ إشارة إلى تعيُّنه، وحضوره في الأذهان الحاضرة، وإن غاب عن الأذهان الغافلة، ومن مقام التعيُّن والحضور؛ كان ذكر الصوفية بهو هو، ففيه عمل بهذه الآية ونحوها، وطعنهم في ذلك طعن بلا فائدة، فإنه يشعر بالاحتجاب عن الحق الحاضر، والغفلة عنه في الباطن والظاهر.

والفرق بين ذكر: لا إله إلا هو، ولا إله إلا الله أن الأول يدلُّ على مقام الغيب والتنـــزيه؛ وهو حال أهل الفناء.

والثاني يدلُّ على مقام الشهادة والتشبيه من حيث اشتماله بالنفي على عالم اللا تعيُّن، وبالإثبات على عالم التعيُّن، ولذا كان أفضل الأذكار على ما ورد في الحديث؛ وهو حال أهل البقاء، وعلَّق العلم بالأُلوهية المخبر بها عن الهُويَّة لِما إن مرتبة الهُويَّة الأُلوهية؛ هي متعلَّق العلم ومبلغه، إذ لا إسم، ولا رسم، ولا وصف، ولا نعت، ولا حكم فوقها؛ فهي خارجة عن المدارك؛ ولذا أمرنا بذكر الله، وذكر آلائه، ونهينا عن البحث عن ذاته؛ إذ هي من حيث تجرُّدها عن النسب، والإضافات لا تُدرك أصلاً.

وقولهم: التوحيد إسقاط الإضافات؛ إشارة إلى الرجوع إلى الأصل الذي هو

=

الذي أرسلك بالحق أن يقبض روحي قبل أن أعصيه، فوضعت خدَّها على حائط القبر، وخرجت روحها.

فقال عمر بن الخطاب ﷺ: ما رأيت امرأة من العجم أعقل منها، وصلَّى عليها.

ثم قال: طوبى لَمن مات، وأحشاؤه من المعاصي مستريحات.

هكذا تطيب مجالس القلوب بحبيبها، وتحيى الأماكن الميتة منها بذكر طيبها.

صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم أفضل التسليم، صلاة تقربنا منه، وننال بها من الله التعظيم.

عالم القُدس، والوحدة الذاتية المجرَّدة عن اعتبارات شواهد الأنفس، والآفاق التي هي مقام الواحدية الصفاتية.

وفي قوله: (إنما هو) إشارة أخرى؛ وهي أنه تعالى ذكر الهُويَّة طوى العامل حيث لم يقل: إنه إله واحد؛ لأن مرتبة الهُويَّة مرتبة التأثير والعاملية، لا مرتبة التأثير والمعمولية بخلاف مرتبة الأُلوهية؛ فإنها من النسب، كما قال مَن قال من الأكابر: فلولاه ولولانا لما كان الذي كانا، وقال مَن قال أيضًا: للربوبية سرٌّ لو ظهر؛ لبطلت، ولمَّا كان الإله المنكر يُطلق على غير الله أيضًا كما قال: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ [القصص:٣٨]، وصفه بالوحدة؛ للتمييز والتعيين.

وفي هذا المقام أسرار لا تُحصى لا يفي الأوراق ببيانها، فعليك بالذوق التام، والشهود العام؛ لتحيط بها خبرًا.

***

سورة الحجر

قال الله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

اعلم أن (رُبَّ) [١] مثقلة أو مخففة إذا دخلتْ على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قلة، وداوهم أنهم كالسكارى من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، وإلا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقاتهم، لا في بعض الأحيان.

ولي فيها وجهان آخران:

إن قلة الودادة راجعة إلى الزمان الأخروي، وذلك بعض من مطلق الزمان، فإن الدنيا يوم، والآخرة يوم، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

فهم إنما يتمنون ذلك في الآخرة، وزمانها بعض من مطلق الزمان، كما ذكرنا آنفًا، وكأنه تعالى يقول: إنهم لا يقصدون الإيمان في الدنيا؛ لانغماسهم في الغفلة، واستحبابهم الحياة الدنيا، فإذا كانوا في الآخرة التي هي كالغد للدنيا تمنُّوا ذلك، فيكون (ربَّ) للتقليل بالنسبة إلى اليوم الثاني.

فإن قلت: كيف يكون يوم الآخرة قليلاً مع أنه أطول من يوم الدنيا؟

قلت: المراد البعض مطلقًا، أو هو راجعٌ إلى معنى آخر يعرفه أرباب الحقائق.

والوجه الثاني: إن (رُبَّ) هاهنا بالتحقيق لا بالتقليل، وإن دخلت على

---

(١) قال الأزهري: قرأ نافع وعاصم: ﴿رُبَمَا﴾ مخففة مفتوحة الباء ، وقال الأعشى عن أبي بكر عن عاصم: ﴿رُبُما﴾ بضم الباء مخففة، وقرأ الباقون: ﴿رُبَّما﴾ مفتوحة الباء مشددة، وقال علي بن نصير: سمعت أبا عمرو يقرؤها على الوجهين جميعًا: خفيفًا وثقيلاً.

قال أبو منصور: العرب تقول: رُبّ رجل جاءني ، ويخففون فيقولون: رُبَ رَجل.

ويقولون : رُبَما ورُبَّما ، مخففًا ومثقلاً ، ولغة أخرى لا تجوز القراءة بها: ﴿رُبَّتَمَا﴾

و ﴿رُبَّما﴾ و ﴿رُبَمَا﴾ يوصلان بالفعل، و ﴿رُبَّ﴾ و ﴿رُبَ﴾، يوصلان بالأسماء ، تقول: ربَّ رجل أصبتُ، وربُمَا جاءني زيد، وإنما زيدت (ما) مع (رُبّ) ليليها الفعل، وكل ذلك من كلام العرب أنه أخبر بذلك عن إخبار الله بالفعل عن نفسه، ونصب الملائكة بتعدي الفعل إليهم. وانظر: معاني القراءات (ص٢٣٩) بتحقيقنا.

المضارع، وذلك أنها إذا دخلت على المضارع الذي يقتضي الزمان فحكمها حكم ما دخلت على الماضي.

كما في (قد) الواقعة في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ [النور: ٦٣]، [الأحزاب: ١٨]، فإن الله تعالى لا يجري عليه زمانٌ، فعلمه ليس بمقيَّد بواحد من الأزمنة، بل هو عالم في جميع الأزمنة على سواء على التحقيق، وكذا الآخرة لا يُجرى عليها زمان؛ لأنه لا ليل ولا نهار هناك إلا بالاعتبار، فهما الليل والنهار حكمًا لا حقيقةً.

فـ(رُبَّ) هاهنا كـ(قد) الداخلة على المضارع الذي لا يقتضي الزمان، فيكون المراد تحقق وداوتهم لا تقليلها، وفي إيرادها على المضارع نوع تهكم بهم، كما يقتضيه الذوق الصحيح.

ودلَّ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤]، فإنهم إذا كانوا مستمرين على ما هم عليه، فعلمه تعالى به مستمرًّا أيضًا على أن العرب يقول في صورة الأطماع ربما يكون، فإنه يوده في صورة الاحتمال، والمراد القطع.

ويظهره قوله تعالى: ﴿اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، فإنه جعل العدل أقرب للتقوى من سائر الصفات مع أنه من نفس التقوى؛ لأن في العدل حذرًا وتوقيًا عن الظلم، وكذا في سائر الطاعات، فإن فيها كلها احترازًا عن المعاصي، وقولهم يشبه أن يكون هذا من هذا الباب من ذلك القبيل ونحوه قول المعجم شادمان: إذ ليس المقصود التشبيه، بل الإخبار عن الفرح والسرور، وربما يكون المراد بالاحتمال الإشارة إلى عدم الوقوع إذا كان هناك قرينة، كما إذا كان القائل غير معروف بالكرم وصدق الوعد، وأما الوعيد فهو عند أهل التحقيق يجري فيه الخلف، وإن كان بطريق القطع والتحقيق؛ لأنه من باب الكرم عند العرب، بخلاف الخلف في الوعد، والفرق أن في خلف الوعد ضرر الجانب الموعود، وأما في خلف الوعيد فنفع للمتوعد، والله يفعل ما يشاء.

وقد قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فرُبَّ خصمٍ يجد الخصم مصالحًا يومئذٍ، ورُبَّ منكر عمله على الإقرار ما بدا له من خلاف عقيدة في الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠].

اعلم أن الشيطان كاذب؛ لأنه كافر، والكافر لا يتحاشى عن الكذب غالبًا إلا في هذا المحلِّ ونحوه، فإنه صَدق فيه من جهة معرفته أنه لا بد له على المخلصين؛ وهم عباده المضافون إلى الكاف في هذه الآية، وإلى الياء في الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢].

وفي هذه الإضافة تشريفٌ لهم جدًا من حيث إنهم عباده تعالى لا عباد الشيطان والنفس، والهوى، والدنيا، ففيه إشارة إلى أن مَن اتَّبع خُطوات الشيطان؛ فإنه في حكم عبد الشيطان.

وكذا مَن آثر الحياة الدنيا، فقد ورد: «**تعس عبد الدرهم والدينار**[1]»[2] وكذا مَن اتَّبع هواه كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]: أي الهوى، والدرهم والدينار، وسائر متاع الدنيا المرغوب عند أهلها؛ لأن في كل ذلك ميلاً وانحرافًا عن الظاهر إلى المظهر لاسيما المظهر الذي يُضلُّ الله به الظالمين؛ ولذا قال تعالى: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر:٨٨]، وإنما نهاه عن مدة العين إلى زهرة الحياة الدنيا؛ لأن ذلك من الذرائع إلى دخول حبِّ ما

---

(١) رواه البخاري (٣/١٠٥٧)، والترمذي (٤/٥٨٧)، ابن ماجة (٢/١٣٨٥).

(٢) أي: محبهما، فعبر عن المحبَّة بالعبودية. فلا يكون عبدًا خالصًا صِرفًا، ولا يخرج عن حسِّه أحد من الآحاد إلا العبد الذي استخلصه الله ذلك العبد واختاره واصطفاه لنفسه، فوَجَّهه بقلبه إلى نفسه، وقطعه عن جميع التعلقات الكونية فوحدَّ عزيمته، وأدام جمعيته، فهو فانٍ عن حسِّه، ولا يرى لنفسه محسوسات ولا مدركات ولا معلومات ولا معقولات بإفناء الله تعالى إيَّاه حيث تجلَّى عليه بصفة من صفاته، فبظهور صفة من صفاته تضمحل مكنوناته؛ لأنه إذا قورن الحادث بالقديم تلاشى الحادث في القديم لغلبة سلطانه، فالعبد إذا رأى قلبه منقطعًا عمَّا سواه مستقلاً بالله، مستغرقًا في ذِكر الله ومشاهدته، فليعرف بأنه ممن أصطفاهم الله، واختارهم لنفسه فهو موفق، ومن أهل العنايات الإلهية، فليجمد الله على ما هداه، وليشكره على ما أعطاه.

سوى الله في القلب، وتمكُّنه فيه، فلا بد من سدِّها بعض العين، وعدم الالتفات إلى الدنيا وزخارفها.

وقد ابتلى أكثر الناس في هذا الزمان بعرض الزين، وكذا بمدِّ العين، فضلُّوا وأضلُّوا، وكانوا من أعوان الشيطان، ونوَّابه في إضلال مَن يستحب الحياة الدنيا على الآخرة بخلاف غيره؛ وهو مَن يستحب الآخرة على الدنيا؛ وهم أهل الآخرة الذين كانت الدنيا حرامًا عليهم؛ أي منعوها عن أنفسهم منع الحرام، وكذا مَن يستحب الله تعالى عن الدَّارين؛ وهم أهل الله الذين كانت الدنيا والآخرة حرامًا عليهم؛ بمعنى انهم عملوا لله بأبدانهم؛ لكن اُشتغلوا بربهم عن الالتفات إلى أعمالهم، فإن الشيطان لا يحوم حولهم.

والحاصل: إن عباد الله منهم المخلِصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى انهم تخلَّصوا عن شوائب النفسانية في أعمالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم.

ومنهم المخلَصون بالفتح؛ وهم الصدِّيقون؛ بمعنى أنهم تخلَّصوا عن شوائب الغيرية، كما تخلَّصوا عن شوائب النفسانية.

فهم فَانون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئنة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.

ولقد غلبَ عاصم على غيره من القُرَّاء في قراءة الفتح، ولله درّه معرفة، فإن المستثنى من العباد؛ إنما هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضًا ممَن يتذكَّر ويُبصر؛ لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما دامت بقيَّة من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكُمَّل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقًا بين المقامين.

قال الله سبحانه: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [الحجر:٦٥].

يُشير إلى لوط: الروح، وأهله: قواه، فإن المؤمن يستأنس بالمؤمن، والجنس إلى الجنس يميل، والليل إشارة إلى ليل الجلال المقتضي للفناء المنتهى إلى الجمال المستلزَم

للبقاء، وفيه إن الأرض تُطوى في الليل، كما ورد: «**عليكم بالدلجة**»[١]؛ فإن الأرض تُطوى في الليل.

والدلجة: السير في الليل، ومن ذلك كان عبادات العباد في الليل أكثر، وكانوا يستحلُّونها لما يُورثهم النسيم الرحماني في الأسحار، والنفخ الروحاني في طلب الأوقات من اللَّذات والنشاط.

وفيه أن الأهل: وهي المخدّرات ينبغي أن يكون خروجهنَّ من البيت لحاجة ضرورية في وقت الظلمة؛ لأنه أستر لهنَّ، وأهل الحرمين الشريفين يعملون بهذا إلى الآن، فإن نساءهم المستورات لا يخرجن بالنهار ألبتَّة؛ بل بعد المغرب، أو في وقت الشافعي حتى أن العروس تُزفُّ إلى بيت زوجها بعد المغرب حين ينقطع الأقدام من السكك، والأسواق.

وقوله ﷺ: «**واتبع أدبارهم**»[٢]؛ إشارة إلى حال رئيس القوم فإنه يسوقهم من ورائهم سوقًا لطيفًا، أو لو خلاَّهم وطبَّعهم مالوا إلى بعض الأمور الطبيعية الشهوانية، فينقطعون عن الطريق، ويحلُّ بهم غضب الله تعالى كما يحلُّ بالمنقطعين؛ لأن الوقت لا يقتضي إلا الإسراع، كما قال تعالى: ﴿**وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [آل عمران:١٣٣] أي: إلى أسبابها، ومن ذلك السير المأمور في الليل.

وقوله ﷻ: ﴿**وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ**﴾ [الحجر:٦٥].

أي: في سيره إلى ورائه، كما كان حال النبي ﷺ؛ فإنه كان لا يلتفت إلى يمينه وشماله، ولا إلى جهة من جهاته، ولو بدا له، لم يلو عنقه؛ بل التفت بكله ليكون التوجه أحديًا، وهذا إذا كان الالتفات مما لا يضرُّ، ولم يكن منهيًّا.

وأمَّا إذا كان مضرًا منهيًّا؛ فلا التفات أصلاً كما كان ليلة المعراج، وفيه إشارة إلى حال السالكين، فإنهم إذا كانوا محققين، وفي سيرهم مجدين محفين، فهم لا يلتفتون عن السمت أصلاً؛ بل أخرجوا، كان خروجهم بالله.

---

(١) رواه أبو داود (٢٨/٣)، والنسائي (٢٣٦/٦).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٩٣/١٢)، (٤١/١٤، ٤٢).

ومن ثمرة هذا الخروج أن الخارج ينقطع تعلُّقه عن مخرجه بالكلية فلا يقصد إلا السمت، فإذا حصل المقصد بالوصول إلى المنـــزل؛ فالأمر بيد الله تعالى أيضًا، فإن هو ردَّه إلى حيث جاء؛ فقد انقطع عن ذلك المنـــزلة بالكلية، وكان سيره إلى المخرج الأول؛ كأنه سير أوَّلي ابتدائي.

فالسالك العارف لا بد له من هذه المعرفة؛ وهي أن يجعل سيره سيرًا أحديًا لا يخطر بباله في سيره ذلك رجوعه إلى مخرجه أبدًا، ثم إذا رجع؛ رجع بتلك الأحدية بحيث لا يُشوَّش خاطره بالتعلُّق بذلك المنـــزل، ويجعله عنده نَسيًا مَنسيًا؛ فهذا هو السير بالله، وليس فيه حكم طبع ونفس أبدًا.

وقوله ﷻ: ﴿وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر:٦٥].

: أي مضنيًا مقطوعًا، فإنكم مأمورون، والمأمور لا يفعل أمرًا بطبعه؛ بل بربه وهُداه، ومن هذا المقام نُبّه داود النبي عليه السلام لمَّا خرج إلى محاربة جالوت: ألا يخرج معه أحد من أهل التعلُّق: أي تعلُّق كان، فإن ذلك يقطع طريقه، وطريق مَن معه من حيث لا يحتسب، ولم أجد في زماني هذا من أهل هذا الباب، والله أعلم.

***

وفي سورة النحل

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [النحل: ٧٠].

نكر العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله، كان علمه علمًا واحدًا، هو علمه بالله تعالى، فهو أجلُّ العلوم، كما أن الله تعالى أجلُّ المعلومات يعني: إن أجلَّ العلوم هو ما تعلَّق بأجلِّ المعلومات، وأمَّا ما عده مما تعلَّق بغير الله تعالى؛ فدونه.

فظهر أن علم التصوُّف أجلُّ العلوم، ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته، وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل[1] كما عليه أهل الحكمة البحثية

---

(١) قال الشيخ القونوي في سر العلم الذاتي وأوليته: اعلم أن لأولية علم الحق الذاتي سرَّين:

حكم أحدهما: علمه بنفسه باعتبار وحدته وإطلاقه معًا؛ وإنما قلت معًا من أجل أنه ليس في محض الإطلاق علم ولا يتعلق به حكم ولا يتعين له اسم، ويتعقَّل تعين الوحدة له؛ ينفتح باب مطلق العلم؛ لكن من حيث أن العلم والعالم والمعلوم واحد. والسر الآخر من السرَّين المشار إليهما: هو اعتبار علمه سبحانه بما في نفسه من نفسه؛ فإنه متأخِّر الرتبة عن اعتبار علمه نفسه بنفسه على نحوِ ما ذكر.

وله: أي لهذا السر العلمي الذي قلنا أنه الثاني حكمان:

متعلق أحدهما: علمه سبحانه بما في نفسه من شئونها، ولوازمها القاضية بظهور العالم من العلم إلى العين؛ والمقتضية ظهوره أيضًا متعددًا متنوعًا فيها؛ وما يستلزم ظهوره في كل شان منها بحسبه مما لا ينضاف إليه دونه.

والحكم الآخر متعلقه: علمه سبحانه بما في نفسه من حيث تعقُّل كل ظهور من ظهوراته في كل شأنٍ من شئونه؛ جمعًا لا فُرادىً، وهذا هو أصل علم الحق بالأعيان الممكنة.

والفرق بين هذين التصورين بين فإن حكم التعقُّل الأول يقتضي علم كل شأن مفردًا، وعلم الظهور من حيث ما يخصُّ الحق ويضاف إليه، وهذا التعقُّل الآخر متعلقه المجموع؛ أعني تعقُّل نفسه بنفسه في نفسه، وتعقُّل نفسه ظاهرًا في كل شأن بحسب الشان ظهورًا لم يكن من قبل، فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه في نفسه ليست كرؤية الشيء نفسه بنفسه وبغيره في أمر يكون له؛ كالمرآة لما يظهر من حكم المرآة في الأمر الذي ينطبع فيها مما لم يمكن ظهوره على ذلك الوجه قبل ذلك الانطباع.

وإذا عرفت هذا فنقول: لمطلق العلم عموم الإدراك لنفس المدرك وما فيها؛ فمتى أُعتبر استجلاء العالم لما في نفسه من شئونه المتعددة القاضية بتعدُّد ظهوراته في الأعيان؛ فهو عبارة عن علم الحق بالعالم =

ونحوهم، وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلّقة بالأكوان؛ بل كانت عُلوية

=

وحقائقه؛ متعينًا وغير متعيَّن؛ أ ي متناهيًا وممتازًا عن غيره وغير متناهٍ ولا ممتاز؛ إذ أعيان الممكنات غير متناهية؛ فلو استجلاها العلم متناهية متعينة محصورة في عددٍ معلوم؛ لم يكن ذلك علمًا، فإن المعلوم ليس كذلك، واستجلاؤه لبعض شئونه على التعيين مع بعض ظهوراته في أمرٍ جامعٍ مستوعب؛ هو حقيقة العقل الأول؛ وأنه الذكر المشار إليه بقوله: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ**﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فمرتبة العلم كما بيَّنا أول، ويليه الذكر الذي هو الحضور مع ما قصد العالم استجلاؤه على التعيين من بين معلوماته ليبرزها، وإن شئت قلت: ليظهر متعينا فيها، والزبور هنا هو اللوح المحفوظ، فالتعقُّل هو الاستجلاء، والحضور مع ما يستجليه بعد حفظه وقصده؛ لإفرازه من بين باقي المعلومات بالذات والاختيار جمعًا؛ هو ذكره لذلك؛ وتصوره لتلك الجملة في أمر جامع لمراتب تعين كل ذلك هو الكتابة المتعلقة السابقة على الكتابة الظاهرة المرموقة في ذلك الأمر الجامع، والمادة الجامعة لكل ما ذكرنا صورة من صور العماء، والعلم الذاتي هو المحيط نحو ما ذكرنا، فافهم.

وبعد تقديم هذه القاعدة الكلية، فاعلم أن ارتسام المعلومات في ذات كل عالم كان من كان إنما يكون بحسب نفس العالم، فإنه كالمحل لما يرتسم وينطبع فيها كما أشرت إليه في غير هذا الموضع من كتبي؛ أن كينونة كل شيء في أمرٍ ما وتعينه إنما يكون بحسب المحل، وسواء كان المحل معنويًا، كما ذكرناه الآن في شأن المعلومات مع نفس العالم، أو كان محسوسًا؛ كحال المرآة مع ما ينطبع فيها، وهذا السر قد يتفطَّن له أهلُ الفطر السلمية بأيسر تأمُّل؛ وإن لم يكونوا من أهل الذوق والاطلاع.

فإذا وضح لك هذا مع استحضارك ما وقع عليه الاتفاق من أن حقيقة الحق مجهولة؛ وإن حقيقته من حيث محض ذاته ممتازة عن حقيقة كل ذات، عرفت أن تعين حقائق العالم من حيث ارتسامها في علمه الذاتي مخالف لاتسامها وتعينها في علم كل عالم سواه؛ ومن البين أيضًا أن الحق لا يتجدد له علم بشيء ولا يقوم به الحوادث.

فثبت أن الأعيان الثابتة المسماة عند الحكماء بالماهيات باعتبار تعينها في علم الحق غير مجعولة كما مر بيانه، وهي بعينها من حيث تعينها وارتسامها في علم من سواه مجعولة؛ لأن علم من سواه علم حادث انفعالي عارض بتبعية الوجود المستفاد من فيض الحق، وعلم الحق علم ذاتي أزلي فعلي غير عارض ولا مستفاد، فتعقلاته سبحانه للأشياء تعقلات أزلية أبدية على وتيرة واحدة لا يقبل التبدل والتغير أصلا لما مر بيانه.

فمتى أمعنت النظر في هذا الأصل؛ عرفت سبب غلط الناس في هذه المسألة؛ القائلين منهم بأن الأعيان الثابتة غير مجعولة مطلقًا والقائلين بجعلها؛ وتحققت أنها باعتبار تعينها في علم الحق غير مجعولة باعتبار تعينها في علم من سواه مجعولة، فافهم والله المرشد. وانظر: النفحات (ص١٢٨) بتحقيقنا.

متعلّقة بما ذكر من ذات الله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله؛ وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوُّف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوُّف فرموز، وإشارات، ورسوم[١].

وإنما نُكّر الشيء؛ لأن الأشياء أيضًا في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد، فإذا اتَّحد العلم؛ اتَّحد الأشياء، ولمّا لم يكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها، وإنما خُلقت كتلوِّن زوال، وشواهد اضمحلّت عند حصول الفناء، فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء[٢].

---

(١) **فائدة خاصة**: قال الشيخ ابن سبعين: واعلم أن جميع ما دون في التصوف والحكمة وغير ذلك مما يجر إلى هذا الشان وجميع ما سمعت من العلوم المضنون بها والحكمة الإشراقية وسر الخلافة ونتيجة النتائج كل ذلك في الوجه الأول من وجوه التصوف.

والتصوف تسعة أوجه، وبعدها حبل التحقيق. وبعد الحبل نبدأ بعالم السفر، وبعد السفر تقرع باب التحقيق والنور المبين، والهرامسة خاصة عَلموه، والكتب المنزلة أفادتهم وأما الفلاسفة بأجمعهم ورؤسائهم من المشائين ورئيس المشائين أرسطو وأتباعه من غير ملة الإسلام: ثامسطيوس والإسكندر الأفرودسي وفرفريوس القبرسي وأرسطاليس الصقلي وأتباعه من ملة الإسلام مثل الفارابي وابن سينا وابن باجه المذكور في آخر « القلائد » والقاضي ابن رشد في بعض أمره، والسهروردى مؤلف «حكمة الإشراق» والتلقيحات والنبذ في أكثره، والغزالي بوجه ما، وابن خطيب الرَّي في بعض صنائعه، وجميع النبهاء فإنهم لم يصلوا إليه لقصورهم عنه، ولأن علومهم وصنائعهم دون ذلك كله والله على ما نقول وكيل.والصوفية كذلك، إلا السلف الصالح أعني صحابة سيد السادات محمد ﷺ فإنهم علموه، ومعلمهم هو العظيم الذي إذا نظر العارف في شأنه وتتبعه وتصفحه وتأمله على ما ينبغي ويجمل به ويصح في حقه علم أن أهل الحق كلهم نقطة من ذكره وذرة من قفره. وانظر: الرسائل (ص٦٧) بتحقيقنا.

(٢) قال سيدي علي وفا: العلم مبدأ التجرُّد وصبغته، والإدراك مبدأ التحدُّد وصبغته، الأول: صفة نفس الواجب الوجود، والثاني: صفة نفس الممكن الوجود، أو لازمه، والإدراك في العلم من جملة متعلقاته المجردة، والعلم في الإدراك من جملة متعلقاته المحددة، فلا معلوم إلا مجرد بما هو معلوم، ولا مدرك إلا مشخص بما هو مدرك، وكل مجردٍ واجب، وكل مشخصٍ متحدد من حيث أنه مشخصٌ، والوجود الذات واحد يجرد من نفسه لنفسه بنفسه أمورًا يحققها ويتعيَّن بها، فهي موجوداته، وثم يرتبها فتدور دوائر وجوباته ودوائر إمكاناته واستحالاته في مشاهد نفيه وإثباته، =

وفي سورة الإسراء

قوله ﷻ: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦]؛ المراد من تدمير القرية: تدميرها، وتدمير أهلها؛ لأن تدميرهم تابع لتدميرها.

ألا ترى أن الله أمر جبريل بقلب قرى قوم لوط، فقلَّبها، وهم فيها؛ فهلك، وهلكوا جميعًا، وكذا أصحاب القرية المذكورة في سورة يس.

وأطلق التدمير؛ لكون كل منها مدمَّرة مخصوصة حسبما اقتضتها أعمال أهلها؛ كالطوفان بالنسبة إلى قوم نوح، وكالقلب بالنسبة إلى قوم لوط، وكالريح بالنسبة إلى قوم هود، وخصَّ المترفين: أي المنعَّمين؛ لأن الفقراء تبعٌ لهم، والناس على دين ملوكهم.

والسمك يتغيَّر من الرأس كما هو المشهور، فإذا عصى رؤساء القوم؛ لا يبقى لهم، ولأتباعهم حرمة أصلاً على أن الأتباع إن كانوا عصاة أيضًا؛ فهم أُسوة لهم في الهلاك، والأسرى الهلاك إليهم بحكم الجوار، وبحكم المداهنة، أوالسكوت عن الحق.

وفيه إشارة إلى قرية القالب ومترفوها هي: أشراف الأعضاء، والقوى؛ كالسمع والبصر، والقلب، فإن الجسد تابع لها، فإن صلُحت؛ صلُح الجسد، وإن هلكت؛ هلك؛ وهذا هو الهلاك المعنوي، والفساد الحقيقي.

وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، وقال: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

فالفاسد المفسد، الهالك المهلك لا يلحقه إلا الفساد والهلاك؛ لأنه جزاؤه، وصورة عمله، والله تعالى نسأل أن لا يهلكنا بسوء الأعمال، ونتوب إليه من رديئات الأحوال.

= ودوائر إمكانه أصل شهودي لدوائر وجوباته في دائرته النظرية والخبرية، وهما إدراكيان، ودوائر وجوبه أصل وجودي لدوائر إمكاناته في الإدراك والعلم، فالواجبات تتعلَّق بالممكنات تعلُّق اليقين، والممكنات لا تتعلَّق بها إلا تعلُّق الظن؛ لأن الأولى عالمة بذاتها، ومدركة بإدراكٍ مجرَّد، والثانية مدركة بنفسها، وعالمة بعلم مشخص يحتمل النقيض بالتجرُّد عن ذلك التشخص؛ إذ التشخص بقاؤه في حفظ تشخصه، وإمداده بذلك إبقاؤه، والمجرد مستغنٍ عن ذلك.

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

قدَّم الشفاء؛ لأنه إشارة إلى سورة الفاتحة، والآيات المتعلِّقة بالأدعية.

لطيفة وفائدة: قد صحَّ أن الفاتحة شفاء من كل داء، إذا قُرئت ونفخت بحضور القلب، وكذا إذا كُتبت في إناء، وغُسِّل الرسم بماء مطلق، أو بماء الورد، وشربه المريض، أو مَن في حكمه، وكذا إذا كُتبت، وعُلِّقت على الأعناق والصدور، فكما لا بد من حضور القلب في جانب القارئ والكاتب؛ فكذا لا بد من حسن الاعتقاد، وحسن الظنِّ بالله في جانب المقروء عليه، والمكتوب له إذا كان من شأنه ذلك.

ولذا قُيِّد بكونه شفاء للمؤمن؛ فإن غير المؤمن لا يجده شفاء بحسب اعتقاده، وإن كان هو في نفس الأمر شفاء، كما أن التوحيد حاصل في نفس الأمر سواء عرفوه أم لا، وإنما الكلام في كلمته، والاعتقاد له، فمَن لم يتكلَّم بكلمته، ولم يعتقده؛ لم يكن التوحيد حاصلاً بالنسبة إليه: أي بالفعل كمَن عنده عسل، وهو يُنكر حلاوته؛ لغلبة الإصفرار على مزاجه، أو كان الضرير يُنكر نور الشمس، وهو ظاهر.

والحاصل: إن القصور، والهمم، والنيَّات مؤثِّرة جدًا غالبًا، وإنما قلنا: غالبًا؛ لأنه قد يتخلَّف التأثير بحسب بعض العوارض، والموانع.

ألا ترى أن بعض الأنبياء تجيء يوم القيامة، وليس معه أحد؛ لغلبة الظلمات على نفوس أمته، فكانوا بحيث لا يتأثَّرون من كلامه، وإن كان كلامه جَد مقرونًا بالهمة القوية، وقد جدَّ نبينا ﷺ في إيمان عمه أبي طالب، واهتم بذلك؛ لكن لم يعقبه التأثير، والله يفعل ما يشاء.

والرحمة؛ إشارة إلى ما في القرآن من الوعد والبشرى نحو قوله تعالى:

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقوله: ﴿لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣].

وقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ونحو ذلك؛ فهي رحمة خاصة تحصل للمؤمن في الدَّارين.

فإن قلت: فهذه الرحمة لكونها مقيدة بكونها للمؤمنين ليس للشيطان نصيب منها.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فيقتضي خلافه لعمومه.

قلت: هذه الرحمة أيضًا خاصة ليس للشيطان نصيب منها؛ لأنه كافر، فصار كالمرور المذكور الذي لا يجد حلاوة العسل، فينكره، فالمانع ليس من جانب المرسِل؛ بل من جانب المرسَل إليه.

ألا ترى أن نور الشمس إنما يدخل في البيت إذا كان له كُوة، وأمَّا المطبق الغير النافذ فليس له نور، وإن كان النور حاصلاً في نفس الأمر، فانظر إلى تفاوت الناس في استعداداتهم؛ فأعلى، وأوسط، وأدنى.

فالأعلى: هو المؤمن الكامل المنوَّر بنور الحق تعالى بالفعل من جميع جهاته.

والأوسط: هو المؤمن الناقص المنوَّر بالفعل من بعض جهاته.

والأدنى: هو المسدود عليه باب ذلك النور.

فالأعلى المقرَّبون، والأوسط الأبرار، والأدنى الأشرار.

ثم إن المنـــزَّل عليه، هو قلب النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وذلك من طريق الأصالة[١].

وقد ينـــزل على قلب الوارث؛ لأن القلب واحد في الحقيقة؛ وإنما ظهر له

---

(١) اعلم أن الله ﷻ لما أبدى خلقه وأمره بين نهايتين: نهاية علوٍّ فيما تعرف به وطرف دنوٍّ ممن تعرف إليه من خلقه جعل بين ذلك العلوِّ العلا وبين ذلك الدنوِّ وصلةً منه وإيحاءً من لدنه، فكان خافية وصلته تنـــزيلاً إلى الطرف الأدنى المالكة الروحية التي نـــزَّلها إلى الروح القدسيِّ والروح الأمين والملائكة والمرسلين، ونـــزَّلهم بما نـــزل إليهم، وكان ظاهر وصلته الرسالة البشريَّة الآدميَّة بما نـــزل به ملائكته المرسلين والروح الأمين وروح القدس إلى ما وراء ذلك من اصطفاء التكليم إلى تفضُّل الرؤية، فكان موقع الاختصاص في الرسول لبشرى فيما بينه وبين ربِّه نبوَّةً، وبلاغ المرسل من ذلك الاختصاص حظًّا عامًّا لمن دون النبيِّ في ذات اختصاصه رسالةً، ولما جبل الخلق عليه من إباءٍ عن قبول ما ينـــزل عليهم ساق النبوَّة والرسالة تسلط من المرسل عليهم على المرسلين في ابتداءٍ أو إلى انتهاءٍ، وإقامة قسطاسٍ، وإظهار سلطانٍ، وموافاة نقماتٍ على الآبين نجاةً للمرسلين.

شعب بالنسبة إلى اختلاف أرباب القلوب، وذلك من طريق المتابعة، ولا يزيد على المنـــزل الأول من حيث الأحكام، وإلا كان وسواسًا، أو خيالاً، وكذا من حيث النظم، والمعنى، والحقائق، إنما التفاوت بالنسبة إلى المنـــزَّل عليه، فقد يحصل لبعضهم من المزايا لم يحصل لغيرهم فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، فخفى على قوم، وبدا لآخرين، وبذلك جُعلت الطبقات مختلفة، فأين علوم المؤمنين عامة من علوم الأولياء؟ وأين علوم الأولياء من علوم الأنبياء، والمرسلين، وأولي العزم؟ فاعرف ذلك.

وقال المصنف في موضع آخر: قال تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء:١٦].

من القرى، وبلدة من البلاد، وموضعًا من المواضع، والإرادة تخصيص أحد الجانبين من الوجود، والعدم بالوقوع؛ والقدرة هي القوة على الإيقاع، ولا تعلّق بالإهلاك والإعدام في الحقيقة؛ بل بالإنشاء والإيجاد، فإن إهلاك الشيء بحسب موطنه إيجاد له في موطن آخر، ونظائر الآية كثيرة نحو: ان يشأ يذهبكم، أيها الناس: أي يذهب صوركم من هذا الموطن، ويظهركم في صورة أخرى في غير هذا الموطن، فإذا الأمر إعدام، وإيجاد؛ والوجود هو متعلّق الإرادة، والقدرة لا العدم، وإن كان المقدور معدومًا لا موجودًا.

ثم أشار إلى سبب الإهلاك فقال الله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء:١٦]؛ هو الأمر الإرادي لا الأمر التكليفي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر والفسوق والعصيان، وإن كان ذلك مما يشاء؛ كأنه قال: يتعلّق أمرنا وإرادتنا بفسقهم الذي جُبلوا عليه على ما علمنا من استعداداتهم الغير المجعولة.

فالعلم تابع للمعلوم، والمعلوم لا يتعيَّن في العين الخارجي إلا في وقت معلوم، والله تعالى هو الخلاَّق المظهر لكل شيء في وقته المعيَّن بحسب ما يقتضيه استعداده الأزلي، وقابليته القديمة حين كونه شأنًا ذاتيًا فعلى ما كان ذاتيًا على ما يقتضيه استعداده أن يريده ويخلقه، فهذا ودع القيل والقال.

فإن أهل التفسير ذهب كل منهم في هذه الآية إلى نوع من المقال، والذي

ذكرناه هو حقيقة الحال، والحق الذي لا محيد عنه بحال من الأحوال، وماذا بعد الحق إلا الضلال!.

وقال الله سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

عطف قوله: ومن فيهن على نفس السماوات والأرض، ويدلُّ على أن التسبيح ليس بمخصوص بمَن فيهن من ذَوي العقول؛ بل هو عام لَمن فيهن لأجزائهنَّ؛ كأنهنَّ وإن كنَّ في صورة الجمادات؛ لكن الله تعالى خلق الأشياء كلها بحيث يصحُّ منها التوحيد والتسبيح لِما أنها من ذَوي العلم والحياة في الحقيقة؛ ولذا قالوا: العالم كله سماع: أي يسمع منه التسبيح بالنسبة إلى المكاشف.

وأمَّا المحجوب: فلا يرى التسبيح إلا من ذَوي العلم، والحياة الظاهرة الحسية؛ فيُحمل تسبيح ما عداهم على معنى الدلالة على ما عليه أهل الظاهر، ويكذِّبهم الآية؛ ولأجل تأكيد ذلك المعنى قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ يعني: كل موجود وقع له التجلِّي الروحاني والجسماني؛ فهو مسبِّح لربه وحامد.

فإن كل مخلوق خاضع لخالقه، فإن قلت: قد نرى الكفار، انهم لا يسبِّحون؛ قلت: امَّا إنهم من حيث ذواتهم فدائمون على التسبيح؛ بل كل نَفس من الأنفاس الإنسانية يخرج من الفمِّ على صورة؛ هو رمز إلى الهُويَّة الذاتية، وأمَّا من حيث صفاتهم؛ فغافلون عنه.

ومن ثم بعث الأنبياء - عليهم السلام - لأنهم يدعون الخلق إلى كلمة التوحيد، والتنـــزيه لا إلى نفس التوحيد والتنـــزيه، فإنه متحقِّق في العالم بأسره سواء قال بكلمته أهله أو لا.

ومن هنا يعرف أن الله تعالى ليس بمحجوب عن الخلق؛ لأنه متجلٍّ فيهم بأسرار ذاته، وأنوار صفاته بخلاف الخلق؛ فإنهم محجوبون عنه تعالى إلا المؤمن الكامل، ومن ثم وقع الجحود، والكفر، والشرك، فلو كُشف الغطاء؛ وهو غطاء البشرية، وما يتبعه لم يظهر إلا التسبيح؛ وهو التسبيح الصفاتي الموافق للتسبيح الذاتي، فانظر إن الإنسان في صورة الموافقة في عين المخالفة.

قوله ﷻ: ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، لم يقل: ولكن لا تسمعون تسبيحهم مع ظهوره؛ لأن المقصود الأصلي من سماع التسبيح هو: فقه معناه، والوصول إلى معرفة الحقائق، وإذ لا فائدة في مجرَّد السمع والبصر بدون الإدراك الحقيقي خص الفقه بالذكر، ومن هذا القبيل ما قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨]؛ يعني: إن صورة النظر لا تقتضي حقيقة الإبصار.

فالنبي وغيره مشتركان في صورة الإبصار والإحساس؛ لأن الكل من حيث صورته، ومَن ناظر إليه من حيث حقيقته، فالناظر بالنظر الأول؛ أهل الحجاب، والناظر بالنظر الثاني؛ أهل الكشف، وقد فرَّق الله تعالى بين صورة النبي ومعناه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠].

فإن البشرية مما يلي جانب الخلق، والوحي مما يلي جانب الحق، فالخلق ظاهر، والحق مستور عند المحجوب، والأمر بالعكس عند المكاشف.

ولذا قال في كل حال: لا إله إلا هو، اللّهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر، والمبصرين للصورة.

وقال تعالى: ﴿وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الإسراء:٥٨].

أشار بالقرية إلى قرية القالب الإنساني التي يسكنها القلب؛ فإنها تُخرَّب بالموت الطبيعي الذي هو القيامة الصغرى قبل أن تقوم القيامة الكبرى، كما تُخرَّب القرية بما هو في حكم الموت من الآفات، وهذا الخراب لا يقبل العمارة أصلاً؛ لأنه لا حياة بعد الموت.

وبالنسبة إلى العادة الإلهية كما قال حكاية عن عزير عليه السلام: ﴿قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـٰذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]؛ ومعنى العذاب إصابة الشدائد، ومسُّ المحن والمكاره، فإن ذلك في حكم العذاب الأخروي، فكما أن العذاب الأخروي لتخليص الجوهر عن الكدورات؛ فكذا الابتلاء الدنيوي، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

فالعذاب الأدنى هو: العذاب الدنيوي، كما أن العذاب الأكبر هو: العذاب الأخروي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ**﴾ [الغاشية:٢٥] بعد قوله: ﴿**إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ*فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ**﴾ [الغاشية:٢٣، ٢٤].

فلا رجوع عن الكفر والمعاصي بعد الوقوع في العذاب الأكبر؛ بل إنما يتحقق ذلك في العذاب الأدنى، فإن تحقق؛ فذلك رحمة في صورة العذاب، وإلا فذلك رجزٌ وغضبٌ من الله؛ كالطاعون حيث كان رحمةً وشهادةً للمؤمن، وغضبًا وإهانةً للكافر، فهذا العذاب ليس في حكم الخراب بالكلية، فقد يرفعه الله بعد تمام الابتلاء؛ فيكون القالب والقلب معمورين على حالهما.

وفي الآية إشارة أخرى، وهي: إن خراب القالب عبارة عن خراب القلب بالفناء الكلي؛ لأن المراد بالفناء هو زوال التعلُّق بالتعينات، وتعيُّن القالب أظهر من تعيُّن القلب بالمعقولات؛ وهذا حال الكُمَّل فإنهم بعد إصلاح الطبيعة بالشريعة، وإصلاح النفس بالطريقة؛ عرجوا إلى درجة المعرفة، والحقيقة بإصلاح الروح، والسرِّ بقطع العلائق عن الكون.

وأمَّا التعذيب فحال مَن دونهم من أهل السلوك الذين شدَّدوا على أنفسهم بأنواع الرياضات والمجاهدات لكنهم لم يصلوا إلى الموصول إليه الكُمَّل من الفناء الكلي؛ بل بقوا في بعض مواطن السلوك إلى أن انتقلوا بالموت الطبيعي من هذه النشأة، فحصول مرادهم بيد الله تعالى؛ لأنه تعالى قال: ﴿**وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ**﴾ [النساء: ١٠٠].

فكما أن المتوفَّى في طريق الحج المعنوي؛ فإنه يلتحق بالكُمَّل من حيث قصده، فإن الذُّريَّة الصالحة يلتحقون بآبائهم على ما نطق به الكتاب، وهم أشرف الذُّريَّة؛ لكون نسبهم نسب التقوى.

وقد ورد: «**كل حسب ونسب ينقطع إلا حسبي ونسبي**»[1].

---

(١) رواه الخطيب في التاريخ (٢٦٦/٥).

فالنسب الذي لا ينقطع، هو نسب التقوى وأهله، وهو الهاشمي حقيقة[1]،

---

(١) فائدة: اعلم أن إمام المتَّقين: أي قائدهم إلى الصراط المستقيم، ودالّهم على آثار الدين القويم؛ لأن المتقين كلهم: أولهم وآخرهم لائذون بسُنَّته، متمسكون بطريقته؛ لأنه ﷺ أخشى الخلق إلى الله وأتقاهم، وأشدَّهم يقينًا، وعزمًا، وأقواهم، هو النبي ﷺ.

وأصل الإمام: المتَّبع، والهادي لَمن اتَّبعه، والمتقدِّم بين يدي القوم، والشافع لَمن خلفه.

والمتَّقي: هو الذي جعل وقاية بينه، وبين النار ينجو بها في دار القرار.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: التقوى: ألا يراك مولاك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

فمَن امتثل المأمورات، واجتنب المنهيات؛ فهو المتقي؛ وهذه هي التقوى الخاصة، ولا يصدق ذلك حقيقة إلا على مَن عصمه الله من أنبيائه أو حفظه الله من أوليائه، فإنهم صلوات الله عليهم كلهم مطهَّرون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

فهم المتَّقون حقًا المطيعون لله، وإمامهم، وخاتمهم، وواسطة عقدهم هو: نبينا، ومولانا محمد ﷺ؛ فإنه أشدُّ الخلق حفاظًا على أوامر مولاه، وأبعد الخلق عن الذي حذره الله عنه ونهاه.

قالت عائشة رضي الله عنه: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه.

فكان ﷺ لشدة تقواه لله تعالى، وإمامته للمتقين، قد حاز منها ذروتها، فانفرد بها عن الوجود مرتقيًا في أعلى عليين.

فهو أشدُّ الخلق خوفًا من ربه، وأقواهم معرفة، وعلمًا به، وأمكنهم طاعة لله، وأجدَّهم عبادة لمولاه مع قوة، وأدب، ووقار، وحسن سمت، وتؤدة، وبلوغ مروءة، وتمام هُدى، وزهد، وتمكن خوف، ونظر في عاقبة، ومشاهدة للمغيبات، وبكاء، وخشوع في سائر الأوقات.

قائلاً ﷺ : «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا**».

وفي رواية: «**ما تلذَّذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله**».

قالت عائشة رضي الله عنها: كان عمل رسول الله ﷺ ديمة، وأيُكم يطيق ما كان يطيق؟

قالت: كان يصوم حتى تقول لا يُفطر، ويُفطر حتى تقول لا يصوم، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلِّيًا إلا رأيته مصليًا، ولا نائمًا إلا رأيته نائمًا.

قال ابن أبي هالة ﷺ: كان ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة.

وقال علي ﷺ سألت رسول الله ﷺ عن سنَّته، فقال: «المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحبُّ أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنـــزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خُلقي، وقرة عيني في الصلاة».

=

=

وفي رواية: «**وثمرة فؤادي في ذكر الله، وغمّي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربي**».

وقد روى كعب الأحبار، وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما في صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فذكرا فيها صفات وصفه بها ربه جلّ جلاله.

ثم قال في آخرها مولاه، وخالقه، ومانحه: أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبرَّ شعاره، والتقوى، والحكمة معقوله، والوفاء طبيعته، والعفو، والمعروف خُلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى هامته، والإسلام ملّته، وأحمد اسمه أُهدى به بعد الضلالة، وأُعلم به بعد الجهالة، وأُرفع به بعد الخمالة، وأُسمي به بعد النكرة، وأُكثر به بعد القلة، وأُغني به بعد العيلة، وأُجمع به بعد الفرقة، وأُؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمور متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أُخرجت للناس.

فبتحقق هذة الصفات فيه كان نبينا ﷺ إمام المتقين، وبناء ضميره عليها، استحقَّ التَّقدمة بين يدي الكاملين، وبجدِّه في طاعة مولاه؛ سمَّاه سيد المرسلين، هذا مع كون الله تعالى شرح له صدره، ويسَّر له أمره، ورفع ذكره، وأخبره، وبشَّره أنه مغفور له ﷺ، وعلى آله وشرَّف وكرَّم.

وكان عليه ﷺ من كمال الخوف المزعج، واتِّباع الطريق الأنهج، وشدَّة قواه لله تعالى، وتحذيره من النار للمُهج. قائلاً في خطبه ﷺ: «أيُّها الناس! اتقوا الله حق تُقاته، وسارعوا في مرضاته، وأيقنوا من الدنيا بالفناء، ومن الآخرة بالبقاء، واعلموا لما بعد الموت، فكأنكم بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل.

أيُّها الناس! إن مَن في الدنيا ضيف، وما في يده عارية، وإن الضيف مرتحلٌ، والعارية مردودة، ألا وإن الدنيا عرضٌ حاضرٌ، يأكل منها البرُّ والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر، فرحم الله امرأ نظر لنفسه، ومهَّد لرمسه، ما دام رسنه مُرخي، وحبله على غاربه مُلقى، قبل أن ينفد أجله فينقطع عمله».

ومن آداب مَن علِم أن نبينا ﷺ إمام المتقين: إن يكون ساعيًا في حضور التقوى، جادًا في طاعة ربه قبل أن يندم في دار البلوى؛ لأن مَن دخل حزب المتقين، ووُسم بسمات شعائر الصالحين، كان المصطفى إمامًا له، وقائده إلى ثواب رب العالمين.

والتقوى الخاصة إذا حصلت للمؤمن كان وليًّا، وصدق في تقواه صدقًا مرضيًا، وكان من المتقين هم الصادقون.

قال الله في كتابه العظيم: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

=

=

فانظروا رحمكم الله هذه الآية الكريمة، كيف فسَّرت الصادقين في أعمالهم، والمتقين في أحوالهم، وهم الذين يؤمنون بالله، واليوم الآخر، ويُقيمون الصلاة، ويُؤتون الزكاة، ويُوفون بعهدهم، ويصبرون على ضررهم.

وبالجملة: بالتقوى تجمع امتثال كل مأمور به، والمحافظة عليه، واجتناب كل مُنهى عنه من التلبُّس به، والقرب إليه، فلا تطمع أن تكون متقيًا حتى تكون حسن المعاشرة، كريم الصنيع، ليِّن الجانب، باذلاً للمعروف، مُطعمًا للطعام، مفشيًا للسلام، عائدًا للمرضى، مشيِّعًا للجنائز، محسنًا للجوار، موقرًا للكبار، راحمًا للصغار، عفوًّا عن الزلّات، مصلحًا بين الناس، كريمًا سمحًا، مبتدئًا بالسلام، كاظمًا للغيظ، جامعًا لخصال الخير،تاركًا لخصال الشر، معرضًا عن الباطل، والغناء، والأوتار؛ تاركًا للكذب، والغيبة، والغش، والخديعة، والشحِّ، والجفاء، والنميمة، وسوء الظن، وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق، والتكبُّر، والفخر، والعجب، والاختيال، والمزاح، والفحش، والحقد، والحسد، والطيرة، والبغي، والعُدوان والظلم، والرياء، والسمعة.

فإذا علمت هذه المأمورات وفعلتها، وعرفت هذه المنهيات واجتنبتها، رجوت من مولاك أن تكون عنده متقيًا، ومن عقابه في الدار الآخرة ناجيًا.

ولقد حذَّرنا نبينا ﷺ من هذه المنهيات، وحثَّنا على فعل هذه المأمورات.

قال أنس بن مالك ﷺ: فلم يدع رسول الله ﷺ نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها، وأمرنا بها، ولم يدع غشًا، ولا عيبًا إلا وحذَّرنا منه، ونهانا عنه.

وقال معاذ بن جبل ﷺ: أوصاني رسول الله.

قال لي: «يا معاذ، أوصيك: بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقُّه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح.

وأنهاك: ان تشتم حليمًا، أو تكذِّب صادقًا، أو تطيع آثمًا، أو تعصي إمامًا عادلاً، أو تفسد أرضًا.

أوصيك: بتقوى الله عند كل حجر، ومدر، وشجر، وأن تُحدث عند كل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية».

هذه صفات المتقين، وشعار الصالحين، وطريقة أولياء الله المتقين، وسلوك القوم الناجين.

فمع تحقق هذه الصفات في النفوس تحقق الكرامة، ومع ثبوتها، ودوامها تظهر الاستقامة، ونحن فينا من التقوى طريق به يُقتدى، ولا ما نرجو به النجاة إلا حب النبي محمد ﷺ.

وقد وعد مولانا جلَّ جلاله على مَن حصل منَّا التقوى أن يصلح لنا أعمالنا، ويغفر لنا ذنوبنا.

فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

=

وأهل البيت حقًّا كما أشار إليه قوله: «**سلمان منَّا أهل البيت**»[1].

ولن يتشرف بهذا المقام على حقيقته إلا مَن أذهب الله عنه الرجس، وطهَّره تطهيرًا، فلا يطمع فيه الطامعون إلا من طريقه، فإنه طمعٌ فارغٌ، ولشرف هذا المقام؛ قدَّم الله القرية الهالكة على القرية المعذَّبة؛ لأن المقصد من التعذيب هو التخريب.

وقد قال بعض الكبار: كل مَن خاف على هيكله؛ لم يرَ الله جهارًا علنًا؛ يعني:

=

ورتَّب سبحانه على حصول التقوى في عبيده أن يجعل لهم من أمرهم مخرجًا، ويدر عليهم رزقه، ويُدخل عليهم من حيث لم يحتسبوا فرجًا.

فقال جلَّ جلاله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢،٣].

وإذا صدق العبد من تقواه؛ نجَّاه الله مولاه من بلواه.

وتذكَّر قضية الثلاثة الذين أووا إلى غارٍ فانطبقت عليهم الصخرة على باب الغار، فلم يجدوا مسلكًا للخروج، ويئسوا من زوالها، وانقطعت العلائق، وذهبت عنهم حيلها، فما بقي لهم إلا الوثوق بمفرِّج الكربات، وقاضي الحاجات عند الشدائد والأزمات، فألهمهم مولاهم بجوده وكرمه، فتذكَّروا أحسن الأعمال التي أخلصوها، وتدَّبروا في الفضائل من التقوى التي عند الله ادخروها، فقالوا: تعالوا نتوسل إلى الله سبحانه بأرجى أعمالنا، ونتعلق بباب الكريم، ونسأله في خلاصنا.

فقال أحدهم: اللّهم إنه كان لي أبوان نائمان، وحضر طعام، فكرهت أن أنال منه قبل أبويَّ، وكرهت أن أوقظهما من نومهما، والصبيان يتضاغون، وكرهت أن أقدمهم عليهما.

اللّهم إن كنت فعلت هذا لأجلك، فافرج عنا فرجةً نرى منها السماء، فقبل الله تعالى دعوته، وتحركت الصخرة عن فم الباب بمقدارٍ يسير.

ثم دعا الآخر المولى جلَّ جلاله وذكر أن أجيرًا كان عنده، وأمسك أجره، ونمَّاه له بقرًا وغنمًا، فطلبه الأجير فقال له: كل ما رأيت من البقر، والغنم فهو لك.

ثم قال: اللّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا، فانزاحت الصخرة أيضًا شيئًا يسيرًا.

فقال الثالث: اللّهم إنه كانت لي ابنة عم كنت أحبها، فخلوت بها، وتمكنت منها.

فقالت لي: اتَّقِ الله يا عبد الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه فتركتها.

اللّهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا، ففرَّج الله تعالى عنهم، وزالت الصخرة عن فم الغار حتى خرجوا.

فتدبَّروا رحمكم الله كيف جعل الله تعالى التقوى سببًا في خرق العوائد، وفرجًا، وفتوحًا لباب الفوائد، وكذلك هي كرامات أولياء الله نشأت عن أعمال، وفضائل وخصال.

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣٣٧/٢)، والطبراني في الكبير (٢١٢/٦).

لابد من تخريب الهيكل الذي تعيُّنه أشدُّ من سائر التعينات، وتخريبه إنما هو بالرياضات الشاقة بحيث تفنى الطبيعة والنفس عن الشهوات والهوى؛ بل الروح عن الميل إلى المعارف، والتغيُّر عن الالتفات إلى شيء مما سوى الله تعالى.

وقال الله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥].

اعلم أن الروح نصفه تركّي، ونصفه عربي، هكذا أثبت عند أهل الله.

معناه: إن البحث عن نصفه متروك؛ لأنه من عالم اللطائف، فلا يحرر بالقلم، ولا يقرر باللسان؛ بل يحال على الذوق، وإليه الإشارة بالأمر؛ لأن عالم الأمر عالم الإبداع، والاختراع من غير مادة، ولا في مدة.

ونصفه مُعرب عنه؛ لأنه من عالم الكثائف، فيحرر بالقلم، ويذكر باللسان، ولا يحال على الذوق، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ﴾، وقدَّم الخلق على الأمر حيث قال: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ لأن عالم الخلق يلينا، ففيه ترقٍ من الأدنى إلى الأعلى؛ ولذا قال: ﴿تَبَارَكَ اللّهُ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ إشارة إلى الأمر، ثم قال:﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، إشارة إلى الخلق؛ لأن أُلوهيته ناظرة إلى عالم الأمر، كما أن ربوبيته ناظرة إلى عالم الخلق.

والحاصل أنه أسند التبارك إلى الأُلوهية؛ لوقوعه قرب الأمر، ثم وصفه بالربوبية نظرًا إلى بعد الخلق، فكان الروح أول عالم الإبداع، وأسبق تجلياته سبحانه، وكان له تعين في ذلك العالم، وهو التعين الروحاني، فدار في عالمه يومًا واحدًا من الأيام الإلهية، وهو ألف سنة وهو عالم القلم والعقل، ثم تنـــزَّل إلى عالم الأرواح فدار في عالم اللوح أيضًا يومًا واحدًا من تلك الأيام، ثم تنـــزَّل إلى عالم الخلق؛ فكان خلق الروح أقدم من خلق الخلق بألفي سنة على ما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة.

وكان مرتبة الروح مرتبة الحياة والعلم؛ لأنه حيٌّ بالأسماء الإلهية، وتنفست من مضايق كون الغيب. وتنـــزَّل العلم من الثبوت إلى الوجود، ويشير إليه لفظ الروح؛ لأنه من الريح، وهو النفس الرحماني المفاض عليه، وكان مرتبة الخلق مرتبة القدرة

والإرادة كما قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]؛ فإن فيه إشارة إلى أن تكون الأشياء الخارجة مبني على القدرة والإرادة، وأن المكوَّن بالفتح يدور مع المكوِّن؛ لأن تعينه تابع لقوله تعالى: أي لقائه فافهم.

فكان ظهور الروح في كل مرتبة من مراتب التكوين بحسب قابليتها واستعدادها؛ لأن نور الشمس لا ينعكس إلى البيت إلا بقدرٍ وزنته، ففرَّق بين الصحراء والبيت.

ولمَّا كان مرتبة النفس أنزل من مرتبة الروح؛ قالوا: النفس الجمادي، والنفس النباتي، والنفس الحيواني، والنفس الإنساني، ثم ظهر كلياته في النفس المحمَّدي، فكانت الأشياء بصورها وأرواحها مرآة للصورة المحمَّدية، والروح المحمَّدية، فسألوه لا غيره عن الروح؛ لأن روحه ﷺ أبو الأرواح، وكان واقفًا على جليِّة الحال في أمر الروح؛ لأن الله تعالى خلقه على أحسن تقويم، وأعدل مزاج، فلم يخف عليه شيء من الأشياء إلا ما استأثر الله تعالى في علمه؛ وهي الممتنعات الغير المتجليِّة بصورة من الصور الخارجية أية صورة كانت، فبقيت في العلم الإلهي أبدًا.

فقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] [1]. تعريف له: بأنه من

(١) فـ (عالم الأمر) هو عالم الغيب الذي هو الأسماء الذاتيَّة، ويليها أمهات أسماء الألوهيَّة وتوابعها، وكل واحدٍ منها حجابٌ عن الآخر، وصف نفسه تعالى باعتبار هذين العالمين: أي الظاهر والباطن، أو الغيب والشهادة بأن له الْحُجُب النوريَّة التي هي الأرواح، والظلمانيَّة التي هي الأجسام، فكل واحدٌ منهما حجابٌ عن الآخر، فإذا اعتبرتهما خلقًا وأمرًا، ولطيفًا وكثيفًا؛ إنما اعتبرتهما من حيث الأسماء، وهي سلسلةُ الترتيب والوسائط المتكثِّرة.

فبهذا الوجه يكثر الوجود؛ وهو ظاهر الخلافة التي منه تكثر، وأمَّا إذا اعتبرتهما؛ أي العالمين الخلق الأمر، وإن شئت قلت: عالم الغيب والشهادة حقًّا؛ أعني من الوجه الخاص زالت الكثرة وارتفعت الوسائط، وذلك باعتبار أن (الاسم) عين المسمَّى، و(الذات) هي السارية في الكل؛ كتعيُّن الأسماء من حيث عدم التَّغايُر، فاتَّحدّ الكل من حيث إن الساري في الكل هو الذات، فهذا باطنُ الخلافة، والتجلّي منه تجلٍّ أقدس.

وعلى هذا صحَّ أن القرآن غير مخلوق من حيث ارتفاع الوسائط، ومن حيث الإضافة إلى الاسم الذي عين المسمَّى، فصحَّ له الوحدة مع تكثُّر الألفاظ والحروف والآيات والسور، وبذلك تكثر في =

عالم الأمر لا من عالم الخلق؛ لكنه لمَّا تعلَّق بعالم الخلق؛ وهو مرادنا من قولنا: إن نصفه عربي معرب عنه؛ اشتبه على الخلق أنه ما هو، ولم يعرفوا أنه هو الأمر الإبداعي الذي لم يكن له تعلُّق بالأشياء المنفوخ هو فيها؛ لكمال تجرُّده في نفسه؛ لأنه العقل المحض إلا تعلُّق التدبير والتصرف، وهو المراد بالظهور في قول: مَن قال: سبحان مَن أظهر الأشياء، وهو عينها، ولذا لم يقل: سبحان مَن خلق الأشياء؛ وهو عينها.

ومن ثمَّ زلت فيه بعض الأقدام، وقال ما قال من أسوء الكلام، ثم إن هذا التعلُّق لا ينقطع أبدًا من الأشياء؛ لأن التجليَّات لا تنقلب العدم البتة، وإن دارت في الأطوار المختلفة مثلاً: إن الروح متعلَّق بالإنسان مادام حيًّا، فإذا مات؛ تعلَّق بعناصره

=

وحدته ولم يوصف بالمخلوقيَّة مع التكثُّر؛ لأنه ظهور الذات في المراتب بلا كيف.

فالعالمان؛ الغيب والشهادة أو الخلق والأمر إذا أُضيفا إلى الذات بلا واسطة بطريق الوجه الخاص فهما واحد، وإذا أُضيفا إلى الأسماء؛ فالشهادة: الخلق، والغيب: الأمر، فبهذا الاعتبار قلنا: إن الإنسان الكامل له الأخذ من الله تعالى بواسطة؛ باعتبار الإضافة إلى الاسم، وبلا واسطة؛ باعتبار الأخذ من الوجه الخاص، وإنما قلنا: الوجه الخاص؛ لأنه مخصوصٌ بالإنسان الكامل من دون الموجودات؛ كالملك وغيره، فإن له الإطلاق في الأخذ وغيره لكل منهم مقامٌ معلومٌ لا يتعدُّون مقاماتهم؛ وذلك لأن الإنسان الكامل كل الوجود، فافهم.

فلمَّا أراد تعالى ظهورنا بالصورة: أي بصورة الحق ولها الغيب والشهادة، فأوجدنا ذا غيب وشهادة؛ ذا جسمٍ وروحٍ؛ فعالم الجسوم شهادتنا، وعالم الأرواح غيبنا؛ فالكون كله جسمٌ وروحٌ وبهما قامت نشأة الوجود، فالعالم للحق؛ كالجسم للروح فلا يُعرف الحق إلا من العالم كما لا تُعرف الروح إلا من الجسم.

فإنَّا لما نظرنا فيه، ورأينا صورته مع بقائها؛ تزول عنها أحكامٌ كنَّا نشاهدها من الجسم وصورته من إدراك المحسوسات والمعاني، فعلمنا أن وراء هذا الظاهر معنى آخر هو الذي أعطى أحكام الإدراكات معرفتنا غيبنا بشهادتنا، وسمَّيناه روحًا لهذا الجسم الظاهر، وكذلك ما علمنا أن لنا أمرًا يحرِّك أرواحنا كما كانت الأرواح تحرِّك أجسامنا؛ وهو روح الأرواح يحكم فيها بما يشاء حتى نظرنا في أنفسنا، وعرفنا منها وبها ربَّنا.

إلى أن ينشئه الله ثانيًا، وإنما تمنَّى الكافر أن يكون ترابًا؛ لأن التراب أبعده عن الحضرة من حيث إنه من عالم القوة والإنسان أقرب منها من حيث إنه من عالم الفعل، ولا شك أن العذاب على مَن كذب وتولى لا على مَن أعطاه الله خلقه فهُدي فافهم جدًا.

ثم إنه ﷺ إنما توقف في الجواب، وانتظر الوحي الإلهي مع أن علمه حاضر عنده، وهو مرئي له ملكوت السماوات والأرض، كما أن الجواب عن أمر الله أقوى من الجواب عن أمر نفسه؛ لأن الوجه الخاص تابع للوجه العام؛ فاقتضى الأدب الإلهي ألا يتكلم إلا بالحق من كل الوجوه؛ فظهر من هذا التقرير سرُّ قوله تعالى:

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥].

وهو أنهم لو كانوا أوتوا من العلم كثيرًا؛ لما احتاجوا إلى السؤال عن أمر الروح؛ فعلم أنهم جاهلون به لاحتجابهم بالغواشي البشرية.

أنه ﷺ عالم به لأنه أقوى روحًا من عيسى عليه السلام؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء:١٧١]: أي أن عيسى روح مبتدأ من روح محمد ﷺ [(١)] بل من الروح

---

(١) اعلم أن النبي ﷺ روح الحق: اسم من أسمائه ﷺ. وقيل: إنه هو معنى ما ورد في الإنجيل أن اسمه البارقليط. وقيل: معنى البارقليط أنه: الذي يفرِّق بين الحق والباطل فيكون روح الحق.

والمفرِّق بين الحق، والباطل: اسمان متغايران صادقان على ذاته الكريمة، ونشأته العظيمة.

فالروح: هو قوام الأجساد والأشباح، فلا اعتبار لوجود الأجساد، ولا يعبأ بها لولا وجود الأرواح.

فمعنى روح الحق في حق نبينا ﷺ يحتمل وجوهًا من الحُسن عديدة، ومعاني موجودة في حقه ﷺ فريدة.

فالحق يُحتمل أن يراد به: الإيمان الذي بعث الله به جميع الشرائع والأديان.

فيكون معناه: روح الإيمان: أي إن الإيمان إنما ظهر في أرض الله، وانتشر في قلوب خلق الله بوجود سيد المرسلين، وبعثة من شرف الله به الأولين والآخرين.

فلولا هذا الروح الكريم، والمحبوب لله العظيم لتلاشى وجود الإيمان، ولم يظهر له أثر في العيان.

وقد يكون الحق: المراد به في الهدى والنور الذي بعثه الله به، والحكم الشرعي على الذي جاء به، فهو ﷺ نور الهدى، والنور الذي نوَّر الله تعالى به وجود العالم بأسره، وبه حياته؛ لأنه ما خُلق إلا من أجله.

ويُحتمل أن يكون الحق، أُطلق على وجود الأكوان؛ لأنها خلقت مصحوبة به، فكان روحًا لها في جميع الأزمان.

=

الأمين؛ لأنه هو النافخ، ومن ثم كان الحضرة النبوية جَدًّا للحضرة العيسوية، فاعرف جدًا.

فعرف أنه قلة العلم إنما هي بالنسبة إلى السائلين ونحوهم لا بالنسبة إلى المجيب،

=

قال الله العظيم في كتابه الكريم المسمَّى بالحق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨].

وسر هذه الأكوان وروحها: هو رحمة العالمين، وحياة الواجدين الذي خرجت الدنيا من العدم إلى الوجود من أجله في أعين الناظرين.

فيكون معنى روح الحق في حقه ﷺ: إن رفيع الشأن: هو روح الأكوان، وحياة الأزمان الذي هو للعام أمان.

ولعل ولي الله، نفع الله به؛ الشيخ سيدي أبو الحسن عليّ بن الوفا رحمه الله أشار إلى هذا المعنى بقوله في قصيدته:

رُوْحُ الوجـــودِ حـــياةُ مَن هُو واجِدٌ لَـــولاه مَـــا تَـــمَّ الوجُودُ لَمن وُجِدْ

فأشار رحمة الله إلى أن الأجساد خلقها الله تعالى، وأودع فيها أسرارًا، ولطائف من علمه، روحانية خص بها أهلها لا يعلم كنهها ولا يحيط بها إلا خالقها.

فكذلك هذا العالم خلقه الله تعالى وأودع فيه سرًا عظيمًا، ونبيًا رحيمًا، وخصه بخصائص لا يعلمها إلا مانحها، وأودع فيها من الحسن لطائف لا يحصيها إلا باذلها، فجعل هذا الكون العظيم العلوي والسفلي قالبًا لظهور نوره، وصورة لإبراز روح سره.

ويحتمل أن يكون الحق المراد منه: ضدُّ الباطل وأن الحق لا يكون محكومًا به إلا إذا كان موافقًا لحكمه، ولا يتقرر له وجود إلا إذا وقف على شرعه.

وإلى هذا المعنى يرجع هذا الاسم الآخر في حقه المفرق بين الحق والباطل، ويحتمل وجوهًا غير هذه يطول جلبها، ونشر ذكرها، فأقربها أن يكون الحق اسمًا من أسماء الله تعالى، أطلق على الله، والروح المضاف إليه من إضافة المخلوق إلى الخالق إضافة تشريف، وإظهار تعريف.

فيكون معنى روح الحق في حقه ﷺ وتسميته به، كما كان ذلك في حق عيسى رسول الله، وأنه روح الله ﷺ.

ويكون المعنى: إن الله تعالى أضاف روح هذا النبي العظيم إلى نفسه من بين سائر الأرواح؛ لأنها مخلوقة من أجله موصولة بوصله؛ لأنه إنسان عينها، وإكسير المحامد بأسرها.

فكانت علومهم وعلوم جميع الخلق علوًا وسفلاً بالنسبة إلى علمه المحيط؛ كقطرة من سبعة أبحر؛ فكأنه قال: أوتيتم من العلم قليلاً، وأوتي محمد ﷺ كثيرًا؛ فهذه إضافة علمية بالنسبة إلى الخلق، كما يقتضيه المقام، ويستدعيه السوق.

وأمَّا علم الله تعالى فلا يعتبر فيه الإضافة أصلاً؛ لأنه علم الخالق، ولا شك أن المخلوق إنما يستفيد العلم من الخالق؛ فهو مصدر العلم المطلق منبعه فلا يضاف إلى علمه علم إلا وهو يجنيه؛ كقطرة من سبعة أبحر، أوكأمر معلوم لا وجود له.

فانظر أن الله تعالى هو العليم الخبير فلا يخبر عن الغيب إلا هو، ولا يظهر على غيبه أحدًا إلا مَن ارتضى من رسول؛ وهو الرسول المطلق المظهر بجميع الحقائق الأسماء الإلهية على التفضيل المظهر للحكم، والعلوم للمستأهلين بقدر قابليتهم الأولية، واستعداداتهم الأزلية، وعلى أثره يمشي مَن اتبعه على بصيرة في جميع المراتب، والله تعالى خير المطالب.

***

obeikandl.com

سورة الكهف

قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف:١٨].

إشارة إلى حال الغفلة؛ فإنهم نائمون في صورة المنتبهين، فمَن نظر إليهم ممَن هو مثلهم في الغفلة عن الله تعالى يراهم متيقّظين، ومَن نظر إليهم من أهل المكاشفة والمشاهدة؛ يراهم نائمين، فإن الاعتبار بحال الباطن لا بحال الظاهر.

وإمَّا إلى حال أهل اليقظة، فإنهم لا إحساس لهم بما يتعلّق بعالم الملك؛ لفنائهم عنه، وبقائهم بالله، والباقي بالله لا ينظر إلا إلى الله تعالى، والجاهل المحجوب يظن أنهم منغمسون في الحسِّ، وأنهم مشتركون معه في ذلك، وليس الأمر كذلك بل فرق كثير بين مَن حضر مع الحق في كل حاله، وبين مَن غفل عنه في كل حاله، أو في بعض حاله.

فمَن حضر مع الحق، يشمُّ منه رائحة المسك في صورة الدَّم كدم الشهداء، ومَن لم يكن كذلك، كان صورته ومضاء دمًا، فالاشتراك في الدموية لا يوجب أن يكون بينهما أصلاً؛ ولذا قالوا: إن رجال الله أكثر نكاحًا من غيرهم لِما أن الدم في عروقهم يستحيل نورًا: أي يرجع إلى قوته.

والنور أقوى من الدم؛ لأنه من عالم البقاء، والدم من عالم الفناء، فما بينهما كما بين الدنيا والآخرة، فإذا عرفت هذا؛ فاحذر أن تقيس أهل الله في أحوالهم على غيرهم؛ فهو كقياس الغائب على الشاهد، وذلك لا يصحُّ جدًّا، وقد رأيت في عصري مَن هو خارج عن القياس بحيث لا يعرفه إلا رب الناس، جعلنا الله وإياكم من المحققين بهم، والقائمين بنحو مطالبهم؛ إنه هو البرُّ الرحيم، والزم.

لطيفة: واعلم أن من عادة الله سبحانه مع هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقي شرَّفه الله لمزيد الترقّي أن يرقيه إلى أعلى ما كان فيه من المراتب، وأن يفيض عليه من علمه ما لم يكن عنده قبل، وذلك في كل سبع سنين من سنى العمر لكن لَمَّا كان الترقّي موقوفًا على المنحة والمحنة، وإن كانت لا تنتج شيئًا؛ لكن الصبر عليها، والرضا بها مما له عاقبة حميدة، والمحنة أيضًا على صور شتَّى بحسب الاستعدادات؛ فكانت صورة ابتلائي بالسفر من دار إلى دار، والهجرة من أرض إلى أرض؛ فكان أول ما

قضى الله عليه من السفر؛ الحركة إلى بلدة الأسكوب من البلاد الرومية، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالهجرة إلى جانب بلدة برونية، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالسفر القبريسي، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالغزو، ثم الحج، وموت الأولاد في البيْن، ومُقاساة شدائد المعارك، وفي طريق الحج حتى انسلخت عن جميع ما بدا من الكتب الجليلة، والأموال النفيسة، وسُلِّمت الروح إلى الله تعالى حتى كان، ثم بعد سبع سنين وقعت الحركة إلى جانب مسقط الرأس؛ لزيارة قبر الأبوين، ثم بعد سبع سنين وقع سفر الحج الثاني، ثم بعد سبع سنين أُمرت من الجانب الإلهي بالهجرة ببرسه إلى الشام، فانسلخت عن جميع المتعلّقات، ووقع ذلك في التاسعة والعشرين بعد المائة بعد الألف.

فهذه السنون تزيد على الأربعين، ثم الله تعالى يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، وكل ذلك كان بإشارة من الله تعالى لا بالاختيار من جانبي، فإن الحركة الاختيارية نفسانية لا تنتج شيئًا، فالعاقبة الحميدة ما يعقبها الأمر الإلهي لا غير.

وأمَّا البلايا الأخر فيما بين هذه الأسفار ولا تُعدُّ ولا تُحصى؛ لكثرتها، وقد ورد في الحديث: «**ما ابتلي أحد من الأنبياء مثل ما ابتليت به**»[1].

ففي الابتلاء جلاء القلوب، وصقالتها، وجعلها متَّسعة؛ لتجلِّي الحضرة الإلهية، فإن التجليَّات مَنوطة بغير الملائم غالبًا؛ ولذا كان أشدُّ البلاء على الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، ثم إن فوق هذا الابتلاء ابتلاء آخر؛ وهو الدعاء للقوم الغلاظ الشداد بالرحمة والهداية.

كما قال: «**اللّهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[2]: أي ليس لهم معرفة بالله تعالى، ولو عرفوه وقدَّروه حق قدره لما صدر عنهم ما صدر من الأذى والجفاء، ورد الدعوة، والتجاوز عن المقاولة باللسان إلى المطارحة بالسيئات، وكان الأنبياء قبله مأذونين بالدعاء على قومه.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٤٨/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

ألا ترى إلى نوح عليه السلام كيف قال: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]؛ وفيه شفاء للقلب، ورفع للغيظ.

وأين هذا من الدعاء بالهداية؟ فقد قابلهم النبي ﷺ بالدعاء لهم؛ وهو من الإقبال عليهم لِما عُرف أن بينه وبين أمته رقيقة من الروح الإلهي؛ فكان روحه روح جميع الأرواح، كما أن أجسادهم جسده، والكل لا يقبل على الجزء إلا بالمرحمة، إلا أن يقتضي الحكمة الغضب عليه، كما إذ ألبست الجبة عضو من الأعضاء، أو ظهر فيها من الأكلة فإنها تُقطع، وذلك القطع، وإن كان نقصاناً في الظاهر لكنه كمال في الباطن، فالقضاء يُردُّ بالقضاء، ومَن عرف الله تعالى، يُخبر في أمره، ودار في البلاد، وسافر من اسم إلى اسم إلى أن يقضي الله أمره، وكان أمر الله مفعولاً.

اعلم أن شيخي وسندي في جميع المنال والأطوار الشيخ السيد عثمان الفضلي الإلهي قُدِّس سرُّه: نفخ الروح في قلب هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقي غُفر ذنبه ووجوده، وأنا ابن ثلاث وعشرين سنة، وذلك في سورة الفاتحة التي هي جامعة الجميع الحقائق، ثم لمَّا مضت عليه سبع عشرة سنة، وناهزت الأربعين، وقرب انتقاله من هذا الموطن دعاني، ودعا لي وقال لي: لم يتعلَّق قلبي بمَن سواك من خلفائي، وهم كثيرون قدر مائة وخمسين كلهم من أهل العلم، وهذه علامة لميراثك، ثم وضع مسبحته على فمه.

وقال: هذا النفس ينتقل مني بعدي إليك، فقبَّلت ذيله واستبشرت.

فكان كما قال بإذن الله حتى أني لقيت حضرة الخضر عليه السلام في حطيم الكعبة، فقال لي: يا هو! أنا الخضر فما مرادك؟ فقلت: مرادي خير الدعاء منك فقال: جعلك الله من الأنفاس، ثم غاب، والأنفاس باب من أبواب «الفتوحات المكية» فليطالع هنالك.

وكذا نفخ في فمي حضرة الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه الأطهر، وسرُّ نفخه مذكور في شرح التجليَّات خلفائه، ومرادي في هذا المقام بيان أن النهاية راجعة إلى بداية حيث كان أول ما وقع من شيخي المقدَّس روحه النفس، وكذا آخره، فدار العَود على البدء دورًا مع زيادة كيفية في العود حسبما يقتضيه الحركة الدورية في

السلوك إلى الله تعالى، فإن السلوك دوري لا خطي، وكذا جميع اللواحق مع السوالف، وإن خُفي على العامة.

والله تعالى نسأل أن يردنا إليه وهو راضٍ عنا، وأن يلبسنا وجودًا حقانيًا حين أخذ الفاني منا بحرمة المصطفى ﷺ، وبجاه آله وأصحابه، وكُمَّل أمته، وهو الواسع رحمته، والعام بركاته.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف:٢٨].

: أي شأنهم الدعاء في غُداة الأزل والعلم، وفي عشي الأبد والعين، دلَّ عليه قوله فيما بعد: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا﴾ [الآية:٢٨] إلخ.

فالدعاء في العلم بالقوة، وفي العين بالفعل، والفعل ناظر إلى القوة؛ لأنها مَعذبة، فلو لم يكن القوة لم يكن الفعل، فهذه القوة في حكم الفعل؛ ولذا بدَّل سيئات العاصي بعد التوبة حسنات، وجُعلت حسنات الكافر الواقعة في زمان كفره مقبولة بعد إيمانه، وفيه إشارة إلى أن النظر إلى السوابق في الحقيقة لا إلى اللواحق، وإن القلب بمنـــزلة الحقيقة، واللسان ترجمانه لإظهار الفعل؛ ولذا جُعل سكوت الكامل نطقًا؛ لأن باطنه على الحركة دائمًا؛ وحركته المشي إلى الله تعالى، والتوجه إليه؛ بل وقوعه في عين العين، وخرقه قاب قوسين إلى وحدة أو أدنى.

قوله ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:٥٢].

: أي وجه ربهم؛ لأن ربهم ربَّاهم بلبن العناية والتوفيق، فلم يظهر منهم بعد البلوغ في عالم الجسم إلا التوحيد، ومتابعة الرضا، وإيثار الموافقة على المخالفة، وكيف يخالف الموافق؟ وإنما يخالف المخالف، ثم إن هذه الإرادة إرادة أزلية، وإنما الإرادة الأبدية تابعة لها؛ فهي إرادة واحدة في الحقيقة؛ كإرادة الله تعالى يظهر تعلُّقاتها في علم العين.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الآية:٢٨].

أي: عين الأزل، وعين الأبد[١]، وآثر عدم العدِّ، وحبس النفس معهم: أي الصحبة بهم في عالم الحسِّ؛ لأن هذه الصحبة أثر صحبة الروح، فإن أرواح المؤمنين فائضة من نور محمد ﷺ؛ فهي كالأولاد له.

ولا شك أن الآباء والأولاد متصل بعضهم ببعض؛ فهم في صحبة واحدة في المعنى، والصورة فافهم جدًّا.

قال تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الآية:٢٨].

أي: لا تنظر إلى الحسِّ والصورة؛ بل إلى المعنى والحقيقة، فأهل الذكر زينتهم زينة الآخرة، والباطن، وأهل الغفلة زينتهم زينة الدنيا، والظاهر، والباطن أرجح من الظاهر؛ لأنه الأصل المرجوع إليه.

قوله ﷻ: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الآية:٢٨].

أسند الإغفال إلى نفسه تعالى؛ والمراد إظهار الغفلة التي جُبل الغافل عليها في الأزل، فإن الاستعدادات والأقضية التي تُجرى عليها ليست بمجعولة، فلا جبر من الخالق للخلق.

وقوله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الآية:٢٨].

هذا الاتِّباع هو أثر ما جُبل عليه في الأزل خيرًا وشرًّا، ومن هنا قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩].

فما من أحدٍ من أهل الهوى إلا وهو داخل في العذاب وسجنه؛ لكن بعد الإلزام لا قبله.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطا﴾ [الآية:٢٨].

تتميم لاتِّباع الهوى؛ أمر قصدي أولاً، ثم أمر فعلي ثانيًا؛ كالإرادة والدعاء بالنسبة إلى الذكر؛ لكن قُدِّم الفعل هناك؛ وهو الدعاء إشارة إلى الحكمة، وأخر هنا إشارة إلى العلم، فتفطَّن لهذه المقام، والله العلاَّم.

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ: الأزل في الأبد سر في علن، ومعنى في الكلام الذي ما ورد في الأسماء الحسنى لأنهم في نظامه، والمسميات في نظام قيوميته قيامه في كل كلمة من كلامه على كل نفس من تجلياته أقام فيه دوائر وجوه حضرات عين إجماع مرأى قوابله، وهذا هو الوجه الباقي في العين القائم عرش الإحاطة مربع بوجوه الحضرات.. وانظر: كتاب الأزل لسيدنا قدس سره (ص٨٤).

في أواخر سورة الكهف: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

نفى هنا أن يكون لهم الوزن يوم القيامة، وأثبت في قوله: والوزن يومئذ الحق؛ لأن المقصود من نفيه بيان ألا يكون لهم قدر عند الله كما للمؤمنين، وهو لا ينافي الوزن في الحقيقة دلَّ عليه أنه تعالى حكم بكون الوزن حقًا: أي ثابتًا، والثبات إنما يكون بالرزانة والثقل؛ وهو لا يكون إلا للمؤمنين، فمَن ثقلت موازينه؛ فله وزن عند الله ومقدار، مَن خفَّت موازينه؛ فلا قدر له عند الله تعالى؛ لأن القدر إنما هو بالاعتقاد والعمل، وقد عدمهما الكفار.

واعلم أن الإنسان في أول حاله يطلب أن يكون كالذَّرة المرئية في شعاع الشمس عند انعكاسه من الكوة، فإن وجوده، وإن كان وجودًا موهومًا في الحقيقة؛ فإنه خيال وظل بالنسبة إلى الوجود الحقيقي؛ لكنه لَمَّا تعيَّن بتعينات مختلفة؛ حصلت له منه الثقلة الطبيعية والبشرية، والكثافة الجسمانية الصورية، ورزانة التعلُّقات الكونية المعنوية المانعة عن الحركة من الحضيض إلى الأوج، فهو دائمًا يطلب خفَّة، كخفَّة الذَّرة، والخلاء لا من التركيب والتعلُّقات؛ ليتم له أمر التجريد[1] والتفريد[2]، فيكون من المفردين السابقين، ثم أزال الأمر إلى هذه الخفَّة بالغناء التام، وتأدِّية الأمانات إلى أهلها، وحصلت الثقلة بالبقاء، والتلبُّس باللباس الحقاني زال الطلب المذكور؛ لأن

---

(١) قال سيدي علي وفا: التجريد الوجودي التحقيقي إيجابي، والتجريد البياني اختياري، فلا تطلب في الأول ما تطلب في الثاني من مقارنة القصد والتعمل، وقسْ على هذا كل أمرٍ وقع في دائرة الإيجاب تارة، وفي دائرة الاختيار أخرى، ولكل مقامٍ مقال، ولكل مجالٍ رجال.

(٢) قال سيدي محمد وفا: التفريد هو صفة توجب تمييزًا لا يصح حكم الاشتراك فيما بين المتغايرين؛ لنفي المماثلة في صفات نفس، أو هو تميز بسلوب من كل واجبٍ للتمييز في المراتب، فتميزه سلب التمييز، ولا يُقال على موصوفه: موصوف بزيادة؛ لما فيها من فحوى الثنوية وإن لم يكن تكثيرًا في الذات، بشرط إثبات وجود خارجي، فهو كثرة معقولة في داخل الذهن، وتصور الخارج مجاز كل شيءٍ، فلا يُقال بالذات؛ لأنه لا يقدر صفة نفسه إلا بالذات، فذاته توجب ذاتيات لا يُقال عليها غير لامتناع الاستقلال فيها، ولا مثل لشمول الوحدة الحقيقية عليها، ولا هي صفة؛ لأن الصفة مشروطة بموصوفها عند تقدير الوجود، فهي شيء يُلحظ بملاحظة المعجوز.

الأكملية إنما هي في تلك الرزانة الحقيقة التي من تحمُّل الأمانة الكبرى.

وقد أشار إليها بقوله ﷺ: «**اللّهم اقض عني ديْني**»[1]؛ لأنه يُقال: ركبه الدَّين، ولا شك أن المركوب تحت ثقلة الراكب، فكلّما الخط أكمل من المركب وانحلّ حصل له الخفّة والنشاط، وكذا كلّما قُضي الديْن؛ جاء النشاط.

ولا شك أن الأمانة الكبرى؛ هي التي لم يحملها السموات والأرض والجبال، وأشفقن منها، وحملها الإنسان؛ فهو حامل لتلك الأمانة الثقيلة أبدًا، وفيه كمالها أكملية، فهو حين يطلب خفّة؛ كخفّة الذّرة؛ فيقول له الذّرة: أين أنت من الفهم؟ إنك تطلب خفّتي، وأنا أطلب ثقلتك، وقد امتلأت بك السماوات والأرض، وأمّا أنا فوجودي الموهوم لا يسدُّ شيئًا أصلاً، فلا كمال لي قطعًا.

وذلك أن كل ذرة، وإن كان فيها ما في الكل؛ لكن ذلك فيه بالقوة لا بالفعل، وإلا لكان مساويًا مع الإنسان في الدرجة.

وإمّا أن يطلب الإنسان كونه؛ كطير على شجر، أو كشجر على رأس جبل، أو نحو ذلك، فذلك إنما هو من ضجرته البشرية الواقعة في بعض الأحيان، وأسبابها كثيرة، وإلا فهو يعرف ان الإنسان أكبر قدرًا من سائر الموجودات، وأعلى شأنًا من جميع الكائنات، وان مَن يموت في صباوته حين ما كان معصومًا عن المعاصي؛ ليس بأفضل من الذي يموت بعد البلوغ إلى الكَمالات بالفتح في مَدته، وإن كان قد يعرض له بعض الزّلاّت؛ فذلك معفو منه ومغفور، وسعيه في طلب الحق مشكور.

فعليك أيها الولدُ بطريق الكبار البالغين إلى غاية الغايات، لا بطريق الصغار القاصرين في تكميل المراتب والدرجات، وقُلْ عند وقوع الزّلاّت كما قال أبوك قبلك: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف:٢٣]، فإنه يغفرك ويسترك بنوره، ويزيل عنك الظلمة بتجليه وظهوره.

ومما قررنا يُعرف أن الوقار الظاهر مما يُرغب فيه أيضًا؛ لأنه من آثار الوقار الباطن، فإذا تمكّن الوقار الباطن في القلب من تحمُّل الأمانات، والتحقق باحكام

---

(١) تقدم تخريجه.

الأسماء والصفات؛ تمكّن الوقار الظاهر في القالب من تحمُّل الشرائع، والأحكام، والعمل بما يقتضيه كل حال ومقام؛ فهذا الوقار مطلقًا هو المقبول، وأمَّا وقار الأغنياء والملوك في الظاهر بتغيير الأوضاع والأطوار عند أهل العُرف والعوام من غير أن يكون لهم تقوى في القلب، وعمل بأحكام الأجسام، فذلك غير رائج في سوق الحقيقة، فإن النظر إلى المعنى لا إلى الصورة.

فإن قلت: هَب أن الوقار لا بد منه للمؤمن في كل حال ومقام وأن الطيش والخفَّة من سيرة الجهلة والأنام، فما بال الحق تعالى يصف نفسه بالاستهزاء في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**﴾ [البقرة:١٥].

ولا شك أن العبد متخلّق بأخلاق الله، وذلك الاستهزاء من الخفَّة، وهي لا تليق بالله الجليل العظيم، ولا بعباده الذين ظهروا على صورته في خُلقه الكريم.

قلت: إن الله تعالى غني في ذاته عن العالمين، وأوصافهم، فليس عليه أثر من الكون، وما هو عليه أصلاً؛ لكن ذلك الاستهزاء ونحوه من الفرح، والضحك، والتبشبش، والمجيء والذهاب؛ كله من أحكام العماء الكوني؛ لأن الله تعالى يتَّصف في تلك المرتبة بما يتَّصف به العباد ،فذلك من خصوص المراتب.

وقد يُقال: إنه من طريق المشاكلة كما قيل: كما تُدين تُدان، وبالكأس التي تُسقي تُسقى.

والحاصل أن ذلك ليس من قبيل الطيش والخفَّة في الحقيقة، وإنما هو من قبيل أجزية الأعمال، والله أعلم بحقيقة الحال، فعليك بمراعاة المراتب كلّها إن كنت من أهل الأهوال.

***

في سورة طه

قال الله سبحانه: ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ [طه:٤٠] يا موسى: ﴿إِلَى أُمِّكَ﴾ [طه:٤٠].

: أي إلى التراب الذي حقيقته المسكنة، والسكون، والسكوت.

وكذلك رددناك يا موسيّ القلب إلى أصلك الذي هو الروح، وشأنه الفناء في المعرفة، والانقطاع عن تعلُّقات الذات والصفة.

وقوله ﷻ: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص:٤٠].

قر العين هنا إشارة إلى قرار الذات.

فإن الأصل لا يستقر إلا بجذب الفرع إليه، وكذا الفرع لا يزال يبكي إلى أن يدخل تحت ذيل الأصل، فالكل قالبًا وقلبًا ينجذب إلى ما يشاكله.

وفيه إشارة إلى أن الإقبار المفهوم من قوله تعالى: فأقبره رمز إلى دخول الفرع في الأصل، وحصول الجمع بعد الفرق، وأي لذّة أعظم منها، فلا تخف من التراب، وسره الذي هو الفناء، فإن انضمامك إليه قرير عين لك.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص:٤٠].

تأسيس في صورة التأكيد، فإن قرار العين إشارة إلى سكون القالب، وعدم الحزن إشارة إلى راحة الروح.

فالحزن من صفات الروح؛ وهو من المقامات العالية في الحقيقة، وعليه جرى الأنبياء والأولياء، فإن قلت: فإذا كان الحزن من المقامات العالية، فما معنى نفيه؟ قلت: إن الإنسان الكامل محزون وغير محزون.

أمَّا عدم حزنه: فلأنه لم يفت عنه شيء من المقامات؛ بل قد وصل إلى ذُروة الحالات والكمالات.

وأمَّا الحزن: فلأنه من أحكام البشرية، والروح في ذلك تابع للقالب، فإن القالب له حجابية في الجمل، وإن تلطَّف فوق الغاية؛ ولذا ترى أكمل الناس في كل عصر محترقًا أشدّ الاحتراق مع أنه في عين الوصل لا يزال يشرب من كأس الجمع العذاب البارد.

وتدَّبر في قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:٨٤].

فإن العجلة محمودة إذا كان المقصود الرضا، والله المعين في كل الأحوال.

قول الجلوتية – بالجيم – أن السير بالخلوتية بالخاء المعجمة في البرزخ؛ معناه: أن الجلوتية بالجيم لا يشتغلون بالأسماء؛ بل سلوكهم بالتوحيد والمجاهدة، كما هو طريقة الأصحاب.

فالمجاهدة والرياضة تُصفّي المحلَّ، وتهيَّأه للتجلّي والتوحيد تجلّي الموحَد بالفتح في المحلِّ، فهناك ثلاثة أمور: المحلُّ، والسبب، وظهور المسبَّب في المحلِّ، وليس في ذلك برزخ وواسطة أصلاً.

والحاصل أن مقصود السالك ظهور الموحَد بالفتح له، وهو الموحِد بالكسر من غير واسطة، وذلك إنما يحصل بالمجاهدة والتوحيد.

وأمَّا الخلوتية بالخاء المعجمة؛ فسلوكهم بالأسماء الإلهية؛ وهي درجات متفاوتة إلى المسمَّى، فإن منها نازلة، ومنها عالية، والكل برازخ المسمَّى.

كما قالوا: احتجت الذات بالأسماء؛ وهي بالصفات؛ وهي بالأفعال.

فالأفعال: حجاب على وجه الصفات؛ وهي حجاب على وجه الأسماء؛ وهي حجاب على وجه الذات.

فالذات: من حيث نفسها عارية عن الحجب، وأمَّا من حيث المراتب والأطوار؛ فمحتجبة بما ذُكر، ولا حجاب بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن الأسماء أسماؤه، والصفات والأفعال أفعاله.

ولا شك أن أسماء الشيء مثلاً ليست بحجاب عليه، كما أن القناع ليس بحجاب على وجه العروس بالنسبة إليها بخلافه بالنسبة إلى غيرها.

فالعبد لا يزال في حجاب مادام في سير الأكوان، وفي سير الأفعال والصفات والأسماء؛ لأنها كلها برازخ للمسمَّى، فإذا وصل إلى الذات؛ خلص عن الحجاب، فكان من أمره التواضع، كما أن النبي ﷺ لَمّا تجاوز عن مقام قاب قوسين، ودخل على الله في مرتبة أو أدنى قال: أنا العبد لا إله إلا الله.

فطوبى لَمن كان جامعًا بين الفناء والبقاء بحيث لم يحتجب بأحدهما عن الآخر؛ وهو معنى شرح الصدر في الحقيقة؛ وهو الذي طلبه الكُمَّل؛ وهو الاستغراق الدائم

بعد الرجوع إلى سدرة الكثرة، وسترة قاب قوسين؛ وهو الذي أشار إليه الحديث: «**وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك الكريم أبدًا دائمًا سرمدًا**»(١).

فإن اللَّذَّة لا تكون في الفناء الصرف؛ بل في البقاء، فالمحقق في الشهود الدائم أبدًا؛ لأنه لا حجاب له أصلاً؛ لأن مقام قاب قوسين؛ كالمرآة له، ولا شك أن المرآة ليست بحجاب للمرئي والرآئي.

فالخلوتية إذًا - بالمعجمة الفوقانية - ناقصون؛ لوقوفهم في البرزخ، وقصر سيرهم على الأكوان، وآثار الأسماء التي هي طرائق المكون والمسمَّى.

قلت: لا شك أن أصحاب الطرق الحقة كلها كاملون بعد الوصول على الحق سواء كان وصولهم من طريق الأسماء، أومن طريق غيرها، كما أن مَن قصد الحج من البَرِّ، ومَن قصده من البحر، متفقون في الوصول إلى الكعبة، وإن كان سيرهما مختلفين متفاوتين بالقرب وبالبعد، وبالسهولة وبالمشقة.

وأمَّا قبل الوصول فلا شك أن كمالهم إضافي، وربما يكون سالك أَوْلى من سالك من حيث قوة السلوك، وتوثيق سببه، وعلو وصوله، فإن كم من فرق بين واصل وواصل، كما أنه من فرق بين سالك وسالك، فإن قلت: كيف هذا التفاوت، ولا تفاوت في النظر إلى الكعبة؟ قلت: هذه دعوى لا يقوم عليها دليل، فإن الأنظار متفاوتة، وكشف الحقائق لا يتجلَّى لكل بصيرة، والحق وإن كان وجهًا لا قفا فيه، فله وجوه مختلفة تنظر إليها نظرًا متفاوتًا من الجهات، وعلى هذا أهل الاجتهاد، كالأئمة الأربعة فإنهم وإن كانوا كلهم واصلين إلى الله لكن أحوالهم متفاوتة في ذلك تدبَّر تدبُّرهم.

قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ﴾ [طه: ٩٠].

أي: قال الله تعالى على لسان هارون عليه السلام لبني إسرائيل: الذين عبدوا العجل من بعد غيبة موسى عليه السلام؛ لأجل إتيان التوراة.

فظهر أن الإنسان صورة الحق، والله تعالى يقول على لسانه ما يقول، ويفعل ما

---

(١) تقدم تخريجه.

يفعل؛ لأن الاتِّباع الآتي، وكذا الإطاعة؛ إنما هو .

وقال: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

ولَّما لم تكن هذه المعرفة حاصلة لبني إسرائيل؛ فرَّقوا بين مظهر ومظهر، فقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه:٩١]. ولم يعرفوا أن ما سيقوله لهم موسى هو عين ما قال لهم هارون من قبل.

ومنه يعلم أن الأولياء من حيث أنهم ورثة الأنبياء على هُدىً من الأمر، فإرشادهم عين إرشاد الأنبياء، فمَن أطاعهم؛ فقد أطاع الأنبياء، ومَن عصاهم؛ فقد عصى الأنبياء، دلَّ عليه أن الله أخبر بكفر مَن قال: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء:١٥١].

واعلم بإيمان مَن قال: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦].

فإن الرسول قد يكون رسولاً عرفيًّا، وقد يكون رسولاً لُغويًا، وإن كان لا يجوز إطلاق الرسول مطلقًا على مَن لم يكن رسولاً عُرفيًا إلا بالإشارة الضمنية المفهومة من الآية، فإنه إطلاق بالتبعية، وبطريق التغليب لا بالأصالة وبطريق الحقيقة، ومَن لم يمشِ على المراتب؛ عُثر وزُلَّ؛ فضلَّ وأضلَّ، ومن الله الهداية لمعرفة المقامات والأطوار، ولحسن الأدب في العبادة مما يتعلَّق بحقائق القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه:٩٠].

أي: لا العجل، فإن صرفتم عن عبادته؛ يرحمكم بالقبول، وأثره الاتِّباع كما قال: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ [طه:٩٠]، اتِّباع شريعة بإصلاح ظواهركم، واتِّباع حقيقته بإصلاح بواطنكم.

فإن الدعوة لا تنحصر في الشريعة سواء كانت من بني آدم، أو من ولي؛ بل تعمُّ الحقيقة وبل الشريعة إنما هي للوصول إلى الحقيقة فلا بد من محافظة الوسيلة؛ ليتم الوصول إلى المقصود.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:٩٠] في النهي.

عن عبادة العجل المذكور، فإنه أمر الله ظهر في صورة أمري، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، وكذا المبعوث من قِبله.

فإن قلت: لِم خلق الله الإنسان، وجعله مفتونًا بما سواه مع أنه يعلم من حاله أنه لا يصبر على الشهوات والهوى.

قلت: ذلك لإظهار استعداده الذي هو عليه في الأزل؛ لئلا يكون على الله حُجة بعد الرسل.

فحاصل ذلك إلزام الحُجة؛ ليُحيي مَن حيَ عن بيِّنة، ويهلك مَن هلك عن بيِّنة، فإنه تعالى إذا ابتلاه في الدنيا، وكشف عن شأنه الذاتي في الآخرة؛ لا يبقى له مقال فيما حكم الله به عليه، وهذا السرُّ إنما يتحقق للمحجوبين يوم القيامة.

وأمَّا قيامة العارفين المكاشفين فدائمة؛ فهم الآن يجرون على سرِّ القدر في أنفسهم، ويُطالعون في الأنفس والآفاق؛ ولذا كان من شأن الملامية الحضور في مواضع القدر؛ ليطَّلعوا على ما في علم الله تعالى من الأقضية المبرمة التي لا محيد عنها؛ وهذا من غوامض الأسرار ،ولا يجوز البحث عنه أكثر من ذلك[1].

---

(١) قال الشيخ الأكبر في الفص الآدمي: [ومن هؤلاء من يعلم أن علم الله به في جميع أحواله هو ما كان عليه في حال ثبوت عينه قبل وجودها، ويعلم أن الحق لا يعطيه إلا ما أعطته عينه من العلم به وهو ما كان عليه في حال ثبوته، فيعلم علم الله به من أين حصل، وما ثمة صنف من أهل الله أعلى وأكشف من هذا الصنف؛ فهم الواقفون على سرِّ القدر.

وهم على قسمين: منهم من يعلم ذلك مجملاً، ومنهم من يعلمه مفصلاً، والذي يعلمه مفصلاً أعلى وأتم من الذي يعلمه مجملاً، فإنه يعلم ما في علم الله فيه إما بإعلام الله إياه بما أعطاه من العلم به.

وإما أن يكشف له عن عينه الثابتة وانتقالات الأحوال عليها إلى ما لا يتناهى.

وهو أعلى فإنه يكون في علمه بنفسه بمنـــزلة علم الله به لأن الأخذ من معدن واحد هو العين المعلومة.

إلا أنه من جهة العبد عناية من الله سبقت له هي من جملة أحوال عينه الثابتة يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله على ذلك.

فإنه ليس في وسع المخلوق إذا أطلعه الله على أحوال عينه الثابتة التي تقع صورة الوجود عليها أن يطلع في هذه الحال على إطلاع الحق على هذه الأعيان الثابتة في حال عدمها لأنها نسب ذاتية لا صورة لها.

فبهذا القدر نقول: إن العناية الإلهية سبقت لهذا العبد بهذه المساواة في إفادة العلم.

=

=

ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وهي كلمة محققة المعنى ما هي كما يتوهمه من ليس له هذا المشرب.

قال شارحه ابن ناصر: (ومِنْ هؤلاء) من للتبعيض، ويظهر بالقدرة ما قضي ورفعت الدواوين وجف القلم مَنْ يعلم (أنَّ عِلم الله به في جميع أحواله) وهو ما كان عليه في حال ثبوت عينه قبل وجودها، وهو من أهل الحضور بالعلم والشعور وتفصيل الأمور مع نوع من الإجمال ويعلم أنَّ الحق لا يعطيه إلا ما أعطاه عينه: أي بالاستعداد الذاتي من العلم به بنفسه، وهو ما كان عليه في حال ثبوته: أي في عدمه لا زائدًا ولا ناقصًا، فإذا علم نفسه وعرفها كما هي هي، فيعلم علم الله به: أي بالعلم بنفسه.

وقد ورد في الخبر: «ومن عرف نفسه فقد عرف ربه»، فيعلم تعلق علم الله به من أين حصل، وهذا غاية العلم بالله وبالنفس.

ذكر الشيخ ﷺ في كتابه المسمَّى بالمشاهد أنَّه تعالى قال له في بعض المنازلات: أنت الأصل وأنا الفرع، انتهى كلامه.

وهو محتمل لوجوه شتى منها أنْ يعلِّمه بنا منَّا لا منه، وعند أكثر النُّظار منه لا منَّا، والكشف يعطي كما قلنا.

ذكر ﷺ في «الفتوحات» في الباب الثامن وخمسمائة: لمَّا سألني عن هذه اللفظة محمد بن أبي الضيف نـــزيل مكة المشرفة ومفتيها، فقلت: إنَّ علْمَنا به فرع علْمِنا بنا، كما أنَّ وجودَنا عند فرع عن وجوده، فهو أصل في الوجود فرع في علْمِنَا بنا وهو مدلول هذا اللفظ أيضًا، ففرح بذلك لأنَّه كان هذا قدره لا إيمان كامل ولا العلم والنظر السليم، وكان بحَّار فأعطيناه ما يلائم مزاجه وعقله وهو صحيح؛ فإنَّه ما في الوجود كلام إلا وله وجه صحيح، فافهم.

و(ما ثم صنف من أهل الله أعلى واكشف من هذا الصنف)؛ لأنَّهم أحاطوا بالعلم الإلهي بعلمهم بأنفسهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، علَّق الإحاطة بالمشيئة ما شاء الله، كان قد أحاط الله بكل شيء علمًا.

(وهم الواقفون على سر القدَّر) والقدَّر توقيت ما عليه الأشياء في عينها من غير مزيد من حضرة المقيت؛ فأنَّه يُقدر أوقات الأوقات صورية ومعنوية، فما حَكم القضاء قدْره هذا الاسم تقدير العزيز الحكيم وهذا هو عين سر القَدَر.

فهَمَّ الواقفون الحاضرون لهذا التوقيت على مقتضى الاستعداد، والمطلعون على أصله وفرعه، ولهذا =

=

المقام إجمال وتفصيل، منهم من يعلم ذلك تفصيلاً.

فقال ﷺ: مُريدا لإظهار مراتبهم (وهم على قسمين)؛ منهم من يعلم ذلك مُجمَلاً: أي يعلم سر القدر على الإجمال، ومنهم من يعلمه مُفصَّلاً والذي يعلمه مفصَّلاً أعلى وأتم من الذي بعلمه مجملاً؛ فإنَّه يعلم: أي بذلك العلمي التفصيلي ما في علم الله فيه: أي في نفسه وذاته.

(إما بإعلام الله تعالى إياه بما أعطاه عينه من العلم): أي بنفسه فهذا العلم: أي الذي يكون بالإعلام يسمَّى: العلم التعليمي؛ فإنَّه من تعريف الله إياه بإلقاء روحي أو قلبي أو كلاهما هذا دون الكشف في النتيجة والشرف.

(وإما بأنْ يكشف له عن عينيه الثاقبة وانتقالات الأحوال عليها إلى ما يتناهى) هذا علم التَّجلِّي بكشف الساق يعني: كشف الغيوب على القلوب، وهو أعلى: أي الذي بالكشف أعلى من الذي بالإعلام والتعريف.

كما قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

فإنَّه: أي العلم بالكشف يكون في علمه (بنفسه منـــزلة علم الله به لأن الأخذ من معدن واحد) والمعدن هو العين الثابتة؛ لأنَّ الحق سبحانه يأخذ منها وهي تعطي العلم على ما هو عليه، فإذا رجع العبد إلى عقبه فقهري بالتجلِّيات التحليلية المعروفة عند أرباب السبك والتحليل برجعته إلى أصله وإطلاقه، فيكشف له عن ساق فيرى أحواله على ما هو عليه بلا زيادة ونقصان فيجاري علمه علم الحق لهذا الوجه، ولكن هنا فرق آخر لطيف أشار إليه الحديث أيضًا؛ وهو «ومن عرف نفسه فقد عرف ربه» أنَّه اتبع العلم به تعالى بالعلم بالنفس، فجعل العلم بالنفس هو الأصل في المعرفة وهو أصل معروف غير متكرر.

كما ذكر الشيخ ﷺ في المشاهد وقد نقلته سابقًا بعبارته ﷺ التي ذكرها في بعض المنازلات، وذلك لأنَّه وإنْ كان الأخذ من معدن واحد ولكن للعبد ذاتي أصلي؛ لأنَّه عينه ما جاء من خارج بل قرة عين أخفيت له فيها.

(إلا أنَّه من جهة العبد): أي ذلك الأخذ من جهة العبد يسمَّى عناية من الله سبقت له الحسنى من الفيض الأقدس، فلما قال ﷺ: إنْ أخذْ العبد من عينه كأخذْ الله من عينه وأنَّ الآخذين من المعدن الواحد؛ وهم المساواة، فاعتذر بأنْ أخذ العبد بالعناية، وهي أنَّ تلك العناية أيضًا.

(من جملة أحوال عينه يعرفها صاحب هذا الكشف): أي الذي كشف له عن عينه الثابتة رأى العناية ذاتية له بلا جعل الجاعل.

(إذا أطلعه الله تعالى على ذلك): أي على أحوال عينه أنَّه يُشاهد أنَّ العناية ذاتية له من جملة أحوال

=

=

عينه، وأمَّا إطلاعه وعلمه ما في علم الله فيه من حيث أنَّها شئون ذاتية لا من حيث أنَّها أعيان لا يكون إلا بالعناية كقوله تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وتلك المشيئة عين العناية التي سبقت، (فإنَّه ليس في وسع المخلوق إذا أطلعه الله على أحوال عينه الثابتة): أي من حيث أنَّه عين ثابتة لا من حيث أنَّه حق وإنَّما قلنا ذلك؛ لأن الأعيان لها اعتباران.

اعتبار كونه عينًا من الأعيان الممكنة وحقيقة من حقائقها، واعتبارٌ آخر من حيث أنَّها صور علمية بلا شئون ذاتية، وهي بهذا الاعتبار عين الذات لا صورة لها في الوجود ولا في العلم بخلاف الأول، فإنَّها صورة علمية ولها في الخارج صور خارجية يتعين بها في الخارج إذا ظهرت في الخارج.

(وهي التي تقع صورة الوجود عليها) وذلك لا يكون إلا من حيث أنَّها أعيان ثابتة لا من حيث أنَّها شئون ذاتية للحق سبحانه.

فإنَّها عين الذات فليس في وسع العبد (أنْ يطلع في هذا الحال): أي حال كونه مطلعًا على عينه ومقيدًا بهذا الاطلاع الجزئي أنْ يطلع كليًا على اطلاع الحق على هذه الأعيان الثابتة في حال عدمها؛ لأنَّها: أي لأنَّ الأعيان الثابتة في حال عدمها.

(نسب ذاتية) مجرَّدة عن الأسماء والصفات لا صورة لها، يدرك غير الذات ولا تَميُّز ولا فرق بينها وبين الذات بل هي نسب وخصوصيات لحضرة الذات تسمى باصطلاحهم شئون ذاتية، وهي عين ذاتها فإذا اطلع العبد المُعتني به على الأعيان الذاتية من حيث أنَّها شئون، فيرى شئونًا ذاتية لا صورة لها في ذاتها، بل يرى أنَّها عين الذات.

(فبهذا القدر): أي بقدر هذا الاطلاع على الذات وما فيها (نقول: العناية الإلهية سبقت في الأزل)؛ لهذا العبد الفرد كاشف عينه الثابتة وأخذ العلم بنفسه في نفسه بهذه المساواة في إفادة العلم؛ أنَّه يفيد من حيث أفاد الحق سبحانه ويفيض من عين ما أفاضه تقدَّس وتعالى.

وإنَّما قلنا سبقت له بسبب هذه المساواة التي هي الأخذ من المعدن الواحد في الإفادة؛ وهي العلم بما في علم الله فيه، وهي العناية المختصة بالفرد؛ لأنَّه فوق مقام عينه بل هو في إطلاق الذات ولا عين له في الأعيان كالحق تعالى.

ومن هذا المقام والمشهد من يشهد الحكم ويراها قبل أن يكون الحق فيها، وهو الذي يشاهدها في حال عدمها كما يشهدها الحق، وهو أعلى المدارك وأسناها وأشرفها.

قال الشيخ ﷺ الصديق الأكبر ﷺ أشار في قوله: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله إلى هذا التجلي: أي التجلي في لا شيء وما فيه أحد فيما وصل إلينا على هذا الوجه، وما يتكون منه في قلب المعتكف على شهوده إلا أبو بكر الصديق ﷺ.

=

=

ذكر الشيخ ﷺ في الباب السادس والتسعين وثلاثمائة من «الفتوحات»: وذلك لأنَّ الإدراك بهذا النمط للممكن ممكن.

وهو إدراك في حال عدمها فإذا جاء الأمر الإلهي بالتكوين لم يجد إلا وجود الحق فظهر فيه لنفسه، فرأى الحق قبل رؤية نفسه فلما ألبسه وجوده تعالى رأى نفسه عند ذلك، فقال: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله: أي قبل أن يتكون فيه فيقبل الحق صورة ذلك الشيء وهذا من مقام التجلي؛ لأنَّه رأى الحق قبل الكون فيرى صدور ذلك منه تعالى وتقدَّس.

(ومن هنا يقول الله): أي مِنْ أنَّه يعلم أنَّ الحق لا يعطيه إلا ما أعطَته عينه من العلم به؛ فإن الأعيان عالمه مفيدة معطية والأسماء مستفيدة، فالله تعالى العالِم أزلاً وأبدًا؛ لأنَّه تعالى عين الكل.

(حتى نعلم وهي كلمة محققة المعنى). كما ورد في الخبر: «إنَّه ينـــزل إلى سماء الدنيا ويقول هل من مستغفر». وهذا عين ما قررناه في هذا المقام، وكيف لا؟ ومِنْ أسمائه المؤمن ومِنْ معقوليته المؤمن؛ فإنَّه المصدق بالغيب أنْ يكون هناك غيب.

فنبَّه تعالى عليه في قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

وأيضًا ورد في الخبر حديث: «المؤمن فإنَّه المصدق بالغيب أنْ يكون هناك غيب مرآة المؤمن» رواه ابن أبي عاصم، والطبراني في الأوسط، والضياء المقدسي عن أنس ذكره في جمع الجوامع.

فالمؤمن الحق مرآة المؤمن الخلق فيرى فيها نفسه وذاته بحكم المرآة، وكذلك صفاته كالعلم في القديم قديم، وكذلك المؤمن الخلق فيرى فيها نفسه وذاته بحكم المرآة وكذلك صفاته كالعلم، فظهر من هنا حكم حتى نعلم، فافهم.

فإنَّ من أعجب العجاب في الوجود؛ أنْ يكون من أعطاك العلم بنفسه لا يعلم نفسه إلا بك؛ لأنَّ الممكنات أعطت العلم بأنفُسها الحق، ولا يعلم شيء منها نفسه إلا بالحق، فإنَّه يعلم بك كما تعلم به فهو حسبك، لأنَّه الغاية وأنت حسبه، لأنَّه ما تم بعده إلا أنت ومنك عملك وما بقي إلا الحال، وهو عين العدم المحض، فافهم.

(ما هي كما يتوهمه) أنَّه لو جعلنا حتى نعلم على ما به بصرافته، فيلزم الحدوث في العلم بحصول علمه بعد إنْ لم يكن، وذلك ذوق (من ليس له هذا المشرب) و لم يعلم صاحب هذا المشرب أنَّ العلم ولو كان إحدى الصفة ولكن من حيث هو هو.

فإنَّه نِسْبة من النِسَب الاعتباري، فلا معدوم ولا موجود ولا قديم ولا حادث، وأمَّا بحكم المتعلق فيحدث له أحكام، حتى يقول فيه أنَّه في القديم قديم، وفي الحادث حادث، كالوجود.

فلهذا قيل: إنَّ التعلق حادث وحدوث التعلق ما جاءه إلا من حدوث المتعلَّق؛ لأنَّه لو كان المتعلق قديمًا

=

قال تعالى: ﴿قَالُوا﴾ [طه:٩١].

أي: القوم مصرون على عبادة الهوى.

وقوله تعالى: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ [طه:٩١].

أي: لن نزال مقيمين على عبادته من حيث الطبع.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه:٩١].

علّقوا رجوعهم عن ذلك بالمحال الذي هو رجوع موسى من الطور، فإنهم كانوا على اعتقاد أن موسى قد مات في الطور؛ ولذا ارتدُّوا عن دينهم، وتغيروا عن حالهم.

ومن ذلك قول بعض الصحابة: تغيرت قلوبنا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا لم يُدفن بعد، ثم لمَّا دُفن وتقادم الزمان، رجع بعض الناس كفارًا، وهكذا الأطفال بلا آباء، والتلاميذ بلا أساتيذ، والمريدون بلا شيوخ قبل التربية.

فإنه لا رجوع بعد الوصول، كما قيل: لو وصلوا ما رجعوا: أي أن الرجوع إنما يكون عن الطريق لا عن المنـــزل.

وفيه إشارة إلى قوى الروح، فإنه كلَّما كانت آثاره باقية بين قومه، فهم بذلك أحياء القلب، وإذا اندرست خرجت القوى، وخرجت عن نظامها، وصاروا في صورة الأموات.

وفيه رمز أيضًا إلى أن حُبَّ الهوى إذا استحكم في القلب بَعد الحيرة عن القوى؛ كالميت إذا بلى وانفسخ؛ فإنه لا يرجع إلى حاله الأولى، بخلاف المريض فإن بقاء الروح سبب لعمارة البدن.

نسأل الله العصمة من الإصرار، والبقاء مع النفس، ونرجو منه الإنابة، والأدبة واستشمام روائح الأُنس، إنه المعطي على الدوام، ويُديم الفيض على الأنام.

=

فتعلق العلم به قديمًا فلا يكون صفة القدم للعلم إلا بقدم المتعلق كالعلم بالذاتيات والأسماء الإلهية وصفة الحدوث لها بحدوث تعلقه وحدوثه بحدوث المتعلّق، كما أنَّ في القدم قدم التعلُّق لقدم المتعلّق، فافهم.

في سورة الأنبياء

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩].

فورد على الفرض والتقدير، وذلك لا يقتضي الوقوع، كما نهى عن الشرك في قوله: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤].

وأوعد في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] بطريق الإلهاب والتهيُّج، وكذا غيره من المواضع؛ فكانت الآية نظير قوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

فإن إقامتها إنما تكون بالإيمان والتقوى، فمَن آمن؛ أكل من فوقه، ومَن اتقى؛ أكل من تحته؛ يعني: إن الفوق إشارة إلى السماء، ومحلّ الفيض، والتحت إشارة إلى الأرض، ومحلّ الكسب.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَـكِن كَذَّبُواْ﴾ [الأعراف:٩٦] بترك الإيمان والتقوى.

وقوله ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]: أي بسبب عملهم السيئ؛ وهو التكذيب، فكان سوء الحال ظاهرًا وباطنًا سببًا للأخذ والانتقام، ولا يحصل كل نفس إلا ما زرعت كما قيل: يداك أو فوك نُفخ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فإنه لا يحب الظلم والظالم، كما قال: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧، ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

هذه حكاية كلام يونس ﷺ؛ وهو في قعر البحر في بطن الحوت، فجعل كلامه معه تعالى من طريق الخطاب لا من طريق الغيبة؛ إذ لا غيبة بالنسبة إليه تعالى؛ فإنه هو المتجلّي في كل شيء بحسبه: أي بحسب ذلك الشيء لا بحسبه تعالى، فإنه تعالى لا يسعه شيء إلا بالاعتبار، وبعض الوجوه، فيونس إنما خاطب الله المتجلّي فيه

كما قال ﷺ: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»[١]؛ يعني أنه تجليه الأحدي سار في آدم عليه السلام، ومن ذريته المندمجة في ظهره الظاهرة على الترتيب إلى يوم القيامة، فلكل واحد منهم حصَّة من ذلك التجلِّي الأحدي بقدر استعداده، كما أن لكل بيتٍ من بيوت الناس حصَّة من نور الشمس بقدر روزنته.

فكما أن البيت قد يكون فاقد الروزنة، فيبقى مظلمًا محجوبًا عن نور الشمس؛ فكذا الإنسان إذا كان محجوبًا بالحجب الكونية، فاقد البصيرة؛ يبقى محرومًا عن وصول نور التجلِّي إليه بالفعل، فليس الكلام في النور الإلهي، فإنه لا بخل فيه، ولا إعراض؛ وإنما الكلام في المحلِّ، فلا بد من القابلية جدًا، فإذا حصل القابلية بالفعل؛ وجد القابل ربه تعالى عنده، فيخاطبه بحسب مقامه.

ومن هنا بان أن الله سريع الحساب يوم القيامة إذ لا يشغله شأن عن شأن، وهو مع كل عبد من عباده يُخاطبه، ويُقرر ذنوبه، ويُعامله معاملات أخرى، ومَن شاهد هذا المقام؛ لم يُشكل عليه فهم معنى قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ [البقرة:٢٥٥]، ونحو ذلك.

والحاصل أن خطاب يونس، وهو في تخوم الأرض؛ كخطاب نبينا ﷺ، وهو في المستوى، وذُروة العرش حيث قال: «**لا أُحصي ثناء عليك أنت؛ كما أثنيت على نفسك**»[٢].

فإذًا كل من المقامات العُلوية والسفلية؛ مقام الخطاب، والسماء على أنه لا سفل بالنسبة له إلى الله تعالى؛ ولذا شرَّع التسبيح والتكبير في انتقالات الصلاة؛ تقديسًا له تعالى عن التقيد بمرتبة من المراتب الكونية بحسب قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[آل عمران:٩٧].

فظهر من هذا التقرير: إن كلٌّ من الخطاب، والغيبة، والتكلُّم؛ نسبة من نسب الكلام معتبرة بحسب المقام.

---

(١) تقدم تخريجه بنحوه.

(٢) رواه مسلم (١/٣٥٢)، وأبو داود (١/٢٣٢).

فقد يقتضي المقام الغيبة كما في قوله تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ إشارة إلى مقام الهُويَّة الذاتية التي هي أول التعينات الإلهية، فكون هذا المقام غيبًا؛ إنما هو بالنسبة للعبد لا بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن الحقائق والأعيان كلّها مشهودة له تعالى أزلاً وأبدًا من غير تفرقة بين مرتبة العلم والعين إلا باعتبار.

وقد يقتضي المقام التكلُّم كما في قوله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ [طه:١٤]، كما سمع ذلك من شجرة موسى عليه السلام.

وقد يقتضي الخطاب كما في قصة يونس عليه السلام.

فإذًا كلٌّ من التكلُّم، والخطاب، والغيبة: كلام مطلق بحسب الحقيقة غير متعيِّن بنسبة من النسب إلا بحسب المقام.

فقول المنصور قُدِّس سرُّه[1]: أنا الحق؛ كقوله هو الحق، وأنت الحق؛ لكن أهل

---

(١) قال الشيخ يوسف بن الملا عبد الجليل الموصلي: واختلف قوم فيه كالاختلاف في المسيح عليه السلام فقيل: هو ولي الله، وقيل: هو ساحرٌ، والتمس حامد بن العباس الوزير من الخليفة المقتدر تسليمه إليه، فكان يخرجه في مجلسه ويستنطقه، فلا يظهر منه ما يخالف الشريعة، وحامد مجد في أمر ليقتله حسدًا وبغيًا وعدوانًا لأولياء الله تعالى، ثم أنه رأى له كتابًا حكي فيه أن الإنسان إذا أراد الحج و لم يمكنه أفرد من داره بيتًا نظيفًا من النجاسات، ولا يدخله أحد، وإذا حضر الحج طاف حوله، وفعل ما يفعله الحاج بمكة، ثم يجمع ثلاثين يتيمًا، ويعمل أجود طعام يمكنه، ويطعمهم في ذلك البيت ويكسوهم، ويعطي كل واحدٍ سبعة دراهم، فيكون كمن حج، فأمر الوزير بقراءة ذلك قدام القاضي أبي عمرو، فقال القاضي للحلاّج: من أين لك هذا؟ قال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري، و لم يعلم الحلاج ما دسّوه عليه، فقال القاضي له: كذبت يا حلال الدم، قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا، فطلب الوزير خط القاضي بقوله حلال الدم، فدافعه القاضي فلم يندفع، وألزمه فكتب بإباحة دمه، وكتب بعده من حضر المجلس من العلماء، فقال الحلاّج: ما يحل لكم دمي، وديني الإسلام، ومذهبي السنة، ولي فيها كتب موجودة، فالله الله في دمي، وأرسل الوزير الفتاوى بذلك إلى المقتدر، فأذن له بقتله، فضرب ألف سوط، ثم قُطعت يده ثم رجله، ثم قُتل، وأُحرق، ونُصب رأسه ببغداد.

قال الفاضل العمري: ولعمري أنها مظلمة مُظلمة، وقضية ظالمة، ارتكبها الوزير لهوى نفسه، وأظهر أنها حماية للشريعة المؤيدة.

=

التمكين اختاروا الثاني والثالث؛ لما ليس فيهما من الإيهام؛ إذ الناس يظنون بالله ظنَّ السوء، ويجمع الكل قوله: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [الصافات:٣٥]؛ فإن الله؛ هو الحق، وأنت الحق، وأنا الحق، فافهم كلام هذا الفقير حقًا.

***

=

وفي شرح الجوهرة للقاني: فمن تكلم في أئمة الدين، وهداة المسلمين من الرؤساء المجتهدين، لا يلتفت إليه ولا يعول في شيءٍ عليه، ومقت الله والسقوط من عينيه منجذب إليه، كما أنه لا التفات لمن رمي الجنيد وأصحابه من جملة الصوفية بالزندقة عند الخليفة جعفر المقتدر، حتى أمر بضرب أعناقهم، فأمسكوا إلا الجنيد، فإنه تستر بالفقه، وكان يفتي على مذهب شيخه أبي ثور، وبسط لهم النطع، فتقدم من آخرهم أبو الحسن النوري، فقال له الجلاد: لِمَ تقدمت؟ فقال: لأوثر أصحابي بحياة ساعة، فبهت السياف، وأفضى الخبر إلى الخليفة، فردَّدهم إلى القاضي، فسأل النوري عن مسائل فقهية فأجابه، ثم قال: وبعد.. فإن لله تعالى عبادًا إذا قاموا قاموا بالله، وإذا نطقوا نطقوا بالله... إلى آخر كلامه، فبكى القاضي وأرسل يقول للخليفة: إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم، فخلى سبيلهم، ثم قتل من الصوفية الحسين الحلاج في سنة تسع وثلاثمائة بما لم يتأمله مَنْ أمر بقتله انتهى.

وقال أيضًا: ورُوي أنه لما قُدِّم لتقطَّع يداه قُطعت اليد اليمنى أولاً، فضحك، ثم قُطعت اليسرى فضحك ضحكًا بليغًا، فخاف أن يصفرَّ وجهه من نزف الدم، فكبَّ بوجهه على الدم السائل، ولطَّخ وجهه بدمه. ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: يا مولاي، إني غريبٌ في عبادك، وذكرك أغرب منِّي، والغريبُ يألف الغريبَ.

وقال أيضًا: وفي مشكاة الأنوار للإمام الغزالي فصل طويل في حاله يعتذر فيه عمَّا صدر عنه مثل قوله: (أنا الحق.. وما في الجبة إلا الله)، وحملها على محامل حسنة، وقال: هذا من شدة الوجد مثل قول القائل: (أنا من أهوى ومن أهوى أنا).

وقال السيد الجليل الشيخ عبد القادر الجيلاني: عثر الحسين الحلاج فلم يكن في زمنه من يأخذه بيده، ولو كنت في زمنه لأخذت بيده. وانظر: الانتصار للأولياء (ص٣٩، ٥٨٤) بتحقيقنا.

في سورة المؤمنون

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩].

قوله: منزلاً مباركًا بضم الميم، وفتحها بمعنى: موضع إنزال، أو موضع نزول؛ وهو السفينة النوحية ههنا؛ لأن الخطاب لنوح عليه السلام، فكان السفينة منزلاً مباركًا له، ولمَن معه من المؤمنين حيث نجوا منها من الطوفان، كما أن البَر كان منزلاً غير مبارك لمَن عصاه من المشركين حيث أُغرقوا من فيه بالطوفان، وذلك لأن دخول السفينة كان بإذن الله تعالى؛ فكانت منزلاً مباركًا يستتبع نفعًا كثيرًا ظاهرًا وباطنًا، والإباء عن دخولها بإضلال الشيطان، وتسويل النفس؛ فكان عاقبته شرًا محضًا، وهلاكًا صرفًا.

فكما أن دخول السفينة كان خيرًا محضًا؛ لكونه امتثالاً لأمر الله تعالى، فكذا الخروج عنها بعد ما كان أمر الله مفعولاً؛ فكان الأرض أيضًا منزلاً مباركًا لهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ﴾ [هود:٤٤]؛ لأنها مع الماء المستوعَب لا يُنتفع بها.

والحاصل أن كلاً من السفينة والأرض؛ كان منزلاً مباركًا في وقته؛ لأنه كان فيه نوح المبارك، وما كان مستصحبًا للمبارك؛ كان مباركًا، فنعم المنزل ما سكن فيه الأخيار، ووضع فيه قدمه الأبرار.

ولمَّا كانت السورة مكية؛ كان من إشارتها أن يدعو نبينا ﷺ بهذا الدعاء لنزَّله الله المنزَل المبارك الذي هو المدينة المنورة؛ فكانت المدينة مباركة ببركة قدمه ﷺ، كما كانت مكة المكرمة مباركة بقدمه، وبأقدام سائر الأنبياء أيضًا عليهم السلام، فكلٌّ منهما منزَل مبارك لمَن أراد أن يكون في جوار الله تعالى، وجوار سيد المرسلين.

وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النزول إليها، وكذا البدن الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلّقًا به تعلُّق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنزل له، وإنما كان مباركًا؛ لأن الروح إنما يترقّى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمصاعد بإعانة البدن له

بمزاولة الأعمال الصالحة.

فكان للروح خير كثير من جهة البدن، كما أنه كان للبدن نفع، وفيه من جهة تأثيرات الروح، وبمن ثم كانت أبدان الكُمَّل محترمة مباركة طيبة؛ بل ما يتعلّق بها أيضًا من الألبسة بسبب الاتصال، فإذا كان للألبسة والأكيسة شرف زائد بسبب ذلك التعلُّق؛ فما ظنك بحال المتعلّق بهم تعلُّقًا حقيقيًا.

ولذلك كانت دوائرهم وبقاعهم من المنازل المباركة أيضًا، فمَن وفّقه الله تعالى للنـــزول فيها، والتردُّد إليها غُدوًّا ورواحًا؛ كان عبدًا مباركًا نافعًا للعالمين، فطوبى لَمن تشرَّف بهذا الشرف العظيم، وويلٌ لَمن وقع في الذُّلِّ والعذاب الأليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن الصراط المستقيم.

ومن المنازل العالية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنـــزل فيها، وله برزخية جميع الكمالات الإنسانية، ومَن دخله؛ كان آمنًا من برد الطبع، وحرِّ الشهوة، سالمًا من آفات الشكوك والظنون، متصفًا بالصفات الإبراهيمية، والمحمَّدية، وسائر الكُمَّل الندر.

قوله ﷺ: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣].

ثم إن الإلقاء من الله، ومن الملك، ومن الخضر، ومن المشايخ أمر واحد في المعنى؛ لأن الشيخ إذا كان خليفة الرسول في المعنى، والرسول خليفة الله في الحقيقة؛ فإلقاؤه عين إلقائه، ولا يلقى المحل إلا بقدره، اللّهم إلا أن يقال: إن نفخ خاتم الأولياء أقوى من نفخ المشايخ؛ لأنه ملك ملوك المشايخ؛ فهو أغنى منهم؛ كالسلطان فإنه أغنى من الوزير، وهو ممَن دونه، ولا شك أن الأخذ من الأغنى لاسيما إذا علّق ذلك به؛ كان أنفع، وقد يجتمع الإلقاءات، فيلقى الشيخ في بداية الأمر، ثم خاتم الأولياء في وسط الحال، ثم الروح المطهَّر النبوي في نهايته، ثم الله تعالى في نهاية النهايات.

وقد يتقدَّم إلقاء الله تعالى إذا كان المحل أقبل وأكمل استعدادًا، ويكون النفخ من طريق الفاتحة، ومن غيرها، وله صور مختلفة؛ لكن النفخ أقوى لقوله تعالى:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] [١]، فصورة النفخ أقوى من سائر الصور، وقد يكون بحيث يمصُّ السالك فم الشيخ، أو الخضر، أو النبي، أو يأكل السكر من يده، فذلك إشارة إلى كثرة الفيض، ولذّة المعرفة، وقوة الحقيقة، وهنا كلام آخر لا نذكره.

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١].

: أي كما يعلو الذكر على الأنثى؛ فيظهر بينهما التأثير؛ فيكون أحدهما فاعلاً، والآخر قابلاً؛ والقابل لا يكون إلهًا؛ لذلك قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]؛ فإن الأحدية ينافيها الازدواج؛ لتأدِّيته إلى التكثُّر، والصمدية ينافيها الاحتياج؛ لتأدِّيته إلى الذلّة المنافية للإلوهية[٢].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

في ذاته وصفاته وأفعاله نحو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فالإله ذات واحدة لا تُكثِّر أصلاً، وصفته الخاصة به هو: وجوب الوجود إذ ما عداه إنما نشأ منه، فليس له إلا الإمكان، وأمَّا الوجوب للغير؛ كوجوب الوجود للأرواح المهيمة فلا ينافي وجوب وجوده تعالى؛ لأن وجوداتها قائمة به تعالى؛ فهي

---

(١) قال سيدي علي وفا: اسمع: الروح الحكيم العليم هو وجه الملك المعبود، فله لا لغيره يجب السجود على جميع الجنود، قال هو سيدي ومولاي:

لسَـــاقِهِ القَـــيومِ مِـــن غَيْـــبِ ... تَهجّـــدُ الـــرَّاكِعُ والسَّـــاجِدُ

أَحَـــاطَ الكُـــلّ بِـــهِ وهُـــوَ فِـــي ... جَـــدٍ وإِلَـــيْهِ مَقْصـــدُ القَاصِـــدِ

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

(٢) قال سيدي محمد وفا في النفائس: الأحدية نعت الذات المطلقة، وهي التي لا تقبل الثنوية مطلقًا بوجه من الوجوه، «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان».

والوحدانية أصل الكثرة بالتجلّي، ومنشأ العدد بالفعل، والفرادنية هو تمييز الواحد الأول، بالمرتبة الخاصة المخصوصة بالنعوت الإلهيَّة الربَّانية والصمدانية، هو الذي لا منه شيء، ولا هو من شيء، ولا في شيء. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١: ٤]. فالأحدية نعتٌ لله، والوحدانية نعتٌ للرحمن.

وإن كانت أبدية لكنها ليست بأزلية، كما أن الأجسام ليست بأزلية ولا أبدية.

وأبدية أجسام الكُمَّل إنما هي من سريان بركات نفوسهم القدسية؛ فهي في حكم الأرواح، ثم إن قوله تعالى: لم يلد و لم يولد مرتبة فوق مراتب جميع التعينات؛ فإن الله تعالى: ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩] في مرتبة ذاته، ولمَّا كان لنبينا ﷺ مرتبتان: مرتبة التهييم؛ لأن العقل الكل من عدد الأرواح المهيمة.

وهذه المرتبة لا تقتضي الولادة، وإليها الإشارة بعائشة الصديقة رضي الله عنها؛ فإنها بمنـــزلة النفس المطمئنة القدسية الراضية المرضية الصافية للنبي ﷺ؛ ولذا كان حبُّه لها أشدَّ من حبِّ غيرها إذ لم تلد أصلاً، والحبُّ لذَّة روحانية، وإنما تصفو في حال الوصل التام الذي هو الفناء المطلق؛ وهو حال أبي يزيد البسطامي[1]،

(١) ذكره الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء وترجمه فأحسن، وقال: ومنهم التائه الوحيد القائم الفريد البسطامي أبو يزيد تاه فغاب، وهام فآب، غاب عن المحدود وآب إلى موجد المحسوسات والمعلومات، فارق الخلق ووافق فأيد بإخلاء السر وأمد باستيلاء الذي إشاراته فانية، وعباراته كامنة لعارفيها صائنة، ولمنكريها فاتنة.

اسمه طيفور بن عيسى بن شروشان وكان جده مجوسيًا فأسلم وكان سبب إسلامه على ما ذكره شيخ المشايخ أبو عبد الله محمد بن علي الداستاني البسطامي قدس الله روحه أنه كان يخالط شروشان ولد إبراهيم الذي ورد بسطام في أول الإسلام فلام إبراهيم ولده وأنكر عليه صحبة شروشان، وقال له: رجل مجوسي تصاحبه؟ فقال لوالده: هو رجل مرضي الخصال لا يرد السؤال عن السؤال سخي وفي وإنما أحبه لذلك، فقال له والده: قل له: إن أبي يجيئك ضيفًا، فأخبره فقال: نعم إن فعل فعلي الهدية والكرامة، فلما حضر إبراهيم وأحضر شروشان الطعام. قال له: لا آكله حتى تعطيني مرادي وتقضي حاجتي. قال: وما ذاك؟. قال: أن تسلم. قال: أفعل وكرامة، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده رسوله، فكان هذا سبب إسلامه. وقد كثر اسم طيفور في قبيلته وقومه في يومه وغير يومه، وفي الأجانب من كل جانب كانوا يسمون باسمه ويكنون بكنيته تبركًا واستسعادًا، ولكن هو ذلك الطيفور الذي هو نور على نور، ولا زال المشايخ المتقدمون في عصره يزورونه ويتبركون بدعائه وهو عندهم من أجل العباد والزهاد وأهل المعرفة بالله. قد فاق أهل عصره بالورع والاجتهاد ودوام الذكر لله تعالى حتى بال الدم من خشية الله تعالى.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلمي رحمه الله: مات أبو زيد عن ثلاث وسبعين سنة، وهو من قدماء مشايخ القوم له كلام حسن في المعاملات، ويحكى عنه في الشطح أشياء منهـــا مالاً يصح ويكون مقولاً عليه يرجع إلى أحوال سنية وفراسة حادة ورياضة لأصحابه حسنة. مات سنة إحدى وستين =

=

ومائتين، وقيل: أربع وثلاثين ومائتين.

ذكر معنى أقواله المشهورة عنه في الشطح: «سبحاني سبحاني ما أعظم شاني».

قال الشيخ أبو النصر السراج رحمه الله: وقد قصدت بسطام فسألت جماعة من أهل بيت أبي يزيد عن هذه الحكاية فأنكروا ذلك، وعلى تقدير صحة ذلك، فنقول: قوله سبحاني سبحاني على معنى الحكاية عن الله ﷻ أنه يقول: سبحاني سبحاني لأنا لو سمعنا رجل يقول:

لا إله إلا أنا فاعبدني، لا يختلج في قلوبنا شيء غير أنا نعلم أنه هو ذا يقرأ القرآن، أو هو يصف الله بما وصف به نفسه، وكذلك لو سمعنا دائما أبا يـزيد وغيره وهو يقول: سبحاني سبحاني، لم نشك أنه يسبح الله ويصفه بما وصف به نفسه.

وكذا قال: الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف: وما يحكى عن أبي يـزيد قوله: سبحاني حاشا لله أن يعتقد في أبي يـزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى.

قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله أنا الحق.

قيل لأبي القاسم الجنيد قدس الله روحه إن أبا يـزيد يسرف في الكلام، وقال: وما بلغكم عن إسرافه في كلامه؟ قيل يقول: «سبحاني سبحاني ما أعظم شأني». فقال الجنيد:

إن الرجل مستهلكٌ في شهود الإجلال، فنطق بما استهلكه لذهوله في الحق عن رؤيته إياه فلم يشهد إلا الحق تعالى فنعته، فنطق به ولم يكن من علم ما سواه ولا من التعبير عنه ضنًا من الحق به، ألم تسمعوا مجنـون بني عامـر لما سئل عـن اسم نفسه؟ فقال: ليلى، فنطق بنفسه ولم يكن من شهوده إيـاه فيه، وقيل لـه: من أنت؟. قال: أنا من ليلى ومن ليلى أنا.

وأما ما حُكي عنه قوله: «ضربت خيمتي بإزاء العرش» فإن صح عنه أنه قال ذلك فهذا غير مجهول أن الخلق كلهم والكون وجميع ما خلق الله تحـت العـرش، أو بإزاء العرش يعني: وجهت وجهي نحو ملك العرش، ولا يوجد في العالم موضع إلا وهو بإزاء العرش، فلا سبيل للمتعنت إلى هذا الطعن.

وأما ما حُكي عنه أنه قال: «خضت بحرًا وقف الأنبياء بساحله» فقد تكلم الناس على مقالته هذه بأشياء على قدر أذواقهم، ونذكر هنا ما قاله الشيخ الكبير أبو الحسن الشاذلي قدس الله روحه فإنه أقرب إلى أفهام الناس.

قال: إنما يشكو أبو يـزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام، ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى الخوض، أي: فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: وهذا الذي فسربه الشيخ كلام أبي يـزيد هو اللائق بمقام أبي يـزيد.

وقد قال: إن جميع ما أخذ الأولياء من ما أخذ الأنبياء كزق مُلئ عسلاً، ثم رشحت منه رشاحة فما في =

=

باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة هي للأولياء.

وقال: والمشهور عن أبي يـــزيد التعظيم لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب.

وحُكي عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته وقعد في المسجد ينتظره، فجاء ذلك الرجل وتنخم في حائط المسجد فرجع أبـــو يـــزيد و لم يجتمع بـــه، وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة كيف يؤمن على أسرار الله، وما جاء عن الأكابر أُولي الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يستنكر ظاهرها أوّلناها لهم لما علمناه من استقامتهم وحُسن طريقتهم، وقد قال ﷺ: «ولا تظنّنّ بكلمة برزت من امرئ مسلم سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملاً» انتهى كلامه قدَّس الله سرَّه العزيز.

وأما قوله في بعض كلامه: رفعني وأقامني بين يديه، يعني: أشهدني ذلك وأحضر قلبي لذلك؛ لأن الخلق بين يدي الله سبحانه لا يذهب عليه منهمَ نفس ولا خاطر ولكن يتفاضلون في حضورهم لذلك ومشاهدتهم له، ويتفاوتون في صفائهم عجب من كدورة ما يحجب بينهم وبين ذلك من الأشغال القاطعة والخواطر المانعة، والله تعالى أعلم. وأما قوله: قال لي وقلت له، فإنه يشير بذلك إلى مناجاة الأسرار وصفاء الذكر عند مشاهدة القلب لمراقبة الملك الجبار في آناء الليل والنهار.

واعلم أن العبد إذا تيقن بقرب سيده منه ويكون حاضر القلب مراقب الخواطر فكل خاطر يخطر خطر بقلبه كأن الحق سبحانه يخاطبه بذلك، وكل شيء يتفكره بسره فكأنه يخاطب الله به إذ الخواطر وحركات الأسرار، ما يقع في القلوب بدؤه من الله تعالى وانتهاؤه إلى الله.

فهذا على هذا المعنى، والله أعلم. وفيما ذكرته كفاية وهذا الباب واسع، وقد شرح الشيوخ ما نُسب إليه من الكلام المغلق على أفهام بعض الناس كسيد الطائفة الجنيد والشيخ أبي النصر السراج وغيرهما قدس الله أرواحهم.

قال الجنيد قدَّس الله روحه: الحكايات عن أبي يـــزيد مختلفة، والناقلون عنه فيما سمعوه متفرقون، وذلك لاختلاف الأوقات الجارية عليه بما فيها والاختلاف بالمواطن المتداولة بما خص منها فكل يحكي عنه ما ضبط من قوله، ويروي ما سمع من تفصيل مواطنه.

وقال الجنيد أيضًا: وكأن كلام أبي يـــزيد رحمة الله عليه بقوته وغوره وانتهاء معانيه مغترف من بحر قد انفرد به، وجعل ذلك البحر له وحده.

وقال الجنيد أيضًا: كل الخلق يركضون فإذا بلغوا ميدان أبي يزيد هملجوا.

وقال أبو الحسين: ولعمري لقد كان يبدو منه الشيء بعد الشيء على سبيل الغلبة لا يجوز أن يتخذها الإنسان دعوى يدعيها. وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت علي بن بندار، يقول سمعت أبا بكر بن محمود يقول: بلغني أن أبا حفص قدم على أبي يزيد، فقال له: يا أبا يـــزيد: يبلغنا عنك في كل وقت أشياء منكرة، فقال: إنما يخرج الكلام مني على حسب وقتي، ويأخذه كل

=

ونظرائه -قَدَس الله أسرارهم.

والمرتبة الثانية: مرتبة التفضيل؛ وهي عبوره ﷺ من مرتبة التهييم، وتولده بالنكاحات المعنوية من الآباء العلوية، والأمهات القدسية إلى أن ظهر في صورة تعيُّنه الخاص؛ ليكون مظهرًا لسرِّ تولُّد الأسماء والصفات.

فهذه المرتبة تقتضي الولادة؛ وإليها الإشارة بخديجة الكبرى -رضي الله عنها- فإنها كالنفس الكلية للعقل الأول، ولذا ولدت فاطمة رضي الله عنها؛ فتسلسلت سلسلة النبوة منها إلى آخر الزمان؛ وهو زمان المهدي المنتظر ﷺ؛ فإنه من سلسلة فاطمة رضي الله عنها، وختم الولاية الخاصة المحمَّدية.

وبتلك المرتبة، وظهوره ﷺ فيها؛ كان قطب الأقطاب؛ كالوزير الخارج من حرم السلطان بمرتبة الوزارة؛ فعلم منه أن ندماء السلطان بمنـــزلة الأرواح المهيمة، وأن وزير المتفضِّل منهم بمرتبة الوزارة، بمنـــزلة العقل الأول.

فالوزير، وكذا العقل الأول، وقطب الأقطاب كلهم من [أهل الاختصاص] أولاً لكن بعد التقلُّد بمرتبة الوزارة، ومرتبة التفضيل، ومرتبة القطبية؛ ليس لهم حكم عليهم إذ ليسوا من أهل الأمر والنهي؛ لأنهم مستغرقون في مطالعة جمال السلطان، فالأمر والنهي يشغلانهم عن مراتبهم، وحِماهم عليه من الشهود المحض، فلهم المكانة العظمى، والمرتبة المثلى؛ لكنهم عقيم عن توليد الحقائق من تأثيرات الأسماء الحسنى.

والصفات العليا للوزير، والعقل الأول من حيث مروره على المراتب، والأطوار، ولقطب الأقطاب فضيلة تامة ورتبة عامة بهم ينتفع الأسماء، والصفات، ومظهر الذات، وتجليَّات مختلفة، فهم أهل الترقِّي في صورة التنـــزُّل، كما أن مَن عداهم على الكِلْس، ومعنى تنـــزُّلهم الابتلاء فافهم.

=

بحسب وقته ثم ينسبه إليَّ، والله أعلم.

وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (١٠/٣٣، ٤٠)، الرسالة القشيرية (١٧)، طبقات السلمي (٨)، ميزان الاعتدال (١/٤٨١)، الكواكب الدرية (١/٢٤)، مرآة الجنان (٢/١٧٣)، نفحات الأنس (٥٦)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/٨٩)، طبقات الأولياء (١٠٨)، جامع كرامات الأولياء (٢/٤٠)، نتائج الأفكار القدسية (١/١٠٤)، رشحات عين الحياة (١٤)، وروضة الحبور في مناقب الجنيد البغدادي وأبي يزيد طيفور لابن الأطعاني (ص١٨) بتحقيقنا.

في سورة الفرقان

قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٤]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩].

اعلم أن الإنسان: إمَّا إنسان حقيقي، وهو الذي لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها، فمتعلق فقههم هو العلم الإلهي، ومتعلق أبصارهم آثار الله، ومتعلق أسماعهم كلام الله، سواء كان بطريق الخطاب الغيبي، أو بطريق الخطاب البشري، أو بطريق غيرهما.

وإمَّا إنساني: وهو بعكس مَن ذُكر، وإنما قيل له: إنسان حيواني؛ لأنه إنسان من حيث حيوان من حيث السيرة؛ ولذا شُبه بالأنعام؛ لأن الأنعام لا تتجاوز الحس، والملك إلى عالم المعنى والملكوت.

فالإنسان الحيواني: ليس له روح إنساني، وقلب، وسمع، وبصر بحكم غلبة الحيوانية، فمَن قال: إن الروح الإنساني مشترك فيه دون القلب ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:٧]، فهو ذهل عن الآية المذكورة، وفرَّق بين القلَب والرَوح؛ بل القلب، والعقل، والروح جوهر واحد في الحقيقة.

وإنما الاختلاف بحسب الاعتبارات، فالقلب محل الشهود، والعقل محل الإدراك، والروح محل المعرفة، فإذا كان الإنسان خاليًا عن الشهود، والإدراك الحقيقي، والمعرفة الإلهية كان حيوانًا حكمًا، وإن كان إنسانًا صورة بحكم المرتبة، فالاعتبار ليس بالمرتبة؛ بل بحقائقها، وأحكامها الظاهرة بالفعل، فاعرف جدًّا [١].

---

(١) **فائدة**: قال سيدي محمد وفا: الرحمن رئيس عالم القدرة، ومفيض عقوله الإلهيَّة، المتَّصفة بالصفات الربَّانية، وهي حقائق قادرة على التجلِّي والتأثير، وهي ألسنةٌ تكوّن كل كونٍ في عالم الإمكان، إلا الإنسان فإنه كلمة الرحمن، ورئيس عالم الأكوان، وله سجد الساجدون، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض أجمعين، خلق الله آدم على مثل صورة الرحمن، وكلمة الرحمن انتجت في عالم الإمكان الإنسان، وهي كن، وكلمة الإنسان تنتج في عالم الإيجاب، الرحمن وهو لا إله إلا الله، والله حقيقة كل حقٍّ، ونور كل أمر، وخلق لا فيه غيره، ولا معه سواه، الأبد والأزل في حقه سواء، ولله الأسماء الحسنى والصفات العُليا، يستتر ويتجلى، يظهر كيف شاء ويخفى، ويتنـــزل ويترقَّى من العرض الأدنى إلى العرض الأقصى، قال تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠].

في سورة الشعراء

قال الله سبحانه: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾ [الشعراء:٦١].

أي: بنو إسرائيل ذلك حين وصلوا إلى بحر القُلْزُم[١] وهو الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١] بفتح الراء على المفعول، يعني: أدركنا فرعون وقومه، وذلك من ضعف اليقين.

ولو قال: إِنَّا لَمُدْرِكُونَ بكسرها على الفاعل، يعني: واصلون إلى المراد يومئذ، وهو النجاة لأصابوا، وجعل ذلك من كمال رشدهم، وتمام معرفتهم، وذلك لأن البحر نار كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦].

والنار لا تحرق الأحباب؛ بل الأعداء؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح:٢٥]، وقال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦].

ومن ثَّم كانوا يعيشون على هياكل طير سُود داخل البحر، وتخرج بالغُدو والعَشي، وهذا بخلاف أصحاب محمد ﷺ كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

فانظر كم من فرَّق بين القومين، وقد أشار موسى أيضًا إلى ضعف قومه في اليقين حيث قال: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، فإنه لم يقل: إن معنا ربنا سيهدينا، فقطعهم عن الشركة، وأفرد نفسه بالذكر؛ لأن مكاشفة سرِّ المعية؛ إنما كانت له لا لقومه، فلم يستحقوا النصرة والهداية إلا بمتابعة موسى، فإنه منصور البتَّة بالوعد الإلهي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر:٥١].

وموسى رسول صاحب كتاب؛ بل من أُولي العزم، ولكون قومه نازلين في الاعتقاد واليقين؛ زجرهم بقوله: (كلا) يعني: إنكم من أهل البداية؛ لأن ذلك كان أول ما صحبوا موسى، ولا شك أن أهل البداية أهل التلوين، ولن يخلص كمال اليقين إلا لَمن زال عن وجه قلبه الهيئات الظلمانية؛ بل النورانية أيضًا.

---

(١) انظر: لسان العرب (٤٩٢/١٢).

ولذا قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢].

وهو ما تقدَّم على فتح كعبة القلب من الهيئات التلوينية الظلمانية، وما تأخَّر عنه من الهيئات التلوينية النورانية، فإن نور التمكين يسترهما جميعًا.

ولذا كان لا ينتقض وضوؤه بالمنام؛ لصفوة مرآته، وقوة حضوره مع نور الأنوار الذي لا ظلمة معه أبدًا، ولا تلوين اللّهم إلا أن يكون التلوين الممدوح الذي هو الحيرة الحاصلة من أنواع التجليَّات.

وفي هذا المقام سرُّ قوله: ما بينكما ما بين كلاميكما؛ فإن موسى قدَّم نفسه حيث قال: (إن معي).

ومحمد ﷺ قال: ﴿اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] فكما قدَّم الجلالة؛ عمَّم المعية، وذلك لخروجه عن نفسه بالكلية، كما دلَّ عليه قوله يوم القيامة: «**أمتي أمتي**»[(١)]، حين يقول الأنبياء عن آخرهم: نفسي نفسي، وقال موسى: (**سَيَهْدِينِ**) فخص الهداية بنفسه.

وقال نبينا ﷺ: «**اللّهم اهدِ قومي**»[(٢)]؛ لأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين، فنجَّى أمته من المهالك، وقد أخذت قوم موسى الصاعقة ونحوها، فأين هم من هذه الأمة المرحومة؟ وقال موسى: (ربي).

والاسم الرب قد يستدعي القهر والجلال بخلاف الجلالة في المقالة النبوية؛ لأن الله تعالى خصَّصها في البسملة، فقال عقبها: الرحمن الرحيم تصريحًا للرحمة التي تضمنها الجلالة[(٣)] فكأنه قال: إنك إذا ذكرت الله تعالى؛ فقد ذكرت الرحمن العام

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٧٢٧)، ومسلم (١/١٨٥).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٣/٤٣٢)، والطبري في تفسيره (٢٢/١٦١).

(٣) فنقول في (الجلالة) أي: لفظ الله؛ لأنه مسمّى بها عند الطائفة، يراد بها عندهم إمَّا الذات المطلقة المجردة عن جميع النِّسب والاعتبارات حتى عن قيد الإطلاق والتجريد، أو المرتبة الإلهية أي: أحدية جمع الأسماء الفعليَّة الوجوبيَّة، أو أحدية جمع جميع الأسماء الفعليَّة والانفعاليَّة والوجودية والإمكانية، كذا قاله الجامي في: «شرح الفصوص» رحمه الله.

وهو على ما قاله الشيخ محيي الدين ابن العربي قُدِّس سرَّه: «بمنـــزلة الذات للأسماء، ففيه يندرج كلُّ =

رحمته في الدنيا، والرحيم الخاص رحمته في الآخرة.

=

اسم، ومنه يخرج وإليه يعرج، وهو عند المحقّقين للتعلق لا للتخلق، بل هو دليل الذات فقط، وله ظهور فيما ليس للذات التجلّي فيها من المراتب الكثيرة، فالجلالة تعطي من المعاني المحتوية عليها ما يعطي ذلك الاسم الخاص من الأسماء به، فتكون نائبًا عن ذلك الاسم، وفيه يكون شرفه فالمذنب إذا قال: يا الله اغفر لي، فإن وقعت الإجابة فلا يجيبهم إلا الاسم الغفار، والجلالة هنا نائبة منابه، وله شرف في هذا المقام لقيامها لهيمنتها على جميع الأسماء مقامة وهي محتوية على أربعة ظاهرة في الرقم (ألف) الأولية، و(لام) يد الغيب المدغمة، و(لام) يد الشهادة المنطوق بها و(هاء) الُهوية، وعلى خمسة ظاهرة في اللفظ».

وحَكَمَ الشيخ بعدم ظهور اللام الأولى في اللفظ، وحَكَم بوجود حروف أخرى فيها ليست بظاهرة لا في اللفظ ولا في الرقم، وهي(واو) (هو)و (واو) (الهوية) إذا الهاء تدل عليهما، فالواو مدلول عليها، وبالجملة فحروفها من كلّ التقادير لا تزيد على ستة وهي هذه (أ ل ل أ ه)، فالألف الأولى إمَّا ألف الأولية، أو ألف القدرة، أو الأحادية المقتضية للانعدام، والألف الثانية في اللفظ دون الخط إشارة إلى الكمال الذاتي، فبثبوتها لفظ تدلُّ على تحقق وجود نفس الكمال في ذاته تعالى، وبسقوطها خطًا تدل على عدم نهاية الكمال؛ إذ المسقط لا يدرك فذلك الغير المتناهي، أو تدل على الذات البحت الذي كان فيه العماء ليس فوقه (هوا) ولا تحته (هوا) من غير اعتبار شيء فيه حتى الأحادية، واللامين إشارة الجلال والجمال المقدم إلى الجلال؛ لأنه أسبق إلى الذات من الجمال لعزَّته المتقدمة والمؤخر إلى الجمال المطلق الساري في المظاهر أو (اللام) الأولى للمعرفة؛ لأن (الألف) لكان الله ولا شيء معه، و(اللام) الثانية لام الملك، فإنه لو زالت صورة الألف واللام الرقمية يبقى له، و(الهاء) كناية عن غيب الذات المطلقة باعتبار أن (الهاء) أول الحروف ولها المبدأ وهو غيب في الإنسان وأقصى الغيب، أو أنه كناية عن صفة الباطن، وحتى يكون الألف كناية عن صفة الظاهر، فإن الأول للإضمار، والثاني للإظهار.

وقال الشيخ الجيلي قدس سره: استدارة رأس الهاء إشارة إلى دوران رحا الوجود الخفي والخلقي على الإنسان الكامل، فإن في عالم المثال كالدائرة فإن شئت قلت: هي خلق وجوفها حق أو بالعكس أو قلت: بأن الأمر فيه مبهم دوري بين أنه خلق فله العبودية والعجز والافتقار، وبين أنه على صورة الرحمن فله العز والكمال، فهي الحقيقة البرزخية التي هي للكُمَّل والجمع مع الفرق، ويجوز أن يُقال أن اللامين تدلان على النعمتين المتحركة على الظاهرة والساكنة على الباطنة؛ لأنهما متفقتان في الجنسية كاللامين. وانظر: شرح الحكم الأكبرية للبابي (ص٣١) بتحقيقنا.

ومن ثم سمَّى أمته الأمة المرحومة.

وهكذا شأنه ﷺ مع شأن الأنبياء في غير هذا الموضع، وكذا شأن أمته مع أممهم؛ ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، والله يختصُّ برحمته مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم؛ ولذا قال ﷻ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] فافهم جدًا.

***

obeikandl.com

في سورة النمل

قال الله سبحانه: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل:٥٧].

اعلم أن الله سبحانه قدَّر الدنيا: أي قضى حصولها ووقوعها، وعلَّق ذلك بوقت معين، فخلقها قبل الآخرة باللعنة متطاولة، وسمَّاها دنيا؛ لدنوِّها وقربها، وسمَّى الآخرة آخرة؛ لتأخُّرها عن الدنيا، ولم يعكس؛ لأن الآخرة محمرة الابتلاء والتكليف، فاقتضت الحكمة تقديم دار الابتلاء عليها؛ لتكون من الهالكين، وتأخير دار الثواب؛ لتكون من الخالدين.

فحصل لنا من هذا ان كلاً من الهالك والناجي كثير؛ لكن الهالك؛ إنما هو الصورة؛ كصورة السماوات السبع، والأرضين السبع، وصورة الإنسان الناقص بعد الموت، وصور سائر الأشياء التي لا تُحصى.

وأمَّا الناجي: فهو الصورة والمعنى جميعًا؛ نحو الكرسي، والجنة ونعيمها وأهلها، والعرش، والأرواح، والقلوب، وصور الكُمَّل بعد الموت، ونحو ذلك من مواد الأشياء، فإن الهالك صورة ناجٍ مادة ومعنى؛ لأن الوجود لا يُفنى بالكلية، وإلا كان التحلِّي به عبثًا، كما أن المقطعات والمتشابهات ليست بمجهولة رأسًا، وإلا ما أنزل الله بها.

فقوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل:٥٧].

المراة التي هي صورة الدنيا إجمالاً، كما أن آدم إجمال العالم؛ لكن لمَّا كانت الشهوات والزين من الأمور السالفة الدنيَّة؛ قيل للمرأة: صورة الدنيا بإضافة الصورة إلى الدنيا، ولمَّا كانت المعالم والشواهد من الأمور العالية الشريفة؛ قيل أن آدم صورة العالم؛ لأن أصل العالم علم، ثم أدخل ألف الإشباع؛ وهو علم لوجود الله تعالى على أن العالم أعم من الدنيا؛ لأن الدنيا؛ إنما هي عالم الكون والفساد الذي مبدؤه مقعر السماء السابعة، ومنتهاه نهاية الأرضين.

وأمَّا العالم: فيشمل الأجسام كلها التي حواها العرش؛ بل الأرواح المهيمة؛ لأنها أول علامة على وجود الله تعالى ووحدته وقدرته وإرادته؛ لكونها أول المبدعات، ففي التعبير بالعالم من الشريف والتعميم ما ليس في التعبير بالدنيا،

وجُعلت المرأة من أحسن الأشياء صورة؛ بل نفس الدنيا؛ لأنها بزينتها شابهت الدنيا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف:٧].

فجعل ما على الأرض زينة لنفس الأرض؛ لكن لمّا خلق الأرض لمنافع الإنسان وابتلائه؛ كان ما على الأرض زينة للإنسان أيضًا، ولكون الزين ومتاع الدنيا مما لا ينبغي لأهل الآخرة وأهل الله التلبُّس بها قال تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه:١٣١]، وقال تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف:٣٥].

وأن كل ذلك لِما متاع الحياة الدنيا، وإنما قلنا: إن المرأة من أحسن الأشياء في الصورة؛ لأنها من أشرف الأشياء في المعنى، ولها العزَّة والقوة التي ليست في الرجال، وبها يغلبنَّ عليهم، فدرجة الأنوثة أقوى في المعنى؛ لأن الرجال يطلبون الإناث بدون العكس، والمطلوب أعزُّ وأقوى من الطالب، والملائكة المخلوقة من أنفاسهن أقوى من الملائكة المخلوقة من أنفاس الرجال.

فانظر إلى أن الانفعال قد يكون فعلاً في المعنى وبالعكس، أو أن الانفعال من وجه لا ينافي الفعل من وجه، وكذا الفعل، ولولا سر الأنوثة في العالم لِما نشأ شيء من المواليد، والله الفعَّال لِما يريد، والمؤثِّر في العتيق الجديد.

* * *

في سورة القصص

قوله ﷻ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ [القصص: ٤٠].

وهي النفس الحيوانية، وبقرة الطبع، وذلك بالرياضة والمجاهدة التي هي أشدُّ من السيف الماضي الصارم.

والتنكير: يُشير إلى التهويل، فإن حقيقة النفس لا يعرفها كل أحد، ولا يقطع عرقها كل مجتهد؛ فهي أشدُّ من الثُّعبان، ونسأل الله العفو على قتلها.

قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [القصص: ٤٠].

: أي من غمِّ حياة النفس؛ فإن حياتها باعث الغموم، وسبب الهموم إذ ما من تنـــزُّل وسقوط إلا وببطشها يحصل، وما من تلوين واضطراب إلا وبتسويلها يتمكَّن، فما دامت النفس حية؛ فهي حية تسعى، ولا يُؤمن شرها.

وقوله ﷻ: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [القصص: ٤٠].

أي: قبل هذا؛ لأن باحتمال الشدائد، يحصل النجاة، وبمقامات المحن؛ يوجد المنحة، ويمكن أن يحمل الفتون والاختيار على ما بعد نجاة القلب من أثر النفس والقالب، وذلك لأن النبوة، وكذا الولاية التي تقتضي البقاء؛ تقتضي التبليغ الذي لا يخلو من معالجة الناس ومعاملتهم؛ وهم هم في الركون إلى الشهوات، والميل إلى الأمور الطبيعية، والمعارضة بالمخالفات النفسانية، وذلك من حكم الاسم الظاهر، وإن صفا الباطن، وزال الكدورة عن مرآة القلب.

والحاصل: إن الأسماء الجلالية لا ترتفع أبدًا، كالنار، فالقالب في النار، والخليل سالم، فعليك بهذه المرتبة حتى تكون أكمل الناس وأسعدهم، وعلى كل حال، فالمحقق يأكل السُّم، والحنظل، والعارف يأكل الحلوى.

وقد فسَّره ابن عباس -رضي الله عنهما- بقوله: وطحنَّاك طحنًا، كان الإنسان الكامل كحبة القمح لا يزال يُطحن تحت حجارة القهر والجلال، وذلك من أحكام هذا الموطن.

وأمَّا موطن الآخرة: فليس هنا للأكامل إلا اللطف، والجمال قالبًا وقلبًا، ظاهرًا وباطنًا، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠] فلا خلف فيه أبدًا.

قال الله سبحانه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ [القصص:٦١].

الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة.

والوعد الأحسن هو الوعد بالرؤية.

والموعود له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقيه يوم القيامة؛ لأنها جنة غير معجَّلة، والموعود له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقيه في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا الوعد مطلقًا مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقرَّبين، فلا يتخطَّى أحدهم حدَّ الآخر بحكم اسم العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة.

فإن الأبرار، وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة، كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم أصلاً، كما دلَّ عليه قوله: «وصنف لا يتستر الرب عنهم، وذلك من نتائج شهودهم في الدنيا بالبصيرة».

وقوله ﷻ: ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٦١]؛ هو كفار الرسوم، وكفار الحقائق.

أمَّا الأول: فبمقابلة المؤمن الرسمي فلا وعد له أصلاً بل له وعيد هو النار الحسِّية.

وأمَّا الثاني: فبمقابلة المؤمن الحقيقي، فليس له الوعد الأحسن بل له وعيد هو النار المعنوية وهي نار البعد والقطيعة.

فإن المحجوب في الدنيا محجوب في الآخرة؛ إذ الكمال الأخروي تابع للكمال الدنيوي، وكفار الحقائق أشدُّ من كفار الشرائع؛ لأن عذابهم في الروح، وعذاب كفار الشرائع في الجسد.

والروح أشدُّ تأثُّرًا بالنسبة إلى الجسد؛ لكمال لطافته؛ ولذا اشتدَّ الموت على الصبيان ونحوهم، وإنما لم يقل: كمن وعدناه وعدًا قبيحًا أو أقبح؛ لأن فعل الله تعالى

لا يُوصف بالقبح، والشر لا يُنسب إليه قطعًا، كما ورد في الحديث.

والمراد بقوله ﷻ: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٦١]؛ هو ما يتمتع به الروح الحيواني، حياته حياة دنيَّة، ولا شرف للإنسان إلا بالروح الإنساني؛ لأنه هو المنفوخ فيه من قِبل الله تعالى، وبه حصلت التجليَّات لأبي البشر، وأولاده الكُمَّل؛ وهو أهل الإيمان والطاعة.

وأمَّا الروح الحيواني فهو مبدأ الحس والحركة والإيمان، ولا طاعة له إلا بتبعية الروح الإنساني، فمن الإيمان له، ولا طاعة؛ فهو نازل منـــزلة الحيوانات؛ بل كان أنزل منها من حيث إنه أمر بهما فعصى، ولا عصيان للحيوانات؛ بل تسبيح ذاتي؛ كالجمادات لها حياة حقيقية، وإن لم يكن لها حياة حسِّية، فالميت حي عند أهل الحقائق، جماد عن أهل الرسوم[1].

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ في الشعائر: اعلم وفَّقك الله أن العوالم الثلاث: وهو عالم العقل وبما فيه من أسرارٍ ذاتية، لاهوتية وصفات قدوسية واجبية، ومعان نورانية، هي أقوية التفرد والتحكمات. وموضع إبداء الأسرار والصفات بالتجليات.

كان هذا عالم الجبروت، مفارقًا لما سواه بذاته وصفاته وإياه، وبما تنـــزَّه عن الزمان والمكان، والأين والمثل والكيف، والإطعام والأذواق، والألوان، وكانت النفس الناطقة وهي العالم القريب بالتجريد من صفاته المحققة بالتوحيد، هي عرشه وفرشه، وحضرته وقدسه، وهي عالم الملائكة العظام، والحجب المقدسة الكرام، ثم إن عالم الكون والفساد والطباع الأربعة الأكوان، وبما انحصروا في القوة الحيوان، ولذلك كان النتاج من حيث هذه الروح الحيوانية عن الكل بالجزء، تبرز نوادرًا من القوة للفعل، ثم تتطور وتنتقل من الاستعداد المعدني، ثم استعداد النبات، ثم استعداد الحيوان، ثم تـــتـــنـــزل الروح من العالم المشترك البرزخي، الذي هو الفصل بين العالمين، والوصل بين المتباعدين، عالم الروح الأمين بالاستعدادات الإنسانية إلى الكُمَّل من الأشخاص الحيوانية، وبما نزفت الممكنات الكونيات بتـــنـــزل الواجبيات الآمريات، حكمةً كحكمة، وسنةً كسنة.

واعلم أنه ما خلف حجاب هذه الأكوان الحيوان غير عالم الجان، ونهايتها الإنسان، كما أن غاية الإنسان الرحمن، وما بين الإنسان والرحمن إلا الملائكة المقرَّبون، والأرواح القدسيون المكرمون، وما نزفت من الأرواح الحيوانية تكون بالملائكية، وإن عكست انتقلت إلى الشيطانية، ومهما نزفت من الإنسانية إلى الملائكية فإلى النبوية، فإن أحجمت وقفت مع الملائكية، وإن نفدت فإلى الحضرات الرحمانية.

=

قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص:٦١].

أمَّا كفار الشرائع: فإحضارهم للعذاب الجسماني والروحاني جميعًا، فإنهم أضاعوا الروح الحيواني والإنساني جميعًا، فلهم في مقابلة كل منهما عذاب مخصوص.

وأمَّا كفار الحقائق: فإحضارهم للعذاب الروحاني فقط؛ لأنهم إنما أضاعوا الروح الإنساني من حيث إنهم لم يبلغوا به إلى كماله اللائق؛ فوقعوا في نار الحسرة، وإن نجوا من النار الحسِّية باستعمالهم الأعضاء، والقوى الحسية في الأعمال الصالحة المبنية على الإيمان في الجملة؛ وهو الإيمان الرسمي.

وإنما قُيِّد بيوم القيامة مع أنهم من المحضرين الآن؛ لأن كثافة نفوسهم منعتهم من إدراك العذاب في الحال، كما دلَّ عليه قوله: «**الناس نيام فإذا ماتوا استيقظوا**»[1]؛ فتيقُّظ الموت الاضطراري الطبيعي في الآخرة، وتيقُّظ الموت الاختياري السلوكي في الدنيا، فمَن تيقَّظ في الدنيا؛ أُلهم فجور نفسه وتقواها، ومَن تيقَّظ في الآخرة؛ علم الحال عندما لم ينفعه علمه، أيقظنا الله، وإياكم أجمعين.

***

=

هذا فيما يُعطى الترقي والتلقي مع الجاذب الملكي، والدليل النبوي.

وأما فيما تُعطى التنـــزلات الربَّانية بالبطانات السريانية، فتخصيصٌ لا يُعقل سره ولا يُدرك كنهه.

واعلم أن الاسم الذات المتَّصف بجميع الصفات بالذات يتجلَّى على أسماء الصفات الذات الوجودية، فيستغرقها في الذات، فإذا صارت ذوات وكلمات تامات تجلَّت على ما يليها من أسماء الأفعال، فرقتها إلى مقاماتها التي عنها انتقلت، فإذا كانت الأفعال صفات للذات نقلت المفعولات بالتجليات إلى مقام الأفعال، ثم يبرز الحيوان من أفلاكه الأربعة الطباع لإحكام الترتيب للأوضاع، والأمر كذلك ولا نهاية لذلك، أسرارٌ تـــتنـــزل بالإلهية إلى الحيوانية، وتترقَّى بالروحانية إلى الرحمانية، وما بين هذا التنـــزل والترقِّي فقعرات سجينيات أرضيات، ودرجات رضوانيات سماويات، وحضرات وغير حضرات، وعوالم مفترقات، فسبحان من لا يُدرك كنهه، ولا يُبلغ شأوه، ولا ينفد أمره.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٥٢/٧)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٥٢٥/٢).

في سورة الروم

قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٥٠].

اعلم أن وجه الإنسان عند مسِّ الهمِّ، ووقت الغمِّ؛ كوجه الأرض في الشتاء حيث إن كلاًّ منهم يتغيَّر عن حاله؛ وهو موته، ثم يحييه الله برحمته التي هي المطر بالنسبة إلى الأرض، والسرور بالنسبة إلى القلب، وأثر تلك الرحمة؛ الخضرة في وجه الأرض، والانبساط في البشرة، فقد أشارت الآية بأن ذلك الموت ليس بمستمر؛ بل يتعقَّبه الحياة على ما يقتضيه الأسماء الإلهية الحاكمة على هذا العالم، المدبِّرة في الأنفس، والآفاق المؤثِّرة في الظاهر والباطن.

ولَّما كان ذلك موقوفًا على النظر الصحيح؛ قال: فانظروا، ونظير ذلك الليل والنهار والنوم واليقظة، والسحابة على وجه الشمس، والانكساف والكدورة للماء وصفوته، ثم الموت والحياة المذكوران، وإن كانا مجازيين عند أرباب الظاهر؛ لكنهما حقيقتان عند أهل الباطن.

فإن للأرض روحًا نباتيًا، كما أن للإنسان روحًا حيوانيًا بل للإنسان روح نباتي أيضًا به يشتهي الأكل والشرب، وبه تربيته في بدنه لا بالروح الحيواني، وإن كان الروح الحيواني مبدأ الحسِّ الحركة.

فالفرق بين الأرض والإنسان: أن للأرض روحًا نباتيًا وروحًا [جماديًا].

فالأول: يدركه العامة.

والثاني: يدركه الخاصة.

وإن للإنسان روحًا نباتيًا وروحًا حيوانيًا بالفعل، وروحًا حقانيًا بعد مفارقة الروح الإنساني، فالميت جماد في الصورة حتى في المعنى بالحياة الحقانية، فإذًا لا موت للعالم بالكلية وإنما هو باعتبار.

ومن ذلك يعرف أن المحجوب يحمل كلام الجمادات، وتسبيحه على معنى الدلالة.

وأمَّا المكاشف فعلى الحقيقة؛ لأن المحجوب لا يسمع تسبيح الأشياء مطلقًا؛

فالحياة عنده إنما هي في ذي الروح فقط، وأمَّا المكاشف فيسمع ذلك، فالحياة عنده ليست بمقصورة على ما في ذي الروح؛ بل هي سارية لجميع أجزاء العالم من عالية وسافله.

فهو تعالى يُحيي الأرض بالحياة اللائقة بها؛ وهي حياة حقيقية، وكذلك يُحيى سائر الأشياء بما يناسب كلاًّ منها، وهذه هي الحياة في هذا العالم.

وكذلك الحياة في البرزخ، فإن للميت هناك حياة لائقة به مع سمع وإبصار وكلام كل ذلك بحسب المقام البرزخي، وسينكشف لك الأمر بعد الانتقال بالموت[1]، وليتك كنت من قوم قيل فيهم: (المؤمنون لا يموتون؛ بل يُنقلون من دار إلى دار) فإنه أفاد أن المؤمن الكامل، وهو الحي بحياة الإيمان والعرفان كالمنتقل من دار إلى دار في هذه النشأة، فكما أن انتقاله ذلك لا ينافي حياته؛ فكذا انتقاله بالموت.

فالموت عبارة عن مفارقة الروح الإنساني عن البدن، وعبَّر عنها بالذوق في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٥].

كما أن الروح الحيواني لا يخلو عن إحساس الألم وقت الانتقال، وتلك المفارقة لا تقتضي الموت بالكلية؛ فإن الروح حيٌّ قائم بنفسه، محيي للبدن الدنيوي أو البرزخي الذي هو على صورة عمله، فاعرف جدًّا.

---

(١) قال سيدي علي وفا: الموت حالة يبطل بها تصرف النفس المدركة المتصرفة بالبدن الذي كان لها أن تتصرف به، أو هو بطلان ذلك، فمن مات انقطع عمله بذلك البدن، إلا أن جهة التعلق بآلة يصح بها التصرف، لا تعطل من النفس المتصرفة، فإذا فارقت آلة تعلقت بآلة يقتضيها لها وجودها، كما أنها إذا فارقت بدنها بالنوم ترى لها بدنًا آخر، إما هو بمثاله أو مثله أو خلافه، فيكون لها في التعلُّق الثاني تصرفات بحسبه، وأعمال تناسب استعداده، ومن ثَمَّ يلتحق بالعقلاء من مات غير عاقلٍ، هذا شأن النفوس الحاصلة في قيوم حدود دائرة الدنيا والبرزخ، إذ لا موت إلا للدنيوي والبرزخي، وموت البرزخي نومي للدنيوي.

في سورة الأحزاب

قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:١٤].

اعلم أن الذِّكر الكثير هو: ما كان بالقلوب، والأعمال، والأحوال، كما كان النبي ﷺ يذكر الله تعالى في كل الأحيان، فإن مَن كان مع الله تعالى في جميع حالاته؛ فهو ذاكر له تعالى سواء قارنه الذكر اللساني أو لاَ.

فالكثرة هنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:١٤٢] عبارة عن العدم: أي لا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر اللساني المجرَّد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

ومن هنا كان يرفع لبعضهم في يوم واحد عمل أهل الأرض كلها؛ بل عمل أهل السماء؛ لأن الكامل منا إنما يذكر الله تعالى بكل أسمائه بخلاف الملائكة؛ فإن ذكرهم مخصوص بأسماء مخصوصة؛ ولذا قالوا: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:١٦٤]؛ وهو مقام الروحانية بحسب أسماء الروح إذ ليس لهم الترقّي إلى مقام السرِّ، وسرِّ السر.

ولذا ذهب بعضهم إلى أنه ليس لهم مقام الرؤية، والظاهر أن لهم ذلك من مرتبتهم الروحانية؛ فهم يرون الله تعالى بأبصار الأرواح لا بأبصار الأسرار، وأبصار الأسرار أكشف وأجلى من أبصار الأرواح؛ لأنه كلما حصل الترقّي؛ ازداد التجرُّد، وكلَّما ازداد التجرُّد؛ حصل كمال الوصول؛ بل الحصول فافهم جدًا، واعبد ربك إلى أن يأتيك اليقين الذي ليس فوقه يقين.

وقال الله تعالى: ﴿قُل﴾ [الأحزاب:١٦].

يا صاحب الفناء، والبقاء على الوجه الأكمل، كما دلَّ عليه شرح صدره: ففيه الرتبة العلياء، والفضيلة العظمى، والجمعية، قال ﷻ ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾ [الأحزاب:١٦].

أيتها القوى الطبيعية، والنفسية التي بها قوام ظاهر الوجود من الموت الذي يحصل بالجذبة الإلهية بسبب سماوي خفي لا يدركه أكثر العقول وهو الفناء عن الأنيَّات الناطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

فإنه يشير به إلى الفناء عن أنيَّات القوى الظاهرة والباطنة جميعًا، واسم هذا المقام هو الجلالة إذ لا نفي هنا أصلاً، وإذ لم يكن نفي لم يكن إثبات؛ لأن الفاني المستغرق لا نفي له، ولا إثبات.

أو القتل: وهو ذبح بقرة الطبيعة، وكبح النفس بالرياضات الشاقة، والمشاهدات الغالبية، فهذا الموت موت إرادي، اختياري، مبني على الكسب، والموت الأول أيضًا كذلك؛ لكن مبني على الجذب الإلهي بلا سبب ظاهر من طرف الفاني.

وقال ﷻ: ﴿وَإِذًا﴾ [الأحزاب:١٦] : أي حين الفرار من واحد من الموتين، كما قال تعالى: ﴿لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] وهو العمر الفاني وإن كان ألف سنة مثلاً.

وذلك أن في الموت بأحد الوجهين حياة معنوية طيبة باقية دلَّ عليه بقاء الآثار، وعدم انحلال الصورة إلى يوم الحشر والنشر، وفي البقاء بالحياة الصورية موت معنوي في الحياة الدنيا، وإلى آخر الأعصار؛ لأنها حياة فانية لا اعتداد بها أصلاً عند الحياة الباقية، وإن امتد زمانها.

والحاصل أن في الموت بالموت الاختياري حياة باقية، وإن قلَّ زمان الحياة الصورية، ولا حياة في الموت بالموت الاضطراري، وإن كثر زمان العيش الصوري؛ لأن الاعتبار بالباقي بالفاني، وفي الآية ترغيب إلى الموت بالموت الإرادي؛ ليحصل العيش الباقي، وترهيب عن البقاء بالحياة الصورية، فصاحب الأول إنسان حقيقي، وصاحب الثاني إنسان حيواني، ونسبته إلى الإنسانية نسبة الميت إلى الإنسانية؛ إذ لا إنسانية بعد الموت إلا صورة.

فكما أن الميت إنسان صورة فقط، فكذا الإنسان الحيواني، فهما مشتركان في الخلو عن أثر الحياة، وفيها أيضًا رمز إلى أن الإنسان الحيواني محبوب عنده الحياة الصورية؛ لانحصار نظره في آثارها، فلا يحب الموت والفناء عنها بخلاف الإنسان

الحقيقي؛ فإنه يعلم أن الباقي بدلٌ عن الفاني؛ فيختار الباقي على الفاني، فيجتهد في الأسباب، ويتمسَّك بتوفيق رب الأرباب.

ثم إن الهارب عن الموت إنما هو هارب عن الحق؛ لأنه موصِّل إليه، فإذا بعد عن الموت؛ بعد عن الحق؛ لكنه قد يخلّي ونفسه؛ فيزداد بعدًا إلى بعد، وقد يدركه التوفيق؛ فيقبل الحق إليه، فيمنعه عن الهرب؛ فيكون طالبًا للحق بعد ما كان هاربًا منه.

وإليه الإشارة بقوله: «**عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل**[1]» فقوم يُقاد إلى الجنة نفسها بالإيمان والطاعة، وقوم يُقاد إلى رب الجنة بالعشق والمحبة، وكلٌّ يجري على ما قضاء الله تعالى، فطوبى لأهل الإقبال، وكل الخسارة لأهل الإدبار، ومَن يُضلل الله فما له من هاد، اللّهم ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهِب لنا من لَدُنك رحمة إنك أنت الوهَّاب».

قال الله سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

في هذه الآية إشارات:

الأولى: إنه تعالى سلب أبوَّة محمد ﷺ للأمة؛ رعايةً لظاهر المقام؛ فإن أبا البشر؛ هو آدم عليه السلام؛ فهو أبو محمد، وأبو الأنبياء، وأبو الأمم كلهم إلى قيام الساعة، فمَن كان منهم أبًا؛ فهو أب اعتباري لا حقيقي؛ كنوح عليه السلام، فإنه الأب الثاني من حيث إن تناسل البشر منه بعد الطوفان؛ كتناسلهم من آدم بعد الهبوط، ولمَّا كان لكل مرتبة حكم مخصوص؛ نفى الله تعالى الأبوَّة عن محمد صراحة، وأثبتها لآدم ضمنًا.

والثانية: إنه تعالى نفى الأبوَّة عن محمد لا عن أحمد؛ فإن أحمد أبو الأرواح، كما أن آدم أبو الأجسام؛ ولذا صرَّح بالرجال، فإن الأبوَّة الجسمانية؛ إنما هي للرجال، ودخل فيها النساء.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٠٢/٢).

وأمَّا عالم الأرواح فليس فيه الذكورة والأُنوثة؛ بل لا أبوَّة فيه ولا بنوَّة بتقديم الباء، وكون أحمد أبا الأرواح بالنسبة إلى ظهور أنوارهم من نوره، وكذا نبوته كما قال: «**كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين**»[1]، فإنه أشار به إلى صدارته في ذلك العالم من غير أن يكون هنا أمر ونهي، وتبليغ نِعم دعوة روحانية، وبذلك سُمِّي نبيئًا.

ومن ذلك ان الله تعالى لَمَّا خلق النور المحمَّدي، وأظهره بالتجلِّي النوري البرقي، وكساه كِسوة روحانية؛ لئلا يحترق مَن رآه من الأرواح، قال: لا إله إلا الله، فقال الله تعالى: محمد رسول الله، فكانت نبوته ورسالته في ذلك بمنـــزلة صفات الله تعالى قبل خلق الكائنات، وكذا توحيده توحيدًا روحانيًا فطريًا لا يتعلَّق بنفي شرك ونحوه.

إذ لا نفي، ولا إثبات هناك إذ لا إيمان، ولا كفر؛ لأنهما إنما ثبتا وظهرا بعد الدعوة في عالم الأجسام؛ فهما من أحكام هذه العالم لا من أحكام عالم الأرواح، وما ذهب إليه بعض المحققين من أن نبوته في ذلك العالم كانت بالفعل حيث دعا الأرواح إلى ذلك التوحيد لا بالقوة كما لسائر أرواح الأنبياء؛ فإنما هو تصوير لتقدُّم نور الأحمدي، وكونه مبدأ سرِّ التوحيد والتبليغ؛ فإن هذه المبدائية له كانت بالفعل، وقول الله: محمد رسول الله يدلُّ على أن البقاء بالله أفضل من الفناء في الله، وإن المحمَّدية صورة الحق في صورة الخلق، فمَن نالها؛ كان ذا جناحين؛ جناح الكون، وجناح الوجوب.

والثالثة: إنه صرح بالرجال وليس ذلك لإخراج النساء؛ بل لأن القصة إنما وقعت في حق زيد ﷺ، وهو من رجالهم.

تقول عائشة -رضي الله عنها: «أنا من رجالهم لا نسائهم»، أخذًا من قوله تعالى: وأزواجه أمهاتهم، فإنما هو بناء الأمر على الظاهر، وإلا فهي وسائر المطهَّرات من الأزواج، وأمهات المؤمنين والمؤمنات، ومعاوية خال المؤمنين والمؤمنات، وكذا نحوه صرَّح به حضرة الشيخ في الفتوحات المكية؛ وهو الذي يقتضيه الذوق.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٦٩/٢)، والقاري في المصنوع (١٤٢/١).

ويدلُّ أن الزهراء - رضي الله عنها - تشفع لعصاة المؤمنات يوم القيامة؛ لأنها أمها وأم المؤمنين.

فتخصيص المؤمنات ليس لإخراج المؤمنين؛ بل للاعتناء بشأنهنَّ؛ فهي بالنسبة إليهنَّ كالنبي بالنسبة إلى الرجال، فاعرف هذا السرَّ السرِّي، واعمل به.

قال تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب ٤٠].

يعني أن رسالته لا توجب الأبوَّة التي يدعيها القوم؛ إنما توجب الأبوَّة التي يقتضيها قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

فإن كون أزواجه أمهات؛ يستدعي كونه أبًا، فهو ﷺ، كما أنه أبو الأرواح؛ فهو أبو هذه الأمة: أي أبو مَن كان من إله حقيقة؛ وهم الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهَّرهم تطهيرًا؛ ومنهم سلمان ومَن التحق به في معناه رضي الله عنهم؛ وذلك لأن لا نَسب بينه، وبين أهل الشرك والمعصية؛ لعلو مقامه؛ وإنما كان نَسبه التقوى.

فالهاشمي المشرك ليس منه حقيقة، وكذا مَن في حكمه؛ بل لو كان أبا للعاصي؛ فهو من وجه دون وجه بخلاف المتقي، وإنما كان من وجه دون وجه؛ لأن العاصي أمات النور المحمَّدي الذي أودعه الله فيه، ولو في الجملة، فكأن الله أخرج الميت من الحي.

ولا شك أنه لا مناسبة بين الحي والميت، وأمَّا المناسبة بين الحي الصحيح والمريض؛ فجزئية، فعلى المؤمن أن يصحح النسبة بالتقوى، ويزيل المرض الباطني من سوء العقيدة، والأخلاق الساري إلى سائر الأعمال في مرتبة التقوى.

قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

هذا من قبيل التكميل، وهو لا ينافي كونه فاتحًا لهم؛ فإن الخاتمية بالنسبة إلى عالم الأجسام، والفاتحية بالنسبة إلى عالم الأرواح؛ فهو في خاتميته أبو القاسم ونحوه صورة أبو؛ لأنه معنى، وفي فاتحيته أبو آدم، وأبو عيسى، وأبو جبريل ونحوهم؛ لأنهم كلهم مخلوقون من نوره.

وصرَّح بالنبوة بعد الرسالة؛ لأنها عامة، فكونه خاتم النبيين يستلزم خاتم الرسل

بخلاف العكس؛ لأنه قد يجئ نبي بعد رسول؛ كأنبياء بني إسرائيل؛ ولذا قال ﷺ:

«**لا نبي بعدي**»[1]: أي لا مشرِّعًا كموسى وعيسى ونحوهما، ولا متابعًا كأنبياء بني إسرائيل.

وكونه خاتم النبيين من قبيل التشريف؛ لورثة الأمة حيث إن الله جعلهم بمنـــزلة الأنبياء، وأقام بهم العدل كما أقام بالأنبياء.

فمَن ادَّعى نبوة بعض الآل؛ كالحسين تأييدًا لنبوته ﷺ؛ فهو لم يدرِ معنى النبوة والولاية، والسرِّ الكمالي في هذه الأمة ؛فضلٌ وأضلُّ، فكان في الدَّارين مع الهالكين، نعوذ بالله من قصور المعرفة من الحور بعد الكور.

قال تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

: أي الجامع لجميع الأسماء والصفات التي جعل الأنبياء مظاهرها، وجعل خاتم النبيين مظهرًا لها بالفعل من حيث الإجمال والتفصيل.

قال تعالى: ﴿**بِكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

: أي من الأشياء التي من جملتها؛ الرسالة والنبوة، وأهلهما بتقديم النون، وكذا الأبوَّة والنبوة بتقديم الموحدة.

قال تعالى: ﴿**عَلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولذا خصَّ محمدًا ﷺ بأبوة الأرواح، وجعله خاتم النبيين في الأجسام، وخصَّ آدم بأبوَّة الأشباح، وجعله أول النبيين في الأجسام.

فمن علمه الكامل المحيط بكل شيء؛ يجعل رسالته حيث يشاء، ويجعل ولايته حيث يشاء، ويجعل آباء وأبناء، وصورية أو معنوية، كما يقتضيه أسماؤه الكلية الجامعة، وأسماؤه الجزئية المحصورة؛ لأن عالم التسخير والحكمة يقتضي المتبوعية والتابعية، وتفاوت المراتب، وتباين الدرجات، والله عليم بالكليات والجزئيات، والإطلاقات والإضافات.

---

(١) رواه البخاري (٣/١٢٧٣)، ومسلم (٤/١٨٧٠).

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقد سبق في هذه السورة قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣] (١).

---

(١) **قال الشيخ أحمد العلواني في الأرواح**: وما بعد روح لا إله إلا الله وروح محمد رسول الله إلا روح الصلاة والسلام عليه وفيها الوصل والفصل والحركة والسكون.

روح فرقاني في روح الصلاة والسلام على رسول الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فقد وصلنا بروح الأعلام بأرواح صلاته وبروح الثناء على ملائكته؛ بأنهم يصلون على هذا النبي الكريم مع روح الأعلام حتى يكون لنا روح من العلم وأرواح من الإيمان بعلو شأن هذا الروح المحمدي النبي الرسول ﷺ على التعميم الحبيب المحبوب الرءوف الرحيم روح محمد به في روح الصلاة عليه الصلاة على نور.

والمصلي على هذا الروح المحمدي له من الله روح وصل بروح نوراني يفصل عنه من كل روح ظلماني، فتقع حركاته في الخيرات وسكناته في البركات، هذا من حيث روح الحق. ومن حيث الروح المحمدي يكون لروح المصلي أرواح وصل بأرواح حب من الروح المحمدي، وله من الروح المحمدي أرواح فصل تفصل بينه وبين الأرواح الانتقامية والروح الفاصل هو روح الشفاعة روح بيان من الروح المحمدي في روح الصلاة عليه.

«من صلى علي في أول نهاره عشرًا وفي آخر نهاره عشرًا أدركته شفاعتي» ولا بد في روح الصلاة والسلام على هذا الروح الأعظم في أرواح المرسلين من صورة حركة اللسان وسكن الجنان إلى هذا الروح الأمري والنور الفرقاني والنور الذي هو روح فائض من روح الصلاة على هذا النبي الكريم والرسول العظيم روح إحساني بروح من البيان من الروح المحمدي في روح الصلاة عليه «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا من الصلاة علي فيه فإن صلاتكم معروضة علي».

روح بيان بروح من الإحسان قد أمر الروح المحمدي بعرض الحال وهو روح حال المؤمن من أمته في روح الصلاة والسلام عليه فأرواح الصلاة عليه تقع في صور من المواهب على روحه الكريمة في صور أرواح مختلفة الروائح والذكاوة كريح الورد وماء الورد والمسك، والعنبر، والياسمين، وأنواع الرياحين وما في الوجود من روائح الأطياب.

لكن بزيادات كثيرة على ذكاء هذه الأطياب والرياحين وروح الدليل من الروح الفرقاني فروح وريحان وجنة نعيم بروح التسليم.

وقد كان في الدنيا يحب الطيب ومهما قلت في صلوات الحبيب فقل نفي الروح الفرقاني ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٥] ومن عادات الفقر أنهم لا يتقربون إلى الأغنياء إلا بالروائح الطيبة كالورد والياسمين والزنبق والنسرين والريحان الفارسي فأرواح صلواتهم على هذا الروح الأعظم في المرسلين والروح الأكرم في المقربين تكون في صفة الرياحين وما في الأرواح الإلهية فوق ما في النية فإذا عرضت عروض الصلوات وأرواح التسليمات حسن الروح المحمدي =

فأفاد أمرين:

أحدهما: إن الله صلّى عليهم أولاً؛ لئلا يقولون: إن الله تعالى صلّى على النبي و لم يُصلِّ علينا، فأزال بتقديم الصلاة عليهم هذا الاضطراب، فإن أكثر الناس واقفون عند باب العطاء.

ونظيره قوله تعالى: ﴿**لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء**﴾ [الممتحنة:١].

حيث لم يكتفِ بإخبار كونهم عدوًّا لله؛ بل أخبر بأنهم عدوَّهم أيضًا، حتى يقولوا: إنهم إذا لم يكونوا عدوًّا لنا؛ فلما ضررَّ في اتخاذهم أولياء.

فانظر ما أعجب حال الإنسان في عدم المروءة؛ حيث لا يراعي جانب الحق تعالى بأن يقول: إن كونهم عدوًّا لله؛ كافٍ لنا في عدم اتخاذهم أولياء سواء كانوا عدوًّا لنا أو لا، وذلك من الجهل بالحقائق؛ وهو حال أكثر الناس.

والثاني: إن المراد بصلاته تعالى عليهم: هو إخراجهم من ظلمات الطبع، والنفس إلى أنوار القلب والروح؛ لكن نور كل أحد بحسب حاله؛ كنور الشمس، ونور القمر، وأنوار سائر النجوم؛ ولذا قالوا: إن صلاة الله تعالى على النبي غير

=

إلى أربابها وحزن للمحزون.

واستغفر للمكدر المفتون وفرح بالمستقيم الكامل بالأرواح الإلهية ثم ينشر من أرواح رحمته على أرواح المصلين فيعود ناقصه كاملا، وأقصاهم واصلا، ويفتح في أرواحهم من أرواح الإيمان ومن أرواح الإحسان ومن الأرواح الرضا،ومن الأرواح التي توصلهم بالروح الأعظم، والسر المحيط الطلسم بكل روح إنساني وما فيه من كل الأرواح.

وبكل أرواح الموجودات وأرواح العناصر والطبائع ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] وهو القاهر فوق عباده بروح الإحاطة وقلم التفصيل، وسر التحويل، فتقرب إلى هذا الروح المحمدي بكثرة الصلاة عليه فإن صلاتكم معروضة عليه وهي عرض الحال ولا تكون إلا مقبول، فيقع التوقيع الرفيع بقضاء الحوائج ورفع كل روح ظلماني من الروح الشيطاني، والفلك السفلاني، فيقع روح الحال بأرواح الجمال الفائضة من الأرواح المحمدية والأرواح الإلهية، فالروح الإلهية يعطي والروح المحمدي يقسم العطاء فهو المتصرف بأرواح المواهب والقائل لأرواح من المكاسب وهي أرواح الصلوات والتسليمات وهي أرواح الوصل والفصل لأرواح الاستغفار وهي من الأرواح الفرقانية. وانظر: كتاب «الأرواح» (ص١٧) بتحقيقنا.

معلومة، وإن كانت من قبيل النور كما قال: «**واجعلني نورًا**»[١]، فإنه فرَّق بين نور ونور كما قلنا؛ والمعنى أن الله يُصلِّي على النبي في مرتبة الذات الأحدية بالنور البرقي الذي ليس فوقه نور؛ ولذا كان ﷺ يرى من جانب وجهه، ومن طرف قفاه على السواء، وهذه اللطافة الزائدة النورانية لم تحصل لأحد غيره، سواء كان في حال الصلاة، أو في خارجها.

وكذا الملائكة يُصلُّون على النبي بحصول النور الصفاتي في مرتبة الذات الواحدية؛ لأن مرتبة الملائكة مرتبة الأرواح، وتعيُّن هذه المرتبة؛ إنما هو تعيُّن الصفات، ثم تنـــزل من مرتبتهم إلى مرتبة الأجسام، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب:٥٦]: أي صلُّوا عليه بحصول الحفظ؛ لوجوده الظاهري، وقوة التبليغ، وانتشار الشريعة والإيمان الحقيقي المتعلِّق بمرتبة المعرفة[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فائدة: اعلم أنه اختلف في معنى الصلاة عليه ﷺ، فقيل: معناها الرحمة والرضوان من الله تعالى، والدعاء والاستغفار من الملائكة والناس.

وقيل: صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء، وكأنه يريد الدعاء بالرحمة.

وقيل: إن معنى صلاة الملائكة الدعاء بالبركة.

وقيل: الصلاة من الله رحمة مقرونة بالتعظيم، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين تضرُّع ودعاء.

وقيل: صلاته على أنبيائه الثناء والتعظيم، وصلاته على غيرهم الرحمة.

وقيل: صلاة الله على نبيه ﷺ تشريف وزيادة تَكرمة، وعلى من دون النبي رحمة.

وفرق بين صلاته تعالى على نبيِّه ﷺ في سورة الأحزاب، وبين صلاته على سائر المؤمنين في السورة المذكورة، ومعلوم أن القدر الذي يليق بالنبي ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره.

وقال الحليمي في الشعب: الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا: اللَّهُمَّ صلِّ على محمد: عَظِم محمدًا، والمراد تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى: ﴿**صَلُّوا عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب:٥٦]: ادعوا بالصلاة عليه انتهى.

ولا يعكر على هذا عطف الآل والأزواج والذرية عليه؛ لأنه لا يمتنع أن يُدعى لهم بالتعظيم؛ إذ تعظيم =

=

كل أحد بما يليق به، لاسيما وهم منسوبون إلى النبي ﷺ، والدعاء لهم واقع بالتبع له.

وقال أبو العالية: صلاة الله على نبيه: ثناؤه عليه عند ملائكته، وصلاة الملائكة عليه: الدعاء.

وقال ابن حجر: وهذا أولى الأقوال، فيكون معنى صلاة الله تعالى عليه: ثناؤه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم طلب ذلك له من الله.

والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة.

وقيل: المراد بالصلاة الاعتناء بشأن المصلى عليه، وإرادة الخير له، وهو الذي ارتضاه الغزالي، واستحسنه الزركشي. انتهى من مطالع المسرات.

وقال في «الرِّماح»: اعلم أن الصلاة في حق الله تعالى على نبيِّه ﷺ وصفٌ قائمٌ بذاته تعالى على الحدِّ الذي يليق بعظمته وجلاله، وهو أمرٌ فوق ما يُدرك ويُعقل، فإن الوصف الوارد في حق كل موجودٍ وإن اشترك في اللفظ والاسم، فالحقيقة متباينة في حق الموجودات.

فالصلاة في حقِّنا عليه ﷺ هي الألفاظ البارزة من ألسنتنا بالدعاء، والتضرُّع إلى الله، فيما ينبئ عن تعظيم نبيه ﷺ، وليست كذلك صلاته تعالى على نبيِّه ﷺ، فهي فوق ما يُدرك ويُعقل، فلا تُفسر بشيءٍ، بل نقول: يصلي على نبيِّه ﷺ ولا تُكيف صلاته.

ألا ترى إلى السجود في حق الموجودات لله تعالى، فكلها ساجدة لله سبحانه، وليس السجود المعهود في حق الآدمي لله تعالى يماثل سجود الجمادات والحيوانات والأشجار فردًا فردًا؛ فإن لكل واحدٍ من تلك الأفراد سجودًا يليق بحاله، فالسجود في حق جميعها مماثل في الاسم والإطلاق والحقيقة، مفترقة في جميعها، وسجود كل واحدٍ غير سجود الآخر.

وأما صلاة الملائكة على النبي ﷺ فتعقلها في حقِّهم كتعقلها في حقِّنا.

وإنما أُسندت الصلاة إلى الله تعالى مع أن الله تعالى أمرنا أن نصلِّي عليه نحن؛ لأن صلاتنا عليه إنما هي الدعاء له بأن يصلى الله عليه كما مرَّ؛ إذ ذاك غاية مقدورنا، وفي ذلك تنبيه على أن له علينا حقوقًا عظيمة نعجز عن مكافأته بها، فوجب أن نرجع في ذلك إلى المولى القادر عليه الكريم، الذي بيده خزائن النعم، فنطلب من الله أن يصلِّي عليه: أي يزيده شرفًا وإعظامًا مجازاة له عنا.

وقد أرشدنا ﷺ إلى ذلك حين قالوا له: أما السلام عليك فقد عرفنا فكيف نصلِّي عليك؟ فقال: قولوا: «**اللَّهُمَّ صلِّ على محمدٍ، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم**» رواه الشيخان.

والسلام لغة الأمان، وسلام الله على نبيه، قال في شرح الصغرى: هو زيادة تأمين له، وطيب تحية وإعظام.

فلكل واحد من أهل الإيمان الحجابي، والكشفي لسان على حدة يدعو الله تعالى، ودلَّ التسليم على التسليم المطوي في الألواح كأنه قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾ [الأحزاب:٥٦].

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب:٥٦]، افعلوا أنتم كذلك اقتداءً بالله تعالى وبالملائكة، وفيه تفضيل الملائكة في المرتبة؛ لأنهم من نور، وإن كان الإنسان أجمع كمالاً، وأزيد فضيلة، وإشارة إلى أن فعل المتبوع وسيلة لفعل التابع؛ ولذا قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ**﴾ [الأحزاب:١]، فإنه إذا كان التقوى من شأن النبي؛ فأَوْلى أن يكون من شأن أمته.

وفيه تأديب الصغير بالكبير؛ وهو من باب الحكمة الإلهية، فعليك بالتأسِّي بأخلاق الله، وأخلاق الملائكة والأنبياء والأولياء؛ حتى تفوز بالشرف الزائد الذي ناله الأصفياء.

***

obeikandl.com

في سورة الملائكة (فاطر)

قال الله سبحانه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر:١١] (١).

: أي ابتداء خلقكم من التراب في ضمن خلق آدم منه؛ لتكونوا متواضعين؛ كالتراب ساكتين تحت الأقدار.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الآية:١١].

: أي ثم خلقكم من نطفة خلقًا تفصيليًا؛ لتكونوا قابلين لكل كمال؛ كالماء الذي هو سرُّ الحياة، ومبدأ العناصر الأربعة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الآية:١١]؛ أصنافًا أحمر وأبيض وأسود، وذكرانًا وإناثًا.

وعن قتادة: «جعل بعضكم زوجًا لبعض» وهو المناسب لقوله تعالى: ﴿وَمَا﴾ [الآية:١٦] وما نافية، وقوله تعالى: ﴿تَحْمِلُ﴾ [الآية:١١].

قال تعالى: ﴿مِنْ أُنثَى﴾ [الآية:١١] وهو فاعل تحمل، ومن مزيدة لاستغراق النفي وتأكيده.

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَضَعُ﴾ [الآية:١١] كون تلك الحامل والوضع ملتبسة بعلمه، تابعة لمشيئته، فقوله: ﴿إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ حال من الحامل دون المحمول؛ لأن العلم بالحامل والواضع يتضمَّن العلم بالمحمول والموضوع، فيعلم تعالى مكان الحمل، ووضعه، وأيامه، وساعاته، وأحواله، وأحواله من النقصان والتمام، والذُّكورة والأُنوثة، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ما نافية، والتعمير عُمر، وهو مدة عمارة البدن بالحياة، والمعمِّر مَن أطيل عمره.

وقوله: (مِن مُّعَمَّرٍ): أي من أحد، ومن زائدة لتأكيد النفي، وسُمِّي معمَّرًا باعتبار مصيره؛ فهو من باب تسمية الشيء بما يؤل إليه؛ والمعنى وما يُمدُّ في عمر أحد.

---

(١) كتب بالأصل: [نقل تفسير هذه الآية في ليلة البراءة سنة ١١٢٥ هـ].

﴿وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ من النقص؛ وهو متعدٍ؛ بمعنى: كم.

والضمير للمعمَّر على الاستخدام، فيراد بضميره ما؛ مَن شأنه أن يُعمَّر: أي ولا ينقص من عمر أحد؛ ومعنى، (لا ينقص من عمره) بعد كونه زائدًا؛ إذ العمر لا يزيد، ولا ينقص؛ بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصًا.

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ [الآية:١١].

: أي اللوح، أو علم الله، أو صحيفة كل إنسان؛ لأن الملك يكتب والمولود في بطن أمه سعادته وشقاوته، وأجله ورزقه، فلا يتغيَّر ذلك؛ لأن بطن الأم لوح العلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الآية:١١].

لاستغنائه عن الأسباب؛ فكذا البعث، فمَن آمن به على هذا الوجه؛ سلم من الاعتراض، والإنكار، واتَّبع الهدى والحكمة في كل الأفعال والآثار.

فإن قيل: إذا كانت الآجال والأرزاق مقدَّرة لا تزيد ولا تنقص؛ فما وجه قوله ﷺ:

«مَن سرَّه أن يُبسط له في رزقه، وينسأ في أثره؛ فليصل رحمه»[1].

وهو كل ذي رحم محرَّم من الآباء والأمهات، والأبناء والبنات، والأخوة والأخوات، والأخوال والخالات، والأعمام والعمَّات، ونحو ذلك؛ وذلك بالإكرام، والإنعام، والسلام، والزيارة، وغير ذلك قلنا: وجهه أن الأشياء قد تُكتب في اللوح المحفوظ متوقفة على الشرط، كما يُكتب إن وصل فلانٌ رَحِمه، أو تصدَّق بصدقة؛ فعمره سبعين سنة، وإلا فخمسون.

والدعاء والتشبث ببعض الأسباب قد يكون من جملة تلك الشروط؛ فيمحوا الله ما يشاء بالنظر الظاهري، وحصول الشروط، وإن كان لا يتغيَّر ما في لوح علم الله تعالى.

أو يُقال: المراد منه البركة في رزقه، وبقاء ذكره الجميل بعده؛ وهو كالحياة الثانية، أو يُقال: الحديث صدر في معرض الحثِّ على صلة الرَّحم بطريق.

---

(١) تقدم تخريجه.

يعني: لو كان شيء يُبسط في رزق رجل وأجله؛ لكان صلة الرحم.

وكذا الصدقة كما في بعض الأحاديث، ويجوز فرض المحال إذا تعلَّق به حكمة، وفيه بيان؛ لزيادة فضل صلة الرحم والصدقة من بين سائر الطاعات؛ لأن الصلة يصل العبد إلى الله تعالى، فيمتدَّ حياته؛ لأنها حياة حقانية طيبة، وبالقطع ينقطع عن الله تعالى، فلا يجد بركة عمره، وإن طال كأعمار الأمم السالفة.

كما قال ﷺ: «**الرحم معلَّقة بالعرش تقول: مَن وصلني؛ وصله الله**»: أي إليه. وقوله: «**ومَن قطعني؛ قطعه الله**»[1].

وبالصدقة يظهر صدقه في دينه؛ فهي برهان له، والصدقة كالضوء الممتد الغير المنقطع.

ألا ترى إلى حال الصبح الصادق؛ فإنه لصدقه يزيد ضياء إلى أن يطلع الشمس بخلاف الصبح الكاذب.

لطيفة:

واعلم أن وفاية الأعمار ليلة النصف من شعبان، وصحائف الأعمال تُنسج من اللوح المحفوظ، وتُدفع إلى الملائكة الموكلِّين ليلة القدر من تلك السنة، فلا يظهر في الخارج من الموت والحياة إلا ما قدَّره الله تعالى.

فإن لكل شيء أجلاً مُسمَّى لا يتجاوزه، وكل ذلك مشتمل على حكمة جليلة، ومصلحة حميدة، فإن كان لا يعرفها الإنسان؛ بل ينكر فيكفر حيث يقول: أخذ الله عسى هذا الولد مثلاً، وقطع عمره، وما أبقاه لي مع أنه ليس بمقطوع العمر؛ بل إن الله تعالى جعله على عمر ناقص، فلا يزيد على ما هو عليه، ولو فديت بالدنيا وما فيها.

فالصبر والسكون من آثار اليقين، والاطمئنان.

والجزع، والاضطراب من علامات الشك والإنكار.

فإن كان لك جزعٌ؛ فليكن على نفسك، فإنك لا تدري على أي حال تؤتى

---

(١) رواه مسلم (٤/١٩٨١)، والديلمي في الفردوس (٢/٢٨٦).

صحيفتك، وتُوضع على يد الملك، فجائز أن يكون فيها ما تكرهه من الأحوال، وليكن جلّ همتك مغفرةٌ من الله ورحمة.

فإن العبد إذا كان مع الله تعالى، وأهلٌ لمغفرته ورحمته؛ فلا ألم له من الموت؛ فإن الموت في حقه انتقال من سجن ضيق إلى روضة فسيحة.

وقد صحَّ أن الله تعالى لا يغفر الشرك، ويغفر ما دون ذلك لَمن يشاء، والمرء لا يدري هل دخل فيمَن يشاء أم لا؟ بل قد يكون الإصرار سبب الردِّ كما ورد:

«**إن الله يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن، أو ساحر، أو مُشَاحن، أو مُدمن خمر، أو عاق للوالدين، أو مصرٍّ على الزنا**»[1].

وبجميع هذه الأخلاق ونحوها الظلم، فمَن وقع في ظلم النفس وظلم الغير؛ فليبكِ على نفسه؛ فإنه إذا كان محرومًا عن المغفرة، مطرودًا عن باب الرحمة في الأيام والليالي المباركة، فمتى يناهما وقد أُعطي لرسول الله ﷺ جميع الأمة هذه الليلة إلا مَن شرد على الله شراد البعير.

ومن عادة الله في هذه الليلة أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة.

وهي إشارة إلى العلوم النبوية التي ورثها علماء أمته؛ وهم علماء الآخرة، فهي تزيد زيادة ظاهرة في تلك الليلة في قلب مَن كان مستعدًا لها من أخيار أمته، وهذا إلى يوم القيامة في كل عصر من الأعصار؛ بل ويزيد في تلك الليلة للموتى أحوالهم الحسنة إن كانوا منعَّمين، وينقص آثار أفعالهم السيئة إن كانوا معذَّبين.

فإن للأرض من كأس الكرام نصيبًا.

وقد مرَّ رجل بمقبرة، فصلَّى على النبي ﷺ، وكان في المقبرة خمسمائة وستون إنساني في العذاب، فنُوديَ: ارفعوا العذاب عنهم ببركة صلاة هذا الرجل على النبي ﷺ.

فلو كانوا في الدنيا أهل صلاة وصيام، وقيام وذكر، ودعاء على ما ينبغي لم يكونوا في العذاب، ولكانوا أحسن حالاً ببركة دعاء الأحياء وأمدادهم.

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٦٧/١٢) بنحوه.

وقد ورد: «القبر روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرة من حُفر النيران»[١][٢].

(١) رواه الترمذي (٤/٦٣٩).

(٢) قال سيدي حسن الحمزاوي: اعلم أن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

قال الحافظ الجلال: وهو أول منازل الآخرة.

قال: أخرج البيهقي وابن أبي الدنيا عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار».

قال: وأخرج الترمذي مثله، وأخرج بن منده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن في قبره في روضةٍ خضراء، ويرحب: أي يوسع له قبره سبعون ذراعًا، وينوّر له كالقمر ليلة البدر».

وأخرج ابن منده عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُفسح للغريب في قبره كبعده عن أهله».

وفي بعض روايات للإمام البخاري، أنه يفسح له سبعون ذراعًا في سبعين ذراعًا، وللإمام القرطبي في حديث البراء بن عازب: مد البصر. وفي رواية للسيدة عائشة رضي الله عنها: أربعون ذراعًا.

قال القرطبي: ولا تعارض بين هذه الروايات؛ لأن هذا يختلف باعتبار الأشخاص باعتبار أعمالهم.

قال الإمام القرطبي: قال كعب الأحبار: إذا وُضع العبد الصالح في قبره احتوشته أعماله الصالحة، فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول: الصلاة إليكم عنه، فيأتون من قبل رأسه فيقول: الصيام لا سبيل لكم عليه، قد أطال ظمأه لله ﷻ في دار الدنيا، فيأتون من قبل جسمه فيقول: الحج والجهاد إليكم عنه، فقد أتعب نفسه، وأتعب بدنه، وحج وجاهد لله ﷻ، لا سبيل لكم عليه، فيأتون من قبل يديه فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين، حتى وقفت بين يدي الله تعالى ابتغاء وجهه، ولا سبيل لكم عليه، قال: فيُقال: نَمْ هنيئًا، طبت حيًّا وميتًا.

قال الإمام المذكور أيضًا: قال بعض العارفين: هذا لمن أخلص لله في عمله، وصدَّق الله في قوله وفعله، وأحسن نيته في سرِّه وجهره، فهو الذي تكون أعماله حجة له ودافعة عنه، ومن نعيم القبر أيضًا فرشه.

قال الجلال في كتابه: «بشرى الكئيب»: أخرج أبو جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم، وأبو نعيم في الحلية عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤]، قال: في القبر.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية، قال: يسوون المضاجع انتهى.

وأما التعذيب الدائم فللكافرين والمنافقين.

قال القطب الشعراني: رُوي عن علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه قال: كان الناس يشكون في عذاب القبر حتى نـــزلت هذه السورة: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ*حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ*كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ*ثُمَّ =

=

كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤،٣،١،٢].

الأول: إشارة إلى عذاب القبر، وتعلمون. الثاني: إشارة إلى عذاب يوم القيامة.

ورُوي أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون فيمن أنـزلت هذه الآية؟ فإن له معيشة ضنكًا، ونحشره يوم القيامة أعمى، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هي عذاب الكافر في القبر، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنينًا، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حيةٍ تسعة أرؤس تنفخ في جسمه، وتخدشه إلى يوم القيامة، ويُحشر في قبره إلى الموقف أعمى».

وروى الحافظ الوائلي رحمه الله عن ابن عمر قال: فبينما نحن نسير بجبانة بدر إذ خرج رجلٌ من الأرض في عنقه سلسلة يمسك طرفها أسود فقال: يا عبد الله اسقني، فقال ابن عمر: لا أدري أعرف اسمي، أو كما يقول الإنسان لأخيه: يا عبد الله، فقال لي بعض من معي: لا تسقه فإنه كافرٌ، ثم اجتذبه فدخل الأرض، قال ابن عمر: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «أو قد رأيته ذاك عدو الله أبو جهل بن هشام، وهو عذابه إلى يوم القيامة» انتهى.

فتحصل مما سبق أن النعيم لا يكون إلا دائمًا، وأما العذاب إما أن يكون دائمًا أيضًا وهو عذاب الكفار وبعض العصاة، أو منقطعًا وهو لبعض العصاة.

ولذلك قال العلاَّمة الدردير في خريدته: العذاب قسمان: إما دائم وهو للكفار ولبعض العصاة، أو منقطع وهو لبعض العصاة ممن خفت جرائمه، وانقطاعه إما بسبب كصدقة أو دعاء، أو بلا سببٍ بل بمجرد العفو والتعذيب للروح مع البدن، ولو لم يقبر فالتعبير بالقبر جرى على الغالب.

قال العلاَّمة المذكور: إذ لا مانع من أن يخلق الله تعالى في جميع الأجزاء أو بعضها نوعًا من الحياة قدر ما يدرك ألم العذاب ولذة النعيم، وهذا لا يستلزم أن يتحرك أو يضطرب أو يرى أثر العذاب عليه، حتى إن من أكلته السباع أو صُلب في الهواء يُعذَّب، وإن لم نطلع على ذلك انتهى.

وقال في محلٍّ آخر: ومن عذاب القبر ضغطته، وهي التقاء حافتيه حتى تختلف أضلاع الميت وتختلف باختلاف العمل حتى إن الصالح تضمه ضمة الأم الشفوقة على ولدها انتهى.

ويرتفع العذاب عن سائر الخلق ليلة الجمعة ولو كفارًا، ثم يعود على الصحيح.

قال العلاَّمة النفراوي: وقيل: إنه بعد ارتفاعه عن المؤمن ليلة الجمعة لا يعود أبدًا، قال: وحينئذٍ من مات قبل الجمعة بيومٍ لا يكون عذابه إلا يومًا، وبه قال بعضهم انتهى.

قلت: وهو مردودٌ بما أفاده الإمام السيوطي حيث قال في شفاء الصدور: إن عدم العود لا دليل عليه، فلم يرد في هذا حديث صحيح ولا حسن.

قلت: وما قاله الإمام السيرطي فهو في غاية الظهور؛ لما تقدم لك من حديث البخاري ومسلم السابق =

=

في الجريدتين، بقوله: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا».

وفي روايةٍ لأبي داود: يهوّن عليهما ما دام من بلولتهما شيء، فهذا التقييد منه ﷺ ظاهر فيما قاله السيوطي، ولا يلتفت لغيره، لا سيما في مجالس الفجرة المتجاهرين بالفسق، والتعذيب يكون على الفروع، كما يكون على الاعتقادات.

ويدل عليه ما قاله الإمام القرطبي قال: روى الطحاوي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «أمر بعبدٍ من عباد الله ﷻ أن يُضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة، فامتلأ قبره عليه نارًا: أي من الواحدة، فلما ارتفع عنه أفاق، قال: علام جلدتموني؟ فقيل: إنك صليت صلاة بغير طهور، ومررت على مظلومٍ فلم تنصره».

وقوله: «بغير طهور» بضم الطاء: أي الفعل للوضوء والفتح الماء، وحديث البول.

قال القطب الشعراني في مختصره: قال العلماء: ويختلف أحوال العصاة في العذاب باختلاف معاصيهم كثرة وقلة.

قال: روى الشيخان: «أن النبي ﷺ مرَّ على قبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبيرٍ بلى إنه كبيرٌ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول».

وفي روايةٍ لمسلم: «لا يستنـــزه من البول»، وفي روايةٍ: «لا يستتر من البول».

قال العلماء: وفي هذا الحديث دلالة على أن الاستبراء من البول، والتنـــزّه عنه واجب؛ إذ لا يُعذب الإنسان إلا على ترك الواجب.

ثم قال العارف: وكذلك إزالة جميع النجاسات قياسًا على البول.

قال العلاّمة الأمير: ما ورد من قوله: «استنـــزهوا من البول، فإن عامة عذاب القبر منه» محمولٌ على قول بعض أصحابنا القائلين بسنية إزالة النجاسة على بقاء البول داخل القصبة، فيؤدي لبطلان الوضوء بعد انتهى.

ثم قال المحقق المذكور: وفي بعض الكتب الإلهية أوحى الله تعالى لبعض أنبيائه، تذكر أنك ساكن القبر، فإن ذلك يزهدك في كثيرٍ من الشهوات، ومما يدل أيضًا على التعذيب في القبر على الفروع ما ذكره العارف في مختصره قال: روى البيهقي وغيره في حديث الإسراء: «أنه ﷺ مرَّ ليلة أسري به على قومٍ تُرضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم شيء من ذلك، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام في الضريع والزقوم ورضف جهنم، يعني الحجارة المحمات، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وما ظلمهم الله، وما الله بظلامٍ للعبيد، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ بين أيديهم لحم في

=

=

قدرٍ نضيج، ولحم آخر خبيث، فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضيج الطيب، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين يزنون وعندهم النساء الحلائل الطيبات، فيأتي أحدهم المرأة الخبيثة فيبيت معها حتى يصبح، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ تُقرض شفاههم بمقاريض من نارٍ، كلما قُرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء خطباء الفتنة، ثم أتى رسول الله ﷺ على حجرٍ يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: يا جبريل، من هذا؟ فقال: الرجل يتكلم بالكلمة فيندم عليها، فيريد أن يردها فلا يستطيع، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ بطونهم كأمثال البيوت، كلما نهض أحدهم يقوم خرَّ على وجهه، والناس يطئونهم وهم يضجرون إلى الله ﷻ، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هم الذين يأكلون الربا من أمتك، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ مشافرهم كمشافر الإبل، فيفتح أفواههم، ويلقمون الجمر ثم يخرج من أسفلهم، وهم يضجرون إلى الله ﷻ، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء من أمتك الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على نساءٍ متعلقات بثديهن، وهن يضجعن إلى الله ﷻ، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الزناة من أمتك، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ يُقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه، فيقال لأحدهم: كُلْ كما كنت تأكل لحم أخيك، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الهمَّازون من أمتك، اللمَّازون».

وفي روايةٍ لأبي داود: «ثم مرَّ يعني ﷺ بقومٍ لهم أظفار من نحاسٍ يخمشون وجوههم وصدورهم، فقال: من هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم».

فائدة: قال العلاَّمة القرطبي: ومن التنعيم أو التعذيب، وعندنا المثال في الدنيا، وذلك كمن عُرض عليه القتل، أو غيره من العذاب، أو ما يهدد به من غير أن يرى الآلة.

قال: ويدل له ما جاء في التنـــزيل في حق الكافرين قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، فأخبر تعالى أن الكافرين يعرضون على النار، كما أن أهل السعادة يعرضون على الجنان، ويدل للعرض العام ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يُقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

قال بعض العارفين: هذا خاصٌّ بغير الشهداء، أما هم فأرواحهم في الجنة كما في مسلم اهـــ.

قلت: لا مانع من العموم؛ لما في بعض الروايات من رجوعها إلى أجسادها بعد سروحها في الجنة، وذلك لا يمنع من العرض عملاً بالحديثين، وسيأتي محله في مستقر الأرواح إن شاء الله.

=

وهو يدلُّ على أن الإنسان يجد بعض ثواب علمه يوم القيامة؛ لأنه الله تعالى أخَّر المثوبات إلى الآخرة؛ لأن الدنيا مع سعتها لا تسعها، والله تعالى يرحمنا وإياكم أجمعين بفضله وكرمه.

***

=

قال العلاَّمة القرطبي: وهل العرض لكل مؤمنٍ؟ فقيل: مخصوص بالمؤمن الكامل، ومن أراد الله نجاته من النار، وأما من أنفذ الله عليه وعيده من المخلصين الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فله مقعدان يراهما جميعًا، كما أنه يرى عمله شخصين في وقتين، يعني أحدهما قبيحًا والآخر حسنًا، ويحتمل أن يُراد بأهل الجنة كيفما كان، ثم قال: فإن قلت: هل ذلك العرض على الروح وحدها أو مع جزء من البدن؟ ثم قال: قال بعض المحققين: يحتمل أن يكون ذلك للروح مع جزءٍ من البدن، ويحتمل أن يكون لها مع جميع البدن، فتُرد إليه الروح كما تُرد عند المسألة حين يقعده الملكان، ويُقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة اهـ.

قلت: هذا الجواب لا يلاقي المستفهم عنه كل الملاقاة، وذلك لأن المستفهم عنه العرض على الروح وحدها، أو مع جزء من البدن، ولكن ربما يُقال: لما كان العرض على التحقيق نوع من التعذيب، وكان القياس أن ذلك للروح مع الجسد كله على الصحيح، لم يعبأ بالقول بأن العرض للروح فقط، قياسًا على القول الضعيف في كون التعذيب للروح فقط، غير أن قياس المحقق العرض فترد الروح لجميع البدن، كما ترد عند المسألة خلاف ما اعتمدوه من أنها تُرد عند المسألة للنصف الأعلى فقط، وأما التعذيب فيكون للبدن كله على التحقيق مع الروح، ويدل له ما ذكره المحقق السبكي، وكذا الحافظ السيوطي، وكذا المحقق القرطبي نفسه في محلٍّ آخر.

قال: أخرج ابن منده عن ابن عباس ﷺ قال: لا تزال الخصومة بين الناس فتقول الروح للجسد: أنت فعلت، فيقول الجسد للروح: أنت أمرت، أنت سولت. فيبعث الله لهما ملكًا يقضي بينهما فيقول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستانًا، فقال المقعد للضرير: إني أرى ها هنا ثمرة، ولكن لا أصل إليها، فقال الضرير: اركبني، فركبه فتناولها، فأيهما المتعدي، فيقولان: كلاهما، فيقول لهما الملك: إنكما قد حكمتما على أنفسكما اهـ.

ومعنى الحديث أن الجسد للروح كالمطية وهي راكبة، فهي تدل وتسول لكن لا تصل إلى ما تريد إلا بالجسد، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وانظر: مشارق الأنوار (ص٨٣) بتحقيقنا.

في سورة يس

قال الله سبحانه: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس:١٤]، خصَّ الثالث بالذكر، واكتفى ولم يقل أيضًا برابع وخامس، فإن للإنسان ثلاث مراتب:

مرتبة الحس، ومرتبة الخيال، ومرتبة العقل؛ فكل من الرسل الثلاثة قائمٌ على مرتبة من تلك المراتب.

فالأول: يدعوا إلى الله تعالى في المرتبة الأولى؛ لأن الحسّ أول الباب، والغالب على الإنسان قصر نظره عليه، فلا بد من تحويله عنه في أول الأمر؛ ليدخل فيما وراءه من المرتبتين.

والثاني: يدعوا إليه تعالى في مرتبة الخيال؛ يعني يجتهد في تحويل المدعو عن التقيُّد بتلك المرتبة، وإن الخيال يدعو الإنسان إلى أمور موهومة لا حقائق لها؛ وهي مرتبة الشعور لا العلم الحقيقي.

والثالث: يدعو إليه تعالى في مرتبة العقل؛ فإن العقل؛ كالعقال يُعقِّل المرء عن الحركة إلى إدراك الحقائق، كما أن العقال يُعقِّل البعير عن الحركة إلى الوصول إلى الحسِّيات، ولذا هو عقل متعلِّق بالمعاش لا عقل قدسي متعلِّق بالمعاد؛ ولذا ذمَّ الله الكافرين بأنهم لا يعقلون مع أنهم عقلاء، إذ لو كان لهم عقل قدسي لتنـــزَّهوا عن ألواث الشرك والمعاصي الحاصل عن متابعة الخيال، والحسِّ.

فمَن تخلَّص عن التقيُّد بهذه القيود الثلاثة بدعوات ثلاث من القلب، والروح، والسرِّ؛ دخل في عالم الإيمان والإيقان؛ بل في عالم الشهود والإحسان، وبما قررنا من السرِّ الخفي؛ يظهر وجه التثليث في نحو الدعاء، والنفخ والنفث؛ فعليك بالعمل، فإن التعزيز إنما هو في التثليث، والأمر التكويني يدور عليه، ويُرجع كل أمر إليه.

في آخر سورة يس: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

الملكوت هو[1]: الملك العظيم على ما يقتضيه الزيادة التركيبية؛ كالعظموت

---

(١) للعلماء في تفسير الملك والملكوت عباراتٌ حاصلها أن الملك هو: التصرف في الأمور، وفي تحقيقه =

بمعنى: العظمة الزائدة.

والرهبوت بمعنى: الرهبة الشديدة.

والرحموت بمعنى: الرحمة الغالبة، وعلى هذا.

والمراد بالملك العظيم هنا هو: ملك الروح؛ لأنه أعظم من ملك الجسد؛ لأن الجسد من عالم الصورة، والروح من عالم المعنى، والمعنى أوسع من الصورة، وإن كان كل من الروح والجسد مخلوقين على ما دلّت عليه النصوص.

نعم: إن الروح يلي الحق تعالى؛ فهو من عالم الأمر: أي من عالم الاختراع بلا مادة، ولا في مادة، والجسد يلي الخلق؛ فهو من عالم الخلق: أي من عالم الإيجاد من مادة في مدة.

والمراد باليد القابضة هاهنا هي: اليمنى المضافة إليها الملكوت العليا، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧]؛ وذلك لأن الأرواح من العلوِّيات فهي مقبوضة باليد اليمنى، والأجساد من السفليات؛ فهي مقبوضة باليد اليسرى.

كما قال تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:٦٧]: أي مقبوضه تعالى بالشمال على ما يقتضيه ما قبله، وإن كانت كلتا يديه تعالى يمينًا مباركة في الحقيقة على ما جاء في بعض الأحاديث الصحيحة؛ فاليد اليمنى بيد رب

=

كلامٌ يطلب من محله، والملكوت: عظم الملك؛ لأنه مبالغة فيه كالرَّهَبُوت، ولهذا فسر الملك بعالم الشهادة، والملكوت بعالم الغيب، وهو عالم الأمر، وقيل: الملك: ما يدرك بالحس، والملكوت: ما لا يدرك به، وذكر بعضهم عبارةً أبسط من هذه فقال: عالم الملك: عالم الشهادة، ويقال: عالم الخلق، وهو عالم الأجسام والجسمانيات، ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض، وبتضمنه التغير، وعالم الملكوت عالم الغيب، ويقال له: عالم الأمر، وهو عالم الأرواح والروحانيات، وهو ما أوجده الله تعالى بالأمر الأزلي بلا تدريج، وبقي على حالة واحدة من غير زيادة ولا نقصان، والجبروت عالم الأسماء والصفات الإلهية، يعني صفات العظمة والعلو، وقيل: هو عالمٌ بين العالمين يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك، فجبر بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت.

الناس، واليد اليسرى بيد ملك الناس، كما أن اليدين جميعًا بيد إله الناس، فاعرف جدًا.

وأشار العموم في كل شيء إلى أن الحياة سارية في كل شيء، فما من شيء إلا وهو حيٌ عالم متكلّم مسبِّح على ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:٤٤]، وإن كان ذلك خفيًّا عن إدراك العوام؛ لأن نظرهم مقصور على الظواهر، وأكثر الأشياء في الظاهر جوامد؛ لكن أين الجمود في جنب تجلّي الرب المحمود؟

وقوله تعالى: ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [يس:٨٣]؛ إشارة إلى ردِّ الفرع؛ وهو الروح إلى الأصل؛ وهو الله تعالى، وإن كان الجسد أيضًا مردودًا؛ لكن ردَّه إنما كان إلى المحشر للمحاسبة ليس إلى الله من حيث ذاته، دلَّ عليه: إنه ﷺ ترك تركيبه ليلة المعراج في المستوى، وسار بالروح إلى حيث لا أين، ولا حيث؟

فلكل من الروح والجسد مرجع يرجع إليه بحسب حاله ومقامه، فمَن ردَّ الحشر النفساني الجسماني؛ فقد غفل عن حكم الجسد.

ألا ترى أن الله تعالى حين أحيا عزيرًا عليه السلام أحيا حماره أيضًا؛ لأنه مركبه، ولا شك أن الجسد مطيَّة الروح، وإن كان الروح الإنساني ليس بداخل ولا خارج بالنسبة إلى الجسد؛ وإنما له تعلُّق من حيث التدبير والتصرُّف، وبدأ الآية بالتسبيح، وللتنـــزيه إشارة إلى أن الله تعالى، وإن كان بيديه ملكوت السماوات وملك الأرض لكنه في الحقيقة غنيٌّ عن العالمين، وإنما له تعلُّق بالعوالم من حيث إلوهيته وربوبيته، فكل شيء مألوه له، ومربوب.

دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾ [مريم:٩٣]، فالله تعالى أظهر كل شيء من حيث تجليَّاته، وأخفى كل شيء من حيث غيب هويته، وقراءة يس عن المحتضر؛ إنما هي للملكوت الناظرة إلى الغيب.

* * *

في تفسير الصافات

قوله ﷻ: ﴿فحَقَّ عَلَيْنا﴾ [الصافات: ٣١]: أي على إهلاك تلك القرية.

وقوله: ﴿قَوْلُ﴾ [الصافات: ٣١] الأزلي، والحكم الأَولى الذي أوجبه الله على نفسه قبل أن يخلق الخلق، وهذا يُنادى على ما ذكرنا من الحق الصريح، فإن الله لا يتغيَّر، وحكم الله لا يتبدَّل كما لا يتبدَّل ولا يتغيَّر الاستعداد الأزلي.

فالإرادة قديمة؛ كاستعداد الفسق لكن على ما قالوا: تعلُّقها بالفسق حادث كحدوثه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

اعلم أن هذه الكلمة جامعة لمراتب التوحيد؛ وهي قوله: لا إله إلا هو، ولا إله إلا أنا، ولا إله إلا أنت؛ ولذا لم يقل: إذا قيل لهم: لا إله إلا هو يستكبرون، فإن ضميرهم كان منحصرًا في شيء واحد؛ هو معبودهم الذي تقيَّدوا به، فشركهم يقتضي التقييد لا الإطلاق[1].

والله تعالى منـــزَّه أن يتقيَّد بشيء دون شيء؛ ولذا قال سبحانه وتعالى:

---

(١) قال الشيخ ابن سبعين: أول وظيفة من وظائف الشريعة: هي كلمة لا اله إلا الله، وتتضمن ألا فاعل إلا الله، فكل موجود في الكون الله أوجده من حيث هو فاعله، والفاعل لا يفارق مفعوله، وهو معه بالإيجاد والإبقاء، ولا وجود للشيء إلا به، فهو الأصل الضروري في وجود كل شيء، ولكل شيء حقيقة، وهو وجوده الذي هو به ما هو ووجود كل شيء، الذي هو به ما هو هو به، ومنه وعنه وإليه، هو حقيقة كل شيء وماهيته ووجوده؛ فالله: هو الحقيقة الجامعة، فإذا كان هو حقيقة كل شيء، فالأشياء كلها هي به على ما هي عليه، فهو الحقيقة الموجودة في كل حقيقة، وهو الذات المستحقة بذاتها لكل ذات، فهو مع كل شيء بوجوده؛ فلا غيبة ولا حجاب، والغيبة والحجاب: هو الجهل بهذا الاتصال والاستحقاق الذي ذكرناه، والغفلة عن ملاحظته وشهوده في كل شيء؛ بل شهوده ولا شيء معه.

وعلم الشريعة؛ يزيل الجهل المذكور، ووظائفها؛ ترفع الغفلة، وتنبه على الحضور مع الحاضر في كل حضور، فالحق هو نتيجة الشرائع، وعلوم الشريعة بهذا الوجه: هي علوم التحقيق، فاعلم ذلك.

فإذًا حقيقة لا اله إلا الله: أن لا موجود إلا هو، وما خلا الله باطل، والوهم يشعر بغيره، والوظائف الشرعية تذكر بالله، وذكره يزيل الوهم، ويمحو خبر الغيرية، ويقيم العبد في الحضرة الحاضرة في حضوره، فالحق نتيجة الشرائع كما قال، وهذا الكلام في نتيجة الشرائع، والحقيقة الجامعة، وعلوم التحقيق فافهمه.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللّهِ﴾ [فاطر:١٥].

وقال مَن قال من الكُمَّل: عقد الخلائق في الإله عقائد، وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوا.

فالمشرك يُقيِّد الحق في مرتبة واحدة، والتجلّي الجمعي الساري في جميع الكائنات يأبى ذلك.

فإن قلت قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦]؛ ينافي ما ذكرت، وأيضًا الاعتقاد العام المذكور يقتضي تداخل الكفر، والإيمان، وذلك لا يصحَّ أبدًا.

قلت: المراد معرفة الحق تعالى من حيث تجليه العام، وذلك لا يقتضي العمل بضدِّين؛ لأنه محجور من قِبل الله تعالى، فالإيمان الكامل؛ هو الكفر بالطاغوت، وما سوى الله تعالى جميعًا، والاعتقاد الأحدى في كل شيء، والعمل بما حدَّ الله تعالى في الشرع من الأمر والنهي.

ومن هنا يظهر الفرق بين أهل الإلحاد، وأرباب الحقائق؛ فإن الأولين يعملون بما يعلمون من كل ضدٍّ، وذلك كفر صريح، فحكم المساجد في باب العمل غير حكم الكنائس فيه، وأمَّا الآخرون فيعملون بما أمر الله به أن يُعمل لا بغيره، فيقفون عند حدِّ الشرع لِما أنهم يعلمون أن الله تعالى حكيم، وله حكم ومصالح فيما أطلق وفيما حجر حتى لو قيل لهم من قِبل الله: اشربوا الخمر لا يشربون؛ مراعاةً للعهد الأول، وعملاً لذلك القول على الامتحان، فإن كل أمر وارد ليس بإرادي؛ بل قد يكون التكليف للاختيار، كما أنه تعالى أمر أبا جهل ونحوه بالإيمان، وإن كان قد علم منهم خلافه، فالمأمور يتخلَّف عن الأمر دون المراد عن الإرادة، وإلا يلزم العجز تعالى الله عن ذلك.

ثم إن المراتب: مَن أنا، وهو، وأنت؛ مراتب التوحيد مطلقًا.

ومعنى التوحيد: مطالعة نور الوحدة في الآثار، والشواهد، ونفي الكثرة عن ذات الله تعالى؛ فإن الله تعالى ليس له شريك، وإن وحدته ليست عن عدد؛ وإنما

قولنا: واحد، ووحدة؛ للتنـــزيه عن أن يكون معه غيره، وللتفخيم أيضًا حيث يشعر بالاستغناء، وعدم العجز لا للدلالة على مفهوم الوحدة المقيس بالكثرة.

وقولنا: نفى الكثرة؛ لدفع التوهُّم وللتفهيم، وإلا فبعد إثبات أنه الحق هو الوجود الفائض على الموجودات لا حاجة إليه.

فإن قلت؛ فعلى هذا يلزم أن يصحَّ للكل أن يقول: لا إله إلا أنا، وأنا الحق؛ كما فعله الحلاَّج ونحوه.

قلت: لا شك أن للإنسان وجهين: وجه الإطلاق، ووجه التقييد.

فالوجه الأول: يلي جانب الحق، وبه يدركه، ومَن يدركه.

والثاني: يلي الخلق، وبه يتقيَّد بالأحكام مَن يتقيَّد.

وذلك أن الأول: ظهور التجلِّي في المظهر بحسبه، وبحسب المظهر المتجلَّى له، لا بحسب المتجلِّي، فإنه غير محصور في محلٍّ واحدٍ؛ لعمومه واتساعه، فهذا الوجه يقتضي أن يكون الساجد والمسجود، والعابد والمعبود واحدًا، وذلك لا يصحُّ من طريق الحقيقة.

وأما الثاني: هو المحلّ، والتعيُّن الخاص، وهذا الوجه يقتضي التغاير بين المتجلِّي والمتجلَّى له في الجملة، وبه يصحُّ الأمر والنهي، وكون الحق آمرًا معبودًا، وكون الخلق مأمورًا عابدًا، فمَن خلط بين المرتبتين؛ فقد زلَّ، وخرج عن الحكمة.

ولذا كان الأكمل من الناس مَن غُلب على حاله لا مَن غلبه الحال.

فإن الأول: لا يجري عليه لسان ذنب بخلاف الثاني؛ فوجب أن يكون الوجه التقييدي جنة على الوجه الإطلاقي؛ حتى إذا غلب عليه المناسبة الذاتية؛ أمسك العنان، وجرى على ما جرى عليه الكُمَّل من العمل بالوجه التقييدي؛ صيانةً لظاهر الشرع، وحفظًا للحدود؛ حذرًا عن الاختلال، وضبطًا للاعتدال.

ولهذا قال تعالى في مرتبة الجمع الإحاطي: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**﴾ [الأنفال:١٧].

فجمع بين رميه ﷺ الذي يلي جانب الوجه التقييدي، وبين رميه تعالى الذي جانب الوجه الإطلاقي، فهذه هي مرتبة الجمع بين التخصيص والتشكيك، فغير

العارف إذا شاهد هذا الرمي عن يد النبي ﷺ؛ أسنده إليه، وذلك شرك جدًا[1].

وأمَّا العارف الغير الكامل فيسنده إلى الله تعالى، وذلك إلحاد قطعًا.

وأمَّا الكامل فيسنده الظاهر إلى الظاهر، والباطن إلى الباطن.

فإن تأثير الرمي في الخارج لم يكن من الحقيقة الكونية التي تلي جانب الخلق؛ بل من الحقيقة الوجوبية التي تلي جانب الحق، فإذا كان النبي ﷺ جامعًا بين مرتبة الخلقية الكونية التقييدية، وبين المرتبة الحقية الوجوبية الإطلاقية؛ فصحَّ إنه هو الرامي من وجه، وإنه غير الرامي من وجه.

فهذا الأدب الإلهي نظر إليه الكُمَّل فحافظوا على المراتب، ولم يقولوا: أنا الرامي، أو أنا الحق مثلاً؛ بل جعلوا المرتبة الواحدية جنة على المرتبة الأحدية، فستروا المناسبة الذاتية الأحدية في المغايرة الصفاتية الواحدية؛ فسلَّموا الأمر إلى الله تعالى، وسلموا عن الغوائل، رزقنا الله تعالى وإياكم حلاوة هذا المقام من طريق الذوق والشهود، لا من طريق العلم والشعور فقط.

والحاصل أن مرتبة: لا إله إلا أنا مرتبة موسى عليه السلام؛ لأنه هو المنادى به من صورة الشجرة.

ومرتبة: لا إله إلا أنت مرتبة يونس عليه السلام كما قال في بطن الحوت:

﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

---

(١) قال الشيخ الأكبر في كتاب «الجلالة» ومن هذا الباب باب الحيرة الإلهية.

قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]، وافعل يا عبدي ما لست بفاعل، بل أنا فاعله ولا أفعله إلا بك؛ لأنه لا يمكن أن أفعله بي، فأنت لا بد منك، وأنا بدَّك اللازم، فالزم بدَّك، ولا بد مني، فصارت الأمور موقوفة عليَّ وعليه فحرت وحارت الحيرة وحار كل شيء، وما ثَمَّ إلا حيرة في حيرة، وأنشدهما وغيرهما وقال، ومع قولي هذا كله قيل لي: افعل من باب الحيرة الجامعة لجميع النسخ. ثم قال في آخره: فاعلم سرَّ قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:٢٩]، فالعاقل يعمل على إمضاء الحكم وإنفاذه، ولا مردَّ له؛ لقوته والمحقق يأخذه من باب الحيرة، وأنه لا يمكن إلا هذا، وإلا فكما وصلت الخسمون إلى خمسة لم يمكن أن ينقص منها، كذلك لم يمكن أن تبقى الخسمون أصلاً لما سبق به القول.

ومرتبة: لا إله إلا الله مرتبة محمد رسول الله ﷺ.

وكذا مرتبة: لا إله إلا هو، فإن هذه المرتبة: أي مرتبة: لا إله إلا هو، وإن كانت مرتبة هود عليه السلام كما قال: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦] فعبَّر عنه تعالى بالهُويَّة الغيبية السارية؛ لكن كونها مرتبته؛ إنما هو من طريق باطن الهُويَّة، وكونها مرتبة نبينا ﷺ؛ إنما هو من طريق ظاهرها وباطنها.

فظاهرها: لا إله إلا الله.

وباطنها: لا إله إلا هو.

فانظر كيف أُدِّب النبي ﷺ في التوحيد حتى قال ليلة المعراج حين ما دخل عليه تعالى:

«أنا العبد لا إله إلا الله»، فأثبت العبودية والأُلوهية جميعًا، ومَن مشى على طريقة هذا الاعتبار؛ أمن العثار.

***

وفي سورة الزمر

قال سبحانه حكاية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

اعلم التوحيد واقع في العام، ومتحقق في نفس الأمر سواء عرفه الإنسان، أو لم يعرفه، وتكلَّم بكلمته، أو لم يتكلَّم.

فإن الله تعالى لَمَّا خلق العقل الأول؛ كان أول ما تكلَّم به: لا إله إلا الله، فشرَّفه الله تعالى بأن يقول: محمد رسول الله، وبقى أمر الوجود على هذا التوحيد إلى قيام الساعة، وإلى الأبد، ولَمَّا أخذ الله الميثاق؛ كان أول مَن تكلَّم بقوله بلى هو العقل الأول[1] لأنه رئيس أهل التوحيد لا قبل البعثة، ولا بعدها؛ لأن اللاحقة عين السابقة، والأبد مرآة الأزل، والنهاية صورة البداية، والآخر سرُّ الأول، وكل مَن وقعت له المناسبة الذاتية بذلك العقل الأول؛ كان حاله في التوحيد حاله؛ لأنه تعيُّنه هو عين تعيُّنه، والكل في الصف الأول بهداية الله تعالى وعنايته.

فقولنا: لا إله إلا الله؛ صورة التوحيد لآدم وذريته في سبعة آلاف سنة.

وقولنا: محمد رسول الله؛ صورة التصديق لهذه الأمة المرحومة في ألف سنة؛ بل وقد يكون من هذه الأمة مَن له الجمعية الإحاطية؛ فيحصل له من التوحيد والتصديق في العمر القليل حكمهما في تمام دور السنبلة، فإن الله تعالى إنما جعل هذا الدور سنبليًا؛ لأجل المضاعفة المقصودة لهذه الأمة لا لغيرها من الأمم السالفة، فظهر أن المعبود بالحق من الأزل إلى الأبد؛ هو الله تعالى وأن الرسول هو محمد ﷺ؛ لأن مَن عَداه من الرسل المتقدمين؛ إنما هم من شعبه وصوره[2].

---

(١) العقل الأول من الحقيقة الحقيَّة التي هي الوجه الخاص له من جانب الحق، وبما زاد على جميع المخلوقات، فلم تظهر الصور الحقيَّة إلا به، فالعقل مع عظمته جزء من الصورة وهكذا كل موجود إنما هو في البعضيَّة فافهم.

(٢) فائدة: فإن العقل الأول روحه الأعظم، والنفس الكلية نفسه الشريفة، وكل الأرواح والنفوس والعقول الغير المنطبعة اندرج في ذلك، وكذلك النفس المنطبعة في الجسم الكل هي خياله ﷺ، وجميع النفوس المنطبعة مع ما فيها من عالم المثال مندرجة في تلك النفس، بل ما من شيء في العالم إلا وله في جميع ما ذكر صورة على حسب عالمها، سواء كان روحًا أو نفسًا أو مثالاً، وذلك =

والمشركون جعلوا الأصنام معبودات كما دلَّ عليه قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ [الآية:٣]؛ وذلك باطل جدًا، وإن كان مرادهم من ذلك؛ هو التقرُّب إلى الله تعالى كما دلَّ عليه قولهم: ﴿إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الآية:٣].

وذلك أن التجلِّي الأحدي سار في جميع الموجودات، فإذًا كل الأشياء دليل عليه لا شريك إذ لا شريك أصلاً؛ لأن الوجود واحد، والشيء لا يُقرِّب نفسه إلى نفسه؛ وإنما يُقرِّب غيره، والغير هنا هو العبد العابد، ومنه قرب النوافل، وقرب الفرائض.

ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]؛ لأن المعدوم لا يكون مغفورًا مستورًا، وشريك الله تعالى ممتنع فلا وجود له أصلاً.

وكون الأصنام شركاء له؛ إنما هو باعتبار الوهم، والتصوُّر الباطل، فبطل التقييد، وظهر سرُّ الإطلاق.

ألا ترى أن الشمس إذا طلعت؛ فنورها يعمُّ الدنيا، ويدخل في الكَوَّات جميعًا، فكل شعاع منعكس من أشعتها؛ فهو دليل عليها، إلا أن شمس مثلها، فالشمس واحدة، والأشعة مختلفة متعددة بحسب اختلاف الكَوَّات وتعددها، وكل الأشعة إذا اجتمعت؛ فهي الشمس، فمَن حصرها في شعاع من الأشعة؛ فقد جهل الأمر في الخارج، ونفس الأمر، فكما أن هذا التقييد من الجهالة؛ فكذا تقييد نور الإلهية بواحد من المألوهات، أو أكثر جهل وشرك عظيم، فتنبَّه لهذا الأمر العظيم، واجتنب من الإلحاد والشرك والكفر، فلا تعبد إلا الله.

=

المذكور مندرج تحت المرتبة الإمكانية، فما من ممكنٍ إلا وهو مندرجٌ فيه: أي في نشأة البشرية، وكذلك اندرج في باطن نشأته كل اسمٍ له تعالى، حيث أن الظاهر في نشأته الاسم (الله) وهو رب الأرباب، فبجمعه الأسماء كلها شمل المرتبة الوجوبية مرتبة الأسماء والصفات، وبجمعه آثارها شمل المرتبة الإمكانية مرتبة الحوادث المقابلة للأولى صورته العلمية.

والحاصل: إذا تأمَّلت ما تقدَّم تجده راجعًا إلى قصد أنه هو الكل، وأن كل مخلوقٍ إنما خُلق لأجله ﷺ؛ لكمال العبودية فيه والله الهادي، وفي هذه الجملة من الاصطلاحات النشاء الشامل لمرتبة، وقوس الأسماء ومرتبة، وقوس الأعيان الثابتة وما نـــزل عنها، المعبر عنهما بالوجوبية والإمكانية.

في سورة غافر
حم المؤمن

قال الله سبحانه: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥][(١)].

اعلم أن الفيض الإلهي للقلب؛ كالروح للبدن، فكما أن البدن لا يتحرك إلى جانب الخلق إلا بالروح، وبه حياته؛ فكذا القلب لا يتحرك إلى جانب الخلق إلا بالفيض والجذب، وبه قوامه.

فالقلب بلا فيض ميت؛ كالبدن بلا روح، وبه يعرف أن إيمان المقلِّد وإن كان صحيحًا في الظاهر؛ لكن لا يرتسخ ذلك فيه إلا بالاستدلال، فأدنى الفيض هو الاستدلال، فإن الإيمان إنما يتقوَّى به، والاعتقاد لا يتمكن في القلب إلا به، وفوقه الكشف، فإذا نزل المؤمن عن هذين الوصفين، وكان إيمانه بمجرَّد التقليد لأبويه أو لأهل بلده؛ فهو كالميت، ويُوشك أن لا يُفتح باب السماء لروحه بعد موته؛ لعدم انفتاح قلبه، وعدم تنوُّره بالنور الحقيقي، ولو بمقدار السهم.

ثم إن الفيض الذي يُحيى به القلب، ويقال له: الروح أيضًا، إمَّا أن يلقيه الله تعالى بلا واسطة؛ وهو أعزُّ وأندر، وإمَّا أن يلقيه بواسطة ملك من الملائكة كجبريل، فإنه ملك ملوك الأرواح، وروح القدس؛ وهو عزيزٌ ونادرٌ، وإمَّا أن يلقيه بوساطة شيخ من المشايخ الكاملين، ورئيسهم الخضر عليه السلام في الإفاضة والإلقاء؛ وهو كثير شائع، وذلك لأن الصحبة الجسمانية مؤثِّرة، والأخذ من المجانس المصاحب أغلب.

وأمَّا الأخذ من الملك: فيحتاج إلى تنوير المحل؛ لأن الملائكة خُلقوا من نور، فلا بد في الأخذ من المجانسة النورانية.

---

(١) فأول ما ألقاه: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، فكان الروح هو الملقي إلى قلوب العباد من أمره، ويكون ذلك الروح عين الرسالة، وعين الرسول، وعين المرسل، فارتفعت الوسائط إن كان عين الوحي هو عين الروح، وكان الملقي هو الله لا غيره، فهذا الروح ليس الملك، بل عين المالكة هي الرسالة فافهم.

وعُلم من هذا أن الأخذ من الله أصعب من الأخذ الملكي؛ لأنه نور الأنوار، والنور الشعشاني الخاطف للأبصار، فلا يتيسر للعبد الضعيف المرائي الظلماني المناسبة به إلا بهيئة المحلِّ، وهو السرُّ وذلك بتفريقه عمَّا سوى الله تعالى بالكلية، فإنه لن تنكشف الحقائق، والمحل مشغول بشيء من ذلك، ولم يحصل إلا الواحد بعد واحد، فإن أكثر المعارف الدائرة بين السالكين من قبيل لوازم الحقائق نفسها، وإن كان يظن بعض الظَّن: إنها من المعارف العالية، وإن أهلها من أكامل الأرواح الطيبة، وأخصِّ خواص الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٨].

إنما لم يستويا؛ لأن البصير على نور ظاهر من ربه بخلاف الأعمى، وكذا المؤمن والكافر، فإن المؤمن على نور باطن من ربه بخلاف الكافر، وكذا حال المحسن والمسيء والمطيع والعاصي.

والفرق بين المحسن والمطيع أن المحسن أخصُّ لأن باطنه منوَّر بنور الإحسان والشاهدة، فكل محسن مطيع دون العكس، فظهر أن الآية بعبارتها تدلُّ على عدم المساواة بين الأعمى والبصير الحسِّيين، وإشارتها تدلُّ على عدمها بين الأعمى والبصير المعنويين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، يدلُّ على أن أعمى الباطن أشدُّ من أعمى الظاهر؛ بل العمى الباطن لا نسبة بينه، وبين العمى الظاهر إلا من حيث الاشتراك في الاسم، وقد كان بعض الأنبياء عليهم السلام أعمى؛ كشعيب فلم يضرَّه ذلك في كماله؛ لكونه في حكم البصير.

لطيفة:

قد كان لي أخٌ صغيرٌ؛ هو من أخس الناس، وأبخلهم في زمانه مع سعته وثروته، فتوفي فرأيته في المنام؛ كأنه متهيئ للوعظ، فلمَّا رأني عند الكرسي أدبر وقال: إني لا أقدر على الوعظ، وهو حاضر، فقيل لي: إن اسمه يوجد في دفتر العُمي عند السلطان فليتتبع هناك، فلمَّا اطَّلعت على ذلك الدفتر؛ وجدت أكثر أسمائه

النساء، فأعرضت عنه، وخطر ببالي قوله تعالى: ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى**﴾ [الإسراء:٧٢]؛ يعني أن مَن كان مجبولاً على العمى؛ فلا يفيده العلاج.

وأمَّا العمى العارض: فقد يزول بسبب من الأسباب، وكذلك حال الذي سلك طريق الحق، وكان مطمح نظره ما انتهى إليه نظر الأخصَّاء، فإنه يكشف الله عماه، إما في الدنيا، وإمَّا في الآخرة.

وأمَّا غير السالك: فيبقى على حاله، ونظيره القاعد عن الحج، والخارج له، فإن الخارج الغير الواصل إلى المقصد؛ كان أجره على الله بخلاف القاعد فظهر أن في الحركات مطلقًا بركات كثيرة.

***

وفي سورة فصلت

ورد صباح الثلاثاء الرابع عشر من شهر المولد النبوي سنة ثلاثين ومائة وألف قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

الضمير للقرآن؛ يعني أن الله تعالى هدى مَن استعد للإيمان إلى الإيمان بسبب القران، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]؛ والمقصد هداية الله تعالى بسببه، فوصفه بصفته؛ لقوته في السببية.

وكذا قوله سبحانه: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس:٢]، و﴿الذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨]؛ فإن الحكيم في الحقيقة؛ هو الله تعالى لكن لَمَّا اشتمل القرآن والذكر على حكم الله وحكمه، وحقائق ذاته وصفاته؛ وُصف به.

ثم إن كون القرآن هداية إنما هو في مقابلة الضلالة؛ وهو الخروج عن الطريق المستقيم.

كما أن الهداية هو الدخول فيه، وكونه شفاء؛ إنما هو بالنسبة إلى الأمراض الباطنة؛ كالكفر، والنفاق، والجهل، ونحو ذلك.

فإن المؤمن في أول دخوله في دائرة الإيمان يهتدي إلى الحق، ويتخلَّص عن الأمراض المذكورة العائقة له عن الحق، ثم إنه يزداد هداية وشفاء بأن يترقَّى إلى مرتبة الإيقان والإحسان والولاية الخاصة الأكملية، ويتخلَّص عن التلوينات والحجب الحاصلة في مرتبة الروحانية؛ وهي الحجب الكونية اللطيفة الرقيقة النورانية[1].

---

(١) قال سيدي محمد وفا في المعاريج: واعلم أن الحجب النفسانية والروحانية النورانية والظلمانية ما كثف منها وما لطف راجع إلى أوصاف تلبسها النفوس والأرواح من الأقوال والأعمال، والأحوال، والأفعال، والنيات، والضمائر، والاعتقادات، وهواجس النفوس، وخطرات الأرواح والضمائر، والفكر، والتعقُّل، والتصوُّر، والتذكُّر، والتدبُّر، والعقد، والإصرار، والندم، والأسف، والإنابة، والزُّهد، والصبر، والرِّضا، والحمد، والنظر، والاعتبار، والخشوع، والخضوع، والإسلام، والاستسلام، وحقيقة الإيمان، والإحسان، وتحقيق العرفان، وما يجري مجرى هذه الأوصاف المعنوية، وأن جميع ذلك وصف من اللبس والتحلِّي والمساكن والمطالب والمراغب والقصور والحور والولدان، والمقامات الحسان، وعجائب غرائب العطايا الحسان من أنواع النعيم، وأفضال الكريم، =

=

الملك الديان، فالروح لَه العروج والارتقاء وقبول إفاضات الأنوار الرحموتية الكشفية، وتلقيات العلوم اللدنية، وتنـــزلات الروحانية، والفتوحات الربَّانية، وخرق الحُجُب النورانية، واتِّباع الأقدام المحمدية للوصول للدخول والحضور بين يدي الحضرة الإلهية، وتحقيق القرب والمشاهد لجمال الوجهة الربَّانية الصمدانية، والتجريد، والتفريد، والتخلُّق، والتشبُّث، والتعلُّق بأذيال المحمدية؛ لبلوغ المقصود من الإفاضات الرحموتية، والإضاءات النورية لشهود رب البرية لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

وأما حجابيات النفوس فبالعكس مما ذكرناه من المهابط الدركية، والمسالك الظلمية، والمهالك النارية، والمساكن الدنية، والمنازل الحصرية، والمطاعم الزقومية، والمثاوب الحميمية، والملابس النيرانية، والسرابيل القطرانية، جزاء الأعمال الكفرانية، والأعمال الخسرانية، فجزاء الحسنات أنوار روحانية، ولطائف ضيائية، وجزاء السيئات ظلم حجابية، ولبس جسمانية نفسانية نارية كثائف أرضية.

قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين:١٥-١٧].

فأشد عذاب أهل الحجاب الطرد والإقصاء والإبعاد عن باب كرم الله، والإياس من رحمة الله، والوقوع في عين غضب الله، وأدناه الوقوع في عين الجهل بالله، والشرك في العمل لغير الله، والغفلة عن القيام بحقوق الله، والالتفات لمطامع النفوس بالتوجُّه لغير الله، وطلب الرزق من غير الله، وجلب قلوب الآدميين إليه بما لا يرضى الله، والغفلة عن الإنابة بالرجوع إلى الله، والانهماك في طلب الدنيا حرصًا عليها، وجمعها لغير الله، وإكثار ما تدخره النفس لضعفها عن الثقة بالله، فالمتصفون بهذه الصفات محجوبون حجبًا نفسانية دون الحجاب الأول، ولكل وصفٍ منهم عذاب يناسبه كثيف لكثيف، ولطيف للطيف، فحجب النفوس يُعذَّب به الأخسرين الظالمين، والفاسقين الكافرين، وحجب الأرواح ينعهم فيها الصالحون، والشهداء، والصديقون، والأولياء.

فأما الأنبياء والمرسلون فلما كانوا معصومين من الكبائر برءوا من حجابيات النفوس، وأما الصغائر فمن ناله بارقٌ منه، أو لحظة خاطر، أو يسمع لَه لامع، أو سنح لَه خاطر، أو خطر له وهمٌ، أو عدل به فهمٌ، أو وقف عند دعوى، أو شكى نزول بلوى، أو لفت لغير ربه، أو ذهل عن استغفار ذنبه، فإن كل ذلك لطائف حجابيات، تنعم فيها الأرواح في رياض الجنات، مع أنها مشتغلة عن الغرق في لجج بحر التوحيد، ومقام التفريد، وحسناتهم لا تُحصر عددًا، ولا تبلغ مددًا، وسيئاتهم حسنات

=

=

الأبرار أهل اليمين؛ فإنهم المقرَّبون بحضرة رب العالمين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٨-٩٦].

فالأنبياء المرسلون هم خواص المقرَّبين، والأنبياء غير المرسلين مفضولون بالمرسلين، وكل متفاوتون في درج القرب والتكريم، فقريب وأقرب.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فالمقرَّبون من المرسلين والأنبياء والمصطفين والأولياء المجتبين أصحاب قدم صدق وتمكين، ونفوس تشرف على نفوس الخلق أجمعين، فهي تقية نقية، زكية، بهية، شريفة، علية، سنية، قدسية، خالصة عن الشرك، بريئة من الشك، فهي تتصرَّف من الحجابيات، ولا تُحجب بالحجابات، فإن الحُجب النورانية مقامات عليَّات، ومنازل درجات، ومساكن طيبات، ومقاعد صدقيات، فالمقرَّبون حاكمون عليها، وهي حاكمة على من دونهم في المراتب من الأبرار وأهل اليمين، فالأولياء الأبرار تحكم عليهم المقامات، وتتصرَّف فيهم الواردات؛ لضعفهم عن حمل أثقال النبوات، وأعباء الرسالات، وتظلهم أنوار المقامات، وتسلبهم الأحوال بأسرار أثقال الأقوال المنـــزلات.

قال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥].

فمن كان ضعيفًا عن حمل ما يتنـــزل، لابسًا صفته البشرية، فهو في حصر المقامات وأحكام الحجابيات، فالجسم لا يطيق حمل تنـــزل اللطائف الجبروتية إلا بواسطة حمل النفس، والنفس لا تستطيع حمل واردات القلب إلا بواسطة شرح الصدر، والصدر لا يطيق حمل واردات الروح إلا بواسطة القلب، والقلب لا يستطيع حمل واردات السر إلا بواسطة الروح، والفؤاد لا يطيق حمل واردات الفيض الإلهي إلا بواسطة قبول السر، والسر لا يقبل مشاهدة الحضرة الإلهية وسماع الكلام الربَّاني إلا بواسطة الرحمة، فالرحمة تنـــزلت بسر الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، فالأسماء حُجب الذات، والصفات حُجب الأسماء، والأفعال حُجب الصفات، فالحجب تحجب بعضها بعضًا، فحجب الأجسام من نسبتها، وحجب الأرواح من نسبتها، فالنفوس الطبيعية مخلوقة عن لطائف طبيعية عنصرية، فالهياكل الجسمانية واللطائف الإنسانية

=

=

حجابيات لها، ومظاهر تظهر فيها بتصريفها من حركاتها وقيامها وقعودها وصلاتها وسعيها ودوائها ودائها، والأجسام اللطيفة حجابيات لا لطف منها، فالنفوس حجابيات الصدور الجبروتية، والصدور حجابيات القلوب الملكوتية، والقلوب حجابيات الأرواح الروحانية، والأرواح حجابيات الأسرار العقلية، والأسرار حجابيات الأفئدة النورية، والأنوار حجابيات الصفات الرحموتية، والصفات الرحموتية حجب أسماء الربوبية، وأسماء الربوبية مظاهر صفة الألوهية، وأسماء الألوهية سماء ذات الصمدانية الأحدية الفردانية، جلّ ربنا وتقدَّس عن تشبيه المشبهين، وزيغ الزائغين، ووهم قلوب القوم العمين، وتبارك الله رب العالمين، فتنـــزلات أسماء الألوهية لظهور الربوبية، وتنـــزلات الربوبية لظهور الرحموتية، وتنـــزل الرحموتية لظهور النورية الروحية، وتنـــزل الروحية النورية لظهور الروحانية، وتنـــزل الروحانية لظهور الملكوتية، وتنـــزل الملكوتية لظهور الجبروتية، وتنـــزل الجبروتية لظهور النفسانية، وتنـــزل النفسانية لظهور الجسمانية، وظهور كل حقيقةٍ من سمائها إلى أرضها لظهور تصريفها في عوالمها، فلا يظهر تصريف النفس إلا بواسطة الجسم، ولا يظهر تصريف الصدر إلا بواسطة النفس، ولا يظهر تصريف القلب إلا بواسطة الصدر، ولا يظهر تصريف الروح إلا بواسطة القلب، ولا يظهر تصريف السر إلا بواسطة الروح، ولا يظهر تصريف الفؤاد إلا بواسطة السر، وكل حجب نورانية ونارية، فالحجب السمائية نورانية، والحجب النارية ظلمانية، فالنورانية حجب الأرواح، والنارية حجب النفوس، فالحجب بأسرها ترجع إلى حجابين:

نوريًّا، وناريًّا، والعالم بأسره علويه وسفليه، أرضيه وسمائيه في ضمن هذين الحجابين؛ إذ العالم السفلي بأسره جسمانيًّا ظلمانيًّا.

والعلوي بأسره روحانيًّا نورانيًّا، والإنسان جمع فيه خلاصة العالمين، وحقيقة الكونين، فهو كثيفٌ جسمانيٌّ، ولطيفٌ روحانيٌّ، فلطيفه روحًا لكثيفه، وكثيفه جسمًا للطيفه، فبفضل كثيفه للطيفه تظهر روحانيته، وبظهور روحانيته تبطن جسمانيته، وذلك في يوم قيامته، وتبديل أرضه غير أرضه، وسمائه غير سمائه، وظهور روحانيته وبطون جسمانيته، وفي دار دنياه تظهر جسمانيته وتبطن روحانيته، ولذلك لما كان الإنسان في دار دنياه محجوبًا بحجبٍ شتى نارية ونورانية حُجب عن سماع كلام الله، وعن مشاهدة جمال الله، فإن صفة البشرية حجاب مانع، وحسام للطريق قاطع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

=

=

فالأجسام والنفوس والصدور والقلوب والأرواح والأسرار والأفئدة النورانية كل حجب لله على عباد الله، فالعباد محجوبون بأنفسهم عن مشاهدة ذات الله ﷻ، ويفترقا الحجابان إلى سبع حجب، ثم إلى سبعين، ثم إلى سبعين ألف حجاب من نورٍ وظلمةٍ، وأصلهن حجاب واحد ناري أو نوري، فمن دخل في ميم المحمدية، وحاء الحقيقة الحنيفية، وميم الملكية، ودال الديمومية، وألف الإحاطية، وحاء الأحمدية، وميم الملكية العبدانية، ودال العبودية، زُج زجة تبعية محمدية أحمدية، فخرق الحجب النارية الجسمانية والنورية الروحانية، ولحق بالإمامة المحمدية، والسيادة العبدانية، وتحقق بالخصوصية لسيد البرية إمام الملكية في الروحانية والآدمية في الإنسانية، فكثرة الأعداد في الحجب بكثرة التباس الأوصاف، والوقوف عند أحكام الصفات، فكل وصفٍ تُوصف به النفس حجاب كل صفةٍ تتصف بها الروح حجاب، فالحجب النورانية تجذب الروح للتنعُّم بها، والحجب النارية تجذب النفس لتتنعم بها، في نعيم الروح دون النفس عذاب النفس، وفي نعيم النفس دون الروح حجاب الروح، فنعيم الأرواح رفع الحجب الملكوتية، وكشف الأغطية الروحانية، وإيضاح الدرجات النورانية، وكشف أسرار الآيات الفرقانية، وتبيان العلوم الغيبية، وإيضاح اللطائف الفردوسية، وارتقاء المقامات العلية، وتلقيات العلوم اللدنية، وقبول الإفاضات الرحموتية، والإضاءات العرشية، وكشف الأغطية الحجابية عن البواطن النورية، ومعرفة الأرواح القدسية في العوالم البهائية قبل التنـــزل لمشابكة الجثمانية والبطون عن العوالم الروحانية، والظهور تحت أحكام الصفات البشرية والآدمية الإنسانية، ونعيم النفس دون الروح ببلوغ أغراضها الدنيوية الدنية، ومطالباتها الشهوانية، ولمحاتها الدركية، وآمالها البعدية، وأخلاقها الرذيلية، وأعرافها الأخسرية، ومطامعها الأقسامية، وتشوفاتها البهيمية، وكل ذلك بعد عن مقامات الروحانية النورانية، واستغراق في الحجابيات الظلمية، والمؤمنون تحرق أنوار إيمانهم كثائف حجابياتهم، وتخرق سهام أنوارهم حجابيات نفوسهم، فيمرقون من حجابياتهم كما يمرق السهم الثاقب، فتنعم نفوسهم وأجسامهم بتنعم أرواحهم، فتنعم جملتهم نفوسهم وأجسامهم وصدورهم وقلوبهم وأرواحهم وأسرارهم وأفئدتهم ظواهرهم وبواطنهم، كثائفهم ولطائفهم، دقائقهم ورقائقهم وحقائقهم، فينال كل جزءٍ وفردٍ من ذرات أجزائهم الظهارية والبطانية الجسمانية والروحانية أوفى نصيب، وأزكى حظ من أنواع النعيم، فكل رقيقةٍ لحقيقة ودقيقةٍ لرقيقة تشهد في ذاتها من نعم الناعمين ما لم يبلغه أحدٌ من رقائق ذاتها لأحدٍ من العالمين، فتشهد الرقائق في ذواتها ترادف ازدياد النعم في كل زمن فرد متجدد، فترى أن الجنة بأسرها لها، وأن المزيد وارد عليها دون من عداها، وأنه لم يبلغ أحد

=

فإن قلت: فإذا كانت روحانية نورانية؛ فما معنى التخلُّص عنها؟.

قلت: أمَّا الروح فلا كلام في كونه مخلوقًا كما دلَّ ﷺ:

«أول ما خلق الله روحي»[1].

والخلق حجاب على وجه الحق بالنسبة إلى الخلق، فإن الله تعالى لا يحتجب إلا بصفاته، فلا حجاب له.

=

في نعيم الجنة ما بلغت، ولم يعط أحد ما أعطيت، فتفوَّه بالحمد لله رب العالمين، والثناء والشكر لأكرم الأكرمين. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

فالأبرار أهل اليمين، أدنى نعيمهم اشتغالهم بالتنعُّم في دار النعيم، وأعلاها كشف حجب التنعيم لمشاهدة البر الرحيم، وأما المقرَّبون فدائمون بمحاضرة الوجهة الجمالية، والحقيقة الرحمانية، والذات الصمدانية، والصفة الألوهية، فهم بين حجاب رحماني وكشف لاهوتي رباني، فبكشف الحجاب اللاهوتي يغرقون في بحر الوحدانية، ويفنون عن الأنانية، ويمحون من بين الملكية والإنسانية، فتُمحى آثارهم، وتُطمس أخبارهم، فتحرقهم أنوار اللاهوتية، وتصطلمهم سبحات الربوبية، فيفنون من بين الأكوان، وتستغرقهم حقيقة كان، قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان».

وكتب في الذِّكر كل شيءٍ حتى الكيس والعجز فمن أحرقته سبحات الوجهة الإلهية، ومحقته أنوار الحقيقة الصمدانية، تحقق بالدخول تحت ظل ميم المحمدية، وشهدت له الحقيقة الربَّانية بخصوصية العبدانية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

وهو تعالى يختص برحمته من يشاء، ويؤتي ملكه من يشاء، ويؤتي الحكمة من يشاء، وما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها، وهو تعالى الفتَّاح العليم، ذو الفضل العظيم، لا إله إلا هو رب العرش الكريم.

(١) لم أقف عليه.

ومعنى الحق: اقتران الوجود بالماهية، فالوجود؛ هو الوجود الأول الذي هو وجود الحق، ولا يعتريه الخلقية؛ وإنما المخلوق هو الماهية؛ وهي تعيُّن خاص بالنسبة إلى ما في علم الله تعالى من الثبوت.

ومن هذا السرِّ قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، فجعل الوجه الذي يلي وجه الحق غير هالك؛ بل الحقيقة الإنسانية جامعة لوجهي الإطلاق والتقييد، فوجه الإطلاق؛ هو وجه عين وجه الحق في الحقيقة، ولولا هذا الوجه؛ ما عُرف الحق؛ إذ لا مناسبة بين الحق والخلق أبدًا[1].

ومن هنا ورد: «**لا يعرف الله إلا الله**»[2].

وقالوا: إن البسيط لا يدركه إلا البسيط؛ إذ لا مناسبة بينه، وبين المركب، وعلى هذه فابحث جميع الموجودات، فما من كثيف إلا وله جهة لطافه بها يدركه اللطيف، ومن هنا يدخل الروحاني من الجدار الغير النافذ.

وأمَّا النور فمعنى حجابيته: كونه في مقابلة الظلمة، ولا شك أن ما كان في مقابلة الظلمة؛ فهو في حكم الظلمة، كما أن الوحدة المقابلة لكثرة في حكم الكثرة؛ ولذا لا يُوصف الله تعالى؛ وإنما يُوصف بالوحدة الحقيقية التي هي مبدأ الوحدة الاعتبارية، وكذا لا يُوصف إلا بالنور الذي هو مبدأ النور المقابل للظلمة؛ وهو النور الذاتي الأصلي الحقيقي الذي أُشير إليه بلا ليل ولا نهار؛ لأن النهار المقابل الليل؛ هو النهار العارض، والنور الطارئ.

وما يُقال: إن الله تعالى يتجلَّى في ليلة القدر؛ فالمراد به النور الذاتي الذي ليس

---

(١) فكل شيء موجود نشاهده حسيًّا، ونعلمه عقلاً، وليس بهالك، فكل شيء بوجهه ووجه الشيء حقيقته، فما في الوجود إلا الله، وإن تنوعت الصور، وذلك أحكام التجلي لا المتجلِّي؛ فإنَّه ورد في الحديث أنه يتنوع فيعرف وينكر؛ لأنه كل يومٍ هو في شأن، فنكر للعموم والشمول، فذلك قال (له الحكم وإليه ترجعون): أي مَن يعتقد أنَّ كل شيءٍ جعلناه هالكًا، وما عرف ما قصدناه من الآية إذا رآه ما يهلك منه، ويرى بقاء عينه بالهلاك، فهو وجهي، فعلم أن الأشياء ليست غير وجهي، فإنها لا تملك، فردها إلَيَّ حكمًا.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١/٢٦٤).

في مقابلة الظلمة، فنور ليلة القدر؛ نور ذاتي أصلي حقيقي لا يُقاس عليه إلا نور الصفاتية، ومن نور القمر والكوكب ونحو ذلك، فإذا عرفت هذا؛ فاجتهد ألا يكون نورك نورًا آفلاً حاصلاً من بعض التجليَّات الصفاتية؛ بل نورًا ثابتًا باقيًا دائمًا حاصلاً من التجليَّات الذاتية، والله الهادي إلى نوره.

قولهم:

تعلَّم يا فتى، فالجهل عار

صرح بالفتوة؛ لأن المتعلِّم أيًّاما كان شابًا أو شيخًا، إذا كان من أهل الفتوة؛ فهو لا يستحيي أن يأخذ العلم ممن هو أعلى منه وأدنى.

دلَّ عليه قوله ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها**»(١)؛ لأنه ﷺ لم يشترط أينا واحدًا متعيِّنًا للأخذ إذا كانت مشتملة على الحكمة؛ وهو العلم، وأكثر ما يطلق على باطن العلم؛ وهو الوقوف على حقائق الأشياء كما هي(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، وما كثره الله تعالى لا يدخله قلة وامتن على نبيِّه وخليفته داود عليه السلام، وعلى نبيِّنا ﷺ بأن أتاه الحكمة وفصل الخطاب، وهو من ثمرة الحكمة أو الحكمة نفسها، وهو إيجاز البيان في موطن الإطناب والإسهاب في الآخر على ما يقتضيه المقام والحال، وأوتي صاحب جمع الجمع ﷺ ما لم يؤتوا وهو صدق قوله: «**أوتيت جوامع الكلم**» وهو من أكبر فصول الخطاب جزء من أجزاء هذا الكتاب.

وعلى لسان رتبته ﷺ قال وليٌّ من أوليائه: «يا معشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوا».

ذكره رضي الله عنه في «**الفتوحات**» عن قطب وقته وفرد عصره عبد القادر الجيلاني قُدِّس سرُّه.

والحكمة علمٌ خاص والفرق بين الحكمة والعلم المطلق أن لها الجعل والتحكم بخلاف العلم فإنه تابع المعلوم، فالحكيم مَنْ قامت به الحكمة فكان الحكم لها.

قال تعالى إشارةً إلى هذا المقام: ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [الأنعام:١٢]؛ لأنها مقتضى الحكمة.

قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه في الاسم الحكيم: إنَّ العارف يقدم الحكيم على العليم، فالحكيم خصوص والعليم عموم، ولذلك ما كل عليم انتهى كلامه رضي الله عنه.

وذلك لأنه ثبت عند أهل الكشف الأتم والتحقيق الأوسع الأعم أن الترتيب ثابت في الأعيان الثابتة في الحال بثبوتها في معدتها، وتعلق العلم الإلهي بحسب ما هي مرتبته، وما ترتبت إلا بالحكمة؛ لأنه ما =

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان:١٢].

يشتمل على كل من الحكمة الطيبة، والحكمة الإلهية الذوقية، فالإعراض عن ملك سلميان ﷺ كما يفهم من كلمات المشايخ؛ ليس كالإعراض عن حكمة لقمان عليه السلام، فإن الملك من قبيل ما سوى الله، وكل ما سوى الله؛ فهو مخلوق، فلا يصحُّ للتعلُّق به إلا بتحميل الله تعالى؛ كالتحبيب في قوله ﷺ:

«**حُبِّب إليَّ من دينا كم ثلاث**... إلخ»[1].

وأمَّا العلم مطلقًا؛ فهو صفة شريفة إلهية، فلا معنى للإعراض عنه حتى قيل في قولهم: العلم حجاب، إن معناه إن العلم حجاب عن الجهل، فليتنافس فيه المتنافسون، فالقائل بخلافه جاهل عار عن الكلية الإنسانية الكمالية.

ثم إن النبي ﷺ إنما حرَّض على أخذ العلم من جميع الأينيَّات؛ لأن العلم والتجلِّي الأحدي والنفس الرحماني واحد عند علماء الحقيقة، فالكل من شأنه العلم؛ كما أنه من شأنه نفخ الروح.

=

من ممكن مضاف إلى ممكن أحوالاً ويمكن إضافته إلى ممكن آخر لنفسه مع قطع النظر عن أمرٍ آخر، لكن الحكمة اقتضت هكذا وهو ذاتيٌّ لها، والظاهر في العالم الشهادي ظلٌّ ذلك العالم المعنوي على ترتيبه.

وقال الشيخ ﷺ: هذا هو العلم الذي انفرد به الحق، وجهل منه فافهم، فظهرت به الحكم في الوجود بالوجود على ترتيب أعيان الممكنات في حال ثبوتها قبل وجودها روحًا وصورةً، فبان لك الفرقان بين العلمَين العلم والحكمة.

قال الحكيم العليم: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:٢٩]؛ لأنه مخالف الحكمة وهي تأبى التبدُّل الخارج بخلاف النسخ فإنه من الحكمة البالغة.

قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] فافهم.

فالعلم بالحكمة المنـــزلة تخفيفًا أو تثقيلاً إمَّا بكشف سبحات الوجه حتى يرى ما في العين الثابتة، فإنها حكم مرتبة من حكيمٍ عليمٍ، هذا الإنسان عين صفاء خلاصة الخاصة، وامَّا ما يكشف الغطاء عن البصر والبصيرة، أو بتعريفٍ إلهي حتى يرى أو يعلم ما في الوجود من الحكم المرتبة ترتيب عليمٍ حكيمٍ.

(١) تقدم تخريجه.

فإن قلت: إذا كان أهل العلم مطلقًا ممَن يليق أن يؤخذ منه؛ فلِم لا يقتدي إلا بأهل العمل، ومَن يرعى أدب الشريعة، قلت: عموم التجلّي بالعلم اقتضى الأخذ الكل؛ لشرفه وفضله، وهو لا يقتضي الزيغ والانحراف عن الصراط السوي بخلاف العمل، فإنه حجر عن متابعة مَن لم يعمل بعلمه رسميًا أو حقيقيًا حتى أنه المجذوب، إذا لم يكن له أدب الشريعة لا يُقتدى به، وإن كان من أهل الحال؛ فإذا حُجر عن اتِّباع مثل هذا.

فكيف الحال في الذي لا علم له، ولا أدب له، ولا حال، وقد امتلأت الدنيا في عصرنا هذا بأهل الجهل والمكر والاستدراج؛ فهذا مرض لا يقبل المداواة والعلاج؛ لأن النهاية عادت إلى البداية، وكاد يقرب التجلّي أن يُردَّ إلى أصله.

ومن علاماته؛ نزول عيسى؛ فإنه الفجر الأول ليوم القيامة، وطلوع الشمس من مغربها؛ فإنه الفجر الثاني له.

أعاذنا الله وإياكم من الشرور، والفتن، وخفف عنا أحمال البلايا والمحن.

فإن قلت: ما معنى التكليف؟ قلت: إزالة الإطلاق.

فإن قلت: ما معنى إزالة الإطلاق؟ وقد قال تعالى عن لسان هود عليه السلام: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦].

قلت: ذلك لسان الإطلاق العام من حيث العلم الشامل، وذلك لا يوجب العمل.

ألا ترى أن اليد اليمنى أقوى من اليد اليسرى مع اجتماعهما في محلٍّ واحد؛ وهو الكتف، والعنق، والوجه أفضل منهما مع اتصاله بالعنق، فهذا التفاوت في الأعضاء الأنفسية يُشعر بالتفاوت في القوى الآفاقية، فإذا حجرك الله عن شيء؛ فاجتنب عنه، فإنه وإن كان من قبيل التضييق في الصورة لكنه من قبيل توسعة التجلّي في المعنى؛ لأن القائم مع أمر الله قائم مع الله، والقائم مع الله؛ هو المتجلّي بكل اسم من الأسماء الداخلة تحته بخلاف القائم مع غير الله، فاعلم ذلك وأيضًا.

فاعلم أن العلم المرغب في تحصيله وأخذه، إنما هو العلم الموافق للحق، والحق أحق أن يُتبع به، وأمَّا غيره فمهجور جدًا، ونحوه من العلوم التي ليست نتيجة التقوى، والعمل الصالح، فتنبَّه ذلك.

قولهم: مَن تعطَّل أيام التحصيل؛ تحصَّل أيام التعطيل، هذا بالنسبة إلى حالة الدنيا، فإنه ما دام البقاء فيها؛ فإنه يُرجى للطالب تلافي ما فات، إلا أن يكون بالفاء إلى أرذل العمر، وزمان العنه والفند، فإنه إذا لم يساعد الأسباب والآلات؛ فكيف يتحصَّل الملكات.

ألا ترى إلى قولهم:من فقد حسًّا؛ فقد فقدَ علمًا فقدان حسٍّ من الحواس إذا كان سببًا لفقدان علم من العلوم، جميع الحواس يوجب فقدان جميع العلوم، نعم إن شباب الزمان أعون على تحصيل المرام من زمان الكهولة والشيخوخة.

ومن هنا ورد: «**العلم في الصغر؛ كالنقش في الحجر**»[1]؛ وذلك لاجتماع الحواس والقوى إذ ذاك.

وقد صحَّ إن بعضهم تحصَّل في أيام الشيخوخة **أيضًا؛ لاعتدال مزاجهم**، واجتماع قُواهم سواء كان المتحصِّل من قبيل الرسوم كما وقع للإمام القُدروي، وأبي بكر الفضل الشاشي، أو من قبيل الحقائق كما وقع للجارية البصْرية وغيرها.

وإمَّا بالنظر إلى حال الآخرة؛ فكل كمال لم يحصل في الدنيا؛ لم يحصل في الآخرة؛ لمضي زمان التكليف والكسب، إلا أن يكون الكمال الغير الحاصل لَمن سلك، ولم يُكمَل له الأمر بعد؛ فإنه من أهل الترقّي في جميع المواطن، فالابتداء إذا كان على السلوك والخروج من بيت الطبيعة؛ فالانتهاء على الترقّي، فإن الأجر واقع على الله، والله لا يضيع أجر المحسنين، والرحمن ما عنده حرمان، جعلنا الله وإياكم من الواصلين.

***

(١) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/٣٧٥)، وذكره العجلوني في الخفا (٢/٨٥).

وفي سورة الشورى

قال الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

اعلم أن أمر الوجود دائرة واحدة؛ لكن جُعلت نصفين باعتبار الوجوب والإمكان، فقوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) إشارة إلى النصف الوجوبي[1].

وقوله: (السَّمِيعُ البَصِيرُ) إشارة إلى النصف الإمكاني.

والنصف الأول: كتاب الوجود الحقيقي الذي آياته محكمات بلا متشابهات؛ لأنه كتاب الغيب، واللا تعيُّن، والإطلاق.

والنصف الثاني: كتاب الوجود الظلّي الذي آياته متشابهات بلا محكمات؛ لأنه كتاب التجلّي، والتعيُّن، والتقيُّد؛ فهما بحران بينهما برزخ لا يبغيان، فلا يبقى بحر الوجوب والمحكمات على بحر الإمكان والمتشابهات برفع حكمه، واعتباره، وإلا لبطلت الحقائق ومراتب الأسماء والصفات، وكذا لا يبقى بحر الإمكان والمتشابهات على بحر الوجوب والمحكمات برفع تأثيره، وفعله، وإلا انقلبت الحقائق والأعيان.

فالربُّ لا يكون عبدًا، كما أن العبد لا يكون الربَّ أبدًا، وإنما يظهر سرُّ

---

(١) قال سيدي علي وفا: اسمع: إن قيل لك المثل بكسر الميم وسكون الثاء وبفتح الميم والثاء واحد، فكيف الجمع بين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وبين قوله: ﴿وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] وبين قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]؟.

فقل: وما توفيق العبد إلا بالله سيده ومولاه: إن كانا واحدًا لغةً فالمثل قد أُثبت للحقيقة التي هي الهوية بقوله: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، ولاسم الجلالة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، ولنور الله بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥].

ونُفي عن مثل الهوية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وأثبت المثل للنور بقوله: (مثل نوره) هذا المشكاة أمرٌ وهميٌّ ليس غير؛ لأنه في الحس فراغ متوهم وخلاء، والخلاء ثابت وهمًا فقط، فهو في الحس والكون لا شيء، فلا يلزم من كونه كائنًا أن يكون ذلك الأمر شيئًا. وإنما قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ ليثبت أنه ليس لَه مثل حقيقي؛ إذ الظاهر منه في المظاهر هو بالحقيقة، ومثاله بالوهم ليس إلا كالذي تراه منك بواسطة المرايا الصقيلة، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: ٣٥]: أي يبين الله الأمثال للناس، فافهم.

الوجوب في مرآة الإمكان؛ ليحصل كمال الاستجلاء، فكون الإمكان مرآة الوجود، وكذا كون الوجود مرآة أحوال الأعيان؛ لا يوجب الانقلاب والاستحالة؛ لأن العين واحدة، والنسب مختلفة، فإذا غلب الفناء؛ ظهر سرُّ الوجود الباطني، وإذا غلب البقاء؛ ظهر سرُّ الوجود الظاهري؛ لأنه هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وأول بحر الإمكان من حيث اعتبار الكون؛ وهو الوجود العيني القلم الأعلى، والعقل الأول؛ وهو بحر العماء الكوني الذي هو مبدأ الكثرة بالفعل؛ ولذا يقال له: بحر العماء الصفاتي التفصيلي، كما أن ما قبله؛ هو بحر العماء الذاتي الإجمالي الذي هو مبدأ الكثرة بالقوة.

فالأول؛ كبدن الشجرة، والثاني؛ كالنواة، فوحدة بدن الشجرة وحدة اعتبارية إضافية، ووحدة النواة وحدة حقيقية أصلية.

ولمَّا كان أمر الوجود دوريًا لا خطيًا؛ ظهر النواة في صورة الشجرة، والأغصان والأوراق، والثمرة، وكان الانتهاء إلى النواة، فعاد الأخر على الأول مع كمال الظهور في المراتب، فكما أن النواة؛ وهي الغيب والمحكم لا تأويل فيها أصلاً؛ فكذا الشجرة بجميع ما تشمل عليه لا تأويل فيها أصلاً؛ لأنها شهادة ومتشابه معتبرة في مقامها على حدِّها، وعلى هذا فجميع المراتب من القلم الأعلى إلى آخر المولّدات، ومرتبة الإنسان لا تحتاج إلى التأويل؛ لأنها حقائق لا مجازات، وإنما يُقال لها: مجازات باعتبار إنها محلُّ الجواز، والعبور إلى الأسماء، والصفات، والذات.

فكما أن القرآن الفعلي برئ عن ذلك التأويل؛ فكذا القرآن القولي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]؛ معناه[1]:

---

(١) قال الشريف الرضي: فبين العلماء فيه اختلاف: فمنْهُم مَنْ جعلَ الوقف عند اسم الله تعالى، واستأنف قوله سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، فمَنْ ذهبَ إلى هذا المذهبْ منهم يُخرج العلماء عن أن يعلموا كُنْه التأويل وحقيقته، ويطّلعوا طلعه ويستنْبطوا غوامضُه، ويستخرجوا كوامنُه، وحطّهم بذلك عن رتبة قد استحقوا الإيفاء عليها واطّلاع شرفها، لأنّ الله سبحانه قد أعطاهم من نهج السبيل وضياء الدليل ما يفتتحون به المبهم ويصدعون المظلم، وكل ذلك بتوفيق الله إيّاهم ونصب منار الأدلة لهم، فعلمهم بذلك مستمدٌ من علم الله سبحانه، فلا =

=

معنى للوقوف بهم دون هذه المنـــزلة، والإحجام عن إيصالهم إلى أقصى هذه الرتبة.

وأمّـــا الذين يجعلون الوقف عند قوله تعالى: ﴿وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فيوقّون الاســـتثناء حقّـــه بإدخـــال العلماء فيه، ويجعلون لهم مَزْية العلم بتأويل القرآن، ومعرفة مداخله ومخارجه، وسلوك محاجّه ومِنْاهجه، وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس ومجاهد والربيع.

فأمّـــا المحققون من العلماء فيقفون في ذلك على منـــزلةٍ وسطى وطريقةٍ مُثْلى، فلا يخرجون العلماء هاهـــنا عنْ أنْ يعلموا شيئًا من تأويل القرآن جملةً، ولا يعطونهم منـــزلة العلم بجميعه، والاستيلاء على قليلهِ وكثيرهِ، بل يقولون: إنّ في التأويل ما يعلمه العلماء، وفيه ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى، من نحـــو تعيين الصغيرة ووقت الساعة، وما بيننا وبينها من المدة، ومقادير الجزاء على الأعمال، وما أشبه ذلك.

وهذا قول جماعةٍ من متقدمي العلماء: منهم الحسن البصري وغيره، وإليه ذهب أبو عليّ الجُبّائيّ؛ لأنّه يجعل المراد بالتأويل في هذه الآية مصائر الأمور وعواقبها، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف:٥٣]: أي مصيره وعاقبته؛ لأنّ أصل التأويل من قولهم: آل يئول، إذا رجع، وممّا يؤكّد ذلك أن مجاهدًا قال في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩]: إنّه سبحانه أراد بالتأويل هاهنا الجزاء على الأعمال، فهذا المعنى يلامح ما نحنُ في ذكرهِ؛ لأنّ الجزاء إنّما هو الشيء الذي آلوا إليه وحصلوا عليه.

وقد قيل أيضًا: إنّ المراد: وما يعلم تأويله على التفصيل إلا الله تعالى، أو لا يعلم تأويله بعينهِ إلا الله؛ لأن كثيرًا من المتشابه يحتمل الوجوه الكثيرة، وكلّها غير خارجٍ عن أدلة العقول، فيذكر المتأولون جميعها، ولا يقع القطع منهم على مراد الله تعالى بعينه منها، ولايعلم ذلك إلا الله؛ لأن الذي يلزم المكلـــف مـــن ذلك أن يعلم في الجملة أنّه سبحانه لم يردْ ما يخالف أدلة العقول، ولأنّه ليس من تكليفنا أنْ نعلم أنّ المراد من ذلك بعينهِ، وإن كان العلماء يعلمونُه على الجملة وعلى الوجه الذي يمكن أن يعلم عليه.

وفي قـــول الراسخين في العلم: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] دلالة على استسلامهم فـــيما لم يعلموا من تأويل المتشابه، وما استبدّ الله بعلمه من قبيل ما ذكرنا: كوقت القيامة وتميز الصّـــغائر من الكبائر، إلى ما أشبه ذلك، فقد بان أنّ في تأويل المتشابه ما لا يعلمونه، وإن كانوا يعلمون كثيرًا منه، وقال قاضي القضاة أبو الحسن بعد ذكره طرفًا من الخلاف في هذه الآية : "وما يقوله من حمل العطف على حقيقتهِ وجعل للعلماء نصيبًا من علم التأويل على تفصيله أو جملته إمّا

=

=

أنْ يكون المراد بذلك عنده: وما يعلم تأويله إلا الله وإلا الراسخون في العلم، ومع علمهم بتأويله ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، أو يكون المراد أنّهم يعلمون تأويله في حال قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، ومَنْ قال بذلك استدلّ بظاهر العطف، وأنّه يقتضي مشاركة الثاني للأول فيما وُصِفَ به الأول وأُخْبِرَ به عنّه، وقال: إذا أمكن ذلك وأمكن حمل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ على الحال أو على خبرٍ ثانٍ وَجبَ القول بذلك، ولكلا الوجهين مسرحٌ في طريق اللغة، وإنّما ينبغي أنْ ننظر من جهة المعنى، فإنْ ثبتَ بالدليل صحة أحد المعنيين قُضِيَ به، وإلاّ لم يُمْتنع أنْ يرادا جميعًا إذا لم يقع بينهما تناف".

قلت أنا: وهذه طريقةٌ لأبي علي فيما ورد من القراءات متغايرًا فإنّه يقول: "إذا كان يمكن حَمْل الكلام على القراءتين المختلفتين فإنّهما جميعًا مرادتان، إذا صحّت القراءة بهما جميعًا، نظير ذلك قوله سبحانه: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:٨٦]، وقد قُرِئَ (حامية)، فيقول: إنّه يجب أن تكون العين على الصفتين معًا، فتكون حمئة من الحمأة، وحامية من الحمْي، فتكون هناك حرارة وحمأة، وإلاّ كان يجب ألاّ تجوز إحدى القراءتين؛ لأنّ من أصله أنّ كل كلامٍ احْتمل حقيقتين و لم يكن هناك دَلالة على أنّ المراد به إحدى الحقيقتين دون الأُخرى فواجب حمل الكلام عليهما جميعًا حتى يكونَا مرادين بذلك، ومتى لم يكن حمل الكلام عليهما جميعًا فلا بُد من أنْ يُبيّن الله تعالى مراده منهما بدلالة، وإلا خرج من أنْ يكون فيه فائدةٌ.

فأمّا من قرأ حمئة من الحمأة، فإني قرأت بذلك على شيوخ القراءة لابن كثير ونافع وأبي عمرو وحفص عن عاصم، وأمّا من قرأ حامية من الحمْي فإني قرأت به لحمزة والكسائي وأبي بكر بن عياش عن عاصم وعبد الله بن عامر، وقد ظن بعض الناس أنه لا يجوز إلاّ أنْ يكون تمام الكلام ومقطعه عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]، وأن الواو للاستقبال دون الجمع، قال: "لأنّها لو كانت للجمع لقال: ويقولون آمنا به فيستأنف الواو كما استأنف الخبر"، واحتج على هذا القول مَنْ قال بالقول الأول، بأن قال: "هذا جائز، وقد وُجد مثله في القرآن وهو قوله تعالى في معنى قسم الفيء: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، ثم أعقب ذلك بالتفصيل وتسمية من يستحق هذا الفيء، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

=

=

وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإيمان مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ [الحشر:٨،٩،١٠]، وهؤلاء لا شك داخلون في مستحقي الفيء كالأولين، والواو هاهنا للجمع، ثم قال سبحانه: ﴿يقولون رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ [الحشر:١٠]، ومعناه قائلين: ربنا اغفر لنا ولإخواننا، فكذلك قوله سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ يكون معناه: والراسخون في العلم يعلمون تأويل ما نصبت لهم عليه الدلائل، ونحيت لهم إليه المذاهب من المتشابه قائلين: آمنا به، ومن الشاهد على ذلك قول يزيد بن مفرِّغ الحميري لما سامه عبّاد بن زياد أن يبيع عبده بردًا في دَين لزمه، وحديثه في هذه القصة طويلٌ، وهو بعد مستفيضٌ:

وشَـــريتُ بـــردًا ليتنـــي ... مـــن بعـــدِ بـــردٍ كنـــتُ هامـــهْ

فـــالرِّيحُ تبكـــي شَـــجْوَهَا ... والـــبرقُ يلمـــعُ في الغمامـــهْ

وقوله: "وشريت" يريد: وبعتُ، وهو من الأضداد، وقوله: "والبرق يلمع" يريد والبرق أيضًا يبكي شجوه لا معًا في الغمامة: أي في حال لمعانه، ولولا أن المراد هذا لما كان لقوله: "والبرق يلمع في الغمامة اتصالٌ بقوله: فالريح تبكي شجوها، بل كان بعيدًا منه قصيًّا وغريبًا أجنبيًّا.

واذا كان ذلك سائغًا في اللغة وجب حمله على موافقة دلالة الآية في وجوب ردّ المتشابه إلى المحكم، فيعلم الراسخون في العلم تأويله إذا استدلوا بالمحكم على معناه، ولو كان العلماء لا يعلمون شيئًا من تأويل المتشابه ألبتّة ما كان لما روي أن رسول الله ﷺ علّم أمير المؤمنين عليه السلام التفسير معنًى، لأن معنى التفسير والتأويل إنما يكون لما غمض ودقّ و لم يعلم بظاهره، وهذه صفة المتشابه، وأمّا المحكم الذي يعلم بظاهره فلا حاجة بأحدٍ إلى تعليمه؛ لأن أهل اللسان فيه سواءٌ، ولولا أن الأمر على ذلك لما كان لدعاء النبي ﷺ لابن عباس بأن يعلمه الله التأويل معنًى؛ لأنا نعلم أنه لم يرد عليه السلام تعليمه الظاهر الواضح، فلم يبق إلا الغامض الباطن.

ومن وجه آخر: أن حقيقة الواو الجمع، فوجب حملها على سنن حقيقتها ومقتضاها، ولا يجوز حملها على الابتداء إلا بدلالة، ولا دلالة هاهنا توجب صرفها عن الحقيقة، فوجب حملها على الجمع، حتى تقوم الدلالة، وكان أبو حاتم السجستاني يقول: "إن الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]؛ لأنه قد حذف من الكلام أمّا، وكأنه تعالى قال: وأما الراسخون في العلم فيقولون آمنا به، وزعم أنه إنما جاز حذفها؛ لأنه قد جرى ذكرها وهو قوله تعالى:

=

مايؤل إليه من الحقائق، فإن ذلك محتاج إلى الكشف الصحيح، ومن ذلك يعلم أن علماء الرسوم أساءوا الأدب فيما حاولوا من التأويلات الزائغة؛ وإنما عليهم أن يضيفوا الأمر إلى الله، فإنه يعلم تأويله، وكذا الراسخون في العلم بقدر ما علمهم الله تعالى، فالله تعالى هو السميع باعتبار كونه رب العالمين، وكذا سائر النعوت الكونية؛ فإن الله تعالى يتَّصف بها كلِّها في بحر العماء الكوني، وهو: ليس كمثله شيء باعتبار غناه الذاتي، وقُدسه، ونزاهته؛ فهو تعالى مرئي، ومشهود بالاعتبار الأول، وغير مرئي مشهود بالاعتبار الثاني، إذ لابد للشهود من مثالي، ولا مثال فوق التجلِّي العيني.

نعم! إن الله تعالى يُدرَك في مرتبة تجريد التوحيد والتفريد؛ لكن بوساطة الإطلاق الذي هو أحد وجهي الحقيقة الإنسانية؛ لأنه هو الجهة الجامعة بينهما؛ إذ الواحد المطلق بالإطلاق الحقيقي لا يراه إلا الواحد، كذلك فإن عين الكثرة لا تنظر إلى الوحدة، وكذا عين التقييد لا تُدرك المطلق، ومن ثم يُقال: إن المانع لإدراك العين في الدنيا؛ هو قيدها حتى أن الله تعالى لو رفع قيدها؛ لأمكن الإدراك.

=

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، قال: و(أما) لا تكاد تجيء في القرآن مفردة حتى تثنى أو تثلث أو تُزاد على ذلك، كقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ [الضحى:٩]، ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠]، وكقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ [الكهف:٧٩]، ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف:٨٠]، ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ [الكهف:٨٢]، فلما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران:٧]، قدّرنا أنّ "أمّا" مرادة مع (الراسخين في العلم)، فكأنه تعالى قال: وأما الراسخون في العلم.

وكلام أبي حاتم في ذلك غير سديد ولا مطرد؛ لأنه قدّر في الكلام حذف (أمّا)، وذكر أنها تقع في القرآن كثيرًا مكررةً، ولعمرى إن الأمر كما قال من وقوعها مكررة في القرآن، وما علمناها جاءت فيه مرادةً محذوفةً، وكان ينبغي أن يُرينا من القرآن موضعًا هي فيه مرادة وقد حذفت ليكون شاهدًا على ما ذكره، فأما أن يستشهد بتكريرها على حذفها فذلك غير مستقيم، ولو كان الأمر على ما قال لكان وجه الكلام أن يقول تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:٧]. وانظر: حقائق التأويل (ص١٦٦) بتحقيقنا.

كما يُعلم ذلك: من أنه ﷺ كان يرى في الصلاة من خلفه[1] لوقوع المحاذاة

---

(١) **قلت**: كان ﷺ يبصر من خلفه كما كان يبصر من أمامه.

وأخرج مالك في الموطأ في العمل في جامع الصلاة وأحمد والشيخان عن أبي هريرة مرفوعًا: «أَتَرَوْنَ»، وفي رواية قَال: «هَلْ تَرَوْنَ قِبْلَتِي هَا هُنَا -: أي مقابلتي ومواجهتي في جهة القبلة فقط - فَوَاللَّهِ مَا يَخْفَى عليَّ خُشُوعُكُمْ وَلا رُكُوعُكُمْ، إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي».

وأخرج مسلم واللفظة له النسائي وابن خزيمة في صحيحه عنه أيضًا قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ يومًا ثم انصرف فقال: يا فلان ألا تحسن صلاتك، ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي، فإنما يصلي لنفسه، إني والله لأبصر من وراء كما أبصر من بين يدي، ولفظ ابن خزيمة في آخره: «إنكم ترون أني لا أراكم: أي والله لأرى من خلف ظهري كما أرى من بين يدى».

وأخرج عبد الرزاق في جامعه والحاكم في المستدرك، وأبو نعيم من حديثه أيضًا مرفوعًا: «إني لأنظر إلى ما ورائي كما أنظر إلى ما بين يدي».

وأخرج أحمد وعبد الرزاق بسندٍ صحيحٍ من حديثه أيضًا: «والذي نفسي بيده إني لأنظر - زاد في رواية في الصلاة - إلى من ورائي، كما أنظر إلى من بين يدي فسوا صفوفكم، وأحسنوا ركوعكم وسجودكم». وفي رواية لأحمد: «إني أنظر - أو قال: إني لأنظر - ما ورائي كما أنظر ما بين يدي..» الحديث.

وأخرج أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «إني أراكم من وراء ظهري».

وأخرج أحمد والشيخان والنسائي عن أنس مرفوعًا: «أَتِمُّوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ بَعْدِ ظَهْرِي إِذَا مَا رَكَعْتُمْ وَإِذَا مَا سَجَدْتُمْ» هكذا ذكره السيوطي في الجامع عازيًا له لمن ذكر.

وقد أخرجه البخاري في مواضع منها في باب الخشوع في الصلاة ولفظه فيه وهو لمسلم أيضًا: «أقيموا الركوع والسجود فوالله إني لأراكم من بعدي»، وربما قال: «من بعد ظهري إذا ركعتم وإذا سجدتم».

ومنها في باب عظة الإمام الناس في إتمام الصلاة، وذكر القبلة، ولفظه فيه عن أنس بن مالك قال: صلّى بنا النبي ﷺ صلاةً ثم رقى المنبر فقال في الصلاة وفي الركوع: «إني لأراكم من ورائي كما أراكم يعني من أمامي».

ومنها في باب إقبال الإمام على الناس عند تسوية الصفوف ولفظه فيه حدَّثنا أنس قال: أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري».

وقد عزى في الجمع هذا اللفظ للبخاري والنسائي، وابن حبان في صحيحه عن أنس.

ومنها في الترجمة قبل هذه ولفظه فيها: «أقيموا الصفوف فإني أراكم خلف ظهرى».

=

=

وأخرجه أيضًا مسلم في الصلاة بألفاظ منها قوله عن أنس أن نبي الله ﷺ قال: «أتموا الركوع والسجود، فوالله إني لأراكم من بعد ظهري إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم». قال: وفي حديث سعيد: «إذا ركعتم وسجدتم».

ومنها قوله عن أنس قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع، ولا بالسجود، ولا بالقُيام، ولا بالانصراف، فإني أراكم أمامي ومن خلفي. ثم قال: والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، قالوا: وما رأيت يا رسول الله، قال: رأيت الجنة والنار».

رؤيته ﷺ لأصحابه من وراء ظهره رؤية حقيقية، ثم الرؤية المذكورة في هذه الأحاديث مذهب الجمهور، وهو الصواب المختار أنها على ظاهرها، وأنها رؤية حقيقية، وإدراكٌ حقيقيٌّ، اختص به ﷺ، انخرقت له فيه العادة، وعلى هذا عمل البخاري، فإنه أخرج هذا الحديث في علامات النبوة، وكذا نقل عن أحمد وغيره خلافًا لمن حمل الرؤية فيه على الرؤية القلبية، وهي رؤية البصيرة، وإن صح أو على العلم إما بوحي بأن يوحى إليه كيفية فعلهم، وإما بإلهام بأن يلهمه الله تعالى حالتهم وهيأتهم، فإن ذلك بخلاف ما تظاهرت عليه الظواهر التي لا يحيلها عقل، ولا يعارضها شرع، ولو كان المراد العلم لم يقيد بقوله: (من وراء ظهري).

ومنهم من حملها على أنه كان يلتفت يمينًا وشمالاً التفاتًا يسيرًا، لا يلوي فيه عنقه، يدرك به حال من وراءه، ولا يخفى ما فيه من التكلف والعدول عن الظاهر بلا موجبٍ مع ما فيه من ارتكاب ما لا يليق بالمقام، وقد أنكره أحمد على قائله، والظاهر أنها كانت من غير عضو ولا مقابلة، ولا شيء مما جرت به العادة بناء على مذهب أهل الحق، وهم أهل السُّنة من أن الرؤية لا يشترط لها عقلاً عضو مخصوص، ولا مقابلة، ولا شعاع، ولا تتوقف على ضوءٍ، ولا على قربٍ، كما لا تتوقف على الآلة المخصوصة التي هي العين، وإنما هذه أمورٌ عاديةٌ يجوز عقلاً حصول الإدراك مع عدمها، ولذا حكموا بجواز رؤية الله تعالى في الدار الآخرة، خلافًا لأهل البدع بوقوفهم مع العادة.

وجوز بعضهم كونها برؤية عينية، وإنه انخرقت له فيهما العادة أيضًا، وصحَّح آخرون كونها بعين خلف ظهره يرى بها من ورائه، لا يحجبها الثياب ولا غيرها، وبعض المتكلمين أن تكون بإدراك خلق له في القفا أعم من كونه في بنية أم لا أخذًا من قوله في بعض الروايات: «إني لأبصر من قفايا كما أبصر من بين يدي».

وقيل: كان بين كتفيه عينان مثل سم الخياط يبصر بهما، لا يحجبهما أيضًا ثوب ولا غيره، قاله مختار بن محمود الحنفي الزاهدي شارح القدوري من الحنفية.

ورده أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني قائلاً هذا مع ما وصف به من كمال الخلقة يشين، ولو أن إنسانًا كانت له عينان في قفاه لكان أقبح شيء، وخيال غيره هو قول مرغوب عنه بل ساقط،

=

=

ونازع بعضهم فيه، وفي القولين قبله بأنها تحتاج لتوقيفٍ من الشارع. ورواية: (من قفايا) ليست نصًّا في المراد. وقيل: بل كانت صورهم تنطبع في حائط قبلته، كما تنطبع في المرآة، فترى أمثلتهم فيها فيشاهد أفعالهم، ورد بأنه يحتاج أيضًا إلى توقيف، وظاهر الحديث أن ذلك يختص بحالة الصلاة.

ويؤيِّده ما أخرجه الحميدي في مسنده، وابن المنذر في تفسيره، والبيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، قال: كان النبي ﷺ إذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من أمامه.

ويحتمل أن يكون ذلك واقعًا في جميع أحواله ﷺ وهو الظاهر، ومذهب أهل الباطن، ومحققي أهل الباطن، ونُقل عن مجاهد أيضًا وعن جمعٍ من المتقدمين، وعللوه بأنه إنما كان يبصر من خلفه؛ لأنه كان يرى من كل جهة؛ لأنه كان كله نورًا، وقد ثبت مثله لكثيرٍ من خواص أمته، وما ذاك إلا بما أمدَّهم الله به من نور مشكاته المفاض عليهم.

وفي الفتوحات في الباب التاسع والستين في معرفة أسرار الصلاة وعمومها ما نصه:

اعلم أن النبي ﷺ كله وجه بلا قفا، فإنه قال ﷺ: «إني أراكم من خلف ظهري»، فأثبت الرؤية لحاله ومقامه، فثبتت الوجهية له، وذكر الخلف والظهر لبشريته ﷺ، فإنهم ما يرون رؤيته ويرون خلفه وظهره ﷺ، ولما ورثته ﷺ في هذا المقام، وكانت لي هذه الحالة:

كنت أصلِّي بالناس بالمسجد الأزهر بمدينة فاس، قلت: وهو المعروف الآن بمسجد عين الخيل، قال: فإذا دخلت المحراب أرجع بذاتي كلها عينًا واحدًا، فأرى من جميع جهاتي كما أرى قبلتي، لا يخفى على الداخل ولا الخارج، ولا واحد من الجماعة حتى إنه ربما يسهو من أدرك معي ركعة من الصلاة، فإذا سلمت ورددت وجهي إلى الجماعة أدعوا أرى ذلك الرجل يجبر ما فاته فيخل بركعة، فأقول له: فاتتك كذا وكذا، فيتم صلاته ويتذكر، فلا يعرف هذه الأشياء، ولا هذه الأحوال إلا من ذاقها، انتهى منها بلفظها.

وفي نـــزهة الزاد وبغية الحاوي للعارف بالله القطب سيدي المختار بن أحمد الكنتي في الباب الخامس في بدء الوحي والإسراء ما نصه: ثبت عنه ﷺ أنه لما حمل على الرفرف والتمع بصره جعل يرى بجميع بدنه، فيرى من أمامه كما يرى من خلفه، وكما يرى عن يمينه وشماله، وذلك بأن صار كله بصرًا، فحينئذٍ تأهل أن يرى ربه لما أمدَّه به من وضع يده بين كتفيه حتى وجد بردها على فؤاده، فعلم بذلك علومًا شتى، ثم قطرت نقطة العلم على قلبه وفؤاده، فازداد علمًا على علم، انتهى المراد منه بلفظه.

وقال العارف الحفني في حاشيته على الجامع الصغير في الكلام على رواية: أتموا الركوع والسجود ما نصه: قوله لأراكم أي: رؤية إدراك وكشف قلبي، فلا تتوقف على وجود البصر، ولا على وجود

=

=

الضوء، فهو خرقٌ للعادة.

قال: وهذا الإدراك حاصلٌ له ﷺ من حين رأى ربه ليلة الإسراء بعين بصره، وما قيل: (كان له ﷺ حدقتان في ظهره) رد بأن ذلك مشوه للخلقة، وقد كان سيدنا موسى يرى النملة السوداء في الليلة الظلماء مسيرة عشرة أيام، وقيل: فراسخ من حين كلّمه الله تعالى، ثم قال: فذاك الإدراك ليس بحدقتين في ظهره، كسم الخياط لا يحجبهما الثياب، كما قال بعضهم فإنه لا أصل له؛ إذ هو مشوه، وليس هذا خاص بالصلاة انتهى.

وفي فيض القدير في حديث: «أتموا الصفوف» ما نصه: قال في المطامح في أبي داود عن معاوية ما يدل على أن هذا كان في أواخر عمره.

ولذا قال عياض: كان ذلك له بعد ليلة الإسراء كما كان موسى يرى النملة السوداء في الليلة الظلماء من عشرة فراسخ بعد ليلة الطور، انتهى منه بلفظه.

قال الشيخ جعفر الكتاني: وعياض ذكر هذا في الشفا في فصل وفور عقله ﷺ من الباب الثاني فراجعه.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنهما أنها سُئلت عن هذا الإدراك، فقالت: «زيادة زاده الله إيَّاها في حجته»، وهو بضم الهاء، يعني في معجزته.

وضبط بعضهم لها وهو بفتحها على أن معناه أن هذه الزيادة إنما وقعت له في آخر عمره في حجة الوداع، غير صحيح.

مراقبة النبي ﷺ لأصحابه، وقد ذكروا من جملة فوائد هذه الأحاديث مراقبة النبي ﷺ لأصحابه في حالة الصلاة، كما أنه كان يراقبهم في غيرها من الأحوال سرًّا وعلانيةً، ظاهرًا وباطنًا، غيبةً وحضورًا، وقد كان على قدمه في هذا كبار العارفين والأولياء، حتى كان الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ كثيرًا ما يقول لأصحابه على كرسيه: إني أراكم كالزجاجات.

وكم من مريدٍ أراد أن يرتكب بعض المحرمات وهو غائبٌ عن شيخه، فخرج عليه ومنعه من ذلك، وقضاياهم في هذا كثيرة: منها: إنه وقع لعارف أن مريده أراد الزِّنا بامرأةٍ، فلما همَّ سمع صوت شيخه من بلاد بعيدة يقول له: هكذا تفعل يا فلان، ففرَّ هاربًا.

ووقع لآخر مع مريده في نظير هذا أنه ما شعر إذ هم إلا والشيخ قد لطمه لطمة أذهبت بصره، فخرج وأمر من جاء به إلى الشيخ، فقال: ادعُ الله لي أن يرد بصري، فإني تائبٌ إلى الله تعالى، فقال: نعم، ولكن لا تموت إلا أعمى، فدعى له فردَّ عليه بصره، ثم عمي قبل موته بثلاثة أيام.

ووقع للشيخ أبي الغيث بن جميل اليمني أنه كان له تلميذ بالعجم فهمَّ بالزنا بامرأة فضربه الشيخ بقبقابه مع زجر وغضب بحضرة الفقراء، فلم يدروا ما الخبر، حتى قدم الشخص العجمي بقبقاب الشيخ بعد شهر تائبًا.

أمدَّنا الله تعالى بمدد أوليائه، ومنّ علينا بسلوك سبيل أصفيائه آمين.

=

=

وقد حكى بقي بن مخلد عن عائشة أنه ﷺ كان يبصر ويرى في الظلمة، كما يبصر ويرى في الضوء، وهذا أخرجه عنها البيهقي، وابن عدي، وابن عساكر، وإسناده ضعيفٌ.

وأخرج البيهقي أيضًا في الدلائل عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يرى بالليل في الظلمة كما يرى بالنهار في الضوء، وهو أيضًا ضعيف ضعَّفه غير واحدٍ، لكنه حسن بشواهده، وما اشتهر من خبرٍ لا أعلم ما وراء جداري.

قال الحافظ ابن حجر فيما نقله عنه في فيض القدير في الكلام على حديث: «أتموا الصفوف» لا أصل له.

قال في الفيض ويعرض وروده: فالمراد به أنه لا يعلم الغيب إلا باطلاعه تعالى. انتهى وراجع ما تقدَّم في هذا الخبر، والله الهادي والمرشد بمنِّه.

وأخرج أحمد والشيخان والترمذي وقال: حسنٌ صحيحٌ، والنسائي، وأبو عوانة، وابن حبان في صحيحه عن جابر مرفوعًا قال: سَمِعْتُ النَّبِي ﷺ يَقُول:

«لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْت الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ».

وفي هذا انكشاف الأشياء لـــه ﷺ عند التوجه والالتفات إليها بحقائقها وأحوالها ومتعلقاتها، ونظره بعين البصر والبصيرة إليها بحيث لا يغيب عن نظره شيء منها، وهذا واقع لغيره من أولياء الله تعالى، فكيف به ﷺ الذي كل نوال من نواله، وكل خير وفضل في العالمين منه، ومن أياديه وأفضاله.

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والحميدي والبخاري في مواضع منها علامات النبوة، ومسلم في الفتن، والعدني، وابن حماد في الفتن، وأبو عوانة، والحاكم في المستدرك، عن أسامة بن زيد، قال: أشرف النبي ﷺ على أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ فَقَال: «هَلْ تَرَوْن مَا أرى إِنِّي لأَرَى مَوَاقِع الْفِتَنِ خِلاَل بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ». وفي رواية: «إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كموقع القطر». وفي أخرى: «إني أرى الفتن تقع خلال بيوتكم مواقع القطر».

فائدة: يجوز رؤية الشيء وسماعه قبل وجوده للأنبياء والأولياء.

قلت: وبهذا الحديث ونحوه استدلَّ الصوفية على جواز، بل وقوع رؤية الشيء وسماعه قبل وجوده للأنبياء والأولياء، بناء على ما هو المتبادر من هذا الحديث أنها رؤية بصرية، وقضايا الأولياء في رؤيتهم بل وسماعهم للأشياء قبل وجودها لا تنحصر كثرة، ومن ثم أطبقوا على رؤيته تعالى، وسمعه للمعدوم الممكن الذي علم أنه سيوجد مخالفين في ذلك للمتكلمين في قولهم: إن السمع والبصر إنما يتعلقان بالموجودات، والمراد بها كل ما له تحقق في الخارج فقط، ولا يتعلقان بالمعدوم ممكنًا كان أو مستحيلاً.

=

=

ومن أدلّة الصوفية في هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة:١].

فإن قولها إنما كان فيما لا يزال، وتعلق سمعه وبصره إنما هو في الأزل.

وقد قال العلاّمة ابن زكري في بعض تقاييده التي قيَّدها على الصغرى للسنوسي:

ما قاله الصوفية هو المتعين؛ لأن تعلقهما تعلق انكشاف، فيلزم على تخصيصه بالموجود حال وجوده بعده في الأزل انتهى.

نقله الشيخ جسوس في شرح عقائد الرسالة، وفي بعض أجوبة الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، لما ذكر له اعتراض بعض المتأخرين على ما وقع لأبي طالب المكي: أي في «قوت القلوب» من التصريح بتعلق سمع الله تعالى وبصره بالموجودات والمعدومات قبل وجودها، وإن مثله وقع في المواقف النفرية الصوفية: أي ووقع أيضًا للشيخ الجليل القصري مؤلف: «شعب الإيمان في شرح الأسماء» قال: لا يخفى على ما في اعتراضه على هذا الولي من سوء الأدب، بل الواجب التسليم لأولياء الله تعالى فيما خفي علينا علمه من كلامهم؛ إذ ليس يستوي من ينظر في النور ومن ينظر في الظلمات. انتهى نقله العارف الفاسي في حواشيه على شرح الصغرى.

وأخرج أحمد والترمذي في أبواب الزُّهد وقال: حسنٌ غريبٌ، وابن ماجه والحاكم في المستدرك، والضياء المقدسي في المختارة، وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم، وابن منيع عَنْ أَبِي ذَرٍّ رفعه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أرى مَا لا تَرَوْن، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُون، أَطَّت السَّمَاءُ، وَحُقّ لَهَا أَنْ تَئطّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعِ إِلاّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، لَوْ تَعْلَمُون مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُون إِلى اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَد».

وأخرج الطبراني في الكبير، والضياء، وابن أبي حاتم في التفسير، وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم عن حكيم بن حزام، قال: بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم: «أتسمعون». وفي لفظ: «هل تسمعون». وفي آخر «تسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما تسمع من شيء، قال: إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط ما فيها موضع شبر». وفي رواية: «قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم».

وأخرج ابن منده، وابن عساكر عن عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه مرفوعًا: «هل تسمعون ما أسمع أطت السماء، وحق لها أن تئط ليس منها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد».

وتقدَّم من حديث سيدنا العباس عند البيهقي وغيره أنه ﷺ كان وهو في المهد يسمع وجبة القمر: أي سقطته حين يسجد تحت العرش. ذكره السيوطي في خصائصه وغيره.

وفيها أيضًا أنه ﷺ كان يسمع حفيف أجنحة جبريل وهو بعد في سدرة المنتهى، ويشم رائحته إذا =

=

توجَّه بالوحي إليه، وذكر ذلك أيضًا الشعراني في «كشف الغمة» ناقلاً له عن خط شيخه جلال الدين السيوطي.

قلت: وهذا أعني رؤية الإنسان للأشياء البعيدة عنه جدًّا في الأرض برًّا وبحرًا، وفي السماء أو ما فوقها، وسماعه لها وشمه لرائحتها لا يُنكر، فإنه واقعٌ لأولياء الله كثيرًا، فكيف به ﷺ.

وفي «الفتوحات» في الباب الثاني وثلاثمائة ورد في حديث نبوي صحيح عند أهل الكشف وإن لم يثبت طريقه عند أهل النقل لضعف الراوي، ولقد صدق فيه، قال رسول الله ﷺ: «لولا تـزييد في حديثكم، وتمريح في قلوبكم، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع[1]» انتهى.

قلت: وهو طرفٌ من حديث أخرجه أحمد، وابن جرير الطبري، ولفظ ابن جرير فيه: «لولا تمريح قلوبكم، وتـزيدكم في الحديث، لسمعتم ما أسمع». وتقدم لفظ أحمد وما في الحديث من الكلام.

وفي المواهب اللدنية من خصائصه ﷺ أنه كان يبلغ صوته وسمعه ما لا يبلغه صوت غيره ولا سمعه، قال شارحها: فقد كان يخطب فتسمعه الهواتف في البيوت، ويسمع أطيط كما السماء مر بسط ذلك في شمائله انتهى.

وانظر إلى ما أخرجه البيهقي وأبو نعيم عن عائشة أن النبي ﷺ جلس يوم الجمعة على المنبر، فقال للناس: اجلسوا، فسمعه عبد الله بن رواحة، وهو في بني علم، فجلس في مكانه وفيه معجزة وكرامة، وكأنه فهم أن الخطاب عام في حق من بلغه الصوت، ولو كان خارجًا عن المسجد النبوي، ولو بعيدًا منه، ولذلك جلس امتثالاً وأدبًا، وكأن القرينة على ذلك بلوغ الصوت له بطريق المعجزة الخارقة للعادة، وإن لم يظهر لجلوسه هو في مكانه فائدة، فقد تكون موجودة ولا يطلع عليها؛ إذ قد تخفى في بعض الأوامر والنواهي، ولذلك يحكم الفقهاء على ما خفيت فيه بأنه تعبدي، والله أعلم.

وانظر أيضًا إلى ما ورد من قول سيدنا عمر بن الخطاب أثناء خطبته يوم جمعة لسارية ابن زنيم الدؤلي، وكان قد أمره على جيش وسيره إلى فارس، وذلك سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، فرآهم من المدينة وهو يخطب، وقد جعل العدو عليهم كمينًا على يسار الجبل: يا سارية الجبل، الجبل، يعني خذ طريق الجبل واحذر كمين العدو، ورفع صوته فألقى الله ذلك في أسماع سارية وأصحابه، وكانوا بنهاوند بلد بأقصى العراق جنوبي همدان، بينها وبين المدينة أكثر من مسيرة شهر، فعدلوا إلى الجبل، ففتح الله عليهم وهي قضية مشهورة، أخرجها الواقدي وسيف في الفتوح، والبيهقي في الدلائل، واللالكائي في شرح السُّنة، وابن الأعرابي في كرامات الأولياء، وابن مردويه، وغيرهم.

راجع الإصابة في ترجمة سارية المذكور. وفي لطائف المنن: إن القطب الحلبي الحافظ أفرد لطرقها جزءًا. قال بعضهم: وكان هذا في حياة سارية، فلما مات في مصر دُفن أيضًا في قلعة الجبل، فكأنه امتثل قول عمر بعد وفاته أيضًا. راجع الرحلة الكبرى لسيدي عبد الغني النابلسي.

=

الصحيحة، وقد صحَّ عند أهل الله أن الحاسة يمكن أن تدرك ما تدركه الحاسة الأخرى؛ كالأذن فإنها يمكن أن ترى، وكذا البصر فإنها يمكن أن تسمع، وهكذا جميع الأعضاء، والقوى، وذلك إنما يكون بحسب التجلِّي الخاص على أن الله تعالى من شأنه أن يجمع الأضداد، وفي حالة واحدة، وكذا الإنسان إذا كان مرآة له بالفعل؛ فإن مرتبته جامعة؛ كمرتبة الأُلوهية.

فإذا عرفت فاعلم أن جميع الأشياء الموجودة بالوجود الخارجي من الأول إلى

=

وفي العهود المحمدية في عهد الاستعداد لوقوف عرفة ما نصه: إن لله تعالى رجالاً يسمعون كلام من بينهم وبينه مسيرة ثلاثين ألف سنة، وراثة إبراهيمية قال: وقد وقع لي في ابتداء أمري أني كنت أسمع كلام من في أقطار الأرض من الهند والصين وغيرهما، حتى إني كنت أسمع كلام السمك في البحار المحيطة، ثم إن الله حجب ذلك عني، وأبقى معي العلم كي لا أنكر مثل ذلك على أحد.

وكان سيدي أحمد بن الرفاعي يتكلم على الكرسي بأم عبيدة، فيسمعه من حوله من القرى، والله على كل شيءٍ قدير انتهى.

وقد ذكر بعض الكبار أنه انخرق لسمعه ﷺ وبصره وشمه وإدراكه ولمسه وسائر حواسه جميع الكون، وسائر المملكة الربَّانية، وأنه يرى منها ما شاء متى شاء، ويسمع ويُسمع ويشم ويُشم ويلمس ويتناول، ويأخذ ويعطي، كذلك ويحول ويتصرف، ويفعل ما شاء على الوجه الذي شاء، وأذن له فيه، ولا ينحجب عنه شيء، أو يمتنع منه أيًّا كان، إذا أراده على أي وجهٍ كان، وأي وصفٍ في المملكة كلها عمومًا.

قلت: والأحاديث والآثار الواردة في هذا الباب والحكايات المنقولة عن أهل الله تعالى تشهد بذلك، وتأمَّل ما تقدَّم عن الشيخ عبد السلام الأسمر أن الله تعالى أطلعه على جميع الكائنات، وكشف له عن ملكوت السماوات والأرض والجنة وما فيهما ظاهرًا وباطنًا.

وعن سيدي أحمد بن الرفاعي من أنه صحب ثمانمائة ألف أمة ممن يأكل ويشرب ويروث وينكح، وأنه لا يكمل الرجل حتى يصحب هذا العدد، ويعرف كلامهم وصفاتهم وأسماءهم وأرزاقهم وآجالهم، ولا تستقر نطفة في فرج أنثى إلا وينظر إليها، ويعلم بها، وأمثال هذا عن الأولياء كثير، وهم قطرات أو جداويل من بحار علمه ومعرفته، وما أطلعه الله عليه وأراه إياه، بل ما نالوا ذلك إلا منه، ولا اغترفوه إلا من بحره الطام الذي لا حدَّ له ولا نهاية، والعقول كلها لا تتسع لإدراك ماهيته وحقيقته، والله ذو الفضل العظيم والمن على ما يشاء من خلقه، لا رب سواه سبحانه وتعالى. وانظر: كتابنا (شرح أنوار النبي ﷺ ص١١٢).

الآخر مشتركة في كونها من المتشابهات، والله تعالى كما أن له أسماء إلهية كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فله أسماء كونية كما أشار إليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[١]، فأسماء الله؛ هي أسماء آدم، وكذا العكس؛ لكن هذه المتشابهات بعضها فوق بعض باعتبار القرب من عالم الاختراع، والبعد عنه، فكل ما قرب منه؛ فمتشابه لطيف؛ لقلة التركيب، وكل ما بعد عنه؛ فمتشابه كثيف؛ لكثرة التركيب.

واللطيف وإن كان من عالم الخلق؛ فبلطافته يُعدُّ من عالم الأمر؛ كالقلم، والروح، والعرش، والكرسي، بخلاف الكثيف كالطبيعيات، والعنصريات، والتوليديات، والإنسان السالك إذا غلب عليه حكم الوجوب من حيث الوجه الخاص؛ فالكثيف لا يكون محجبًا له عن الله تعالى؛ لشدة التأثير في الأسماء الإلهية الذاتية الكلية، فحجابه الظلماني في حكم الحجاب النوراني، وحجابه النوراني كلاً حجاب بخلاف مَن غلب عليه حكم الإمكان فإنه ليس كذلك؛ لضعف تأثير الأسماء الصفاتية الجزئية.

ويُعلم الفرق من أن الأول روح كلي مخلوق قبل تسوية طبيعته العنصرية، والثاني روح جزئي مخلوق بعدها، وإن كان كل منهما مستفادًا من الروح الكلي الأولى، فأين رتبة مَن يتأخَّر من رتبة مَن يتقدَّم؟ وكذا أين حال مَن حكمت عليه الأحوال المختلفة من حيث كثرة الوسائط من حال مَن ليس كذلك؟

«**فمَن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومَن وجد خلافه؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه**[٢]» فإن الشر ليس إلى الله، وإنما هو من مقتضيات الاستعدادات الغير المجعولة، فانظر فأنت المحكم، وأنت المتشابه، واعتبر، وعليك بمراعاة المراتب.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩].

هذا الإطلاق يدل على أن العباد كلهم ملطوف في الحقيقة، وإن كانوا ملابسين لصور القهر.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (٤/١٩٩٤).

فإن ذلك راجعٌ إلى استعداداتهم، فليس ذلك قهرًا خارجيًّا عن اللطف، وإليه الإشارة بالاسم القهار؛ إذ لو قهر الله عباده بما كان خارجًا عن استعداداتهم، لكان ذلك ظلمًا منه، وهو منـــزهٌ عنه.

ومنه يعلم أن رحمته سبقت غضبه: أي لأن الرحمة التي هي الخير مقتضى بالذات، وهو مقتضى ذاته تعالى، والغضب الذي هو الشر ليس بمقتضى بالذات، وإنما من آثار العوارض التي تلبس بها العباد في ثاني الحال، بمقتضى استعداداتهم في عوارض بالنسبة إلى ثاني الحال، وشئون ذاتية بالنسبة إلى أول الحال، والله تعالى هو الخلاق على الدوام في الدارين، فهو لطيفٌ بهم، ولا يقهرهم إلا عن سؤال لسان الحقيقة، فلله الحجة البالغة، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط منه، وليس إلا حصائد ألسنتهم وأيديهم، فأعمالهم.

فكذا ذواتهم، منها قائم إن كانت من المحكمات، ومنها حصيد، إن كانت من المعلقات، فطوبى لمن كان قائمًا من الأزل إلى الأبد، لا يذروه الرياح، ولا ينسفه الواصف، وويل لمن كان حصيدًا بيد القهر والجلال، إلا أن يكون ذلك من قبيل الفناء؛ لتحصيل البقاء والكمال، فالأول غضب صورة ومعنى، والثاني غضب صورة ورحمة معنى، وعلى هذا جرى عباد الله وصبروا على الأقضية والبلايا؛ انتظارًا للمنح والعطايا.. الفقير حقي، حرره الشامي.

***

وفي سورة الزخرف

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤].

يعني: إن فرعون وجد قومه خفيفًا؛ ولذا مالوا إليه بالإطاعة؛ لأن الخفيف إلى الخفيف يميل، ومال الخفيف إلى النار، كما قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ*فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٨، ٩].

ولا شك أن خفة الموازين من قلة الأعمال، وهي من خفة القلب المائل إلى الهوى، وفيه إشارتان:

الأولى: إن القلب إذا كان خفيفًا؛ فالقوي أيضًا كذلك؛ لأنها تابعة له كما أن الرعايا تابعة للسلطان، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، وثقله، ومتانته، إنما هو من خوف الله تعالى، فإن الخائف من الله لا يميل إلى المنكرات؛ بل يثبت عندما عُيِّن له من الشرائع، وبقدر الخوف والعمل بمقتضاه، يُعرف مقادير الناس، ومراتبهم في التقوى.

والثانية: إن الملوك لا بد لهم من الرزانة، والوقار، والحياء في الصورة بلا تقليد، وتلوين، ورياء، فإن ذلك مما يدلُّ على ما في قلوبهم من المعاني والحقائق، وقد طلب بعض الأولياء من الله تعالى أن يلقي في قلوب الناس هيبته في حقه؛ لكون ذلك أقرب لقبول ما عنده من الحق؛ فكأنه طلب أن يُلقى ذلك في قلبه، فإنه إذا كانت حقائق الصفات والأحوال في باطن الإنسان؛ فظاهره يكون أهول وأهيب.

ولذا ترى ملوك الزمان وأمراءه يتكلَّفون في الأوضاع، ويرون من أنفسهم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا يعدَّهم الناس في جملة المراجيح الرزان؛ بل يسخرون بهم في خلواتهم، والمتحققون المتشيِّخون، فما اشترى العارفون ذلك منهم بفلس؛ لفرقهم بين الجيد والردىء، والطيب والخبيث.

فإن الأقوال والأعمال تُنادي على المراتب مطلقًا، وقد استخفُّوا بعض الناس من أخفاء الأحلام، فوضعوا على رءوسهم التيجان، وألبسوهم الخرق والمرقَّعات، فما جاء مصداقهم كلهم إلا قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥] أي: قوالبهم الظلمانية في حال حياتهم والقباب المضروبة عليهم بعد

مماتهم، فكانت مساكن بلا سكان، وقوالب بلا قلوب، وصورًا بلا معانٍ، وخيالات بلا حقائق، فلعنة الله على الظالمين الذين وضعوا الأشياء في غير مواضعها، وخرجوا عن الحكمة إلى حدِّ العبث.

وقد قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥].

يعني: إنا خُلقنا بالحق للحق، فمَن كان؛ فليكن ما صنعه بالحق، وإلا كان من اللاعبين، كما قال تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:٥٥]، ولمَّا سمعه الشبلي قُدِّس سرُّه ترك الدور، والرقص مع قوة حاله خوفًا أن يكون من اللاعبين.

ثم إن قوله: (قومه) يُشير إلى أن أحدًا لا يُستخفُّ إلا إذا كان من أهله، ومن جنسه، فالشقي يستخفُّ الشقي لا السعيد، فإن الله مع السعيد، والله لا يأمر بالفحشاء.

ألا ترى أن الشيطان استخفَّ قابيل، وبرصيصًا، وبلعم ونحوهم؛ فأطاعوه فيما أمر به، فقتل قابيل أخاه هابيل، وأرتدَّ برصيصا، وبلعم عن دينه، ولم يقدر على إضلال المتقين لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

وهو أحد التأويلات في قوله: «**إذا أحبَّ الله عبدًا؛ لم يضرَّه ذنب؛ لأنه لا ذنب من حيث الحفظ، والعصمة فلا ضرر**»[1]، وعلى تقدير صدور الذنب، فالله يحب التوَّابين.

فالمحبوب لا يكون مُذنبًا إلا على خطأ وتأويل، ولا يصرُّ على ذنبه، وإلا لم يكن محبوبًا، فعلى العاقل أن يسعى، ويجتهد حتى لا يكون من حزب الشيطان؛ فإنهم الخاسرون؛ بل يكون من حزب الله؛ فإنهم المفلحون، ونسأل الله الالتحاق بالصالحين في أعمالهم، وأحوالهم إلى أن يأتي اليقين.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٢/٣٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/٣١٨) بنحوه.

في سورة الأحقاف

قال الله تعالى: ﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأحقاف:٣١].

إنما اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارة من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿**قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ [المدثر:٢]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم ورؤية، فإن أول الدعوة الإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى الإيمان.

ودخل في النعيم الرؤية؛ لأنها أعلى النعيم الإلهية؛ ولذا ورد: «**وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك الكريم**»[1].

حيث أثبت اللذَّة للنظر؛ لأن الرؤية من اللذات المعنوية، والنعم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلاً منهم داخلون تحت التكلُّف والدعوة، فمشاركتهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقًا.

نعم فرق بين نعيم الملائكة، والجن، والإنس.

أمَّا الملائكة: فنعيمهم روحاني لا غير؛ لأنهم خُلقوا من النور، وغلبت عليهم اللطافة الروحانية؛ فصاروا في الأجسام اللطيفة؛ كالأرواح؛ ولذا كانت موتتهم غشية لا كموتة مَن عداهم؛ وهي مفارقة الأرواح من الأجسام الطبيعية كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [الأنبياء:٣٥].

ثم إن نعيمهم الروحاني؛ هو حضورهم مع الله بقدر مراتبهم، وأمَّا ثواب أعمالهم فللمؤمنين كما ورد في النصوص.

وأمَّا الجن: فنعيمهم جسماني وروحاني جميعًا؛ لأنهم وإن شاركوا الملائكة في دخولهم تحت الاسم اللطيف؛ لكنهم فارقوهم من حيث إنهم خُلقوا من مارجٍ من نار، فإنه ثبت لهم الأكل الجسماني، فلهم بعض الكثافة من حيث خِلقتهم، وكونهم

---

(١) تقدم تخريجه.

من أهل الأكل الجسماني، وإن كان مأكولهم عَظْمًا ونحوه.

ولا شك أن مَن يأكل، ويشرب، وينكح في الدنيا؛ فله ذلك في الآخرة على تقدير إيمانه؛ لأنه لا نعيم للكافر في النار؛ بل طعامه الزقُّوم، وشرابه الحميم والصديد، ومَن كان له نعيم جسماني في الدنيا؛ فله نعيم روحاني فيها أيضًا؛ لأن نفخ الروح لا يختصُّ بمؤمن، ولا كافر؛ ولذا صحَّ بعض الأحوال الروحانية للكافر أيضًا في الدنيا كما حُكي عن بعض الفلاسفة، وأهل الرياضات، ومَن كان من أهل النعيم مطلقًا في الدنيا، وهو مؤمن؛ فله ذلك في الآخرة أيضًا، ومن جملة ذلك الرؤية.

نعم فرق بين نعيم المؤمن من الإنس، وبين نعيم المؤمن من الجن؛ لأن الإنس أكمل في العلم والعمل من الجن، فنعيمهم صورة ومعنى بقدر حالاتهم ومراتبهم؛ كالملائكة، وأمَّا الإنس فلهم النعيم مطلقًا، ونعيمهم أكمل من نعيم الجن؛ لكمالهم في باب العمل، وبلوغهم الغاية القُصوى في المعرفة الإلهية، وذلك لجمعية نشأتهم.

وكذا نعيمهم الروحاني أكمل من نعيم الملائكة؛ لأن الملائكة على جناح واحد إذ ليس لهم ما للإنس من الجمعية، فأين ذو الجناح الواحد من ذي الجناحين؟ وإذا عرفت هذا؛ عرفت أن الله بين الملك، والجن، والإنس صورةً، ومعنى، فمَن قصد إدخال الجن في جنس الملائكة، وجعل سعداءهم وأشقياءهم؛ كسعداء الإنس وأشقيائهم؛ فهو لم يعرف حقيقة الحال، وجهل بالمقام، وإن كان له شأن بالأمر.

وقال المصنف في موضع آخر:

قوله تعالى: ﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأحقاف: ٣١].

قال حضرة الشيخ: صدر الدين القونوي قُدِّس سرُّه في تفسير الفاتحة:

وأمَّا الجن فنحن لا نشك إنهم يجازون على أفعالهم؛ لكن لا نتحقق إنهم يدخلون الجنة، وإن المؤمن يجازى على ما عمل من خير في الآخرة، فإنه لم يرد في ذلك نص، ولا نعرف من جهة الذوق في هذه المسألة ما يوجب الجزم، فقد يجنون ثمرة خيرهم حيث شاء الله تعالى انتهى.

وقال شيخي، وسندي السيد عثمان الفضلي قُدِّس سرُّه في شرح التفسير المذكور: وقد عرفت من جهة الذوق حيث يجنون ثمرة عملهم الخير بإذن الله وفيضه؛ لكن لم أكشفه؛ بل أكتمه بتعيُّنه لَمن كتمه، ولم يكشفه انتهى.

يقول الفقير: أفاض الله عليه سجال فيضه الكثير: هذا من المسائل التي تَوقَّف فيها أكثر الأئمة والعلماء لِما أن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، يدل على أنهم لا يدخلون الجنة، وإلا لنصَّ الله عليه بعد ذكر الإجارة؛ كما فعله في حق المؤمنين من البشر في مواضع من القرآن.

والظاهر أن الاقتصار على الإجارة؛ كالاقتصار على الإنذار في نحو قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢]: أي قم فأنذر الكفار بعذاب النار، فإن إجارتهم منه موقوفة على إنذارك، وانتفاعهم به؛ وذلك لأن التخلية بالمعجمة قبل التحلية، وذلك لا يقتضي انحصار حالهم في الإجارة.

فكذا في حق الجن فإنهم إذا كانوا تابعين للبشر في الأحكام، والتكاليف؛ كان حكمهم حكم البشر في كل من الإجارة، والإثابة موطنها المبشر به الجنة، هذا وكأنهم أخرجوهم عن حكم البشر في ذلك لأمرين: الأول: قصورهم في باب الأعمال، والمعارف الإلهية بحسب نشأتهم النارية، والثاني: إنهم داخلون تحت الاسم اللطيف؛ كالملك؛ لغلبة الروحانية عليهم؛ ولذا كان غذاؤهم الاسترواح، والاستشمام، ونحو ذلك لا على نحو الغذاء البشرى.

فلمَّا كانوا على جناح واحد من الأمر؛ فإنهم جلاليون فقط، كما أن الملائكة جماليون فقط، وكان الغالب على نشأتهم الروحانية؛ اقتضى الذوق أن يكون نعيمهم غير النعيم الحسِّي؛ بل الخيال المتصل بعالم المثال المطلق، وذلك في مقام الأعراف؛ فإن الأعراف كما أنه سور بين الجنة والنار؛ باطنه في الرحمة، وظاهره من قبله العذاب الناري بحسب نشأتهم النارية؛ فكذا عالم الخيال المقيَّد، والمثال المطلق؛ برزخ بين العالم الروحاني، والجسماني، فنعيمهم روحاني من حيث تجرُّدهم، وخيالي من حيث تلبُّسهم بالجسم اللطيف؛ كالملك.

كما أن نعيم البشر روحاني، وجسماني حسِّي من حيث تعلُّقهم بالجسم الكثيف، وإن كان أجسامهم تتلطَّف هنالك بتلطيف العناصر، والخيالي غير الحسِّي؛

فإن الحسي أقوى منه.. هذا ما أُلقي في البال، والله أعلم بحقيقة الحال.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

أخبر التعليم عن الأتقياء إشارة إلى أن العلوم الحقيقية، والمعارف الحقَّانية؛ هي التي تنشأ عن التقوى، فما عداها علوم، ومعارف نفسانية شيطانية.

فالعلوم والمعارف الحقَّانية الرحمانية؛ هي التي ألقاها الله سبحانه في قلب عبده المتَّقي من الشرك، والمعصية، والتعلُّق بما سوى الله تعالى.

والعلوم والمعارف الغير الحقَّانية؛ هي التي ألقاها الشيطان في قلب الشخص المنحرف عن الله، وسوَّلت له نفسه.

فالأولى من باب الكرم، والثانية من باب المكر الذي هو قلبه وعكسه.

فالعلم الصحيح: هو الذي يُلبسك التقوى؛ وهو زينة الله تعالى لك في الدنيا والآخرة، فإن العلوم الحقيقية تبقى مع العالم في كل موطن ومقام؛ فتنتقل معه إلى حيث ينتقل؛ وهي الزينة المحلَّلة.

التي أشار إليها قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

وأمَّا العلوم الغير الحقيقية: فقد وقع الذَّم عليها؛ لكونها من زينة الحياة الدنيا المحرَّمة، وأعني بالعلوم الغير الحقيقية؛ ما لم يكن من نتائج التقوى، والعمل الصالح، والسلوك، والعلوم مطلقًا، فإن بعض الرسوم فيما يلحق بالحقائق.

ومن هذه الآية يُعلم حال مَن أباح الدخان في هذه الزمان[1]، وكتب في حقه من المساوئ ما لا يحتاج إلى البيان؛ وذلك لأن المباح إذا كان فيه موافقة النفس، والميل إليها؛ كان ذلك من قَبيل المعصية، وحط النفس.

ولا شك أن الدخان من الأمور الخسيسة الطبيعية التي لا يرتكبها إلا الأخسَّاء، والأسافل من الناس، وقد صحَّ عند الله أن الأمور الخسيسة مما يحتجب به الروح عن العروج إلى المقامات العلوية، ومثل هذه الوسائل مما لا شك في خباثتها على أن الخبيث عند أهل النفس الطاهرة الطيبة حرام كما دلَّ عليه قوله تعالى:

---

(١) قلت: في مسألة إباحة الدخان، وتحريمه وكراهته، أقوال لأهل العلم، فممن أباحه: الشيخ الأجهوري، والشيخ عبد الغني النابلسي، والشوكاني، وغيرهم.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقد سمعت عن بعض الأقطاب: إن شارب الدخان، ومبيحه؛ نفساني شيطاني، وأيضًا: إن الذي يستعمله؛ يستثقل أمر الله تعالى وطاعته.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فما أدَّى إليه حرام خبيث بلا شبهة، وأيضًا أن النبي ﷺ كان قد حبب إليه الطيب؛ تأنيسًا للحقائق الإلهية، والأرواح الملكوتية؛ لأن العناصر البشرية لا تخلو عن الكثافة، والرائحة الكريهة كما قال تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٨، ٣٣].

فإذا كان إزالة هذه الرائحة الجبلية مما يحتاج الإنسان فيها إلى التبخير؛ فما ظنك بالروائح العارضة الكريهة، فإن ادَّعى مُدَّعي إنه يستعمل السواك في عقب شربه فيزيل رائحته؛ فذلك من الأكاذيب التي لا تصغى إليها أصلاً؛ لأن رائحة الدخان سارية في لحمه، ولباسه، ومقامه حتى تسري في محلِّ سجدته في المساجد والجوامع، وقد قالوا: لو أنه لا معنى للتطهير بعد التجنيس؛ بل الواجب البقاء على الطهارة الأصلية، وكذا دعوى المنفعة مما لا يُسمح، فإن الأصل في الأشياء، وإن كان الإباحة، إلا أن المراد؛ هي الأشياء النافعة لا مطلقًا.

كما دلَّ عليه في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ [البقرة:٢٩]، ولا يرتاب عاقل في أن شاربه لا يستعمله لنفعه، أو يستعمله بقول طيب، خبيث، مريض مثله، وقد كان مُدَّعي الشيخوخة في هذه الزمان لا يصوم؛ لإكبابه عليه، أو لا يفطر في شهر رمضان إلا عليه، فسُحقًا لأصحاب الشهوات، قاتلهم الله.

في سورة محمد ﷺ

قال الله سبحانه: ﴿فَاعلم أنهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد:١٩].

أمر تعالى بالعلم مع أنه هو العالم، كما أنه هو الشاهد في قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ والرامي في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ إشارة إلى ذنب الوجود المغفور؛ ولذا قال عقيبه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:١٩]، وهي نسبة الوجود التي بها أُضيف العلم إليه، فإذا غفر وستر؛ كان الوجود وما يتبعه لله تعالى؛ وإنما أمره بالعلم مع أن هذه الشهادة أول ما صدر منه ﷺ، وهو في مرتبة العقل الأول، إشارة إلى الفرق بين مرتبتي الروح والجسد، فمرتبة الروح لكونها مرتبة التجرُّد؛ لا تحتاج إلى التذكير والأمر بالعلم، وأمَّا مرتبة الجسد فكونها مرتبة التعلُّق؛ تحتاج إلى ذلك.

ولذا لَمَّا خلقه الله تعالى، وهو أول المبدعات قال: (**لا إله إلا الله**)، ولم يقل: وأنا العبد؛ لأن تلك المرتبة ليست مرتبة العبودية؛ بل مرتبة الحامدية بلسان الروح[1].

ولَمَّا وقع المعراج، ودخل على الله تعالى قال: (لا إله إلا الله أنا العبد) فأثبت العبودية حينئذ لِما يقتضيه الموطن، فلكل من المواطن اعتبار غير اعتبار الآخر.

ولَمَّا كانت الأُلوهية من الإضافات؛ لأنها تقتضي إلوهية العبد؛ وقع عليها العلم الذي هو نسبة من النسب أيضًا، وليس فوق مرتبة العلم والأُلوهية إضافة أصلاً؛ لأن ما فوقها ذات بحت لا اسم هناك، ولا رسم، ولا وصف، فإلى مرتبة الأُلوهية ينتهي علوم العلماء، ومكاشفة المكاشفين، ومن ثَمَّ حكم على العالم؛ بل المكاشف أيضًا بالحيرة لكنها هي الحيرة الممدوحة الناشئة عن علم وتجلِّي، لا عن جهل واحتجاب، والله الهادي إلى عين ذاته.

---

(١) ذكر المصنف –قدس سره– أن السيد الأعظم ﷺ هو أول المبدعات أي أول موجود أوجده الله.
قلت: ولقد تكلم في تلك المسألة– مسألة أسبقية النور المحمدي – كثير من العلماء الأعلام، واعتقدها من علمها من المتبعين الكرام، وشهدها من شهدها ممن يجدد الله بهم دينه الإسلام، من ورثة رسوله عليه من ربه أزكى الصلاة والسلام، وإليك طرفًا من هذا المقام ليجلي عن عين قلبك غين الأوهام، وتعلم جزءًا مما لنبيك من عظيم القدر وعالي المقام ﷺ.

وفي سورة الفتح

قال الله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّه وَالَّذينَ مَعَهُ أَشدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّه وَرِضْوَانًا سيمَاهُمْ في وُجُوههم مِّنْ أَثَرِ السُّجُود ذَلكَ مَثَلُهُمْ في التَّوْرَاة وَمَثَلُهُمْ في الإِنجيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقه يُعْجبُ الزُّرَّاعَ لِيَغيظَ بهمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات منْهُم مَّغْفرَةً وَأَجْرًا عَظيمًا﴾ [الفتح:٢٩].

واعلم أنه قد اجتمع حروف المعجم التسعة والعشرون في كل من الآيتين المذكورتين.

وأول الحروف في الآية الأولى: الثاء المثلثة في ثم، وآخرها: الصاد المهملة في صدروكم.

وأولها في الثانية: الميم في محمد، وآخرها: الصاد أيضًا في الصالحات.

وليس في القرآن آية حَوت الحروف كلها غيرهما، ومَن دعا الله تعالى بهما؛ استجيب له. والمراد: من قرأهما، ودعا عندهما؛ استجيب له؛ لأنهما لجمعهما الحروف كلها؛ كانت بمنـــزلة القرآن كله. وقد صحَّ أن الدعاء مستجاب مستجاب عند ختم القرآن، ولمَّا كانت هذه الحروف مما أنزله الله تعالى على آدم عليه السلام.

وكان آدم قد تكلَّم بسبعمائة ألف لغة على ما جاء في بعض الروايات: كان مَن تكلَّم بتلك الحروف؛ كمَن تكلَّم بتلك اللغات كلها؛ لأن كلاًّ منها مشتملة على تلك الحروف، وقد ضم إليها الحروف الأربعة الفارسية التي هي: الباء، والجيم، والزاي، والكاف المعجمة التي تكلَّم بها بعض القبائل؛ ولذا كانت اللغة الفارسية ملحقة باللغة العربية؛ فجُعلت كل منهما لسان أهل الجنة.

ثم إنه نقل حفص بن غياث عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه: أن أبا حنفية رضي الله عنه صلَّى صلاة الفجر بوضوء العشاء الأخيرة أربعين سنة، فقال له يومًا: يا أبا حنيفة سألتك بالله ما الذي قوَّاك على ما أرى منك من طاعة الله تعالى، فقال أبو حنفية: إني دعوت الله تعالى بأسمائه على حروف المعجم ثلاث: أي على ترتيب حروف المعجم

كلها التي اجتمعت في آل عمران، وسورة الفتح؛ والمراد ترتيبها على ما وقع في الآيتين: مَن دعا الله بها؛ استجيب له دعاؤه.

قال في الضياء المعنوية[١]: قراءة هاتين الآيتين؛ للنماء، والبركة، والشدة، والقوة، والحراسة من كل آفة للرجال، والنساء، والأطفال، ومَن أكثر من قرأهما؛ وجبت له إجابة الدعوة، والخروج من الضيق إلى السعة، ويكون له أعوان ينصرونه، ويعينونه على الخير، ويُرزق خير الدنيا والآخرة انتهى.

والظاهر ما ذُكر من حكاية الإمام: إن قراءة كل واحدة من الآيتين المذكورتين، وإن كانت نافعة بمجردها حسب اشتمالها على الحروف كلها؛ لكنها إذا انضمت إليها الأسماء الحسنى، وأحصاها على الترتيب الذي يليق، كان أحسن، وأدعى للإجابة، وقد نُقل عن الإمام تفصيل الترتيب.

وأنا أذكر لك ما هو ترتيب حروف التهجِّي بقدر الضبط، فاعمل على كل منهما. وأقول: ينبغي للداعي أن يقول: اللّهم:

(أ): يا الله، يا أول، يا آخر، يا أحد.

(ب): يا بَرُّ يا بارئ يا باعث[٢] يا بديع يا باقي، يا باسط، يا باطن، يا بصير.

---

(١) هو للغزنوي الحنفي، وللسيد علي بن عبد الله البقردي، وقيل: القبردي، نزيل الشام المتوفى في حدود ١٠٥٥ هـ، كتاب المصابيح الأخروية شرح الضياء المعنوية في الفروع.

(٢) الباعث: هو الذي يحيي الخلق يوم النشور، ويبعث من في القبور، ويحصل ما في الصدور، والبعث هو النشأة الآخرة، ومعرفة هذا الاسم موقوفة على معرفة حقيقة البعث، وذلك من أغمض المعارف، وأكثر الخلق منه على توهمات مجملة، وتخيلات مبهمة، وغايتهم فيه تخيلهم أن الموت عدم، والبعث إيجاد مبتدأ بعد عدم، مثل الإيجاد الأول فظنهم أن الموت عدم غلط، وظنهم أن الإيجاد الثاني مثل الإيجاد الأول غلط، فأما ظنهم أن الموت عدم فهو باطلٌ؛ بل القبر إما حفرة من حفر النيران، أو روضة من رياض الجنة، والميت إما من السعداء، وأولئك ليسوا أمواتًا؛ قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]، وإما من الأشقياء، وهم أيضا أحياء، ولذلك ناداهم رسول الله في وقعة بدر وقال: «إني وجدت =

=

ما وعدني ربي حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا، ثم لما قيل له: كيف تنادي قومًا قد جيفوا؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، لكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»، والمشاهدة الباطنة دلت أرباب البصائر على أن الإنسان خُلق للأبد، وأنه لا سبيل عليه للعدم نعم تارة يقطع تصرفه عن الجسد، فيقال مات، وتارة يُعاد إليه فيقال أحيي وبعث: أي أحيي جسده، وكشف ذلك بالحقيقة مما لا يحتمله هذا الكتاب.

وأما ظنهم أن البعث ليس إيجادًا ثانيًا، وهو مثل الإيجاد الأول فغير صحيح، بل البعث إنشاء آخر لا يناسب الإنشاء الأول أصلاً، وللإنسان نشآت كثيرة. وليست هي نشأتين فقط. ولذلك قال تعالى: ﴿وَنُنشِيءَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، ولذلك قال بعد خلق المضغة والعلقة وغير ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنين: ١٤] بل النطفة نشأة من التراب والعلقة نشأة من النطفة والمضغة نشأة من العلقة والروح نشأة من المضغة ولشرف نشأة الروح وجلالته وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥]، ثم خلق الإدراكات الحسية بعد خلق أصل الروح نشأة أخرى، ثم خلق التمييز الذي يظهر بعد سبع سنين نشأة أخرى، ثم خلق العقل بعد خمس عشرة سنة وما يقاربها نشأة أخرى وكل نشأة طور ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح:١٤]، ثم ظهور خاصية الولاية لمن رزق تلك الخاصية نشأة أخرى، ثم ظهور خاصية النبوة بعد نشأة أخرى، وهي نوع من البعث، والله سبحانه وتعالى باعث الرسل كما أنه الباعث يوم النشور.

وكما أنه يعسر على ابن المهد فهم حقيقة التمييز قبل حصول التمييز ويعسر على المميز فهم حقيقة العقل وما ينكشف في طوره من العجائب قبل حصول العقل فكذلك يعسر فهم طور الولاية والنبوة في طور العقل فإن الولاية طور كمال وراء نشأة العقل كما أن العقل طور كمال وراء نشأة التمييز والتمييز طور كمال وراء نشأة الحواس وكما أن من طباع الناس إنكار ما لم يبلغوه ولم ينالوه حتى إن كل واحد ينكر ما لم يشاهده ولم يحصل له ولا يؤمن بما غاب عنه فمن طباعهم إنكار الولاية وعجائبها والنبوة وغرائبها بل من طباعهم إنكار النشأة الثانية والحياة الآخرة لأنهم لم يبلغوها بعد ولو عرض طور العقل وعالمه وما يظهر فيه من العجائب على المميز لأنكره وجحده وأحال وجوده فمن آمن بشيء مما لم يبلغه فقد آمن بالغيب وذلك هو مفتاح السعادات.

=

(ت): يا توَّاب[1] تب علينا فإننا بشر ما عرفناك حق معرفتك، يا مَن تعاليت ذاته وصفاته عن أن يحيط بهما وصف الواصفين؛ بل علم العارفين، يا مَن توالت آلاؤه، يا مَن تتابعت نعمائه.

(ث): يا ثابت، يا مَن ثناؤه فوق كل ثناء لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، يا مَن قال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾.

(ج): يا جميل، يا جليل، يا جبَّار، يا جامع، يا جوَّاد.

(ح): يا حيُّ، يا حميد، يا حكيم، يا حكم، يا حق، يا حليم، يا حفيظ، يا حسيب، يا حنَّان، يا حبيب القلوب.

(خ): يا خالق، يا خافض، يا خبير.

(د): يا ديَّان، يا دائم، يا دافع، يا مَن دلَّ على وجوده ووحدته آثاره

=

وكما أن طور العقل وإدراكاته ونشأته بعيد المناسبة عن الإدراكات التي قبله فكذلك النشأة الآخرة بل أبعد فلا ينبغي أن تقاس النشأة الآخرة بالأولى وهذه النشآت هي أطوار ذات واحدة ومراقيها التي تصعد فيها إلى درجات الكمال حتى تقرب من الحضرة التي هي منتهى كل كمال وتكون عند الله عز وجل بين رد وقبول وحجاب ووصول فإن قبل رقي إلى أعلى العليين وإلا رد إلى أسفل السافلين والمقصود عدم المناسبة بين النشأتين إلا من حيث الاسم، ومن لم يعرف النشأة والبعث لم يعرف معنى اسم الباعث وشرح ذلك يطول فلنتجاوزه.

تنبيه: حقيقة البعث ترجع إلى إحياء الموتى بإنشائهم نشأة أخرى والجهل هو الموت الأكبر والعلم هو الحياة الأشرف وقد ذكر الله سبحانه وتعالى العلم والجهل في كتابه العزيز وسماهما حياة وموتا ومن رقى غيره من الجهل إلى المعرفة فقد أنشأه نشأة أخرى وأحياه حياة طيبة فإن كان للعبد مدخل في إفادة الخلق العلم ودعائهم إلى الله تعالى فذلك نوع من الإحياء وهي رتبة الأنبياء ومن يرثهم من العلماء. انظر: المقصد الأسنى للغزالي (١/١٢٣).

(١) أي الموقف للتوبة، أو الذي يرجع على كل مذنب بالتوبة، ويكثر ذلك منه لهم مع كثرة عصيانهم، أو القابل للتوبة من العباد.

والتقرُّب بهذا الاسم تعلُّقًا بسؤال التوبة منه عليك، وتخلُّقًا بالتوبة إليه في كل حال.

وخاصيته: رفع الظلم، وتحقيق التوبة منه عليك، فمَن قرأه إثر صلاة الضحى ثلاثمائة وستين مرة تحققت توبته، ومَن قرأه على ظالم عشر مرات تخلَّص منه إن شاء الله تعالى.

وشواهده، ودار بذكره وتسبيحه وتحميده ألسنة الأشياء كلها على ما حكم به شاهده.

(ذ): يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا القوة المتين، يا ذا البطش الشديد الذي لا يُطاق انتقامه، يا ذا العرش المجيد، يا مَن ذلَّت أعناق الجبابرة، وطأطأت له رؤوس القهاهرة، يا ذا الفضل والجود منك الوجود، ولك السجود.

(ر): يا رحمن، يا رحيم، يا رزَّاق، يا رافع، يا رقيب، يا رشيد، يا رب العالمين.

(ز): يا مَن زالت ظلمة العدم برش نوره، وزُلَّت قدم مَن لم يتأدَّب بحضوره، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر عند سطوان قهره.

(س): يا سلام، يا سميع، يا سبُّوح، يا مَن سرُّه الإنسان، يا مَن سُرَّ بإحسانه البال، وزال البلبال.

(ش): يا شَكور، يا شهيد، يا مَن شأنه عال مما شأنه سبحانه سبحانه.

(ص): يا صمد[1]، يا صبور، يا صادق الوعد، يا مَن صلَّى على النبي الأمين، وعلى المؤمنين.

---

(١) هو الذي يُصمد إليه في الحوائج: أي يُقصد فيها.

وقيل: الذي لا يطعم. وقيل: معناه السيد. وقيل غير ذلك كما مرَّ.

والتقرُّب بهذا الاسم تعلُّقًا بالرجوع إليه تعالى بالرغبة في عموم الأوقات والحالات، وتخلُّقًا على المعنى الأول أن تكون عونًا للعباد على حوائجهم، وملجأ لهم بأي وجه أمكن.

وعلى الثاني: أن تستعمل الرياضة حتى تنتفي عنك شهوة الطعام والشراب قدر الطاقة، وعلى الثالث: أن تأتي بفعلٍ جميل، فإن السؤدد بنية الإعمال في رضا الخلق.

وخاصيته: حصول الخير والصلاح، فمَن قرأه عند السَّحر مائة وخمسة وعشرين مرة؛ ظهرت عليه آثار الصدق والصدِّيقين، ومَن يذكره لا يحس بألم الجوع ما دام يذكره.

وفي «الأربعين الإدريسية»: (يا صمد) من غير شبيه، ولا شيء كمثله، مَن غلب عليه الفسق و لم يقدر على التنصُّل منه فليصم الخميس والجمعة والسبت، ويجتنب في ذلك أكل ما فيه روح، ويذكره في كل يوم مائة مرة، فإن الصلاح يظهر منه بأثر ذلك، وإن كتبه في إناء صيني، وسُقي الزوجين؛ اصطلحا وتآلفا.

(ض): يا مضل، يا مَن ضلَّ عقول العلماء في بدأ مرفته، وضاق نطاق كشوف العرفاء عن إحاطته.

(ط): يا طيب لا يقبل إلا طيبًا، يا مَن طابت بذكره القلوب، وطهَّرت الأرواح لمسِّ الأسرار، ومشاهدة الغيوب، يا مَن طلع نوره عن مشرق التجلِّي والظهور، وطاشت عن بروق ذاته بواطن الرجال، وظواهر الجبال.

(ظ): يا ظاهر للبصائر، يا ظهيرًا للمؤمنين في الماضي والغابر.

(ع): يا عزيز، يا عليم، يا عدل، يا عظيم، يا عفوّ، يا عليّ.

(غ): يا غفور، يا غفَّار، يا غافر، يا غني، يا غزير الإحسان للإنسان، يا غيُّور ومن غيرته حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

(ف): يا فرد، يا فعَّال، يا فتَّاح، يا من فضله ورحمته؛ فرح المؤمنين، يا مَن قال: فرُّوا إلى الله فلا ملجاء ولا منجِّي منه إلا إليه.

(ق): يا قهَّار، يا قادر، يا قاهر، يا قوي، يا قيُّوم، يا قُدُّوس[1]، يا قابض، يا قدير، يا قريب، يا قديم، يا قائمًا بالقسط.

(ك): يا كريم، يا كبير، يا كفيل، يا مَن كلامه شفاء لِما في الصدور، يا مَن كلَّت الإلسنة عن وصفه، يا مَن كره الكفر والفسوق والعصيان، وحبب الإيمان والطاعة، يا مَن كان، ولم يكن معه شيء، يا مَن كان لَمن كان له، يا مَن خلق

---

(١) من القدس وهو الطهارة، والتقديس: التطهير، ومنه الأرض المقدَّسة، والمراد به: المنـزَّه عن التقائص والآفات باستحقاق نعوت الكمال، وإنما ذُكر هذا الاسم بعد اسم المَلك لما يُعرض للملوك من تغير أحوالهم بالجور والظلم، والاعتداء في الأحكام، وفيما يترتب عليها، فأفاد أنه سبحانه وتعالى لا يعرض لملكه ما يُعرض لملك الملوك.

والتقرب بهذا الاسم تخلُّقًا وتعلُّقًا أن تنـزِّه عقائدك عما سوى الله تعالى تنـزيهًا ، وتنـزيه رسله - عليهم الصلاة والسلام- وذوي الاختصاص من عباده، وقلبك من التعلق بسواه، وجوارحك عن مخالفة أمره ونهيه.

وخاصيته أن يُكتب: (سبوحٌ قدوسٌ رب الملائكة والروح) على خبز إثر صلاة الجمعة، فمن أكله فتح الله عليه باب العبادة وسلم من الآفات، وذلك بعد ذكر عدد الاسمين بالجمَّل.

الأشياء بالكاف والنون، يا من كل فعله جميل.

(ل): يا لطيف لطف بعباده فوق اللطفاء بالله للمسلمين الداعين بالتضرُّع، والافتقار، يا مَن له ما في السماوات، وما في الأرض، يا مَن لزم ببابه كل اسم من الأسماء.

(م): يا مؤمن، يا مهيمن[١]، يا متكبِّر، يا مصوِّر، يا منَّان، يا معزُّ، يا مذلُّ، يا مُقيت، يا مجيب، يا مجيد، يا مقتدر، يا مُقدِّم، يا مؤخِّر، يا متعال، يا منتقم، يا ملك، يا مليك، يا مالك الملك، يا مُقسط، يا مُغني، يا مُعطي، يا مانع، يا ماجد، يا مُبدئ، يا مُعيد، يا مُحصي، يا مُحيي، يا مُميت، يا مَتين.

(ن): يا نافع، يا نور، يا مَن جعل النقطة تحت الباء إشارة إلى الإنسان، يا مَن قال: ن والقلم وما يسطرون، يا نصير.

(و): يا ودود[٢]، يا وكيل، يا ولي، يا واجد، يا واحد، يا والي، يا وهَّاب،

---

(١) المهيمن: معناه في حق الله ﷻ أنه القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، وإنما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه، وكل مشرف على كنه الأمر مستول عليه، حافظ له، فهو مهيمنٌ عليه، والإشراف يرجع إلى العلم، والاستيلاء إلى كمال القدرة، والحفظ إلى الفعل، فالجامع بين هذه المعاني اسمه المهين، ولن يجتمع ذلك على الإطلاق والكمال إلا لله ﷻ، ولذلك قيل إنه من أسماء الله تعالى في الكتب القديمة.

تنبيه: كل عبد راقب قلبه حتى أشرف على أغواره وأسراره، واستولى مع ذلك على تقويم أحواله وأوصافه، وقام بحفظها على الدوام على مقتضى تقويمه، فهو مهيمنٌ بالإضافة إلى قلبه، فإن اتسع إشرافه واستيلاؤه حتى قام بحفظ بعض عباد الله ﷻ على نهج السداد بعد اطلاعه على بواطنهم وأسرارهم بطريق التفرس، والاستدلال بظواهرهم، كان نصيبه من هذا المعنى أوفر وحظه أكثر.

انظر: المقصد الأسنى للغزالي (١/٧٢)، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/٢٤٤/٢٥٣).

(٢) هو كثير الودِّ لعباده، والتودد لهم بتوافر النعم، وصرف النقم، وإيصال الخيرات، ودفع المضرَّات.

وقيل: هو الذي يحب الخير لجميع خلقه، ويحسن لهم وإن أعرضوا.

والتقرُّب بهذا الاسم تعلُّقًا أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، لا لعلة ولا لسبب، كما في الأثر: إن الله يقول: «**إن أود الأوداء إلي من عبدني لغير قول؛ لكن ليعطي الربوبية حقها**».

وفي الكتاب العزيز: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ [مريم:٩٦]، =

يا وارث، يا واسع[1].

(هـ): يا هادي هدى العالمين إلى توحيده، وهدى العالمين إلى تجرديه، وهدى العارفين إلى تفريده، يا مَن هزَّ عطف المحبين إلى اتِّباع صاحب الهرواة، يا مَن هرب إلى كنفه الخائفون.

(لا): يا مَن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، يا مَن لا إله إلا أنا، يا مَن لا إلا إلا هو، يا مَن لاذ ببركة طلبه إلا منِّه حسبما يدعوهم لا إله إلا الله لا معبود، ولا مقصود، ولا موجود إلا هو.

(ي): يا مَن يعلم أيدينا، وما خلفنا، يا مَن يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، يا

=

قيل: فيما بينهم وبينه، وقيل: بينهم وبين عباده انتهى.

وتخلُّقًا أن تكون ودودًا للمؤمنين، بل لكل الخلائق، بأن تحبب للكافر الإيمان، وللعاصي التوبة، وللصالح الثبات، ولجميع العباد الخير جملةً وتفصيلاً.

وخاصيته: ثبوت الود لاسيما بين الزوجين، فمَن قرأه ألف مرة على طعام، وأكل مع زوجته؛ غلبتها محبته، ولم يمكن سوى طاعته.

ومن خواصه أيضًا: إن مَن داوم على تلاوته لا بُدَّ أن يوده الودود بالود الإلهي، والانعطاف الروحاني بجبر خاطره على حسب استعداده، فإن كان من السالكين فهو له مفتاح لحضرة القرب، ومصباح لإنارة ظلمة القلب، وبه تشرق أشعة شمس الروح على ساحته، فتنشرح الصدور، وإن كان من غير السالك فلا بُدَّ أن يوده الحق بما يُصلح به شأنه من أمر الدنيا والدين، ولذا كان بعض المشايخ يأمر المبتدئ بتلاوته.

(١) الواسع: مشتقٌّ من السعة، وهي قد تُضاف إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات، وقد تُنسب إلى التفضيل والإحسان إذا عم بالمخلوقات، فالواسع المطلق ليس إلا هو جل مجده؛ لأنه أن لوحظ إلى علمه فلا انتقاص لبحر معلوماته بل تنفذ البحار لو كانت مدادًا لكلماته، وإن نظر إلى إحسانه فيداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء لمن يشاء.

وقيل: هو الذي وسعت رحمته كل شيء فمن اتسعت أخلاقه وعطاؤه حتى لا يضيقها خوف الفقر، وغيظ الحسود وغلبة الحرص وغيرها من الصفات المذمومة فهو ذو حظ من ذلك الاسم.

الخواص: هذا الاسم جمالي، فمن أكثر من ذكره وسَّع الله تعالى رزقه، وبسط في خلقه وعلمه وشرح صدره، ولا يحصل له ضيق المعيشة، ويجعل له من كل أمرًا فرجًا ومخرجًا.

مَن يسأل عنه كل شيء، ولا يسأل هو عن شيء، يا مَن ينـــزل إلى السماء الدنيا في الأسحار، ويفتح أبواب البركات، ويجيب الدعوات.

نسألك أن تنصرنا على أعدائنا الظاهرة والباطنة، وأن تجعلنا آمنين سالمين غانمين، وأن تقضي حاجتنا، وأن تفيض علينا ما هو خير لنا في الدَّارين، وأن تعصمنا مما يهتك العصم، أو يُغيِّر النعم، أو يوجب النقم، أو يحبس غيث السماء، أو يدين علينا الأعداء بحرمة الأنبياء، والمرسلين، والملائكة المقرَّبين، وعباد الله الصالحين، آمين بجاه النبي الأمين.

هذا بعض ما في الحروف من التفصيل، وقد يزيد على هذا عند أهل الذوق السليم، فإن الأسماء والصفات، وإن كانت توقيفية مضبوطة محدودة عند بعض أهل الشرع؛ لكن كما لا نهاية لذات الله تعالى، فكذا لا نهاية لأسمائه وصافته دلَّ عليها شؤونه المختلفة الغير المتناهية كما قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

وأمَّا ترتيب الإمام: فقد وقع على غير ترتيب حروف التهجِّي؛ بل على ما وقع في آية الفتح من الميم إلى الصاد، كما قال حفص بن غياث الذي هو من معاصري الإمام، ومات سنة أربع وتسعين ومائة هـــ: سألت الأمام: أن يعملني الأسماء التي يدَّعي بها المرتبة على ترتيب ما في سورة الفتح فأملاها على نسق الآية فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

(م): اللّهم أنت منَّان، مجيب، مؤمن، مهيمن، ملك، متكبِّر، مصوِّر، مليّ، معطِ، مانع، مالك، مليك، متعال، مسبِّح، ماجد، محي، مميت، معزُّ، مُذلُّ، مُقتدر، قادر، متين أسألك رضوانك والجنة.

(ح): اللّهم حيٌّ، حنَّان، حيّ، حليم، حميد، حكيم، حق، حفيظ، حسيب، أسألك رضوانك والجنة.

(د): اللّهم أنت دائم، ديَّان، دافع، أسألك أن تدفع عنِّي شر ما أحذر من الدنيا والآخرة، أسألك رضوانك والجنة.

(ر): اللّهم أنت رحمن، رحيم، رب، رءوف، راحم، رزّاق[1] فارزقني من حيث احتسب، ومن حيث لا احتسب، أسألك رضوانك والجنة.

(س): اللّهم أنت سلام، سميع، سامع تسمع دعائي، وتعلم سرّي وعلانيتي فلا تعرض عني، وسلّمني من الشر كله، أسألك رضوانك والجنة.

(و): اللّهم أنت واجد، ول،ي ودود، وارث، وهّاب، أسألك رضوانك والجنة.

(ل): اللّهم أنت لطيف ترزق مَن تشاء بغير حساب، فارزقني مغفرة من عندك، واجعلني من عبادك الصالحين، أسألك رضوانك والجنة.

(أ): اللّهم أنت الله، الأول، والآخر، وفقني لِما تحب وترضى، وجنّبني عمّا تسخط وتغضب منه، أسألك رضوانك والجنة.

(هـ): اللّهم أنت هادٍ فاهدني بهداك، وأخرجني من الظلمات إلى النور، أسألك رضوانك والجنة.

(ف): اللّهم أنت ذو الجلال والإكرام، ذو القوة المتين، ذو العرض المجيد، ذو

---

(١) الرزاق: صيغة المبالغة من الرزق بالكسر بمعنى: ما ينتفع به هو الذي خلق الأرزاق والمرتزقة، وأوصل إليهم بخلق أسباب التمتع بها، والرزق إما ظاهري هو لحصول قوة الجسد إلى مدة قريبة الأبد، أو باطني هو للقلب كالمعارف المفضية إلى حياة الأبد.

ومن ها هنا قيل: هو الذي رزق الأشباح موائد إحسانه والأرواح عوائد عرفانه، وحظ العبد منه ألا ينتظر الرزق إلا منه، ولا يتوكل فيه إلا عليه ويرزقه الله تعالى علمًا هاديًا ولسانًا مرشدًا يكون سببًا لوصول الأرزاق الشريفة إلى القلوب بأقواله وأعماله، ولا أقل من أن يصير واسطة في إيصال الرزق الظاهر بين الرزاق المطلق وعباده.

الخواص: هذا الاسم جمالي، فمن نقشه على خاتم وتختم به، وأكثر من ذكره في ليلة النصف من شعبان يسَّره الله تعالى القوت الطيب من الرزق المقسوم، ولا يداوم عليه أحد إلا يجمع الله له أسباب الخير ظاهرًا أو باطنًا، ومن قرأه قبل صلاة الفجر في كل زاوية من الزوايا الأربع له من حجرة عشر مرات كانت محفوظة من نقب السراق، ولا يفتقر صاحبها أبدًا لكن يشترط أن يشرع عن جانب اليمين، ولا يتحول وجهه عن الكعبة المشرفة حين القراءة من كل زاوية، ويصلح ذكره لمن كان اسمه عبد الرزاق.

الفضل العظيم، ذو المنِّ الجسيم، ذو الطول العميم، أسألك رضوانك والجنة.

(ك): اللّهم أنت المكون يكون منك كل شيء، وما كان فهو منك، كنت قبل كل شيء، وتكون بعد كل شيء، أسألك رضوانك والجنة.

(ن): اللّهم أنت نور السماوات والأرض، ومنوِّر النور وخالقه، وخالق كل شيء، أسألك رضوانك والجنة.

(ع): اللّهم أنت عليّ، عظيم، عليم[1]، عزيز، عفوّ، عدل، فاعفُ عنِّي ما سلف من ذنوبي، ووفقني فيما بقي من عمري لطاعتك، أسألك رضوانك والجنة.

(ش): اللّهم أنت شاكر، مشكور، شاهد لا تغيب، شهيد تشهد سرِّي وعلانيتي، تعلم ضميري قلبي، لا يُخفى عليك شيء من أموري، أسألك رضوانك والجنة.

(ي): لم يأتِ الإمام بشيء من الأسماء التي أولها الياء المنشأة؛ ولكن جاء بها

---

(١): بمعنى العَالم، والعالم مَن قام به العلم، وهو صفة معنى متعلّقها المعلومات واجبة وجائزة ومستحيلة، فهو تعالى يعلم ذاته وصفاته وأسمائه، ويعلم ما كان وما يكون من الجائزات، وإنه إذا كان كيف يكون ويعلم المستحيل، كشريكه من حيث استحالته وانتفاء كونه، وما يترتب عليه.

إذ لو كان لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] **والتقرُّب به** من جهة التعلُّق في الاكتفاء بعلمه دينًا ودنيا، ومن جهة التخلُّق تحصيل العلم لإفادته للمحتاجين إليه كما هو شأنه سبحانه وتعالى في عباده.

وخاصيته: تحصيل العلم والمعرفة، فمن لازمه عَرف الله حق معرفته على الوجه الذي يليق به.

وفي شمس المعارف: مَن انبهم عليه أمره في كشف سرٍّ من أسرار الله فليدم عليه؛ فإنه ييسِّر له ما سأل، ويعرف الحكمة فيما طلب، وإن أراد فتح باب الصفة الإلهية فُتح له باب من العلم والعمل.

وذكر في اسمه: (**علاَّم الغيوب**): من دوام ذكره بصيغة النداء: (يا علام الغيوب) إلى أن يقلب عليه منه حال فإنه يتكلم بالمغيبات، ويكشف ما في الضمائر، وترقى روحه إلى أن يرقى في العالم العُلوي، ويحدِّث بأمور الكائنات والحوادث.

وفي «كيمياء السعادة» للحليمي: (يا علام الغيوب الغيب والشهادة) مَن داوم عليه دُبر كل صلاة مائة مرة صار صاحب كشف إيماني.

وفي «الأربعين الإدريسية»: يا علاَّم الغيوب، فلا يفوته شيء من علمه ولا يؤده، وإدامته لقوة الحفظ وزوال النسيان، والله أعلم.

بعد الكاف: اللّهم كاف كريم كبير، كفيل تكفلت برزق العباد، وزرق كل دابة، فكفيتهم، فاكفني شر نفسي، وشر الإنس والجن، أسألك رضوانك والجنة.

(ف): اللّهم أنت فردٌ، فعّال لِما نشاء، فتّاح بالخيرات، فافتح لي أبواب فضلك ورحمتك، أسألك رضوانك والجنة.

(ب): اللّهم أنت برءٌ، بارئ، بريء، باعث، باقٍ، بديع ابتدعت ما شئت، وكل شيء بعدك، أنت الباقي بعدهم، أسألك رضوانك والجنة.

(ت): اللّهم أنت توّاب ترى ولا تُرى، وأنت بالمنظر الأعلى، تب عليّ توبة نصوحًا، أسألك رضوانك والجنة.

(ج): اللّهم أنت جبّار، جميل، جوّاد فجد علينا برضاك، أسألك رضوانك والجنة.

(غ): اللّهم أنت غفّار، غفور، غافر، غياث، غني استغيث عنّي وعن العباد، وافتقرنا إليك، أسألك رضوانك والجنة.

(ض): اللّهم أنت المضيء بك الضوء، تضيء مَن تشاء، وتُضلُّ مَن تشاء، وتهدي مَن تشاء، فلا تضلّني بعد إذ هديتني، أسألك رضوانك والجنة.

(لا): اللّهم لاحق الخير بالشر، والشر بالخير، لا تلحق خيري شرًّا، وأخرجني من الظلمات إلى النور، أسألك رضوانك والجنة.

(ث): اللّهم أنت ثابت فثبتني في طاعتك، ولا تخرجني منها، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أسألك رضوانك والجنة.

(ز): اللّهم أنت زاجر، زجر زجرت البحر عن البحر، وزجرت الشياطين عمَّن شئت فازجر عنّي شياطين الإنس والجن، أسألك رضوانك والجنة.

(خ): اللّهم أنت خالق، خبير خلقتني، وكل شيء خلقك، بيدك الخير، فاختم لي بالخير، والسعادة، والشهادة، أسألك رضوانك والجنة.

(ط): اللّهم أنت طاهر، طاوٍ، وتطوي السماوات كطي السجل للكتب، طوقني للعمل بطاعتك كما طوقت الكروبيين، وحملة عرشك، أسألك رضوانك والجنة.

(ظ): اللّهم أنت ظاهر ظهرت فلا تُرى، وبطنت فلا تُخفى، وأنت المنظر الأعلى تب علي توبة نصوحًا، أسألك رضوانك والجنة.

(ق): اللّهم قيُّوم[1]، قائم، قدير، قريب، قاهر، قهَّار وامنن عليّ بخير القضاء والقدر، أسألك رضوانك والجنة.

(ص): اللّهم أنت صمد، صادق تصدَّق عليّ بالجنة، واعتقني من النار، وأسألك رضوانك والجنة.

اللّهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقِنا عذاب النار انتهى.

وهذا ما أملى الإمام، على ما في الضياء المعنوية، ولا يخفى أن ما ذكره الإمام بعضها الأسماء الشهيرة، وبعضها الصفات بحسب المناسبات، ومنه يعلم أن الأسماء عنده ليست بتوقفية.

---

(١) وقال سيدي عبد الله الشرقاوي: هو القائم بالأشياء؛ إذ لولا إمداده لها ما بقيت وما وجدت.
وقيل: هو القائم بنفسه الذي لا يفتقر إلى غيره، وهو القائم به غيره من خلقه، أو القائم على الأمور أولها وآخرها، ظاهرها وباطنها.
قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣].
وخاصيته: حصول القيام والقيومة ذاتًا وصفاتًا، قولاً وفعلاً، فمَن ذكره مجردًا ذهب عنه النوم، ومَن ذكره مع الحي بأن قال: يا حيُّ يا قيُّوم من مبادئ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وجد في نفسه من الخفة، والنهضة، والتوفيق ما لا منَّ الله عليه.
ويُقال: إن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام حين دخلوا البحر عن اسم الله الأعظم، فقال لهم: قولوا: أهيا؛ يعني: يا حي، شراهيا؛ بمعنى: يا قيُّوم، فقالوا ذلك فنجوا من الغرق، فإذا دعا به مَن في البحر نجَّاه الله من الغرق.
وعن أبي علي الكتاني رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ في المنام قلت: يا رسول الله ادعُ الله ألا يميت قلبي، فقال: إن أردت أن يحيي قلبك، فقل في كل يوم أربعين مرة: ياحيُّ يا قيُّوم لا إله إلا أنت».
وانظر: شرح ورد الستار (ص٩ ؛ ١) بتحقيقنا.

وفي سورة الطور

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

جمع العين الكثرة عيون الأسماء الحافظة، على أن وجود الحق وجه كله، والوجه عين كلها، ومن ثمة كان النبي ﷺ عينًا كله، وهو في الصلاة المقتضية للمحاذاة الإلهية، ولذا كان يرى من قدام ومن خلف، فالحضرة الواحدة إذا كانت مخفوفة بالعيون الكثيرة فلا يمسها الأيدي وإن تطاولت، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، أراد بالجلالة الأعين، وأسماء القدرة والإرادة، وقد يعبر عن الأسماء الجزئية بالأيدي.

كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١]، فإن المقصود توجه الأسماء الجزئية لخلق الأنعام المتنوعة، ولذا جمعها.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] في حق أبي البشر، فإن التشبيه فيه إشارة إلى الجمال والجلال، واللطف والقهر، والتنـــزيه والتشبيه، فكل منهما يد كلية، متوجهة لخلق آدم الذي جمع الله تعالى فيه الجموع.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

فإنما أفرده؛ لأن ذلك راجع إلى الذات، وهي واحدة بخلاف الصفات، والمراد بالروح؛ النفس الرحماني؛ لأن كل ذي روحٍ إنما يتنفَّس بالروح؛ لكن إضافة إلى نفسه؛ لأن المراد به الروح الإنساني الذي هو مظهر سرِّ الإلهي، لا الروح الحيواني الذي هو مدار الحسِّ والحركة، فإن ذلك من شعبه.

ويشارك الإنسان فيه جميع الحيوانات بخلاف الروح الإضافي، والملك وإن خُلق من نور؛ لكن ليس له من الروح ما للإنسان منه؛ ولذا أضافه تعالى إلى نفسه؛ لأن الإنسان هو الذي صار خليفة الله، وجمع جميع الأسماء على جناح الجمال فقط، والجن على جناح الجلال فقط، وسائر الأشياء دون ذلك في الأسرار بالفعل، وإن كان في كل ذرة ما في الكل.

***

في سورة النجم

قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ [النجم:١٣].

: أي وبالله لقد رأى محمد جبريل - عليهما السلام - على صورته الحقيقة؛ وهو باسط ستمائة جناح يتناثر منها الدرُّ والياقوت.

قال تعالى: ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [الآية:١٣]: أي مرة أخرى من النـــزول؛ لأنه كان للنبي ﷺ ليلة المعراج عرجات لمسألة التخفيف من إعداد الصلوات المفروضة، فيكون لكل عرجة نزلة، فرأى جبريل في بعض تلك النـــزُلات عند سِدرة المنتهى ظرف للرؤية.

وسِدرة المنتهى؛ مقام جبريل، وقد كان بقى هناك عند خروجه ﷺ: أي مستوى العرش، وقال: لو دَنوت أنملة؛ لاحترقت: أي لأن لكل من الروحانيين مقامًا معلومًا ظاهرًا وباطنًا لا يتجاوزه؛ ولذا ذمَّ المدَّعي والشُّطح.

وسُميت المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها ما يهبط من فوقها من الأحكام، ويصعد من تحتها من الآثار؛ كالأعمال، وهذا بالنسبة إلى العامة.

أمَّا الخواص فلهم سِدر الانتهاءات بحسب خلوصهم وشهودهم، فيقف بعض الأعمال في سِدرة المنتهى، وبعضها يتجاوز إلى اللوح، وبعضها إلى القلب، وبعضها لا يعلم مكانها إلا الله تعالى.

وكل ذلك مدَّخر لصاحبه؛ لينتفع به يوم القيامة، ولتلك الأعمال صور مجسَّدة تُرى على إبمانهم يوم القيامة طريقًا تسلكها، فتأخذ بها تلك الطريق مشاهدة أصحابها، فيتخذها العاملون مراكب تحملهم إلى مستقر الرحمة.

وأمَّا أعمال الأشقياء فتقوم لها طرق متداخلة عن يسارهم لا تعرف: أي طريق تمشَّى بها أصحابها، فترجع من الحيرة إلى الله بالذكر.

فمنها لا يهتدي إلى صاحبه أبدًا رحمة من الله تعالى، ومنها ما يهتدي إليه فيتعلَّق به فيقول: أحملني فقد تعبتني في طلبك؛ فيجبر العامل على حمله إلى أن تناله رحمة الله تعالى، ثمنه ما من قصر ولا طاف في جنة الأعمال إلا وغصن من أغصان السِّدرة داخل فيه، وفي ذلك الغصن من النبق؛ وهي ثمرة السِّدرة على قدر ما في

العمل الذي هذا الغصن صورته من الحركات، وما من ورقةٍ في ذلك الغصن إلا وفيها من الحسن بقدر ما حضر هذا العبد مع الله تعالى في ذلك العمل، وأسعد الناس بهذه السدرة أهل بيت المقدس، كما أن أسعد الناس ﷺ أهل الحرم المكي، كما أن أسعد الناس بالحق أهل القرآن[1].

---

(١) ومن اجتباء الله تعالى لهذه الأمة، جعلنا الله منها ما رُوي عنه ﷺ: أنه قال: «إذا كان ليلة القدر أمر الله جبريل أن ينـــزل إلى الأرض، ومعه سكان سدرة المنتهى سبعون ألفًا من الملائكة، ومعهم ألويَّة من نور، فإذا هبطوا إلى الأرض ركّز جبريل لواءه، والملائكة أوليتهم في أربعة مواضع: عند الكعبة، وعند قبر النبي ﷺ، وبيت المقدس، وطور سيناء، ثم يقول لهم جبريل عليه السلام: تفرَّقوا، فيتفرقون، فلا تبقى دار ولا حجرة ولا بيت فيه مؤمن ولا مؤمنة إلا دخلته الملائكة إلا بيت فيه كلب أو صورة أو خنـــزير أو جنب من حرام، فيسبحون ويقدسون، ويهللون ويستغفرون لأمة محمد ﷺ حتى إذا كان وقت الفجر يصعدون إلى السماء، فيستقبلهم سكان سماء الدنيا.

فيقولون: من أين أقبلتم؟

فيقولون: كانت ليلة القدر لأمة محمد ﷺ،

فيقولون: ما فعل الله بأمَّة محمد؟

فيقول لهم جبريل عليه السلام: غفر الله لصالحيها، وشفع صالحيها في طالحيها، فترفع الملائكة أصواتها بالتسبيح شكرًا لله تعالى وكرامة لهذه الأمة المحمدية، ثم تبقى كذلك الأصوات من سماءٍ إلى سماءٍ حتى تنتهي إلى السماء السابعة، ثم يرجع كل من الملائكة إلى محلّها، وسكان كل سماء إلى سمائها، ويرجع سكان سدرة المنتهى إليها، فتقول سدرة المنتهى لسكانها: أين كنتم البارحة؟ فيقولون: كانت ليلة القدر لأمة محمدﷺ، فتقول: ما فعل الله بحوائج أمة محمد؟ فتقول الملائكة: غفر لصالحيها، وشفع صالحيها في طالحيها، فترفع السدرة صوتها بالتسبيح والتهليل شكرًا لما أعطى الله تعالى هذه الأمة من المغفرة والكرامة، فتسألها جنة المأوى، فتخبرها، فما يزال ذلك التسبيح حتى ينتهي إلى العرش.

فيقول لها العرش: أيتها الأحبة لم رفعتم أصواتكم؟

فيقولون: كانت الليلة ليلة القدر لأمة محمد ﷺ،

فيقول العرش: ما فعل الله بحوائجهم؟

فتقول الجنان: غفر الله لها، وشفع صالحيها في طالحيها.

فيقول المولى جلَّ جلاله، وتقدَّس، وتنـــزَّه عن سِمات المحدثين، وتعالى عن صفات المخلوقين: يا =

قالت رابعة العدوية: سبَّحت ذات ليلة بتسبيحات من السَّحر ثم نمت؛ فرأيت شجرة خضراء نضرة لا يُوصف عظمها وحسنها، فإذا عليها ثلاثة أنواع من الثمر لا أعرفه من ثمار الدنيا؛ كثدي الأبكار؛ ثمرة بيضاء، وثمرة حمراء، وثمرة صفراء؛ فهن يلمعنَّ كالأقمار والشموس في خلال خضرة الورق فاستحسنتها.

فقلت: لَمن هذه؟

فقال لي قائل: هذه لك بتسبيحاتك آنفًا.

قالت: فجعلت أطوف حولها، فإذا تحتها ثمرة مستنشرة على الأرض في لون الذهب.

فقلت: لو كانت هذه الثمرة مع هذه الثمار على هذه الشجرة؛ كانت أحسن.

فقيل لي: قد كانت هناك إلا أنك حين سبحت تفكَّرت هل تخمر العجين أم لا، فانتشرت؛ فهذه عبرة لأولي الأبصار، وموعظة لأهل الأذكار.

ثم إن ابن برجان من أفاضل أهل التفسير ومكاشفيهم أرجع ضمير رآه إلى الله تعالى، وجعل الإسراء مرتين؛ مرة وهي الأَوْلى بالفؤاد مقدَّمة، وهذه بالعين، ولمَّا كان ذلك لا يتأتَّى إلا بتنـــزُّل يقطع مسافات البعد التي هي الحجب؛ ليصير به بحيث يراه البشر.

=

عرشي لم رفعت صوتك؟ وهو العليم الخبير، السميع البصير.

فيقول: يا ربِّ أنت أعلم، وأنت العالم الخبير، يا إلهي بلغني أنك غفرت البارحة لصالحي أمة محمد ﷺ، وشفعت صالحيها في طالحيها.

فيقول المولى الكريم؛ البر الرحيم؛ لكمال إحسانه وجوده، وإفضاله واجتبائه لنبيه: يا عرشي صدقت، ويا سماواتي، وسكانها صدقتم، إن لأمة محمد حبيبي من الكرامة والخيرات في دار البقاء؛ ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﷺ وعلى آله ما طلعت شمسٌ وقمرٌ، فابشروا يا أمة محمد ﷺ بهذه الخيرات، واعلموا أن الله تعالى فضَّلكم على سائر الأمم، واجتباكم، وأنزل عليكم البركات، وجعل نبيكم أشرف أهل الأرض والسماوات، واكْثروا من حبِّه وذكره، وأخِّروا عنده التسليم عليه والصلوات؛ فلقد شَهِدت بفضله عند ربه جميع الخلائق، وأنه أفضل المخلوقات». ذكره الرصاع في تذكرة المحبين (ص٢٢٦).

عبَّر بقوله: (**نَزْلَةً أُخْرَى**) ليُكمل له الأمر مرة في عالم الكون والفساد، وأخرى في المحلِّ الأنزه الأعلى، وعيَّن الوقت بتعيُّن المكان، فقال: (**عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى**) كما في تفسير المناسبات: ولا يلزم إثبات المكان والجهة لله تعالى؛ إمَّا لأن المتقيِّد بالعندية؛ هو الرائي، ولا يلزم من كونه عند سِدرة المنتهى حين الرؤية كون الحق تعالى عندها، وإمَّا لأن المرء عِندها وإن كان هو الحق تعالى إلا أنه لَمَّا كان متجلِّيًا بصفته وذاته محتجب بها؛ لم يلزم أن يكون متقيِّدًا بالعندية من حيث هو: أي في مرتبة ذاته، وقد رآه ﷺ في بعض سكك المدينة أيضًا؛ وهي مرتبة تجمع المرتبتين؛ مرتبة قاب قوسين، ومرتبة أو أدنى.

وفي الآية إشارة إلى شرف بعض الأمكنة؛ كالسِدرة، والكعبة وغير ذلك، وبعض الأزمنة؛ كليلة القدر الواقع فيها المعراج يقظة؛ ولذا ترى الخواص يرغبون في الأيام والليالي الفاضلة، والأماكن والبقاع المتبركة لِما أن الإمداد الإلهي أكثر فيها؛ لكون باب الرحمة مفتوحًا للعوام والخواص بحسب قابلياتهم.

فإذا كان العبد في وقت شريف، ومكان لطيف، وقلبه أصفى، وروحه أجذب، وسرِّه أقرب؛ فلا بعد من كرم الله تعالى أن يتجلَّي له تجلِّيًا أفعاليًا أو صفاتيًا أو ذاتيًا لاسيما إن المرء في الأوقات المباركة، والأماكن المتبرِّكة جليس الملائكة.

ولا شك أنهم ينـــزلون ليلة القدر، فبقدر المجالسة يحصل الأنس، وينجذب الباطن، ويُردُّ الفيض الإلهي، والحمد لله تعالى.

لطيفة: في سنة ١٢٢٩ هـــ كنت أتفكَّر ليلة العيد الفطري في أمر الدار؛ فإني كنت أسكن بعد دخول الشام بطريق الكراء فور.

***

في سورة الرحمن:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن:١٩].

هما بحر الوجوب، وبحر الإمكان.

والبحر في الحقيقة؛ هو بحر الوجوب؛ لاتساعه، لا بحر الإمكان؛ لضيقه إلا أنه لمَّا جمع معه في محل واحد عبَّر عنه بالبحر، نعم إن الوجوب، وإن كان أوسع من الإمكان؛ لكن ظهور الشيء في الشيء؛ إنما هو بقدر قابلية المحلّ، فيكونان سواء دلَّ عليه إنهم جعلوا دائرة الوجود نصفين، وجعلوا الخط المتوهَّم فاصلاً بين القوسين، فالوجود؛ كالقوسين أحدهما: قوس الوجوب، والآخر قوس الإمكان؛ وإنما جعلوا الخط متوهِّمًا لا محققًا؛ لأن الوجود الإمكاني اعتباري مفروض؛ لتمييز الحقائق، والمراتب، فإنه لولا الاعتبارات؛ لبطلت الحقائق.

قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩].

التقاء الروح بالجسم؛ لأن الروح في الحقيقة بحر الوجوب، والجسد بحر الإمكان، وإن كان مخلوقًا كما ورد: «**أول ما خُلق روحي**»[1].

إلا أن الخلق لمَّا كان بمعنى اقتران الوجود بالماهيات؛ عدَّ الروح قديمًا؛ لأن ظهوره بالتجلّي النوري لا يخرجه عن حقيقته؛ ولذا قالوا: إن الوجود ليس بأمر زائد على الماهية؛ بل الوجود والماهية أمر واحد في الحقيقة، وإنما قيل للماهية: وجود باعتبار ظهورها في الخارج باجتماع لوازمها.

فالروح هو النفس الرحماني الذي تروَّحت به الأسماء، وتنفَّست به الماهيات والحقائق، فالنفي بالجسد؛ ليظهر في كون واحد حقيقتان الحقيقة الواجبة الفاعلة المؤثرة، والحقيقة الممكنة القابلة؛ لأن الحقيقة الأولى حقيقة عُلوية، والثانية حقيقة سُفلية.

ولا شك أن التأثير إنما يجيء من العُلو، وعلى صورتهما خلق الله السماوات والأرض، فالمرض مثلاً في البدن من أحكام الجسد، والوجع الحاصل منه من أحكام الروح الحيواني المستند إلى الروح الإنساني، فكل تأثير إنما هو من الجانب العُلوي

---

(١) لم أقف عليه هكذا، والمشهور: «نوري».

الذي هو جانب الروح، وكل تأثُّر إنما هو من الجانب السُّفلي الذي هو جانب الجسد، فانظر إلى هذا الامتزاج بين الحقيقتين الداخلتين في وجودك إذ لا خارج عنك، فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]؛ إشارة على ما قلنا، فإن القول هو اللقاء، والاقتران الذي به يظهر الوجود المشار إليه بقوله: (كُنْ فَيَكُونُ).

قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ [الرحمن:٢٠]: أي بين البحرين المذكورين: ﴿بَرْزَخٌ﴾ [الرحمن:٢٠] من القدرة الإلهية: ﴿لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:٢٠] بحيث يكونان بحرًا واحدًا.

فإن الواجب لا يكون ممكنًا أبدًا، وكذا الممكن لا يكون واجبًا أبدًا؛ إذ لا وجود له بالنسبة إلى وجود الواجب، فهو هو، وأنت أنت، ولقد كشف هذا الغطاء مَن قال: ليس من الله على الكون أثر، ولا من الكون على الله أثر؛ ولذا قال بعض الأكابر: كُنْ عبد الرب، ولا تكُن رب العبد، وذلك بإظهار الخوارق، فإن الحديد، وإن كان محميًّا على صورة النار؛ فإن جوهره على أصله من غير استحالة، وكثير من السالكين ضلُّوا في هذا المقام، فما رجعوا إلى الطريق إلا بتوفيق الله، الملك، العلاَّم.

فتفكر يا ضعيف خُلقت ضعيفًا، ومعك قُوى بقلبك حيث شاء لا حيث شئت، فإنه ليس لك مشيئة إلا بمشيئة الله كما قال: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠] لكن الله إنما شاء ما سأله لسان الاستعداد، فقد لزمك الحُجة فاسكت، واصبر في مواضع القضاء، ومواقع القدر، فإن الأمر لا ينقلب، والحال لا تتبدَّل، [.....] والله المعين.

وقوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢].

أي: أسرار حفية محبوسة في خيام القلوب والأرواح، والأسرار لا يَطَّلع عليها إلا أهلها؛ كالنساء اللائي تحت خيام الدنيا لا يظهرن إلا على أزواجهنَّ، وكل من هذين النداءين مستمر إلى آخر الزمان إلا أن النداء قلَّ مَن يُجيب له؛ لأن الأسماع مسدودة، والأفواه مقفولة، والقلوب مختومة غالبًا.

واقتضت الحكمة الإلهية غلبة أحكام الإمكان على أحكام الوجوب في كل زمان، فلم يحصل على الحق إلا واحد من الألف، كما يقتضيه الاسم الأعظم الحاكم

على ألف من الأسماء الجمالية والجلالية، فعليك بالتأمُّل في هذا المجلس، والاعتبار من الشيطان الذي هو مُظهر اسم المضلّ في مرتبة الشريعة.

ومن النفس التي هي مظهر ذلك الاسم في مرتبة الطريقة، ومن الجلال الذي هو المتسلّط على الخلق في مرتبة الحقيقة، واجتهد أن تخرج من عالم الشيطان، والنفس والجلال إلى عالم الرحمن والروح، والجمال فإن الله تعالى إنما خلقك؛ لتكون مرآته الجمالية بالفعل، ويده الجلالية بالقوة فاعرف.

قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ*تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٧، ٧٨].

اعلم أن التعينات: إمَّا تعينات باطنة؛ وهي تعينات القوى الروحانية.

وإمَّا تعينات ظاهرة؛ وهي تعينات الأعضاء والجوارح، ولكل منها فناء وبقاء، فإذا فنيت التعينات الباطنة يعني عن تعلّقاتها الفانية، واستحلّت عنها بالكلية سرى فناؤها في التعينات الظاهرة، فكانت هذه التعينات أيضًا فانية عن أحكامها وتعلقاتها فلا يبقى شيء في ظاهر الوجود وباطنه إلا وهو فانٍ في الله، وباقٍ بالله.

وكما أن الله تعالى يبقى وجهه أبدًا؛ وهو ذو الجلال من حيث الظاهر، وذو الإكرام من حيث الباطن؛ لأن ظاهر الوجود وآثاره من عالم الجلال وباطنه، وأحكامه من عالم الإكرام والجمال، وكذا ما يضاف إلى وجهه الكريم. باقٍ أبدًا، ومن ثم لما أحيا الروح بالحياة الإلهية؛ سرت بركاته في الجسم، وما يتبعه؛ فكان الجسم مصونًا من الإنفساخ والانحلال، فكان الوجود بظاهره وباطنه باقيًا بربه؛ وهو وجود الخواص الكُمَّل من الناس، وكون ظاهر الوجود فانيًا متلاشيًا؛ إنما هو بالنسبة على وجود العوام النقص إذ لم يكن لهم روحانية سارية؛ كروحانية الخواص الكُمَّل؛ لكن لمَّا كانت روحانيتهم مضافة إلى الله تعالى، منفوخة منه؛ بقيت بقاء وجه ربها؛ لأنها باطن الوجود من عالم الملكوت، وهو من عالم البقاء بخلاف ظاهر الوجود، فإنه من عالم الملك، وهو من عالم الفناء[1].

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به: الفناء هو اضمحلال كل متعرضٍ متوهمٍ لا ينتهي إلى غايةٍ محقّقة، وحقيقته: صدق العدم الذاتي على كل موجودٍ بالعرض في المجاز، وغايته: صادقٌ من العلم يمحق كل كاذبٍ من الوهم وهو الهلاك الحقيقي.

في سورة الواقعة:

قال الله سبحانه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦١].

اعلم أن الآخرة يقال لها: عالم الصفة؛ لأن الإنسان يظهر فيها على الصفة الغالبة عليه في الدنيا، فمَن كانت الصفة الإنسانية غالبة عليه في هذه الدار؛ فحشره عليها يوم القيامة، ومَن كانت الصفة الحيوانية غالبة عليه؛ فحشره عليها أيضًا يومئذ؛ لكن الحيوانات أجناس مختلفة.

ولذا جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

فإن بعض الناس يأتي على صورة الخنـــزير، وبعضهم على صورة القرد، وبعضهم على غير ذلك؛ كل ذلك بحسب المناسبات الصفاتية، وتلك الصفات مستورة في الدنيا بالصورة البشرية لكن الله تعالى قد يتجلَّى بصورة القهر والغضب، فيأخذ بعض عباده من طريق العدل على حسب سرِّ قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

فيبدِّل صورهم، ويمسخهم كما فعل بأمة داود، وعيسى؛ فإنه جعلهم قردة وخنازير، فذلك من إظهار الصفة الغالبة عليهم في هذه النشأة، فإن الله لا ينظر إلى الصور والظواهر؛ بل إلى القلوب والسرائر؛ فهو من قبيل العقوبة المعجَّلة، وتلك الصور هي التي لا يعلم الظالم لنفسه أن الله ينشئه فيها في هذا العالم، ولا يخطر ذلك بباله؛ لكمال غفلته وغروره، فلا يُعاين حقيقة الحال إلا بعد وقوعها، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها.

ثم لا يزال الإنسان يتقلَّب من طور، وهو لا يدري أي طور يدخل فيه بعد هذا اليوم لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩] فقد يدخل في مرض طويل يكون يائسًا من رحمة الله التي هي عود الصحة، ثم ينتقل إلى طور الصحة، وهو الذي لا يعلم أن الله ينشئه فيه، وقس على هذا سائر الأطوار المختلفة؛ كالغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، والإقامة بعد السفر، وقضاء الدين بعد ركوبه، وحصول السكنى بعد فقده، والنفع بعد الضرر، والجبر بعد الكسر، ونحو ذلك.

فيجب على المؤمن أن يسأل الله تعالى في أن يربط قلبه حتى لا ييأس من رحمة الله الواسعة، ويكون على توقُّع سعة بعد ضيق أي ضيقٍ كان، فقد قال تعالى:

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]؛ يعني: إن اليسر مقارن للعسر فيتعقبه، وقد يكون في العسر سرُّ اليسر، ولا يشعر به المعسور.

والحاصل: إن الآية وعد لمتوقع الخير، ووعيد لفاعل الشر، والله عند حسن ظن عبده به لكن العبد وجب عليه أن يلاحظ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، فإن عبد الكريم لا بد وأن يكون كريمًا لا لئيمًا.

ثم في الآية إشارة إلى أن إنشاء المذكور لا يستلزم الاستحالة؛ وهو قلب الحقائق، فإن الإنسان لا يصير خنـــزيرًا مثلاً أبدًا، وإنما يظهر في صورته، وكذا لا يصير ملكًا وإن كان ظاهرًا بصورته؛ كجبريل في صورة شاب، أو في صورة دحية، أو نحو ذلك من الصور الحسنة، وكذا الجن والمتروحنون.

ومن ذلك الكيمياء فإن الإكسير لا يقلب النحاس ذهبًا حقيقة؛ وإنما يقلب صفة النحاس، فيظهر في صورة الذهب، ثم لا يرجع إلى أصله أبدًا كما أشار إليه قولهم: لو وصلوا ما رجعوا، وقد نازع فيه بعضهم من لا خبرة له بحقيقة الحال، وقس على هذا سائر الاستحالات؛ فإنها استحالات صورة لا حقيقة، وإن زعم بعضهم الحقيقة في كل ذلك.

***

في سورة الحديد

قال الله سبحانه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ [الحديد:١٣]: أي بين أهل الجنة الذين هم أهل الروح والسرِّ، وبين أهل النار الذين هم أهل النفس والطبيعة.

قال تعالى: ﴿بِسُورٍ﴾ [الحديد:١٣]: أي بحجاب القدرة.

قال تعالى: ﴿لَّهُ بَابٌ﴾ [الحديد:١٣]؛ هو باب القلب.

قال تعالى: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الحديد:١٣]؛ وهو الروح والسرُّ، وآثارهما وأنوارهما.

قال تعالى: ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ [الحديد:١٣]؛ وهو النفس والطبيعة وظلماتهما.

قال تعالى: ﴿**مِن قَبْلِهِ الْعَذَابُ**﴾ [الحديد:١٣]: أي الجلال؛ لأنه كما أن الرحمة من قبيل الجمال؛ فكذا العذاب الذي هو الغضب من قبيل الجلال، وجعل الروح والسر من جانب الباطن؛ لأنهما يليان عالم الملكوت واللاهوت، والنفس والطبيعة من جانب الظاهر؛ لأنهما تليَّان عالم الملك والناسوت.

ولا شك أن الملكوت باطن الملك كما أشار إليه قوله: ﴿**بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [المؤمنون:٨٨]، فهو بمنـــزلة الروح من الجسد، فكما أن الجسد مرآة الروح؛ فكذا الملك مرآة الملكوت، إذ لا يقبل المجرَّدات الصور في نفسها؛ لعدم تحيُّزها؛ وإنما تحيُّزها تابع لتحيُّز المتحيِّزات فلا تُقبل الرؤية إلا من المرآة، وكذا اللاهوت والناسوت، فعلم أن القلب كالأعراف في كونه برزخًا بين ما فوقه، وما تحته، وله حظ من كل منهما؛ ولذا جعل جامعًا للضِّدَّين، وأفضل من كل من الطرفين.

والكامل إنما يدخل الجنة باعتبار الطرف الفوقاني لا باعتبار الطرف التحتاني؛ فإن طرف التحتاني قدم الجبار، فيُوضع الأول في الجنة، والثاني في النار، فهو في الدنيا نفس وطبيعة في الظاهر، وروح وسرٌّ في الباطن، وفي الآخرة روح وسرٌّ في الظاهر، والباطن جميعًا ليس معه نفس وطبيعة؛ لأنهما قد بقيتا في الدنيا بعد التزكية، والتي يُعبَّر عنها بالقدم؛ هي صورتهما الممثَّلة في الآخرة، ولا تُعلَّق لهما بالجنة[1].

(١) قال سيدي محمد وفا في العروش: كل موضوع لمحمول إمَّا مفصول عن عين تجلِّيه، أو مخلوع عن عين تنـــزُّله وتدلِّيه الأول بالقوة، والثاني بالفعل، وهو عرشٌ لاستواءاته، وفُلك لوسع حمل صور موضوعاته بحيث جعله، وكتاب مكنون كلمات قلم نثره ونظمه، وحجابٌ لغيب بطونه عن مشابهة مثله، وعين حق لتجلِّي قوَّته بفعله، وكرسي لموضع قدمي مفصولة بتخصيص رحمته وعدله، وحفظ ترتيبه في موضوع تعاقب موضوعاته في تولِّي بعده وقبله، ولوح لتعيين مولَّدات كون تكوين قلم تسطيره وتصويره، فالكرسي فصل عن وصل، والعرش فصل في وصل.

فجبروتٌ ملكوت وملكوت مُلك، وكل مجعولٍ في حضرة عرشيه جنة فردوس لا يقابلها جحيم، ولا عذاب أليم، ولا غير أليم، وكل مخلوقٍ تحت كرسي؛ إمَّا في مادة قدم صدق؛ فجنة نعيم، وإمَّا تحت حصر قدم الجبار؛ فجحيم وعذاب أليم.

وهذه من حقائق القدمين والقبضتين، والحشر مع القرينين، والحافظين الكاتبين، وهو بحسب ما يعطي الأخلاق والتخلُّقات من لباس تلبيس الصور بالتصوُّرات، وبها يكون تفاوت الدرجات =

=

والدركات؛ وهو الكتاب المرقوم في علّيين، والكتاب المرقوم في قعرة سجين.

واعلم أن حَمَله الموضوع أنوار المحمول؛ وهي السبع المثاني، وكيفية حملها؛ كحمل المادة بالهيولي للصورة، والحروف بالمنطوق للمفهوم، فهم صفاتٌ عظام أزلاً، وحملة كرام أبدًا، فالمحمول حقيقة الموضوع وباطنه، والموضوع حق المحمول وظاهره.

فالعرش جبروتي؛ وهو كتاب للأسماء الإلهية، مرآة للتجليَّات الرحمانية.

والكرسي وهو مرآة للتمثُّلات الروحانية، والتنـــزُّلات بالأسماء الربَّانية.

واللوح ملكي وهو محلُّ التعينات الكونية، والتشكلات الخلقية.

فالعرش بموضوعه ومحموله وحملته محمول في الكرسي على حُكمه وحِكمته، والكرسي بموضوعه ومحموله، وحملته محمول في اللوح على سنَّته ونسبته.

فالأول: روح القدس أصل الأرواح المحمَّديَّات.

والثاني: روح القدس أرواح المليكات.

والثالث: روح القدس أصل الأشباح البرزخيات.

فمحمد وجبريل وميكائيل بالأول والثاني، والثالث في التفصيل والتحميل، ويُقال لهم في جمع جمع الفرق، وعين نسخة موضوع الحق: وهو آدم القدم الصدق، ومنارة الفصل في الوصل والفتق في الرتق، قلبٌ وروح وسرٌّ في المحمَّديَّة الجبروتية، وعقلٌ ونفسٌ وتصوُّر في الملكوتية الجبريلية، وإدراكٌ وحسٌّ وتخيُّل في ملك الميكائيلية.

وبما كانت النقطة المائية المجتمعة بالقوة من اللطائف الهوائية الحاملة للدرة التي هي قائمة بعالم القدرة، قد فرضت من الدهر الزمان، ومن الهواء المكان، وبقوة التجلّي الأشكال والأعيان، وكانت بأسرار السبعة الأنوار المثاني في أوضاع الأعيان والمعاني؛ قامت كل صفة منها بمائة من الأسماء الحسنى، وكل اسم بألف من التجليَّات العُلا، وتمثُّلات روح قدس الحياة، فكان منها سبعمائة ألف رقيقة، ولكل زمان ومكان وشكل واسم؛ وهي حكمة الدقائق والحقائق؛ فالرقائق ملكية، والأسماء ربَّانية، والدقائق كلية: أي كل دقيقة منها جامعة على انفرادها؛ لمجموع الدقائق والرقائق والحقائق بكمالها؛ وهي من نمط انحصار الأنواع في الأشخاص؛ وهو ما قاله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا**»، وقال ﷺ: «**إن لله مائة رحمة**»، وقال: «**إن في الجنة مائة درجة**». وهذا بالدقائق والرقائق والحقائق.

واعلم أن قيام هذه السبعمائة ألف بالزمان والمكان، والدقيقة والرقيقة الحقيقة؛ كان في دفعة واحدة لا =

واعلم أن الإنسان الكامل ظاهره باطن الكافر، وباطنه ظاهره، وذلك أن ظاهره هو اللطف والجمال، وباطنه هو القهر والجلال، وقد كان حال الكافر في الظاهر؛ هو الجلال الباطن في الإنسان الكامل، كما إن حال الإنسان الكامل في الظاهر؛ هو الجمال الباطن في الكافر، فظاهر الكافر من قبله العذاب، وباطنه فيه الرحمة؛ فيكون الإنسان مظاهره وباطنه مرحومًا إن كان مؤمنًا؛ لأنه لا أثر للجلال الباطن في الظاهر؛ لأنه مطروح في المال كما سبق، أو بباطنه مرحومًا فقط إن كان خلافه؛ لأنه لا أثر للجلال الظاهر في الباطن أيضًا.

وإنما قلنا: إن باطن الإنسان الكامل؛ هو القهر والجلال؛ لأنه وإن كان مُزكًّى من الصفات بالرؤية لكن النفس أمَّارة بالسوء، ولو بالقوة، وإلا لبطل التكليف، ولمَّا حصل الترقّي إلى أن يأتي اليقين، فالاعتبار بالقوة لا يستدعي الحقيقة بالفعل، وقد غفل عنه أكثر السالكين؛ بل أغلب المكاشفين.

=

متعاقبة ولا متفاوتة، وهذه الكثرة في الوحدة، فإذا قدرت بروز هذا المجموع بالتعاقب في الوضع، والتلاحق في النسل بالبعد، والقيل؛ فقدِّر بالحيثية الزمانية سبعمائة ألف سنة، وتكون دقائقها التي ائتلفت منها ساعاتها وأيامها، وجمعها وشهورها، وسنينها في تقدير تكثيرها، وتعددها نهاية في العدد، وغاية في تكثير المدد: ﴿**لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً**﴾ [مريم:٩٤، ٩٥]. فإذا انتهى هذا العدد، ونفد هذا المدَد؛ عاد الأمر، وتجدَّد حتى تَكمُل أحكام أيام السبع المثاني، والقرآن العظيم، ويُختم الأمر عند تجلّي إحاطة بسم الله الرحمن الرحيم، يكون ذلك وقت الفراغ والانصرام، والقيام الأكبر في يوم الملك الحي القيُّوم العُلا، وهذا من سرِّ الوحدة في الكثرة، وقد تقدَّم أن الأيام الستة التي كل يوم منها بألف سنة؛ هي أعمار الأجسام، ودور ما دار في ترتيب النظام، وإن الستة الحواس العقلية التي كل يوم منها بثمانية آلاف سنة؛ وهو نظم اليوم الكلي الذي هو خمسون ألف سنة، فتكون هذه العقلية برازخ لتلك الحسِّية، وأعمار أشباحها، كما تلك أعمار أجسامها.

واعلم أن الزمن الفرد؛ كالنقطة الفرد لا يحتمل الفوق ولا التحت، ولا القبل ولا البعد، ولا ظرف زمان ولا ظرف مكان، وثم تتحقق حقائق العارفين، وترسخ أقدام الواصلين؛ وهو اليوم الربَّاني الإلهي، ومرآة التجلّي الرحماني العياني، وإنما التنـــزيل بالتبارك حيث تبارك ستر ما هنالك: ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن:٧٨].

فظنوا أن سلوك الأنبياء، وأكمل الأولياء من النفس الراضية المرضية الصافية، فإن هذا السلوك لا ينافي أمارية النفس في الحقيقة؛ لأن الكلام في الفعل لا في القوة، و لم يظهر من الأنبياء آثار الجلال بالفعل؛ فهم كالملائكة في صورة البشر، ويدلُّ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ به وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:٢٤].

وقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣].

وقوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، فاعرف هذه الجملة، والله أرحم الراحمين، وبيده نواصي العباد أجمعين.

***

في سورة الطلاق

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] صدق الله العظيم.

هذه الآية الشريفة جامعة لأنواع التوكُّل، وأضاف الحاجات؛ فإن اسم الله تعالى جامع لمراتب الأسماء التي لا يتجاوزها حاجات الناس مع اختلاف مراتبهم، وتفاوت طبقاتهم، فمن ذكر كان أو أنثى، عبدًا كان أو سيدًا يتوكَّل على الله الرزَّاق في أمر الرزق؛ فهو حسبه فيه.

ومعنى التوكُّل: أن يجعل الله تعالى وكيلاً له، كما قال الله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل:٩].

ولذا قالوا: التوكُّل كله الأمر كله إلى الله تعالى؛ وكذا مَن يتوكَّل على الله الشافي في باب الشفاء عن أمراضه الجسمانية والروحانية؛ فهو حسبه فيه، وكذا مَن يتوكَّل على الله الجامع في خصوص الجمع لِما تشتَّت منه، وتفرَّق؛ فهو حسبه، وكذا مَن يتوكَّل على الله الغني في مغني الغني، ودفع الافتقار بكل وجه من الوجوه غير الافتقار الذاتي، فإنه لا يرتفع أبدًا؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله العزيز في دفع ذلَّة الذي هد يُعطر ذُلَّ اليهود؛ فهو حسبه فيه.

ومَن يتوكَّل على الله المكرم في إزالة إهانته الموجبة لهوانه بين الناس المقتضية للاستيحاش عند الاستنباش؛ فهو حسبه، ومَن يتوكَّل على الله القوي؛ لرفع ضعفه الحاصل له من مرضه أو من غيره إلا الضعف الخلقي الذي أشار إليه قوله تعالى:

﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله المعين القادر في رفع عجزه وسلبه، وجلب إعانة له في حصول مطالبه؛ فهو حسبه.

ومَن يتوكَّل على الله المقسط في دفع وجوده، الموجب لحوره بعد كوره؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله القاهر في قهر أعدائه الظاهرة والباطنة، وانتقامه منهم في سرِّه وعلانيته؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الولي النصير في تولِّي أموره، ونصرته على الجند المخالف له أي جند كان؛ فهو حسبه، ومَن يتوكَّل على الله النافع الضار في إيصال النفع، وإبعاد الضر؛ فهو حسبه فيه.

ومَن يتوكَّل على الله النور في تنوير ظاهره بأنوار السراج، وباطنه بأنوار سرِّ المعراج؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله البصير في كشف العمى عنه، وإراءة الطريق الموصِّل إليه، وهو الهدى الذي يحصل نوره في قلبه، فيفرِّق به بين الحق والباطل؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله السميع في حصول السمع له حتى يسمع خطابات عالم الملك، والملكوت، والجبروت، واللاهوت؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله المتكلِّم في إعطاء القدرة له في التكلُّم حتى يتكلَّم من جميع المراتب، ويحصل من جانبه الهداية لجميع أرباب المطالب؛ فهو حسبه.

ومَن يتوكَّل على الله الحي في قتل نفسه، وإحياء قلبه حتى يجد حياة طيبة باقية؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الحكيم في حصول الحكمة العظمى لقلبه، وجريان ينابيعها في باطنه، وجريان الرحيق، والنسيم، والسلسبيل، والكوثر في الجنة؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الهادي في أمر ضلَّ فيه، فلم يهتدِ، ولم يجد لدفع خيرته سبيلاً؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الرشيد في أمر إرشاده إلى أمره، ولو بلا واسطة؛ كأمر أُويس القرني؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الباقي في إفناء وجودياته، وإزالة تعيناته؛ فهو حسبه فيه، وهكذا فمَن اكتفى بالله؛ كفاه الله في كل مؤنته، ودفع عنه كل ضرورته.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

: أي بعد عسر الدار يسرها كما يقتضيه المقام، وعسر الدار ضيقها، وكونها مستعارة، أو بطريق الكراء، ويسرها سعتها، وكونها بطريق الملك، وإن كان الملك

في الدَّارين لله تعالى، والعبد هو الخليفة في التصرُّف كما هو الخليفة في الإنفاق كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

فالزكاة في الحقيقة[١] إنما هي من ملك الله لا من ملك العبد.

---

(١) قال الشيخ العلواني: فصل في روح وصل في أرواح الزكاة: وهي أرواح من الإحسان على أرواح معلومة بروح القرآن جابها روح الأمر على الوجوب لتحصيل أرواح الجبر في أرواح الكسر بأرواح الفقر، وأرواح المسكنة والأرواح الكاتبة من أرواح المسكنة، أو من أرواح الفقراء، وأرواح الغزاة أرواح كسر وإن لم يكن فيها أرواح فقر.

وابن السبيل على روح من الكسر وإن لم يكن على روح عام من الفقر بأن يكون له في روح بلده روح من المال. وأرواح مما يصلح بها أرواح الحال فله روح فقر في روح سفره وبهذا الروح استحق من أرواح الزكاة لأرواح إصلاح حاله حتى يصل إلى أرواح ماله. فهذا الروح من الأرواح الرحمانية في نعيم الأرواح الإحسانية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] في أرواح الزكاة فهي روح وصل بأرواح فضل تفصل من أرواح الحاجات عن وجوه الأرواح وجوه الانكسار وتوصلها بأرواح السرور بأرواح الفضل.

وبروح الراحة من روح الهم المتعلق بروح الرزق، فيفيض من أرواح السرور وأرواح الشكر على هذه الأرواح الإحسانية للأرواح الرحمانية، والروح الأعظم، الروح المالك، والروح المحمدي المرسل بهذه الأرواح الرحمانية بالأرواح الفرقانية وروح الغارم من أرواح هذا الروح الإحساني كالروح المؤلف على روح الإسلام، وروح العامل له من هذا الروح على روح العمل فتكون من الأرواح المالكة لأرواح المال أرواح طهرة من أرواح الحرص.

ومن أرواح الشح، ومن أرواح البخل وفي ذلك أرواح محو من الأرواح الردية، والأرواح الظلمانية من الأرواح الشيطانية. وفي ذلك الروح أرواح تقليل من أرواح حب الدنيا التي هي الروح الأصلي في أرواح البعد عن الأرواح الإلهية فتخفف من الأرواح الموحشة في طريق روح سيرك الروح الأعظم بروحك الأكرم المقدم بأرواح الطاعات.

وأرواح الطهارات وأرواح المجابرة بأرواح المال لإصلاح روح الحال في الأرواح المنكسرة والأرواح المفتقرة.

وقد كفرت أرواح في أرواح هذا الزمان بأرواح الزكاة، وروح الزكاة طهارة من حدث أكبر وهو روح حب الدنيا. فأرواح الدنيا من أرواح اللعن إلا ما كان فيها من أرواح العلم ومن أرواح العلماء العاملون على أرواح من القرب، وأرواح من الحب لأرباب الأرواح القاسية بأرواح حب وبأرواح الميل إلى الباطل، وبأرواح التعصب مع الاتباع على أرواح من الباطل وذلك لا يليق من روح الجاهل إذا كان له روح من أرواح الإيمان، وروح المتعلم لأرواح الاهتداء لأن يكون له =

=

روح تقرب من الروح الأعظم لأرواح الجاه وأرواح المال، فإن ذلك الروح داخل في أرواح اللعن، لأنه من الأرواح المتعلقة بالأرواح الشيطانية وأرواح الذكر وأرواح الذاكرين بروح الإخلاص، وبأرواح الحب وبأرواح العبودية خارجة من أرواح اللعن وروح الحديث الذي هو روح محمدي «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله أو عالم أو متعلم**» فالأرواح المالية التي لم يكن فيها أرواح زكاة على الأرواح الفرقانية هي أرواح لعن وأرواح خبث لتعلق الأرواح الإلهية وهي أرواح الفقر أو أرواح من الفرقان فيها أرواح من الوعيد ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٥]، فهذا جزاء من أحب الدنيا في الدار الآخرة ومنعته أرواح حبها عن الإنفاق منها في سبيل الله والروح الظاهر أن الذي يحمى عليه من أرواح الذهب والفضة روح المقدر الواجب، فإن الله حكم عدل. فروح العذاب بالروح المحبوب بغير وجه وروح شرعي الذين يكترون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله في أرواح الخير من الأرواح الواجبة بالأرواح الفرقانية، فسبيل الله أرواح الفقراء والمساكين والعاملين والغارمين والمؤلفة والمكاتبين والمغازي في سبيل الله وابن السبيل فبشرهم أي: الأرواح المانعة لحقوق الله من أرواح الأموال بعذاب عظيم أليم وعظيم من أرواح التنوين.

ولما إن كان الروح الكانز حامي المال عن أن يصل إليه الأرواح المستحقة له حمي له فكان روح الجزاء من روح العمل فما حما على الأموال إلا أرواح نيات الكانزين، وما النار إلا نار المخالفة. وروح العزم على عدم روح الطاعة شددوا في أرواح المنع شدد الله عليهم في أرواح العذاب.

وفي الروح المحمدي: «**إن مال الرجل الذي لم يخرج روح حق الله منه يمثل له شجاع أقرع**»[١] أي حية عظيمة جرداء، فنعوذ بالله من أرواح فيها أرواح من الكفران بأرواح الفرقان: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧] لولا أرواح من الأرواح الكفرانية في الأرواح الإنسانية لما منعت أرواح الحقوق عن المسير في أرواح الحاجات وفي الأرواح المحمدية أنه:« **يأتي على الناس زمان لم يبق من الدين إلا اسمه فيقال دين الإسلام، وفلان مسلم**» وليس من أرواح الإسلام روح ولم يبق من القرآن إلا رسمه أرواح حروف مسطورة في أوراق محفوظة في الصدور ليس فيها من أرواح عمل بها وأرواح اعتناء بشأنها.

فانظر في أرواح القرآن كم نسخ منها روح من أرواح الناس فلم يعلم به كأرواح آيات الرياء وأرواح آيات الاغتياب والنم، وأرواح آيات الأمانة التي ضاعت روحها من أرواح الناس فلا ترى روحا إلا على أرواح من الخيانة.

وذلك من أرواح قيام الساعة فأرواح الوجوه، إنما قوامه بأرواح الأمانة فإذا ذهبت أرواحها مالت الأرواح الطاهرة بعدها أي الارتحال فارتحلت وإلى الراحات، وصلت ولم يبق إلا أرواح الخيانة.

=

=

وعليهم تكون أرواح النفخ بأرواح الشيطان حتى لا يكون فيهم إلا أرواح من الطغيان وأرواح من الكفران فينفخ في الصور فلم يوجد أحد إلا صار إلى القبور فيعمهم روح القهر وأرواح الهلاك فلا يكون لهم أرواح خلاص من أرواح تلك الشباك فيما بها الروح المتبصر شمر وعن المسير في آثار الأرواح المحمدية لا تقصر واعتبر القرآن وإياك ثم إياك من إخوان الشيطان الذين أباحوا ما حرم الله في أرواح الفرقان.

وما أولئك إلا أرواح بعد عن الله وأرواح صد عن سبيل الله فشر البشر الروح الضال المضل لأرواح عباد الله بأرواح التأويل.

وذلك عين التبديل فتأويل أولياء الله أرواح دلالة على الله بأرواح من التوحيد وأرواح من الكشف عن أرواح الشيطان، وأرواح الخذلان والمولي المفتون الفاتن من أباح بتأويل محرما وأذل محترما بأرواح غوايته وإشراك دعايته، ولا بروح للسالك من أرواح المهالك إلا بروحه في روح التوجه إلى الروح الأعظم، فهو روح الأرواح والوصول إليه بروح التعلق به وبأرواحه الفرقانية وأرواحه المحمدية فروح النحوة في روح المتابعة للأرواح الإلهية الفرقانية.

والأرواح الإلهية المحمدية، فإنه الأخذ عن الله فلا روح له ولا روح عنده إلا من الله وأرواح الإذن له واقعة في أن يحكم بما أراده الله فلا يكون منه روح إلا بأرواح هداية فهو روح أرواح كل هاد ومهتد سيد أهل الطهارة، والخالي من أرواح الشيطان بإخراج حظه منه لما شق جبريل صدره وأخرج علقة سوداء.

فقال هذا حظ الشيطان وفي روح محمدي: «**ما من أحد إلا وله شيطان**، قالوا: وأنت يا رسول الله! قال: **وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم**» فروح الكمال في أرواح الكمل ولا روح للسالك إلا بأرواح الاقتداء بالأرواح الكاملة من أرواح الحق.

ومن أرواح سيد المرسلين الروح الأعظم والسيد الأكرم فمن أراد روح الطهارة فليخالف روح الشيطان وروح النفس الأمارة وليخرج أرواحًا من المال لإصلاح الحال مع الله، وليسأل عن أرواح الفرائض فإن الله له أرواح مسائلة في أرواح الآخرة لمن لم يكن له أرواح محاسبة لأرواح نفسه في دار الدنيا. فهو الروح الرقيب على روح العدو والحبيب، فلا يغتر بالله إلا روح لم تعرف أرواح عظمته، وأرواح مكره وأرواح استدراجه فهو الروح المطلق عن أرواح الظنون.

وما أباح محارم الله إلا كل مخذول مفتون لا يؤمن بيوم الحساب وما له روح معرفة بأرواح العذاب، وفي المال أرواح نافلة تطهر من الأدران كأرواح الصلاة والصيام وفيها من أرواح البيان في الأرواح الفرقانية: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان:٨]. ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ [آل عمران: ١١٥].

=

وكونها من ملك الله لا يقتضي أن يكون نفقها عائدًا إلى جانب الحق كما لا يُخفى على الخبير.

ثم الآية عامة كقوله: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق:٣].

فإن مَن توكَّل على الله تعالى في أمر الدار، وغيرها من الأمور الجزئية الغير المحصورة؛ فالله تعالى كافيه في تسهيلها وتحصيلها.

ومن العسر: الفقر، والاحتياج، والمرض، وموت الأولاد، وهجوم الغموم من الأعداء، وشدائد الهجرة، والذِّلّة، وأذى الجار وإهانته، وعسر الولادة للنساء، وعسر البول، وغير ذلك مما يشتمله.

ومن اليسر: الغنى، والسعة، والصحة، وحصول الخلف الخيِّر، وتدمير الأعداء، وسكون النفس إلى الدار، وعزُّ النفس، واندفاع الأذى، والإنفراج بعد الشدة كما ورد: «**اشتدي أزمة تنفرجي**»[(١)].

ودرّ الماء كما قال أبو هريرة ﷺ: اللّهم اجعل لي ضرسًا طحونًا، ومعدة هضومًا، ودبرًا نثورًا.

فإن الدبر والقبل في حكم واحد؛ كالأكل والشرب؛ ولذا قد يكتفى بذكر أحدهما، ويُطوى ذكر الآخر.

وقد ادَّعى سمنون المجنون[(٢)] في محلِّ الدلال بتحمُّل كل بارد من الله تعالى من

=

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤٢٦/١)، والعجلوني في الخفا (١٤١/١).

(٢) هو سمنون بن حمزة ويقال: سمنون بن عبد الله، كنيته أبو القاسم.

صحب سريًا السقطي ومحمد بن علي القصاب وأبا أحمد القلانسي، ووسَوَس.

وكان يتكلم في المحبة بأحسن كلام، وشدة وَجْد، وهو من كبار مشايخ العراق، مات بعد الجنيد.

قال الخطيب: سمعت أبا نعيم الحافظ يقول: سمنون هو بن حمزة الخواص أبو الحسن.

وقيل: أبو بكر. بصري، سكن بغداد، ومات قبل الجنيد، سمى نفسه سمنونًا الكذّاب بسبب أبياته التي قال فيها:

فلـــيس لـــي في ســـواك حـــظٌّ فكـــيفما شـــئت فامتحـــني

=

القضاء؛ فابتلاه الله تعالى بعسر البول فعجز وتضرَّع إلى الله تعالى في رفعه عنه، وهكذا أمر سائر العباد؛ فإن الإنسان خلق ضعيفًا، والضعيف لا يتحمَّل الحمل القوي؛ ولذا حثَّ النبي ﷺ على سؤال العفو والعافية، ورد قوله: «**اللّهم إني أسألك العفو والعافية، والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة**»[1]؛ وكل من الثلاثة الأخيرة ناظر إلى الأول.

وفي الحديث: «**اللّهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من**

=

فحصر بوله من ساعته فسمى نفسه سمنون الكذَّاب.

وقيل: كان سمنون في هيجانه يشطح وينشد:

ضـــاعف عليَّ بجهـــدك البلـــوى ... وأبلـــغ بجهـــدي غايـــة الـــشكوى

وأجهـــد وبـــالغ في مهـــاجرتي ... وأجهـــر بهـــا في الـــسر والنجـــوى

فـــإذا بلغـــت الجهـــد فيَّ فلـــم ... تتـــرك لنفـــسك غايـــة القـــصوى

فـــانظر فهـــل حـــالٌ بِـــيَ انتقلـــت ... عمَّـــا تحـــبُّ بحالـــة أخـــرى

قال: فعوقب على ذلك بقطر البول، فرأى في منامه كأنه يشكو حاله إلى بعض المتقدمين الصالحين، فقيل له: عليك بدعاء الكتاتيب، فكان بعد ذلك يطوف على الكتاتيب وبيده قارورة يقطر فيها بوله، ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم المبتلى بلسانه.

ومن كلامه:

قال أبو الحسن بن زرعان: كنت عند سمنون فشهق شهقة ثم قال: لو صاح إنسان لشدة وجده بحبه لملأ ما بين الخافقين صياحًا.

وقال سمنون: إذا بسط الجليل غدًا بِساط المجد دخل ذنوبُ الأولين والآخرين في حاشية من حواشيه، وإذا أبدى عينًا من عيون الجود ألحق المسيء بالمحسن.

وقال سمنون المحب: لا يعبر عن الشيء إلا بما هو أرق منه ولا شيء أرق من المحبة فبم يعبر عنها؟

وسئل سمنون عن الفقير الصادق؟ فقال: الذي يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغنى ويستوحش من الغنى كما يستوحش الجاهل من الفقر.

انظر في ترجمته: حلية الأولياء (٢٣٨/١٠)، وتاريخ بغداد (٣١٤/١٤)، والبداية والنهاية (١٢٦/١١)، وصفوة الصفوة (٨٤/٤)، وطبقات الصوفية (٦)، وشذرات الذهب (٤٢٥/٢).

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٤٩/١)، والطبراني في الأوسط (٢٠١/٨).

عقوبتك، وأعوذ بك منك»[1].

ولَمَّا كان حصول الرضا على طبقات الصفات؛ قدَّمه على ما كان من الأفعال؛ وهو حصول المعافاة، وإن كانت الأفعال أقدم في الاعتبار، وذلك إنه إذا حصل الرضا؛ حصل المعافاة؛ إمَّا رأسيًا؛ وهو أندر، وإمَّا بمعنى عدم التأذِّي بالمكروهات الطبيعية النفسانية؛ وهو حال الكُمَّل، فإنهم لَمَّا كانوا منغمسين في بحر الرضا؛ كان حقائق الصبر والشكر عندهم أمرًا واحدًا؛ حيث تلذَّذوا بالبلايا؛ بل فنوا عن كل من اللَّذَّة والألم، واستغرقوا في الله، ودخل في العسر عسر القبض، والهيبة، والوقوف، والتفرقة، والتلوين، ودخل في اليسر يسر البسط، والإنس، والجمع، والتمكين.

فلا بد من الصبر في كل مقام من مقامات الابتلاء، فإن السين في قوله تعالى: ﴿**سَيَجْعَلُ اللَّهُ**﴾ [الطلاق:٧]، وإن كان للاستقبال والتسويف؛ لكنه للقريب، وقد قيل: كل آتٍ قريب، والدنيا ساعة؛ بل لمحة، وقول الأنبياء عليهم السلام: متى نصر الله؛ إنما هو من شدة المقام لا ينافي ذلك كونهم في مقام الصبر والرضا.

***

(١) رواه مسلم (٣٥٢/١)، وأبو داود (٦٤/٢).

في سورة التغابن

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١].

اعلم أن الهداية هداية أولى، وهداية ثانية.

فالهداية الأولى: هي الهداية إلى الإيمان.

والثانية: هي الهداية إلى حقائق الإيمان.

كما دلَّ عليه التصريح بالقلب، فإن هداية القلب؛ إنما هي إلى الحقائق، إذ كل منهما من عالم الملكوت، كما أن هداية النفس إلى المقاصد الحسِّية، إذ كل منهما من عالم الملك، فللمؤمن نصيب من الهدايتين؛ لأنه اختار الإيمان أولاً؛ فهداه الله إليه، وخلقه الله فيه، واختار حقائق الإيمان ثانيًا؛ فهداه الله كذلك؛ لأن قلب المؤمن لا يزال من حيث استعداد يطلب الترقِّي إلى عالم اليقين.

فمن هداياته تعالى له: أن يقذف نورًا في قلبه؛ يُفرِّق به بين الحق والباطل.

ومن هداياته: كشف الغطاء عن بصيرته؛ ليريه ملكوت السماوات والأرض.

ومن هداياته: أن يوصِّله إلى سرِّ الحقيقة؛ وهو كون العين واحدة في مرائي متعددة؛ وهو سرُّ التوحيد.

ومن هداياته: أن يقبضه عن الآفاق، ويهديه إلى السرِّ المودع في الأنفس؛ وهو التجريد.

ومن هداياته: أن يقطعه عن الأنفس أيضًا، ويهديه إلى ذاته في مقام التفريد.

وكل ذلك وأمثاله له، ومن هدايات القلب وكمالاته، وليس للكافر نصيب من الهدايتين؛ لأن الهداية الثانية متفرِّعة من الهداية الأولى، فإذا لم يكن له نصيب منها؛ لأنه اختار الكفر على الإيمان، كما صرَّح به في مواضع من القرآن؛ لم يكن له نصيب من الثانية، فكل هداية؛ فهي للمؤمن بقدر استعداده، وكل ضلالة؛ فهي للكافر على حسب استحقاقه، والله الهادي للمؤمنين إلى مراتب الإيمان، والإحسان، والتمكين.

في الحديث عند القضاعي: «**الدعاء هو العبادة**»[1]:

---

(١) رواه أبو داود (٢/٧٦)، والترمذي (٥/٢١١).

وفي بعض الروايات: «**الدعاء مخ العبادة**»[١]:

يعني: كما أن العظم، وما يتعلّق به من اللحم ونحوه؛ إنما هو بالمخ؛ فكذا العبادة إنما تقوم بالدعاء ؛وهو طلب الحاجة من الله تعالى بالقلب، وسؤالها منه باللسان.

فإن قلت: معنى العبادة، والتذلُّل، والخضوع، وكذا معنى الدعاء، فأحدهما يغني عن الأخر؛ قلت: العبادة حال البدن، والدعاء حال القلب، واللسان، وليس كل تذلُّل يقتضي الالتجاء إلى الله تعالى في المهام، والمصالح.

وفيه إشارة إلى أن حال القلب أقوى، وأتم من حال اللسان والبدن لكن مَن انفرد بأحدهما؛ لم يُعتد بحاله؛ لأن الله تعالى جعل الظاهر مقام الشريعة، والباطن مقام الحقيقة، ومَن تحقق بمقام الحقيقة؛ لا بد له من مقام الشريعة؛ إذ كل إناء يترشَّح بما فيه، فظهر من هذا زيغُ مَن انخلع عن لباس الشريعة، وقصور مَن لم يتلبَّس بلباس الحقيقة، مع إمكان الجمع بينهما؛ لجمعية نشأة الإنسان، وإلى الله السُّكنى من أهل عصر يسجدون الله تعالى، ثم إذا رفعوا رؤوسهم؛ قاموا إلى حوائجهم من غير رفع الأيدي إلى الله تعالى.

نعم لأهل الحقائق مقامات، فدعاؤهم في كل مقام بما يليق به؛ لأن الله تعالى أطاعهم في إراداتهم كما دلَّ عليه قول أبي طالب: ما أطاعوك ربك يا محمد.

وقوله ﷺ له: «**وأنت يا عم لو أطعته؛ أطاعك**»[٢]، فمراعاة الصورة والمعنى من آثار الصالحين، ومحافظة الظاهر والباطن من آثار المحققين، فعليك بالوقوف عند آثارهم، والاستنارة بأنوارهم، والوصول إلى أسرارهم.

***

(١) رواه الترمذي (٥/٤٥٦)، والديلمي في الفردوس (٢/٢٢٤).

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة (٧/٢٣٦).

في سورة المعارج

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلا الْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:٢٢، ٢٣].

اعلم أن دوام الصلاة لا يمكن بالصورة؛ بل بالمعنى؛ وذلك أن مَن سَجد قلبه لله تعالى سجدةً حقيقيةً، وخضع خضوعًا تامًا؛ فإن عبادته لله تعالى مستمرة سواء كان على اليقظة، أو على النوم؛ لأن النوم إنما يجري على صورته لا على قلبه.

كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «**ينام عيناي ولا ينام قلبي**»[١][٢].

فإذا كان قلب الرجل يقظانًا، سرى ذلك في جميع أجزائه وقواه؛ فإن القلب أصل القوى والجسد، فإذا صلح؛ صلح القوى والجسد كلها، كما أنه إذا فسد؛ فسد القوى والجسد كلها.

ومن هاهنا قيل: إن نوم العالم عبادة، ونفَسه بفتح الفاء تسبيح؛ والمراد بالعالم هوالذي فوق العارف؛ وهو مَن كانت نسبته إلهية، والعارف مَّن كانت نسبته ربَّانية، فالنسبة الأولى من عالم الأمر، كما أن النسبة الثانية من عالم الخلق، والعالم هو المشاهد المعاين، والعارف هو المطَّالع المكاشف.

وقوله: «**مَن عرف الله؛ كلَّ لسانه**»[٣]؛ إشارة إلى الفناء.

قوله: «**ومَن عرف الله؛ طال لسانه**»[٤]؛ إشارة إلى البقاء.

فإذا كانت المعرفة تامة حقيقة إلهية وجوبية؛ فهو العلم بالله، وهو العلم اللدني،

---

(١) رواه أبو داود (٥٢/١)، والترمذي (٥١٨/٤)، وأحمد في المسند (٢٢٠/١).

(٢) فهو ﷺ نائمٌ حسًّا ليس نائمًا معنى كما أن موته كذلك، وهذا مقام ما ناله بالهيئة الكاملة هذه بشرٌ سواه، مع أنه ببشريته قد وقع له تخلل بهذا المقام دون روحانيته.

واعلم أن الكامل إذا تخلق بالأسماء الإلهية وتحقق بها يصير ملحوظًا من جانب الأزل محفوظًا بالكلية عن أن يلم به الخطأ أو يعرض له الزلل لكونه تخلق في جميع حركاته وسكناته بأسماء الحق، وتحقق في ذاته وصفاته بطهارته عن أحكام ما سوى الحق بحيث لم يبقَ له فعل سوى فعل حق بحق لحق.

(٣) ذكره القاري في المصنوع (١٨٩/١)، والعجلوني في كشف الخفاء (٣٩٤/٢).

(٤) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

وهو علم الإرث والموهبة، ووسيلته العمل الصالح على مقتضى الشرع، فإن المعارف الإلهية إنما هي نتائج السلوك، والتقوى، والعمل الصالح، فمَن لم يسلك من هذا الطريق؛ فمعارفه معارف شيطانية نفسانية لا خير فيها في الدَّارين، وأهلها مُلحق بالفلاسفة والرهابنة.

فإن قلت: هل فرق بين الصلاة والطواف؟.

قلت: نعم؛ لأن الصلاة إطلاق[1]، فصورة القيد والطواف إطلاق صورة

---

(١) فائدة ولطيفة: قال الشيخ العلواني الشاذلي:

فصل في روح وصل بأرواح الصلاة أولها: روح النية مع روح التكبير فروح النية روح وصل بأرواح الصلاة فهي الروح الفاتح في روح التكبير روح الصلاة.

وفيها روح فصل للأرواح التي لم تقصد لروح الصلاة ومن أرواح السنة يتحرك بها اللسان وإن يسكن عن روح العمل بضدها الجنان روح فرقاني في روح النية:

* ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البينة: ٥]، أي بأرواح الصلاة بأرواح الصوم بأرواح الإحسان.

* ﴿ مُخۡلِصِينَ لَهُ ﴾ فلا يكون في أرواح حياتهم غير أرواح الدين والدين الخالص بالأرواح المحمودة من أرواح العلل بروح الروح في روح الإطلاق بأرواح الربط بروح الإحاطة فالله أكبر روح من أرواح العموم بأرواح التصريف وأرواح الإفاضة لأرواح القوابل ولكل روح واصل إلى أرواح القوابل بأرواح الكمال وما فيها من أرواح الجمال وما أرواح الظلال في الروح الأعظم إلا كأرواح المحال فروح الفصل في روح التكبير أن ما سوى الروح الأعظم من الأرواح كلا مع سراب وهو إن لم يخل من الأرواح الحقبة والأسرار الروحية فلا يشابه الشراب فما عند السراب إلا الظمأ.

وما عند الشراب إلا أرواح الري وأرواح الطهارة والنظافة والنضارة فهل يستوي الروح الفارغ بالروح المملوء من أرواح الرحمة وأرواح المواهب فروح التكبير روح وصل بروح التعظيم العام يرويه روح الإطلاق بأرواح القهر فوق كل روح من أرواح الخيال أو الظلال.

وفيه روح فصل لكل روح لم يؤذن له أن يدخل في أرواح الصلاة فهو الروح الجامع لأرواح الصلاة المفرق لأرواح العادات، وفيها روح حركة اللسان وروح سكون إلى أرواح الصلاة بأرواح الجنان ومن بعد روح التكبير أرواح مسنونة من أرواح المناجاة بأرواح خاصة من الروح المحمدي.

وذلك روح التوجه في روح قولك:

﴿ وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ بأرواح النشر ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ بأرواح الكثافة حينما برح

=

الإقبال مسلما لأرواح الجمال.

وما أنا من المشركين بأرواح الشهود ولهذا الروح الأعظم ﴿ إِنَّ صَلَاتِي ﴾ بأرواحها ﴿ وَنُسُكِي ﴾ بغيرها من أرواح الحج ﴿ وَمَحْيَايَ ﴾ بأرواح إمداده بأرواح الحياة الفرقانية ﴿ وَمَمَاتِي ﴾ في عين حياتي عن كل روح ردية ﴿ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ في روح من الأرواح.

وبذلك الروح ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٣] على كل حال للروح المالك الذي ما سواه في أرواح عظمته هالك ومن يعد هذا الروح روح التعوذ فأعوذ بالله من روح من أرواح اللبس بأمر من الأرواح الشيطانية الفائضة من أرواح الشيطان الرجيم.

وبعد هذا الروح روح ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أرواح المفاتيح بأرواح البركات وروح ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ سيد أرواح الثناء ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ مفتاح الغنى ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ روح أعظم من أرواح التذكير ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ روح إقرار بكمال العبودية ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ من أرواح المسير على روح نوراني ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾. روح من أرواح الاسترشاد ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ روح تلذذ بأرواح ذكر الأحباب ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ بروح الحجاب ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ من أرواح العبودية بعدم شهود أرواح الربوبية ومن أرواح الندب روح أمين ومن أرواح السنة بعد روح الفاتحة أرواح من الفرقان على روح من التيسير على أرواح من التفصيل ثم بكون بعد روح القراءة في روح القيام على القادر روح الركوع.

وله روح جد من الأرواح الواجبة والأرواح المندوبة ففي الركوع روح فصل عن روح القيام وروح وصل بروح من أرواح التواضع والخضوع لله وفي روح الركوع روح حركة في روح من أرواح العبودية.

وروح سكون في روح التعظيم ومن بعد روح الركوع روح الاعتدال وهو من أرواح الشكر على روح الإطلاق من روح الفقر ومن أرواح الذلة ومن بعد روح الاعتدال روح السجود وفي الروح المحمدي: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فليسأل الله ما شاء من خير الدنيا».

ومن أرواح الآخرة وفي روح السجود من أرواح السنن:« سبحان ربي الأعلى» كما أن في روح الركوع: «سبحان ربي العظيم» فروح الركوع روح تعظيم، وروح السجود من أرواح التقديس لأن روح السجود من أرواح الغنى.

ومن أرواح السقوط عن رتبة الوجد فالساجد في روح سجود لا يحمد بأجل أرواح المحامد ليس الحمد كله بأرواح القول بل منه ما يكون بإشارة الأرواح ورفع روح الخيال لرفعة الروح الأعظم عن

=

ومعنى، وإنما قلنا في الصلاة: إنها إطلاق في صورة القيد؛ لأن ظاهر المصلّي وإن كان مقيدًا بالتوجه إلى القبلة؛ لكن باطنه مطلق عن القيود كلها؛ بل متوجه إلى الله الذي له الإطلاق الحقيقي الذاتي.

=

أرواح العجز المبسوطة في أرواح السجود الذي هو روح الساجد الحامد بأجل المحامد بالإشارة الروحية في روح الهوية فروح السجود من أرواح الإطلاق في روح من الحجاب الرقيق.

ولذلك الروح كان أقرب من روح الركوع ومن روح القيام ومن روح القراءة فأرواح الصلاة بعضها فوق بعض في درجات القرب لاختلاف أرواح الحجب فلا بد لكل عابد من روح حجاب يليق بحاله في أرواح أقواله وأرواح أفعاله، وفي أرواح النيات، وفي أرواح الإشارة الروحية بإسقاط أرواح السر. فيعم روح الإطلاق في أرواح من الرقة وفي روح السجود من أرواح السنن: «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله ظاهره وباطنه سره وعلانيته سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين».

ويكون روح السجود على سبعة أرواح روح الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا بد فيه من روح السكون كالركوع والاعتدال فإن أرواح الصلاة أرواح وصل وفصل وحركة وسكون وبعد روح السجود الأول روح الجلوس بروح من السكون،وهو روح بعث من روح الغيبة في أرواح التقديس.

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ [طه: ٥٥]، بروح السجود الأول جاءت إشارته وبروح الجلوس بين السجود كانت عباراته ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ بروح السجود الثاني، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ بروح الجلوس الأخير لأرواح التحيات، وأرواح التشهد وأرواح التسليمات والصلوات.

فالجلوس الأخير جامع لأرواح كثيرة لأنه المبعث الأكبر وبأرواح اللقاء عند أرواح التسليم ترتفع أرواح التكاليف وهي من أرواح العفو روح من أرواح الآثار.

قال رجل لأبي هريرة: «إني أخاف من الموت فقال له: أتصلي الصلوات الخمس في جماعة؟ فقال الرجل: نعم، فقال: إذا كنت على هذا الأمر فمت في أي وقت شئت فلا بأس عليك» روح بيان في هذا الروح ألا ترى.

وذلك أن أرواح الجماعة فيها أرواح الدرجات وأرواح الصلاة فيها أرواح الكفارات، وفيها من كل الأرواح الإلهية وختام الصلوات بأرواح الدعوات والبركات بأرواح الأذكار، وأرواح الاستغفار.

وانظر: كتاب الأرواح (ص٤٥) بتحقيقنا.

فإن قلت: قد ثبت: «أن الله في قبلة المصلِّي[١]». ولذا يوضع اليد على الصدر بعد الرفع إلى نداء المنكب بالنسبة إلى النساء، كما أنه تعالى هو القاهر فوق عباده؛ ولذا يوضع اليدْ تحت السرَّة بعد الرفع إلى ما فوق الصدر؛ وهو الإذن وذلك بالنسبة إلى الرجال، قلت: ذلك تعظيم لوجه المصلِّي.

وقد ثبت عند أهل الله: إن الوجود الحق وجه كله، فلا قيد لله تعالى على كل حال، وللمصلِّ قيد في خارج الصلاة، وإطلاق في داخلها، كما أومأنا إليه آنفًا، فإن قلت: هل فرق بين أركان الصلاة؟ قلت: نعم؛ فإن السجدة هي العمدة منها؛ لأنها إشارة إلى فناء ذات المصلِّي في ذات الحق تعالى.

ولذا قال: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]؛ يعني أن الاقتراب الحقيقي المعنوي إنما يحصل بالسجدة؛ ولذا كان معظم أركانها.

ولمَّا طلب بعض الناس جواره ﷺ في الجنة قال: «**أعنِّي بكثرة السجود**»[٢]؛ وذلك إشارة إلى أنواع الفناء من فناء الأفعال، والصفات والذات.

وسجدة القلب أزلية أبدية بالنسبة إلى الكُمَّل؛ ولذا كانوا على صلواتهم دائمين من الأزل إلى الأبد. وأمَّا غيرهم فليس لهم سجدة القلب؛ بل سجدة القالب، ولئن سلِّم، فكم من فرق بين سجدة وسجدة، فأين استسلام الخليل عليه السلام ونحوه، وأين استسلام غيره، فعليك بسجدة الفناء حتى تصل إلى اللقاء.

قال الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

: أي تسجد لآدم الذي خلقته مشتملاً على التنـــزيه، والتشبيه، واللطف، والقهر، والجمال، والجلال[٣].

وهي الصورة الإلهية؛ لأن أسماءه تعالى منها جمالية، ومنها جلالية، ومن صفاته

---

(١) ذكره ابن قدامة في المغني (٢٦٤/١)، والشوكاني في نيل الأوطار (١٥٨/٢)، وابن ناصر في مجمع البحرين شرح الفصين (ص٣٣٥) بنحوه.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٤٥/٢)، وذكره ابن حجر في الإصابة (١٢٥/٦).

(٣) ومعنى الآية: أي يدي تنـــزيه وتشبيه، وإن شئت قلت: يدي وجوب وإمكان، وقِدَم وحدوث.

التنـــزيه والتشبيه، ويؤيد ذلك ما قال ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته، وعلى صورة الرحمن**»[(١)].

وقال في الغزو: «**وإذا قتلت فأحسن القتلة، واجتنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته**»[(٢)].

وفيه إشارة إلى أن الوجه أُدخل في الصورة؛ لأن الوجود الواجبي وجه كله.

ومن هذا ورد في الأثر: «**إن الله تعالى ما بعث نبيًا إلا حسُن الاسم، حسُن الوجه، حسُن الصوت**»[(٣)].

فأشار بالأول إلى حسن التعيُّن؛ لأن الاسم هو التعيُّن في عُرف القوم، وحسن التعيُّن تابع لاعتدال المزاج، ثم النقوش تابعة للتعيُّن؛ والمراد بالنقوش نقوش البدن، والوجه المراد بها الهيئة الإنسانية، فمَن كان تعيُّنه حسنًا؛ كان هيئته حسنة.

وأشار بالثاني إلى مقام الرؤية ومحلِّها، فإن الرغبات إنما تتوفر في مُطالعة الحسن والجمال لا مطلق الوجه.

فكم من فرق بين وجه ووجه، وهيئته وهيئته، ولا يُفرِّق بينهما إلا أهل النظر الصحيح، والشهود الكامل، وأشار بالثالث إلى مقام التبليغ، والصوت الحسن أبلغ فيه كما كان لداود عليه السلام.

فالأنبياء - عليهم السلام - وكُمَّل الأولياء - قَدَّس الله أسرارهم - كانوا على هذه الأوصاف الثلاثة؛ لأنها أمور مُرغبة، وغيرها أمور مُنفرة، والحكمة لا تقتضي إلا أسباب الترغيب؛ ليدخل عباد الله في دائرة قبول الدعوة، والانقياد إلى الأوامر والنواهي.

والمراد بالسجدة: الانقياد الباطني لا مطلق الانقياد الذي السجدة الصورية صورة من صوره، فإن المنافقين انقادوا في الظاهر من غير انقياد في الباطن، فلم يكونوا على طائل من الانقياد دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى**﴾ [التوبة:٥٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (٤/٢٠١٧)، وأحمد (٢/٢٤٤) بنحوه.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (١/٣٧٦)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (٧/٢١٠).

فإن الكسل في الظاهر إنما هو من آثار الفتور الباطني، وعدم الجدِّ والعزم في القلب، فالصورة تابعة للمعنى بخلاف العكس في بعض المواقع دلَّ عليه قوله ﷺ حين رجع من غزوة تبوك: «**إن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شِعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا، حبسهم العذر**»(١).

فيكون المراد من قوله تعالى: ﴿**وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً**﴾ [النساء:٩٥] أي: من هو قاعد بعذر؛ فهو مع المجاهدين حكمًا كما دلَّ عليه الحديث، فظهر من هذا أن السير: إمَّا سير بالظاهر، والباطن جميعا، وإمَّا سير بالباطن فقط، ومن ذلك عدم خروج بعض الأولياء إلى الغزو، والحج الصوري؛ فإنهم المعذورون المتوقّعون لأمر الله، فمجاهدتهم مع نفوسهم أعظم من مجاهدتهم مع أرباب النفوس، وكذا حجَّهم ربّ البيت أقوى من حجهم البيت، على أن البيت قد يزورهم، وهم في مقامهم قائمون، وهذا لا يلزم منه ترك الأمر في الشرع.

فإن المأمور صورة أو معنى لا بد له من الأمثال، وخفي أحوال الخواص على العوام: بل على أهل الخصوص في الجملة، فطعنوا فيمَن هو فوقهم من غير شعور بحقيقة الحال، فعليك أن تسجد وتنقاد للإنسان الكامل في أقواله وأفعاله؛ فإنها شرعٌ كلها، ومَن كان سلطانًا؛ فله قول وفعل يكون له قانونًا، فكيف حال مَن كان سلطانًا للسلطان؟ فإن السلطان الظاهر إنما هو ظلّه، ومَن خرج عن هذا الانقياد ولو كان سلطان؛ فسوف يلحقه ذلّ لا مدفع له، ومن الله العصمة، ومن الزَّيغ والضلال في كل حال.

***

(١) ذكره المنذري في الترهيب والترغيب (١/٢٥).

وفي سورة نوح:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح:١].

أشار بنوح إلى الروح، فإن (ن) أربع مرات راء، وذلك من حيث المراتب الأربع التي حصلت للروح من حيث أولية، وآخرية، وظاهرية، وباطنية، فالروح نوح: أي سابق على قومه من القوى الروحانية، والأعضاء الجسمانية، وإذًا الفاعل قبل القائل، وقد أرسله الله إلى قومه؛ فهو المؤثِّر فيه لا غيره تعالى؛ لأنه لا غير هنالك حتى يكون هو المباشر للإرسال.

وكذا كل الإرسالات الواقعة في الدنيا؛ فإنها كلها مضافة إلى الله تعالى، فإن الإرسال إمَّا من الشيخ المرشد؛ فذلك مضاف إلى الإلهام الإلهي، وإمَّا من الجناب النبوي؛ فذلك مضاف إلى الوحي الربَّاني، والكل؛ لكن المظاهر متعددة بحسب المقامات والأطوار، وقد يترقَّى السالك في بعض المواطن إلى حيث يأخذ الإذن من الله تعالى بلا واسطة، وذلك لا يلزم منه ترك الوساطة، فإن ذلك بشفاعة الواسطة، أو باستهلاك الكل في عين الجمع، وليس هناك إلا الله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]، فأثبت المخاطَب بالفتح، والمخاطِب بالكسر.

وقد سمعت عن شيخي، وسيدي الشيخ الإلهي الفضلي أن شيخه أرسله إلى بعض البلاد بالخلافة، فلم يقبلها؛ بل اختار الإقامة مع الشيخ في مقامه إدامةً لخدمته حتى رأى الله تعالى تلك الليلة؛ وهو مناوله المصحف، وقال: هذا كلامي فخذه، وادع إليّ عبادي.

وكان من أمري أيضًا أن حضرة الشيخ قُدِّس سرُّه: أمرني بالهجرة من أرض إلى أرض حتى لمَّا أقمت ببلدة برونة قريبًا من خمس وثلاثين سنة، وظهرت الاختلافات الآفاقية بين الخلق لاسيما بين أهل الإيمان، وأهل الحرب، فوقعت الإشارة الأكبرية والخضرية بالهجرة إلى طرف الشام، ولم أكن أتردَّد في ذلك أصلاً؛ لكن أردت الإذن الصريح من جهة حضرة الشيخ أيضًا فور تلك الليلة.

هذه الآية وهي: (إنا أرسلنا) يعني: إنَّا أمرناك بالهجرة، وأرسلناك إلى جانب الشام، فلا حاجة إلى الإذن الصريح من جهة الشيخ؛ لأن إذنه مستهلك في أُذني.

* * *

وفي سورة المطففين

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] لا يقتضي الحجاب مطلقًا، فإنه يُقيَّد بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محلَّ أهل النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي.

وأمَّا محلُّ أهل الجحيم؛ وهو النار، وكذا أجسامهم، فكثيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من المطعم، والمشرب، والمنكح ونحوها.

وأمَّا النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما: قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالم الفناء عن الحسِّ، وليس عنده ذوق، وبرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الذين ابيضَّت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

واحذر أن تكون من الذين اسودَّت وجوههم في كل المواطن، فإن الظلمة الدائمة لا يلحقها النور، فالحبشي لا يكون أبيض بالصابون من حيث عينه الخارجي، وكذا الرومي لا يكون أسود بالقار من حيث جسده الصوري.

وأمَّا القلب فأبيض وأسود من غير نظر إلى اللون الخارجي.

وقدَّم الله الذين اسودَّت وجوههم؛ لأنهم جلاليون ذاتيون، وأخَّر الذين ابيضَّت وجوههم؛ لأنهم جماليون صفاتيون؛ ولذا كان لهم خطرًا، وزمن الرؤية لكون بَعْدهم بعدًا صفاتيًا متوسطًا.

والأحدية الذاتية قبل الواحدية الصفاتية في مرتبة التجلِّي.

وقولنا: صفاتيون لا ينافي كونهم ذاتيين أيضًا، فكونهم ذاتيين يظهر في مقام الكثيب، وكونهم صفاتيين يظهر في باقي المقامات على ما يعرفه أهل التجليَّات، فأهل قاب قوسين بعد العود من معراج، أو أدنى أفضل ممَن لم يكن وعودًا، ولم يكن له عروج، جعلنا الله، وإياكم منوَّرين بنور ذاته وصفاته.

وفي سورة القارعة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ*فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ*وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ*فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ*نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦: ١١].

اعلم أن ثقلة الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقدر دلَّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات؛ إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال.

وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلَّ عليه قوله: فأمه هاوية؛ لأن الله لا يقيم لَمن خفت موازينه يوم القيامة وزنًا ومقدارًا؛ فيهوى في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة.

وفيه إشارة إلى أن الأعمال تتجسَّد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن اُعتبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتَّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها، وصعودها ليس من حيث وجودها، وثقلها في نفسها؛ بل من حيث حال عاملها.

فإن العامل لا بد وأن يكون مخلِصًا بالكسر؛ بل مخلَصًا بالفتح، والمخلص لا وجود له في نفسه؛ لأنه فانٍ عن أعماله، والتعلُّق بها، فاجتمع ثقيل؛ وهو العمل، وخفيف؛ وهو حال العامل؛ فارتفع ميزانه إلى جانب العُلو؛ كالروح مع الجسد؛ فإنه لولا الروح لم يكن للجسد قيام بنفسه.

والحاصل: إن روح العمل؛ كروح الجسد، فلا يقوم إلا به، وأمَّا وجود الطالحات فهو عدم الصالحات، والعدم وإن كان لا يقتضي الثقلة والخفة لكن صاحبه أثقل الثقلاء؛ ولذا كان ضرس الجهنَّمي كأُحد، وبدنه مقدار مسافة ثلاثة أيام؛ لغِلظة

حجابه، وكانت تلك الغلظة معنوية في الدنيا، ثم تكشَّفت صورة في الآخرة، فاجتمع أيضًا ثقيل وخفيف، فغلب الثقيل فأهوى بصاحبه إلى السافل الذي هو السجِّين.

والحاصل: إن ثقلة العمل، وخفة الروح مقبولتان، وأمَّا عكس ذلك بأن يثقل الروح، ويخفُّ العمل فغير مقبول، فخفة الروح وثقلته هما عاملان في الإصعاد والإهباط لا خفة العمل وثقلته، فإن ذلك تابع لخفة الروح وثقلته؛ وإنما لم يكتفِ بإخبار أن أمه هاوية حتى وصفها بكونها نارًا حامية؛ لأن مجرَّد الهوى والسقوط لا يقتضي النار الحامية، وعلى تقدير استلزامه للتعذُّب بالنار، فالنار قد تكون شديدة، وقد تكون خفيفة، فوصفها بالحامية؛ ليدلَّ على شدِّها كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، فلو عذَّبوا نفوسهم في الدنيا بنيران الحرارات، وزادوا فيه بأنواع الرياضات؛ والمجاهدات، لَّما زاد الله عذابهم في الآخرة؛ بل لم يعذِّبه، فإن المعذَّب لا يُعذَّب مرتين، وفي العذاب معنى آخر من طريق الذوق، العذاب يعرفه أهله.

وفي وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ [القارعة: ١٠]؛ إشارة إلى أن بعض الأمور خارجة عن الدراية، وعلى تقدير دخولها فيها، فقد تختلف بالشدة والضعف بحيث لا يهتدي العقل إلى درك حقيقتها، وقد صحَّ أن الله، وإن كان لا يكلف نفسًا إلا وسعها لكن فرَّق بين كيفية، وكيفية، فاعرف.

* * *

سورة الإخلاص

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ﴾ خاطب به النبي ﷺ مع أن القائل في الحقيقة هو نفسه تعالى كما دلَّ عليه بعض الإطلاقات وهو ينظر الأمر بالعلم في قوله: ﴿فَاعلم أنهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]؛ لأن العالم أيضًا هو ذاته تعالى، ففي كل منهما إشارة إلى ذنب مستغفر عنه في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، فلابد من إزالة النسبة من البين؛ ليظهر اتحاد العين[1].

---

(١) **قلت**: معاذ الله أن يقصد المصنف اتحاد الذوات كما يتوهم من ظاهر العبارة فإن عقيدة السادة الصوفية رضي الله عن جميعهم ومنهم المصنف بريئة من ذلك - والله يعلم – فما استخدم المصنف هذا التعبير إلا اصطلاحًا، ومعلوم أن لكل أهل علم من العلوم اصطلاحات يخرجون بها عن المعنى اللغوي للكلمة المستخدمة فكلمتي الصلاة والسنة - مثلاً – يختلف معناهما بين أهل الأصول والمحدثين والفقهاء وأهل اللغة فلفظ الاتحاد حيث جرى في كلام القوم لايكون المقصود به المعنى اللغوي بل أمر آخر هو ما أذكره لك من خلال نقل كلامهم في بيان تلك المسألة (مسألة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود) فقد كثر فيها الكلام من العالم والجاهل، وتخبطت الآراء، وتنازعت، ونسبها ظلمًا وعدوانًا الكثير من الجهلة قديمًا وحديثًا إلى سيدنا الشيخ الأكبر وأكابر الأولياء: كالشيخ سيدي عبد الكريم الجيلي، والشيخ القوني، والشيخ ابن سبعين، والشيخ ابن الفارض، وغيرهم رضى الله عن جميعم، وتبعهم على ذلك أتباعهم من المتأخرين، وإن شئت قلت: أعوانهم في تلك الجهالة، وكان مدخلهم إلى هذه النسبة وتلك الاعتراضات وتَجرؤهم على ما يجهلونه من علوم الأولياء نظرهم إلى علوم القوم باعتبار أنها علومٌ فلسفيةٌ، مصدرها الفكر والعقل، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ولا قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، ولا قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، ولا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩]، ولا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:٢٤] ، ولا ما روي- وصح - عن أبي جحيفة قال: سألت عليًّا ﷺ: هل عندك عن النبي ﷺ شيءٌ سوى القرآن؟ فقال: «لا، والذي خلق الحبة، وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في القرآن وما في هذه الصحيفة».

=

=

قلت: وما في هذه الصحيفة؟ الحديث، ولا ما روي في البخاري: حدثنا إسماعيل قال: حدثني أخي عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: (حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم)، ولم يبلغهم مما ورد في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مما يقرر اختصاص الحق سبحانه لمن شاء من عباده بما شاء من عطاياه، سواء كان المُعطى محسوسًا أم معنويًّا كالعلم بالله والفهم في كتابه، فراحوا ينكرون كل ما يجهلونه، وكأنهم أحاطوا بما عند الله، أو تحكموا على الله في ألا يعطي أحدًا من خلقه إلا بعد أن يستأذنهم، ولا يُفهِمُ أحدًا في كتابه إلا بما فَهِمُوه هم - بفهمهم السقيم- لا غير، فسبُّوا ولعنُوا أولياء الله، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وأغفلوا ما أوردوه القرآن في حق صلحاء بني اسرائيل من العجائب والكرامات، وحرموا- وما حرموا إلا أنفسهم — من ذلك صلحاء ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، شهداء لله وللرسل عليهم الصلاة السلام على الأمم، الأمة الوسط —وهوالاعتدال والكمال- ألا وهى أمة خلاصة الخلق على الإطلاق وأفضلهم أعلمهم بربهم سيدنا ومولانا أحمد -صلى الله عليه كما صلى على سيدنا ابراهيم- الأمة المحمدية ، فما أسخف وأقبح تلك العقول والقلوب المنكرة على أولياء وصلحاء الأمة المحمدية ! حيث أثبتوا لصلحاء اليهود النصارى مالم يثبتوه لصلحاء خير الأمم مع ورود القرآن والسنة المطهرة المشرفة باثبات ذلك العلم والفضل لهم ، وجعل هولاء المنكرون يستشهدون بأقوال أهل الكفر المستشرقين-الذين ما أرادوا بالإسلام والمسلمين خيرًا قط- على أئمة الهدى المسلمين، فينسبون العلم اللدني الوارد ذكره في كتاب الله وفي سنة رسول الله تارةً إلى المسيحية، وتارةً إلى الفلسفة اليونانية، وأخرى إلى الاستنباطات العقلية، تبعًا لهؤلاء المستشرقين، الذين أدركوا حقيقة علوم أولياء الأمة المحمدية بربهم وبنبيهم — عليه الصلاة والسلام- والمتمثلة أو المسماة بعلوم التصوف، وما لها من العظمة؛ بحيث يعجز غير المسلمين عن الإتيان بشيءٍ منها؛ وكيف لا وهي من السيد الأعظم ﷺ متلقاةٌ، وأن التصوف الإسلامي منذ عهد الصحابة إلى الآن السبب الأقوى والفعَّال في دخول جموع الناس في دين الله أفواجًا، وهذا ما يشهد به التاريخ، فراحوا ينسبونها إلى أنفسهم أو إلى عقلٍ وفكرٍ كما مرَّ؛ محاولين بذلك التقليل من شأن العلم في قلوب المسلمين، ولكن هيهات هيهات: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨] ببعضٍ من النظريات التي يكذبها التاريخ، وتأباها عظمة الدين الخاتم، وهم في ذلك من ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

=

=

﴿ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، فترى دافع المتقدمين الجاهلين بعلوم العلماء بالله- كابن تيمية- إلى الإنكار : الحقد، والحسد، وحب السمعة، و دافع المتأخرين: الجهل الذي ملأ قلوبهم، ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩] ، فتراهم ينقلون أقوال إخوانهم الذين يمدونهم في الغي دون أدنى معرفةٍ بالدليل الذي استند إليه العلماء بالله، ولا يستبرئ لدينه؛ فيبحث عنه، بل أخذوا يكررون ويرددون الأقوال المنكرة في حق سادات الأمة المحمدية ورثة الأنبياء -رضي الله عن جميعهم- تلك الأقوال العارية بالطبع عن دليل القوم، وكان الأحق بهم قبل أن يؤذنهم الله بمحاربته بإيذائهم لأوليائه أن يأخذوا العلم من أهله، وخصوصًا أن علوم القوم موضوعها العقائد المتعلقة بمعرفة الله ورسوله ﷺ، وتلك أمورٌ محلها القلب، فلا اطلاع عليها إلا لصاحبها. ولا تظن يا أخي أن علوم القوم خاليةٌ عن تأييد الشرع، أو عاريةٌ عن الدليل، كما صورها هؤلاء الجهلة للعامة من المسلمين ، أما علماء أمتنا ومفكريها -المتقيدين بالحق والشرع- فإنهم يدركون للمرة الأولى عند سماع علوم القوم أن لهذا الكلام صولة ليست بصولت باطل، بل الحق الذي لا مرية فيه أنه لا توجد عقيدةٌ قررها القوم في كتبهم إلا وهي محاطةٌ بالدليل الشرعي، والمتتبع لأقوالهم -نفعنا الله بهم- يجدها مصحوبةً بالدليل.

فتبرأ لدينك يا أخي، وإيَّاك أن تعترض على أحدٍ من العلماء بالله بجهلك في أمرٍ جهلته من كلامهم، أو أن يكون لك أيُّ نسبةٍ تربطك بهذا الاعتراض، فالأمر جدٌّ وليس بالهزل.

وانظر كيف نسبوا إلى الله في تسميتهم؛ بل وحقيقتهم في قول: أولياء الله، أو العلماء بالله، أو العارفين بالله، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، فما عاديت في الحقيقة إلا ما نُسب لله، فانتبه من رقدتك.

واعلم أني ما ذكرت لك تلك المقدمة في هذا الموضع إعلامًا منِّي بأن واحدًا من العلماء بالله يقول بالحلول أو الاتحاد معاذ الله، ولكن لأوضح لك حقيقة الخلاف، والله يتولى هداك، وهو حسبنا ونعم الوكيل. وإليك نصوص ما ذكره ساداتنا العلماء بالله في نفيهم للحلول والاتحاد المتوهَّم في حقهم الشريف، فأقول وبالله التوفيق: **قال سيدنا في «الفتوحات» في باب الأسرار**: من قال بالحلول فهو معلولٌ؛ فإن القول بالحلول مرضٌ لا يزول، ومن فَصَلَ بينك وبينه فقد أثبت عينك وعينه، ألا ترى قوله: (**كنتُ سمعَه الذي يسمع به**)، فأثبتك بإعادة الضمير إليك، ليدلك عليك، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول؛ فإنه أثبتك حالاً ومحلاً، فمَنْ فَصَلَ نفسهَ عن الحق فنِعْمَ ما فَعل.

=

=

وقال في باب الأسرار أيضًا: الحادث لا يخلو عن الحوادث، لو حلَّ بالحادث القديم لصحَّ قول أهل التجسيم، فالقديم لا يَحِلُّ ولا يكون مَحَلا، ومن ادعى الوصل فهو في عين الفضل اهـ.

وقال في هذا الباب أيضًا: أنت أنت، وهو هو، فإيَّاك أن تقول كما قال العاشق: (أنا من أهوى، ومن أهوى أنا)، فهل قدر هذا أن يرد العين واحدةً، لا والله ما استطاع؛ فإنه جهلٌ، والجهل لا يتعقلُ حقًا، ولا بدَّ لكلِ أحد من غطاء ينكشف عند لقاء الله.

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلام طويل: وهذا يدلك على أن العالَم ما هو عين الحق، ولا حلَّ فيه الحق؛ إذ لو كان عين الحق أو حلَّ فيه لما كان تعالى قديمًا ولا بديعًا انتهى.

وقال في الباب الثاني والتسعين ومائتين: من أعظم دليلٍ على نفي القول بالحلول والاتحاد أنك تدرك عقلاً أن الشمس هي التي أفاضت على القمر النور، وأن القمر ليس من نور الشمس شيئًا مشهودًا؛ لأنها لم تنتقل إليه بذاتها، وإنما القمر محلا لها، فكذلك العبد ليس فيه شيءٌ من خالقه، ولا حلَّ فيه اهـ.

وقال في الباب الرابع عشر وثلاثمائة: لو صحَّ أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى لصحَّ انقلاب الحقائق، وخرج الإله عن كونه إلهًا، وصار الحق خلقًا، والخلق حقًا، وما وثق أحدٌ بعلمه، وصار المحال واجبًا، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدًا انتهى.

وقال في الباب الثامن والأربعين: لا يصحُّ أن يكون الخلق في رتبة الحق تعالى أبدًا، كما لا يصحُّ أن يكون المعلول في رتبة العلة انتهى.

وقال سيد الطائفة الجنيد ﷺ: التوحيد إفراد القدم- يقصد الحق سبحانه وتعالى وما يجب لذاته المقدسة المنزهة - عن الحدوث-يقصد العالم-.

وقال سيدي عبد القادر الأمير-قدس سره- في الموقف الثلاثون: قال لي الحق: «أتدري من أنت؟ فقلت: نعم، أنا العدل الظاهر بظهورك، والظلمة المشرقة بنورك. فقال لي: عرفت؛ فالزم، وإيَّاك أن تدعي ما ليس لك؛ فإن الأمانة مؤداةٌ، والعارية مردودةٌ، واسم الممكن منسحبٌ عليك أبدًا، كما هو منسحبٌ عليك أزلاً».

ثم قال في شرح حديث (**كنت سمعه**): وإنما هي الأحكام العدمية التي ظهر الوجود الحق بها لا غير، ولا اتحاد كما يفهمه العميان، ولا تأويل كما يقول صاحب الدليل والبرهان اهـ.

وقال في الكلام على حديث (**ما وسعني**..إلخ): قلب العارف الكامل المحقق الواصل يصير عين معروفه، وعين ما حققه، مع بقاء التمييز: إلهٌ ومألوهٌ، ربٌّ وعبدٌ اهـ.

=

=

وقال سيدي عليُّ بن وفا نفعنا الله به: إنما كانت القلوب السليمة تحنُّ إلى التنـــزيه أكثر من التشبيه؛ لأن التنـــزيه هو الأصل، والتشبيه إنما هو تنـــزُّلٌ للعقول، ومن شأن الذات الإطلاق لذاتها، وتساوى النسب لصفاتها، فاعلم ذلك، ونزِّه ربَّك عن صفات خلقه اهـــ.

وقال سيدي أيضًا: المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم: فناء مراد العبد في مراد الحق تعالى، كما يقال: بين فلان وفلان اتحادٌ، إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه، ثم أنشد:

وعـــلمُك أنَّ كـــل الأمـــر أمـــري هـــو المعـــنى المســـمَّى باتحـــاد

وقال سيدي أيضًا: الاتحاد لفظٌ يطلق، ويراد به أعلى درجات قرب العبد من الرب اهـــ.

وانظـــر يا أخي رحمك الله إلى ما قاله هؤلاء السادات في الحلول والاتحاد؛ كي تعلم حقيقة مرادهم بتلك اللفظة، على فرض وقوعها في كلامهم، هو استخدام اللفظ ليس إلا، ودليلي فضلا عمَّا ذكرته من نفي القوم لذلك قال سيدي عليٌّ ﷺ وعنا به: (إن الاتحاد لفظٌ)، و لم يقل معنًى أو حقيقةٌ، فاعلم تلك الأقوال، وعضَّ عليها بالنواجذ، واجعلها أساس تحمل عليه كلام القوم.

وانظر قول سيدي عبد الوهاب الشعراني -قدس سره- : وعندي أن هؤلاء القائلين بالاتحاد كلهم لم يصحُّ فهم اتحادٌ قطُّ إلا بالوهم، وانظر كلامهم تجده من أوله إلى آخره لا يبرح من الثنوية، فإنه لا بدَّ من مُخاطِب ومخاطَب اهـــ.

وقـــال أيضًا في ميزانه: وإيَّاك والغلط، فإنه لا حلول ولا اتحاد ولا يلحق عبد رتبة الحق أبدًا ولو صار الحـــق سمعه وبصره وجميع قواه، فإن الحق تعالى قد أثبت عين العبد معه بالضمير في قوله في الحديث القدسي: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، إلى آخر النسق.

وفي كلامـــه ﷺ ما يغني عن التعليق من نفي تلك الاعتقادات المتوهمة، وقولى المتوهمة إنما هو بالنظر للمـــنكر؛ فإننا إذا أمعنا النظر في كتابات المعترضين على أقوال الكُمَّل رضي الله عنهم نجدها منصبَّةً حول معنًى غير مقصود بالمرة للقائل، ولو ذكرت للقائل معنى تلك المقولة بتفسير المنكر لها؛ لكان من أول المنكرين لها، وأشدَّ الناس اعتراضًا عليها، فإذن تلك العقائد المعترض عليها ليس لها وجودٌ إلا في عقل المنكر؛ فإنه اعترض على ما فهمه هو، لا على حقيقة المراد باللفظ.

فـــإذن الخـــلاف ليس في المعاني، وإنما هو خلافٌ نشأ عن استخدام تلك الألفاظ، ودليلي في ذلك ما ذكرته لك من أقوال هؤلاء الأئمة، فخذ تلك القواعد واحكم عليهم بمقتضى قولهم تجدهم جميعًا أقرب الخلق إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وأعرفهم بالله ورسوله ﷺ. وأشدهم تمسكًا بكلو الله وسنة رسولهﷺ.

فإن قلت: فكيف العمل في تلك الأقوال الكثيرة المشحونة باستخدام تلك الألفاظ الموهمة؟!

أقول لك: بعد ما تقدم ذكره من القول إن لم تستطع قبول تلك الأقوال و لم تفهم المعنى الموافق للشرع الذي هو يقينًا مراد القائل فتأولها بما يوافق الشرع؛ فإن الكتب الفقهية والشرعية مليئةٌ بالتعارض والترجيحات وتأويل الأقوال والأدلة المتعارضة، فقس على ذلك، وإن لم تستطع فلا تعمل إلا بما وافق الشرع وفوض أمر ما صعب عليك إلى الله، والله هو الموفق.

واعلم يا أخي أني لم أذكر لك جميع كلام القوم في نفي الحلول والاتحاد ووحدة الوجود المتوهمة وإنما ذكرت لك طرفًا منه؛ فإنهم نبَّهوا عليه كثيرًا، فاختر يا أخي لنفسك، (**وما تشاؤن إلا أن يشاء الله**)،

=

قوله تعالى: (هو) كلمة مركبة لفظًا وبسيطة معنى؛ لأن المراد بها الهُويَّة الذاتية الأحدية؛ ولذا جعلوها من الأذكار الغيبية الليلية، وأدخلوا عليها اللام فقالوا: عالم الهوى ولا مناقشة في الاصطلاح، ووجه التركيب من الهاء والواو؛ إن الهاء من مبتدأ المخارج، كما أن الواو من منتهاها.

فكما أن الهواء المتكيِّف بكيفية الصوت يمرُّ بالمخارج كلها إلى أن ينتهي إلى الواو شفوية؛ فكذا سر الهُويَّة التأدِّي في الموجودات المرتب بعضها على بعض يتجلَّى في العوالم كلها إلى أن ينتهي إلى الإنسان؛ فيكون الإنسان وحقيقته أجمع الحقائق.

كما أن الواو أجمع الحروف من حيث مرورها بجميع الحروف ومخارجها؛ فصارت صورتا الحرف والفعل متطابقتين، فكون لفظ هو ضميرًا يدلُّ على الغيب، وكونه اسمًا يدلُّ على الشهادة؛ لأن المراد من الأسماء التعيُّنات؛ وهي من عالم الشهادة إضافية، أو حقيقية؛ ولذا كان أجلُّ الأذكار عند الأقطاب المكاشفين من حيث مكاشفتهم، وإن كانت كلمة الشهادة خير الأذكار عند المحجوبين من حيث حجابيتهم.

وفي الابتداء بالهاء؛ إشارة إلى رجوع الكل إلى تلك الهُويَّة، كما قال: وإليه ترجعون، فكل هاء تدور على هذه الهاء كما أن قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، ناظر إلى (قُلْ) [الإخلاص:١] الواقع في هذه السورة؛ لأن القرآن صفة الله تعالى، وفيها مجد وجلالة، كما أن هذه السورة مما يصرِّح بذاته العليَّة، وصفاته الجليَّة.

قوله تعالى: (الله) اسم دال على الأُلوهية؛ لكن الأُلوهية لَمَّا كانت سنام الصفات الإلهية؛ أُخذت مع الذات، وجُعلت مستجمعة لجميع الصفات، ففي هذا الاسم دلالة على تنـــزُّل الذات من مرتبة الهُويَّة إلى مرتبة الصفات؛ ليكون وسيلة إلى

=

ووالله لا ينسب القول بالحلول أو غيره من القبائح إلى القوم بعدما ذكرناه من كلام إلا معاندٌ مكابرٌ، فحمل كلامهم على مرادهم لا غير، ولا تقلد الجاهل -المتحكم على الله- في إنكاره، لأن الموطن موطن جرح وعقائد محلها القلوب، والسلامة مقدمة على الغنيمة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والسلام.

سرِّ الربوبية كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وكل منـــزَّل من التنـــزُّلات الأسمائية منطبق على ما فوقه، ومن ذلك الهاء في آخر هذا الاسم؛ لأن الصفات مشتملة على الذات، كما أن الشجرة مطوية على النواة، فكل نهاية راجعة إلى البداية بما اشتملت عليه من الحقيقة سواء كان ذلك الرجوع بواسطة أو بغيرها، والعارف يمشي على المراتب صورة، ويجري على التجريد معنى، ففيه السلامة.

(أحد): أي في ذاته؛ ومنه: أحدية السلطان فإنه ممكن، والممكن ظل الواجب، ولا يكون ظلان لذي ظل واحد، وإليه الإشارة بقوله: «**السلطان ظل الله**[1]»: أي ظلُّ الحقيقة الإلهية، فانطبق المرآتان، واستبان سرُّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فهنا رب وعبد فقط، كما أن هناك ظلاً، وذا ظل لا غير، فإذا كانت الهُويَّة أحدية في ذاتها؛ كانت الأُلوهية وصورتها أيضًا كذلك، وإلى هذا أشير بما ورد: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»[2]، وإنما أمر بقتل الأخر وإزالته؛ لأن الشركة إنما نشأت منه، فإذا قتل، رجع الأمر إلى وحدته.

ومنه: كلمة الشهادة نفيًا وإثباتًا، فاعرف.

ثم إن التصريح بالأحدي؛ إنما هو لأزالة الأوهام، وإبطال الخيالات، وإلا فلا وجود في الحقيقة إلا لموجود واحد؛ لأن الظل تابع لذي الظل، فلا وجود له في نفسه إلا صورة، والصورة لا تزاحم المعنى، كما أن البدن لا يتعدد مع الروح، إذ ليس هنا إلا ذات واحدة؛ وإنما التعدد مبني على الاعتبار؛ ولذا قال مَن قال لنا: **(من أمره)** روح وجسم؛ حيث جعل كلاً من الروح والجسم من الأمر مع أن الجسم من الخلق إذ لا يختلف الأمر من اختلاف الخلق؛ بل هما متحدان بالذات، وإن كانا مختلفين بالصفات.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (١٥٣/٤)، والبيهقي في الشعب (١٦/٦).

(٢) رواه مسلم (١٨٤٠/٣)، والبيهقي في الكبرى (١٤٤/٨).

ومن هنا قالوا: أصل العالم أمر واحد، فإذا تقرر هذا عندك؛ عرفت أن كلاً من الأسماء الثلاثة؛ وهي: (**هو**) [١]، و(**الله**)، و(**أحد**) ذكر على حدة مشتمل على حقيقة من الحقائق، وإن كان الكل يرجع إلى حقيقة الحقائق من حيث لا تعيينها، فمن كان محجوبًا؛ كان (**هو**) عنده ضميرًا؛ لأنه غائب عن الحقائق، وتجلياتها غيوبية الضمير.

ومَن كان مكاشفًا؛ كان (**هو**) عنده اسمًا؛ لأنه عند الحقائق وحاضر لديها؛ فهو (عنده)[٢] بمنـــزلة (**الله أحد**) فكن عندك، وخذ بما لك، ولا تتعد إلى حاضر غيرك نفيًا وإثباتًا، وإلا فأنت جاهلٌ بالحقائق، ذاهلٌ عن الحق الصريح، وإن كنت من أهل التقليد الحقيقي، فأنت إذًا غائب حاضر، فأفعل بذلك فلا ضير والله الهادي إلى جنابه.

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ [الإخلاص:٢]: كُرر الاسم؛ لأن الأول راجع إلى الذات، وهذا ناظر إلى الصفات؛ ومعنى الصمد: المصمود إليه.

ومنه: حال السلطان الظاهر في صورته؛ لأن الخلق من حيث كونهم رعاياه محتاجون إليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ**﴾ [فاطر: ١٥]: أي إلى الله الفرد الذي هو الحقيقة الجامعة لجميع الحقائق، فإنه مبتدأ أول لجميع التأثيرات الواقعة في الأكوان، وكذا إلى القطب الفرد الذي هو المظهر الأولى لتلك الحقيقة من حيث الاسم الباطن، وكذا إلى السلطان الفرد الذي هو ظل ذلك المظهر من حيث الاسم الظاهر.

فما من اسم من الأسماء إلا وفيه معنى الصمد؛ لكن فرق بين اسم واسم، ومن هنا ظهر التفاوت بين الخلق، فكان الرجوع إلى السلطان في المهمات أولى من الرجوع إلى مَن دونه من أهل المراتب، كما أن الرجوع إلى القطب من حيث

---

(١) للشيخ النابلسي -قدس سره- مؤلف في الكلام على بعض معاني هذا الاسم، وبيان مواضع وروده في نصوص الشرع، أسماه : (تنبيه من يلهو على علمية الاسم هو). وإن شاء الله سيطبع قريبًا ضمن بعض مؤلفات نادرة لسيدي عبد الغني رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

(٢) بالأصل (عند)

مظهريته على وجه أتم؛ أعلى من الرجوع إلى السلطان الظاهر؛ ولذا كان العلاج الروحاني أنفع من العلاج الجسماني في أكثر المواد.

وقس على ذلك الرجوع إلى الله تعالى في مقام التفريد، وأنى ذلك لكل محجوب مرتبط بالأسباب والوسائل؛ ولذا قلَّ استجابة الدعاء؛ فالمقصود إنما في جانب الداعي فبقدر حضوره في مشهده؛ يجد المطلوب، ويصل إلى المراد.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

لأنه لو كان والدًا؛ لكان متعلِّقًا، ولو كان متعلِّقًا؛ لجرى عليه الحل والحرمة، ومن ثمة قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فكان الحبيب من أهل هذا المقام، وهو لا ينافي كونه أبا الأرواح، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

فالروح والد (الجسد) [1] بواسطة، ووالد الروح؛ هو النور الإلهي بلا واسطة، كما أن والد القمر؛ هو الشمس، ووالد الشمس؛ هو ذلك النور؛ لأن نور الشمس من نور الله تعالى لا بواسطة بخلاف سائر الأنوار.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣].

لأن الولد نتيجة، والنتيجة فرع الأصل؛ فكان آدم أبو البشر عليه السلام من أهل هذا المقام؛ لأن الله تعالى خلقه لا عن أبوين، فكان على صورة خالقه؛ ولذلك كان مسجود، أو ليست السجدة إلا لله تعالى؟ ومن هنا قالوا: ظاهر الكون خلق، وباطنه حق، ومَن صفا قلبه؛ كان كأنه لم يلد و لم يولد، وإن كان والدًا ومولودًا.

قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

إذ لا أحد هنا غيره حتى يكون كفوًا له؛ إذ الموجودات كلها مظاهر أسمائه، ومجالي صفاته، وههنا كلام آخر رمزنا إليه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] كما سبق، فتفطَّن فإن المقام من المزالق، ومن الله التثبيت والتمكين.

---

(١) بالأصل : (الجد)

قال الله سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣].

اعلم أن العبد على صورة المولى وسيرته.

أمَّا الأول: فقد دلَّ عليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[١]؛ وهي الصورة الحقيقية المعنوية المدلول عليها بالصفات السبع المرتَّبة.

وأمَّا الثاني: فدلَّ عليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»[٢]: أي ظهر فيه بكمالات هَويَّته.

ولذا ورد: «**تخلَّقوا بأخلاق الله**»[٣]: أي اظهروا تلك الأخلاق والأوصاف التي أودعها الله فيكم حين التجلِّي؛ وذلك بالمجاهدات.

كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]: أي سبل المعرفة والمشاهدة؛ فإن المشاهدات تُورِّث المشاهدات.

ولا شك أن المشاهدة موقوفة على المعرفة الصحيحة، فظهر إن المجاهدة لها ثمرتان؛ المعرفة الإلهية، والمشاهدة: أي إذا كانت مجاهدة من طريق السنة كما دلَّ عليه لفظة: (في)، فخرَّج مجاهدات الفلاسفة ونحوهم؛ لأنها من طريق العقول، والتصرُّفات النفسانية لا من طريق الذِكر، واتِّباع الأنبياء وسننهم، فليس لها ثمرات يقينية مفيدة.

ولذا ضلُّوا في طريقهم، ورُدُّوا إلى أول منازلهم؛ وهو منـــزل الطبيعة التي لا نفع منها؛ فكانت رياضاتهم بمنـــزلة الاشتغال بالمأمور الخسيسة الطبيعية، فكما أن هذا الاشتغال حجب أربابه عن الوصول الروحاني؛ فكذا الرياضة المذكورة، فاعتبر من هذا إن كان لك عقل سليم.

ثم إن الإنسان الكامل الذي هو العبد الحقيقي لم يكن والدًا ولا مولودًا في الحقيقة؛ لكونه على صورة مولاه، وإنما قيل: له مولود؛ لقوله ﷺ: «**أنا من الله**»[٤]،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ذكره الجرجاني في التعريفات (١/٢١٦).

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (١/٢٢).

فأورد كلمة من؛ إشارة إلى مبدأ الظهور، فليس هناك الأخفاء دلَّ عليه قوله: «**كنت كنـــزًا مخفيًّا**»[١]، وظهور دلَّ عليه قوله: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»[٢]؛ وهو التجلِّي النوري البرقي.

وإنما قيل: له والد؛ لقوله ﷺ: «**يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة**»[٣]، فإذا كان أبًا لهذه الأمة؛ كان أبًا لِمن قبلها أيضًا؛ لأن هذه الأمة؛ هم الآخرون السابقون كما ورد في الحديث: «**والغمدة في الأمة؛ هم الذين كانوا من إله الحقيقي، وأهل بيته المعنوي**»[٤].

كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب:٣٣].

ومن هذا المقام كان سلمان ﷺ من أهل البيت، والتحق به المطهَّرون جميعًا؛ لأنهم الذين مسُّوا القرآن الحقيقي، كما قال: لا يمسه إلا المطهرون: أي من دنس التعلُّقات بما سوى الله تعالى مطلقًا، ودلَّ على ما قلنا قولهم: الولد سرُّ أبيه؛ معناه فيه ما فيه، فمَن لم يكن سرَّ أبيه؛ لم يوجد فيه ما فيه، فهو لم يكن من أولاده، ورحم الله أكامل الناس حيث قدَّموا الأولاد المعنوية على الأولاد الصورية الذين تجرَّدوا عن المعنى.

ومن ثم قسموا الهاشمية على أقسام، فإن كان الإنسان الكامل على هذه الصفة التي قررناها؛ فالجهل بحقائقه أقرب من العلم بها، فلا يعلم ما الله إلا الله، ولا يعرف الإنسان الكامل أيضًا إلا مَن كان في طبقته من المظاهر الكلية، فإن العوام والمحجوبون من هذه المعرفة؟ وهي أعمق الأشياء، وأغرب الأحوال.

ثم قال المصنف في موضع آخر:

قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١].

---

(١) ذكره الجرجاني في التعريفات (٢١٨/١٠)، والقنوجي في أبجد العلوم (١٥٩/٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) لم أقف عليه.

لطيفة: قيل لي في المنام ليلة الاثنين الثلاثين من شهر رمضان سنة ١١٢٩ هـ: إن (هو) مبهم ما لا تعيُّن له في الخارج؛ بل عهديته في الذِّهن، وإنما يُريد إبهامه ما بعده من تفسيره؛ وهو الله أحد، فهو قبل التفسير مبهم في الخارج، ومفسِّر في نفس الأمر، وإنما جاء الإبهام من حيث المراتب، ففيه إشارة إلى قوله تعالى: «**كنت كنزًا مخفيًّا، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف**»[1]، فإنه تعالى كنزًا مخفيًّا قبل خلق الخلق، فكان ظهوره بذاته في ذاته؛ فكان خلق الخلق كالتفسير له بحيث كان ظاهرًا لغيره أيضًا.

فالأول: مرتبة الجلاء.

والثاني: مرتبة الاستجلاء.

فمَن قصر نظره؛ لم يرَ العالم إلا كالضمير المبهم، ومَن كاشف عن حقيقة الحال؛ لم يكن عنده مبهم، فإن الحق تعالى كشف عن ذاته وصفاته وأسمائه؛ ولذا قال: ﴿**شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [آل عمران:١٨].

فالهَويَّة كانت ظاهرة للحق قبل خلق الخلق، وباطنة للخلق، وبعده كانت ظاهرة للخلق أيضًا، فباطن الحق ظاهر الخلق، وبالعكس على هذا نفس الإنسان الكامل؛ فإنه بمنزلة ضمير هو في إبهامه وتفسيره، وليس تفسيره إلا الكرامات العلمية المتعلِّقة بحقائق الذات، والصفات، والأفعال؛ وهو القرآن الفعلي، والضمير المفسَّر، والهَويَّة الظاهرة بآثاره، والباطنة بحقائق ذاته.

ومَن أنكره؛ فقد أنكر القرآن، ومَن أنكر القرآن؛ فقد أنكر الحق بذاته وصفاته، فإن القرآن ذات وصفة، فإن الصفة لا تقوم إلا بالذات، ولا تنجلِّي إلا بالمحلِّ؛ فلذا قال بعض الأكابر: أنا القرآن والسبع المثاني، ففيه أسرار الحروف والكلمات، والآيات والسور، فإنه حرف عملي روحانية، وآية مثالية، وسورة جسمانية.

وهذا مراد مَن قال: مَن أراد أن يجلس مع الله تعالى (واصطنعته لنفسه) وجعله

---

(١) تقدم تخريجه.

مجلى لصوَّر كمالاته، فمَن رآه فقد رأى الحق، ومَن عمى عنه فقد عمى، وكم ترى في كل عصر مَن يُقبِّل المصحف صباحًا ومساءً بناءً على أنه كلام الله، ويستحقر الإنسان الكامل مع أنه سرُّ ذلك المصحف، ولو كان عالمًا به فاستحقره؛ لمُسخ مسخ الأمم الأولى؛ لكن قد يعذر بالجهل، وذلك من رحمة الله تعالى بعباده؛ ولذا ستر الله الأقطاب في كل عصر إلا عن أهل المعرفة.

فالمحجوب ينظر إليهم وهو لا يبصرهم؛ وإنما يبصر البشر، والمكاشف ينظر إليه ويبصرهم على أنهم صورة الحق تعالى.

وليس لله تعالى تجلٍّ إلا في مرائيهم وعلى صورهم، ومن ينظر إلى الله وهو مجرَّد عن النعوت، فقد طلب المحال، كما أن مَن أرد أن ينظر إلى الروح بدون توسُّط مرآة البدن؛ فقد ضرب حديدًا باردًا، فإنه لا يتيسَّر إلا بالمرآة، ومرآته الجسم.

ومن هذا ظهر أن الإنسان الكامل رداء الحق، فهذا الرداء لا يزول عن المرتدي أبدًا، وهو ليس بحجاب له، كما أن المرآة كذلك مع القناع.

فعليك بفهم هذا المقام، وكُن مع أهل العافية والسلام.

واعلم أن الله ليس منه أثر على الكون في الحقيقة، وكذا الكون ليس منه أثر على الحياة في نفس الأمر، وهو غنيٌّ عن العالمين[1].

***

(١) انتهى الجزء الأول وهو الخاص بالآيات القرآنية، وإليك الجزء الثاني وهو الخاص بالأحاديث والواردات واللطائف، والله الموفق والمعين.